الإسلام والحضارة العربية

الجزء الثاني

تأليف

محمد كرد علي



الإسلام والحضارة العربية

تأليف

محمد كرد علي

الجزء الثاني

فهرس الجزء الثانى

صفحة

العلوم والمذاهب فى الإسلام

أصول الشريعة وتأسيس المذاهب :

كان خاصة الصحابة علماء بالشريعة ، أخذوا علمهم عن الشارع الأعظم ، فتعلموا القرآن ، وتلقنوا السنة بطول الاختلاط بصاحبها ، أو بالرواية الصحيحة عن ثقات الناقلين عنه ، والقرآن معدن الأحكام ، وهو المرجع الوحيد الذى لا يختلف فيه اثنان من أهل القبلة ، والسنة مفسرة له ، وهى مجموع ما صدر عن الرسول صلى الله عليه وسلم من قول ، أو عمل ، أو تقرير ، والعبادات تعلم بالعمل يعرفها الخاص والعام ، وإذا أشكل فيها أو فى المعاملات شىء رُجع إلى العارفين من الصحابة والتابعين وتابعى التابعين والقضاة الذين يوليهم الخليفة ، وكانوا يدعون القضاء حكومة .

كانوا إذا عرض لهم حادث يضطرون إلى القضاء فيه ، يحكمون العقل واللغة لتفهم الشرع واستنباط ما لا يجدون فيه نصاً صريحاً ، ولا معوّل لهم إذا اختلفوا فى شىء على غير هذين الأصلين الكتاب والسنة . وكان الممتازون من الصحابة وغيرهم فى هذا الضرب من العلم يعرفون أنفسهم ويعرفهم الناس ، وهم المرجع فى القضاء والفتيا بين المؤمنين ، فى مصالحهم الدينية والدنيوية . يبعث الرسول ثم الخلفاء من بعده بأقضى القراء إلى الأمصار ، يحكمون بين الناس ويعلمونهم دينهم ، ولم تخل بلدة من البلاد التى دخلها الإسلام من نزول بعض الصحابة المدركين فيها ، كانوا لأهلها مناراً ، وعلى الشريعة أمناء ، وفى الدعوة إلى الدين مؤمنين صادقين ، يقرأون القرآن ، ويعلمون الشرائع والأحكام ، وإذا لم يجدوا نصاً صريحاً فى القرآن ، ولا نصاً معتمداً من السنة ، يعمدون إلى القياس أو الرأى .

يقول ابن تيمية[1] ما من مسألة إلا وقد تكلم فيها الصحابة أو فى نظيرها ؛ فإنه لما فتحت البلاد وانتشر الإسلام حدثت جميع أجناس الأعمال ، فتكلموا فيها بالكتاب والسنة ، وإنما تكلم بعضهم بالرأى فى مسائل قليلة ، والإجماع لم يكن يحتج به عامتهم ولا يحتاجون إليه ، إذ هم أصل الإجماع فلا إجماع قبلهم . ثم ذكر كيف كان التابعون يقضون بالكتاب والسنة وبما قضى به الصالحون ، قال وهذا هو القضاء وهذا هو الصواب . ولما بعث الرسول معاذ بن جبل إلى اليمن قال : « بمَ تقضى إن عرض لك قضاء ؟ » — قال : أقضى بما فى كتاب الله . قال : « فإن لم يكن فى كتاب الله . قال : أقضى بما قضى به الرسول . قال : فإن لم يكن فيما قضى به الرسول . قال : أجتهد رأيى ولا آلو . قال : فضرب صدرى وقال : « الحمد لله الذى وفق رسول رسول الله لما يرضى رسول الله » .

وكان الشيخان يسألان أصحابهما إذا أرادا أن يبتا برأيهما فى أمر أشكل عليهما . وكتب عمر إلى قاضيه شريح : « أما بعد إذا جاءك شىء فى كتاب الله فاقض به ، ولا يلفتنك عنه الرجال ، فإن جاءك أمر ليس فى كتاب الله ، فانظر سنة رسول الله فاقض بها ، فإن جاءك أمر ليس فى كتاب الله ولم يكن ما ليس فى كتاب الله ولم يكن فيه سنة من رسول الله ، ولم يتكلم فيه أحد قبلك ، فاختر أى الأمرين شئت ، إن شئت أن تجتهد رأيك وتقدم فتقدم ، وإن شئت أن تأخر فتأخر ، ولا أرى التأخير إلا خيراً » اهـ . وأراد عمر قاضيه أن يترك أمداً للخصوم علهم يتصالحون ، ومما أثر عنه قوله : « ردوا الخصوم حتى يصطلحوا ، فإن فصل القضاء يورث الضغائن بين الناس » .

ولعمر كتب كثيرة صدرت عنه فى القضاء وغيره ، ومما أبقته الأيام كتابه إلى أبى موسى الأشعرى (عبد الله بن قيس) وإليكه بنصه المعجب الذى لم تبل الأيام جدته : « بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عمر بن الخطاب

---

(١) معارج الوصول لابن تيمية .

أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس ، سلام عليك . أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة ، وسنة متبعة ، فافهم إذا أدلى إليك ، وأنفذ إذا تبين لك ، فإنه لا ينفع تكلم بحق لا نفاذ له ، آس بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك ، حتى لا يطمع شريف فى حيفك ، ولا ييأس ضعيف من عدلك . البينة على من ادعى ، واليمين على من أنكر ، والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً ، أو حرم حلالا ، ولا يمنعنك قضاء قضيته بالأمس ، فراجعت فيه عقلك ، وهديت لرشدك ، أن ترجع إلى الحق ، فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل . الفهمَ الفهمَ فيما تلجلج فى صدرك ، مما ليس فى كتاب ولا سنة ثم اعرف الأشباه والأمثال ، وقس الأمور عند ذلك بنظائرها . واعمد إلى أقربها إلى الله وأشبهها بالحق ، واجعل للمدعى أمداً ينتهى إليه . فإن أحضر بينته أخذت له بحقه ، وإلا استحللت عليه القضية ، فإنه أنفى للشك وأجلى للعمى . المسلمون عدول بعضهم على بعض ، إلا مجلوداً فى حد ، أو مجرباً عليه شهادة زور ، أو ظنيناً فى ولاء أو نسب ، فإن الله تولى منكم السرائر ، ودرأ بالبينات والإيمان . وإياك والغَلَق[1] والضجر والتأذى بالخصوم ، والتنكر عند الخصومات ، فإن الحق فى مواطن الحق يعظم الله به الأجر ، ويحسن به الذخر ، فمن صحت نيته وأقبل على نفسه ، كفاه الله ما بينه وبين الناس . ومن تخلق للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه ، شانه الله ، فما ظنك بثواب الله فى عاجل رزقه وخزائن رحمته والسلام » .

وكتب إلى أبى عبيدة : « أما بعد فإنى كتبت إليك بكتاب لم آلك ونفسى فيه خيراً ، الزم خمس خلال يسلم لك دينك ، وتحظ بأفضل حظك . إذا حضرك الخصمان فعليك بالبينات العدول ، والأيمان القاطعة ، ثم أدن الضعيف حتى ينبسط لسانه ويجترئ قلبه ، وتعاهد الغريب فإنه إذا طال حبسه ترك حاجته ، وانصرف إلى أهله ، وإذا الذى أبطل حقه من لم يرفع به رأساً ، واحرص على الصلح ما لم يتبين لك القضاء والسلام عليك » وكتب إلى معاوية وغيره بهذا المعنى .

(١) الغلق : ضيق الصدر .

فعمر هو الذى وضع أساس النُّظُم الإسلامية فى القضاء ونهج طريقه ، وبقدر ما يحدث للناس من حوادث كانت تتفرع المسائل ، ولكنه «لم يوضع[١] للتشريع أسلوب مقرر لا يجوز تعديه ، فترك لكل ناظر الخيار فى انتخاب أسلوبه ، فلذلك تخالفت أساليبهم إلى حد بعيد ، وأشد ما تكون تخالفاً بين أصحاب الرأى والقياس ، وكانوا يرون أن القياس أولى بالاتباع من الأحاديث التى رواتها الآحاد ، ولم يصح عندهم من الأحاديث التى رواتها جماعة أى المتواترة التى لا عذر لأحد فى الشك فيها إلا بضعة عشر حديثاً » وذم على ابن أبى طالب اختلاف العلماء[٢] فى الفتيا بقوله « ترد على أحدهم القضية فى حكم من الأحكام فيحكم فيها برأيه ، ثم ترد تلك القضية بعينها على غيره فيحكم فيها بخلافه ، ثم يجتمع القضاة بذلك عند الإمام الذى استقضاهم فيصوب آراءهم جميعاً ، وإلههم واحد ، ونبيهم واحد ، وكتابهم واحد » ، وقال فى صفة من يتصدى للحكم بين الأمة وليس لذلك بأهل : « وإن أظلم عليه أمر اكتتم به لما يعلم من جهل نفسه ، تصرخ من جور قضائه الدماء ، وتعج المواريث » . « وانتشرت[٣] أحكام على وفتاويه ولكن الشيعة أفسدوا كثيراً من علمه بالكذب عليه ، ولهذا تجد أصحاب الحديث من أهل الصحيح لا يعتمدون من حديثه وفتاواه إلا ما كان من طريق أهل بيته ، وأصحاب عبد الله بن مسعود كعبيدة السلمانى وشريح وأبى وائل ونحوهم » .

والواقع أن الصحابة كانوا يعملون « بمقتضى[٤] ما يغلب على ظنونهم من المصلحة ولم يقفوا مع موارد النصوص حتى اقتدى بهم الفقهاء من بعد ، فرجح كثير منهم القياس على النصوص حتى استحالت الشريعة وصار أصحاب القياس أصحاب شريعة جديدة » (كذا) وقد كان رسول الله يخالف فلا ينكر . ولا يرى بأساً فيما كان به مصلحة لله والملة ، فقد خالفه عمر فى أخذ الفداء

(١) الإسلام دين عام خالد لمحمد فريد وجدى . (٢) نهج البلاغة جمع الشريف الرضى .
(٣) إعلام الموقعين لابن قيم الجوزية . (٤) نهج البلاغة بشرح ابن أبى الحديد .

من أسارى بدر فرجع إلى تصويب رأيه ، وأراد الرسول أن يصالح الأحزاب على ثلث تمر المدينة ليرجعوا عنه فأتى سعد بن معاذ وسعد بن عبادة فخالفاه فرجع إلى قولهما . وقال لأبى هريرة اخرج فناد فى الناس : من قال لا إله إلا الله مخلصاً بها قلبه دخل الجنة ، فخرج أبو هريرة فأخبر عمر بذلك ، فدفعه فى صدره حتى وقع على الأرض فقال : لا تقلها فإنك إن تقلها يتكلوا عليها ويدعوا العمل ، فأخبر أبو هريرة الرسول بذلك . فقال لا تقلها ودعهم يعملون . وأسقط الصحابة سهم ذوى القربى وسهم المؤلفة قلوبهم ، وعملوا حد الخمر اجتهاداً ولم يحد الرسول شاربى الخمر ، وقد شربها الجم الغفير فى زمانه بعد نزول آية التحريم .

يقول السرخسى إن « مرجع[1] الناس فى أمر دينهم ودنياهم كتاب الله وسنة رسوله ، فإذا اشتبه عليهم أمر من الأمور رجعوا إلى الخلفاء وفقهاء الصحابة واستخاروا الله فيه ، واستظهروا باجتهادهم رأياً عملوا به ؛ وقد كانوا لا يكتبون أقوال النبى وفتاوى الصحابة خشية أن يجرهم ذلك إلى الاعتماد على الكتب ، وإهمال حفظ القرآن الكريم والسنة ، ولأن الكتاب عرضة للضياع وللتصحيف والتحريف » . ولما « تعددت المذاهب وكثرت الأقوال والفتاوى ، والرجوع فيها إلى الرجال والرؤساء ، ومات أكثر الصحابة ، خافوا أن يعتمد الناس على رؤسائهم ويتركوا سنة رسول الله فدونوا الحديث » .

وحفظت الفتوى[2] من أصحاب الرسول عن مائة ونيف وثلاثين نفساً ما بين رجل وامرأة والمكثرون منهم سبعة ؛ عمر وعلى وابن مسعود وعائشة وزيد ابن ثابت وابن عباس وابن عمر . وكان الناس فى عصر التابعين يكرهون الخوض بالرأى ويهابون الفتيا والاستنباط إلا لضرورة لا يجدون عنها بداً ، وكان أكبر همهم رواية الحديث . واختلفت مذاهب الأصحاب وأخذ عنهم التابعون كذلك كل واحد ما تيسر له ، فحفظ ما سمع من الحديث ومذاهب

---

(١) المبسوط للسرخسى .   (٢) الفتوى فى الإسلام لجمال القاسمى .

الصحابة وعقلها وجمع المختلف على ما تيسر له ، ورجح بعض الأقوال على بعض واضمحل فى نظرهم بعض الأقوال ، فعند ذلك صار لكل عالم من علماء التابعين مذهب على حياله . والقول بمذهب الواحد من الناس ، واتخاذ قوله والحكاية له والتفقه على مذهبه ، لم يكن معهوداً للناس فى القرنين الأول وصدر الثانى ، ثم حدث فيهم شيء من التخريج ولم يكن أهل المئة الرابعة مجتمعين على التقليد الخالص على مذهب واحد والتفقه له والحكاية لقوله ، وكان لا يتولى القضاء ولا الإفتاء إلا مجتهد ولا يسمى الفقيه إلا مجتهداً .

وكان الخلفاء الراشدون أئمة مهديين فقهاء فى الأحكام(١) ، مستقلين بالفتاوى فى الأقضية ، فكانوا لا يستعينون بالفقهاء إلا نادراً فى وقائع لا يستغنى فيها عن المشاورة ، فتفرغ العلماء لعلم الآخرة وتجردوا إليها ، وكانوا يتدافعون الفتاوى ، وما تعلق بأمور الخلق فى الدنيا ، فلما أفضت الخلافة إلى أقوام تولوها بغير استحقاق ، ولا استقلال بعلم الفتاوى والأحكام ، اضطروا إلى الاستعانة بالفقهاء ، وإلى استصحابهم فى جميع أحوالهم ، لاستفتائهم فى أحكامهم ، وكان قد بقى من علماء التابعين من هو مستمر على الطراز الأول ، مواظب على سمت علماء السلف ، فكانوا إذا طلبوا هربوا وأعرضوا ، فاضطر الخلفاء إلى الإلحاح فى طلبهم لتولى القضاء والحكومات ، وكانوا يستقضون أنفذ الناس وأعلمهم وأحلمهم . والذين كانوا يتدافعون الفتاوى ، ويتحرجون من تولى الأحكام الشرعية ، كان مرماهم أن يربأوا بدينهم عن أن يتورطوا فى حكم لا ترضى عنه أنفسهم ، ويخافون مغبته على الإسلام والمسلمين ، لما ورد عن الشارع الأعظم من الوعيد لمن جعل قاضياً ، وحكم بغير العدل ، وكان القضاة لا يستغنون أن يجلس إليهم بعض العلماء يقومونهم إذا أخطأوا .

لما قدم مروان(٢) مصر سأل عن القاضى فقيل هو عابس بن سعيد فدعاه . فقال : « أجمعت القرآن ؟ قال : لا . قال : فتفرض الفرائض ؟ قال : لا . قال : فتكتب بيدك ؟ قال : لا . قال : فبم تقضى ؟ قال : أقضى بما علمت ،

(١) إحياء علوم الدين للغزالى . (١) الولاة والقضاة للكندى .

وأسأل عما جهلت . قال: أنت القاضي » . « وكانت(١) القراءة والفقه والتفسير والحديث فى أول الإسلام علما واحداً ، فجعلت تتميز على توالى الأيام . إلى أن أصبح كل علم مستقلا عن أخيه . فلما استقل الفقه سمى أصحابه الفقهاء ، وكانوا قبلا يسمون بالقراء ، تعظيما لشأن القراءة التى كان يجهلها العرب فى فى أول أمرهم » ولما تم تأثير الصحابة ومن بعدهم من التابعين وتابعى التابعين فى البلدان التى نزلوها « أتى بعد(٢) التابعين فقهاء الأمصار كأبى حنيفة ومالك وغيرهما ، فاتّبع أهل كل مصر مذهب فقيهه فى الأكثر ، ثم قضت أسباب بانتشار بعض المذاهب فى غير أمصارها ، وبانقراض بعضها ، فلم يطل العمل بمذهب الثورى والبصرى لقلة أتباعهما ، وبطل العمل بمذهب الأوزاعى بعد القرن الثانى ، وبمذهب أبى ثور بعد الثالث وابن جرير بعد الرابع كما انقرض غيرها من المذاهب ، إلا الظاهرى فقد طالت أيامه وزاحم الأربعة ، بل جعله المقدسى فى أحسن التقاسيم رابع المذاهب فى زمنه أى فى القرن الرابع بعد الحنبلى ، وذكر الحنبلية فى أصحاب الحديث ، وعده ابن فرحون فى الدباج الخامس من المذاهب المعمول بها فى زمنه أى فى القرن الثامن ، ثم درس بعد ذلك ولم يبق إلا الأربعة ، ومذاهب أخرى خاصة بطوائف من المسلمين لا يعدها جمهورهم من مذاهب أهل السنة » وتأصل مذهب مالك والشافعى وابن حنبل وأبى حنيفة بسلطان تلاميذهم وأنصارهم ، وراح كل ملك يحرص على نشر مذهبه ، إذا مُكّن له فى الأرض ، بادر الناس إلى الأخذ بمذهبه ، وحرصوا على اتباع ملكهم أو أميرهم حرصهم على اتباع إمامهم . يقول ابن حزم : إن مذهبين انتشرا فى بدء أمرهما بالرياسة والسلطان : الحنفى بالمشرق ، والمالكى بالمغرب .

والاختلاف بين أهل هذه المذاهب لا يتعدى الفروع ، أما الأصول فكل أهل القبلة متفقون عليها ويقول ابن القيم : إن الصحابة تنازعوا فى كثير

(١) القضاء فى الإسلام للكندى .

(٢) نظرة تاريخية فى حدوث المذاهب وانتشارها لأحمد تيمور .

من الأحكام ولكن لم يتنازعوا فى مسألة واحدة من مسائل الأسماء والصفات والأفعال أى المسائل التى تتعلق بالإيمان ، وصرح الذهبى[١] أن بعض الصحابة كفر بعضهم بتأويل ما ، والله يرضى عن الكل ويغفر لهم فما هم بمعصومين ، وإن الصحابة بساطهم مطوى وإن جرى ما جرى وإن غلطوا كما غلط غيرهم من الثقات ، فما كاد يسلم أحد من الغلط ، لكنه غلط نادر لا يضر أبداً ، إذ على عدالتهم وقبول ما نقلوه العمل ، وأما التابعون فيكاد يعدم فيهم من يكذب ولكن لهم غلط وأوهام ، وكان المسلمون كلمة واحدة فى أبواب العدل[٢] والتوحيد والوعد والوعيد وفى سائر أصول الدين ، وإنما كانوا يختلفون فى فروع الفقه كميراث الجدّ مع الإخوة ، والأخوات مع الأب ، والأم مع الأب ، وكمسائل العدل والكلالة والرد وتعصيب الأخوات من الأب والأم ، أو من الأب مع البنت أو بنت الابن ، وكاختلافهم فى جر الولاء فى مسألة الحرام ونحوها ، وأهل السنة والجماعة من فريقى الرأى والحديث وفقهاء هذين الفريقين وقراؤهم ومحدثوهم ، ومتكلمو أهل الحديث منهم ، كلهم متفقون على مقالة واحدة فى توحيد الصانع ، وفى النبوّة والإمامة ، وفى أحكام العقبى ، وفى سائر أصول الدين ، وإنما يختلفون فى الحلال والحرام من فروع الأحكام .

ولقد خالف ابن عباس عمر وعلياً وزيد بن ثابت وكان أخذ عنهم ، وخالف كثير من التابعين بعض الصحابة وإنما أخذوا العلم عنهم ، وخالف مالك كثيراً من أشياخه ، وخالف الشافعى وابن القاسم وأشهب مالكاً فى كثير من المسائل . قال ابن الأزرق وكان مالك أكبر أساتيذ الشافعى وقال لا أحد أمّن علىّ من مالك كاد كل من أخذ العلم عنه يخالفه بعض تلامذته فى عدة مسائل ، وماعد ذلك من سوء أدب التلميذ مع شيخه ولا من الخروج عن مراجعة الحق الذى توزعته عقول الناس ونال كل منهم قسطاً منه .

---

(١) خمس رسائل نادرة .

(٢) الفرق بين الفرق لأبى منصور البغدادى .

والغالب أن العارفين كانوا حتى فى القرن الثانى غير راضين عن هذا الاختلاف . ويرون وضع كتاب جامع يرجع إليه رجال القضاء وغيرهم ، تخفيفاً عن القضاة ، وتيسيراً للمتقاضين . وقد كتب ابن المقفع إلى الخليفة المنصور على الأرجح يقول له من[1] كتاب : « ومما ينظر أمير المؤمنين فيه من أمر هذين المصرين (البصرة والكوفة) وغيرهما من الأمصار والنواحى ، اختلاف هذه الأحكام المتناقضة التى قد بلغ اختلافها أمراً عظيما فى الدماء والفروج والأموال ، فيستحل الدم والفرج بالحيرة ، وهما يحرمان بالكوفة ، ويكون مثل ذلك الاختلاف فى جوف الكوفة ، فيستحل فى ناحية منها ، ويحرم فى ناحية أخرى ، غير أنه على كثرة ألوانه نافذ فى المسلمين فى دمائهم وحرمهم ، يقضى به قضاة جائز أمرهم وحكمهم ، مع أنه ليس مما ينظر فى ذلك من أهل العراق وأهل الحجاز فريق إلا قد لج بهم العجب بما فى أيديهم ، والاستخفاف ممن سواهم ، فأقحمهم ذلك فى الأمور التى يشنع بها من سمع من ذوى الألباب .

« أما من يدعى لزوم السنة منهم ، فيجعل ما ليس له سنة سنة ، حتى يبلغ ذلك منه إلى أن يسفك الدم بغير بينة ، ولا حجة على الأمر الذى يزعم أنه سنة ، وإذا سئل عن ذلك لم يستطع أن يقول هريق فيه دم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم أو أئمة الهدى من بعده ، وإذا قيل له أى دم سفك على هذه السنة التى تزعمون . قالوا : فعل ذلك عبد الملك بن مروان أو أمير من بعض أولئك الأمراء . وأما من يأخذ بالرأى فيبلغ به الاعتزام على رأيه أن يقول فى الأمر الجسيم من أمر المسلمين قولا لا يوافقه عليه أحد من المسلمين ، ثم لا يستوحش لانفراده بذلك وإمضائه الحكم عليه ، وهو مقر أنه رأى منه لا يحتج بكتاب ولا سنة ، فلو رأى أمير المؤمنين أن يأمر بهذه القضية والسير المختلفة ، فترفع إليه فى كتاب ، ويرفع معها ما يحتج به كل قوم من سنة أو قياس ، ثم نظر أمير المؤمنين فى ذلك وأمضى فى كل قضية رأيه الذى يلهمه الله ، ويعزم له عليه ، وينهى عن القضاء بخلافه ، وكتب بذلك كتاباً جامعاً ،

---

(١) رسائل البلغاء للمؤلف .

لرجونا أن يجعل الله هذه الأحكام المختلطة الصواب بالخطأ حكماً واحداً صواباً ، ورجونا أن يكون اجتماع السير قربة لإجماع الأمر برأى أمير المؤمنين وعلى لسانه ، ثم يكون ذلك من إمام آخر ، آ. ر الدهر إن شاء الله .

« فأما اختلاف الأحكام فإما شيء مأثور عن السلف غير مجمع عليه ، يدبره قوم على وجه ، ويدبره آخرون على وجه آخر ، فينظر فيه إلى أحق الفريقين بالتصديق ، وأشبه الأمرين بالعدل ، وإما رأى أجراه أهله على القياس فاختلف وانتشر ما يغلط فى أصل المقايسة ، وابتداء أمر على غير مثاله ، وإما لطول ملازمته القياس ، فإن من أراد أن يلزم القياس ولا يفارقه أبدا فى أمر الدين والحكم وقع فى الورطات ، ومضى على الشبهات ، وغمض على القبيح الذى يعرفه ويبصره ، فأبى أن يتركه كراهة ترك القياس ، وإنما القياس دليل يستدل به على المحاسن ، فإذا ماكان يقود إليه حسنا معروفاً أخذ به ، وإذا قاد إلى القبيح المستنكر ترك ، لأن المبتغى ليس غير القياس يبغى ، ولكن محاسن الأمور ومعروفها ، وما ألحق الحق بأهله » .

والأرجح أن هذه الرسالة أثرت فى المنصور فكانت له يد طولى فى سبيل التدوين ، فحمل الفقهاء والمحدثين على تدوين ما وصل إليهم ، فأصبح للناس مراجع معتمدة يرجعون إليها ، وقلت الفوضى بعض الشيء ودخلت الأحكام فى نظام . روى ابن سعد فى الطبقات عن مالك بن أنس قال : لما حج المنصور قال لى : قد عزمت على أن آمر بكتبك هذه التى وضعتها فتنسخ ، ثم أبعث إلى كل مصر من أمصار المسلمين منها نسخة وآمرهم أن يعملوا بما فيها ولا يتعدوه إلى غيره . فقلت : يا أمير المؤمنين لا تفعل هذا ، فإن الناس قد سبقت إليهم أقاويل ، وسمعوا أحاديث ورووا روايات ، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم ، ودانوا به ، فدع الناس وما اختار أهل كل بلد منهم لأنفسهم . اهـ .

وعلى هذا لم توحد مذاهب البلاد ، ولو تم ذلك لاستراح الناس ، وحصروا الجهد فى جهة معينة ، وقل الأخذ والرد وبطل انتصار كل واحد لمذهبه

وإمامه ، مما أدى إلى فتن سنلم بها عما قريب . وآخر من وقعت إلينا سيرته من أصحاب السلطان الذين عرفوا مضار هذه الاختلافات ، والشرع واحد والأصل واحد ، الوزير ابن هبيرة من علماء الحنابلة . رأى هذا الاختلاف بين الفقهاء وقدر الضرر تقدير الإدارى الحازم والحاكم العادل ، فصنف فى وزارته كتاباً فى مسائل الفقه المتفق عليها والمختلف فيها بين الأئمة الأربعة المشهورين ، وجمع عليه أئمة المذاهب وأوفدهم من البلدان إليه لأجله ، وحدث به ، وجمع الخلق العظيم لسماعه . وكتب به نسخة لخزانة المستنجد وبعث ملوك الأطراف ووزراؤها وعلماؤها فاستنسخوه ليقضوا به على فوضى المسائل الفقهية فى بلادهم . وقيل إن الوزير ابن هبيرة أنفق على هذا مئة ألف واثنى عشر ألف دينار ، وما أمكن التوحيد بين أهل التوحيد .

ولقد ثبتت مذاهب وانتشرت ، وتداعت أخرى وانقرضت ، وما كان ثبات الثابتة لشيء لم يكن فى غيرها ، ولا انقراض المنقرضة لأنها غير صالحة للبقاء ، فالمصدر واحد والاجتهاد مختلف فى بعض المسائل ، وما كان يروع المسلمين الخلاف بين المجتهدين مهما كان بعيد المدى وجعلوا ذلك علماً خاصاً ، سموه علم الخلاف ، يتدارسونه كما يتدارسون أصول الفقه ، وقالوا إن اختلاف الأئمة رحمة، قال الغزالى فى المستصفى : أشرف العلوم ما ازدوج فيه العقل والسمع ، واصطحب فيه الرأى والشرع ، وعلم الفقه وأصوله من هذا القبيل ، فإنه يأخذ من صفو الشرع والعقل سواء السبيل ، فلا هو تصرف بمحض العقول بحيث لا يتلقاه الشرع بالقبول ، ولا هو مبنى على محض التقليد ، الذى لا يشهد له العقل بالتأييد والتشديد . ومن الأسباب فى انقراض مذهب الأوزاعى والحسن البصرى والثورى وابن جرير وغيرهم عدم التوسع فى الفروع ، وإطالة المسائل ، كما كان عليه الإمام محمد وأبو يوسف وأمثالها من أصحاب أبى حنيفة ، فإنهما دونا من الكتب ككتب ظاهر الرواية وغيرها ما بقى إلى اليوم متداولا فى الأيدى ، ومسائل الأصول تسمى ظاهر الرواية ، وهى مسائل مروية عن أصحاب المذاهب ، وسميت بظاهر الرواية لأنها رويت

عن الأئمة بروايات الثقات ، فهى ثابتة عنهم ، إما متواترة أو مشهورة عنهم ، وكذلك دون مالك والشافعى وابن حنبل أو من أخذ عنهم ، وجمع ما تفرق ، وفسر ما أبهم .

وما زال الأمر يتسع حتى نضج الفقه فى القرن الرابع ، وظل على نضجه مدة ثم أخذ فى الضعف لانحطاط العلماء ، بحيث أصبحوا غير قادرين على استخراج الأحكام بأنفسهم ، فقال بعض الفقهاء ومنهم ابن الهمام باغلاق باب الاجتهاد — « والاجتهاد[1] » بذل الجهد فى استنباط الحكم الشرعى مما اعتبره الشارع دليلا ، وهو كتاب الله وسنة نبيه — وبالأخذ « بالتقليد » وهو تلقى الأحكام من إمام معين واعتبار أقواله كأنها من الشارع نصوص يلزم المقلد اتباعها . ولما أوصدوا باب الاجتهاد حتى على من تمت أدوات العلم فيه حجروا على العقل « وجعلوا الشريعة قاصرة لا تقوم بمصالح العباد ، محتاجة إلى غيرها ، وسدوا على أنفسهم طرقاً صحيحة من طرق معرفة الحق » كما قال ابن قيم الجوزية وتكلم على الاجتهاد والتقليد وما أدخله المتأخرون من الحيل التى يتعالى أئمة المذاهب عن القول بها ، وهى ملسوسة لا محالة ، وذكر فصلا ممتعاً فى تغير الفتوى واختلافها بحسب تغير الأزمنة والأمكنة والأحوال والنيات والعادات مما وقع بسبب الجهل به غلط عظيم على الشريعة أوجب الحرج والمشقة وتكليف ما لا سبيل إليه .

ونسوا أن من المسائل ما هو « سياسة جزئية بحسب المصلحة تختلف باختلاف الأزمنة » . « وأن الكتب العظيمة التى أبقاها عظماء الفقهاء صارت أثراً بعد عين ، وقصر الفقهاء همهم على الكتب التى كتبها أصحابها فى عصر التقهقر . وقد ضعفت سليقتهم العربية فتحول كلامهم إلى ما يشبه الألغاز ، فكأن المؤلف لم يكتب ليفهم بل ليجمع » ثم « إن كثرة[2] الاختلاف بين المخرجين

---

(١) تاريخ التشريع الإسلامى لمحمد الخضرى .

(٢) أشهر مشاهير الإسلام لرفيق العظم .

والمرجحين ، حتى على المسألة الواحدة ، جعل علم الحقوق أشبه برموز لا يتيسر لأحد من الناس أن يتناول منه حكماً جازماً إلا بواسطة الفقهاء والمفتين ، وقليل من الناس المعصوم عن الخطأ أو الغرض ، فيحلل أحدهم من طريق أحد المرجحين ما يحرمه الآخر من طريق غيره ، هذا بين علماء المذهب الواحد ، فما بالك بتعدد المذاهب أيضاً » وربما قصدوا بهذه الرموز إبعاد الدخلاء فى العلم حتى لا يكون العلم فوضى . ولأجل هذا أنشأ الأمويون فى قرطبة فى القرن الثالث دار شورى القضاء تبت بين العلماء فى تقرير الأحكام وقد خالفت الإمام مالكاً فى عدة أحكام أخذت فيها بقول أبى قاسم .

وإن اقتصار الفقهاء المتأخرين على فقه من نقلوا عن إمامهم وحده ، دون إتقان الآداب العربية والتاريخ وتقويم البلدان والحديث والأصول والفلسفة ، زاد فى ضعف ملكاتهم وأورثهم جموداً ، وما كان فى العهد الماضى يحرز الرجل لقب فقيه « إلا بالرحلة والتلقى من علماء الأمصار سوى علماء بلده يرحلون فى تلقى الحديث والفقه ، وكانت مكة تجمعهم فى الموسم فيستفيد كل من الآخر ما عنده من علم وحديث وفكر » . وأصبح العلم الدينى فى القرن التاسع ظاهر الضعف فى بعض مظاهره ، ليس فيه إلا شرح كتاب للمتقدمين ، أو ذيل على شرح لأحد المشهورين ، أو جمع متفرق ، أو تلفيق مجتمع ، أو اختصار مطول ، قلما تجد فيه أثراً للبحث أو للعقل ، وأصبح المبرزون من العلماء يعدون فى كل قرن على أصابع اليد فى بلاد الإسلام ، وحال رجال كل قرن أضعف ممن تقدموهم ، وفشت البدع والضلالات ولا من ينكر ، بل جاء من المتفقهين والمحدثين من شاركوا المتصوفين والمخرفين . وقصارى رجال الدين تولى المناصب الدينية ينشدونها من أصحاب السلطان ، وكانوا فى القرون الخالية لا يتطلب الخلفاء غير رضاهم .

« ولضيق عقول أكثر هذه الطبقة من المتفقهة على الناس قرروا[1] أن المتأخر

(١) الإسلام والنصرانية لمحمد عبده .

ليس له أن يقول بغير ما يقول به المتقدم ، وجعلوا ذلك عقيدة ، حتى يقف الفكر وتجمد العقول ، ثم بثوا أعوانهم فى أطراف الممالك الإسلامية ينشرون من القصص والأخبار والآراء ما يقنع العامة ، بأنهم لا نظر لهم فى الشئون العامة ، وأن كل ما هو من أمر الجماعة والدولة هو مما فرض النظر فيه على الحكام دون من عداهم ، ومن دخل فى شىء من ذلك من غيرهم ، فهو متعرض لما لا يعنيه ، وإن ما يظهر من فساد الأعمال ، واختلال الأحوال ، ليس من صنع الحكام ، وإنما هو تحقيق لما ورد فى الأخبار من أحوال آخر الزمان ، وأنه لا حيلة فى إصلاح حال ولا مآل ، وأن الأسلم تفويض ذلك إلى الله ، وما على المسلم إلا أن يقتصر على خاصة نفسه ، ووجدوا فى ظواهر الألفاظ لبعض الأحاديث ما يعينهم على ذلك ، وفى الموضوعات والضعاف ما شد أزرهم فى بث هذه الأوهام » .

« هذا الجمود فى أحكام الشريعة جر إلى عسر حمل الناس على إهمالها : كانت الشريعة الإسلامية أيام كان الإسلام إسلاماً ، سمحة تسع العالم بأسره وهى اليوم تضيق عن أهلها حتى يضطروا إلى أن يتناولوا غيرها ، وأن يلتمسوا حماية حقوقهم فيما لا يرتقى إليها ، وأصبح الأتقياء من حماتها يتخاصمون إلى سواها . صعب تناول الشريعة على الناس حتى رضوا بجهلها عجزاً عن الوصول إلى علمها ، أفلا ترى العارف بها من الناس إلا قليلا لا يعد شيئاً إلى من لا يعرفها ، وهل يتصور من جاهل بشريعة أن يعمل بأحكامها ، فوقع أغلب العامة فى مخالفة شريعتهم ، بل أسقط احترامهم من أنفسهم ، لأنهم لا يستطيعون أن يطبقوا أعمالهم بمقتضى نصوصها ، وأول مانع لهم ضيق الطاقة عن فهمها لصعوبة العبارات وكثرة الاختلاف » .

وكانت البدع إذا ظهرت يحاربها قادة الإسلام بسلاح القرآن « يدحضون[1] الحجة بالحجة ، ويقرعون البدعة بالسنة ، إلى أن تمكن حب التقليد من النفوس ، وقل الاشتغال بالتفسير والحديث ، وأهمل التاريخ فاختلط الحابل

(١) حالة المسلمين الاجتماعية لمحمد المهدى (مجلة المقتبس م ٤) .

بالنابل ، بل راجت سوق الأحاديث الموضوعة ، وانتفخت بها بطون التآليف ، لا سيما ما يتعلق منها بالزهد والرغائب ، والحث على القناعة باليسير ، والكفاف من الرزق ، وإماتة المطالب النفسية ، كحب المجد والرياسة والإقدام على عظائم الأمور ، ودب إلى الأمة داء التواكل ، واسترسلت وراء الأوهام ، وعلق بالقلوب كثير من أدران الشرك » وأسدلوا بين الأمة وكتابها ستراً من الأوهام ، وحرموها لذة النظر والتدبر ، فأصبح لا يتلى إلا فى المآتم وعلى المقابر (تبركا) يتأكل به أناس من الكسالى ، يتغنون به على قارعة الطرق وأبوب المساجد » .

« واقتسم هذا الدين فريقان : فريق اطمأنت نفسه إلى القديم فهو يريد أن يرجع بالناس القهقرى ، يحمل أهل القرن الرابع عشر على أن يتخلقوا بأخلاق أهل القرون الوسطى ، ويحذوا حذوهم فى أحكامهم وآرائهم ومدنيتهم فلا يتخطوها قيد شبر ، يكابرك فى المحسوسات ، ويجادلك فى الحق ، وينكر سنة الله فى خلقه أن لكل عصر طوراً من أطوار الحياة يأخذ قسطه من النمو والارتقاء ، بحسب استعداد أهل ذلك العصر . وفريق رأى من وعورة المسلك وصعوبة الفهم فى كتب القوم ما يقطع نياط القلب ، دون الوصول إلى الغاية ، وإن كثيراً منها على تشتته وتشويشه ، لا ينطبق على مقتضيات العصر الحاضر ، ولا يأتلف ومدنيته ، ففرطوا فى أمر الدين ، وأهملوا مجد آبائهم ، وذهبوا يتلمسون الإصلاح من غيرها » .

ومن أعظم الطامات على العلم الدينى أن يقضى أحد مشايخ الإسلام فى الدولة العثمانية بأن لا توجه الوظائف الدينية إلا على أبناء أربابها ، بمعنى أن يحصر خبز الأب فى الابن ، ولو لم يكن لهذا نصيب من العلم ، أو لو كان فى القماط . كأن العلم يورثه صاحبه كالسكة والفدان ، والدار والزريبة والدكان قال « البيرى من فقهائهم : « يبقى أبناء الميت ولو كانوا صغاراً على وظائف آبائهم مطلقاً من إمامة وخطابة وغير ذلك لأن فيه إحياء خلف العلماء ومساعدتهم على بذل الجهد فى الاشتغال بالعلم ، وقد أفتى بجواز ذلك طائفة من أكابر

الفضلاء الذين يعول على إفتائهم » . فقلت بذلك الرغبات فى الدرس لأن الطالب لا أمل له مهما استعد أن يعيش من علمه ، وما هلك جيل أو جيلان حتى انحصرت الوظائف الدينية فى أيدى الجهلة إلا قليلا ، ودخلت فى حظيرة العلم الدينى عناصر جاهلة ، عبثت بالدين ، وكانت عاراً على قومها فى الدنيا . بل أصبحت المناصب الدينية خاصة فى كثير من المدن ببعض الأسر لا تتعداها احتكروها دون سائر الناس ، ومن تعلم من صنف العامة أو التجار أو الزراع يكون نصيبه الحرمان . وكم من أمثال هذه الفتوى المميتة للعلم من الطامات على الإسلام خلت من العقل ، وجمدت بهؤلاء الأغمار هذه الشريعة المرنة ، وكلما تقدم الزمن عصت على الارتقاء وكانت سمحة .

طلب قوم من الروس إلى الدولة العثمانية أن يدينوا بالإسلام على أن يسمح لهم بتناول قليل من الخمر واستعمال لحم الخنزير ، فأفتى أحد مشايخ الإسلام ممن اشتهروا بعلمهم وورعهم ، بأن لا يسمح لهم بالإسلام مطلقاً على هذا الشرط ، فأضاع بهذا الجمود مئات الألوف من البشر كان الإسلام يقوى بهم ، ولو أدخلهم فى الإسلام لما كانت روسيا بعد قرن أو قرنين تجد فى بلادها من يقاتل جيوش الدولة العثمانية لمكان الدين الإسلامى من قومها ، ولو ذهب المفتى إلى أمر الحكام بأن لا يتعرضوا لشارب الخمر بحد أو غيره كان أهون عليه من بقائهم على غير الإسلام وعدم الانتفاع بهم .

ظهرت قهوة البن فأفتى الفقهاء بتحريمها ، فانفسح المجال لأرباب الجهالة من الحكام يقتلون من تعاطاها . وظهر الدخان فأفتى الفقهاء أيضاً بتحريمه . وقطعت بسببه رؤوس ألوف من الناس فى الأرض العثمانية . وأرادت الدولة العثمانية أن تستعيض عن لبس « القاووق » على الرؤوس بلباس للرأس اختارت له « الطربوش » فحرم الفقهاء لبسه وقالوا إنه شعار الروم . وأحب الناس أن يلبسوا المعاطف والسراويلات الغربية فقال الفقهاء : إن هذا لباس الكفار ، وحرجوا على الناس فى لبسه . وصحت عزيمة الدولة العثمانية على أن تقتبس الطباعة

فنع الفقهاء بالطبع من طبع القرآن تكريماً له . وجرت فى هذا المعنى أمور مضحكة حتى استطاعت الدولة أن تطبع القرآن والحديث وكتب الشريعة .

يحرمون كل ذلك بشدة لأنه مدرجة التمدين ، والمدنية عندهم مدرجة إلى الانحلال ، إلى ما شاكل ذلك من الجهل الناشئ من الجمود على فرع واحد . هكذا كان فقهاء الترك فى العهد الأخير ، وفقهاء العرب تبع لهم . لأن الزعامة العلمية الدينية كانت للترك ودعوى الخلافة فيهم ، حتى لقد أفتوا بحل دم الملك الذى تصدى للإصلاح على الطريقة الغربية ، وبالفعل أهلكوا غير واحد ممن قالوا بهذا القول المنكر ، ومثل هذه العقول لا يليق بها الاجتهاد ولا التقليد ، وهى فى الواقع ما استطاعت أن تطبق من الشريعة إلا ما جرى قبلها بقرون تنفيذه ، وتم بحكم العادة فى الناس . وما زالت الشريعة فى هبوط وضعف ، تنفذ بنفاذ بصيرة القائمين عليها فى الجملة ، وبجهل معظم رجال القضاء وفساد تربيتهم ولتلطخهم بحمأة الرشاوى ، ارتفعت ثقة أوربا من المحاكم الشرعية ، واقترحت على الدولة العثمانية والمصرية أن تنشأ محاكم نظامية منقولة قوانينها عن قوانين الغرب (١٢٥٥ هـ — ١٨٣٩م) ، وحصرت أعمال المحاكم الشرعية فى مسائل الأحوال الشخصية ومسائل قليلة غيرها ، ثم ألفت الدولة لجنة عهدت إليها تأليف كتاب جامع لأحكام الفقه سمته مجلة الأحكام العدلية ، فسهل على المتقاضين وعلى القضاء الرجوع إلى ما دون من مذهب أبى حنيفة ، وليتهم توسعوا فى هذا العمل ، ونادوا بإبطال كثير من كتب الفقه ، وفتاوى المتأخرين وأقضيتهم ، وتوسعوا فى الأخذ من مذاهب معتمدة وأغفلوا ما عداها مما لا يوافق روح العصر . وحاول خديو مصر إسماعيل أن يحمل علماء الأزهر فى عصره على تأليف كتاب فى الحقوق والعقوبات موافق للعصر سهل العبارة ، فرفضوا ذلك ظناً منهم أن هذه بدعة ، فاضطر إسماعيل إلى إنشاء المحاكم الأهلية واعتمد على قوانين فرنسا ، جارياً على مثال ما كان من ذلك فى البلاد العثمانية .

وهكذا قضى على الشرع بأيدى أهله لإيغالهم فى تعسفهم ، ورضاهم بجهلهم ، وجمودهم جموداً جمدت معه العقول ، وخمدت جذوة الإيمان واليقين وكان أهم باعث عليه إسناد المناصب الدينية إلى غير أهلها من حكام السوء ، ولو صحت عزائم الحكام على أن يختاروا الأطايب من القضاة لما آضت الحال إلى ما آضت إليه . وما خلا قرن من رجال كانوا جدّ كفاة فى معرفة الشرع ، والبصر بما يصلح لكل زمان ومكان ، وكان من أثر الجهلاء أن انتقل الناس إلى عالم آخر فى تقاضيهم ، وضرب القانون الحديد الشريعة القديمة ضربة كادت تقضى عليها ، لولا أنها بقيت موقرة فى النفوس ، على رغم عبث العابثين وجهل الجاهلين .

علم الكلام وعلم الحديث :

دخل فى الإسلام من أهل الأديان المعروفة قبله أناس لم تنزع من صدورهم تعاليمهم ومعتقداتهم ، ولاصقت نفوسهم من لوثات جاهلية وثنية ، ومنهم المانوية والديصانية والصابئة واليهود واليعاقبة والنساطرة فكان من الطبيعى أن يوردوا شبهاً على الإسلام فى الخالق والمعاد وحشر الأرواح والقدر وغير ذلك من المعضلات المعقدة التى كثر فى كل عصر التفكير فيها . فانبرى لهم أناس من العلماء يردون ما أوردوه على الدين من الشبهات ، ويتعرفون إلى معتقداتهم فيقاتلون أهواءهم بسلاح اتخذوه من نوع سلاحهم ، ويستعملون عقولهم فى إدحاض كل بدعة ، جامعين فى حجاجهم بين المعقول والمنقول ؛ فكان من ذلك علم جديد أواخر المئة الأولى سموه علم الكلام ، وهو من العلوم التى تُعلّم وتُعلّم بالكلام ، فأطلق عليه هذا الاسم ثم خص به ولم يطلق على غيره . ومداره على إثبات العقائد الدينية بإيراد الحجج عليها ودفع الشبه عنها ؛ وموضوعه ذات الله سبحانه وتعالى وصفاته عند المتقدمين . وقيل موضوعه الموجود من حيث هو موجود ، وعند المتأخرين موضوعه المعلوم من حيث ما يتعلق به من إثبات العقائد الدينية تعلقاً قريباً أو بعيداً .

يقول الغزالى[١] « إن علم الكلام ينظر فى ذات الله وصفاته وأحوال الأنبياء عليهم الصلاة والسلام والأئمة بعدهم والموت والحياة والقيامة والبعث والحساب ورؤية الله ، وأهل هذا العلم متمسكون أولا بالأخبار والآيات ثم بالدلائل العقلية » وقالوا إن الأصول[٢] معرفة البارى تعالى بوحدانيته وصفاته ومعرفة الرسل بآياتهم وبيناتهم وكل مسألة يتعين الحق فيها بين المتخاصمين فهى من الأصول . ولما كان الدين منقسما إلى معرفة وطاعة ، والمعرفة أصل ، والطاعة فرع ، كان أصولياً من تكلم فى المعرفة والتوحيد ، وكان فروعياً من تكلم فى الطاعة والشريعة ، والأصول هى موضوع علم الكلام ، والفروع هى موضوع علم الفقه . وقالوا إن كل ماهو معقول ويتوصل إليه بالنظر والاستدلال فهو من الأصول ، وكل ما هو مظنون ويتوصل إليه بالقياس والاجتهاد فهو من الفروع .

نشأ الكلام مع غيلان بن مروان الدمشقى ومعبد الجهنى من قدماء أئمة المعتزلة ، وإذا أطلق اسم علماء الكلام فالمراد بهم المعتزلة ، فأخذوا يدرأون عن الدين شبه الملحدين ، ممن كانت لهم عقائد مقررة وأساليب خاصة فى الجدل ، ولما لم ترق طريقة علماء الكلام رجال الحديث والفقه ، وناهضوا من أخذوا أنفسهم بدفع الشبهات على الإسلام من المتكلمين ، أصبح هؤلاء بين فريقين فريق أهل دينهم ممن لم يحمدوا الطريقة المتبعة فى رد حجج الخصوم ودفع ما عساه يعلق بالأذهان من كتب اليونان وغيرهم التى شرع فى نقلها إلى العربية ، والفريق المعادى الذى يتربص الدوائر بالإسلام ويحاول نقضه من أساسه ليمزق بذلك الشمل ، ويجتث[٣] الفرع والأصل ، وجمهور[٤] المؤمنين مقرون بحدوث العالم وتوحيد صانعه وقدمه وصفاته وعدله وحكمته ونفى التشبيه عنه وبنبوة محمد ورسالته إلى البشر كافة وبتأييد شريعته ، وبأن كل ما جاء به حق ، وبأن القرآن منبع أحكام الشريعة .

(١) الرسالة اللدنية للغزالى .
(٢) الملل والنحل للشهرستانى .
(٣) اجتث : قطع .
(٤) الفرق بين الفرق لأبى منصور البغدادى .

سار المتكلمون فى خطتهم التى رأوا بها الإبقاء على الإسلام ، وتابعهم على مذهبهم أناس من شأنهم أن يولعوا بالعلم مطلقاً ، وألفوا فى هذا العلم تآليف كثيرة لم يصلنا منها غير نتف نقلها عنهم خصومهم ، أما ما كتبوه بأيديهم فى عصر الرشيد والمأمون والمعتصم والواثق والمتوكل فلم يكتب له البقاء والنشر ، لأن الحرّية التى أطلقت لهم على عهد هؤلاء الخلفاء الخمسة سلبوها بعد ، ولا سيما على عهد ملوك الديالمة . وكان الفقهاء ورجال الحديث استأسدوا فقلبوا لعلماء الكلام ظهر المجن[١] وانتقل الحوار من اللسان إلى السيف والسنان ، واتفقت[٢] كلمة أهل الحديث على الوقوف أمام هذه الحركة الكلامية والجمهور منهم فنالوا منهم ما أرادوا ، وتنازعت الأمة عوامل مختلفة من المتفقهة والمتكلمة والمتفلسفة والمتصوفة، وراجت أسواق التبديع والتكفير والتفسيق ، وكتبوا الكتب وشحنوها بالمطاعن والتقول بعضهم على بعض ، حتى أفتوا بمنع الصلاة[٣] خلف من يخوض فى علم الكلام وإن تكلم بحق .

قال الشافعى : حكمى فى أصحاب الكلام أن يضربوا[٤] بالجريد ، ويطاف بهم فى القبائل والعشائر ، ويقال هذا جزاء من ترك الكتاب والسنة وأخذ فى الكلام . وروى عنه أن رجلا إذا أوصى بكتب العلم لشخص لا تدخل كتب الكلام فى الوصية ، لأن الكلام ليس بعلم . وقال مالك : لا تجوز شهادة أهل البدع والأهواء ، وقال أصحابه إنه أراد بأهل الأهواء أهل الكلام على أى مذهب كانوا . وقال أحمد بن حنبل لا يفلح صاحب الكلام أبداً ، ولا تكاد ترى أحداً نظر فى الكلام إلا وفى قلبه دغل[٥]، وبالغ فى ذمه حتى هجر الحارث المحاسبي مع زهده وورعه ، بسبب تصنيفه كتاباً فى الرد على المبتدعة وقال له : ويحك ألست تحكى بدعتهم أولا ثم ترد عليهم ، ألست تحمل الناس بتصنيفك على مطالعة البدعة والتفكر فى تلك الشبهات فيدعوهم ذلك

---

(١) المجن والمجنة بكسرهما : الترس وقلب فلان مجنه أى أسقط الحياء وفعل ما شاء وملك أمره واستبد به .

(٢) تاريخ التشريع الإسلامى لمحمد الخضرى .

(٣) دستور العلماء لأحمد نكرى .

(٤) الجريد : قضبان النخل المجردة من خوصها أى ورقها الواحدة جريدة .

(٥) الدغل : الفساد والريبة.

إلى الرأى والبحث . وروى عنه أنه قال علماء الكلام زنادقة . وقال أبو يوسف من طلب العلم بالكلام تزندق . وسواء صح أم لم يصح ما رُوى عن أئمة المذاهب فى تقبيح رأى المتكلمين ، فالثابت أن رجال الحديث كانوا غير راضين عنهم ، ووسع مدى الخلاف بين الفقهاء والمحدثين وبين المتكلمين من جاءوا بعد من التلاميذ والأنصار فزادوا فى إضرام نار الخلاف « وكثرت النحل وتقطعت العصم[١] وتعادى المسلمون وأكفر بعضهم بعضاً » .

هذا إجمال مايقال فى نشأة الكلام والقضاء عليه وعلى أهله بأيدى أهل الإسلام . أما الحديث فهو علم بأصول يعرف بها أحوال حديث الرسول من صحة النقل عنه وضعفه ، وطرق التحمل والأداء . وفى اصطلاح المحدثين قول النبى وفعله وتقريره وصفته حتى الحركات والسكنات فى اليقظة والمنام ويرادفه السنة عند الأكثر ، ولقد كثرت الأحاديث المروية والمتكررات منه ، ودخلها الشوب[٢] من وجوه ثلاثه[٣] منها الزنادقة واجتيالهم[٤] على الإسلام وتهجينه ، بدس الأحاديث المستشنعة والمستحيلة ، ومنها القصّاص على قديم الزمان ، فإنهم ما كانوا يميلون وجوه العوام إليهم ، ويستدرون ما عندهم إلا بالمناكير والغريب والأكاذيب من الأحاديث ، ومنها أخبار متقادمة كان الناس فى الجاهلية يرونها تشبه أحاديث خرافة . وغلا الوضاعون فى الحديث فمنهم من وضع أحاديث لتقوية المنازع السياسة تلمح فيها لأول نظرة أثر الوضع والكذب ، ومنها أحاديث فى فضائل بعض الصحابة . « وإن أصل[٥] الكذب فى حديث الفضائل كان من جهة الشيعة فإنهم وضعوا فى مبدأ الأمر أحاديث مختلقة فى صاحبهم » اضطرته فى حياته إلى أن ضرب على أيدى من جاهر منهم بالغلو فيه . ووضعوا أحاديث فى فضائل بعض البلدان وفى تفضيل بعض القبائل على بعض .

---

(١) العصم جمع عصمة : أى ما يمنع من الضياع والحاجة . (٢) الشوب : الخلط .
(٣) ذيل مختلف الحديث لابن قتيبة . (٤) اجتال القوم : حولهم عن قصدهم واستجالتهم الشياطين صرفتهم عن أهوائهم إلى ضلالتها وأخذتهم بأن يجولوا معها واختارتها لأنفسها .
(٥) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد .

بل بلغت بهم السخافة أن وضعوا أحاديث فى الطعام ، ووضع عبد الكريم بن أبى[1] العوجاء الذى ضربت عنقه على الوضع أربعة آلاف حديث يحرم فيها ويحلل ، ومنها ما هو فى التشبيه والتعطيل ، وفى بعضها تغيير أحكام الشريعة .

ووضع الوضاعون أحاديث فى المرجئة[2] والجهمية والقدرية والأشعرية ووصف ما يكون بعد الثلاثين ومائة ، والستين ومائة وظهور الآيات بعد المائتين . وفى مدح بعض قبائل العرب وفضائل أبى بكر وعلى ووضعت الرافضة فى فضله ثلاثمائة ألف حديث إلى غير ذلك مما ردّه نقاد الحديث .

ومنهم من وضع أحاديث فى الترغيب والترهيب لا يقبلها العقل ، ولا خطرت ببال الرسول وأصحابه وكبار التابعين ، ذلك لأن ما كان من أصل[3] هندى أو يونانى أو فارسى أو من شروح التوراة أو الإنجيل لا يؤبه له ، فصبغها أصحابها بصبغة دينية ليقبل عليها الناس ، وما وجد أولئك الوضاعون إلا الحديث فدخلوا منه على الناس ، وكان من ذلك أن ترى فى الحديث الحكم الفقهى المصنوع والحكمة الهندية والفلسفة الزرادشتية والمواعظ الإسرائيلية أو النصرانية . اهـ .

والذى زاد فى تبلبل الأحاديث كونها لم تدون إلا أواخر المائة الأولى . ذلك لأن الرسول كان ينهى عن تدوينها لئلا تختلط بالقرآن ، وكذلك كان من أصحابه بعده ، وفى صحيح مسلم أن النبى قال : « لاتكتبوا عنى شيئاً إلا القرآن ومن كتب عنى شيئاً غير القرآن فليمحه » . وفى كتب السير أن الرسول دعا اليهود فحدثوه حتى كذبوا على عيسى فصعد النبى المنبر فخطب الناس وقال :

---

(١) قال ابن الجوزى : الوضاعون كثيرون ومن كبارهم وهب بن وهب القاضى ومحمد بن السائب الكلبى ومحمد بن سعيد الشامى المصلوب وأبو داود النخعى وإسحاق بن نجيح الملطى وعباس بن إبراهيم النخعى والمغيرة بن شعبة الكوفى وأحمد بن عبد الله الجويبارى ومأمون بن أبى أحمد المروى ومحمد بن عكاشة الكرمانى ومحمد بن القاسم الطايكانى ومحمد بن زياد اليشكرى . وقال النسائى الوضاعون المعروفون بوضع الحديث أربعة ابن يحيى بالمدينة والواقدى ببغداد ومقاتل بخراسان ومحمد بن سعيد المصلوب بالشام .

(٢) المغنى عن الحفظ والكتاب لابن بدر الموصلى .

(٣) فجر الإسلام لأحمد أمين .

« إن الحديث سيفشو عنى فما أتاكم عنى يوافق القرآن فهو عنى ، وما أتاكم عنى يخالف القرآن فليس منى » ثم قال العلماء[1] بإباحة كتابة الحديث لمن خشى عليه النسيان ، ونهى عن الكتابة عنه من وثق بحفظه ، مخافة الاتكال على الكتاب ، أو نهى عن كتابة ذلك حين خاف عليهم اختلاف ذلك بصحف القرآن ، وأذن فى كتابته حين أمن ذلك ، ولولا تدوينه فى الكتب لدرس فى الأعصر الآخرة . ويقول ابن تيمية[2] إن الدواوين المشهورة فى السنن إنما جمعت بعد انقراض الأئمة المتبوعين ، ومع هذا فلا يجوز أن يدعى انحصار الحديث فى دواوين معينة ، ثم لو فرض انحصار حديث رسول الله ، فليس كل ما فى الكتب يعلمه العالم ، ولا يكاد ذلك يحصل لأحد ، بل قد يكون عند الرجل الدواوين الكثيرة وهو لا يحيط بما فيها ، بل إن الذين كانوا قبل جمع هذه الدواوين أعلم بالسنة من المتأخرين بكثير ، لأن كثيراً مما بلغهم وصح عندهم قد لا يبلغنا إلا عن مجهول أو بإسناد منقطع أولا يبلغنا بالكلية ، فكانت دواوينهم صدورهم التى تحوى أضعاف ما فى الدواوين . ا هـ .

ونقلت أحاديث بالمعنى لا باللفظ ، وما كان الناقلون نمطاً واحداً فى إحكام ملكة البيان ، ذلك لأن منهم الموالى والأعاجم البعيدين عن السليقة العربية فجاء فى بعضها ما يستحيل أن يصدر من لسان أفصح الناطقين بالضاد ولقد قال ابن قتيبة[3] « إن من المحدثين من يرون كل سخافة تبعث على الإسلام الطاعنين ، وتضحك منه الملحدين ، وتزهد من الدخول فيه المرتادين ، وتزيد فى شكوك المرتابين » قال ولا أعلم أحداً من أهل العلم والأدب إلا وقد أسقط[4] فى علمه كالأصمعى وأبى زيد وأبى عبيدة وسيبويه والأخفش والكسائى والفراء وأبى عمرو الشيبانى ، وكالأئمة من قراء القرآن والأئمة من المفسرين ، وقد أخذ الناس على الشعراء فى الجاهلية والإسلام الخطأ فى المعانى وفى الإعراب

(١) علوم الحديث لابن الصلاح . (٢) رفع الملام عن الأئمة الأعلام لابن تيمية
(٣) تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة (٤) أسقط : أخطأ .

وهم أهل اللغة وبهم يقع الاحتجاج ، فهل أصحاب الحديث فى سقطهم إلا كصنف من الناس ، على أنا لا نخلى أكثرهم من العذل فى كتبنا تركهم الاشتغال بعلم ما قد كتبوا والتفقه بما جمعوا ، وتهافتهم على طلب الحديث من عشرة أوجه وعشرين وجهاً ، وقد كان فى الوجه الواحد الصحيح والوجهين مقنع اﻫ . وذكروا أن صحيح البخارى وهو من أصح كتبهم المحررة اشتمل على تسعة آلاف حديث ومائتين منها ثلاثة آلاف متكررة والأسانيد عليها مختلفة فى كل باب . على أن مسألة تدوين الحديث لم تقف عند عبث العابثين من الزنادقة وغيرهم بل قيض الله لها رجالا كيحيي بن معين وأمثاله ، محصوا الرجال العدول من غيرهم ، وأسسوا علم الحديث المبنى على معرفة الصحيح منه والحسن والمتواتر ، وبينوا الضعيف والموضوع ، وألفوا فى طبقات الرجال ما عرف به الثقات ، وعندها ميزوا الصحاح من الضعاف وغيرها .

وليس من الغلو أن يدعى أن علماء الملة لم يعانوا علما من العلوم كما عانوا علم الحديث ، وما دون من الكتب أكثر من كتب الحديث وما يلزم له ، وخدم الحديث علم التاريخ كثيراً لأنه يتوقف على معرفة الرجال وطبقاتهم ومواطنهم ، وخدم علم الاجتماع لأن المحدثين كانوا يرحلون إلى أقصى المشرق والمغرب فى طلب حديث واحد ، يسمعونه من راويه إما لعلو إسناده أو لثقتهم بالرواية ، فنشأت من تدوين الحديث وتنقل رواته فى الأمصار طريقة فى التهذيب ، فكان المحدثون يجتمعون يأخذ بعضهم عن بعض فى جملة ما يأخذون من الحديث آراء ومنازع ونقدا وأسلوباً ، كلها أورثت وحدة فكرية بين الأقطار الإسلامية ، وكان اجتماع العلماء فى الموسم من أكبر المعونات على رواية الحديث ، يجتمع ابن خراسان بابن الأندلس وابن بخارى بابن إفريقية . ومن رجع إلى طبقات الأندلسيين ككتاب الصلة لابن بشكوال ، وبغية الملتمس للضبي ، والمعجم لابن الأبار وتكملة الصلة له ، وتاريخ علماء الأندلس لابن الفرضى ، ونفح الطيب للمقرى وغيره — من رجع إلى مثل هذه الكتب وقرأ

تراجم المترجَم لهم عرف عناية أهل الشرق والغرب من علماء الإسلام بالرحلة فى طلب الحديث ، وولع العلماء بالأخذ بعضهم عن بعض وتبادل العلم .

ولقد احتاج الحديث أيضاً لما جعلوا لتصحيحه من شروط وقيود إلى أن لا تنسى الأمة ماضيها ، وكان على المحدث أن يكون له حظ وافر من أخبار الناس وأنسابهم وتقويم بلادهم ، كما كان الواجب أن يكون له قسط من علوم العربية . وإدمان تلاوة الأحاديث واستظهارها أيضاً من أساليب تقوية ملكة العربية وتمرين الحافظة على الحفظ والذاكرة على التذكر . وقد رأينا فى القرون الأولى من رجال الحديث جماعة وضعوا التواريخ المعتبرة على أسلوب المحدثين بالرواية وتصحيح السند . والسند[١] عند علماء الإسلام شرط فى العمل بما فى الكتب والاحتجاج بها . والسند أن يعطى المصنف كتابه إلى آخر ويقول له أذنت لك أن تروى عنى هذا الكتاب ويعطيه الذى أخذه عن المصنف إلى آخر بهذا الشرط ، وهكذا نسبة كل علم ، ولا يكون الكتاب معتبراً إذا عدم هذا السند ، ولو ضم شتات العلوم الكثيرة . ولا يصح نسبة ما فى الكتاب إلى من نسب إليه الكتاب إلا بشرط السند . وهذا شىء خص به علماء الإسلام وشريعته .

وانقرض المحدثون فى القرن السابع أوكادوا وصار أهله « شرذمة قليلة العدد ضعيفة العدد لا تغنى على الأغلب فى تحمله بأكثر من سماعه غفلا ، ولا تعنى فى تقييده بأكثر من كتابته عطلا[٢] » وعلى كثرة عناية السلف من المحدثين واشتراطهم فى المحدث أن يعرف المسانيد والعلل وأسماء الرجال والعالى والنازل وأن يحفظ مع ذلك جملة مستكثرة من المتون ويسمع الكتب الستة ومسند أحمد وسنن البيهقى ومعجم الطبرانى ويضم إلى هذا القدر ألف جزء

---

(١) ذكرى العاقل لعبد القادر الحسنى .

(٢) علوم الحديث لابن الصلاح .

من الأجزاء الحديثية ويحفظ كتب الطبقات ويزيد على الشيوخ – مع كل هذه العناية وما ألفوه فى المدلسين والضعفاء «لقبوهم[١] بالحشوية والنابتة والمجبرة وربما قالوا الجبرية وسموهم الغثاء والغثر. وهذه كلها أنباز[٢] لم يأت بها خبر عن رسول الله» ومع أن المحدثين تحاموا كل ما هجم على الأحاديث من وضع وتصنيع واطرح المحققون منهم الغث وأثبتوا السمين فى الجملة، فقد وقع لهم لكثرة ما تناولته الأيدى المختلفة ما وقع فى تفسير القرآن، ونقل من كانوا من أصل يهودى أو نصرانى ككعب الأحبار ووهب بن منبه وعبد الله بن سلام وابن جريج وأمثالهم أخباراً لا صحة لها وملأ المفسرون كتب التفسير بهذه المنقولات[٣].

يقول الذهبي إن غالب المحدثين فى زمانه أى فى القرن الثامن لا يفهمون، ولا همة لهم فى معرفة الحديث ولا فى التدين به، بل الصحيح والموضوع عندهم بنسبة، وإنما همتهم فى السماع على جهلة الشيوخ، وتكثير العدد من الأجزاء والرواية لا يتأدبون بآداب الحديث ولا يستفيقون من سكرة السماع، إلى أن قال فأى شيء ينفع السماع على جهلة المشايخ الذين ينامون والصبيان يلعبون، والشبيبة يتحدثون ويمزحون، وكثير منهم ينعسون ويكابرون، والقارئ يصحف. وقال بعد أن ذكر من طلب الحديث منذ عهد الصحابة والتابعين ومن بعدهم: ثم تناقص هذا الشأن فى المائة الرابعة بالنسبة إلى المائة الثالثة ولم يزل ينقص إلى اليوم، فأفضل من فى وقتنا اليوم من المحدثين على قلتهم نظير صغار من كان فى ذلك الزمان على كثرتهم، وكم من رجل مشهور بالفقه والرأى فى الزمن القديم، أفضل فى الحديث من المتأخرين، وكم من رجل من متكلمى القدماء أعرف بالأثر من مشيخة زماننا.

---

(١) مختلف تأويل الحديث لابن قتيبة.

(٢) الغثاء: الوسخ والغثر جمع أغثر: وهم سفلة الناس وأرذالهم والأنباز جمع نبز: وهو اللقب.

(٣) مقدمة ابن خلدون.

علم التصرّف :

رأى الجمهور من الصحابة الذين عاشروا الشارع الأعظم ورأوا قوله وعمله أن الواجب على المسلم أن يكون إلى الاعتدال حتى فى العبادة وأن يعنى بأمر دنياه . ومن أجل هذا رأينا عمر بن الخطاب يمر برجل يصوم الدهر فيضربه بمخفقته أى بدرته التى يضرب بها ويقول : كل يا دهر كل يا دهر. ورأيناه يعس[1] المسجد بعد العشاء فلا يرى فيه أحداً إلا أخرجه وأمر الناس أن يتفرقوا . وشاهدنا على بن أبى طالب يكتب إلى أحد عماله « وخادع نفسك العبادة وارفق بها ولا تقهرها ، وخذ عفوها ونشاطها ، إلا ما كان مكتوباً عليك من الفريضة فإنه لابد من قضائها وتعاهدها عند محلها » وقال لمن لبس العباء[2] وتخلى عن الدنيا « ياعدو نفسه لقد استهام بك الخبيث ،أما رحمت أهلك وولدك ، أترى الله أحل لك الطيبات وهو يكره أن تأخذها ، أنت أهون على الله من ذلك » .

وبدا لأبى ذر الغفارى من كبار الصحابة ، وأحد أوعية العلم فى الإسلام ، أن يأخذ بظاهر القرآن فى قوله : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم » . وذهب إلى أن المسلم لا ينبغى أن يكون فى ملكه أكثر من قوت يومه وليلته ، أو شىء ينفقه فى سبيل الله أو يعده لكريم ، فتأذى الأغنياء بما دعا إليه ، وكثرت سلاطة الفقراء عليهم ، فشكا معاوية بن أبى سفيان أبا ذر الغفارى إلى أمير المؤمنين عثمان بن عفان فنفاه إلى الرّبذة . ورأى أبى ذر أشبه بالآراء الاشتراكية ، لكنه منبعث من زهد كثير وتقوى جميلة ، إذا سار المسلمون على طريقهما ضعف سلطانهم فى الأرض ، ومن ضعف سلطانه ضعفت مقدساته ومشخصاته لا محالة .

---

(١) عس : طاف بالليل يحرس الناس ويكشف أهل الريبة .

(٢) العباء والجمع أعبئة : كساء مفتوح من قدام يلبس فوق الثياب .

وعد بعض الباحثين من المعاصرين حذيفة بن اليمان فاتح الرى وهمدان والدينور فى صف أبى ذر الغفارى فى التصوف . وحذيفة بن اليمان هو الذى قال فيه عمر بن الخطاب – وقد قال لأصحابه أن يتمنوا ، فتمنوا ملء[1] البيت الذى كانوا فيه مالا وجواهر ينفقونها فى سبيل الله – قال : لكنى أتمنى رجالا مثل أبى عبيدة ومعاذ بن جبل وحذيفة بن اليمان .

ونشأ فى القرن الأول رجال ربانيون[2] أتقياء عزفت نفوسهم عن بهرج الدنيا وزخرفها ، فانصرفوا إلى العبادة والزهادة ، لمزاج خاص بهم ، أو جبلة دفعتهم فتماشوا معها ، أو لسبب من الأسباب التى تعرض للبشر من إخفاق فى طلب مجد أو مال أو وصال . ومنهم من فتن به الناس فاتبعوه لما رأوا من جميل تمسكه وحسن سمته ، وبعده عن سفساف أمور هذا العالم . وكان هذا الرعيل من أوائل المتصوفة فى الإسلام ، ويقول ابن تيمية : إن أول ظهور الصوفية كان فى البصرة وأنهم من أصحاب عبد الواحد بن زيد من أصحاب الحسن البصرى ، والمظنون أن التصوف جاء الإسلام من الآريين فقد كان فى المجوس والبراهمة أيضاً زهاد ، وما خلت الأمم كلها من زهاد وعباد فى كل العصور .

ويرى ماسنيون[3] أن الميل إلى حياة النسك كانت فى كل بلد وفى كل عنصر فلم تنشب أن انتشرت فى الإسلام فى قرنيه الأولين ، وذكر الجاحظ وابن الجوزى أسماء أكثر من أربعين ناسكاً حقيقياً . وأن الاستعداد للتصوف ينشأ فى العادة من ثورة باطنية تخامر القلوب ، فيثور صاحبها على المظالم

---

(١) أسد الغابة لابن الأثير .

(٢) رجل ربى وربانى متأله أى متعبد وفى الروض الأنف : أن الربانيين الذين يربون الناس بصغار العلم قبل كباره وقيل نسبوا إلى علم الرب والفقه فيما أنزله وزيدت الألف والنون لتفخيم الاسم .

(٣) معلمة الإسلام ، مادة تصوف ومادة طرق .

الاجتماعية ولا يقف عندمقاومة غيره ، بل يبدأ بجهاد نفسه وإصلاح خطيئاته ، وذلك بنية سليمة فى الباطن ليلتى الله تائباً منيباً ، على نحو ما تجلى ذلك كل التجلى فى الأمثال والخطب التى أثرت عن الحسن البصرى ، وذكر أن الطرق فى الإسلام نشأت فى القرن الحادى عشر من الميلاد .

كان الخطب فى التنمس[١] بالدين ، والتنطع[٢] فى العبادة ، والتناغى بالآخرة واطراح الدنيا ، من السهل على المجتمع الإسلامى لو انحصر فى أفراد بعينهم ، ولكنه تعدى إلى العوام ، والعوام فى كل عصر ومصر لا يقيمون للحقائق وزناً ، ولا يهشون إلا لما تزينه لهم ظواهر المحسوسات ، وهم أقرب الطبقات إلى غلط الحس ، والمغالطة فى النافع والضار . ولقد أطلق على من أخذوا أنفسهم بهذه الطريقة لقب الصوفية والمتصوفة ، وعلى علمهم اسم التصوف ، نسبة إلى الصوف الذى كانوا يلبسونه ، أو إلى سوفا اليونانية ومعناها الحكمة ، أو إلى رجل يقال له صوفة كان فى الجاهلية هو وأصحابه ممن انقطعوا إلى الله ولزموا الكعبة فقالوا لمن تشبه بهم الصوفى وقال السهروردى إن سبب تسميتهم بالصوفية لبسهم الصوف ، أو لأنهم كانوا من الانكسار كالخرقة الملقاة والصوفة المرمية ، أو لأنهم فى الصف الأول بين يدى الله عز وجل ، وأن الأصل فى اسمهم صفوىّ نسبة إلى الصفة ، وهى موضع مقتطع من مسجد النبى مظلل عليه ، كان الأوفاض[٣] والأخلاط من الفقراء يأوون إليه على خلاف بين الباحثين فى أصولهم . وقال ابن تيمية[٤] : كان السلف يسمون أهل الدين والعلم القراء فيدخل فيهم العلماء والنساك ، ثم حدث بعد ذلك اسم الصوفية والفقراء ، واسم الصوفية هو نسبة إلى لباس الصوف . هذا هو الصحيح وقد قيل إنه نسبة إلى صفوة الفقهاء ، وقيل إلى صوفة بن ادّ بن طابخة قبيلة من العرب كانوا يعرفون بالنسك ، وقيل إلى أهل الصفة ، وقيل

(١) تنمس الأمر ، تلبس به . (٢) تنطع فى الكلام : تفصح فيه وتنطع فى عمله تحذق .
(٣) الأوفاض : الجماعة من الناس والأخلاط .
(٤) الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان لابن تيمية .

إلى الصفا وقيل إلى الصفوة وقيل إلى الصف المقدم بين يدى الله تعالى ، وهذه أقوال ضعيفة فإنه لو كان كذلك لقيل صنى أو صفائى أو صفوى أو صنى ولم يقل صوفى ، وصار أيضاً اسم الفقراء يعنى به أهل السلوك وهذا عرف حادث ا هـ . ولأبى الفتح البستى :

تنازع الناس فى الصوفى واختلفوا فيه وظنوه مشتقاً من الصوف
ولست أنحل هذا الاسم غير فتى صافى فصوفى حتى لقب الصوفى

وقال المعرى :

صوفية ما ارتضوا للصوف نسبتهم حتّى ادعوا أنهم من طاعة صوفوا

وأنشد الظاهر[١] لنفسه :

أرى جيل التصوف شر جيل فقل لهم وأهــون بالحلول
أقال الله حين عشقتموه كلوا أكل البهائم وارقصوا لى

ويقول الكلاباذى فى التعرف لمذهب أهل التصوف إن الصوفية سموا بهذا الاسم لقرب أوصافهم من أوصاف أهل الصفة الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولكثرة أسفارهم سمو سياحين ، ومن سياحتهم فى البرارى وإيوائهم الكهوف عند الضرورات سماهم بعض أهل الديار شكفتيه والشكفت بلغتهم الغار والكهف، وأهل الشام سموهم جوعية لأنهم إنما ينالون من الطعام قدر ما يقيم الصلب قال : ولما كانت هذه الطائفة بصفة أهل الصفة ولبسهم وزيهم زى أهلها سموا صفية صوفية وقال : فقد اجتمعت هذه الأوصاف كلها ومعانى هذه الأسماء كلها فى أسامى القوم وألقابهم ، وصحت هذه العبارات وقربت هذه المآخذ ، وإن كانت هذه الألفاظ متغيرة فى الظاهر فإن المعانى متفقة لأنها إن أخذت من الصفاء والصفوة كانت صفوية ، وإن أضيفت إلى الصف أو الصفة كانت صفية أو صفية ، ويجوز أن يكون تقديم الواو على الفاء فى لفظ الصوفية وزيادتها من لفظ الصفية والصفية إنما كانت من

(١) رسالة ابن القارح فى رسائل البلغاء للمؤلف .

تداول الألسن ، وان جعل مأخذه من الصوف استقام اللفظ وصحت العبارة من حيث اللغة ، وجمع المعانى كلها من التخلى عن الدنيا وعزوف النفس عنها ، وترك الأوطان ولزوم الأسفار ، ومنع النفوس حظوظها وصفاء المعاملات وصفوة الأسرار إلخ .

قال : وممن نطق بعلومهم وعبر عن مواجيدهم ونشر مقاماتهم ووصف أحوالهم قولا وفعلا بعد الصحابة رضوان الله عليهم على بن الحسين زين العابدين وابنه محمد بن على الباقر وابنه جعفر بن محمد الصادق بعد على والحسن والحسين رضى الله عنهم وأويس القرنى والحسن بن أبى الحسن البصرى وأبو حازم سلمة بن دينار المدينى ومالك بن دينار وعبد الواحد بن زيد وعتبة الغلام وإبراهيم بن أدهم والفضيل بن عياض إلخ وممن نشر علوم الإشارة كتباً ورسائل الجنيد والثورى والحراز ويقال له لسان التصوف إلخ وممن صنف فى المعاملات منهم أبو محمد عبد الله بن محمد وأبو عبد الله أحمد بن عاصم الأنطاكيان وعبد الله بن خبيق الأنطاكى والحارث بن أسد المحاسبى ويحيى بن معاذ الرازى وغيرهم وهم « الأعلام المذكورون المشهورون المشهود لهم بالفضل الذين جمعوا علم المواريث إلى علوم الاكتساب سمعوا الحديث وجمعوا الفقه والكلام واللغة وعلم القرآن وبذلك تشهد كتبهم ومصنفاتهم إلخ » .

وأول من تسمى بالصوفى فى أهل السنة أبو هاشم الصوفى المتوفى سنة ١٥٠هـ وكان من النساك يجيد الكلام وينطق بالشعر كما وصفه الجاحظ ، مثل كلاب وكليب وهاشم الأوقص وصالح بن عبد الجليل . وأول من تكلم على التصوف وعلوم الأحوال بكورة خراسان شفيق بن إبراهيم الزاهد أبو على البلخى المتوفى سنة ١٥٣ هـ . وكان من كبار مشايخ خراسان وله لسان فى التوكل . وكان أبو حمزة الصوفى أول من تكلم ببغداد فى هذه المذاهب سنة ٢٦٩ من صفاء الذكر وجمع الهمة ، والمحبة والشوق ، والقرب والأنس .

وكان جابر بن حيان صاحب الكيمياء[١] متقلداً للعلم المعروف بعلم الباطن وهو مذهب المتصوفين من أهل الإسلام كالحارث بن أسد المحاسبي وسهل ابن عبد الله التسترى ، ونظرائهم . وظهر المتصوفة فى الإسكندرية[٢] فى مستهل القرن الثالث يأمرون بالمعروف ويعارضون السلطان فى أمره وكانت كلمتهم نافذة .

عرف الغزالى[٣] التصوف بأنه « علم خاص بطريقة واضحة مجموعة من العلمين الشرعى والعقلى » وعلمهم يشتمل على الحال والوقت والسماع والوجد والشوق والسكر والصحو والإثبات والمحو والفقر والغنى ، والولاية والإرادة ، والشيخ والمريد ، وما يتعلق بأحوالهم مع الزوائد والأوصاف والمقامات » ويفهم منه أنه علم لدنى يتم من لدن المولى ويكون بالذوق والرياضة وليس هو بعلم كسبي يتكون بالدرس والنظر . وذكر الأشعرى[٤] من أهل المائة الرابعة أن من النساك الصوفية من يقول بالحلول ، وأن البارئ يحل فى الأشخاص وأنه جائز أن يحل فى إنسان وسبع وغير ذلك من الأشخاص . وأصحاب هذه المقالة إذا رأوا شيئاً يستحسنونه قالوا : لا ندرى لعل الله حال فيه ، ومالوا إلى اطراح الشرائع وزعموا أن الإنسان ليس عليه فرض ولا يلزمه عبادة إذا وصل إلى معبوده اهـ . وكان كل من تنسك فى ذلك الزمان سمى دورقياً نسبة إلى لبس القلانس التى تسمى الدورقية[٥] ويلبس أكثرهم المرقعات .

وفى الحق إن سيرة من شغفوا حباً بهذا الضرب من الأخلاق والعادات الذى سمى بالتصوف بعد ، كانت فى الصدر الأول مما يغبط عليه صاحبه ، ويشرفه بين الأنام . وما أثر من كلماتهم أولا ثم من بعض مدوناتهم آخرا لو تم

(١) طبقات الحكماء للقفطى .
(٢) قضاة مصر للكندى .
(٣) الرسالة اللدنية للغزالى (مخطوطة) .
(٤) مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين لأبى الحسن الأشعرى .
(٥) تاريخ بغداد لابن الخطيب .

له نقل إلى لغات العلم الحديث اليوم ، لما حوت من الدعوة إلى الأخلاق الفاضلة ، لما خجل منها مسلم منور ، وربما عدها بعضهم مفخرة من مفاخر الملة . بيد أن هذا العمل الصالح الذى كان يقصد منه تخفيف شره التكالب على حطام الدنيا بإصلاح أهلها ، أصبح فى القرون التالية آلة من آلات التفريق بين أجزاء الأمة ، وملهاة يتلهى بها العامة ومن فى حكمهم من الناس ، صدتهم على الجلاد فى ميدان الحياة . وخرجت من هذا المجموع الغض عناصر حيوية لو حسن استخدامها فى المصالح ، لما ترتب عليها بعد ذلك أمور غريبة ، كالمواجيد والأذواق والشطح والكشف والأحلام . ولما أدت إلى اعتقاد الحلول ووحدة الوجود ثم إلى الإباحة ، والتجرد من كل قيد . والدين لا يقر كثيراً مما يقوم[1] به بعض أدعياء التصوف أو أرباب الطرق من الأذكار والأوراد المصطلح عليها والتبتل والسماع والرقص ورفع الأعلام وضرب الطبول وإظهار الكرامات التى يزعمون ، مثل مسك الثعابين والحيات ودخول النار وأكلها وبلع قطع الحديد والزجاج والآنية ، واستعمال السلاح لضرب البطون وإدخال المدى والأدوات الجارحة فى الأفواه والحلوق ، أضف إلى ذلك ما يأخذون أنفسهم به من التوكل وترك السعى والعمل للمعاش ، والتساهل بالفروض والواجبات ، وإجهاد النفس فى التريض والتقشف إلى غير ذلك من الحالات التى أنكرها حجة الإسلام فى كتابه إحياء علوم الدين إنكار بعض العلماء وقوع الكرامات من الأولياء .

قال الشاطبى[2] : وقع السؤال عن قوم يتسمون بالفقراء يزعمون أنهم سلكوا طريق الصوفية فيجتمعون فى بعض الليالى ويأخذون فى الذكر الجهرى على صوت واحد ثم فى الغناء والرقص إلى آخر الليل ، ويحضر معهم بعض المتسمين بالفقهاء يرتسمون برسم الشيوخ الهداة إلى سلوك ذلك الطريق ، هل هذا العمل صحيح فى الشرع أم لا ؟ فوقع الجواب بأن ذلك كله من البدع المحدثات المخالفة طريقة رسول الله وطريقة أصحابه والتابعين لهم بإحسان فنفع الله بذلك

(١) مبحث فى التصوف للمؤلف المقتطف م ٢٨ . (٢) الاعتصام للشاطبى .

من شاء من خلقه . ثم إن الجواب وصل إلى بعض البلدان فقامت القيامة على القائلين بتلك البدع وخافوا اندراس طريقتهم وانقطاع أكلهم بها فأرادوا الانتصار لأنفسهم بعد أن راموا ذلك بالانتساب إلى شيوخ الصوفية الذين ثبتت فضيلتهم ، واشتهرت فى الانقطاع إلى الله والعمل بالسنة طريقتهم ، فلم يستقر لهم الاستدلال بكونهم على ضد ما كان عليه القوم ، فإنهم كانوا بنوا نحلتهم على ثلاثة أصول : الاقتداء بالنبى عليه الصلاة والسلام فى الأخلاق والأفعال ، وأكل الحلال ، وإخلاص النية فى جميع الأعمال ، وهؤلاء قد خالفوهم فى هذه الأصول ، فلا يمكنهم الدخول تحت ترجمتهم . اهـ .

وقال : إن هؤلاء أى أصحاب الطرق المحدثة لم يشموا من أوصاف الفضلاء رائحة فأخذوا بالتشبه بهم فأبرز لهم هواهم التشبه بالخوارج ، ويا ليتهم وقفوا عند هذا الحد المذموم ولكن زادوا على ذلك الرقص والزمر والدوران والضرب على الصدور وبعضهم يضرب على رأسه وأشبه ذلك من العمل المضحك للحمقى لكونه من أعمال الصبيان والمجانين ، المبكى للعقلاء رحمة لهم ، إذ لم يتخذ مثل هذا طريقاً إلى الله وتشبهاً بالصالحين . ويقول ابن الجوزى[1] تأملت أحوال الصوفية والزهاد فوجدت أكثرها منحرفاً عن الشريعة بين جهل بالشرع وابتداع بالرأى ، يستدلون بآيات لا يفهمون معناها وبأحاديث لها أسباب وجمهورها لا يثبت الخ .

وما كان المتصوفون الأولون يعرفون مصطلحات المتأخرين من المتصوفين ، لأنها من اختراعات المحدثين منهم ، مزجت بشىء من الزندقة والفلسفة اليونانية فخرجت بها الشريعة عن سذاجتها ويسرها . وكان الاعتقاد السليم مهمازاً للمؤمنين يحفزهم إلى العمل لما كانت الشريعة خالية من تأويلات تأباها نصوصها ولا تنطبق على روحها . وغلا القوم فى هذا المعنى حتى خرجوا فى بعض أوضاعهم ومعتقداتهم عن كنه الشريعة السمحة على ما حقق المحققون فى كل عصر ، ومن أهمهم فى القرن السادس أبو الفرج بن الجوزى فقد

(١) صيد الخاطر لابن الجوزى .

ذكر فى كتابه « تلبيس إبليس » ما جناه علم التصوف . ومن انتحلوه على الإسلام والمسلمين ، ومن أهمهم فى القرن الثامن ابن تيمية وتلميذه ابن قيم الجوزية ، فقد حملت كتبهما فصولا كثيرة فى نقد حال من افتاتوا على الشرع وعبثوا بهاته .

ومن الغريب أن المتلبسين باسم التصوف على مخالفتهم الظاهرة للشرع ، كادوا يسلمون من اضطهاد الدول ، ولم يذكر سوى مرات قليلة أن أخذوا بما اجترحوا أو عوقبوا على زندقتهم ، وممن يدعون الانتساب إلى التصوف فى البلاد التى لم يبق منها فى العهد الأخير من الإسلام إلا رسومه . أناس جاءت أعمالهم محض إباحة يقضون عامة شهوات النفوس بما لا بسوه من العادات ، وتلبسوا به من الأوضاع . ومن هذه الجمعيات الدينية أو الطرق ما هو أشبه بمجالس عهر وفجور منه بمجالس ذكر وعبادة ، فيه أطرب الأصوات وأمتع الموسيقى وأجمل الوجوه وألطف الرقص وأغرى الأشعار الغرامية ، ولطالما كان من بعض أهل هذه الطرق مطية لرجال السياسة يستخدمونهم فى فتنة العامة. ليوطدوا لهم أسباب الملك والغلبة . أما هؤلاء المتصوفة أو المتعبدة أو المتفقرة أو المتزهدة فإنهم لا يتحرجون من مناصرة كل قائم رجاء الحظوة لديه ، وهو يبالغ فى إغداق حسناته عليهم يتمتعون بها من دون الناس .

كان من التصوف إفراط فى إطراح الدنيا أولا ، ثم تفريط أدى إلى اتخاذه ذريعة لكل رغيبة ، لم يقف المتحلون له عند مناهي الشرع ، اللهم إلا ما راعوا فيه الظواهر من عبادات دخلت فى حكم العادات . وكثر عدد هذه الطرق فى العالم الإسلامى حتى ما تكاد تعد ، وأصبحت الطرق إلى الله تعالى كما قال لسان الدين ابن الخطيب على عدد أنفاس الخلائق ، يدخل فى غمارها كل من ترغب نفسه فى الكسل ، وتحدثه بالدجل ، وسماع الغرائب وإسماعها ، فينغمس فيها بقدر استعداده . ويقرب مجموع المتألفين فى إحدى الطرق من الدين أو يبعدون من تعاليمه بحسب علم الشيخ الملقن وعقل مريديه ؛

وأكثر الملقنين المتأخرين أشبه بالعامة يمتازون بشيء من الجربزة والدهاء[١] . وقد يكون لهذه الطبقة من القبول فى القلوب أكثر مما لوكانت على شيء من العلم .

وما برح منذ القديم يلتف حول أدعياء التصوف أناس من عُمَّار بيوت البطالة والجهالة . وفى أفرادهم من لو حللت تراكيب عقولهم لما رأيتها إلا مائلة عن الاعتدال . بيد أن هذه الفئات التى كانت وطأتها أشد ما تكون فى القرون الثلاثة الأخيرة حتى ما يكاد يخلو من انتحالها من كان يظن أنهم استناروا بقبس من نور العلم . عادت مؤخراً فتحولت فى عالم الكون والفساد ، وثاب أشد المتحمسين لها إلى رشدهم فى الجملة ، وزهد الناس فى تصوفهم هذا ، اللهم إلا أناساً ممن لا تميل فطرتهم إلى النشاط فى العمل ، أو من كان تحصيل الرزق فى أرجائهم هيناً ليناً ، ويرون من حكوماتهم معاضدة ضمنية بالسكوت عنهم ، بحجة حرية المعتقدات ، وكأنا بتلك المعتقدات المدخولة وصبيان المكاتب يردونها ، وكانت من قبل تمتلك قلوب طوائف من الناس ، هم بحسب العرف علية كل بلد .

يقول مارتان هارتمان من علماء المشرقيات الألمان : إن الطرق الدينية فى الإسلام تختلف عن الطرق الدينية فى النصرانية لأن لها تأثيراً سيئاً . وإن ما يظهر من أمرها يفسد الدين ويقلل من اعتباره ، فأهل الطرق البكتاشية والملامتية والمولوية والنقشبندية والقادرية على اختلاف أسمائهم هم خطر على الأمة مهما كانت مكانتهم . ويقول بعض كبار رجال الطرق المنتشرة فى إفريقية : إن الطرق أداة من أدوات التهذيب الدينى يعاد بواسطتها إلى حظيرة الدين كل من انسلخوا منه أوكادوا ، وأن مظاهر تلك الطرق تستميل قلوب العامة . والواقع أن من الطرق فى إفريقية ما نفع فى هداية العامة خصوصاً ما كان منها يحث المتلبسين بها على العمل . ومن الطرق ما وقف عثرة فى حلوق المبشرين بالأديان الأخرى .

(١) الجربز : كقنفذ الخب الخبيث والجربذة مصدر .

وبعد فقد وقف بعض رجال الشريعة موقف المخاصم للمتصوفة لخروج بعضهم على قواعد الملة ، ولأنهم حرفوا ألفاظ الشرع عن ظواهرها المفهومة إلى أمور باطنة لا يسبق منها إلى الأفهام فائدة ، كدأب الباطنية فى التأويلات ، مما توصلوا به إلى هدم جميع الشريعة بتأويل ظواهرها وتنزيلها على رأيهم « فأصبح كل ما ارتضاه السلف من العلوم قد اندرس ، وما أكب الناس عليه فأكثره مبتدع محدث » كما قال الغزالى . وتخلق الأمة بما يخالف دينها وعاداتها مضرٌ بها وبمن يتولى أمرها ، وقد تنحط بذلك إلى أدنى دركات الفساد ، ويكثر فيها المكر والخديعة والكذب والإباحة والظلم على ما قال العارفون .

هذا هو التصوف فى أصله وما انتهى إليه حاله عند المتأخرين ممن لا يفقهون معناه ، وإذا دخل فيه زيف[1] كثير فقد دخل أيضاً على علماء الظاهر خلل غير قليل ، وما دام هذا العلم منبعثاً عن أمور روحية تحتاج إلى ذوق لا يؤاخذ أرباب الأصول منه بما فعل أرباب الفروع ممن لم يتذوقوا هذا الفن ، وجعلوه آلة يتصرفون بها على أهوائهم ، ويتكسبون به وما يحتقبون[2] إلا ضعف العقول والتأكل بالفضول .

---

(١) يقال درهم زيف للذى دخله غش .
(٢) احتقب الإثم جمعه .

الفلسفة فى الإسلام :

بينا كان رجال الدين من الفقهاء والمحدثين والمتكلمين والمتصوفين يتباحثون ويتناقشون وينحى بعضهم على بعض ، كانت تترجم منذ عصر المنصور كتب الحكمة والفلسفة بهمة غريبة ، وما مضى القرن الثالث حتى كان العرب ترجموا كتب السريان واليونان والهند وفارس ، فدرسها بعض علماء المسلمين والعرب وأخذوا فى شرحها والتعليق عليها وإظهار غوامضها ، فبدأ الفلاسفة يظهرون بظهور هذه العلوم الطارئة على الملة . والفلسفة هى علم حقائق الأشياء والعمل بما هو أصلح(١) . هكذا عرفها القدماء ، وعرفها المحدثون بأنها علم المبادئ والعلل والبحث عن العموميات العالية للكائنات والبحث فى النفس والعالم وخالق الموجودات من طريق النظر الفكرى . وكان يدخل فى الفلسفة علم الطبيعة والأمور الإلهية والتعليمية والرياضية ، ويدخل فى العلم الطبيعى الطب والآثار العلوية والمعادن والنبات والحيوان والكيمياء وفى العلم التعليمى علم النجوم والموسيقى .

كانت الفلسفة فى القرن الثانى معروفة للباحثين ولا سيما لمن تعلموا فى مدرسة حران وفى مدرسة جُنْدَيْسابور من الصابئة والمانية واليعاقبة وغيرهم ولكن لم تنبعث شعلتها إلا فى القرن الثالث ، فسقط فيها بعض رجال الدين من المحدثين والفقهاء على أمور أنكروها ، فقاوموها وما قاوموا فى الحقيقة إلا ما جهلوا . ومن سوء بخت الفلاسفة أن كانوا فئة قليلة فى كل بقعة إسلامية ، وكان خصومهم كثرة فى كل أرض ، ولذا استضعفوهم فى الفترات وأنحوا عليهم ، وحاول هذا الكثير أن يقضى على ذاك اليسير وقد يكون الحق فى

---

(١) مفاتيح العلوم للخوارزمى .

جانب هذا القليل . كانت مع القوى المادة والسلطة والعوام[1] أتباع كل ناعق ، أو من كان مذهبهم مذهب إمامهم يعتقدون صوابه وأن ما عداه باطل ، ويوهمهم أنهم وصاحبه الناجون وغيرهم فى النار مخلد أو معذب . وليس مع الفئة القليلة من الخواص سوى أسلات أقلامهم ونبرات ألسنتهم ، وثقوب أذهانهم ، ونفوذ بصائرهم وأبصارهم ، وكانوا على كثير من الحق ، وكان منازعوهم على شىء من الباطل ، وكانت عاقبة هذه الحرب التى شبت قروناً نكبة العلم ، وإفلاس العقل ، وشلّ حركة البحث والنظر . ولكن الفلاسفة مع هذا ظهروا على من عاداهم بقوة علمهم وقوة بصيرتهم ، ونشروا تعاليمهم بالقدر الذى ينفع فى إنارة العقول وثقافة الجمهور وعمارة البلاد . وغلط بعض من اشتغلوا بالفلسفة أن استخدموا بعض فروعها فى تأييد العقائد فاتخذوها سلاحاً فى علم الكلام يقوون به برهانهم ، ومزجوا الإلهيات بالفلسفيات ، فكان فى ذلك ضرر على الكلام وعلى الفلسفة معاً ، ولما زج بعض علماء الفلسفة[2] أنفسهم « فى المجادلات الدينية التى أثارها من ادعى الإسلام من شيع الفرس والأعاجم ، وحملهم الجدل ولدد[3] العناء على الخلط بين العقائد الدينية وما لا ينطبق على أصول النظر ، انبرى لهم من بين الجماعة من أدحض لهم بعض قضاياهم ، وخاف الخلفاء شر الفتن فأمسكوا عليهم حريتهم ، وسقطوا فى هاوية كانت خاتمة أمرهم فى الإسلام ، ولولا ذلك ما وقف أمام العلم والصناعة متعنت ، ولا وقفت الحضارة الإسلامية عند حد محدود » هذا والإسلام[4] أول دين خاطب العقل ودعاه إلى النظر فى أسرار هذا الخلق العظيم من حيوان

---

(١) قال الجاحظ : إذا سمعتمونى أذكر العوام فإنى لست أعنى الفلاحين والحشوة والصناع والباعة ولست أعنى الأكراد فى الجبال وسكان الجزائر فى البحار . ولست أعنى من الأمم مثل البتر والطيلسان ومثل موقان وجيلان ومثل الزنج وأمثال الزنج ، وإنما الأمم المذكورون من جميع الناس أربع : العرب وفارس والهند والروم ، والباقون همج وأشباه الهمج . وأما العوام من أهل ملتنا ودعوتنا ولغتنا وأدبنا وأخلاقنا فالطبقة التى عقولها وأخلاقها فوق تلك الأمم لم يبلغوا منزلة الخاصة منها على أن الخاصة تتفاضل فى الطبقات أيضاً . اهـ .

(٢) أصول الفلسفة لأمين واصف .   (٣) اللدد : الخصومة الشديدة .

(٤) من مبحث لمصطفى عبد الرازق .

ونبات وجماد ، ورفع القرآن من شأن العقل فأطلق العنان للفكر ما شاءت قوته عظة واستدلالا ، وما قولك فى دين يقول أئمته بترجيح العقل على ظاهر الشرع عند التعارض ، والدين طريق القلب والعواطف ، والفلسفة طريقها العلم والنظر » .

اشتغل الفلاسفة فى الإسلام بشىء من التقية فى فلسفتهم ، حتى عند ما كانوا يرون من حماية بعض الخلفاء لهم ما ينشطهم على ما هم فيه ، كعهد المأمون الذى اضطهد أعداء الفلسفة ، وقضى بعض أرباب الشهرة فى سجنه الشهور أو السنين ، لأنهم كانوا يعادون الفلسفة ظناً منهم أن منها ما يعدو على الدين فيفسده . واعتقد المأمون بخلق القرآن[١] فوضع هذا المبحث موضع المناقشة بين العلماء فقال السواد الأعظم بقوله ، وأبى بعضهم تورعاً أن يوافق على أن القرآن مخلوق ، فطلب أن يمتحن القضاة والمحدثون لكشفهم عما يعتقدون فى هذه المسألة ، وأن يكتب إلى الآفاق بذلك ، فوافق أكثر الممتحنين ، وهرب أفراد وحاولوا التملص ، فأحدث هذا الرأى ضجة فى الأمة شأن كل فكر جديد ، وأوذى بعضهم ، وما كان المأمون يريد أذاهم . أراد تحكيم العقل فاتخذ أعداؤه من ذلك حجة للطعن عليه وسموا ذلك المحنة . على أن بعض المتأخرين من خلفاء بنى أمية فى أول القرن الثانى كانوا يرون رأيه لكن شغلتهم عن الجهر بما اعتقدوا على ما يظهر مسائل أهم من هذه وهى مسائل الملك والخلافة .

وعلى ما تخلل تلك المحنة من الثورة على الفلسفة رأينا عقلاء منهم فى أواسط القرن الرابع كالبستى والزنجانى والمهرجانى والعرفى وزيد بن رفاعة يؤلفون فى البصرة جماعة إخوان الصفاء ويضعون رسائلهم المشهورة ، يودعونها آراءهم . ومذهبهم خلاصة أقوال الفلاسفة الإسلاميين فى عصرهم بعد أن أخذوا الفلسفة عن اليونان والفرس والهند وعدلوها ، وقالوا[٢] إن الشريعة

---

(١) البلاغة سبيل الوزارة ؛ للمؤلف المجلد السابع من مجلة المجمع العلمى العربى .
(٢) تاريخ الحكماء للقفطى .

قد دنست بالجهالات ، واختلطت بالضلالات فلا سبيل إلى غسلها وتطهيرها إلا بالفلسفة ، لأنها حاوية للحكمة الاعتقادية والمصلحة الاجتهادية . وزعموا أنه متى انتظمت الفلسفة اليونانية والشريعة العربية فقد حصل الكمال . وستر إخوان الصفاء أمرهم وأخفوه عن الشمس والقمر ، مخافة أن يحل بهم ما يعوقهم ويقطع عليهم طريقهم ، وكانوا فى الغاية أدباً وعلما وذكاء ، وكان زيد بن رفاعة أحد رجالهم من أذكى علماء العالم . وهو والخليل بن أحمد وأبو الأسود الدؤلى من أفراد الدنيا فى تلك الأيام .

بل شهدنا صورة من الحرية فى القرن الثانى من أدهش ما دون . شهدنا عشرة فى البصرة يجتمعون فى مجلس لا يعرف مثلهم على ما قال خلف بن المثنى[1] : الخليل بن أحمد صاحب العروض سنى ، والسيد محمد الحميرى الشاعر رافضى ، وصالح بن عبد القدوس ثنوى ، وسفيان بن مجاشع صفرى . وبشار بن برد خليع ماجن ، وحماد عجرد زنديق ، وابن رأس الجالوت شاعر يهودى وابن نظير النصرانى متكلم ، وعمر بن أخت المؤيد مجوسى ، وابن سنان الحرانى الشاعر صابئ ، فيتناشدون أشعاراً وأخباراً ، ويتآلفون كما كان يتآلف فى بغداد جماعة أبى سليمان المنطقى محمد بن طاهر السجستانى ، الذين قيد كلامهم أبو حيان التوحيدى فى كتاب المقابسات[2] أواخر القرن الرابع ، ومنهم يحيى بن عدى والبوشجانى والمقدسى والعروضى والقومسى وعيسى ابن ثقيف الرومى وابن مقداد وأبو القاسم الأنطاكى وكان يعرف بالمجتبى وأبو محمد الأندلسى النحوى وأبو اسحاق الصابى والخوارزمى الكاتب ووهب ابن يعيش الرقى وابن سوار ومانى المجوسى وأبو الحسن محمد بن يوسف العامرى وعبيد الكاتب وغيرهم « من كل من هو واحد فى شأنه وفرد فى صناعته ، وكان فيهم المجوسى والصابى واليعقوبى والنسطورى والملحد والمعتزلى والشافعى والشيعى . ولم تصل إليهم يد السلطة الزمنية لاتصالهم على ما يظهر

---

(١) الأشراف لابن أبى الدنيا .

(٢) بحث فى أبى حيان التوحيدى لمؤلف فى مجلة المجمع العلمى العربى م ٨ .

بالأمراء . وكانوا فئة راقية وجمعيتهم أشبه بمجمع علمى ، وربما كان بعض المتعصبة ينظرون إليهم شذراً(١) ، وودوا لو يماشيهم رجال الدولة ليناقشوهم الحساب بالحق والباطل .

لاجرم أن بغداد كانت منذ أواسط القرن الثانى إلى أواخر القرن الخامس ميدان الأفكار الجديدة ، كما كانت البصرة كذلك منذ القرن الأول ، يقصدها العلماء من القاصية ويتألفون ويتذاكرون صنوف العلم ويتفاوضون الحكمة . وكانت دار السلام مدة ثلاثة قرون سرة العالم ، ومبعث الحركات الفكرية ، ومباءة العلم الوحيدة ، بل حاضرة الثروة والرفاهية والمدنية ، هان فيها على العلماء أن يوحدوا مقاصدهم ، وينظموا صفوفهم ، ويتناغوا بعلومهم وآدابهم ، ويرى معظمهم من الخلفاء تنشيطاً ومسامحة تقل وتكثر تبعاً لعلم صاحب الشأن ، ومبلغه ومبلغ رجاله من العقل .

وإذا قسنا حرية بنى العباس فى معنى السماح للفلسفة بحرية ملوك الطوائف والمرابطين والموحدين فى الأندلس ، نجد العباسيين أرقى كعباً من منافسيهم فى الغرب ، حاشا عهد الحكم المستنصر بالله الأموى الذى خدم هذا العلم ، لما جمع للعلماء من كتبه ، وأخذ بأيديهم وأطلق لهم العنان يعملون ، وربما كان من ملوك الأندلس من يحبون الفلسفة سراً ويظهرون خلاف ما يضمرون تقرباً من الجمهور . وكانت الفلسفة فى القرن الخامس فى الأندلس علماً ممقوتاً لا يستطيع صاحبه إظهاره كما قال ابن حزم . ومع هذا نبغ هناك عشرات من الفلاسفة أمثال ابن زهر وابن طفيل وابن رشد وابن باجة وابن الصائغ وأشباههم ، كما نشأ فى المشرق أمثال الرازى وابن سينا والفارابى والبيرونى . وكان هوى ملوك الأندلس بعد دولة بنى أمية مع العامة ، وهؤلاء يسيطر عليهم المتفقهة ، والملوك يفادون بالفلاسفة لإرضاء العامة ، هذا إذا لم يدرس بعض الملوك على الفلاسفة ، ويشوقوا العامة إلى النيل منهم ليفترصوها(٢) حجة

(١) النظر الشذر : هو النظر بجانب العين مع إعراض أو غضب .
(٢) افترص الفرصة : انتهزها .

فى تشريدهم ، ويشتدوا فى التضييق على الفلاسفة ؛ إذا شعروا أنهم غير راضين عن الدولة الحاضرة . ومن الفلاسفة من هام على وجهه لايلوى على شيء ، ومنهم من لزم بيته أو مسجده ، ومنهم من تظاهر بالجنون كما فعل ابن الهيثم الرياضى مع الحاكم بأمر الله .

واشتدت الحكومات فى القرن السادس فى مطاردة علوم الحكمة ، ولم يكن فى الدولتين النورية والصلاحية سلطان لغير حملة الشريعة ، وحرم ابن الصلاح فى المئة السابعة المنطق والفلسفة ، ولم يمكن أحداً فى دمشق من قراءة كتبهما . وقال المؤرخون إن الملوك كانوا يطيعونه فى ذلك . وابن الصلاح هو الملقب بتقى الدين وهو غير نجم الدين أبى الفتوح أحمد المتوفى سنه نيف وأربعين وخمسمائة وكان هذا فيلسوفاً طبيباً . ولما ولى الأشرف موسى نادى فى مدارس دمشق من ذكر غير التفسير والحديث والفقه أو تعرض لكلام الفلاسفة نفيته . وهذا كان فى أوائل القرن السابع . وقال الذهبى فى القرن الثامن : « إن الفلسفة الإلهية ما ينظر فيها من يرجى فلاحه ، ولا يركن إلى اعتقادها من يلوح نجاحه ، فإن هذا العلم فى شق ، وما جاء به الرسل فى شق ، وما دواء هذه العلوم وعلمائها والقائمين بها علماً وعملا إلا التحريق والإعدام من الوجود ، إذ الدين وما زال كاملا حتى عربت هذه الكتب ونظر فيها المسلمون ، فلو أعدمت لكان فتحاً مبيناً » . وهذا كلام الفقيه المتعصب . واشتد المتفقهة فى إرهاق من علم الفلسفة ، لكنهم لم يرهقوا المرهقين[1] فى دينهم من المتصوفة لأن عددهم كثير وجمهرة العامة منهم ، وقد اتخذهم بعض الملوك قوة الظهر لهم ، والجميع على طلب رضاهم والبعد عن غضبهم ، وعلى قدر ما كانت مخالب أرباب القوة تستطيع أن تنشب فى العزل[2] إلا من سلاح عقولهم ، كنت ترى إرهاق الحرية وإزهاق أرواح دعاتها يشتد بعد المئة الثامنة . ولا نعرف فيما وقفنا عليه أنه جاء فيلسوف يذكر بعد هذا القرن . وأشبهت الأسباب

---

(١) أرهقه ظلماً : ألحقه به والمرهق الموصوف بالرهق أى بخفة العقل والجهل والفاسد المتهم فى دينه .

(٢) العزل من لا سلاح له والجمع أعزال .

التى دعت إلى اضمحلال الفلسفة فى الأقطار العربية أسباب اضمحلالها فى مختلف الأقطار والأمصار[١]، فقد اضطهدت الفلسفة فى أثينا بسبب الشهوات السياسية والعصبيات الحزبية التى كثيراً ما تصبغ بصبغة دينية ، وعفت آثار الفلسفة من بلاد اليونان كلها عند ما رقت حالهم وفقدوا استقلالهم باستيلاء الرومان على بلادهم ، على نحو ما كان من ذلك فى الأقطار العربية ، وقد التصق بالفلسفة أناس ليسوا من أهلها من الزنادقة الظاهرين بالإلحاد والكفر ، المستهترين[٢] بما يأتون من المنكرات تحت ظل حرية التفكير السامى ، بريئة من كل منكر .

يقول رنان لما تغلب علماء التوحيد فى الملة الإسلامية وأصبحت لهم منذ سنة ١٢٠٠ م السيادة الكلية ، هجرت الفلسفة فى البلاد الإسلامية ، وأصبح المؤرخون والكتاب لا يذكرونها إلا من قبيل الذكرى بشىء من النفرة . ورأينا بعد ذلك كتب الفلسفة تنعدم وتندر والحظر يتناول تعليم علم الفلك إلا بقدر الضرورة لمعرفة اتجاه القبلة . وجاء الأتراك واستولوا على بلاد الإسلام وغلبت عليهم طبائعهم فأطفأوا نور الفلسفة والعلوم جملة ، وفى عهدهم انخفض لواء العلم والحكمة ، ولم ينبغ فى الإسلام عالم ذو فكرة وقادة إلا نادراً مثل ابن خلدون . اهـ .

تم للمتجرين بالدين ما أوره من سد منافذ العقل وأبواب النظر ، وقل فى هذه العصور المظلمة من تاريخ الإسلام من يعد فى المميزين المفكرين ، وبطلت علوم الحكمة جملة ، وصار من يتعاطاها بغيضاً إلى المسيطرين على الأفكار كأنه أتى أمراً إداً[٣] وخان دينه وملته ، وذلك فى العصر الذى بطل فيه النظر فى الأصول ، وتحتم على كل عقل أن لا ينظر فى غير الفروع مما أملته خواطر المتأخرين . اعتبر ذلك بما تلوه فى تراجم أعيان العلماء فى هذه القرون ،

(١) مقدمة علم الأخلاق لأرسطوطاليس تعريب أحمد لطفى السيد .
(٢) المستهتر بالشىء : المولع به ولعاً شديداً أو الذى كثرت أباطيله .
(٣) الإد والإدة : الأمر الفظيع .

فإنك لا ترى أعمالهم تتعدى الأقوال والآراء التى لاكتها الألسن ، يقدس أهل كل جيل قول من سلفهم ولو بأعوام قليلة ، ولا تكاد تجد لهم تأليفاً تقرأ فيه نور العقل والبحث ، والخلاص من التقليد والجمود ، وراح الفقهى يكفر الفلسنىّ ، والصوفىّ ينقم على الحديثىّ ، والأصولى يحمل على الفروعى ، واشتغل أهل كل قطر بل أهل كل مصر بتقديس من تواطأوا على تقديسهم ، والطعن على من عداهم ، وامتزجت علوم الدين بالمشاغبات والماحكات ، وتفاحش الاختلاف بين الشريعة أمس واليوم ، أو بين ما يطبق منها وما بقى فى النظريات ، حتى كادت بانتشار أطرافها يصعب الجمع بين أجزائها كما يصعب الجمع بين النقيضين .

قال أحد علماء الملة : الشريعة طب المرضى ، والفلسفة طب الأصحاء ، والأطباء يطبون للمرضى حتى لا يتزايد مرضهم ، وحتى يزول المرض بالعافية فقط ، وأما الفلاسفة فإنهم يحفظون الصحة على أصحابها حتى لا يعتريهم مرض أصلا ، فبين من يدبر المريض وبين من يدبر الصحيح فرق ظاهر وأمر مكشوف .

أصبح الناس بعد المائة السادسة تفتر هممهم شيئاً فشيئاً فى طلب العلم ، ورغبوا عن الافتتان بفنونه ، وحصروا نطاقه وعفوا بعض معالمه فأصبحت مجاهل ، وكثرت البدع وكثر الدعاة إليها . والتعويل عليها[1] ، وأشبه طالب الحق فى تلك العصور طلابه فى أيام الفترة وهم سلمان الفارسى وزيد بن عمرو ابن نفيل وأضرابهما ، وإن نشأة الإنسان على ما عليه أهل شارعه وبلده وجيرانه وأترابه صنيع أسقط الناس همة وأدناهم مرتبة ، وكان عمل من انحصر فيهم الدفاع عن حوزة الدين ضاراً ونافعاً ، قاتلوا الخارجين على الإسلام ومن انتحلوا نحلا جديدة ، فوحدوا الكلمة فى الجملة ، وأنزلوا الضرر بكل من خالفهم ولو قليلا فى أفكارهم ، هذا وهو لم يمس الجوهر ، وربما كان ظاهر سعيه لتأييد هذا الجوهر ، وراحوا يطلقون ألفاظ التبديع والتكفير على خاصة العلماء ممن لم يكونوا قرأوا كلامهم ، أو إذا قرأوه لا يفهمون أسراره ،

(١) إيثار الحق على الخلق للمرتضى اليمانى .

فاضطر كثير من العارفين الأذكياء إلى أن يقبعوا فى كسر[1] بيوتهم أو يعتصموا بالتقية المذلة ، وكانوا بين خوف العامة ، وعلى رؤوسهم بعض أولئك المتعصبة يهيجون أرواحهم ، وخوف السلاطين ومعهم أسواط العذاب يسوطون بها ويصولون ، وكلما اشتدت نقمتهم على العلماء صفق السواد الأعظم سروراً ، ولما يعرفوا السبب فى تصفيقهم ، والجمهور مجنون كما قيل .

وما يدرينا أنه جاء فى الأمة رجال كتموا شيئاً من الحقائق مخافة أن يعرفوا بها فيهلكوا ، وبذلك حقنوا دماءهم ، واتقوا تقاة أنجتهم من تسلط العتاة الطغاة ، والملحوظ أنه ضاعت أخبار كثيرة من هذا القبيل ، لأن من دونوا استصغروا على ما يظهر شأن ما وقع فى هذا الباب فأغفلوه ، إهمالا له أو تقية ومتاقاة ، وتجافى كثير من أرباب الأفكار المستنيرة عن تدوين ما وقع فى نفوسهم ، أو وقع لهم من المشاكل والمشاغب ، خشية أن تسقط مدوناتهم فى أيدى أعدائهم فتكون حجة فى الخلاص منهم .

وربما لا يخطئ من يدعى أنه خرق النظام القريب المأخذ ، وشعبوا منه ما لم يكن لأحد من أهل القرنين الأولين عهد بمثله ، تساهلوا فى إدخال ما يضر أو ما لا يضر ولا ينفع ، وضيقوا الخناق على الفكر ، ورموا إليه بالتافهات يشغلونه بها ، ومنعوا عنه الطيبات ، وتحكموا فى القرائح فأخرجوها عما وضعت له ، فتقلقلت أو جمدت ، والجمود هو الموت بعينه ، وقفت الأذهان بالجهل والتعصب فجنى الجهلة على الدين والدنيا ، ذلك لأنهم نظروا إلى كل أمر بمنظار الدين ، ولم يتركوا الدنيا تسير بما هو أصلح لها ، ولطالما كانوا ولا يرضيهم إلا إهلاك من خالفوهم تقرباً إلى الله ووسيلة .

وقف الجامد عند الحد الذى تصور فيه السلامة ، وآلى أن لا يتقدم إلى الأمام لأن قريحته خانته ، وأظلم طريقه ، وما كان وقوفه تراجعاً بل

(١) قبع : استتر . والكسر بفتح الكاف وكسرها . الجانب من البيت .

فناء ، ووقف الجاحد عند حد إنكار كل ما لا ينطبق على رأيه وعقله ، من دون روية ولا درس ، وكان الاثنان بين جاهل وأجهل : الأول قضى على الدنيا ، والثانى قضى على الدين . جاءت طائفة من الجاحدين تقول إن النجوم ناطقة مدبرة وكذلك الفلك ، ورأت أن إنكار كل شىء فى الدين أسهل عليها فأنكرت . وجاءت طائفة من الجاحدين تدعى أن الأرض على حوت ، والحوت على قرن ثور ، والثور على صخرة ، والصخرة على عاتق ملك ، والملك على الظلمة ، والظلمة على ما لا يعلمه إلا الله ، فأى جمود أكثر من هذا وجحود أبشع من ذاك .

وما أجمل ما قال محمد عبده : «لم أر كالإسلام ديناً حفظ أصله ، وخلط فيه أهله ، ولا مثله سلطاناً تفرق عنه جنده ، وخفر عهده ، وكفر وعيده ووعده ، وخفى على الغافلين قصده ، وإن وضح للناظرين رشده ، أكل الزمان أهله الأولين ، وأدال منهم خشارة[1] من الآخرين ، لاهم فهموه فأقاموه ولاهم رحموه فتركوه ، سواسية[2] من الناس اتصلوا به ، ووصلوا سببهم بسببه ، وقالوا نحن أهله وعشيرته ، وحماته وعصبته ، وهم ليسوا منه فى شىء إلا كما يكون الجهل من العلم ، والطيش من الحلم ، وأفن[3] الرأى من صحة الحكم اه .

ضاع العلم بين جامد فى دينه ، وجاحد فى يقينه ، وكان طالع الفلسفة النحس لأن أصحابها كانوا أبداً بين نارين ، نار الملوك ومعهم السلطات كلها ، ونار رجال الدين وسلطانهم ، ووقر[4] فى نفوس المسلمين كما كان النصارى فى بعض عصورهم أن السلامة فى ترك الفكر ، والأخذ بالتسليم والاستسلام

---

(١) الخشارة : سفلة الناس .
(٢) سواسية : أى سواء .
(٣) الأفن : ضعف الرأى .
(٤) وقر فى القلب : سكن فيه وثبت .

للأمر الواقع ، وسرت إلى الناس قاعدة « الجهالة أم التقوى » وكان بعضهم يتشدق ويقول « اللهم إيماناً كإيمان العجائز » وتغير الزمان وارتقت العقول ، وهجمت المدنية الغربية على الإسلام، وذاك الجامد مازال على جموده « يمهد[1] لأعداء المدنية الإسلامية الطريق لمحاربة هذه المدنية ، محتجين بأن التأخر الذى عليه العالم الإسلامى إنما هو ثمرة تعاليمه ، والجامد هو سبب الفقر الذى ابتلى به المسلمون ، لأنه جعل الإسلام دين آخرة فقط . والحال أن الإسلام هو دين دنيا وآخرة ، وأن هذه مزية له على سائر الأديان . فلا حصر كسب الإنسان فيما يعود للحياة التى وراء هذه ، كما هى ديانات أهل الهند والصين ، ولا زهد فى مال الدنيا وملكها ومجدها كتعاليم الإنجيل ، ولا حصر سعيه فى أمور هذه المعيشة الدنيوية كما هى مدنية أوربا الحاضرة .

« الجامد هو الذى شهر الحرب على العلوم الطبيعية والرياضية والفلسفية وفنونها وصناعاتها ، بحجة أنها من علوم الكفار فحرم الإسلام ثمرات هذه العلوم ، وأورث أبناءه الفقر الذى هم فيه وقص أجنحتهم ، فإن العلوم الطبيعية هى العلوم الباحثة فى الأرض ، والأرض لا تخرج أفلاذها إلا لمن يبحث فيها ، فإن كنا طول العمر لا تتكلم إلا فيما هو عائد للآخرة قالت لنا الأرض : اذهبوا تواً إلى الآخرة فليس لكم نصيب منى . ثم إننا بحصر كل مجهوداتنا فى هذه العلوم والمحاضرات الأخروية ، جعلنا أنفسنا بمركز ضعيف بإزاء سائر الأمم التى توجهت إلى الأرض ، وهؤلاء لم يزالوا يعملون فى الأرض ، ونحن ننحط فى الأرض إلى أن صار الأمر كله فى يدهم ، وصاروا يقدرون أن يأفكونا[2] عن نفس ديننا فضلا عن أن يملكوا علينا دنيانا . . . والمسلم الجامد لا يدرى أنه بهذا المشرب يسعى فى بوار ملته ، وحطها عن درجة الأمم الأخرى ، ولا ينتبه لشىء من المصائب التى جرها على قومه إهمالهم للعلوم الكونية حتى أصبحوا بهذا الفقر الذى هم فيه ، وصاروا عيالا على أعدائهم الذين لا يرقبون

(١) لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم لشكيب أرسلان .
(٢) أفكه أفكاً عن رأيه : صرفه وقلب رأيه .

فيهم إلاً(١) ولاذمة ، فهو إذا نظر إلى هذه الحالة عللها بالقضاء والقدر بادئ الرأى ، وهذا شأن جميع الكسالى فى الدنيا يحيلون على الأقدار. اهـ » .

وأقوى الأسباب فى هذا الجمود الذى أدّى إلى فناء العلم والصنائع كون العلوم التى تقوّى ملكة العقل . وتعين على نجاح الصنائع وجلب الثروة ، قد بطلت جملة واحدة بعد القرن العاشر وأصبحت العلوم الطبيعية والرياضية والتاريخية من علوم الكفر ، لا يدرسها إلا من يهون عليه بزعم المتعصبين أن ينحل من معتقداته ومقدساته ، وغدا ينظر إلى من كان له إلمام خفيف بفرع من فروعها كأنه بعض المتهوّسين(٢) والقصاصين ، بل القصاصون أرفع مقاماً من المؤرخين(٣) ، وربما اعتبر المجاذيب والحشاشون والطبالون والمؤذنون أكثر من المهندسين والمتطببين والمؤرخين والفلكيين والجغرافيين ، وجاء عصر المتجرئين على الفتيا يقولون بتحريم هـــذه العلوم ، وكانت تقرأ فى مدارس المسلمين منذ القرن الثالث إلى التاسع فى جملة العلوم التى لها مساس بالشرع .

هذا إلى ما هنالك من انتشار الفوضى العقلية بين المسلمين(٤) « وتحت حماية الجهلة من ساستهم فجاء قوم ظنوا فى أنفسهم ما لم يعترف به العلم لهم فوضعوا ما لم يعد فى الإسلام قبل باحتماله ، غير أنهم وجدوا من نقص المعارف أنصاراً ، ومن البعد عن ينابيع الدين أعواناً ، فشردوا بالعقول عن مواطنها ، وتحكموا فى التضليل والتكفير ؛ وغلوا فى ذلك حتى قلدوا بعض من سبق من الأمم فى دعوى العداوة بين العلم والدين ، وقالوا لما تصف ألسنتهم الكذب هذا حلال وهذا حرام » .

الفلسفة علم الخاصة وإضعاف أمرها إضعاف للعقول المفكرة فى الأمة(٥) « ولطالما قال القائلون إن قليلا من الفلسفة يبعد عن الدين وإن كثيراً منها يعيد

---

(١) الإل : العهد . (٢) الهوس : طرف من الجنون . وتهوس : صار به هوس .

(٣) الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة للنجم الغزى (مخطوط) .

(٤) الإسلام والنصرانية لمحمد عبده .

(٥) نظرات فى سير الأفكار والحوادث فى العصور الحديثة لكورنو (بالفرنسية) .

إلى حظيرته . وهذه الكلمة لا تخلو من غموض ، فيها إشارة إلى قدرة العقل الإنسانى وإلى ضعفه وعجزه، ولها نتائج أخرى غير التى يراد إلصاقها بها . إذ من البديهى أن جمهور الناس لا يكونون فلاسفة فهم بين حالين إما أن يتذوّقوها قليلا وإما أن يبتعدوا عن الأخذ بمذاهبها جملة . ولئن سدت الذريعة دون كل فلسفة تتسرب إلى آراء الجمهور ، فإنه مما لا مناص منه أن تأثير المعتقدات الدينية يضعف إذا كان الناس على استعداد لذلك ، أو كانوا يدعون أن أفكارهم تحسن فهم الفلسفة أو يظهرون آن الأوهام لا سلطان لها على عقولهم فيجادلون فى المعتقدات والتكاليف ، ويرون من الأفكار ما لا ينطبق على عقولهم ولا يخرج عن حدود الطبيعة . وفى هذه الحال لا يحول دون سراية الأفكار الفلسفية غير سيطرة المجتمع فهو أفضل ضامن للقضاء على ما لا يصح من الحقائق . وهذا أفضل من اللجوء إلى المحاكمات والتعذيب فى السجون والمطابق بما لا يقبل الجدل » .

الآداب ؛ الشعر والنثر والخطابة :

كان الأدب العربى يرتقى ويتدنى بفعل الحكومات ، وعلى مقدار أخذها بأيدى الشعراء والكتاب ، فالشاعر المشهور فى الدولة الأموية هو الذى خاض فى مسائل سياسية ، ودعا إلى عصبية ، ومدح بعض القائمين بالأمر أو قدح فيهم ، وفاخر بقومه وملته ، والموافقون للخلفاء يلقون منهم أبداً معاضدة ورفدا ، والشعراء أدوات دعاية للعظماء والزعماء ، وعلى هذا جرى الشعر فى دولة بنى العباس ولا يكاد يشتهر فيها إلا من لابس الكبراء ، وتقرب من قلوب الخلفاء والأمراء ، بهذه الضروب من الشعر ، وأهمها فى نظرهم المديح والهجاء . وكان الشعراء منذ عهد الراشدين بل منذ عهد صاحب الشريعة يُدعون إلى قول الشعر بما يخدمون به الدعوة الدينية أولا ثم الدعوة السياسية : ومنذ عهد حسان وأغراض الشعر تدور على صاحب السلطان إلى أن تأذن الله بانقراض الدول العربية ، وتولى أمر العرب ملوك من الأعاجم لا يفهمون الكلام العربى فضلا عن أن يقيموا للبلاغة وزناً .

فالشعراء الذين اشتهروا مثلا فى عهد الرشيد والمأمون هم الذين مدحوا هذين الخليفتين وخدموا الدعوة العباسية ، والشعراء الذين اشتهروا فى عهد معاوية وعبد الملك هم الذين تطوعوا فى إيراد محامد الأمويين والمروانيين ، ونالوا من خصومهم ، والشعراء الذين اشتهروا فى دولة الأندلس الأموية ثم فى الدول الخالفة هم الذين تعلقوا من خدمة سلطانهم بسبب ؛ وشعراء الفاطميين وشعراء سيف الدولة بل شعراء ملوك الطوائف عامة ، هم الذين كانوا سبيلهم سبيل غيرهم فى الدفاع عن الحوزة وتبجيل صاحب القوة . وما راج الشعر إلا إلى جانب سلطان يفضل فى الجملة على صاحبه ، ويستنشده ويعضده ويهتز لمديحه ، ويحاذر من سلاطة لسان صاحبه .

وهكذا كان من النثر ولكن على مقياس مصغر ؛ لأن النثر لا يتناقل كالشعر ، ولا يسهل حفظه ، وإن كانت أغراضه أوسع رقعة ، والحاجة إليه فى التأليف والتصنيف ظاهرة محسوسة : ومع هذا اشتهر الكتاب الذين خدموا الدول أكثر من أقرانهم الذين عزفت نفوسهم عن الخدمة ، حاشا أفرادا من المبرزين اشتهروا على بعدهم عن السياسيين ، وما كانت شهرتهم تستفيض هذه الاستفاضة أيضاً لولا أنه كان فى رجال الدولة ، بل من الخلفاء أنفسهم ، من كانوا يعرفون أقدارهم ، ويغدقون عليهم الهبات لتآليف لهم يهدونها إليهم ، كلما وضعوا شيئاً . ويفضلون خصوصاً على المبرزين منهم أمثال البلاذرى والجاحظ والأصفهانى وابن قتيبة والثعالبى .

وبدأ الشعر ينحط منذ قل فى الولاة من يقدره قدره ويثيب عليه ، وأخذ النثر فى القرن الرابع يتدلى بظهور أناس من الكتاب تعلقوا بالأسجاع ، ومن أشهرهم الصابى وابن عباد وابن العميد والخوارزمى وأضرابهم ممن أخرجوا الكتابة عن طريقتها المرسلة التى حصرت فى التأليف ، وتشبث كتاب الدولة بالسجع ومنه الطبيعى وأكثره متكلف . فاعتور الانحطاط علوم الآداب

وما إليها كما اعتور علوم الدين ، منذ انقطع فى القرن الخامس ظهور كبار الشعراء ، وبقى فى الشعراء ذَماء[1]من قوة إلى حوالى القرن السابع ، وتدهور بعد ذلك تدهوراً عظيما ، إلى أن جاءت القرون الأخيرة فأصبح هيكلا من العظم لا دم فيه ولا لحم . وكان ضعف الإنشاء على تلك النسبة ، فأمست كتابة المؤلفين ضعيفة معقدة لا رشاقة فيها ولا سلاسة ، إذا خرجت عن قوانين السجع والترصيع تفقد جمال الديباجة ، وتندر المعانى وينعدم الإبداع ، ويستغرب فى القرنين الثامن والتاسع ظهور مؤلفين مثل ابن خلدون وابن الخطيب فى المغرب والمقريزى والقلقشندى فى المشرق يكتبون العربية بهذه الرشاقة وهذا الإبداع ، وما كان لهم شىء من لطف الأداء ، لو لم يكونوا استقوا مادتهم من فحول الأقدمين ، ولم ينطووا على علم كثير ومعارف واسعة .

أصبح الأدب فى عهده الأخير عبارة عن شعر مبتذل ركيك ، واستحال إلى أماديح لا غرض منها إلا الكذب على الممدوحين لتلقف هباتهم ، أو غزل فج لا يعدو غزل كل عصر بمعناه ، وهو ساقط مبتذل . وللنثر أساليب منقولة ، وألفاظ مدخولة ، وجماعه جناسات واستعارات ، أفسدت اللغة بهذا البديع المريع . ولو أردت أن تنقل إلى لغة أخرى ما كتبه أكثر المسجعين لاقتضى لك على الأقل أن تحذف نصف جمله ومترادفاته المكررة . هذا إذا لم يكن المعنى المراد أداؤه تافهاً فى ذاته . ولا يطالعك شاعر بصورة من صور عصره إلا إذا كان مما أخذ فيه بحظ وافر من التكلف والتعسف ، خلافاً لما نرى مثلا فى بعض شعراء عصرنا ممن إذا قرأت شعرهم تتجلى لك منه روح العصر أو أكثره .

ولم يأت أحد بعد القرن التاسع فى هذا الشرق العربى بضرب من الأدب يخلد صاحبه ، وينتفع به على غابر الأيام ، أو بتأليف طريف لا يستغنى عنه جمهور الناس ، ويعدُّ ضياعه ثلمة فى بنيان التآليف العربية . وإذا

(١) الذماء : بقية الروح .

كتب لأحدهم الولوع بالأدب فيكون ذلك عن باعث نفسى فقط يتزين به صاحبه بين الملأ ويتجمل بطرائفه أمام الأقران والجيران ، وضاق المحيط على الشاعر والكاتب فأصبح ابن اليمن منعزلا عن البشريتوهم أن أفق العالم ينتهى ببلده ، وابن الشام لا يعرف شيئاً يذكر عن ابن بغداد ، وابن أصفهان ونيسابور لا يبلغه عن ابن سمرقند وبلخ إلا أخبار متقطعة فى السنين الطويلة ، بل ابن فسطاط مصر لا يعرف من أخبار ريفها إلا ما لا بال له ، وابن فاس لا صلة له بابن الجزائر ، وابن القيروان لا يكاد يعرف أمراً عن ابن برقة ، إلا كما نعرف عن بلاد واق الواق . وصعب الارتحال على الناس لفتور هممهم فى كل شىء ، واكتفى كل قوم بما وقع تحت أنظارهم من الأفكار ، وكانت الحكومات من أهم العوامل فى هذا التباعد والجهل .

هذا ما كان من أمر الشعر والنثر ، وتاريخهما فى الجاهلية والإسلام طويل ، وتدنيهما أيام الانحطاط إلى حد السخف والهراء أطول . بقى أن نقول كلمة فى الخطابة ، وكانت العرب فى جاهليتها لا تعدم كل قبيلة خطيبها أو خطباءها كما لا تخلو من شاعرها أو شعرائها . ورقيت الخطابة فى الإسلام بفضل الرسول وأصحابه والخلفاء وقويت حين نجمت الخصومة السياسية الحزبية بين المسلمين[1] والذى دوّن من كلام الخطباء وروى من خطبهم ، آية البلاغة على وجه الدهر . وجاء الإسلام وصاحبه أخطب أمّته ، وفى أصحابه من مصاقع الخطباء كالراشدين ومن قاموا باستصفاء هذا الملك ونشر الدين واللسان فى الأمصار ، ما هو مفخرة من مفاخر الأمم ، وأتى خلفاء الأمويين ومعظمهم خطباء[2] ومنهم من يعد فى أرقى طبقات الكتاب ، وفى قوادهم وعمالهم نبغ الخطباء الأبيناء ، والكتاب الذين لا يشق لهم غبار . وكذلك خلفاء بنى هاشم ورجالهم ، وكذلك خطباء بنى على وكذلك خطباء الخوارج وخطباء المعتزلة .

(١) فى الأدب الجاهلى لطه حسين .

(٢) البيان والتبيين للجاحظ .

ولم يبدُ الضعف إلا لما أخذوا يوسدون الخلافة إلى الجهلة ، فأنشأ هؤلاء ينيبون عنهم فى خطب الجمع والمواسم والمجتمعات العامة ، وبقدر ما كان يقل اشتراك النبغاء النابهين بأمور الدولة . كان خطباء السياسة يقلون بل يندرون ، وعلى نسبة تدنى العلم والعمل كان خطباء الجوامع إلى التقليد بعيدين عن المسائل التى تشتد رغبات العاقلين فى حلها أو سماع ما يقال فيها ، لا يأتون فى الأكثر إلا بالساقط من الكلام . والضعيف من المعانى والأحكام ، حتى غدوا سبة على البيان ، وعدم الانتفاع بخطبهم الملفقة ، وأصبح معظم الناس يتجافون عن سماع خطب توجع الرؤوس بلا فائدة .

كان القصاص منذ الصدر الأول أشبه بخطباء فى الجيوش والمساجد يوم الحفل ، فضعفوا أيضاً وضعف بيانهم بضعف العلم وشلل الأدب وفساد السياسة ، وقلما جاء قاص أو واعظ أو خطيب يؤثر كلامه بعد أن انحل أمر العرب أو كاد ، ودخل الأعاجم يكاثرونهم ويجاذبونهم حبل السلطة ، وبقدر ما كانت النفوس تزهد بالعلم ، والعجمة تدخل على اللغة وأبنائها ، واللسان يفسد بملابسة العرب لمن عداهم من الأمم ، كانت الخطابة تتراجع ، والبلاغة تستحيل إلى فهاهة . وأخذ خطباء السياسة وخطباء الدين يعمدون إلى إعداد خطبهم ، وإذ كانوا ضعافاً فى صيغ الكلام ، جاءت خطبهم مثالا ظاهراً من الضعف والتقعر ، ثم انحطوا بعد عصور إلى أكثر من ذلك ، فأصبح الخطيب يأخذ كلام غيره ، ولا يحسن تلاوته أو التصرف فيه . وتولى خطابة الجوامع[1] العامة ومن فى طبقتهم ، فغدا نصف خطبهم فى الزهد على غير طريقة السلف ، والنصف الآخر دعاء يحفظونه لا يخرمون منه كلمة ، ثم هم يدعون بأدعية مردودة ، ويتعلقون ببيان فضائل الشهور والأيام والبلدان والأماكن والجوامع إلى آخر ما يرددونه من البدع التى ينكرها الشرع ، فلا هم يعرفون

(١) القديم والحديث للمؤلف .

كيف يعالجون حقائق الحياة ، ولاهم ممن استعدوا بالثقافة لبث الأفكار الصحيحة ، وتهذيب النفوس على ما ينفعها فى المعاش والمعاد .

وبعد أن كان الخطيب أعظم أداة فعالة فى قيام أمر الجماعة وسياسة الملك والدولة ، وأنفع مدرس يلقى على أهل البلد فى الجمعة والعيد والحج كل ما يصلحهم ، أصبحت الخطابة من العوامل فى صد الناس عن التحلى بالفضائل ، تلقنهم الاتكال المذموم ، وتعبث بعقولهم فتلقى فى القلوب أمورا لا تنفع بل تضر ، وتسمعهم مواعظ تخدش الملكات الطبيعية ، وتلقى بالأمة فى عالم من الخيال لا أثر للعمل فيه ، وتسوقها إلى حياة لو جرى الناس فيها على ما يراد منهم لبطل حتى الكدح للمعاش . وفقدت كل دعوة إلى إصلاح وفضل ، وآضت دواوين الخطب فجة سخيفة تلوكها ألسن جاهلة ، قد لا تصحح حتى الآيات والأحاديث المأثورة . وعلى هذا أمست مطالب الناس فى واد ، وخطب الخطباء فى واد آخر .

وكان من أكبر الدواعى إلى هذا الجمود المميت أن كان من تولوا أمر هذه الأمة فى القرون الأخيرة أعاجم جهلة ، لا يعرفون غير شهواتهم ، ولا يهتمون لتعليم الناس ولا لإصلاح نفوسهم ، بل يعدون الجهل ضرباً من ضروب الإدارة والسياسة ، وغاية ما يتطلبونه من خطباء الجوامع فى الأعياد والمواسم أن يشيدوا بذكر الدولة القائمة ، ويدعوا لخليفة الوقت ودولته الظالمة بالنصر والتمكين إلى يوم الدين !

نعم كانت الجوامع فى الإسلام مدارس دائمة الفيض فى تعليم العامة والخاصة ، فأصبحت بالمستبدين من السلاطين بؤرة لتلقين الخمول ، لا تؤوى إلا الكسول . وكانت قصور الملوك والأمراء ميداناً يتنافس فيه الشعراء والعظماء من العلماء ، فيكون من مساجلاتهم وإنشاداتهم عموم النفع فى تثقيف الطبقات المختارة ، تسرى سريعاً إلى صفوف الجماعة يتلقفونها ويتدارسونها فأصبحت مصادر الشهوات والدسائس والمظالم ، والكلام فيها لا يعدو قانوناً معيناً ، وفيه كثير من السخف والركاكة . وكانت دواوين الإنشاء فى العواصم

الإسلامية الكبرى من أعظم دور الأدب فى تخريج المنشئين والكاتبين ، فأصبحت تتقيد بالمثال الذى يريده صاحب السلطان ، وكل من يأتى يستظهره أو ينقله برمته ، وقد لا ينطبق على منطق معقول ، ولا يوفى بمقصود العصر .

ولولا أن هبت على مصر معلمة الأقطار العربية ، هبة مباركة نحو المعالى ، فقام فيها فى مفتتح هذا القرن خطباء نبهاء فى السياسة المدنية والشرعية ؛ ونشأ فى واديها البهيج من الكتاب والشعراء أو المؤلفين أناس أعادوا إلى اللغة بعض رونقها ، وألبسوها حلة من حلل العلم الحديث مطرزاً بآيات فصيح القديم ، فنسجت بعض الأقطار العربية الأخرى على منواله ، لما شهدنا هذا الفرق المحسوس بين أدب هذا القرن وأدب القرون الستة التى سبقته . وأقل مقارنة بين ما تنتجه مصر اليوم مثلا فى جامعتها ومدارسها وأزهرها وصحافتها وطباعتها ، وما كانت تنتجه فى القرن الماضى ، تتجلى بها للناقد البصير الدرجات العالية التى تصل إليها أمة تعمل وتعلم بفضل حكوماتها وأفرادها ، وأمة قضت عليها جهالة سلاطينها ففنيت فيهم ، حتى تركوها كالسائمة ترسف فى مؤخرة الشعوب ، وباعدوا بين حاضرها وغابرها .

والواقع أن مصر كانت ولا تزال المجلية فى هذا المضمار ، ومشت على آثارها الشام ثم تونس ثم بعض الأقطار العربية . فربط شعراؤها وكتابها ومؤلفوها وخطباؤها حديثهم بقديمهم ، وأصبحوا يعدون شيئاً بين أرقى أمم الحضارة فى الآداب . والآداب أول ما يرقى من المظاهر فى الأمة الآخذة بالنهوض . وهذه دور العلم فى معظم الأقطار العربية تذكر العرب بأيامهم الغرّ المحجلة ، وبلغاء أساتذتها يعيدون إلى لغتهم نضارتها أيام عزة الأمة ، حتى لو عاد رجل إلى الحياة من أهل القرن الماضى وشاهد هذه النهضة الأدبية لما صدق أن الناس يبرزون فى الفضل هذا التبريز ، والله أعلم ما سيكون منهم بعد نصف قرن آخر ، وقد تشبع بحب اللغة والقومية حتى أضعف طبقات المجتمع ، وغدا كل إنسان يشعر بضعفه ويسعى إلى قوته وكماله .

الفرق الإسلامية :

بدأت الاختلافات فى الأصول فى آخر أيام الصحابة بمقالة معبد الجهنى وغيلان الدمشقى ويونس الأسوارى ، فى القول بالقدر ، وإنكار إضافة الخير والشر إليه ، ومذهبهم القول بالقدر خيره وشره من العبد واختياره فى أفعاله ، وأن الإمامة تصلح فى غير قريش ، وكل ما كان قائماً بالكتاب والسنة كان مستحقاً لها . ونسج على منوالهم واصل بن عطاء وكان تلميذ الحسن البصرى ، وتتلمذ له عمرو بن عبيد . واعتزل واصل عنهم فسمى هو وأصحابه المعتزلة ، وسمى من جادلهم بالحشوية[1] ، والحشوية بمنزلة السفسطائية عند الحكماء لأنهم وضعوا من العقل ما رفع الله من شأنه وكان يجلس من خالفوا فى حلقة الحسن البصرى ، فلما وجد فى كلامهم حشواً أى كلاماً لا فائدة فيه قال : ردوا هؤلاء إلى حشى الحلقة أى جانبها ، فسماهم الناس حشوية لذلك ، وقيل إنهم منسوبون إلى الحشو بمعنى العامة ، والشيعة تطلق اسم العامة على أهل السنة . وقيل إن المعتزلة سموا بهذا الاسم لاعتزالهم أقوال الأمة ، وقيل لقولهم بأن صاحب الكبيرة اعتزل عن الكافرين والمؤمنين ، ذلك لأنهم قالوا إن الفاسق لا مؤمن ولا كافر منزلة بين منزلتين .

قوى أمر المعتزلة وهم أئمة العقل والبحث ، وكان بعض الخلفاء يسمع لمقالاتهم ومنهم من كان يريد بهم الشر ، ويسوموهم سوء العذاب ، ولو خلا مذهبهم من عقبة السياسة ولم يتشددوا فى شروط الخلافة لانتشر فى الآفاق

---

(١) نظن أبا بكر الخوارزمى يقصد بالحشوية فى إحدى رسائله جماعة أهل السنة كما قال : ونعوذ بالله من رعونة الحشوية ، ومن لجاج الحرورية ، وشك الواقفية وإرجاء الحنفية ، وتخالف أقوال الشافعية ، ومكابرة البكرية ، ونصب المالكية ، وإجبار الجهمية والنجارية ، وكسل الراوندية ، وروايات الكيسانية ، وجحد العثمانية ، وتشبيه الحنبلية ، وكذب الغلاة الخطابية ، ولو أنصف لقال ومن المبالغات الفارسية والتعصبات الغالية . وقد أطلق بعض الفقهاء اسم الحشوية على بعض المحدثين لأنهم ينقلون الغث والسمين وفى الأساس : « النوابت » طائفة من الحشوية أحدثوا بدعاً غريبة فى الإسلام وقرنهم الجاحظ بالرافضة فى رسالة له فيهم .

ومع هذا سرى إلى الأندلس غرباً وإلى خراسان وما وراء خراسان شرقاً . وانتشر على عهد المأمون لأنه كان عالماً يقول بحرية النظر ، معجباً بعلم رجالهم وفضائلهم . وقاومهم المتوكل مراعاة للعامة ، وكانوا أبداً كما قال أستاذنا الجزائرى(١) بغيضين إلى العامة والأمراء . أما الأمراء فلما يشترطونه فى الخلافة من الشروط مما إذا انتشر فى أفكار العامة لا يتيسر لأمير أو ملك أو خليفة أن ينطلق فى أمر الأمة بما يشاء . وأما العامة فلأنهم ينفرون ممن يخرجهم عن الدين بمجرّد إتيان المنكرات التى أطلق لهم العنان فيها من طرف خفىّ أمراء السوء ، ممن يهمهم أن تكون العامة ممن يعينونهم على مقاصدهم ، وكانت المعتزلة أعظم الفرق المناضلة عن الدين وشبه الملحدين . ا هـ .

يقول نيبرج(٢) : يظهر أن لمذهب الاعتزال أصلا يرجع إلى السياسة نشأ على مثال ما نشأ مذهب التشجيع والخوارج ، فإن استخلاف علىّ كان الخطر الأعظم الذى جرت منه المجارى فى تاريخ الإسلام . ومعلوم أن كثيراً من المشار إليهم بالبنان من أصحاب الرسول أبوا أن يعترفوا لعلى بما طلبه منهم ، أو بايعوه ، خلافاً لما كانوا يبطنون ، وفى مقدمتهم طلحة والزبير ومنهم سعد بن أبى وقاص وعبد الله بن عمر ومحمد بن مسلمة وأسامة بن زيد وصهيب ومسلمة بن وقش وزيد بن ثابت. وكان من طلحة والزبير أن ثارا علناً على علىّ ، ومعظمهم ظلوا على حيدتهم ، وتابع أهل المدينة هؤلاء الرجال على خطتهم وكذلك الأحنف بن قيس فى البصرة مع ستة آلاف من بنى تميم ورأس الأزد صبرة بن شيمان امتنعوا عن الدخول فى الفتنة . وقد وردت فى النصوص التى تشير إلى ذكر هؤلاء الناس كلمة اعتزال ، ومعناها الاستنكاف والامتناع والابتعاد ، وهى لفظ أصبح يعبر عن السياسة الحاضرة بمعنى أن صاحبه يربأ بنفسه عن الدخول فى الفتنة بين علىّ وخصومه . ويقول النوبختى فى كتاب فرق الشيعة إن فريقاً من الصحابة عندما بويع لعلى قد اعتزل الدخول مع الداخلين واتبعوا سعد بن أبى وقاص وعبد الله بن عمر ومحمد بن مسلمة وأسامة

(١) مبحث المعتزلة فى كتاب القديم والحديث للمؤلف . (٢) معلمة الإسلام . المعتزلة.

ابن زيد فاعتزل هؤلاء علياً وأبوا أن يقاتلوه أو يشايعوه فدعوا « المعتزلة » وهم أجداد جميع المعتزلة اللاحقين ، فمذهب الاعتزال الدينى قد سبقه اعتزال سياسى قام به هذا المذهب . اه .

وهناك طائفتان الجبرية[1] والقدرية ، فأما الجبرية فإن الذى أداهم إلى ما يعتقدونه هو نظرهم واعتبارهم عواقب الأمور وخواتيمها . ذلك أنهم لما تبين لهم أن الأمور كلها التى تخرج إلى الكون والفساد والوجود والعدم فعلى ما فى مقدور الله وسابق علمه لا يكون خلاف ذلك شىء ، وزعموا عند ذلك وظنوا أنهم لا يقدرون على شىء من الأفعال التى تظهر على أيديهم ، ولا يستطيعون الامتناع عن شىء من ذلك ولا الترك لها بالحقيقة ، نسبوها كلها إلى القضاء والقدر . وأما خصماؤهم ومخالفوهم فكان نظرهم واعتبارهم فى هذه المسألة الأوامر والنواهى والمدح والذم والوعد والوعيد المتوجهة على الإنسان العاقل المستطيع ، ورأوا أنه محجوج بها مزاح العلة فيها ، وليس له أن يحتج على أحد لا عند الله ولا عند الناس بالقضاء والقدر ، وعلم الله السابق فى الكائنات ، لأنه لا يدرى أحد فى مبدأ أمره وأول أفعاله قضاء الله وقدره وعلمه السابق ، وإنما تبين له ذلك بعد فراغه مما قد فعل أو ترك ما أمر الله به ، وهذا النظر نظر أولئك واعتبارهم ، قالوا فلا جرم أن المسألة قائمة بحالها والخلاف باق ، والحكومة لم تنفصل ، بل كلما ازدادوا فيها نظراً واعتباراً وبحثاً وجدالا ، ازدادوا خلافاً على خلاف إلى يوم القيامة « والله يفصل بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » .

ونشأت الشيعة فى الحجاز[2] ، وكان بعض الصحابة من أنصار على بن أبى طالب ، ثم شاع مذهبهم فى العراق وخالفوا أهل السنة بالإمامة ، وخالفوا المعتزلة القائلين بوجوبها على الخلق عقلا ، والأشاعرة القائلين بوجوبها على الخلق شرعاً . وقال الإمامية منهم إن خلافة علىّ منصوص عليها من الرسول ،

---

(١) رسائل إخوان الصفا .

(٢) خطط الشام المؤلف ج ٦ .

ولا تكون فى غير أهل البيت وأن الرسول أوصى لعلى بالخلافة يوم غدير خُم[١] ، وأنه معصوم وآله عن الكبائر والصغائر ، وأنه وآله لا يخطئون ولا ينسون ولا يسهون ، وأن محمداً المهدى أحد أئمتهم مستور عن الناس كالخضر وإلياس إلى أن يؤذن له فى الظهور .

وخالف الشيعة الأشاعرة بإمكان الرؤية البصرية يوم القيامة على الله تعالى ، وقالوا كالمعتزلة باستحالتها مطلقاً ، وخالفوا فى مسائل طفيفة ليست جوهرية ومنها ما يقول به بعض الفرق الأخرى . وهم يقولون إن علياً يرجع . ولما قتل على قال عبد الله بن سبأ لو أتيتمونا بدماغه ألف مرة ما صدقنا موته ، ولا يموت حتى يملأ الأرض عدلا كما ملئت جوراً . « وفكرة الرجعة[٢] هذه أخذها ابن سبأ من اليهودية ، وكان يهودياً قبل الإسلام ، فعندهم أن النبى إلياس صعد إلى السماء وسيعود فيعيد الدين والقانون ، ووجدت الفكرة فى النصرانية أيضاً فى عصورها الأولى ، وتطورت عند الشيعة إلى الأئمة ، وأن الإمام المختفى سيعود فيملأ الأرض عدلا ، ومنها نبعت فكرة المهدى المنتظر » .

والشيعة عدة فرق ومنهم الغالى ومنهم المعتدل والرافضة فرقة من فرقهم . قال زيد[٣] بن على : الرافضة حربى وحرب أبى فى الدنيا والآخرة ، مردت الرافضة علينا كما مردت الخوارج على علىّ عليه السلام ، قالوا : والرافضة أول ما ترفضت جاءت إلى زيد بن على حين خرج فقالوا : تبرأ من أبى بكر وعمر حتى نكون معك فقال : بل أتولاهما وأبرأ ممن يبرأ منهما قالوا : فإذن نرفضك فسميت الرافضة ، وأما الزيدية فقالوا نتولاهما ونبرأ ممن يتبرأ منهما فخرجوا مع زيد فسموا الزيدية .

ورأى المعتزلة فى الخلافة لم يتعد القول كثيراً ، ولكن رأى الشيعة فيها تجاوز إلى العمل ، ووضع الغالون منهم لتأييد مذهبهم أحاديث لا يصححها جمهور الأمة ، ومن ذلك نهج البلاغة الذى ألفه الشريف الرضى من كلام

---

(١) اعتقادات الأمامية للعامل .
(٢) فجر الإسلام لأحمد أمين .
(٣) تاريخ دمشق لابن عساكر .

أمير المؤمنين على بن أبى طالب كرم الله وجهه وروى فيه خطباً له وكلاماً يستحيل أن يقوله ، ومنه ما لا يصدر عن عربى من أهل الصدر الأول لأن فيه ألفاظاً من مصطلحات القرن الثانى والثالث(١) .

واضطر بعض علماء الملة أن يبحثوا فى الدين على طريق فلسفى منطقى(٢) لأن كثيرين ممن دخلوا فى الإسلام فى القرنين الأولين كانوا من النصارى واليهود والثنوية ولا سيما أصحاب مانى ، وكان مركزهم القديم فى العراق ، وكثير منهم على مذهب الديصانية والمرقيونية وغيرهم من فرق الثنوية ، ثم فرق الدهرية وهم الفلاسفة والسُّمَّنية ، والسمنية أصحاب سُمَّن عبدة أوثان ، يقولون بقدم الدهر وبتناسخ الأرواح وأن الأرض تهوى سفلا أبداً . وكان الناس على وجه الدهر سمنيين وكلدانيين ، والكلدانيون هم الذين يسمون الصابئين والحرانيين وبقاياهم بحران والعراق ، ويزعمون أن نبيهم بوذاسف الخارج فى بلاد الهند ، وبعضهم يقولون هرمس ، فأما بوذاسف فقد كان فى أيام طمهوروث الملك

(١) يقول ابن تيمية فى منهاج السنة : إن أكثر الخطب التى ينقلها صاحب نهج البلاغة كذب على علىّ ، وعلىّ رضى الله عنه أجل وأعلى قدراً من أن يتكلم بذلك الكلام ، ولكن هؤلاء وضعوا أكاذيب وظنوا أنها مدح فلا هى صدق ولا هى مدح ، ومن قال إن كلام على وغيره من البشر فوق كلام المخلوق فقد أخطأ ، وكلام النبى صلى الله عليه وسلم فوق كلامه وكلاهما مخلوق.

وأيضاً فالمعانى الصحيحة التى توجد فى كلام على موجودة فى كلام غيره ، لكن صاحب نهج البلاغة وأمثاله أخذوا كثيراً من كلام الناس فجعلوه من كلام على ، ومنه ما يحكى عن على أنه تكلم به ، ومنه ما هو كلام حق يليق به أن يتكلم به ، ولكن هو فى نفس الأمر من كلام غيره . ولهذا يوجد فى كتاب البيان والتبيين للجاحظ وغيره من الكتب كلام منقول عن غير على ، وصاحب نهج البلاغة يجعله عن على ، وهذا الخطب المنقولة فى كتاب نهج البلاغة لو كانت كلها عن على من كلامه لكانت موجودة قبل هذا المصنف منقولة عن على بالأسانيد وبغيرها ، فإذا عرف من له خبرة بالمنقولات أن كثيراً منها بل أكثرها لا يعرف قبل هذا علم أن هذا كذب وإلا فليبين الناقل لها فى أى كتاب ذكر ذلك ، ومن الذى نقله عن على وما إسناده ، وإلا فالدعوى المجردة لا يعجز عنها أحد ، ومن كان له خبرة بمعرفة طريقة أهل الحديث ومعرفة الآثار والمنقول بالأسانيد وتبيين صدقها من كذبها ، علم أن هؤلاء الذين ينقلون مثل هذا عن على من أبعد الناس عن المنقولات والتمييز بين صدقها وكذبها .

(٢) مقدمة كتاب الانتصار لنيبرج .

وأتى بالكتابة الفارسية وسمى هؤلاء صابئين فى أيام المأمون ، فأما الصابئون على الحقيقة ففرقة من النصارى ، وبقايا السمنية بالهند والصين . والديصانية منسوبون إلى ابن ديصان وهم ثنوية ، والمرقيونية ينسبون إلى المرقيين هم ثنوية أيضاً ، والمنانية هم المانوية منسوبون إلى مانى . وفى القرن الثانى كان فى العراق يهود وصابئة ونصارى ومجوس وسامرة . وبعض من دخلوا فى الإسلام منهم لم يتخلوا عن شعورهم وعاطفتهم فانسل بهم فى الإسلام ما ليس منه ، وظاهره الإسلام وما هو به .

وكان لكل مذهب من هذه المذاهب القديمة[1] كلام مدقق ، وعقائد محررة مقررة على أصول فلسفية ، استعد أربابها منذ قرون للرد على خصومهم ببراهين ودلائل ، واعتادوا الجدل ومقارعة الخصوم . وكانت الشيعة محل امتزاج الثنوية بالإسلام خاصة ، إذ كان فى أفكارها الرئيسة من الموافقة مع مذهب الثنوية ما لا يخفى . مثال ذلك قولها فى أئمتها وتجسيمها الذى هو أقرب شىء إلى تجسيم الثنوية . وقد ثبت عن كثير من رجالها أنهم جمعوا بين الرفض والزندقة ، والزندقة هى مذهب الثنوية . والزنادقة والمعطلة والمهملة والملاحدة والدهرية والمزدكية شىء واحد . قال فيهم صاحب البدء والتاريخ : وما قط انتشروا فى أمة من الأمم ، ولا أقروا فى وقت من الأوقات انتشارهم فى هذه الأمة لإعطائهم الأقرار بالديانة ظاهراً ، وحقن الشريعة دم من أجاب إليها ، وهم هؤلاء الباطنية الباطلية الذين تخلعوا عن الأديان[2] . وقال المعرى[3] : إن المسلمين لما اتسع ملكهم مازج العرب منهم غيرهم من الطوائف وسمعوا كلام الأطباء وأصحاب الهيئة وأهل المنطق فمالت منهم طائفة كثيرة ، ولم يزل الإلحاد فى بنى آدم على مر الدهور ، ولا ملة إلا ولها قوم ملحدون ، يرون أصحاب شرعهم أنهم موافقون ، وهم فيما نظن مخالفون .

وقام مذهب الخوارج منذ القرن الأول يكفرون علياً وعثمان والحكمين وأصحاب الجمل ، وكل من رضى بتحكيم الحكمين فى وقعة صفين ، والإكفار

(١) مقدمة كتاب الانتصار لنيبرج . (٢) خرجوا منها .
(٣) رسالة الغفران للمعرى .

بارتكاب الذنوب ووجوب الخروج على الإمام الجائر ، سماهم خصومهم بالخوارج لأنهم خرجوا[1] على الإمام الحق الذى اتفقت الجماعة عليه ، ويسمى خارجياً كل من خرج فى أيام الصحابة على الأئمة الراشدين ، أو كان بعدها على التابعين بإحسان والأئمة فى كل زمان . وسموا أنفسهم بالشُّراة لقولهم إنا شرينا أنفسنا فى طاعة الله ، أى بعناها بالجنة حين فارقنا الأئمة الجائرة ، وقاتلهم علىّ ثم من بعده من الأمويين وغيرهم ، وهم يخالفون من حيث المذهب أهل السنة فى مسائل طفيفة . وقد افترقوا كالشيعة والمعتزلة فرقاً كثيرة ذكرت فى كتب الملل والنحل . وكانوا الغاية فى الصلابة فى الدين والشجاعة والصدق ، ومذهبهم لم يتأثر بمؤثرات خارجية ، وكانت بقايا الخوارج الأباضية ببلاد حضرموت إلى القرن الرابع[2]، والإباضية هم أصحاب عبد الله بن أباض الذى خرج فى أيام مروان بن محمد .

وأهم الفرق التى خرجت على الجماعة وأضرت بالإسلام فرق الباطنية ، ادعوا أن لكل ظاهر باطناً ولكل تنزيل تأويلا . وقد وضع أساس مذهبهم أناس من أبناء المجوس دخلوا فى الإسلام ، وتأولوا آيات القرآن وسنن الرسول على ما يوافقهم . استتروا لنشر مذهبهم وراء دعوى الخلافة لآل على . ومن الباطنية الإسماعيلية القائلون بانتقال الإمامة بعد جعفر الصادق إلى ابنه الأكبر إسماعيل ، انتقلت إليه بعد أبيه دون أخيه موسى الكاظم ، وهم يرون أن الأرواح مسجونة فى هذه الأجسام المكلفة بطاعة الإمام المطهر ، والعقل عندهم هو حقيقة معبودهم . والإسماعيلية طبقات كالماسونية ، والذين يرخص لهم بالاطلاع على أسرار الدين تسع طبقات . ومن فرق الباطنية النصيرية أتباع نصير غلام على بن أبى طالب ، يدعون ألوهية علىّ مغالاة فيه ، ويزعمون أن مسكنه السحاب ، ويدعى بعض منتحلى هذا المذهب أن ليس لهم ديانة خاصة أو مذهب خاص بل إنهم مسلمون شيعيون جعفريون لا فرق بينهم وبين سائر الجعفرية وليس بينهم قيود دينية أو اجتهادات علمية مع الإمامية إلا ما أوجبته السياسة

---

(١) الملل والنحل للشهرستانى . (٢) مروج الذهب للمسعودى .

والبيئة ، ويعتقدون كسائر مذاهب الشيعة أن الأئمة الاثنى عشر معصومون من الخطأ .

قال ابن الجوزى فى المنتظم(١) : « لما جاء النبي وقهر الأملاك وقمع الإلحاد اجتمع جماعة من الثانوية والمجوس والملحدين ومن دان بدين الفلاسفة المتقدمين فأعلوا رأيهم وقالوا ثبت عندنا أن جميع الأنبياء كذبوا ومخرقوا(٢) على أممهم ، وأعظم الكل علينا بلية محمد ، فإنه نبغ بين العرب العظام وخدعهم بناموسه ، فنصروه وبذلوا له أموالهم وأنفسهم ، وأخذوا ممالكنا وقد طالت مدتهم ، والآن فقد تشاغل أتباعه ، ومنهم مقبل على كسب الأموال ، ومنهم على تشييد البنيان ، ومنهم على الملاهى ، ومنهم يتلاعنون ويكفر بعضهم بعضاً ، فقد ضعفت أبصارهم ، ونحن نطمع فى إبطال دينهم ، إلا أننا لا يمكننا محاربتهم لكثرتهم ، فليس الطريق إلا إنشاء دعوة والانتماء إلى فرقة منهم ، وليس فيهم أضعف عقولا من الرافضة ، فندخل عليهم بذكر ظلم سلفهم الأشراف من آل نبيهم ، ودفعهم عن حقهم وقتلهم ، وما جرى عليهم من الذل ، لنستعين بهؤلاء على إبطال دينهم ، فتناصروا وتكاتبوا وتوافقوا وانتسبوا إلى إسماعيل بن جعفر بن محمد الصادق ، وأخذوا بعض آرائهم من المجوس وبعضها من الفلاسفة ومخرقوا على أتباعهم ، وقصدهم المجد المطلق ، ويسمون الإسماعيلية والباطنية والقرامطة والخُرَّمية والبابكية والمحمرة والشيعة والتعليمية وأكثر مذهبهم يوافق الثانوية ، والفلاسفة فى الباطن ، والروافض فى الظاهر. وقد نبغ منهم قوم أظهروا إمامة محمد بن الحنفية ، وقالوا إن روح محمد انتقلت إليه ، ثم انتقلت منه إلى أبى مسلم صاحب الدعوة ، ثم إلى المهدى ثم إلى رجل يعرف بابن التصرى ، ثم خمدت نارهم ، ثم نبغ فى أيام المأمون لهم رجل بيتهم(٣) فاحتال فلم تنفع حيلته ، ثم تناصروا فى أيام المعتصم وكاتبوا

(١) نشر هذا دى سوموجى فى مجلة الدروس الشرقية الإيطالية **Rivista degli studi Orientali**

(٢) المخرقة : الكذب والاختلاق . (٣) بيت العدوّ : هجم عليه ليلا .

الأفشين وهو رئيس الأعاجم فمال إليهم واجتمعوا على بابك ، ثم زاد جمعهم على ثلاثمائة ألف فقتل المعتصم منهم ستين ألفاً ، وقتل الأفشين أيضاً ثم ركدت دولتهم ، ثم نبغ منهم جماعة قصدوا إبطال الإسلام ورد الدولة الفارسية ، وأخذوا يحتالون فى تضعيف قلوب المؤمنين ، وأظهروا مذهب الإمامية وبعضهم مذهب الفلاسفة ، وجعلوا لهم رئيساً كان مشعبذا ممخرقاً ، ادعى أن الأرض تطوى له ، وكان يبعث خواص أصحابه إلى الأطراف ومعهم طيور ويأمرهم أن يكتبوا إليه الأخبار عن الأباعد ثم يحدث الناس بذلك » .

« ونبغ رجل[1] متنمس بالزهد من سجستان يقال له أبو عبد الله بن الكرام، قليل العلم قد قمش من كل مذهب ضغثاً[2] وأثبته فى كتاب ، وروجه على أغتام[3] غزنة وغور وسواد بلاد خراسان فانتظم ناموسه[4] ، وصار بعد ذلك مذهبا قد نصره محمود بن سبكتكين السلطان وجر البلاء على أصحاب الحديث والشيعة من جهتهم ، وهو أقرب مذهب إلى مذهب الخوارج وهم مجسمة[5] » .

(١) الملل والنحل للشهرستانى . (٢) قمش القماش جمعه من هنا وهناك والضغث قبضة حشيش يختلط فيها الرطب باليابس والضغث من الخبر والأمر ما كان مختلطاً لا حقيقة له وجمعه أضغاث . وأضغاث أحلام ، أحلام مختلطة لا يصح تأويلها لاختلاطها .

(٣) الأغتم والغتمى : من لا يفصح فى كلامه يقال : رجل أغتم وقوم غتم وأغتام وامرأة غتماء ، وغور جبال وولاية بين هراة وغزنة .

(٤) الناموس : القانون والشريعة . (٥) زعم عبد القادر البغدادى المتوفى سنة ٤٢٩هـ فى الكتاب الذى أسماه (الفرق بين الفرق) وبيان الفرقة الناجية منهم ، وبنى كتابه على حديث مأثور أن الأمة الإسلامية تفترق على ثلاث وسبعين فرقة — أنه لم يكن بحمد الله فى الخوارج ولا فى الروافض ولا فى الجهمية ولا فى القدرية ولا فى المجسمة ولا فى سائر أهل الأهواء الضالة إمام فى الفقه ولا إمام فى رواية الحديث ولا إمام فى اللغة والنحو ، ولا موثوق به فى نقل المغازى والسير والتاريخ ، ولا إمام فى الوعظ والتذكير ، ولا إمام فى التأويل والتفسير ، وإنما كان أئمة هذه العلوم على الخصوص والعموم من أهل السنة والجماعة . هذا ما قاله وفيه من المبالغة ما لا يخفى محله على ناقد بصير ، ولعله تناسى رجالا عظاماً كانوا فى الخوارج والشيعة والمعتزلة وغيرهم لم ينبغ فى العلم والأدب كثير أمثالهم فى هذه الأمة ، وما برح بعض أرباب المذاهب يدخلون فى جملتهم كل من امتازوا بعلم ، وثبتت لهم العبقرية والنبوغ ، وقد وقع فى العهد الأخير لأحد فقهاء الشيعة أن ألف كتاباً فى الشيعة وفنون الإسلام نسب التشيع فيه إلى كثير من علماء الصدر الأول وقد قلنا فى نقده : « فإن كان كل من يحب علياً كرم الله وجهه يعد فى نظر المؤلف شيعياً فإن جمهور المسلمين شيعة إلا قليلا » .

ومن الفرق الباطنية المذهب الدرزى يقول إن روح آدم انتقلت إلى على ابن أبى طالب ، ومنه إلى أسلاف الحاكم بأمر الله ملك الفاطميين ، متقمصة من واحد الى آخر ، والدين الحق توحيد الحاكم ، ويفترض عندهم صدق اللسان بدل الصوم ، وحفظ الإخوان بدل الصلاة ويقرأون القرآن ويؤلونه. ويذهبون إلى قدم العالم تبعاً لبعض الفلاسفة ، ويقولون بالتناسخ معبرين عنه بالتقمص ، وأن الهوية الإلهية تنتقل من قالب وتحل فى قالب آخر فى كل عصر فتتجلى فى كل زمن بصورة وتجلت أخيراً فى الحاكم .

ونشأت أيضاً فرق غريبة يصعب بعد التتبع الشديد معرفة العصر الذى وجدت فيه ، وإن زعم الزاعم انقراضها يعسر عليه إثبات زمن انقراضها ، كما تصعب معرفة ترجمة رجل من حذاقها ، والذين كتبوا فى هذا الشأن منهم الناقل غير الناقد ، ومنهم المموه لغلبة الهوى عليه ، ومنهم من لم تنشر كتبه . قاله شيخنا الجزائرى . وفى كتاب مقالات الإسلاميين لأبى الحسن الأشعرى والملل والنحل للشهرستانى والملل والنحل لابن حزم والفرق بين الفرق للبغدادى وصف هذه الفرق وتنوعها ، ودعوى كل فرقة أنها ذاهبة بالحق اليقين . وأنها الناجية وحدها يوم الدين .

والأصل فى جميع هذه الفرق وما تشعب عنها دعوى « الخلافة » أو مسائل دينية غير جوهرية استخدمها الدعاة لأجل الخلافة والملك . فالخلافة هى أساس البلاء جرت على الأمة ما جرت ، وهلك فى سبيل تحقيقها لفريق دون فريق الأخضر واليابس ، وغدا « لكل[1] فرقة مقالة على حيالها ، وكتب صنفوها ودولة عاونتهم ، وصولة طاوعتهم » وأهل السنة والجماعة يطلقون على أكثر هذه الفرق اسم المبتدعة ؛ والبدعة عندهم على ضربين[2] بدعة صغرى كغلو التشيع أو كالتشيع بلا غلو ولا تحرف ، ، فهذا كثير فى التابعين وأتباعهم مع الدين والورع والصدق ، ثم بدعة كبرى كالرفض الكامل والغلو فيه والحط على أبى بكر وعمر والدعاء إلى ذلك ، فالشيعى الغالى فى زمن السلف

(١) الملل والنحل للشهرستانى . (٢) لسان الميزان لابن حجر .

وعرفهم هو من تكلم فى عثمان والزبير وطلحة وطائفة ممن حارب علياً وتعرض لسبهم ، والغالى هو الذى كفر هؤلاء السادة وتبرأ من الشيخين أيضاً .

وهناك فرق الملاحدة من المتفلسفة ظهروا كما ذكر ابن تيمية فى كل[1] زمان ومكان ضعف فيه نور الإسلام . وكان من أسباب ظهورهم أنهم ظنوا أن دين الإسلام ليس إلا ما يقوله أولئك المبتدعون ، ورأوا ذلك فاسداً فى العقل ، فكان غلاتهم طاعنين فى دين الإسلام باليد واللسان ، كالخرمية أتباع بابك الخرمى . وقرامطة البحرين أتباع أبى سعيد الجنابى وغيرهم ، وأما مقتصدتهم وعقلاؤهم فرأوا أن ما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم فيه من الخير والصلاح ما لا يمكن القدح فيه ، بل اعترف حذاقهم بما قاله ابن سينا وغيره من أنه لم يقرع العالم ناموس أفضل من ناموس محمد ، وكان هذا موجب عقلهم وفلسفتهم اﻫ .

يقول المقدسى[2] : إن التعصب قد ثوره الجهال المسرفون من القصاص وغيرهم ، وأما الأمة فهى على النقيض من ذلك . قال هذا فى القرن الرابع وما زال الأمر على ذلك فى أكثر العصور إلى يومنا . ولذلك كان واجب العقلاء من أهل المذاهب الإسلامية كافة ، وكلها فى جوهرها مسلمة ، أن تسدل اليوم دون حوادث الماضى حجاباً كثيفاً ، وتسعى قلباً وقالباً لأن يتناسى المسلمون ما شعب وحدتهم فى الدهر الغابر ، فالخلاف مهما كان وكانت الدواعى إليه قد انقضى عصره . وإن أهل بيت واحد يرون الخطر يتهددهم من كل مكان لأحرياء بأن يتناسوا ما بينهم من اختلافات طفيفة ، ويهبوا يداً واحدة للقضاء على من يريد السوء بهم ، ويفترص ما شجر بينهم ليستغلهم ويجعلهم مطية لمطامعه وأغراضه .

وبعد فقد تبين من عدة إحصاءات قام بها بعض الغربيين فى أدوار مختلفة أن المخالفين من المسلمين لعقائد أهل السنة والجماعة لا يتجاوزون العشرين

---

(١) منهاج السنة لابن تيمية .

(٢) أحسن التقاسيم للمقدسى .

مليوناً فى البلاد الإسلامية والباقون من أهل المذاهب الأربعة المتعارفة . والغالب[1] على المغرب الأقصى اليوم المذهب المالكى وهو الغالب أيضاً على الجزائر وتونس وطرابلس لا تكاد تجد فيها من مقلدى غيره إلا الحنفية بقلة ، وهم من بقايا الأسر التركية وأكثرهم فى تونس ، ومنهم أفراد بيت الإمارة بها . ولهذا تمتاز حاضرتها بالقضاء الحنفى مشاركاً للقضاء المالكى وأما سائر أعمالها فقضاتها مالكية . ويغلب فى مصر الشافعى والمالكى ، الأول فى الريف والثانى فى الصعيد والسودان ، ويكثر الحنفى وهو مذهب الدولة والمتبع فى الفتوى والقضاء ، والحنبلى قليل بل نادر. ويغلب الحنفى فى بلاد الشام ويكاد يشمل نصف أهل السنة بها ، والربع شافعية والربع حنابلة . ويغلب الشافعى على فلسطين ويليه الحنبلى ، فالحنفى فالمالكى ، ويغلب الحنفى على العراق ويليه الشافعى وبه مالكية وحنابلة ، والغالب على الأتراك والألبان وسكان بلاد البلقان الحنفى ، وعلى بلاد الأكراد الشافعى وهو الغالب على بلاد إرمينية لأن مسلميها من أصل تركمانى أو كردى . والسنيون من أهل فارس أغلبهم شافعية وقليل منهم حنفية . والغالب على بلاد الأفغان الحنفى ويقل الشافعى والحنبلى ، وعلى تركستان الغربية التى فيها بخارى وخيوه الحنفى . وأما تركستان الشرقية المسماة أيضاً بالصينية ، فكان الغالب عليها الشافعى ثم تغلب الحنفى بسعى العلماء الواردين عليها من بخارى . والغالب على بلاد القوقاز ، وما والاها الحنفى وفيهم الشافعية . والغالب فى الهند الحنفى ، ويقدر أتباعه بنحو ٤٨ ألف ألف ، وأتباع الشافعى بنحو ألف ألف ويكثر بها أهل الحديث والآثار . ومسلمو جزيرة سرنديب (سيلان) وجزائر الفليبين والجاوة وما جاورها من الجزائر شافعية ، وكذلك مسلمو سيام ، ولكن بها حنفية بقلة ، نقله النازحون إليها من الهنود . ومسلمو الهند الصينية شافعية وكذلك مسلمو استراليا . وفى البرازيل من أمريكا نحو ٢٥ ألف مسلم حنفية ، وفى البلاد الأمريكية الأخرى مسلمون مختلفو المذاهب ، وتبلغ عدة الجميع نحو ١٤٠ ألفاً . والغالب على أهل

(١) حدوث المذاهب الأربعة لأحمد تيمور .

الحجاز الشافعى والحنبلى ، وفيه حنفية ومالكية فى المدن ؛ وأهل نجد حنابلة وأهل عسير شافعية ؛ والسنيون فى اليمن وعدن وحضرموت شافعية أيضاً ، وقد يوجد فى نواحى عدن حنفية ، والغالب على عمان مذهب الأباضية ولكنها لا تخلو من حنابلة وشافعية . ويغلب على قطر والبحرين المالكى وفيها حنابلة من الواردين عليها من نجد ، والغالب على أهل السنة فى الأحساء الحنبلى والمالكى ، والغالب على الكويت المالكى ، انتهى كلام تيمور .

وقال غولد صهير فى معلمة الإسلام : إن المذهب الحنفى انتشر فى معظم بلاد الأسلام كتركيا وآسيا الوسطى والهند ، والشافعى فى مصر وجنوبى بلاد العرب وجاوة وإفريقية الشرقية وسورية ، والمالكى فى المغرب وأحياناً فى صعيد مصر وإفريقية الغربية الألمانية والإنجليزية ، والحنبلى الذى كان إلى القرن الثامن (الرابع عشر) شائعاً جداً فى العراق ومصر والشام وفلسطين قد اقتصر اليوم من بلاد العرب على نجد .

الاضطهاد فى سبيل المذاهب والأفكار[1] :

منذ ظهر الإسلام كان من يخالف الجمهور فى المعتقدات والآراء يحمل إلى الولاة فإما أن يستتيبوه أو يعاقبوه ، وما فتئ المهيمنون على الشريعة يثيرونها شعواء على كل من جاهر بفكرة دعا إليها أو لم يدع ، ويكفى فى بلائه خروجه عن المألوف والعرف ، وكانت أهم مسائل القرن الأول مسألة القدرية اهتزت لها الخلافة واهتز لها الناس وما هى بالأمر المهم إذا قيست بالمظالم والمنكرات التى حدثت . وبعضها مما يشغل مئات من العاملين فى إصلاحه . ورأوا من أهمهم مسائل القدر فقط انفراج ما بين الشرع ومنتحليه فما أنكروا ولا انتقدوا . وذهبوا يناوئون سراً وجهراً كل باحث خالف لهم فكراً ، خصوصاً إذا شعروا أن صاحب الأمر مواطئ لهم على ما يذهبون إليه ، أو أنه يريد أن يلبس المخالف له ثوب الدين لينتقم منه من أجل السياسة

(١) حاضر المؤلف بهذا الفصل فى كلية الآداب من فروع الجامعة المصرية بالقاهرة مساء يوم ٣٠ شعبان ١٣٥٢ (١٧ ديسمبر ١٩٣٣) .

ولذا كان بعضهم يغلون فى المثالب والمناقب فأفسدوا وما قدروا مدى إفسادهم .

وما خلا عصر من جامدين كان لهم السلطان الأكبر على العقل فعبثوا به وبأهله . وهؤلاء هم الذين خاطبهم الغزالى فى القرن الخامس[1] بقوله : « وأنى تتجلى أسرار الملكوت لقوم إلههم هواهم ، ومعبودهم سلاطينهم ، وقبلتهم دراهمهم ودنانيرهم ، وشريعتهم رعونتهم[2] وإرادتهم جاههم وشهواتهم وعبادتهم خدمتهم أغنياءهم ،وذكرهم وساوسهم ، وكنزهم سواسهم ، وفكرهم استنباط الحيل لما تقتضيه حشمتهم » .

ولو جئنا نعدد من قضوا شهداء فكرهم لطال بنا الأمر ، لأن لكل بلد منهم غير واحد أوذوا و وعذبوا وأهلكوا ، وما كانت السلطة التنفيذية على ما يظهر تنزل على إرادة السلطة القضائية فى معنى اضطهاد الأفكار ، إلا إذا كان للسلطان مأرب من ذلك ، يحاول أن يسد الذريعة[3] فى وجه من يرجى أن يستخدم السياسة لمآرب ، فيتخذ الملك من الدين حجة .

أول زندقة عرفت فى زمن الخليفة الرابع زندقة أناس غلوا فيه فألهوه فأحرقهم بالنار ، وقتل هشام بن عبد الملك غيلان بن مروان من القائلين بالقدر ، قيل إنه نال كثيراً من بنى أمية ، وكان من مذهبه أن الخلافة تصلح فى غير قريش إذا استوفى الخليفة الشروط المطلوبة ، وهو رأس المعتزلة ومن نوابغ العلماء الذين حاربوا الظلم والتظالم . وضرب الحجاج عبد الرحمن بن أبى ليلى الفقيه الراوى من التابعين أربعمائة سوط ثم قتله ، والسبب فى ذلك السياسة . وضرب خبيب بن عبد الله بن الزبير مائة سوط وكان لقى العلماء وقرأ الكتب وكان من النساك ، ويذكرون أنه كان تعلم علماً كثيراً لا يعرفون وجهه ولا مذهبه فيه ،يشبه ما يدعى الناس من علم النجوم ، فأمر الوليد بن عبد الملك

(١) فيصل التفرقة للغزالى . (٢) الرعونة ، الحمق .
(٣) الذريعة الوسيلة . (٤) ذكر المعتزلة للمرتضى .

فضرب بالسوط وبرد له ماء فى جرة ثم صب عليه فى غداة باردة فكز[1] فمات بها . وضرب أبو عمرو بن العلاء خمسمائة سوط ، وضرب مالك بن أنس سبعين سوطاً لأجل فتوى لم توافق غرض السلطان ، سعى به إلى جعفر بن سليمان عم أبى جعفر المنصور وقالوا إنه لا يرى أيمان بيعتكم هذه بشىء واتهم عبد الصمد بن عبد الأعلى مؤدب الوليد بن يزيد بن عبد الملك بالزندقة . وقتل بمرو فى آخر ملك بنى أمية[2] جهم بن صفوان لما ظهرت دعوته بترمذ ، لا لأن له رأياً فى الدين بل لأنه قام مع الحارث بن سريج فى خراسان يجاذب الأمويين حبل السلطة ، وقتل الوليد أبا بيهس الهيصم بن جابر صاحب البيهسية وأمر أن تقطع يداه ورجلاه أولا .

واتهم المهدى العباسى شريكا القاضى بالزندقة لأنه كان يكره العباسيين ، وقتل المهدى صالح بن عبد القدوس على الشبهة[3] متهماً إياه بالزندقة مع أنه لما وافاه أعجب بغزارة علمه وأدبه وحكمته ، وقتل المهدى بشار بن برد بدعوى الإلحاد ، وروى قوم أن كتبه[4] فتشت فلم يصب فيها شىء مما كان يرمى به وأصيب له كتاب فيه إنى أردت هجاء آل سليمان بن على (بن عبد الله ابن العباس) فذكرت قرابتهم من رسول الله فأمسكت عنهم إلا أنى قلت :

دينار آل سليمان ودرهمهم ... كبابلين حُفّا بالعفاريت
لا يرجيان ولا يرجى نوالهما ... كما سمعت بهاروت وماروت

وجد هذا الخليفة فى سنة ١٦٧ فى طلب الزنادقة والبحث عنهم فى الآفاق وتوفر على تقصيب[5] الفلاسفة وتقطيع كتبهم والإمعان فى قتال الملحدين لما انتشر من كتب مانى[6] وابن ديصان ومرقيون مما نقله ابن المقفع وغيره وترجمت من الفارسية والفهلوية إلى العربية ، وما صنفه فى ذاك الوقت ابن أبى العوجاء وحماد عجرد ويحيى بن زياد ومطيع ابن إياس تأييداً لمذهب المانية والديصانية

---

(١) كز الرجل فهو مكزوز أصابه الكزاز وهو يبس وانقباض من البرد .
(٢) الملل والنحل للشهرستانى .
(٣) تاريخ بغداد للخطيب .
(٤) الكامل للمبرد .
(٥) تقصيب : تقطيع .
(٦) مروج الذهب للمسعودى .

والمرقيونية ، فكثر بذلك الزنادقة وظهرت آراؤهم فى الناس . وأنشئ للزنادقة ديوان خاص دعوا القائم عليه صاحب ديوان الزنادقة ، وجعل لهم حبس يدعونه حبس الزنادقة . وكان المهدى[1] قد قال للهادى يوماً وقد قدم إليه زنديق فقتله وأمر بصلبه : يابنى إذا صار الأمر إليك فتجرد لهذه العصابة ، يعنى أصحاب مانى فإنها تدعو الناس إلى ظاهر حسن كاجتناب الفواحش والزهد فى الدنيا والعمل للآخرة ، ثم تخرجها من هذا إلى تحريم اللحوم ومس الماء الطهور وترك قتل الهوام تحرجاً ، ثم تخرجها إلى عبادة اثنين أحدهما النور والآخرة الظلمة ، ثم تبيح بعد هذا نكاح الأخوات والبنات والاغتسال بالبول وسرقة الأطفال من الطرق لتنقذهم من ضلال الظلمة إلى هداية النور . وكان عبد الكريم بن أبى العوجاء بالبصرة يفسد الأحداث فقال له عمرو بن عبيد قد بلغنى أنك تخلوا بأحداث من أحداثنا وتدخلهم فى دينك ، فإن خرجت من مصرنا وإلا قمت فيك مقاماً أخاف منه على نفسك ، فلحق بالكوفة فدل عليه محمد بن سليمان فقتله وصلبه بها .

قال المسعودى : وكان المهدى أول من أمر الجدليين من أهل البحث من المتكلمين بتصنيف الكتب على الملحدين ممن ذكرنا من الجاحدين وغيرهم فأقاموا البراهين على المعاندين ، وأزالوا شبه الملحدين ، فأوضحوا الحق للشاكين . أما الرشيد فنع من الجدل فى الدين وحبس أهل علم الكلام ثم أخرجهم . وأما ابنه المأمون فأطلق للحرية العنان فتمتع علماء الكلام والفلاسفة وغيرهم فى أيامه بأجمل حسنات الحرية المطلقة .

ولقد كاد المعتزلة للمحدثين فى عصر المأمون والمعتصم ، لأن المعتزلة يتشددون فى قبول الحديث ولا يعملون به إلا بعد جهد ، فلما تراجع أمر المعتزلة وقوى المحدثون كال هؤلاء لخصومهم الصاع صاعين . واتهم أحمد

(١) تاريخ الطبرى .

ابن أبى داود من عظماء العباسيين حميد بن سعيد من وجوه المعتزلة بالزندقة. « وأحضر المعتصم أحمد بن حنبل وامتحنه بالقرآن فلم يجب إلى القول بخلقه فجلده حتى غاب عقله وتقطع جلده وقيد وحبس » وقتل الواثق «٢٣١» فى المحنة على القرآن أحمد بن نصر من علماء عصره وصلبه وكتب فى أذنه رقعة : « هذا رأس الكافر المشرك الضال وهو أحمد بن نصر بن مالك ممن قتله الله على يدى عبد الله هارون الإمام الواثق بالله أمير المؤمنين بعد أن أقام عليه الحجة فى خلق القرآن ونفى التشبيه ، وعرض عليه التوبة ومكنه من الرجوع إلى الحق ، فأبى إلا المعاندة والتصريح ، والحمد لله الذى عجل به إلى ناره وأليم عقابه، وأن أمير المؤمنين سأله عن ذلك فأقر بالتشبيه ، وتكلم بالكفر ، فاستحل بذلك أمير المؤمنين دمه ولعنه » وقيل إن ابن نصر قال للواثق أثناء المناقشة فى خلق القرآن (مه يا صبى) ، وأمر أن يتبع من وسم بصحبة أحمد بن نصر ممن ذكر أنه كان مشايعاً له فوضعوا فى الحبوس ثم جعل نيف وعشرون رجلا فى حبوس الظلمة وضيق عليهم[(١)] . وحمل أبو يعقوب البويطى[(٢)] خليفة الشافعى فى حلقته بعده إلى بغداد مغلولا مقيداً وأريد على القول بخلق القرآن فامتنع فحبس ببغداد إلى أن مات فى القيد والسجن . ونشأت أولاوآخراً غوائل وخصومات منع من اشتدادها ما كان عليه الناس من أخلاق حسنة كان الدين المؤثر الأول فيها ، وكان على شىء من نضارته الأولى .

وفى سنة (٢٧٧) منع المعتضد من بيع كتب الفلسفة والمنطق وتهدد على ذلك. وفى سنة (٢٨٩) حلف الوراقون فى دار السلام ألا يبيعوا كتب الكلام والجدل والفلسفة وكان لهذا المنع ما يبرره بعض التبرير ، لأن الفلسفة أخذت فى هذه الحقبة تهاجم الدين بمقياس واسع . وكانت فتنة ابن قريش بمصر (٢٨٥) وذلك أنه أنكر أن يكون أحد خيراً من أهل رسول الله فوثب به الرعية فضرب بالسياط فمات بعد يومين . وقتل الخليفة ابن حبان البستى من أعلم أهل عصره

(١) تاريخ أبى الفداء .

(٢) حسن المحاضرة للسيوطى .

ومن طبقة البخارى فى الحديث ، بدعوى أنه يعرف بعض العلوم الرياضية[1] (٣٥٤) ولعل السبب لأنه ألف كتاباً فى القرامطة وقال حاسدو فضله إن هواه كان معهم .

وتتبع محمود الغزنوى لما فتح الرى وغيرها فى سنة (٤١٠) طائفة من المعتزلة ونفاهم وأحرق كتب الفلسفة والاعتزال والنجامة ، فلقى منه علماء المعتزلة الألاقى مع أنه كان يحب الفلسفة ويعطف على الفلاسفة . وربما كان هذا مما حمل ابن الطيب المتكلم البصرى المعتزلى (٤٣٦) ، وكان عالماً بعلم كلام الأوائل ، أن يتقى أهل زمانه فى التظاهر به ، فأخرج ما عنده فى صورة متكلمى الملة الإسلامية وأحكم ما أتى من ذلك . وكان مذهب الاعتزال انتشر فى مصر فى جملة ما انتشر فيه من الأقطار ، ولكن المقاومة كانت شديدة له أكثر من مقاومة مصر للتشيع فى عهد الفاطميين ، لأنه كان من وراء التشيع قوة تحميه ودولة تمليه ، والاعتزال رائده العلم والنظر ، حتى قال أحدهم فى القرن الرابع من قصيدة

فإن سلكت طريق العلم تطلبه بالبحث أبت بتكفير من الناس

وكان قائل هذا سيبويه المصرى من علماء المعتزلة فاختلط فقال المؤرخ ابن زولاق مدون أخباره : وإنما كان الناس يتابعونه لم اشتهر عنه من اختلاطه ، ولو تكلم بهذا أبو بكر بن الحداد أو أبو جعفر الطحاوى « وكلاهما من أكبر قضاة مصر وعلمائها » ، ومن يشبههما لقتل لوقته بغير مشاورة .

ومن الأمور الطبيعية أن يخاف الأمويون والعباسيون على ملكهم ممن يخالفونهم ويتربصون الدوائر بدولتهم ، ولكن ليس من العدل فى شىء أن يقتل مخالفوهم باسم الدين والذود عن الشريعة ، وفى الغالب أن يكون المعاقبون من أعيان الملة ومن أوعية العلم ، ولقد أوذى العلماء بحجج كثيرة وفى مقدمتهم علماء المعتزلة ، وأوذى الشيعة والخوارج لأن مذهبهم من المذاهب السياسية

(١) تاريخ بغداد للخطيب .

الصرفة . والإسلام فى الحقيقة ممزوج بالسياسة وهو لها ملازم غير مفارق . ولو جردوا العلم عن السياسة لما استطاع خليفة أن يدعى أنه قتل فلاناً لأنه خالف الشرع ، وكان الأولى أن يقال إنه خالف السياسة .

مثال من ذلك الحسين بن الحلاج فهو رجل عظيم ، وربما كان فى كلامه بعض العهدة ، ولكنه ظل متمتعاً بحريته إلى اليوم الذى ثبت فيه للخليفة أنه كان بينه وبين رئيس القرامطة اتفاق سرى على قلب الدولة[1] وعند ذلك قتله متهماً إياه بالإلحاد ، وما كان بالملحد شأن عشرات غيره اتهموهم بالإلحاد علناً ، والتهمة فى جوهرها سياسية لا يريد الخليفة أن يقول إن فلاناً يريد القضاء على سلطانى ويتهمه بأنه حاول أن يعبث بالدين ، ولطالما كان الدين تكأة يتكئ[2] عليها بعض السياسيين .

جد الشيعة فى نشر مذهبهم ، والدعوة إليه من أركان المذهب ، ولما قامت دولة الفاطميين من بنى عبيد فى إفريقية (٢٩٦ هـ) ثم استولت على مصر حاولت نشر مذهبها بالسيف ، فمن قبله نجا ومن أبى قتل ، وأفنت فى إفريقية من كان بها من أئمة المذاهب الثلاثة قتلا ونفياً وتشريداً ويروى ابن الأثير أن أبا عبد الله الشيعى لما وصل إلى رقاده من عمل القيروان جلس رجل يعرف بالشريف ومعه الدعاة ، وأحضروا الناس بالعنف والشدة ، ودعوهم إلى مذهبهم فمن أجاب أحسن إليه ، ومن أبى حبس ، فلم يدخل فى مذهبهم إلا بعض الناس وهم قليل ، وقتل كثير ممن لم يوافقهم على مذهبهم . وأخرج الظاهر الفاطمى (٤١٦) من بمصر من فقهاء المالكية وغيرهم . وأمر الدعاة أن يحفظوا الناس كتاب دعائم الإسلام ومختصره وجعل لمن يحفظ ذلك مالا . وألف يعقوب بن كلس وزير الفاطميين بمصر كتاباً فى فقه الإسماعيلية حرّج على الناس أن لا يطالعوا غيره ، ونشط الفاطميون كل من حضره ووعاه : وكان ابن كلس[3] أحضر فى سنة (٣٨٠) جماعة الفقهاء وأهل الفتيا وأخرج لهم كتاب

---

(١) الشامل لإمام الحرمين . (٢) التكأة : ما يتكأ عليه كالعصا والقوس ونحوها
(٣) الإشارة إلى من نال الوزارة لابن الصيرفى .

فقه عمله وقال هذا عن مولانا الإمام العزيز بالله عليه السلام عن آبائه الكرام ، وقرأ عليهم رسالته وبعض كتاب الطهارة ، وهذا الكتاب يعرف بالرسالة الوزيرية ويقال إنه جمع على عمل هذه الرسالة أربعين فقيهاً . وقتل الفاطميون[١] أبا بكر ابن هذيل وأبا إسحاق بن البرذون من فقهاء السنة وسحبوهما فى أذناب الخيل لعدم إفتائهما بمذهب جعفر بن محمد الذى سموه مذهب أهل البيت . وابتنى الحاكم[٢] المدارس بمصر وجعل فيها الفقهاء والمشايخ ثم قتلهم وخربها وأحرق نحو ثلث مصر ونهب نحو نصفها ، ومن جملة من قتلهم الحاكم من أهل العلم أبو شامة جنادة اللغوى الهروى لما قدم مصر وكان من الفضلاء[٣] النبلاء .

ولما قدم المعز فى القرن الرابع عطل مذهب الفاطميين وأمر بقتل الشيعة فى إفريقية حواضرها وبواديها[٤] فلم يبق منهم أحد ، وحمل الناس على مذهب الإمام مالك ومنع ما عداه . وكان بإفريقية مذهب الصُّفْرية والشيعة والأباضية والنكارية والمعتزلة ، ومن مذاهب السنة الحنفية والمالكية ، فلم يبق فى أيامه غير مذهب مالك . ووصف النويرى[٥] هذه المذبحة فقال : ركب المعز فى القيروان ، والناس يسلمون عليه ويدعون له ، فمر بجماعة فسأل عنهم فقيل هؤلاء رفضة والذين قبلهم سنة . فقال : وأى شىء الرفضة والسنة . فقالوا : السنة يترضون عن أبى بكر وعمر ، والرفضة يسبونهما . فقال : رضى الله عن أبى بكر وعمر ، فانصرفت العامة من فورها إلى ناحية تشتمل على جماعة منهم فقتلوا منهم جماعة ، ووقع القتل فيهم فصادفت شهوة العسكريين وأتباعهم طمعاً فى النهب . وانبسطت أيدى العامة فيهم ، فأقبل عامل القيراون يظهر أنه يسكن الناس وهو يحرضهم ويشير إليهم بزيادة الفتنـــة ، فقتل من الرافضة خلق كثير فى ديارهم وحوانيتهم وأحرقوهم بالنار وانتهبت ديارهم

(١) خطط المقريزى . (٢) حسن المحاضرة السيوطى .
(٣) سكردان السلطان . (٤) المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس لابن أبى دينار .
(٥) البيان المغرب فى أخبار المغ ب لابن عذارى المراكشى .

وأموالهم وزاد الأمر واتصل القتل فيهم فى جميع بلاد إفريقية . وقيل إن القتل وقع فيهم فى جميع المغرب فى يوم واحد فى المدائن والقرى ، فلم يترك رجل ولا امرأة ولا طفل إلا قتل وأحرق بالنار ، ونجا من بقى منهم بالمهدية إلى الجامع الذى بالحصن فقتلوا فيه عن آخرهم ، وخرج من بقى من المشارقة وهم الرفضة إلى قصر المنصور بظاهر المنصورية وهم زهاء ألف وخمسمائة وتحصنوا به فحاصرهم أهل السنة واشتد عليهم الحصار فقتلوا عن آخرهم . ا ﻫ

ولابن العذارى فى هــذه المأساة الإفريقية تعليل برواية أخرى قال : كان المعز بن باديس صغيراً فربى فى حجر وزيره أبى الحسن بن أبى الرجال وكان ورعاً زاهداً ، وكانت إفريقية كلها والقيروان على مذهب الشيعة وعلى خلاف السنة والجماعة من وقت تملك عبيد الله المهدى لها ، فأدب ابن أبى الرجال المعز على مذهب مالك ، والشيعة لا يعلمون ذلك ولا أهل القيروان فخرج المعز فى بعض الأعياد إلى المصلى وهو غلام فكبا به فرسه فقال عند ذلك أبو بكر وعمر ، فسمعته الشيعة التى كانت فى عسكره فبادروا إليه ليقتلوه ، فجاء عبيده ورجاله ومن كان يكتم السنة من أهل القيروان ووضع السيف فى الشيعة فقتل منهم ما ينيف على ثلاثة الآلاف ، وصاح بهم فى ذلك الوقت صائح الموت فقتلوا فى سائر بلاد إفريقية . وكان التشيع فى القرن الرابع غالباً على أهل قم[1] فى فارس وأهل الكوفة فى العراق وبلاد إدريس ابن إدريس وهى طنجة وما والاها فى المغرب . وجاء زمن وليس فى الأندلس إلا مذهب[2] مالك فإن ظهروا على حنفى أو شافعى نفوه .

وكان فى الدولة الفاطمية ديوان عظيم يتولى الدعوة لمذهبهم واسم رئيسه « داعى الدعاة[3] » تقرأ عليه مذاهب أهل البيت بدار تعرف بدار العلم ، ويأخذ العهد على من ينتقل إلى مذهبهم على أن يستر جميع ما عرف إلا ما أطلق

---

(١) أحسن التقاسيم للمقدسى .　(٢) معجم البلدان لياقوت .

(٣) صبح الأعشى للقلقشندى .

له أن يتكلم به ، وأن ينصح ويخلص للإمام . وكان الشيعة إذا قوى سلطانهم قتلوا فى ناحية من خالفهم بعد دعوته إلى مذهبهم ، وإذا قويت المذاهب الأخرى قتلوا هم فرادى وجماعات . وهكذا الحال فى بعض المذاهب الأخرى ، ولكن منها ما تصل به الحماسة إلى قتل مخالفه ، ومنهم من يكتفى باضطاده ونفيه وتشريده وإهانته .

ومع هذا فقد لحق الاضطهاد بالفقهاء قليلا لأنهم كانوا متصلين بأصحاب السلطان ، وسهل عليهم تغيير مذهبهم خصوصاً إذا كانوا من أهل السنة ، حتى لا يستهدفوا لغضب السلطان أو يحرموا مناصب القضاء والفتيا وغيرها من المناصب الدينية كالحسبة والإمامة . ونال الاضطهاد الفلاسفة والمتكلمين وغيرهم من أرباب البحث والنظر ، والمحرك الأعظم فى كل ما يعامل به العلماء سياسة الملوك ، وما يخطر ببالهم وينطبق مع رغائبهم ورغائب الحافين بهم ، والعامة أداة تحركها يد الملوك من حيث يدرون ولا يدرون . قال ابن أبى جواد بخلق القرآن فى إفريقية فاشتد سحنون عليه وضرب حتى مات تحت السياط . ولما ولى محمد بن عبدون القضاء بعد موت سحنون بالقير وان ضرب طائفة من أهل العلم[1] من أصحاب سحنون وطيف بهم على الجمال بغضاً منه فى مذهب مالك وأصحابه ومنهم أبو إسحاق بن المضا وأبو زيد بن المدينى فماتا على الجمال ، ومنهم أحمد ابن معتب وابن مفرج . وكان ابن عبدون حنفياً ولو ساعده أمير البلاد على ما يريده لملأ من العلماء مقبرة كبيرة .

وضرب[2] ابن البرذون « إبراهيم بن محمد الضبى » خمسمائة سوط ودارت عليه دائرة ثم دارت عليه دائرة أخرى فضم إلى السجن هو ورجل كان يعرف بابن هذيل فخرج فيهما التوقيع فى إفريقية أن يضرب ابن هذيل خمسمائة سوط وأن تخبط رقبة إبراهيم بن البرذون ليلا فضربه العامل العدة المذكورة ثم أعاده إلى السجن ثم أخرج ابن هذيل فضرب رقبته ، ثم انتبه للغلط فأخرج إبراهيم فضرب رقبته ، ثم ربطت أرجلهما بالحبال وجرا مكشوفين غير مستوردين

(١) تاريخ الفقه الإسلامى للحجوى . (٢) طبقات علماء إفريقية وعلماء تونس للتميمى والخشنى ..

من دار الإمارة ، ثم صلبا ثلاثة أيام ، وكان ذلك فى زمن أبى عبد الله الشيعى . وضرب أيضاً أبو العباس بن السندى وعذب وأخذت نعمته .

ودارت دوائر على ناس كثير فى إفريقية من قتل واضرب إلا أنهم ليسوا(١) من العلماء كدائر ة ابن عروس فى خلع لسانه وابن معتب فى ضرب ظهره وأشياء كثيرة فى هذا الباب من جهة ترك « حى على خير العمل » فى الأذان وترك قراءة بسم الله الرحمن الرحيم فى صلاة الفريضة . وضرب أبو العباس ابن التسترى الشافعى زمن العبيديين فى إفريقية وعذب وأخذ ماله . وضرب أبو القاسم مولى مهرويه وعلى السدرى من أهل الخير والعبادة سنة (٣٠٨) بالمهدية ثم قتلا وصلبا بكلام حفظ عليهما فى السلطان . وضرب أبو القاسم الطورى صاحب المظالم فى الجامع على رؤوس الأشهاد وفعلوا ذلك بجماعة من رجال المدنيين ممن لم يكن لهم اسم فى العلماء دخلوا فى جملتهم بالمحبة والصحبة. ومثل ذلك وقع للعلماء والقضاة فى إفريقية كابن عتاب وابن القطان والعبيدى . ودارت من ابن عبدون دائرة على رجال المدنيين فضربهم ونكل بهم وطوف بعضهم وضربوا البهلول بن راشد وكان أخذ عن مالك وسفيان وغيرهما ، ولما مات البهلول بن عمر التجيبى وحملت جنازته رمى نعشه بالحجارة وقال الناس : الوادى الوادى ، أى ألقوه فى الوادى لأنه كان على ما يقال يقول بخلق القرآن وهو ممن سمع مالكاً والليث وابن لهيعة وغيرهم .

ويقول محمد عبده : إن الأمراء لما أمعنوا فى الفتك بالصوفية بإغراء الفقهاء ، كان الصوفية يعقدون اجتماعات سرية للبحث فى كف الأذى عنهم ، ويقررون فيها ما يتفقون عليه ، ثم يسعون لتنفيذه بالوسائل الكسبية . وقد يكون منه قتل بعض خصومهم ، فهذا أصل ما يسمى التصرف فى الأكوان ، وليس تصرفاً بالكرامات ، ولا بخوارق العادات . قلنا فالمتصوفة إذاً أشبهوا فى إطالة الأيدى بالقتل جماعة الإسماعيلية فقد مضى عليهم زمن طويل يقتلون

(١) طبقات علماء إفريقية ورجال تونس التميمى والخشنى .

الملوك والخلفاء ويوقعون بالعلماء حتى خافهم الناس . وكم من عظيم قتلوه وكم من عالم مسلم أباحوا دمه . وقيل إنه قتل فى يوم واحد فى القاهرة خمسمائة صوفى . وزعم بعض المعاصرين أن فقهاء السنة وحكامهم ما عاملوا المتصوفة بأشد مما عاملوا سائر الفرق فحكموا ببدعة بعضهم وكفروا كثيراً من أكابر شيوخهم وقتلوا منهم خلقاً كثيراً ، ثم غلوا بعد ذلك فى تعظيمهم والتسليم الأعمى لهم غلوا كبيراً . وإن اضطهادهم للمتصوفة كان أشد من اضطهادهم للفلسفة ، وما ذلك إلا لأن علم التصوف القريب من فهم الفقهاء أمس بالدين ، بل هو ثمرة التمسك بفضائل الدين وآدابه .

اتهم محمد بن مسرة القرطبى (٣١٩) بالزندقة[١] لما ظهر من كلامه بالوعد والوعيد ولخروجه عن العلوم المعلومة بأرض الأندلس الجارية على مذهب التقليد والتسليم ، ففر إلى المشرق ، ولحقت ابن الإقليلى الأندلسى تهمة فى دينه فى أيام هشام المروانى فى جملة من تتبع من الأطباء فى وقته كابن عاصم والسنابسى والحمار وغيرهم وطلب ابن الإقليلى وسجن بالمطبق .

وامتحن حكم بن محمد المقرى القيروانى مع أبى عبد الله الشيعى فسجنه من أجل صلاته كانت فيه فى السنة ، وإنكار شديد على أهل البدع . ولما غلب عبد الواحد بن على على المغرب ألزم العلماء الاجتهاد وترك التقليد لما رآهم انغمسوا فيه فأحرق كتب الفروع كلها ، وأمر بوضع كتب أحاديث الأحكام ، وكذلك فعل حفيده أبو يوسف يعقوب سنة (٥٩٥) فأمر بإحراق كتب الفروع ، وكان يقصد بذلك محو مذهب مالك من المغرب ، وحمل الناس على الظاهر من الكتاب والسنة . هذا والاجتهاد المطلق لم يوجد كما قال النووى من لدن القرن الرابع ، وإنما هم أهل الاجتهاد المقيد ، وهم مجتهدو المذاهب الذين لهم قوة على المسائل من الكتب والكتاب والسنة وبقية الأصول ، ولكنهم مقيدون بقواعد مذهب إمامهم .

(١) تاريخ علماء الأندلس للفرضى .

وتمالأ الفقهاء على ابن حزم الأندلسى[1](٤٥٦) لأنه ترك مذهب الشافعى إلى مذهب داود الظاهرى وأجمعوا على تضليله وسعوا به حتى أحرقت كتبه ومزقت علانية فى إشبيلية . ووقع مثل ذلك لكتب الفيلسوف ابن رشد فزقوها وأحرقوها فى ساحات بعض المدن من الأندلس . ونفى المنصور بن أبى عامر من ملوك الأندلس الفلاسفة ومن جملتهم ابن رشد وأبو جعفر الذهبى وأبو عبد الله قاضى بجاية وغيرهم ، وأحرق كتب المنطق والحكمة فى بلاده ، وشدد النكير على المشتغلين بها ، وفوّض ذلك إلى وزيره ابن زهر الفيلسوف لئلا يظهر ما عنده من كتب المنطق والحكمة ، ولا ينقل أنه يشتغل بها ولا يناله مكروه بسببها . وقتل المنصور بن حبيب فى إشبيلية بسبب الفلسفة وترك ابن زهر الفيلسوف ، وقطع الطريق على الناس فى النيل منه ، لأنه كان عنه راضياً ينلىر تصرف مثله فى تدبير مملكته .

وأوذى أبو بكر بن عربى لأنه التزم الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر فأخذت كتبه وماله وصرف عن القضاء . وجرت محنة على أبى بكر الجيانى الأندلسى (٥٩٦) وشى به للمنصور بن عبد المؤمن أنه لزم ترك التقليد والعمل بالحديث . وأوقعت الحيطة فى أيام الناصر العباسى على الركن عبد السلام ابن عبد القادر الجيلى لأنه قرأ علوم الأوائل وأجادها واقتنى كتباً كثيرة فى هذا الفرع ، فاتهم بأنه معطل وأنه يرجع إلى أقوال أهل الفلسفة ، فصدر الأمر بإحراق كتبه فى إحدى ساحات دار السلام ، وخطبوا خطبة لعنوا فيها الفلاسفة ومن يقول بقولهم . واجتمع قواد عسكر أحمد خان صاحب سمرقند وقبضوا عليه بسبب زندقته ولما قبضوه أحضروا الفقهاء والقضاة وأقاموا خصوماً ادعوا عليه الزندقة فجحد فشهد عليه جماعة بذلك وأفتى الفقهاء بقتله فخنقوه (٤٨٨) . ولزم محمد بن أحمد بن عبيد الله بن أحمد بن الوليد أبو على المتكلم من رؤساء المعتزلة (٤٨٧) بيته خمسين سنة لم يقدر على أن يخرج منه من عامة بغداد .

(١) الذخيرة لابن بسام .

ونجا عمر الخيام الفيلسوف الشاعر النيسابورى من أهل المائة السادسة من اضطهادالعامةوالملوك بشىء من التقية « ولما [١]قدح أهل زمانه فى دينه، وأظهروا ما أسره من مكنونه ، خشى على دمه ، وأمسك من عنان لسانه وقلمه ، وحج متاقاة لاتقية » ووقف المستنجد العباسى على حكايات أخذها ابن حمدون صاحب التذكرة من التواريخ توهم فى الدولة غضاضة ، فأخذ من دست منصبه وحبس (٦٠٨) . وقتل الظاهر غازى الحكيم الشهاب السهروردى ، وكان ناقش علماء حلب فبذهم فشكوه إلى صلاح الدين فأمر ابنه بقتله[٢] مع حرص الظاهر على إنقاذه . وغريب كيف نجا مثل أبى العلاء المعرى على ما بدر فى شعره ونثره من فلتات ينكرها فريق المتعصبين ، ولعل الأصل فى نجاته كونه زاهدا حقيقة ، لا ينازع أرباب المذاهب الدينية فى شىء من دنياهم ، أو كما قال له أحدهم فغضب من قوله إنه ترك لهم دينهم ودنياهم .

ووقع لسيف الدين الآمدى أحد أذكياء العالم من أهل المائة السادسة أن حسده جماعة من فقهاء مصر ، ونسبوه إلى فساد العقيدة والتعطيل ومذهب الفلاسفة ، فهرب واستوطن حماة فى الشام فنجا من العطب بالهرب . وتتبع أعداء لسان الدين بن الخطيب ، رجل الأندلس علماً وفصاحة ، كلمات زعموا أنها صدرت منه فى بعض تآليفه ، فأحصوها عليه ورفعوها إلى قاضى غرناطة فسجل عليه بالزندقة ، ثم أخذ وأحضروه فى مجلس الخاصة وأهل الشورى من الفقهاء وعظم عليه النكير فيما كتب ، فوبخ ونكل وامتحن بالعذاب ، وأفتى بعض الفقهاء بقتـــله ثم طرقوا عليه السجن فخنقوه وأخرجوا شلوه[٣] وأحرقوه .

كان الانتقام من العلماء يتم على أيدى الخلفاء والسلاطين ، فلما جاء ملوك الطوائف وضعف العباسيون وأصبح لكل قطر ملك أو أمير غدا الانتقام من أرباب الأفكار محصوراً فى العامة أو من كان على مثالهم من العلماء ، وكثرت

(١) أخبار الحكماء للقفطى . (٢) تاريخ الأطباء لابن أبى أصيبعة .

(٣) الشلو والشلاء : الجسد من كل شىء وأشلاء الإنسان أعضاؤه بعد البلى والتفرق .

مجالس المناظرات[1] بين الفقهاء حتى لا تكاد تخلو مدينة كبيرة من عقد المجالس بين كثيرين من علمائها ، ولا سيما فى العراق وخراسان ، تعقد أمام الوزراء ممن كانوا بالأمس يميلون إلى الفقه لاحتياجهم إليه فى الحكومات ، ثم صاروا يميلون إلى استماع مقالات الناس فى قواعد العقائد ، ومالوا إلى أسماع الحجج فيها ، فأفضت إلى فتح باب العصبيات الفاحشة والخصومات المفضية إلى إهراق الدماء وتخريب البلاد وأصبح الكبراء يميلون إلى المناظرات لبيان الأولى من مذاهب السنة فنجمت من هذا الانكباب على المسائل الخلافية فتن أفضت إلى قتل النفوس بالألوف ، وإلى خراب مدن برمتها ، خربت بأيدى أناس كان مشايخهم يتفاخرون بالمناظرات والخلافيات ، يوقدون نار الفتنة بين أتباعهم وخصومهم ، وينال بعضهم من بعض بالنميمة والحسد والرياء والختل مما نهى عنه الشرع .

ومن هذه الفتن فتنة نشبت بنيسابور عاصمة خراسان بين الحنفية والشيعة ، وأمر السلطان بأن تلعن المبتدعة على المنابر ، وحسن له بعضهم فيما قيل الأزراء بمذهب الشافعى وبالأشعرية ، وأدى التصريح بلعن أهل السنة فى الجمع ، وتوظيف سبهم على المنابر ونفى بعض الشافعية ، وهاجر من تلك البلاد أربعمائة قاض من قضاة الشافعية والحنفية ، وشمل الضرر من ذلك خراسان والشام والحجاز والعراق .

وكانت تقع فى سجستان[2] وسرخس عصبيات بين الشيعة والكرامية فى نيسابور ، وبهراة بين العملية والكرامية . وخرجت الرى بسبب هذه المنافسات بين الفقهاء ، وكان فيها شافعية وحنفية وشيعة وتطاولت بينهم الحروب ، حتى لم يتركوا من الشيعة من يعرف . فلما أفنوهم وقعت العصبية بين الشافعية والحنفية فنشبت بينهم حروب . واشتد التطاحن بين الطوائف الإسلامية ، بل بين أرباب مذاهب السنة ، وكل فريق منهم يتهم خصمه أنه حشوى ليس على شىء من العلم . . قال السبكى : وكثرت مذاهب الحشوية

(١) تاريخ التشريع الإسلامى للخضرى . (٢) معجم البلدان لياقوت .

وهم فريقان فريق لا يتحاشى فى إظهار الحشو ، ويحسبون أنهم على شىء ، وفريق يتستر بمذهب السلف لسحت يأكله أو حطام يأخذه أو هوى يجمع عليه الطغام الجهلة والرعاع السفلة ، وفى هذا الفريق من يكذب على السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار ، ويزعم أنهم يقولون بمقالته ، يتستر بالسلف حفظاً لرياسته ، والحطام الذى يجتلبه ، ويتحلى بالرياء والتقشف زاهداً فى الذرة ليصل الدرة ، وأظهروا للناس نسكاً وعلى المنقوش داروا . ومذهب السلف إنما هو التوحيد والتنزيه دون التجسيم والتشبيه ، والمبتدعة تزعم أنها على مذهب السلف اهـ .

ولعل السبكى يقصد من قوله هذا مذهب الحنابلة وكان ابن تيمية منهم ، وعليه اشتد المشايخ بنو السبكى فى القرن الثامن مستعينين بما لهم من النفوذ فى دواوين الدولة فى مصر والشام فعاملوا هذا المصلح معاملة جائرة هو وتلميذه ابن قيم الجوزية ليقضوا عليه وعلى تعاليمه التى ما خرجت عن الكتاب والسنة والرد على المتكلمين والفلاسفة والمتصوفة والرافضة[1] والنصارى ، وتوصلوا إلى حبس ابن تيمية سنين طويلة فى الإسكندرية والقاهرة ودمشق ولم يخرجوه من محبسه إلا إلى قبره ، ونكبوا ابن القيم تلميذه وحبسوه آخر مرة مع شيخه فى حجرة منفردة . ومن الغريب أن يعقد فى القاهرة لابن تيمية مجلس حاكموه فيه على اعتقاده واعتقلوه بعدها فى جب يوسف هو وأخوته وأن يكتب السلطان إلى دمشق أنه رسم أن من اعتقد عقيدة ابن تيمية حل ماله ودمه .

وما زالت العصبيات تقع بين أهل ساوة ، وسكانها سنة ، وأهل آوة ، وسكانها شيعة ؛ أوائل القرن السابع ، ومنشأ الخراب فى أصفهان إلى هذا العهد أيضاً وقبله ، وكثرت الفتن والتعصب بين الشافعية والحنفية ، وكلما ظهرت طائفة نهبت محلة الأخرى وأحرقتها وأخربتها . ولقد كانت الغلبة

(١) إنما قيل لهم الرافضة لأنهم رفضوا أبا بكر وعمر ولم يرتفضهما أحد من أهل الأهواء غيرهم . والشيعة دونهم وهم الذين يفضلون عليا على عثمان ويتولون أبا بكر وعمر فأما الرافضة فلها غلو شديد فى على ذهب بعضهم مذهب النصارى فى المسيح وهى السبئية أصحاب عبد الله بن سبأ وقد أحرقهم على بالنار — قاله ابن عبد ربه فى العقد .

للحنفية فى القرن الخامس ببلاد فارس ومنها ما كثرت حنابلته ومنها ما كانت شيعته غالية يحبون معاوية . ومنها ما تغلب فيه أصحاب الحديث وأكثر إقليم خوزستان معتزلة ، والفتن على الدين فى الجبال متصلة ه وكان للخوارج بسجستان ونواحى هراة وللمعتزلة بنيسابور ظهور بلاغلبة وللشيعة والكرامية بها جلبة ، وفى تلك الديار شافعية وحنفية وبرساتيق هيطل أقوام يقال لهم بيض الثياب مذاهبهم تقارب الزندقة وأقوام على مذهب عبد الله السرخسى لهم زهد وتقرب، وأكثر أهل ترمذ جهمية وأهل الرقة شيعة وأهل كندر قدرية ؛

ثارت فتن كثيرة فى بغداد بين الحنابلة وغيرهم ، وبين السنة والشيعة خربت بها بعض أحياء بغداد غير مرة فقد هاجت فى سنة (٣٩٨) فتنة هائلة بين أهل السنة والرافضة واقتتلوا وقتل جماعة . وفى سنة (٤٠٨) كانت الفتنة الكبرى فيها بين أهل السنة والشيعة وقتل طائفة منهما واستتاب القادر جماعة من الرفض والاعتزال وأخذ خطوطهم بالتوبة . وبعث إلى محمود ابن سبكتكين صاحب خراسان يأمره بنشر مذهب أهل السنة وقتل جماعة ، ونُفى خلق من الإسماعيلية والرافضة والمعتزلة والمجسمة وأمر بلعنهم على المنابر بعد أن عجزت الشرطة عنهم وأطلقت النيران فى الشوارع . وفى سنة (٤٢٢) هاجت الفتنة بين السنة والشيعة فى بغداد فنهبت وأحرقت ، ومن جملة ما أحرق أربعة أسواق وثاروا بالسلطان فأرضاهم الخليفة المقتدر بالعطاء .

وفى سنة (٤٤٣) عاد السنة والرافضة إلى أشد مما كانوا فى بغداد . وقتل جماعة ونبشت قبور الرافضة وأحرقوا عظام رجالهم وقتلوا هم أناساً من علماء السنة ، وكتبوا على الأبراج « محمد وعلى خير البشر فمن أبى فقد كفر » ووقع التقبيح على الرافضة وأحرقت كتبهم فى بغداد لسبهم الصحابة ومنهم من قتل كما وقع فى سنة (٥٧٤) فإنه وقع فيها ما لم يتهيأ منذ نحو مائتين وخمسين سنة كما قال المؤرخون .

هذه أمثلة مما وقع بين السنة والشيعة فى فارس والعراق وما وقع بينهم فى مصر وإفريقية على عهد الفاطميين ، وكان الشيعة فى الشام أكثرية فى القرن

السادس ثم قلوا لما قضى صلاح الدين على دولة الفاطميين بمصر. ولما قطعت خطبة العاضد الفاطمى[١] بمصر استطال أهل السنة على الإسماعيلية وتتبعوهم وأذلوهم وصاروا لا يقدرون على الظهور من دورهم ، وإذا وجد أحد من الأتراك مصرياً أخذ ثيابه وعظمت الأذية بذلك ، وجلا أكثر أهل مصر عنها إلى البلاد ، وأخذ للناس بمذهب السلطان ، إن كان شافعياً زاد الشافعية ، وإن كان حنفياً أقبل القوم على مذهب الحنفى . وهكذا كانت الحال فى كثير من الأقطار يتظاهر الناس بمذهب القائم بالأمر فيهم ، فإذا تولى رقابهم من يخالفه فى رأيه انقلب الناس معه ، كما وقع فى مصر مع الدولة الفاطمية ، فإنها طبعت الأذهان بطابعها ، فلما انقرضت دولتهم عاد التسنن إلى ما كان عليه .

وقعت فى بغداد فتن كثيرة بين الحنابلة وغيرهم من أهل المذاهب الأخرى وكان الحنابلة فيها يتشددون على خصومهم ويقابلونهم بالعنف ، ومنها فتنة عظيمة بين الحنابلة وخصومهم قتل فيها خلق كثير من الجند والعامة بسبب تفسير قوله تعالى « عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً » اختلف الفريقان بتفسيرها فكان الهرج والمرج . وفى سنة (٣٢٣) عظم أمر الحنابلة على الناس فصاروا ينكرون المنكرات بشىء من الغلظة يدخلون بيوت القواد والعامة ليطلعوا على ما فيها من الموبقات ، فهددهم الخليفة الراضى باستعمال السيوف فى رقابهم والنار فى منازلهم فكفوا . ووقعت فتن فى بغداد بين الحنابلة وغيرهم من أرباب المذاهب فقتل عمر بن الحسن الحرقى من رجالهم .

ومن غرائب وقائع الحنابلة أن محمد بن جرير الطبرى صاحب التفسير والتاريخ (٣١٠) ألف كتاباً ذكر فيه اختلاف الفقهاء ولم يذكر أحمد بن حنبل، فقيل له فى ذلك فقال : لم يكن فقيهاً وإنما كان محدثاً ، فاشتد ذلك على الحنابلة فشغبوا عليه ولما هلك منعوا من دفنه نهاراً ، وادعوا عليه الرفض

---

(١) كتاب الروضتين لأبى شامة .

والإلحاد . وكان على بن عيسى الوزير يقول : والله لو سئل هؤلاء عن معنى الرفض والإلحاد ما عرفوه ولا فهموه .

ومن غريب أمر الحنابلة أنهم بنوا مسجداً فى بغداد[1] وجعلوه طريقاً إلى المشاغبة والفتنة فتظلم إلى على بن عيسى من أمره فوقع على ظهر القصة « أحق بناء بهدم . وتعفية رسم ، بناء أسس على غير تقوى من الله ، فليلحق بقواعده إن شاء الله » . ولما أبدى الإمام القشيرى شعار الأشعرية فى بغداد ثارت فتنة العامة (٤٦٩) « وقصدت[2] الحنابلة سوق المدرسة وقتلوا جماعة وأظهروا شناعة » .

وهكذا ظلت بغداد ميداناً للتقاتل بين الشيعة والسنة والحنابلة وغيرهم من أهل المذاهب زمناً طويلا فهلكت أنفس وخرب عمران بل « تتابعت[3] الفتن ووقع الخراب ، وما زالت الفتن والمحن متواترة إلى أن وقع بين الرافضة وأهل السنة فتنة أحرقوا من الجانب الغربى ما لا يحصى من الدور والمساكن والحوانيت وقلت المعايش وكثر الجور ، وفترت الهمم عن طلب العلوم وغيرها ، وكان أهلها فى سعة من الأرزاق ورخص الأسعار فانتقل عنها معظمهم » . وكانت بغداد فى القرن الثانى والثالث والرابع عاصمة العلم والفلسفة والأفكار فأمست فى القرن الخامس والسادس والسابع بؤرة الجمود والانحطاط الفكرى .

وفى سنة (٨٣٥) ثارت فتنة عظيمة فى دمشق بين الحنابلة والأشاعرة حتى صدر مرسوم السلطان أن لا يعترض أحد غيره فى مذهبه ، ومن أظهر شيئاً مجمعاً عليه سمع منه . والحاصل أن الحنابلة كالرافضة أظهروا شدة فى اختلافاتهم مع الطوائف الأخرى حتى تراجع أمرهم من العراق والشام إلا قليلا . وأهل نجد اليوم حنابلة المذهب وهم مثال من المبالغة فى إنكار المنكرات ، والتحامل على بعض المذاهب الإسلامية الأخرى .

---

(١) تاريخ الوزراء للصابى . (٢) زبدة النصرة للعماد الكاتب .

(٣) مناقب بغداد لابن الجوزى .

وكم من فتنة حدثت لأن قوماً يتعصبون للعالم الفلانى وآخرين يحطون منه كما جرى للبخارى والرازى . وكم فتنة قام بها العوام لأنه شاع أن فلاناً العالم قال كذا فى فلان الذى يقدسونه . فقد توفى الصولى (٣٣٦) نديم الخلفاء وأوحد العلماء بالبصرة مستتراً لأنه روى فى حق على بن أبى طالب حديثاً ، فطلبته الخاصة والعامة لتقتله فلم تقدر عليه . ومات أبو عبيدة معمر بن المثنى (٢١١) بالبصرة وكان يرى رأى الخوارج ولم يحضر جنازته أحد من الناس حتى اكترى لها من حملها . ومثل هذا وقع لياقوت الحموى فى دمشق ذكر كلاماً فى حق علىّ كان قد قرأه فى كتاب الخوارج فعدوه من النواصب المنحرفين عن أمير المؤمنين ، وأراد بعض أهل دمشق قتله فهرب . ومما يذكر أنهم كثيراً ما يتنازعون الرجل كل يدعيه كما حدث لما توفى عيسى بن سعادة الفاسى (٣٥٥) فتنازع علماء فاس فيمن يصلى عليه الفقهاء أم المحدثون ، كل يدعيه ويقول إنه أحق بالصلاة عليه .

أما فى قرون الانحطاط أى القرون الخمسة الأخيرة فكان من خالف الجمهور ولو فى مسألة صغيرة عرضة للقتل إذا لم يكن له أحد يحميه فى قصر الملك أو الأمير ، لأن القوم أصبحوا ونفوسهم لا تشتفى ممن يخالفهم فى معتقد أو فكر إلا أن يضرب عنقه ، بل أصبح الحديثى ينظر إلى الفقيهى ، والشافعى إلى الحنبلى ، والفروعى إلى الأصولى نظراً شزراً . وبدأ ذلك منذ انسحب القراء عن صفوف الفقهاء والمحدثين ، ثم ابتعد الصوفية عن الفقهاء ، ثم عرف أهل كل مذهب مذهبهم وثبتوا عليه فى القرن الثامن لأنهم قاتلوا دونه فى بعض البلاد ، وأصبحوا كلما نبت نابت من الرجال يقول بمقالة تخالف من بعض الوجوه مذاهب السياسة يقتل على مذهب مالك . فقد ذهب مالك ومن وافقه من أصحاب الشافعى إلى قتل الداعية إلى البدع ، وذهبت طائفة من أصحاب أحمد إلى جواز قتل الجاسوس . وكان الخليفة قد يحتاج إلى قتل أمثالهم لأن حكمه شريعة يجب تنفيذها فى نظره ، فلما ضعف الملوك لم يجدوا أحسن

من العمل برأى مالك فى قتل كل من خالف فى مسائل إذ لا توبة له ، والدين يقول إن المولى يقبل توبة التائبين .

أخذ الأمناء على الدين يتيهون فى بيداء الفوضى العقلية ، لا يرون فى تأديب المبتدعة أو من سموهم هم كذلك ، إلا تطبيق أشد مفاصل القانون عليهم ، وإنزال آخر العقوبات المسطورة ، ويتجافون عن سماع أقوالهم ومجادلتهم بالتى هى أحسن . وادعوا لضعف فيهم أن المبتدع يحضر لكل سؤال من بدعته جواباً قلما يستطيع مجادل نقضه . ولذلك كان من الحزم أن يعامل لأول أمره بالعنف . ويعمد إلى صاحب السلطة فى تأديبه، ولا يسمع له كلام ولا حوار . بل لم ير المسيطرون على الدين أن يكتب المبتدعة أو المتفلفسون كلامهم ليرد عليهم بالكتابة لأن كتابتها زعموا تكون سبباً فى نشرها ، فهم يرون أن يصموا آذانهم عن كل جديد ، ويكتفوا بما لقفوا من العلم وقرروا من المذاهب .

وماذا يعنيهم من المقالات الجديدة ، والاجتهاد فى الدين موصد الأبواب، وهو محظور حتى على من بلغ رتبة عالية فى العلم ، واستعد للخوض فى ميدان الأحكام، والرجوع إلى مصادر الشريعة ليأخذ من لبابها الأوفق للزمن والمصلحة لا ما رآه غيره ، مع عدم الخروج عن قواعد الشرع . وتحت حماية مذهب مالك الذى يرى القتل ضرباً من التعزير قتل بين القرن الثامن والثانى عشر عشرات من الأذكياء والباحثين فى أوقات مختلفة فى فارس والعراق والشام ومصر وإفريقية وغيرها، يتهم أكثرهم فى دينهم ويسألون بضع مسيئلات إذا كان فى أجوبتها بعض العهدة بحسب فهم المسيطرين ، تقطع أعناقهم ويصلبون وتطهر الأرض منهم .

وبهذا الهول الأكبر انقطعت الرغبات فى البحث واستعمال الفكر إلا فى الدائرة المعينة الحدود والأوصاف التى قرروها . وأنشأوا يحرمون علناً بسائط علم الفلسفة كالطبيعيات والرياضيات بل والتاريخ وتقويم البلدان فضعفت

ملكة هذه العلوم على تلك النسبة ، ضعف الملكات الدينية ، وضعفت العقول معها ، « وزاد الحق غموضاً[١] وخفاء أمران : أحدهما خوف العارفين مع قلتهم من علماء السوء وسلاطين الجور وشياطين الخلق ، مع جواز التقية بنص القرآن وإجماع أهل الإسلام ، وما زال الخوف مانعاً من إظهار الحق ، ولا برح المحق عدواً لأكثر الخلق . . . وكان العلم فى أول الأمر يبذل من أهله لأهله مشافهة ولو سراً وذلك أول النقص وهو محفوظ فى الصدور ، فلما قل الحفظ وكتب ليحفظ ، وتعذرت الصيانة وخيف العدوان من أعداء أهل الإيمان كتم بعضهم فلم يظهر علمه فازداد النقص ، واتقى بعضهم فتكلم بالمعاريض الموهمة للباطل خوفاً على نفسه ، ورمز بعضهم فغلط عليه بما قصده فى رمزه فتفاحش الجهل » .

نعم كان مما لقيه العلماء من الألاق[٢] ما وقف القرائح ، وثبط الهمم ، وقعد بالعزائم ، وتجاهل الناقمون والمنتقمون ، أن فى قتل عالِم قتل عالَم ، وأن فى إرهاق العقول مدرجة إلى ظهور كل جهول ، وما نفع قط الجهلاء فى قيام دين أو دنيا . استسهل الضاغطون على الأفكار تشريد العلماء وتعذيبهم وسجنهم أو قتلهم بدعوى أن فى عملهم ضم شمل الجماعة وإغلاق أبواب التفرقة ، والقضاء على البدع والضلالات ؛ وهيهات أن يجدوا عاقلا يضطلع بالدفاع عن أعمالهم اللهم إلا المأخوذ بالتقاليد الموروثة ، الذى خلق ليدهن لكل من سوّدته مناصبة . والعلم يتطلب غير هذه السياسة الخرقاء . والعلماء يشقون ليسعدوا بعملهم الخلق ، يبيتون حياتهم على مثل حَسَك السعدان[٣] ليحلوا المشكلات والمعضلات ، وينصروا الحق الذى يعرفونه ، فيتجلى للأفكار نقياً ينتفع به من يعقلون . ولا سبيل إلى تأويل إهانة العلماء باسم الدين إلا بأن معظم أولياء الأمر ما كانوا يبالون بإطفاء أنوار الأفكار ، فحالوا بعملهم دون ظهور النابغين ، وقصروا هممهم على اصطناع المتوسطين ،

---

(١) إيثار الحق على الخلق للمرتضى اليمانى . (٢) الشدائد .

(٣) الحسك : الشوك . والسعدان بفتح السين : نبت من أفضل مراعى الإبل مادام رطباً .

حجروا على العقول ، فكانوا أعدى أعداء العلم الصحيح . وبدون حرية يموت العلم ، وتفسد ثمرات المدارك ، وكل من أبطلوا حركة البحث وشلوا الأعصاب عن الانبعاثات باءوا بسبة الدهر ، وكل من اتخذوا العلماء مطايا لأغراضهم ، وفرحوا بتمزيق أجزاء القلوت ليسلم سلطانهم ، كانوا أسقط الناس ورذالتهم فى المجتمع .

* * *

رأينا بما قدمنا صورة من نشأة الشرع وعلوم الكلام والحديث والتصوف والفلسفة والآدب وقيام الفرق الإسلامية ، وما لحق الناس والبلاد من اضطهاد وقتل وتخريب بسبب الدين . ورأينا كيف ضعف الدين منذ دهمته الزيادات الممرضات ، وأن الدنيا كان شأنها كذلك منذ أصبح كل أمر يتوقف على فتوى العلماء مراعاة من السياسيين للظواهر ، فكانت السحافات والترهات التى قضت على سلطان العقل . وماتت النفوس والهمم ، وقعدت عن العمل الصالح ، وطفئت شعلة الذكاء ، وأبدلت بظلام دامس ، وشغل الناس بأمور تافهة كان منها خراب بلادهم ، وخراب عقولهم ، وزهدوا فى الجوهر الذى لا يقصد من العمل به إلا إنهاض النفوس ، وتشبعوا بما لم ينزل به سلطان ، قضوا بهذا الجمود عن اللحاق بمن سبقوهم إلى فك القيود الثقيلة ، وظلوا على تحجيرهم يفاخرون بالآباء والجدود .

وربما كان فى المقاومين لمثل هذه المسائل من كان رائد الإخلاص فى قوله وعمله ، ولكن كثيراً منهم كانوا تبعاً للسلطان أو تبعاً لما يرضى العامة ، والعلم كما يقول الراغب الأصفهانى(١) ذو منازل لكل منزلة منها حفظة كحفظة الرباطات والثغور ، وقلما ينفك كل منزل منها من شرير فى ذاته ، وشره فى مكسبه ، وطالب لرياسته ، وجاهل معجب بنفسه ، بصير لأجل تنفيق سلعته ، صارف عن المنزل الذى هو فوق منزلته من العلم وعائب له ، فلهذا نرى كثيراً ممن حصل فى منزلة من منازل العلم دون الغاية ، عائباً لما فوقه صارفاً

(١) الذريعة إلى مكارم الشريعة للأصفهانى .

عمن رامه ، فإن قدر أن يصرف عنه الناس بشبهة مزخرفة فعل، أو ينفر الناس عنه فعل اهـ . وفى تاريخ الدين صورة عجيبة من هذا التهالك على الدنيا فى الطبقة التى تدعى أنها أبعد الناس عن زخارفها ، وليس من المبالغة أن يقال إن من الدينيين من ليس له هم إلا أن يستأكل[1] بالدين ويضرب لصاحب القوة أبداً على الوتر الحساس فيه . فقد ذكر الغزالى[2] أنه بعد عهد المناظرات فى الفقه وبيان الأولى من مذهب الشافعى وأبى حنيفة ترك الناس الكلام وفنون العلم ، وانثالوا على المسائل الخلافية بين الشافعى وأبى حنيفة على الخصوص ، وتساهلوا فى الخلاف مع مالك وسفيان وأحمد ، وزعموا أن غرضهم استنباط دقائق الشرع ، وتقرير علل المذاهب ، وتمهيد أصول الفتاوى ، وأكثروا فيها التصانيف والاستنباط ، ورتبوا فيها أنواع المجادلات والتصنيفات . قال فهذا هو الباعث على الإكباب على الخلافيات والمناظرات لا غير ، ولو مالت نفوس أرباب الدنيا إلى الخلاف مع إمام آخر من الأئمة ، أو إلى علم آخر من العلوم ، لمالوا أيضاً معهم ، ولم يسكتوا عن التعلل بأن ما اشتغلوا به هو علم الدين ، وأن لا مطلب لهم سوى التقرب إلى رب العالمين .

وبعد فمن المؤلم للنفس اليوم تذكر من قضوا ضحايا أفكارهم فى بعض عصور الإسلام ، فكان القضاء عليهم قضاء على الحرية . على أن ما وقع فى بلاد المسلمين فى غضون ألف سنة من هذه النكبات لا يعد جزءاً صغيراً مما حدث فى الغرب بسبب المذابح الدينية وديوان التحقيق الدينى وبضغط الكنيسة على العقول وحريتها . أدى تفاعل العوامل الفكرية فى الإسلام إلى ما لم تحمد مغبته فتأخر سير العلم بعض التأخر ، وأخمدت جمرة التفكير الحر فى بعض العصور ، وكان ما جرى أشبه بحوادث أفراد دخلت العامة غمارها فهلكت أنفس وخرب عمران وتراجعت عقول . والمهم فى تاريخنا أن نقلبه كل مقلب لا ندلس فيه ولا نوالس ، لنتعرف الحقائق فى صورتها

(١) فلان يستأكل الضعفاء : يأخذ أموالهم . (٢) أحياء علوم الدين للغزالى .

الحلية النافعة . والتبعة فيا حدث فى الإسلام تقع على صنفين العلماء والرؤساء ، ولما كان أغلب الرؤساء جهلاء كانت معظم التبعة على العلماء . وليس[٢] تكاليف العقلاء كتكليف الجهلاء ولا آلة الفريقين فى الأفعال واحدة ، ولا مؤاخذتهما بالأعمال متساوية ، وكذلك قال تعالى : « إنما يخشى الله من عباده العلماء » ولو أوخذ الجاهلون كما يؤاخذ العالمون ، لكان ذلك جوراً فى القضاء ، وحيفاً فى الجزاء لأن الله تعالى كلف كل نفس بحسب قوتها ، وأخذها بما جعله فى قدرتها ، ولو أن أحداً غلط غلطاً جاهلا لحكمه ، وأخطأ خطأ خارجاً عن علمه ، لما تعين عليه حكم ، ولا تعلق به حد ، وعلى ذاك فتى كان علم الإنسان أكثر من عقله كان حتفه فى علمه ، أو عقله أكثر من علمه أمكن به جبر عجزه وإتمام نقصه . وما دبر العقل شيئاً إلا أقام أوده وعدّل ميده[٢] ، ولا دخل الجهل أمراً إلا حل نظامه وأحال التئامه . فقد ثبت أن الفضل فرع أصله العقل ، ثم تدعو الحاجة مع وجود هذا الأصل إلى بان يعلى أساسه ويسقى غراسه من أدب يقتبس ، وعلم يكتسب ، ورياضة تصلح وتوفيق يلحق ، فإذا التقى من ذينك فرع وأصل ، واقترن أدب وعقل ، اجتمع بهما قوى العقل ، ولمع بينهما نور الحزم ، وأمكن رافع البناء أن يرتقى ذروته ، وغارس الغرس أن يجنى ثمرته اهـ .

(١) تاريخ الوزراء لأبى هلال . (٢) الأود : الاعوجاج . والميد : الاضطراب .

الإدارة فى الإسلام[1]

إدارة الرسول :

لما ظهر الإسلام على الشرك وطفق الرسول يدعو إلى دينه جهرة ، أخذ يرسل أمثل من دخلوا فى الإسلام من الرجال لتلقين العرب الدين وأخذ الصدقات منهم . وإذا وفد عليه وافد يعهد إليه أن يعلم قومه دينهم « وإمام كل قبيلة منها لنفور طباع العرب أن يتقدم على القبيلة أحد من غير أهلها » وإذا كان الوافد من رؤوس قبيلته تسند إليه جباية الفىء ، ويأمره أن يبشر الناس بالخير ويعلمهم القرآن ويفقههم فى الدين ، ويوصيه أن يلين للناس فى الحق ويشتد عليهم فى الظلم ، وأن ينهاهم إذا كان بين الناس هَيْج عن الدعاء إلى القبائل والعشائر ، ليكون دعاؤهم إلى الله وحده لا شريك له ، وأن يأخذ خمس الأموال وما كتب على المسلمين فى الصدقة ، وأن من أسلم من يهودى أو نصرانى إسلاماً خالصاً من نفسه ودان دين الإسلام فإنه من المؤمنين ، له مثل ما لهم وعليه مثل ما عليهم ، ومن كان على نصرانيته أو يهوديته فإنه لا يفتن[2] عنها . وبعث معاذاً إلى اليمن[3] فقال له : « إنك تقدم على قوم أهل كتاب ، فليكن أول ما تدعوهم إليه عبادة الله تعالى فإذا عرفوا الله تعالى فأخبرهم أن الله تعالى فرض عليهم زكاة تؤخذ من أغنيائهم وترد على فقرائهم ، فإن هم أطاعوا لذلك فخذ منهم وتوق كرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب » . وكتب إلى عمرو بن حزم عامله على نجران كتاباً فى الفرائض والسنن والصدقات والديات .

---

(١) مقتبسة من محاضرات ألقاها المؤلف فى شهر رمضان سنة ١٣٥٢ فى الجمعية الجغرافية الملكية تحت إشراف كلية الآداب من فروع الجامعة المصرية بالقاهرة فى إدارة الرسول والراشدين والأمويين وأوائل عهد العباسيين . وقد أضيفت إليها زيادات وتعليقات جديدة .

(٢) فتن الرجل فى دينه : مال عنه . (٣) تيسير الوصول لابن الديبع .

وضع الرسول على المسلمين وغيرهم وعلى الأرضين والثمار والماشية أموالا بين الكتاب العزيز أصنافها فى عدة آيات وبين حكم إنفاقها فقال : (ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة[1] بين الأغنياء منكم) (واعلموا أنما غنمتم من شىء فأن لله خمسه وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل) ، (يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول ، فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين) (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم) .

فالفىء خراج يؤخذ من أرض العنوة[2] والخراج ما يؤخذ من أرض الصلح[3] ومما فتح عنوة وأكثر أهله عليه ، والجزية مال يتقاضى من أهل الكتاب ، والعشر ما يؤخذ من زكاة الأرض التى أسلم أهلها عليها كأرض العرب وما أسلم عليه أهله أو فتح عنوة وقسم بين الغزاة . وما كانت الجزية تقبل من غير الكتابيين فى الأرض العربية[4] ، ولا يقبل من المشركين عبدة الأصنام إلا الإسلام . ومن الأرض ما صولح أهله على النصف من ثمارهم كأهل فدك ، وجعل النبي فدك له خاصة ، لأنه لم يوجف[5] عليها المسلمون بخيل ولا ركاب . والأنفال الغنائم فى القتال ، والصدقة أنواع هى الزكاة وهى عشر الغلات التى تأتى من الأرض التى خلت من سكانها أو كانت مواتاً فأحيوها ، وصدقات الماشية هى زكاة السوائم من الإبل والبقر والغنم دون العوامل والمعلولة ، والصدقات عروض التجارة .

ولقد شكا يهود خيبر[6] — « وكانت قرية الحجاز ريفاً ومنعة ورجالا » وكان فيها عشرون ألف مقاتل[7] — عبد الله بن رواحة . وكان الرسول يبعثه

---

(١) الدولة فى المال : أن يتداوله الأغنياء فيكون مرة لهذا ومرة لذاك .
(٢) العنوة : القهر وفتح البلد عنوة أى قسراً . (٣) مفاتيح العلوم للخوارزمى .
(٤) الخراج لأبى يوسف . (٥) أوجف الفرس : أعداه والمراد تجهيز جيش لفتح البلد (٦) المعارف لابن قتيبة . (٧) الخراج لأبى يوسف .

كل عام يَخرُص(١) عليهم تمرهم ثم يقول : إن شئتم فلكم وإن شئتم فلى ، فكانوا يضمنونه ، بيد أنهم شكوا إلى الرسول شدة خرصه(٢) وأرادوا أن يرشوا ابن رواحة فجللوا له حلياً من حلى نسائهم فقالوا : هذا لك وخفف عنا وتجاوز فى القسم . فقال عبد الله ، يا معشر اليهود إنكم لمن أبغض خلق الله تعالى إلىّ : وما ذاك بحاملى على أن أحيف عليكم ، وأما ما عرضتم على من الرشوة فإنها السحت وإنا لا نأكلها ، فقالوا : بهذا قامت السموات والأرض(٣) .

ولقد كان الرسول يتخير عماله من صالحى أهله وأولى دينه وأولى علمه ، ويختارهم على الأغلب من المنظور إليهم فى العرب ليوقروا فى الصدور ، ويكون لهم سلطان على المؤمنين وغيرهم ، يحسنون العمل فيما يتولون ، ويشربون قلوب من ينزلون عليهم الإيمان ، ويكشف أبداً عملهم أى يفتشهم ، ويسمع ما ينقل إليه من أخبارهم . وقد عزل العلاء بن الحضرمى عامله على البحرين لأن وفد عبد القيس شكاه وولى أبان بن سعيد وقال له : استوص بعبد القيس خيراً وأكرم سراتهم(٤) . وكان يستوفى الحساب على العمال يحاسبهم على(٥) المستخرج والمصروف . وقد استعمل مرة رجلا على الصدقات فلما رجع حاسبه فقال : هذا لكم وهذا أهدى إلى . فقال النبى : ما بال الرجل نستعمله على العمل بما ولانا الله فيقول : هذا لكم وهذا أُهدى إلى ، أفلا قعد فى بيت أبيه وأمه فنظر أيهدى إليه أم لا . وقال . من استعملناه على عمل ورزقناه رزقاً فما أخذ بعد ذلك فهو غلول(٦) .

وما انفك الرسول من استشارة أهل الرأى والبصيرة ، ومن شهد لهم بالعقل والفضل ، وأبانوا عن قوة إيمان ، وتفان فى بث دعوة الإسلام . وهم سبعة من المهاجرين وسبعة من الأنصار ، منهم حمزة وجعفر وأبو بكر وعمر وعلى وابن مسعود وسلمان وعمار وحذيفة وأبو ذر والمقداد وبلال . وسموا النقباء لأنهم ضمنوا للرسول إسلام قومهم ، والنقيب الضمين . وكان

(١) يقدر . (٢) تاريخ دمشق لابن عساكر . (٣) تيسير الوصول لابن الديبع .
(٤) طبقات بن سعد . (٥) الحسبة فى الإسلام لابن تيمية . (٦) خيانة .

له عرفاء أى رؤساء جند . ويكتب له بعض جلة الصحابة من الكملة[١] والكملة فى الجاهلية وأول الإسلام هم الذين كانوا يكتبون بالعربية ويحسنون العوم والرمى .

كان كاتب العهود إذا عاهد والصلح إذا صالح على بن أبى طالب . وممن كتب له أبو بكر وعمر وعثمان والزبير ، وخالد وأبان ابنا سعيد بن العاص وحنظلة الأشيدى والعلاء بن الحضرمى وخالد بن الوليد وعبد الله بن رواحة ومحمد بن مسلمة وعبد الله بن أبىّ بن سلول والمغيرة بن شعبة وعمرو بن العاص، ومعاوية بن أبى سفيان يكتب فيما بينه وبين العرب ، وجُهيم بن الصلت وشرحبيل بن حسنة وعبد الله بن سعد بن أبى سرح ، وبلغ كتاب الرسول اثنين وأربعين رجلا . وكان صاحب سرّه حذيفة بن اليمان . وكان الحارث ابن عوف المرى على خاتمه . وخاتمه من حديد ملون عليه فضة نقش ثلاثة أسطر : محمد ، سطر ، ورسول ، سطر ، والله ، سطر . ويضع خاتمه أيضاً عند حنظلة بن الربيع بن صيفى ابن أخى أكثم ، ويكون خليفة كل كاتب من كتاب النبى غاب عن عمله ، فغلب عليه اسم الكاتب .

وكان معيقيب بن أبى فاطمة يكتب مغانم الرسول ، وكذلك كعب بن عمرو ابن زيد الأنصارى كان يقال له صاحب المغانم ، وحذيفة بن اليمان يكتب خرص تمر الحجاز ، والعلاء بن عتبة وعبد الله بن الأرقم يكتبان بين الناس فى قبائلهم ومياههم ، وفى دور الأنصار بين الرجال والنساء . وكان عبد الله ابن الأرقم يجيب الملوك عن الرسول ، والزبير بن العوام وجهيم بن الصلت يكتبان أموال الصدقات ، والمغيرة بن شعبة والحصين بن نمير يكتبان المداينات والمعاملات ، وشرحبيل بن حسنة يكتب التوقيعات إلى الملوك . ومن شعرائه حسان بن ثابت وعبد الله بن رواحة وكعب بن مالك انتدبهم لهجو المشركين ، وخطيبه ثابت بن قيس . وزيد بن ثابت ترجمانه بالفارسية والرومية والقبطية

(١) طبقات ابن سعد .

والحبشية واليهودية . وناجية الطفاوى ونافع بن ظريب النوفلى يكتبان المصاحف، وشفاء أم سليمان بن أبى حثمة تعلم النساء الكتابة ، وعبادة بن الصامت يعلم أهل الصفة القرآن ، وكانت دار مخرمة بن نوفل بالمدينة تدعى دار القرآن .

وأول قاض فى المدينة عبد الله بن نوفل ، ومقرىء المدينة مصعب بن الزبير . وأول لواء عقد فى الإسلام لواء عبد الله بن جحش ، وعقد لسعد ابن مالك الأزدى راية على قومه سوداء وفيها هلال أبيض ، وكان لواؤه أبيض أو أصفر أو أغبر ، وله راية تدعى العقاب من صوف أسود ، مكتوب على رايته : لا إله إلا الله محمد رسول الله . وأول مغنم قسم فى الأسلام مغنم عبد الله بن جحش . ومن عماله أبو دجانة الساعدى وسباع بن عرفطة عاملاه على المدينة ، وكان ثلاثة أرباع عماله من بنى أمية لأنه إنما طلب للأعمال[1] أهل الجزاء والغناء من المسلمين ، ولم يطلب أهل الاجتهاد والجهل بها والضعف عنها كما قال معاوية . واستعمل الرسول أبا سفيان بن حرب على نجران فولاه الصلاة والحرب ، ووجه راشد بن عبد الله أسيراً على القضاء والمظالم .

وكان الرسول كثيراً ما يقول أرحم أمتى بأمتى أبو بكر ، وأشدهم فى دين الله عمر ، وأصدقهم حياء عثمان ، وأقضاهم على ، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل ، وأفرضهم زيد بن ثابت ، وأقرؤهم أبى بن كعب ، ولكل أمة أمين وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح . وقال : خذوا القرآن من أربعة ، من عبد الله بن مسعود وأبىّ بن كعب ومعاذ بن جبل وسالم مولى أبى حذيفة . وجمع القرآن أى حفظه جميعه من الأنصار أبىّ ومعاذ وزيد بن ثابت وأبو قيس بن السكن ، هؤلاء أهم رجال الإدارة والقضاء والفقه والقرآن .

وهناك طبقة أخرى تتولى الأعمال مثل عتاب بن أسيد الذى استعمله والياً على مكة ، ورزقه كل يوم درهماً فقام يخطب ويقول : أيها الناس أجاع

(١) تاريخ الطبرى .

الله كبد من جاع على درهم ، فقد رزقنى رسول الله درهماً كل يوم . فليست بى حاجة إلى أحد . وهذا الراتب من أول ما وضع من الرواتب للعمال . وقد يكون رزقهم ما يطعمون منه على نحو ما أجرى على قيس بن مالك الأرحبى من همذان لما استعمله على قومه : فأقطعه من ذرة نسار مائتى صاع ومن زبيب خَيوان[١] مائتى صاع جار له ذلك ولعقبه من بعده أبداً أبداً أبدا . أما كبار الصحابة فكانوا يعطون ما يتبلغون به من الغنائم وغيرها ، ومنهم من كان غنياً فى الجاهلية والإسلام فجهز من ماله جنداً فى سبيل الله ، بل منهم من أنفق كل ماله فى هذا الغرض وهو راض مغتبط .

أقطع الرسول القطائع[٢]، وكان يتألف على الإسلام ، ويعطى من الصدقات من يريد تأليف قلوبهم ، فدُعى من يأخذون ذلك « المؤلفة قلوبهم » وهم أحد وثلاثون رجلا من سادة العرب ، تألفهم وتألف بهم قومهم ، ليرغبوهم فى الإسلام ، ولئلا[٣] تحملهم الحمية ، مع ضعف نياتهم ، على أن يكونوا إلبا مع الكفار على المسلمين ، وما منهم إلا الشريف المسود والعالم والخطيب والشاعر والداهية الباقعة ؛ قال صفوان بن أمية : لقد أعطانى رسول الله يوم حنين وإنه لمن أبغض الناس إلى ، فما زال يعطينى حتى إنه لمن أحب الناس إلى . وقال الرسول : إنى لأعطى قوماً أتألف ظَلَعهم[٤] وجزعهم ، وأكل قوماً إلى ما جعل الله فى قلوبهم من الخير والغنى . وكان يعامل المسلمين بقواعد المساواة ويفضل من الأزد الأنصار وهم الأوس والخزرج أبناء حارثة بن عمرو بن عامر ، وهم أعز نفساً وأشرفهم ، لم يؤدوا إتاوة قط إلى أحد من الملوك .

كانت الحكمة فى تأليف من قضت المصلحة بتأليفهم ، أعطى كل واحد من المؤلفة قلوبهم فى إحدى غزواته مئة من الإبل ومقداراً من الفضة ، فلما دخل الناس فى الدين أفواجاً ، وظهر المسلمون على جميع أهل الملل بطل العطاء

---

(١) مخلاف فى اليمن ونسار جبل فى حمى ضرية . (٢) القطيعة من الأرضين طائفة من أرض الخراج . (٣) تاج العروس للزبيدى . (٤) الظلع : العيب .

للمؤلفة قلوبهم ، ودخل بعضهم فى خدمة الدولة وتولوا العمالات وقيادة الجيوش ولم يبق عربى بعد واقعة حنين والطائف[١] إلا أسلم ؛ ومنهم من قدم على الرسول ومنهم من لم يتقدم ، وقنع بما أتاه به وافد قومه من الدين . ولما فتحت مكة دانت العرب لقريش وعرفوا أن لا طاقة لهم بحرب الرسول ولا عداوته . جاء قيس بن نُشْبة السُّلَمى ، فأسلم ورجع إلى قومه فقال: يا بنى سليم ، قد سمعت ترجمة الروم وفارس وأسفار الرهاب والكهان ومقاول[٢] حمير ، وما كان كلام محمد يشبه شيئاً من كلامهم . وقال أبو سفيان ابن حرب : ما رأيت أحداً يحب أحداً من الناس كحب أصحاب محمد محمداً .

وكثرت الوفود فى السنة التاسعة للهجرة حتى سمى عام الوفود . وفى سنة سبع بعث دحية الكلبى بكتاب إلى عظيم بصرى فدفعه عظيم بصرى إلى هرقل ليدفعه إلى قيصر ، وبعث عبد الله بن حذافة السهمى إلى كسرى ، وعمرو بن أمية إلى النجاشى ، وحاطب أبن أبى بلتعة إلى المقوقس فى مصر ، والعلاء بن الحضرمى إلى المنذر بن ساوى ملك البحرين ، وشجاع بن وهب الأسدى إلى الحرث بن أبى شمر الغسانى ، والمهاجر بن أبى أمية إلى الحرث ملك اليمن ، يدعوهم كلهم إلى الإسلام .

وجاءت وفود العرب من كل وجه ، وكان الرسول يكرمهم ويفضل عليهم بعطائه ، ومنهم من يضيفه عشرة أيام كوفد عبد القيس ، ومنهم من يبالغ فى إكرامه كملوك اليمن ، وإنما سمو ملوكاً[٣] لأنه كان لكل واحد منهم واد يملكه بما فيه ، وكانت كتبه إلى ملوك الأطراف خارج الجزيرة بلغة مضر وفصيح ألفاظها وكلها موجزة ، واستعمل ألفاظاً فى بعض كتبه إلى أهل اليمن وغيرهم غير معروفة للعرب كافة إلا فى قبيل واحد ، وذلك إرادة إفهام القوم ومخاطبتهم بمألوفهم من العبارات[٤] ، قال على للرسول وقد سمعه يخاطب وفد بنى نهد : يا رسول الله نحن بنو أب واحد ، ونراك تكلم وفود العرب بما

(١) أسد الغابة لابن الأثير . (٢) مقاول ج مقول وهو القيل أى الملك الصغير بلغة اليمن . (٣) طبقات ابن سعد . (٤) العقد الفريد لابن عبد ربه .

لا نفهم أكثره . فقال : أدبنى ربى فأحسن تأديبى ، وربيت فى بنى سعد ، فكان يخاطب العرب على اختلاف شعوبهم وقبائلهم بما يفهمون .

ولم يكن للرسول بيت مال ، وكان يخبأ الأموال فى بيته وبيوت أصحابه ، وفى الغالب أن الفىء يقسم من يومه ، خصوصاً إذا كان من الناطق كالإبل والشياه والخيل والبغال. والرسول يعطى الآهل[1] من الفىء حظين والعزب حظاً[2] . وبلغ من تبادل الثقة[3] والحب بين المسلمين فى صدر الإسلام أنهم كانوا خلطاء بالمال ، يأخذ فقيرهم من مال الآخر مصداقاً لقوله تعالى : (ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة) . ولقد أهديت لعبادة بن الصامت[4] هدية وإن معه فى الدار اثنى عشر من أهل بيته فقال عبادة : اذهبوا بهذه إلى آل فلان فهم أحوج إليها منا . قال الوليد بن عبادة فأخذتها ، فكنت كلما جئت أهل بيت يقولون اذهبوا بها إلى آل فلان فهم أحوج منا إليها ، حتى رجعت الهدية إلى عبادة قبل الصبح .

كان بالمدينة فى زمن النبى شاب يقال له مالك بن ثعلبة الأنصارى ، ولم يكن بالمدينة شاب أغنى منه ، فمر بالنبى والنبى يتلو هذه الآية (والذين يكنزون إلى قوله فذوقوا ما كنتم تكنزون) فغشى على الشاب فلما أفاق دخل على النبى فقال : بأبى أنت وأمى هذه الآية لمن كنز الذهب والفضة ؟ فقال له النبى : نعم يا مالك . قال : والذى بعثك بالحق ليمسين مالك ولا يملك ديناراً ولا درهماً قال : فتصدق بماله كله .

وما كان أصحاب رسول الله بالمتخرقين[5] ولا المتماوتين[6] ، يتناشدون الأشعار ، ويجلسون فى مجالسهم ، ويذكرون جاهليتهم ، فإن أريد إنسان منهم على شىء من أمر دينه دارت عيناه فترى حماليقها[7] غضبا . بل كان منهم من إذا ارتكب

---

(١) الآهل : المزوج .   (٢) تيسير الوصول لابن الديبع .   (٣) الإحياء للغزالى .   (٤) تاريخ دمشق لابن عساكر .   (٥) المنخرق السريع .   (٦) تماوت أظهر من نفسه والتخافت والتضاعف من العبادة والزهد والصوم .   (٧) الحملاق باطن الأجفان الحمر إذا قلبت للكحل بدت حمرتها وقيل الحملاق ما غطى الجفن من بياض المقلة .

كبيرة يعاقب عليها الإسلام يأتي الرسول يطلب إقامة الحد الشرعي عليه ، أو يسمع منه ما ينقلب به إلى أهله مسروراً ، يأخذ حكمة تثلج بها نفسه ، ويعتقد أنه تحلل من ذنبه واستغفر له الرسول .

وأراد النبي مرة إحصاء المسلمين فقال : اكتبوا لي من تلفظ بالإسلام من الناس ، فكتبوا له ألفاً وخمسمائة رجل . وما كان يجمع المسلمين في أول أمرهم كتاب حافظ أي ديوان مكتوب(١) . وكان إذا نودي للزحف وتخلف عنه أحدهم لعذر أو شبه عذر ، يلومه الرسول وأصحابه ، وإذا تبين أنه تعمد أن يكون مع المتخلفين عن القتال يعاتب ، ويقاطعه الجماعة ويجتنبونه لا يكلمه أحد . ولما أمر الرسول بالتهيؤ لغزو الروم في تبوك ، تثاقل المسلمون عنها وأعظموا غزوهم ، فنافق من نافق من المنافقين ، حين دعوا إلى ما دعوا إليه من الجهاد ، وكان « ذلك في زمن عسرة(٢) من الناس ، وشدة من الحر ، وجدب في البلاد ، وحين طابت الثمار والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم ، ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذي هم فيه » وجاء المتخلفون عن هذه الغزاة وكانوا ثمانين رجلا فقبل الرسول منهم علانيتهم وأيمانهم ، واستغفر لهم ووكل سرائرهم إلى الله ، وفي هذه الغزوة حض الرسول أهل الغنى على النفقة والحملان في سبيل الله ، فحمل رجال من أهل الغنى واحتسبوا . وكان من أفضل القربات أن يجهز أرباب اليسار أناساً للغزو يتكفلون بطعامهم وإطعام ذويهم ، ويعطونهم السلاح والكراع واللباس ليغزوا ويرابطوا(٣) . وكان المسلمون كلهم جنداً يقاتلون للدين وكان لا يزال فيهم أبداً من يبذل شطراً صالحاً من ماله في وجوه البر والقرب ، لا يريدون على إسلامهم ونصرهم للرسول جزاء . وكان الرسول يورّي بغزواته ، وقلّ أن يعين لأصحابه الوجهة التي يقصدها في غزواته ، وكتب مرة لأحدهم كتاباً وأمره

(١) سيرة ابن هشام . (٢) سيرة ابن هشام .

(٣) المرابطة أن يربط كل من الفريقين خيولهم في ثغرة وكل مستعد لقاء صاحبه . فكانوا يرابطون أي يقيمون على جهاد عدوهم بالحرب ، ومرابطات المسلمين مواضع خيلهم والمرابطة هم الجماعة رابطوا .

أن لا يقرأه حتى يبلغ مكان كذا وكذا . وكان لا يستكره من أصحابه أحداً أى لا يندبهم للعمل قسراً ، وذلك ليترصد بذلك قريشاً ويعلم له من أخبارهم .

ولم يكن للمسلمين سلاح جاهز . وسلاحهم القوس والنبل والحربة والسيف والدرع والمغفر[1] والتسبغة[2] ثم اتخذ أنواع السلاح التى كانت موجودة إذ ذاك عند الأمم . واستعار الرسول يوم هوازن[3] مئة درع بما يكفيها من السلاح من صفوان بن أمية ليلقى بها العدو ، على أن تكون عارية مضمونة حتى يؤديها إليه . ورأى الرسول أن اتساع الفتوح يقضى بأن يتعلم بعض أصحابه صنعة الدبابات والمجانيق والضبور[4] أى صنائع القتال ، فأرسل إلى جُرَش اليمن اثنين من أصحابه يتعلمانها . وكان أهل الطائف أول من رمى بالمنجنيق . وأخذ المسلمون بعيد ذلك يُعِدون لأعدائهم ما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل ، لأنهم قادمون على فتح الشام والعراق على ما بشرهم به الرسول فقال لعدى ابن حاتم : لعلك يا عدىّ إنما يمنعك من دخول فى هذا الدين ما ترى من حاجتهم ، فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه ، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عددهم وقلة عددهم ، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على بعيرها تزور هذا البيت لا تخاف ، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه أنك ترى أن الملك والسلطان فى غيرهم ، وأيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض بابل قد فتحت عليهم . وقال مرة : أبشروا وأملوا ما يسركم فوالله ما الفقر أخشى عليكم ، ولكن أخشى عليكم أن تبسط عليكم الدنيا كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوا فيها فتهلككم كما أهلكتهم .

(١) المغفر زرد ينسج من الدروع على قدر الرأس وفى المحكم هو ما يجعل من فضل درع الحديد على الرأس مثل القلنسوة . (٢) التسبغة المغفر لا ترى من لابسه إلا عيناه .

(٣) سيرة ابن هشام .

(٤) الضبور جلود تغشى خشباً فيها رجال وقالوا هى الدبابات تقرب للحصون لتنقب من تحتها الواحدة ضبورة .

كان إذا سقط فى يد الرسول أحد أذكياء المشركين أبقى عليه فى الغالب على فى حياته ما يستفيد منه الإسلام إذا أسلم . أما من قتلوا النفس التى حرم الله فهؤلاء لا تأخذه بهم رحمة . قدم عليه نفر من العرب قد ماتوا هزالا فأسلموا واجتووا[1] المدينة فأمرهم الرسول أن يأتوا إبل الصدقة يشربون من ألبانها ففعلوا وصحوا وسمنوا فارتدوا وقتلوا الراعى واستاقوا الإبل فبعث فى آثارهم ، فما ترجل[2] النهار حتى جىء بهم وأوقع عليهم أشد العقوبة الشرعية .

وكان يسمح باستخدام النساء فى حروبه وغزواته ، يخدمن الجرحى ويأخذن من العطاء ، ويتولين من الرجال ما يصلحن له كالطعام والإسقاء ، ويحمسن من يحتاج إلى تحميس ، وجعل سعد بن معاذ فى خيمة لامرأة يقال لها رفيدة فى مسجده كانت تداوى الجرحى وتحبس نفسها على خدمة من كان فيه ضيقة من المسلمين . وكذلك كانت أخت رفيدة واسمها كعبة بنت سعيد الأسلمية . ومنهن من كن يخطن القرب . فالنساء فى حكومته ممرضات طاهيات ساقيات خياطات محمسات داعيات . وأمر الرسول أن لا يقتل النساء فى الحرب . فكان بذلك يستفيد من كل قوة فى بلده يستعين بها على الظهور على المشركين .

ومن خطبه الإدارية ما ورد فى الثقات أنه قعد على بعير له وأخذ إنسان بخطامه أو بزمامه فقال : أى يوم هذا : قال من حضر : فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه . فقال : أليس يوم النحر . قلنا : بلى قال : فأى شهر هذا . قال : فسكتنا حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه فقال : أليس بذى الحجة قالوا : بلى . قال : فأى بلد هذا . قال : فأمسكنا حتى ظننا أنه سيسميه بغير اسمه . فقال : أليس بالبلد الحرام . قلنا : بلى قال : فإن دماءكم وأعراضكم (وفى رواية وأموالكم) بينكم حرام كحرمة يومكم هذا فى شهركم هذا فى بلدكم هذا ، ألا ليبلغ الشاهد الغائب .

---

(١) اجتووا استوبأوا . (٢) ترجلت الشمس ارتفعت .

وجه الرسول على بن أبى طالب إلى بعض الوجوه فقال له فيما أوصاه : قد بعثتك وأنا بك ضنين ، فابرز للناس وقدم الوضيع على الشريف ، والضعيف على القوى ، والنساء قبل الرجال ، ولا تدخلن أحداً يغالبك على أمرك ، وشاور القرآن فإنه إمامك .

هذا جملة ما يقال فى تدبير الرسول فى الإدارة من بث دعوة ، وجهاد عدو ، وأخذ غنائم وصدقات وجزى وعشور ، وقسمتها بين المجاهدين وأهل البلاء من المهاجرين والأنصار ، ثم على فقراء المسلمين ، وما كان من توزيعه العمل بين عماله ومعاملته لهم وللوفود والنساء ، واتخاذ الجند والمحاربين ، واشتداده فى الحق ، ولينه إذا دعت الحال إلى اللين ، وإغضائه أحياناً لما يلحق به من الأذى ، يرتقب الفرص لمن يكيد للمسلمين .

ومما يصح التمثيل به فى باب اللين أنه رضى يوم الحديبية أن يدخل وأصحابه مكة ثلاثة أيام فقط على أن يكونوا بجلبان[١] السلاح ، وصالح سهيل بن عمرو أخا عامر بن لؤى فدعا على بن أبى طالب فقال : اكتب بسم الله الرحمن الرحيم . فقال سهيل لا أعرف هذا ولكن اكتب باسمك اللهم . فقال رسول الله : اكتب باسمك اللهم . فكتبها ، ثم قال : اكتب هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو . فقال سهيل : لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك .لكن اكتب اسمك واسم أبيك . فقال رسول الله : اكتب هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو ، واصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين ، يأمن فيهن الناس ، ويكف بعضهم عن بعض ، على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ، ومن جاء قريشاً ممن مع محمد لم يردوه عليه ، وأن بيننا عيبة مكفوفة وأنه لا إسلال ولا إغلال[٢] ، وأنه من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه . ومن أحب أن يدخل

---

(١) الجلبان أوعية السلاح بما فيها الغمد والسيف فيه والكنانة والسهام فيها .

(٢) الاسلال الخيانة والأغلال السرقة ، والعيبة فى الرجل موضع سره أى بيننا وبينهم فى هذا الصلح صدر معقود على الوفاء بما فى الكتاب نقى من الغل والغدر والخداع .

فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه الخ ، فاستاء المسلمون من هذا العهد بعد أن فازوا على أعدائهم ؛ وأحب الرسول حقن الدماء فقبل من خصمه هذا العنت . ويقول القسطلانى[1] : إن الحكمة فى موافقة الرسول سهيلا على أن لا يأتيه منهم رجل إن كان على دين الإسلام إلا رده إلى المشركين ؛ أن فتحت مكة وأسلم أهلها كلهم ، وكانوا قبل الصلح لا يختلط المشركون بالمسلمين ، ولا تتظاهر عندهم أمور النبى كما هى ، فلما حصل صلح الحديبية اختلطوا بالمسلمين وجاءوا إلى المدينة . وذهب المسلمون إلى مكة ودخلوا بأهلهم وأصدقائهم وغيرهم ممن يستنصحونه ، وسمعوا منهم أحوال النبى ومعجزاته الظاهرة ، وعاينوا بأنفسهم كثيراً من ذلك ، فمالت نفوسهم إلى الإيمان حتى بادر خلق منهم إلى الإسلام قبل فتح مكة فأسلموا ، وازداد الآخرون ميلا إلى الإسلام ، لما كان يوم الفتح أسلموا كلهم ، لما كان قد تمهد لهم من الميل . وكانت العرب من غير قريش فى البوادى ينتظرون بإسلامهم إسلام قريش ، فلما أسلمت قريش أسلمت العرب فى البوادى .

---

(١) المواهب الدنية للقسطلانى .

إدارة الخلفاء الراشدين

إدارة أبى بكر الصديق :

سار أبو بكر بسيرة الرسول فى الإدارة الإسلامية ، واحتفظ بالعمال الذين استعملهم صاحب الشريعة ، والأمراء الذين أمرهم ، ومن العمال من أبى أن يعمل لغير رسول الله فاعتزل العمل . ولما وسدت الخلافة إلى الصديق قال له أبو عبيدة : أنا أكفيك المال . وقال عمر : وأنا أكفيك القضاء . فمكث عمر سنة لا يأتيه رجلان ، ولم يخاصم إليه أحد . وذلك لأن الناس كانوا أول ظهور الإسلام يرون من الطبيعى أن يعطى الإنسان الحق ويأخذ الحق ، ويقف عند حدود الله لا يقارف منكراً ولا يسرف على نفسه ويبعد عن الزور وأكل أموال الناس بالباطل ، ويجعل رائده الصدق فى أقواله وأفعاله .

كان إذا نزل بالصديق أمر يريد فيه مشاورة أهل الرأى وأهل الفقه ، ودعا رجالا من المهاجرين والأنصار ، دعا عمر وعثمان وعلياً وعبد الرحمن ابن عوف ومعاذ بن جبل وأبى بن كعب وزيد بن ثابت ، وكل هؤلاء كان يفتى الناس فى خلافة أبى بكر ، على أن أبا بكر كان جد عالم بالشريعة وأخبار الناس وأيامهم وأنسابهم وسياساتهم ، إلى ما رزق من صدر رحب يطلب من كل صاحب إدارة . واختار من القضاة ما اختاره الولاة غالباً ، وكان ولاة المدينة(١) هم الذين يختارون القضاة ويولونهم ، ويكتب لأبى بكر على بن أبى طالب وزيد بن ثابت . ويكتب له الأخبار عثمان بن عفان(٢) ويكتب له من حضر(٣) . ومن عماله عتاب بن أسيد وعمرو بن العاص وعثمان بن أبى العاص والمهاجر بن أبى أمية وزياد بن عبيد الله الأنصارى ويعلى بن منبه وأبو موسى

---

(١) طبقات ابن سعد .

(٢) تاريخ الطبرى .

(٣) الكامل لابن الأثير .

الأشعرى ومعاذ بن جبل والعلاء بن الحضرمى وجرير بن عبد الله وعبد الله ابن ثور وعياض بن غنم وأبو عبيدة بن الجراح وشرحبيل بن حَسَنة ويزيد ابن أبى سفيان وخالد بن الوليد .

ما تجاوزت رقعة الملك الإسلامى فى أيام أبى بكر أكثر من جزيرة العرب. قسمت إلى ولايات أو عمالات ، وهى مكة والمدينة والطائف وصنعاء وحضرموت وخولان وزَبِيد ورِمَع والجَنَد ونجران وجُرَش والبحرين أما القواد الآخذون بفتح الشام والعراق فيولون عمالا من عندهم فى الأرض التى يفتحونها . بمعنى أن الحجاز قسم إلى ثلاث ولايات ، واليمن إلى ثمان ، والبحرين وما إليها ولاية .

ولما ولى بو بكر قال قد علم قومى أن حرفتى لم تكن لتعجز عن مؤونة أهلى ، وقد شغلت بأمر المسلمين وسأحترف للمسلمين فى مالهم ، وسيأكل آل أبى بكر من هذا المال ، فجعلوا له ألفين . وفى رواية ثلاثة دراهم كل يوم من بيت المال[1] . ثم قال ، زيدونى فإن لى عيالا ، وقد شغلتمونى عن التجارة فزادوه خمسمائة . ولما مات ابنه فى خلافته ترك سبعة[2] دنانير فاستكثرها أبو بكر ولم يفرض أبو بكر ولا الرسول من قبل عطاء مقرراً للجند[3]. وكانوا إذا غزوا وغنموا أخذوا نصيباً من الغنائم قررته الشريعة لهم ، وإذا ورد المدينة مال من بعض البلاد أحضر إلى مسجد الرسول وفرق فيهم ، يصيب منه الأنصار والمهاجرون وكل مسلم بحسب غنائه فى نصرة الدين . جرى الأمر على ذلك مدة خلافة أبى بكر . وكان لأبى بكر[4] بيت مال بالسُّنُح من ضواحى المدينة فقيل له ألا تجعل عليه من يحرسه ؟ قالوا فكان ينفق جميع ما فيه على المسلمين فلا يبقى منه شىء . ولما قضى نحبه ذهب عمر فى نفر من الصحابة لتسلم بيت المال فلم يجدوا فيه شيئاً .

وجرى أبو بكر على كشف أحوال العمال ، وكان كصاحبه يختار أكثرهم

(١) تاريخ اليعقوبى . (٢) طبقات ابن سعد .
(٣) الفخرى لابن الطقطقى . (٤) الكامل لابن الأثير .

علما وعملا . ولما عزل خالد بن سعيد أوصى به شرحبيل بن حسنة وكان أحد الأمراء فقال : انظر خالد بن سعيد فاعرف له من الحق عليك مثل ما كنت تحب أن يعرف لك من الحق عليه لو خرج والياً عليك ، وقد عرفت مكانه من الإسلام وأن رسول الله توفى وهو له وال ، وقد كنت وليته ثم رأيت عزله ، وعسى أن يكون ذلك خيراً له فى دينه ، ما أغبط أحداً بالإمارة ، وقد خيرته فى أمراء الأجناد فاختارك على غيرك ، اختارك على ابن عمه ، فإذا نزل بك أمر تحتاج فيه إلى رأى التقى الناصح ، فليكن أول من تبدأ به أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل ، وليكُ خالد بن سعيد ثالثاً . فإنك واجد عندهم نصحاً وخيراً ، وإياك واستبداد الرأى عنهم ، أو أن تطوى عنهم بعض الخبر .

وخالد بن سعيد هو الذى نصح لأبى بكر لما وجهه لفتح الشام فقال له : يا أبا بكر إن الله قد أكرمنا وإياك والمسلمين طراً بهذا الدين ، فأحق من أقام السنة وأمات البدعة وعدل فى السيرة الوالى على الرعية ، كل امرئ من هذا الدين محفوف بالإحسان إلى إخوته ، ومعدلة الوالى أعم نفعاً ؛ فاتق الله يا أبا بكر فيما ولاك الله من أمره ، وارحم الأرملة واليتيم وعن الضعيف والمظلوم . ولا يكن رجل من المسلمين إذا رضيت عنه آثر فى الحق عندك منه إذا سخطت عليه ، ولا تغضب ما قدرت عليه ، فإن الغضب يجر الجور ولا تحقد وأنت تستطيع ، فإن حقدك على المؤمن يجعله لك عدواً ، فإن اطلع على ذلك منك عاداك ، فإذا عادت الرعية الراعى كان ذلك مما يكون إلى هلاكهم داعياً ، ولن للمحسن واشتد على المريب ، ولا تأخذك فى الله لومة لائم . فلما خرج من المدينة وأبو بكر يشيعه قال له أبو بكر : قد أنصت لك إذ أوصيتنى برشدى وقد وعيت وصيتك ، فأنا موصيك فاسمع وصيتى : إنك امرؤ قد جعل الله لك سابقة فى هذا الدين ، وفضيلة عظيمة فى الإسلام ، والناس ناظرون إليك ومستعمون منك ، وقد خرجت فى هذا الوجه وأنا أرجو أن يكون خروجك بنية صالحة ، فثبت العالم ، وعلم الجاهل ، وعاتب

السفيه المترف ، وانصح لعامة المسلمين ، واخصص الوالى على الجند بنصيحتك ومشورتك بما يحق للمسلمين ، واعمل لله كأنك تراه ، واعدد نفسك فى الموتى :

دعا أبو بكر عمرو بن العاص وسلم إليه الراية وقال ، قد وليتك هذا الجيش فانصرف إلى أهل فلسطين ، وكاتب أبا عبيدة وانجده إذا أرادك ، ولا تقطع أمراً إلا بمشورته ، اتق الله فى سرك وعلانيتك ، واستحيه فى خلواتك ، فإنه يراك فى عملك ، وقد رأيت تقدمتى لك على من هم أقدم منك سابقة وأقدم حرمة ، فكن من عمال الآخرة ، وأرد بعملك وجه الله ، واسلك طريق ايلياء حتى تنتهى إلى أرض فلسطين ، وإياك أن تكون وانياً عما ندبتك إليه ، وإياك أن تقول جعلنى ابن أبى قحافة فى نحر العدو ولا قوة لى به . واعلم يا عمرو أن معك المهاجرين والأنصار من أهل بدر فأكرمهم واعرف حقهم ، ولا تتطاول عليهم بسلطانك ، ولا تداخلك نخوة الشيطان فتقول : إنما ولانى أبو بكر لأنى خيرهم ، وإياك وخدائع النفس ، وكن كأحدهم وشاورهم فيما تريد من أمرك .. وكان مما قاله أبو بكر ليزيد بن أبى سفيان : إنى قد وليتك لأبلوك وأجربك وأخرّجك ، فإن أحسنت رددتك إلى عملك وزدتك ، وإن أسأت عزلتك . فأبو بكر على هذا بدأ بتجربة من توسم فيهم الغناء من القواد ، وهددهم بالعزل إذا لم يحسنوا ، واختط لهم الخطة الواجبة فى مشاورة من معهم وحذرهم الاعتداد بأنفسهم ، فكانوا عند حسن ظنه بهم .

ولم يحدث أبو بكر فى أيامه أحداثاً جديدة ، والفتوح لم تقف مع حروب الردة ، ووجه وجهته نحو الشام وكان آخر جيش جهزه جيش اليرموك ، جهزه بكل حكمة وبذل فى تنظيمه أقصى الجهد ، وجعل فيه قاصاً وجعل أبا سفيان بن حرب قاصاً يسير فى الجماعة ويقول : الله الله عباد الله انصروا الله ينصركم ، اللهم هذا يوم من أيامك ، اللهم أنزل نصرك على عبادك ، يانصر الله اقترب ، يانصر الله اقترب ، وقصاص الجند يقصون عليهم أخبار الوقائع والفروسية وقصصاً وأحاديث عن الأمم الماضية وأساطير وحكايات .

إدارة عمر بن الخطاب :

كانت أول خطبة خطبها عمر بن الخطاب لما ولى الخلافة : أيها الناس إنه والله ما فيكم أحد أقوى عندى من الضعيف حتى آخذ له الحق ، ولا أضعف عندى من القوى حتى آخذ الحق منه . وما كان عمر ممن أولع بإلقاء الخطب كثيراً ، على بلاغة فيه مستحكمة وعلم غزير ، ولا يرتقى المنبر إلا إذا قضت الضرورة ، وأراد بيـــان أمر ذهبت فيه نزوات النفوس مذهباً لا يرضاه . وكثيراً ما قال إن هذا الأمر لا يصلح فيه إلا اللين فى غير ضعف ، والقوى فى غير عنف . وكذلك كان عمر يجمع بين الشدة واللين ، وهو إلى هذه ولا سيما على عماله أقرب .

طريقة عمر فى الإدارة طريقة أبى بكر وصاحبه من قبل : إطلاق الحرية للعامل فى الشئون الموضعية ، وتقييده فى المسائل العامة ، ومراقبته فى خلوته وجلوته ، « وكان[١] علمه بمن نأى عنه من عماله ورعيته ، كعلمه بمن بات معه فى مهاد واحد ، وعلى وساد واحد ، فلم يكن له فى قطر من الأقطار ، ولا ناحية من النواحى عامل ولا أمير جيش إلا وعليه له عين لا يفارقه ما وجده ، فكانت ألفاظ من بالمشرق والمغرب عنده فى كل ممسى ومُصْبَح . وأنت ترى ذلك فى كتبه إلى عماله وعمالهم حتى كان العامل منهم ليتهم أقرب الخلق إليه وأخصهم به » . كان كما قال المغيرة بن شعبة أفضل من أن يخدع وأعقل من أن يُخدع .

كان إذا استعمل العمال خرج معهم يشيعهم[٢] فيقول إنى لم أستعملكم على أمة محمد على أشعارهم[٣] ولا على أبشارهم . وإنما استعملتكم عليهم لتقيموا بهم الصلاة وتقضوا بينهم بالحق ، وتقسموا بينهم بالعدل . لا تجلدوا العرب فتذلوها ، ولا تجمروها[٤] فتفتنوها ، ولا تغفلوا عنها فتحرموها ،

(١) التاج المنسوب للجاحظ . (٢) تاريخ الطبرى .
(٣) أشعار : جمع شعر ، وأبشار جمع بشرة وهى ظاهر جلد الإنسان .
(٤) لا تؤخروها فى دار الحرب .

جودوا القرآن وأقلوا الرواية عن محمد صلى الله عليه وسلم وأنا شريككم . وكان يقص من عماله . وإذا شكى إليه عامل جمع بينه وبين من شكاه ، فإن صح عليه أمر يجب أخذه به أخذه .

وكان إذا بعث أمراء الجيوش يوصيهم بتقوى الله وأن لا يعتدوا ولا يجبنوا عند اللقاء ، ولا يمثلوا عند القدرة ، ولا يسرفوا عند الظهور ، ولا يقتلوا هرماً ولا امرأة ولا وليداً ، وأن يتوقوا قتلهم إذا التقى الزحفان وشنت الغارات ، وأن لا يغلوا عند الغنائم ، وينزهوا الجهاد عند عرض الدنيا . وكتب إلى سعد بن أبي وقاص : أما بعد : فإني آمرك ومن معك بتقوى الله على كل حال ، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو ، وأقوى المكيدة فى الحرب ، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراساً من المعاصى منكم من عدوكم ، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم ، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله ، ولولا ذلك لم تكن لنا قوة بهم ، لأن عددنا ليس كعددهم ، ولا عدتنا كعدتهم ، فإن استوينا فى المعصية ، كان لهم الفضل علينا فى القوة ، وإلا ننصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا . واعلموا أن عليكم فى سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون فاستحيوا منهم ولا تعملوا بمعاصى الله وأنتم فى سبيل الله ، ولا تقولوا إن عدونا شر منا ، فلن يسلط علينا وإن أسأنا حرب قوم قد سلط عليهم شر منهم ، كما سلط على بنى إسرائيل لما عملوا بمساخط الله كفرة المجوس (فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولا) . واسألوا الله المعونة على أنفسكم ، كما تسألونه النصر على عدوكم . أسأل الله ذلك لنا ولكم . وترفق بالمسلمين فى مسيرهم ولا تجشمهم مسيرا يتعبهم ، ولا تقصر بهم عن منزل يرفق بهم ، حتى يبلغوا عدوهم ، والسفر لم ينقص قوتهم ، فإنهم سائرون إلى عدو مقيم حامى الأنفس والكراع . وأقم بمن معك فى كل جمعة يوماً وليلة حتى تكون لهم راحة يُجمُّون فيها أنفسهم ويرمون أسلحتهم وأمتعتهم ونحّ منازلهم عن قرى أهل الصلح والذمة ، فلا يدخلها من أصحابك إلا من تثق بدينه ، ولا يرزأ أحداً من أهلها شيئاً ، فإن لهم حرمة وذمة ابتليتم بالوفاء

بها كما ابتلوا بالصبر عليها ، فما صبروا لها فعفوا لهم . ولا تستنصروا على أهل الحرب بظلم أهل الصلح . وإذا وطئت أدنى أرض العدو فأذك العيون بينك وبينهم ، ولا يخف عليك أمرهم . وليكن عندك من العرب أو من أهل الأرض من تطمئن إلى نصحه وصدقه . فإن الكذوب لا ينفعك خبره ، وإن صدق فى بعضه ، والغاش عين عليك وليس عينا لك . وليكن منك عند دنوك من أرض العدو أن تكثر من الطلائع وتبث السرايا بينك وبينهم ، فتقطع سرايا أمدادهم ومرافقهم ، وتتبع الطلائع عوراتهم . وانتق للطلائع أهل الرأى والبأس من أصحابك ، وتخير لهم سوابق الخيل ، فإن لقوا عدواً كان أول ما تلقاهم القوة من رأيك . واجعل أمر السرايا إلى أهل الجهاد والصبر والجلاد ، ولا تخص بها أحداً بهوى ، فيضيع من رأيك وأمرك أكثر مما حابيت به أهل خاصتك . ولا تبعث طليعة ولاسرية فى وجه تتخوف عليها فيه ضيعة ونكاية ؛ فإذا عاينت العدو فاضمم إليك أقاصيك وطلائعك وسراياك ، واجمع إليك مكيدتك وقوتك ، ثم لا تعاجلهم المناجزة ، مالم يستكرهك قتال ، حتى تبصر عورة عدوك ومقاتله ، وتعرف الأرض كلها كمعرفة أهلها ، فتصنع بعدوك كصنيعه بك ، ثم أذك حراسك على عسكرك ، وتحفظ من البيات جهدك . ولا تؤت بأسير ليس له عهد إلا ضربت عنقه، ترهب بذلك عدوك وعدو الله . والله ولى أمرك ومن معك ، وولى النصر لكم على عدوكم وهو المستعان .

كان عمال عمر عرضة لكشف أحوالهم مهما بلغ من منزلتهم ، وكان إذا شكى[1] إليه عامل أرسل محمد بن مسلمة يكشف الحال ، وله عدة طرق فى كشف سيرة عماله ، منها أن يأمر عماله أن يوافوه بالموسم فإذا اجتمعوا قال : أيها الناس إنى لم أبعث عمالى عليكم ليصيبوا من أبشاركم ولا من أموالكم ، إنما بعثتهم ليحجزوا بينكم ، وليقسموا فيئكم بينكم ، فمن فعل به غير ذلك فليقم ، فما قام إلا رجل واحد فقال : إن عاملك فلاناً ضربنى مائة سوط ،

(١) أسد الغابة لابن الأثير .

قال فيم ضربته ؟ قم فاقتص منه . فقام عمرو بن العاص فقال : يا أمير المؤمنين إنك إن فعلت هذا يكثر عليك ويكون سنة يأخذ بها من بعدك . فقال : كيف[1] لا أقيد . وقد رأيت رسول الله يقيد من نفسه قال : فدعنا فلنرضه قال : دونكم فارضوه ، فافتدى منه بمائتى دينار كل سوط بدينارين . وقال من ظلمه عامله بمظلمة فلا إذن له علىّ إلا أن يرفعها إلىّ حتى أقصه منه . فقيل له : أرأيت إن أدب أمير رجلا من رعيته أتقصه منه فقال ومالى لا أقصه منه ، وقد رأيت رسول الله يقص من نفسه ؟

قالوا وكان أبا العيال[2] يسلم على أبوابهن ويقول : ألكن حاجة وأيتكن تريد أن تشترى شيئاً فيرسلون معه بحوائجهن ، ومن ليس عندها شيء اشترى لها من عنده ، وإذا قدم الرسول من بعض الثغور يتبعه بنفسه فى منازلهن بكتب أزواجهن ويقول : أزواجكن فى سبيل الله : وأنتن فى بلاد رسول الله ، إذا كان عندكن من يقرأ وإلا فاقربن من الأبواب حتى أقر ألكن ثم يقول : الرسول يخرج يوم كذا وكذا فاكتبن حتى نبعث بكتبكن ، ثم يدور عليهن بالقراطيس والدواة يقول : هذه دواة وقرطاس فادنين من الأبواب حتى أكتب لكن ، ويمر إلى المغيبات فيأخذ كتبهن فيبعث بها إلى أزواجهن .

وكان إذا استعمل عاملا أوصاه بتقوى الله وإصلاح الرعية وكتب عليه كتاباً وأشهد عليه رهطاً من الأنصار ألا يركب برذونا ، ولا يأكل نقياً ، ولا يلبس رقيقاً ، ولا يغلق بابه دون حاجات المسلمين ، ثم يقول اللهم اشهد . وكتب إلى عماله : أما بعد فإياكم والهدايا فإنها من الرشا . اهتدى إلى عظيم ضرر الهدايا مما بدر من رجل[3] كان يهدى إليه فخذ جزور فخاصم إليه رجلا فقال : يا أمير المؤمنين اقض بيننا قضاء فصلا ، كما تفصل الرجل من سائر الجزور ، فقضى عليه عمر ، ثم كتب إلى عماله إن الهدايا هى الرشا . وكان

---

(١) أقاد القاتل بالقتيل قتله به . (٢) سراج الملوك للطرطوشى .

(٣) الإشراف لابن أبى الدنيا .

عمر إذا قدم العمال يأمرهم أن يدخلوا نهاراً ولايدخلوا ليلا كى لا يحتجنوا[١] شيئاً من الأموال . وكان يعس[٢] بنفسه ويرتاد منازل المسلمين ويتفقد أحوالهم ، ويتعهد أهل البؤس والفاقة بنفسه .

كتب إلى أبى موسى الأشعرى عامله على العراق يأمره بالقدوم عليه هو وعماله وأن يستخلفوا جميعاً ، يريد أن يعرف حالتهم بعد أن تبنكوا[٣] فى النعيم ، وعهدت إليهم مصالح الناس ، فأدرك عامل البحرين من بين كثير من العمال أن عمر يرغب فى الخشونة ، وعرف أنه سيدعوهم إلى طعامه فتجوع له ، واتخذ خفين مطارقين[٤] ولبس جبة صوف ولاث عمامته على[٥] رأسه . فدعاهم عمر إلى خبز وأكسار[٦] بعير ، فجعلوا يعاذونه لأنهم حديثو عهد بلين العيش ، وعمر يلحظهم . ولفت عامل البحرين نظر عمر ، وتهافته على تناول الطعام ، فسأله عمر عن عمله ثم عن جعله فأجاب إنه يرزق ألفاً ، فقال له عمر : إنه كثير ما تصنع به ؟ قال : أتقوت منه شيئاً وأعود به على أقارب لى ، فما فضل عنهم فعلى فقراء المسلمين ، فأمر عمر أبا موسى أن يستبدل بأصحابه ، وأبقى عامل البحرين فى عمله ، لأنه رآه مقلا متقشفاً لا يخشى أن يسرف فى المال . وولى عمر رجلا بلداً فوفد عليه[٧] فجاءة مدهناً حسن الحال فى جسمه ، عليه بردان فقال له عمر : أهكذا وليناك ؟ ثم عزله ودفع إليه غنيمات يرعاها ثم دعابه بعد مدة فرآه بالياً أشعث فى ثوبين أطلسين[٨] ، وذكر عند عمر بخير فرده إلى عمله وقال : كلوا واشربوا وادّهنوا فإنكم تعلمون الذى تنهون عنه .

كان إذا قدم وفد على عمر سألهم عن حالهم وأسعارهم ، وعمن يعرف من أهل البلاد وعن أميرهم هل يدخل إليه الضعيف وهل يعود المريض ، فإن قالوا نعم ، حمد الله تعالى وإن قالوا لا كتب إليه : أقبل . وكان من سنة[٩]

(١) يأخذوا (٢) يطوف بالليل .
(٣) تبنكوا تمكنوا .
(٤) نعل مطرقة ومطارقة مخصوفة وخصف النعل أطبق عليها مثلها وخرزها بالمخصف .
(٥) لاث عمامته على رأسه عصبها ولفها . (٦) جمع كسر وهو العضل عليه قليل لحم .
(٧) الكامل المبرد . (٨) الطلس بكسر الطاء الوسخ من الثياب والأطلس الثوب الخلق . (٩) تاريخ الطبرى .

عمر وسيرته أن يأخذ عماله بموافاة الحج فى كل سنة للسياسة وليحجزهم بذلك عن الرعية ، وليكون لشكاتهم وقت وغاية ينهونها إليه . كتب إلى أبى موسى الأشعرى . أما بعد فإن للناس نفرة فأعوذ بالله أن تدركنى وإياك عمياء مجهولة . وضغائن محمولة ، أقم الحدود ولو ساعة من نهار ، وإذا عرض لك أمران : أحدهما لله والآخر للدنيا ، فآثر نصيبك من الله ، فإن الدنيا تنفد والآخرة تبقى ، وأخيفوا الفساق واجعلوهم يدا يدا ورجلا رجلا ، وعد مرضى المسلمين ، واشهد جنائزهم ، وافتح لهم بابك ، وباشر أمورهم بنفسك ، فإنما أنت رجل منهم غير أن الله جعلك أثقلهم حملا . وقد بلغنى أنه فشا لك ولأهل بيتك هيئة فى لباسك ومطعمك ومركبك ليس للمسلمين مثلها ، فإياك يا عبد الله أن تكون بمنزلة البهيمة مرت بواد خصيب فلم يكن لها هم إلا السمن وإنما حتفها فى السمن ، واعلم أن العامل إذا زاغ زاغت رعيته ، وأشقى الناس من شقى الناس به والسلام .

وبلغ عمر أن أبا عبيدة عامله على الشام يسبغ على عياله ، وقد ظهرت شارته ، فنقصه من عطائه الذى كان يجرى عليه ، ثم سأل عنه فقيل له قد شحب لونه ، وتغيرت ثيابه ، وساءت حاله ، فقال : يرحم الله أبا عبيدة ما أعف وأصبر ! فرد عليه ما كان حبس عنه وأجراه عليه . ودخل عمر منزل أبى عبيدة فلم ير إلا لبداً وصحفة وشناً[1] ، وسأله طعاماً فأخرج له من جونه[2] كسيرات فبكى عمر وقال : غيرتنا الدنيا كلنا غيرك يا أبا عبيدة ، وأرسل إليه أربعمائة دينار ، وسأل من أرسله أن يقف على ما يفعل بها فوزعها أبو عبيدة كلها . وأرسل مثلها إلى معاذ بن جبل فوزعها إلا أشياء قليلة سألته امرأته إياها لحاجتها . فقال عمر لما أخبر بذلك : الحمد لله الذى جعل فى الإسلام من يصنع هذا .

كان معظم عمال عمر على غرار أبى عبيدة ومعاذ من التقشف والتبلغ باليسير ، وكان إذا لم تقنع نفسه بحسن سيرهم على الصورة التى لا يرى غيرها ،

(١) اللبد : ما يتلبد من شعر أو صوف . والصحفة : الإناء . والشن والشنة القربة البالية

(٢) الجونة سلة صغيرة منشاة بالأدم أى الجلد .

لا يتلكأ عن عزلهم . فقد شكا أهل حمص عاملهم سعيد وسألوه عزله لأنه لا يخرج للناس حتى يرتفع النهار ، ولا يجيب أحداً بليل ، وله في الشهر يوم لا يخرج فيه ، فلما أيقن عمر أن عامله يعجن كل يوم خبزه ويجلس حتى يختمر فيخبزه ثم يخرج للناس ، وأنه يجعل الليل كله للعبادة ، وأنه يشتغل مرة في الشهر بغسل ثيابه ، بعث إليه عمر ألف دينار يستعين بها فوزعها على جيش من جيوش المسلمين .

وقدم سعيد بن عامر على عمر بالمدينة فلم ير عمر معه إلا عكازاً وقدحاً فقال له ليس معك إلا ما أرى ، فقال له سعيد : ما أكثر من هذا ؟ عكاز أحمل عليه زادى وقدح آكل فيه . وكان من عماله عمير بن سعد وفيه يقول عمر : وددت لو أن لى رجلا مثل عمير بن سعد[1] أستعين به على أعمال المسلمين . وعمير هذا هو الذى قال على منبر حمص : « لا يزال الإسلام منيعاً ما اشتد السلطان ، وليس شدة السلطان قتلا بالسيف ولا ضرباً بالسوط ، ولكن قضاء بالحق وأخذاً بالعدل » ؛ وهذا من أبعد مرامى الإدارة العادلة إذا أحس أهل عمل من عاملهم العدل لا يحتاج فى سياستهم إلى شيء من الشدة .

كتب عمر إلى عمير أيام كان عامله على حمص أقبل بما جبيت من فيء المسلمين . فسأله عمر عما عمله فقال : بعثتنى حتى أتيت البلد فجمعت صلحاء أهلها فوليتهم جباية فيئهم ، حتى إذا جمعوه وضعته مواضعه ، ولو نالك منه شيء لأتيتك به . قال : فما جئتنا بشيء . قال : لا . قال جددوا لعمير عهداً فقال عمير ، لا عملت لك ولا لأحد بعدك ، والله ما سلمت بل لم أسلم ، لقد قلت لنصرانى أى أخزاك الله . فهذا ما عرضتنى له يا عمر ، وإن أشقى أيامى يوم خلقت معك يا عمر . وكان إذا استعمل عاملا كتب عهده[2] : « وقد بعثت فلاناً وأمرته بكذا » فلما استعمل حذيفة بن اليمان على المدائن كتب فى عهده أن اسمعوا له وأطيعوا وأعطوه ما سألكم . فلما قدم المدائن استقبله الدهاقين ، فلما قرأ عهده قالوا : سلنا ما شئت . قال : أسألكم طعاماً آكله

(١) طبقات ابن سعد . (٢) أسد الغابة لابن الأثير .

وعلف حمارى ما دمت فيكم . فأقام فيهم ، ثم كتب إليه ليقدم عليه . فلما بلغ عمر قدومه كمن له فى الطريق ، فلما رآه على الحال التى خرج من عنده عليها أتاه فالتزمه وقال : أنت أخى وأنا أخوك .

فعمر إذاً لم يختر للأعمال إلا أفاضل الرجال ممن كانوا على سمته وزهده . وكان كثيراً ما يستعمل قوماً ويدع أفضل منهم لبصرهم بالعمل ويقول : أكره أن أدنس هؤلاء بالعمل . وكان يشاور فى كثير من الوقائع حتى قال يوماً لأصحابه : أشيروا على ودلونى على رجل أستعمله فى أمر قد دهمنى فقولوا ما عندكم ، فإنى أريد رجلا إذا كان فى القوم وليس أميرهم كان كأنه أميرهم ، وإذا كان فيهم هو أميرهم كان كأنه واحد منهم ، فقالوا نرى لهذه الصفة الربيع بن زياد الحارثى فنشير على أمير المؤمنين به ، فأحضره وولاه ، فوفق فى عمله ، وقام فيه بما أربى على رجاء عمر وزاد على عمله ، فشكر عمر لمن أشاروا عليه بولاية الربيع .

كتب عمر إلى عامله على البحرين العلاء بن الحضرمى أن سر إلى عتبة ابن غزوان فقد وليتك عمله ، واعلم أنك تقدم على رجل من المهاجرين الأولين الذين سبقت لهم من الله الحسنى ، وإنى لم أعزله ألا يكون عفيفاً صلباً شديد البأس ، ولكن ظننت أنك أغنى عن المسلمين فى تلك الناحية فاعرف له حقه . ولما سير عمر عتبة بن غزوان إلى البصرة ليقاتل من بالأُبلة من فارس قال له : انطلق أنت ومن معك حتى تأتوا أقصى مملكة العرب وأدنى مملكة العجم ، وأمره أن يشاور عرفجة بن هرثمة لأنه ذو مجاهدة للعدو وذو مكايدة . وعزل عن بعض ولاية الشام شرحبيل بن حسنة واستعمل بدلا منه معاوية ابن أبى سفيان ، واعتذر على رؤوس الأشهاد أنه لم يعزله عن شىء هجنه به ، بل أراد رجلا أقوى من رجل ، وبعث المغيرة بن شعبة عاملا على الكوفة لأنه قوى مشدد ، وكان عمر سأله عن الضعيف والقوى فقال : أما الضعيف المسلم فضعفه عليك وعلى المسلمين وفضله له ، وأما القوى المشدد فقوته لك

(١) سراج الملوك للطرطوشى .

وللمسلمين وشداده عليه . وعزل النعمان بن عدى عامله على ميسان لأنه بلغه أنه قال أبياتاً فى التشبيب ، تشير إلى أنه يتعاطى الراح ، مع أنه عارف بأن ذلك لم يكن وإنما هو قول شاعر . وعزل زياد بن أبى سفيان فقال زياد : أعن عجز عزلتنى يا أمير المؤمنين أم عن خيانة ؟ فقال : لا عن ذاك ولا عن هذا ، ولكنى كرهت أن أحمل على العامة فضل عقلك . وكتب إلى سعد بن أبى وقاص أن شاور طلحة الأسدى وعمرو بن معدى كرب فى أمر حربك ولا تولهما من الأمر شيئاً ، فإن كل صانع هو أعلم بصنعته . وكتب إلى النعمان[1] بن مقرن أن قبلك رجلين هما فارسا العرب عمرو بن معدى كرب وطليحة بن خويلد فشاورهما فى الحرب ولا تولهما شيئاً من الأمر . وبعث مع أبى عبيد بن مسعود سليط بن قيس لفتح العراق وقال له : لولا عجلة فيك لوليتك ، ولكن الحرب زبون لا يصلح لها إلا الرجل المكيث[2].

وسأل عمر بن معدى كرب عن خبر سعد بن أبى وقاص نفسه فقال : متواضع فى[3] حبائه ، عربى فى نمرته ، نبطى فى جبوته ، أسد فى تاموره[4] يعدل فى القضية ويقسم بالسوية ، ويبعد فى السرية ، ويعطف علينا عطف الأم البرة ، وينقل إلينا حقنا نقل الذرة . ولما شكا أهل الكوفة سعدا عزله عمر ولم تأخذه به هوادة ، لأن الغاية إنفاذ العمل النافع للناس على يد أى كان من عماله ، وألاّ يفتح للمسلمين باباً للشكوى . وخير ضروب السياسة أن يكون عمل العاملين فيها أكثر من قول القائلين . وسعد هذا هو الذى كان أجمع الصحابة على توسيد حرب العراق إليه ، فأوصاه عمر بقوله ياسعد بنى وهب لا يغرنك من الله أن قيل خال رسول الله وصاحب رسول الله ، فإن الله عز وجل لا يمحو السيئ بالسيئ ولكنه يمحو السيئ بالحسن ، وليس بين الله

(١) مروج الذهب للمسعودى .
(٢) المكيث : الرزين الذى لا يعجل فى أمره . وحرب زبون : يدفع بعضها بعضاً كثرة .
(٣) الحباء جلسة خاصة بالعرب . (٤) أراد أنه فى جباية الخراج وعمارة الأرض كالنبط حذقاً بها ومهارة فيها لأنهم كانوا سكان العراق وأربابها . والأنباط هم سريان كانوا ينزلون البطاح بين العراقين . والنمرة : الحبرة .. والتامور : النفس .

وبين أحد نسب إلى طاعته ، فالناس شريفهم ووضيعهم فى ذات الله سواء ، الله ربهم وهم عباده ، يتفاضلون بالعافية ، ويدركون ما عنده بالطاعة ، فانظر الأمر الذى رأيت النبى منذ بعث إلى أن فارقنا يلزمه فالزمه فإنه الأمر. هذه عظتى إليك إن تركتها ورغبت عنها حبط عملك ، وكنت من الخاسرين . وذهب سعد بهذه النصيحة فكان على يده فتح العراق .

كتب عمر إلى سعد حين افتتح العراق : « أما بعد فقد بلغنى كتابك تذكر أن الناس سألوك أن تقسم بينهم مغانمهم وما أفاء الله عليهم ، فإذا جاءك كتابى هذا فانظر ما أجلب الناس عليك إلى العسكر من كراع أو مال فاقسمه بين من حضر من المسلمين ، واترك الأرضين والأنهار لعمالها ، ليكون فى أعطيات المسلمين ، فإنك إن قسمتها بين من حضر ، لم يكن لمن بقى بعدهم شىء . وقد كنت أمرتك أن تدعو الناس ثلاثة أيام فمن استجاب لك وأسلم قبل القتال ، فهو رجل من المسلمين له ما لهم وله سهم فى الإسلام ، ومن استجاب لك بعد القتال وبعد الهزيمة فهو رجل من المسلمين وما له لأهل الإسلام لأنهم قد أحرزوه قبل إسلامه . فهـذا أمرى وعهدى إليك ، ولا عشور على مسلم ولا على صاحب ذمة إذا أدى المسلم زكاة ماله ، وأدى صاحب الذمة جزيته التى صالح عليها ، إنما العشور على أهل الحرب إذا استأذنوا أن يتجروا فى أرضنا فأولئك عليهم العشور » .

كان عمر على شدة فيه مع عماله إذا أحس اعتداء أو شبه اعتداء وقع على أحدهم يشتد على المعتدين فى تلك الناحية ليبقى للعامل هيبة توقره فى الصدور ؛ ومهابة يلجم بها العامة والخاصة . وقع له مرة أن حصب[1] أهل العراق إمامهم ، وقد كان عوضهم إماماً مكان إمام كان قبله فحصبوه ، فغضب وقال لأهل الشام : تجهزوا لأهل العراق فإن الشيطان قد باض فيهم وفرخ ، ودعا عليهم. ذلك لأن شكوى العراقيين عاملهم كانت باطلة ، وهو الذى يتحرى فى

(١) حصبة رجمة بالحصباء . ويستعمل فى كل رمى مطلقاً .

انتقاء عماله ولا يستسلم لأحد منهم ، بل يجعل بعضهم رقيباً على بعض ، وله عليهم سلطان دونه كل سلطان . شكا عتبة بن غزوان(١) تسلط سعد ابن أبى وقاص عليه فسكت عنه عمر ، فأعاد عتبة ذلك مراراً ، فلما أكثر على عمر قال : وما عليك يا عتبة أن تقر بالأمرة لرجل من قريش له صحبة مع رسول الله وشرف . فقال عتبة : ألست من قريش والرسول يقول حليف القوم منهم ، ولى صحبة مع رسول الله قديمة لا تنكر ولا تدفع فقال عمر : لا ينكر ذلك من فضلك . قال عتبة : أما إذا صار الأمر إلى هذا فوالله لا أرجع إليها أبداً . فأبى عمر إلا أن يرده فرده فمات فى الطريق . وهذا من تأثير عمر فى عماله ومعاملته لهم بما تريد المصلحة لا بما يريدون . مثال آخر يخالف هذا — والإدارة تختلف باختلاف الأزمان والبلدان — خالف معاوية وهو أمير الشام عبادة بن الصامت فى شىء أنكره عبادة فأغلظ له معاوية فى القول فقال عبادة : لا أساكنك بأرض واحدة أبداً ورحل إلى المدينة . فقال عمر : ما أقدمك ؟ فأخبره . فقال : ارجع إلى مكانك يفتح الله أرضاً لست فيها أنت ولا أمثالك . وكتب إلى معاوية لا إمرة لك عليه . ذلك أن عمر لم يكن يستغنى عن خدمة معاوية ولا عن فضل عبادة .

كان عمر وهو خليفة لا يميز نفسه من جمهور الناس بشىء فى لباسه ومركبه وحركته ، يختلط بالشعب كأنه واحد منهم ، ومع هذا كان الناس يخافونه ، ولو وقع مثل هذا التواضع أو التبذل من أحد أفراد الناس لجسروا عليه وضعف سلطانه عليهم ، إن كان من أرباب السلطان . ولقد كلم الناس عبد الرحمن بن عوف أن يكلم عمر فى أن يلين لهم فإنه قد أخافهم ، حتى إنه أخاف الأبكار فى خدورهن . فقال عمر : إنى لا أجد لهم إلا ذلك إنهم لو يعلمون ما لهم عندى لأخذوا ثوبى عن عاتقى . وقال عمر قد ألنا وإيل علينا أى ولينا وولى علينا . معناه قد ولينا فعلمنا ما يصلح الوالى ، وولى علينا فعلمنا ما يصلح الرعية .

(١) طبقات ابن سعد .

وما أرانا نبعد عن الصواب إذا حكمنا أن شطراً عظيما من وقت عمر فى ولايته كان يصرفه فى سياسة العمال وكشف حالهم وانتقاء أصلحهم وتسليكهم فى الإدارة والسياسة والقضاء ، على أسلوب محكم لا تكاد تلحق به فى هذا القرن أعرق الدول الحديثة فى المدنية ، وأفضلها بنظمها الإدارية والدستورية . ولعل فى الناس من يقول إذا عرضنا هنا لمصادرات عمر ، وهذا أيضاً من باب الشدة المتناهية والحجر على حرية العمال ، وإدخال الخوف عليهم بالضرب على أيديهم على صورة تحرمهم متع الحياة ، ولا توليهم منه غير الجفاء والخشونة فى المعاملة . نعم هكذا كان عمر ، وهكذا وضع أساس الملك الإسلامى ، هو لا يجوز إغناء أفراد بإفقار أمة ، ولا إسعاد فئة بإشقاء مجموع . كان ممن يشترون رضا العامة بمصلحة الأمراء[1] ، فكان الوالى فى نظره فرداً من الأفراد ، يجرى حكم العدل عليه كما يجرى على غيره من سائر الناس ، فكان حب المساواة لا يعدله شىء فى أخلاقه . إذا اشتكى العامل أصغر الرعية جره إلى المحاكمة حيث يقف الشاكى والمشكو منه يسوى بينهما فى الموقف حتى يظهر الحق ، فإن توجه قبل العامل اقتص منه ، إن كان هناك داع إلى القصاص ، أو عامله بما تقضى به الشريعة أو عزله . ومن عادة عمر أن يكتب أموال عماله إذا ولاهم ثم يقاسمهم ما زاد على ذلك وربما أخذه منهم . مر ببناء يبنى[2] بحجارة وجص فقال : لمن هذا ؟ فذكروا عاملا له على البحرين فقال : أبت الدراهم إلا أن تخرج أعناقها ، وشاطره ماله وكان يقول : لى على كل خائن أمينان الماء والطين .

ولقد صادر عمر عامله على مصر عمرو بن العاص ، لأنه فشت له فاشية من متاع ورقيق وآنية وحيوان لم تكن له حين ولى مصر . فادعى عمرو أن أرض مصر أرض مزدرع ومتجر ، وأنها أثمان خيل تناتجت وسهام اجتمعت ، وأنه يصيب فضلا عما يحتاج إليه لنفقته ، ومع ذلك قاسمه عمر ماله . وصادر أبا هريرة عامله على البحرين لأنه اجتمعت له عشرة آلاف وقيل عشرون ألفاً

(١) تاريخ الأمم الإسلامية لمحمد الخضرى . (٢) عيون الأخبار لابن قتيبة .

وادعى أن خيله تناسلت وسهامه تلاحقت وأنه اتجر فقال له عمر : انظر رأس مالك ورزقك فخذه ، واجعل الآخر فى بيت المال . يريد أن يحصر العامل وكده فى خدمة أهل عمله ، أما الاتجار وتثمير الأموال فهذا ليس من شأن عمال الدولة ، فإن لهؤلاء ما يتبلغون به من رزق . وكان يرى فى مصادرة العمال وقهرهم ترويضاً لهم على الطاعة وترك التبجح والإدلال على الرعية . وممن شاطرهم أيضاً النعمان بن عدى عامله على ميسان ، ونافع بن عمرو الخزاعى عامله على مكة ، ويعلى بن منبه عامله على اليمن ، وسعد بن أبى وقاص عامله على الكوفة ، وخالد بن الوليد عامله فى الشام وآخذ خالد بن الوليد لأنه أمره أن يحبس المال على ضعفة المهاجرين ، فأعطاه ذا البأس وذا الشرف وذا السلطان ، فأجاز الأشعث لشعره ، فغضب عمر ، وكان أحد الشعراء كتب إليه يقول :

نحج إذا حجوا ونغزوا إذا غزوا فأنى لهم وفر ولسنا بذى وفر ؟
إذا التاجر الهندى جاء بفأرة من المسك راحت فى مفارقهم تجرى
فدونك مال الله حيث وجدته سيرضون إن شاطرتهم منك بالشطر

فشاطرهم عمر أموالهم وتولى ذلك منهم محمد بن مسلمة لثقته[1] به ولم ينتطح فى عمله عنزان . شاطر عمر سعداً وعمراً وخالداً وهم ممن يفتخر بهم الإسلام استكثر عليهم أن ينعموا ، وإن كان الأول فاتح العراق ، والثانى فاتح مصر ، والثالث فاتح الشام .

وقيل لعمر إن عياض بن غنم ، وهو من كبار الفاتحين ورجال الإدارة فى حكومته ، يتوسع كثيراً فى إعطاء المال حتى لا يقل فى هذا المعنى عن خالد ابن الوليد فقال : إن ذلك من شأن أبى عبيدة ، وعياض من أقرباء أبى عبيدة وعياض بن غنم هذا جلد صاحب دارا حين فتحت ، فأغلظ له هشام بن حكيم القول حتى غضب عياض ، ثم مكث ليالى فأتاه هشام فاعتذر إليه ، ثم قال

(١) طبقات ابن سعد .

هشام لعياض : ألم تسمع رسول الله يقول إن من أشد الناس عذاباً أشدهم للناس عذاباً فى الدنيا . فقال عياض قد سمعنا ما سمعت ورأينا ما رأيت ، أو لم تسمع رسول الله يقول : من أراد أن ينصح لذى سلطان عامة فلا يبد له علانية ولكن ليخل به ، فإن قبل منه فذاك ، وإلا كان قد أدى الذى عليه . وإنك ياهشام لأنت الجرىء إذ تجترىء على سلطان الله ، فهلا خشيت أن يقتلك السلطان فتكون قتيل سلطان الله .

كان عمرو بن العاص يبعث إلى عمر بالمال[١] بعد حبس ما كان يحتاج إليه ، والمال يجبى من أموال الجزية وما يؤخذ من الخراج ، وكان النصارى واليهود أقروا على ما فى أيديهم من الأرض يعمرونها ويؤدون خراجها ، ووضع عمر فى مصر على كل حالم دينارين جزية إلا أن يكون فقيراً ، وألزم كل ذى أرض مع الدينارين ثلاثة أرادب حنطة وقسطى عسل وقسطى خل ، رزقاً للمسلمين ، تجمع فى دار الرزق وتقسم فيهم ، وأحصى عمرو بن العاص المسلمين فألزم جميع أهل مصر لكل رجل منهم جبة صوف وبرنساً أو عمامة وسراويل وخفين فى كل عام أو بدل الجبة الصوف ثوباً قبطياً . واستبطأ عمر فى بعض السنين خراج مصر فكتب إلى عمرو : أما بعد فإنى فكرت فى أمرك والذى أنت عليه ، فإذا أرضك أرض واسعة عريضة رفيقة ، وقد أعطى الله أهلها عدداً وجلداً وقوة فى بر وبحر وأنها قد عالجها الفراعنة وعملوا فيها عملا محكماً مع شدة عتوهم وكفرهم ، فعجبت من ذلك ، وأعجب مما عجبت أنها لا تؤدى نصف ما كانت تؤديه من الخراج قبل ذلك ؛ على غير قحوط ولا جدوب ، إلى آخر ما قال له وهز أعصابه بكلمات قاسية ، فأجابه عمرو : لقد عملت لرسول الله ولمن بعده فكنا بحمد الله مؤدين لأماناتنا ، حافظين لما عظم الله من حق أئمتنا ، نرى غير ذلك قبيحاً ، والعمل به سيئاً وقال : فامض فى عملك فإن الله قد نزهنى عن تلك الطعم الدنية والرغبة فيها . فكتب إليه إنى لم أقدمك إلى مصر أجعلها لك طعمة ولا لقومك ، ولكنى وجهتك لما رجوت من توفيرك الخراج

(١) خطط المقريزى .

وحسن سياستك ، فإذا أتاك كتابى هذا فاحمل الخراج فإنما هو فىء المسلمين وعندى من قد تعلم قوم محصورون . فأجابه عمر : إن أهل الأرض استنظرونى إلى أن تدرك غلتهم فنظرت للمسلمين . فكان الرفق خيراً من أن نخرق[1] بهم ، فيصيروا إلى بيع ما لا غنًى بهم عنه .

ومع هذه الهيمنة من عمر على عماله نراه يشهد لعمرو بن العاص بحسن السياسة دليلا على تقديره عامله قدره . وكان من رأى عمرو بن العاص فى سياسة مصر أن الذى يصلح هذه البلاد وينميها ، ويقر قاطنيها فيها ، ألا يقبل قول خسيسها فى رئيسها ، ولا يستأدى خراج ثمرة إلا فى أوانها ، وأن يصرف ثلث ارتفاعها فى عمل جسورها وترتها . وكان عمر يقول إذا رأى رجلا يتلجلج فى كلامه : خالق هذا وخالق عمرو بن العاص واحد . وعمرو بن العاص المثل السائر فى حسن السياسة بين رجال العرب ، دهش قبط مصر بجميل عمله ، فدخل منهم فى الإسلام كثير . وأدى به التسامح أن رفع رجل نصرانى إليه أن غرفة بن الحارث الكندى من أصحاب الرسول الذين سكنوا مصر ضربه فوق أنفه فقال عمرو للصحابى : إنا قد أعطيناهم العهد ، كأنه يريد أن يؤاخذ الصحابى بما فعل ، فقال غرفة : معاذ الله أن نعطيهم العهد على أن يظهروا شتم النبى ، وإنما أعطيناهم العهد على أن نخلى بينهم وبين كنائسهم ، يقولون فيهـا ما بدا لهم ، وأن لا نحملهم ما لا يطيقون ، وإن أرادهم عدو بسوء قاتلنا دونهم ، وعلى أن نخلى بينهم وبين أحكامهم إلا أن يأتونا راضين بأحكامنا فنحكم بينهم ، وإن غيبوا عنا لم نتعرض لهم . فقال عمرو : صدقت .

خطب عمر يوماً فى الجابية من حوران فما قاله : ألا وإنى ما وجدت صلاح ما ولانى الله إلا بثلاث : أداء الأمانة ، والأخذ بالقوة ، والحكم بما أنزل الله ، ألا وإنى ما وجدت صلاح هذا المال إلا بثلاث : أن يؤخذ من حق ، ويعطى فى حق ، ويمنع من باطل ، وكتب معاوية إلى عمر يصف له سوء حال

(١) خرق بالشىء ككرم إذا جهله ولم يحسن عمله .

الشام فكتب إليه فى مرمة حصونها وترتيب المقاتلة فيها ، وإقامة الحرس على مناظرها واتخاذ المواقيد[١] لها . وجاء عمر الشام مرات أربعاً يكشف حال عمالها ويعنى بقسمة الأرزاق ، ويسمى الشواتى والصوائف أى غزوات الشتاء والصيف ، ويسد الفروج والمسالح[٢] فى كل كورة ، ويستعمل أناساً على السواحل من كل كورة ، أو يقسم المواريث بعد طاعون عَمَوَاس ، وكان هلك فيه من المسلمين خمسة وعشرون ألفاً . وقيل إن عماله استقبلوه مرة بأبهة فنزل وأخذ بالحجارة ورماهم بها وقال : ما أسرع ما رجعتم عن رأيكم ، إياى تستقبلون فى هذا الزى ، وإنما شبعتم منذ سنتين وبالله لو فعلتم هذا على رأس المائتين ، لاستبدلت بكم غيركم . واعتذر له معاوية عامله فى الشام عن الموكب الثقيل الذى كان له قائلا : إنا فى بلاد لا نمتنع فيها من جواسيس العدو ، فلا بد لهم مما يرهبهم من هيبة السلطان فإن أمرتنى بذلك أقمت عليه ، وإن نهيتنى عنه انتهيت . فلم يأمره به ولم ينهه عنه . فقال عبد الرحمن بن عوف لعمر : لحسن ما صدر هذا الفتى عما أوردته فيه فقال : لحسن مصادره وموارده ماجشمناه . وقيل إن معاوية قدم على عمر من الشام[٣] وهو أبض[٤] النـــاس فضرب عمر بيده على عضده ، فأقلع عن مثل الشراب أو مثل الشراك فقال : هذا والله لتشاغلك بالحمامات ، وذوو الحاجات تقطع أنفسهم حسرات على بابك . وقال عمر : لئن عشت إن شاء الله لأسيرن فى الرعية حولا ، فإنى أعلم أن للناس حوائج تقطع عنى ، أما هم فلا يصلون إلى ، وأما عمالهم

(١) المناظير : قباب مبنية على رؤوس الجبال العالية بين كل بلد وآخر يتقارب بعضها من بعض ويقام فيها حراس يوقدون النيرآن عند ما يرون إقبال العدو من جهتهم فيوقد حراس المناظير الذين يلونهم كذلك وهكذا حتّى يصل الخبر إلى المدينة أو الثغر أو المسلحة فى زمن قليل . ويقال لهذه المواقيد المناور أيضاً (التعريف بالمصطلح الشريف) .

(٢) المسلحة : الثغر والمرقب وجمعه مسالح وهى مواضع المخافة وسميت مسلحة لأن الناس فيها يكونون ذوى سلاح أو لأنهم يسكنون المسلحة وهى كالثغر والمرقب يكون فيه أقوام يرقبون العدو لئلا يطرقهم على غرة فإذا رأوهم أعلموا أصحابهم ليتأهبوا له . والفروج الثغور أى موضع المخافة .

(٣) الكامل للمبرد .

(٤) يقال أبيض بض شديد البياض أو رقيق البشرة الذى يؤثر فيه كل شئ .

فلا يرفعونها إلى ، فأسير إلى الشام فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى مصر فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى البحرين فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى الكوفة فأقيم بها شهرين ، ثم أسير إلى البصرة فأقيم بها شهرين .

وخصلة أخرى أيضاً لعمر ، تعد من بدائع إدارته الحسنة ، وهو أنه ما كانت تفوته مسألة فيها تقوية قلوب الأمة والاعتماد على نفسها . خطب مرة فقال : « أعطوا الحق من أنفسكم ، ولا يحمل بعضكم بعضاً على أن تحاكموا إلى ، فإنه ليس بينى وبين أحد من الناس هوادة ، وأنا حبيب إلىّ صلاحكم ، عزيز عتبكم ، وأنتم أناس عامتكم حضر فى بلاد ، وأهل بلد لا زرع فيه ولا ضرع إلا ما جاء الله به إليه » يريد أن يعلم الناس ألا يكثروا من الرجوع إلى الحاكم للفصل بينهم فى خصوماتهم ، ليصرف وقته فى التفكير فى أمورهم الخطيرة ، وأن يعتمدوا على أنفسهم لا على صاحب السلطان ، وأن يعرفهم حالة الحاضر والبادى منهم ، ويعلمهم أن يعملوا ولا يسرفوا لأنهم فقراء . ولطالما قال لقومه : أصلحوا أموالكم التى رزقكم الله ، ولقليل فى رفق خير من كثير فى عنف . يريد أن يسوق الناس إلى المدنية بتؤدة وتدريج . وكان يقول : من كان له مال فليصلحه ، ومن كانت له أرض فليعمرها ، وإنه يوشك أن يجىء من لا يعطى إلا من أحب . ونظر إلى رجل مظهر للنسك متماوت فخفقه بالدرة وقال له : لا تمت علينا ديننا أماتك الله .

وكان غرام عمر أبداً أن يلقن قومه العمل ويبعد بهم عن حياة الكسل ، ولطالما قال لكتابه وعماله إن القوة على العمل ألا تؤخروا عمل اليوم لغد . فإنكم إذا فعلتم ذلك تداعبت[1] عليكم الأعمال ، فلا تدرون بأيها تبدأون ولا بأيها تأخذون . وقال اتقوا الله فى الفلاحين ولا تقتلوهم إلا أن ينصبوا لكم الحرب ونهى عمر أن تشترى أرض أهل الذمة ورقيقهم وقال : لا تشتروا من عقار أهل الذمة ولا من بلادهم شيئاً . وما كان يرى إبعاد العامة عن المجالس العالية لئلا تفوتهم الفوائد ، وليتربوا على أيديهم بما يسمعون وينقلون عنهم ،

(١) تداولت .

ويوزع الأعمال بين الكفاة وأرباب التخصص ويقول : أيها الناس من أراد أن يسأل عن القرآن فليأت أبيّ بن كعب ، ومن أراد أن يسأل عن الفرائض فليأت زيد بن ثابت ، ومن أراد أن يسأل عن الفقه فليأت معاذ بن جبل ، ومن أراد أن يسأل عن المال فليأتنى ، فإن الله جعلنى له خازناً وقاسما .

وكتب عمر الناس على قبائلهم أى أحصاهم ، ففرض الفروض وأعطى العطايا على السابقة ، بدأ بالأقرب فالأقرب من الرسول وفرض لأهل بدر ولمن بعدهم إلى الحديبية وبيعة رضوان ، ثم لمن بعدهم ولأهل القادسية واليرموك ، وأعطى نساء النبي وغيرهن ، ورزق الصبيان والأئمة والمؤذنين والمعلمين والقضاة والشعراء ؛ وحلف على أيمان ثلاث فقال : والله ما أحد أحق بهذا المال من أحد ، وما أنا أحق به من أحد ، والله ما من المسلمين من أحد أحق إلا وله فى هذا المال نصيب إلا عبداً مملوكاً ، ولكنا على منازلنا من كتاب الله تعالى ، وقسمنا من رسول الله ، فالرجل وبلاؤه فى الإسلام ، والرجل وقدمه فى الإسلام ، والرجل وغناؤه فى الإسلام ، والرجل وحاجته ، والله لئن بقيت لهم ليأتين الراعى بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو يرعى مكانه .

جمع عمر المسلمين لأول عهده وقال : ما يحل للوالى من هذا المال فقالوا جميعاً : أما لخاصته فقوته وقوت عياله ، لا وكس ولا شطط ، وكسوتهم وكسوته للشتاء والصيف ودابتان إلى جهاده وحوائجه وصلاته وحجه وعمرته ، والقسم بالسوية ، وأن يعطى أهل البلاء على قدر بلائهم ويرم أمور الناس بعد ، ويتعاهدهم عند الشدائد والنوازل ، حتى تنكشف ويبدأ بأهل الفيء . وكان عمر إذا احتاج أتى صاحب بيت المال فاستقرضه فربما عسر فيأتيه صاحب بيت المال فيتقاضاه فيلزمه فيحتال له عمر ، وربما خرج عطاؤه فقضاه . وطلب من أحد أصحابه أن يقرضه مالا فقال له : ما يمنعك أن تقترض من بيت المال ، فأجابه أنه إذا مات وهو له مدين ربما غفلوا عن تقاضى ما اقترض ، أما صاحبه فإنه لحرصه على ماله يطالب الورثة بماله فيستوفيه وتبرأ ذمة عمر .

ومما تعلقت به همة عمر إحداث أوضاع جديدة اقتضتها حالة التوسع فى الفتوح فهو أول من حمل الدرة[١] ، وهو أول من دون الدواوين على مثال دواوين الفرس والروم ، دونها له عقيل بن أبى طالب ومخرمة بن نوفل وجبير بن مطعم ، وكانوا من نبهاء قريش لهم علم بالأنساب وأيام الناس . والديوان الدفتر أو مجتمع الصحف والكتاب يكتب فيه أهل الجيش وأهل العطية . وعرفوا الديوان بأنه موضع لحفظ ما تعلق بحقوق السلطنة من الأعمال والأموال ومن يقوم بها من الجيوش والعمال ، وأطلق بعد حين على جميع سجلات الحكومة وعلى المكان الذى يجلس فيه القائمون على هذه السجلات والأضابير[٢] والطوامير . وثبت أنه كان له سجن[٣] وأنه سجن الحطيئة على الهجو وسجن ضبيعاً على سؤاله عن الذاريات والمرسلات والنازعات وشبههن ، وضربه مرة بعد مرة ونفاه إلى العراق . وكتب ألا يجالسه أحد فلو كانوا مائة تفرقوا عنه ، حتى كتب إليه عامله أنه حسنت توبته ، فأمره عمر فخلى بينه وبين الناس . وكانت أعمال عمر جداً كلها لا يجوز لأحد أن يجلس فى المسجد فى غير أوقات الصلاة ، وبنى فى المسجد رحبة تسمى البطيحا ، وقال من كان يريد أن يلغط أو ينشد شعراً أو يرفع صوته فليخرج إلى الرحبة . وما كان المسجد فى أيامه لغير الصلاة والقضاء . وكان الخلفاء الراشدون يجلسون فى المسجد لقضاء الخصومات . ولما كثرت الفتوحات وأسلمت الأعاجم وأهل البوادى وكثر الولدان أمر عمر ببناء بيوت المكاتب ونصب الرجال لتعليم الصبيان وتأديبهم[٤] .

وضع عمر أول ديوان فى الإسلام للخراج والأموال بدمشق والبصرة والكوفة على النحو الذى كان عليه قبل . وقيل إن أول ديوان وضع فى الإسلام ، هو ديوان الإنشاء ، ودواوين الشام تكتب بالرومية ، ودواوين

(١) الدرة كالمخصرة أو خيزرانة صغيرة يضرب بها .

(٢) الاضبارة : الحزمة من الصحف كالاضمامة جمعها أضابير . والطومار والطامور : الصحيفة . (٣) تاريخ اليعقوبى . (٤) التراتيب الإدارية لعبد الحى الكتانى .

العراق بالفارسية ، ودواوين مصر بالقبطية ، يتولاها النصارى والمجوس دون المسلمين[1] . والسبب فى تدوين الدواوين أن عامل عمر على البحرين أتاه يوماً بخمسمائة ألف درهم فاستعظمها وجعل عليها حراساً فى المسجد ، فأشار عليه بعض من عرفوا فارس والشام أن يدون الدواوين يكتبون فيها « الأسماء وما لواحد واحد ، وجعل الأرزاق مشاهرة » وجعل عمر تابوتاً أى صندوقاً لجمع صكوكه ومعاهداته . وجند الأجناد أى ألف الفيالق ، فصير فلسطين جنداً ، والجزيرة جندا ، والموصل جندا ، وقنسرين[1] جندا ، وأصبح كل جند فى الشام والعراق يتألف من مقاتلة المسلمين ، يقبضون أعطياتهم من البلد الذى نزلوه ، فأصبحت الجندية خاصة بفئة من المسلمين ، ويسير الناس بقضهم[2] وقضيضهم إلى الزحف عند الحاجة حتى النساء والأولاد . وما كان الجند يجعلون كلهم فى المسالح بل يترك بعضهم فى البلاد يكونون على استعداد للوثبة عند أول إشارة ، والغالب أنه كان يترك فضل فى بيوت الأموال فى الولايات يستخدم فى طارئ إذا طرأ وما كانت الصوافى تحمل كلها إلى الحجاز ، بل يدخر بعضها فى بيوت الأموال فى الشام والعراق ومصر ، وجزء عظيم من دخل الدولة يصرف فى الوجوه التى أشرنا إليها .

وعمر هو أول من لقب بأمير المؤمنين ، وأول من استقضى القضاة ، وأول من أحدث التاريخ الهجرى فأرخ سنة ست عشرة لهجرة رسول الله من مكة إلى المدينة ، فكان أول من أرخ الكتب وختم على الطين. قال اليعقوبى وأمر زيد بن ثابت أن يكتب الناس على منازلهم ، وأمره أن يكتب لهم صكاكاً من قراطيسه ثم يختم أسافلها ، فكان أول من صك وختم أسفل الصكاك[4] . وغير أسماء المسلمين بأسماء الأنبياء[5] . وكان أول من مصر الأمصار ، مصر المصرين البصرة والكوفة ، وكان إذا جاءته الأقضية المعضلة[6] قال لعبد الله

(١) نهاية الأرب للنويرى وصبح الأعشى للقلقشندى . (٢) أقضية رسول الله القرطبى . (٣) أى بجمعهم . (٤) المعارف لابن قتيبة . (٥) كانت العرب تنسب إلى قبائلها فلما جاء الإسلام وغلب عليهم سكنى القرى والمدن حدث فيما بينهم الانتساب إلى الأوطان كما كانت العجم . وأضاع كثير منهم أنسابهم فلم يبق لهم غير الانتساب إلى أوطانهم « ابن الصلاح » . (٦) أسد الغابة لابن الأثير .

ابن العباس : إنها قد طرأت علينا أقضية وعضل فأنت لها ولأمثالها ، ثم أخذ بقوله . وما كان يدعو لذلك أحداً سواه ، وكان فى المسائل العامة يسأل الناس فى المسجد عن آرائهم ثم يعرض رأيه ورأيهم على مجلس شوراه وهم من كبار الصحابة ، فما استقر عليه رأيهم أمضاه ، فكانت أعماله ثمرة ناضجة من الآراء الصائبة ، ولذلك ندرت هفواته فى الإدارة بالقياس إلى غيره ، لأنه يتروى ويعمل بآراء أهل الرأى . ولما أرسل عبد الله بن مسعود إلى العراق وزيراً ومعلماً مع عمار بن ياسر الذى ولاه الإمارة كتب إلى أهل العراق « وقد جعلت على بيت ما لكم عبد الله بن مسعود وآثرتكم به على نفسى » وقد يبعث إلى بعض الأقطار عاملا على الصلاة والحرب ويسميه أميراً ، وعاملا[1] على القضاء وبيت المال ويسميه معلماً ووزيراً كما فعل فى العراق ، أو يجمع للعامل بين الصلاة والخراج كعامل مصر . وتقسيم العمالات فى الشام يختلف عنه فى اليمن ، وعامل البحرين لا يكون كعامل اليمامة . وقد يبعث أناساً لمساحة الأرض ، وأناساً لتقدير الخراج ، وآخرين لإحصاء الناس ، وقال لعاملين له توليا مساحة العراق ووضع الخراج على سوادها : أخاف أن تكونا حملتما الأرض ما لا تطيقه ، لئن سلمنى الله لأدعن أرامل العراق لا يحتجن إلى رجل بعدى أبداً . وقال : اللهم إنى أشهدك على أمراء الأمصار ، فإنى إنما بعثتهم ليعلموا الناس دينهم وسنة نبيهم ويعدلوا عليهم ويقسموا فيئهم بينهم ، ويرفعوا إلىّ ما أشكل عليهم من أمورهم .

وكان يرزق العامل بحسب حاجته وبلده ، ولما استعمل زيد بن ثابت على القضاء فرض له رزقا ، وكان يرزق عامله على حمص عياض بن غنم كل يوم ديناراً وشاة ومدّا . وبعث إلى الكوفة عمار بن ياسر على الثغر ، وعثمان بن حنيف على الخراج ، وعبد الله بن مسعود على بيت المال . وأمر هذا أن يعلم

(١) كان المغيرة بن شعبة أول من سلم عليه بالأمرة وكانوا يكنون أمراءهم فقال : ينبغى أن يكون بين الأمير والرعية فرق ، وألزم أهل عمله أن يؤمروه ففعلوا واقتدى به سائر المسلمين فى أمرائهم « لطائف المعارف للثعالبى » .

الناس القرآن ويفقههم فى الدين ، وفرض لهم شاة كل يوم ، وجعل شطرها وسواقطها لعمار بن ياسر ، والشطر الآخر بين عبد الله بن مسعود وعثمان بن حُنيف . كان أبو بكر يساوى[١] بين الناس فى العطاء ولا يفضل أهل السابقة ويقول إنما عملوا لله فأجورهم على الله ، وإنما هذا المال عرض حاضر يأكله البر والفاجر وليس ثمناً لأعمالهم . وكان عمر يقول لا أجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه . ولم يقدر عمر الأرزاق إلا فى ولاية عمار فأجرى عليه ستمائة درهم مع عطائه لولاته وكتابه ومؤذنيه ومن كان يلى معه فى كل شهر . وكان عطاء عثمان بن حنيف خمسة آلاف درهم وأجرى على عبد الله بن مسعود مائة درهم فى كل شهر وربع شاة فى كل يوم ، وأجرى على شريح القاضى مائة درهم فى كل شهر وعشرة أجربة ، وإنما فضل عماراً لأنه كان على الصلاة . قال الحسن وكان عطاء سلمان خمسة آلاف وكان على زهاء ثمانين ألفاً من الناس . وأتاه[٢] عبد الله بن عمر السعدى فقال له عمر : ألم أحدث أنك تلى من أعمال المسلمين أعمالا فإذا أعطيت العمالة كرهتها فقال : بلى . فقال عمر : ما تريد إلى ذلك . فقال : إن لى أفراساً وأعبداً وأنا بخير وأريد أن تكون عمالتى صدقة على المسلمين . فقال عمر : لا تفعل فإنى كنت أردت الذى أردت ، وكان رسول الله يعطينى العطاء فأقول : أعطه أفقر إليه منى . فقال النبى : خذه فتموله وتصدق به ، فما جاءك من هذا المال من غير مسألة ولا إسراف فخذه ، ومالا فلا تتبعه نفسك .

كان عمر يأمر الناس بالتفقه فى الدين ، ويجد فى إرسال الفقهاء إلى الأمصار ، يفقهون المؤمنين ويعلمونهم دينهم . وقد لا يرسلهم إلا بعد أخذ رأيهم ، ولما أراد أن يرسل سعد بن عبيد ، وكان لا يسمى القارئ من الصحابة غيره قال له : هل لك فى الشام فإن المسلمين نزفوا وإن العدو قد ذأروا[٣]

---

(١) سراج الملوك للطرطوشى . (٢) تيسير الوصول لابن الديبع .

(٣) نزفوا نفروا وذأر عليه اجترأ .

عليهم ، وذلك بعد طاعون عمواس . وكان يقول حين خرج معاذ[1] ابن جبل إلى الشام : لقد أخل خروجه بالمدينة وأهلها بالفقه ، ولقد كنت كلمت أبا بكر رحمه الله أن يجلسه لحاجة الناس إليه فأبى على وقال : رجل أراد جهاداً يريد الشهادة فلا أجلسه .

وفى كتب عمر إلى قضاته وعماله كأبى موسى الأشعرى والقاضى شريح وأبى عبيدة ومعاوية وغيرهم قوانين فى الاشتراع والإدارة سنها للمسلمين لا تزال إلى يوم الناس هذا هى المعول عليها ، ورسالته فى القضاء إلى أبى موسى الأشعرى جمع فيها «جمل[2] الأحكام ، واختصرها بأجود الكلام ، وجعل الناس بعده يتخذونها إماماً ، ولا يجد محق عنها معدلا ، ولا ظالم عن حدودها محيصاً» ولقد قالوا : إذا[3] اختلف الناس فى أمر فانظر كيف قضى عمر ، فإنه لم يكن يقضى فى أمر لم يقض فيه قبله حتى يشاور . وكان أبداً يأخذ آراء أصحابه لا يقطع أمراً عظيما من دون استشارتهم ويقول : الرأى الفرد كالخيط السحيل ، والرأيان كالخيطين المبرمين ، والثلاثة مرار لا يكاد ينتقض . هذا ولو وضع علم عمر فى كفة كما قال ابن مسعود ، ووضع علم أحياء العرب فى كفة لرجح بهم علم عمر . وأنشد عمر ذات يوم شعر زهير بن أبى سلمى فلما بلغ قوله :

فإن الحق مقطعه ثلاث يمين أو نفار[4] أو جلاء

جعل يتعجب من علمه بالحقوق وتفصيله بينها ويقول : لا يخرج الحق من إحدى ثلاث ، إما يمين أو محاكمة أو حجة .

وكانت المدينة فى أيامه أشبه بمدرسة يتخرج فيها القضاة والعمال والقواد والأمراء فلا يبعث إلى الأمصار إلا من اختبره فى الجملة ، وقلما أخطأت فراسته فى الناس ، وهو المثل الأمثل فى جده . كان كعب بن سوار جالساً عند عمر فجاءته امرأة تشتكى زوجها فقال لكعب ، اقض بينهما ، فلما قضى بما

(١) طبقات ابن سعد . (٢) الكامل للمبرد . (٣) طبقات ابن سعد .

(٤) النفار تنافر إلى رجل يتبين حجج الخصوم ويحكم بينهم والجلاء أن ينكشف الأمر وينجلى فتعلم حقيقته فيقضى به لصاحبه دون خصام ولا يمين .

عجبه وما لم يخطر له ببال قال لكعب : اذهب قاضياً على البصرة . ساوم عمر بفرس فركبه ليشوره[١] فعطب فقال للرجل : خذ فرسك . فقال الرجل : لا . قال : اجعل بيني وبينك حكماً . قال الرجل شريح . فتحاكما إليه فقال شريح : يا أمير المؤمنين خذ ما ابتعت ، أو رد كما أخذت . فقال عمر : وهل القضاء إلا هكذا ، سر إلى الكوفة فبعثه قاضياً عليها . قالوا وإنه لأول يوم عرفه فيه . وبقي شريح قاضياً هناك ستين سنة .

ومن الفقهاء في أيامه أبو موسى الأشعري وسلمان بن ربيعة الباهلي ، وأبو قرة الكندي ، وأبو الدرداء ، وأبو سعيد الخدري ، وعبد الله ابن عباس . ومن عماله نافع بن عبد الحارث الخزاعي ، وسفيان بن عبد الله الثقفي ، وعبد الله ابن أبي ربيعة . وعبادة بن الصامت ، وشداد بن أوس ، وقتادة بن النعمان ، وعمير بن وهب بن خلف الجمحي ، وعتبة بن مسعود ، وعدي بن أبي الزغباء الجهمي ، وعويم بن ساعدة ، وسهيل بن رافع ، ومسعود بن أوس بن زيد الأنصاري ، وواقد بن عبد الله التميمي ، ومعاوية ابن أبي سفيان وغيرهم . من كل من هو فرد في علمه ، متميز بحسن سياسته وإدارته . كتب إلى أبي موسى الأشعري ، إنه لم يزل للناس وجوه يرفعون حوائج الناس فأكرم وجوه الناس ، فبحسب المسلم الضعيف من العدل أن ينصف في الحكم والقسمة . يعني أن عمر أوصى بالأعيان ، وإن كان يكره الشفاعة والوساطة . فقد توسط مولى عمر بأن يكتب كتاباً إلى عامله في العراق ليكرم أحد من قصدوا إليها فانتهره عمر وسبه وقال : أتريد أن يظلم الناس ، وهل هو إلا رجل من المسلمين يسعه ما يسعهم[٢] ؟

وكان ابن الخطاب يفحص أموراً لا تخطر ببال أحد : كتب إلى أبي موسى الأشعري « إني قد بعثت إليك مع غاضرة بن سمرة العنبري بصحف فإذا أتاك لكذا وكذا فأعطه مائتي درهم وإن جاءك بعد ذلك فلا تعطه شيئاً واكتب إليّ

---

(١) من شار الدابة شورا وشوارا راضها وقيل ركبها عند العرض على مشتريها وقيل اختبرها ينظر ما عندها . (٢) الأشراف لابن أبي الدنيا .

فى أى يوم قدم عليك ، يريد بذلك أن يعلم من يستعملهم الجد والاهتمام والحرص على الأوقات وضبط المواعيد ، هو يعطى من أرسله بالصحف مائتى جنيه إذا جد فوصل إلى البلد الذى عين له فى الأجل المضروب وإلا فيحرم أجرته . وكتب إلى حذيفة بعد ما ولاه المدائن وكثر المسلمات : أنه بلغنى أنك تزوجت امرأة من أهل المدائن من أهل الكتاب فطلقها . فكتب إليــه : لا أفعل حتى تخبرنى أحلال أم حرام ، وما أردت بذلك ؟ فكتب إليه : لا بل حلال ، ولكن فى نساء الأعاجم خلابة ، فإن أقبلتم عليهن غلبنكم على نسائكم . فقال : الآن نطلقها . هذا مع أن عمر كان يقول : ليس قوم أكيس من أولاد السرارى لأنهم يجمعون عز العرب ودهاء العجم . وكتب إلى أبى موسى الأشعرى[١] أيضاً : إذا أتاك هذا فاضرب كاتبك سوطاً واعزله عن عمله . وذلك أن كاتب أبى موسى كتب إلى عمر (من أبو موسى) وكان عليه أن يقول (من أبى موسى) . ودبر عام الرمادة (١٧–١٨) تدبيراً إدارياً ناجماً عند ما رأى الناس يهلكون من المجاعة ، فكتب إلى أمين أمراء مصر والشام والعراق أن يوافوه بالميرة فأتته القوافل تحمل طعاماً كثيراً وغيره ، فوسع على الناس ، وكان قطع الطعام عن نفسه وأطعم الجياع ، ولولا تدابيره هذه لهلك أهل الحجاز جميعهم .

ومن جملة تدابيره الإدارية أنه[٢] « حجر على أعلام قريش من المهاجرين الخروج من البلدان إلا بإذن وأجل ، فشكوه فبلغه ، فقام فقال : ألا إنى قد سننت الإسلام سن البعير يبدأ فيكون جـَذَعاً ثم ثنيا ثم رَباعياً ثم سَديساً ثم بازلا ، ألا فهل ينتظر بالبازل إلا النقصان ، ألا فإن الإسلام قد بزَل[٣]،

---

(١) فتوح البلدان للبلاذرى . (٢) تاريخ الطبرى . (٣) بزل البعير بزولا فطر نابه أى انشق بدخوله فى السنة التاسعة فهو بازل يستوى فيه الذكر والأنثى والجمع بوازل وبزل . والجذع قبل الثنى ، والجمع جذعان وجذاع بالكسر والأنثى جذعة والجمع جذعات وجذاع أيضاً . والثنى الذى ألقى ثنيته ويكون ذلك فى الظلف والحافر فى السنة الثالثة وفى الخف فى السنة السادسة والجمع ثنيان وثناء والأنثى ثنية والجمع ثنيات . والرباعى يطلق على الغنم فى السنة الرابعة وعلى البقر وذى الحافر فى الســنة الخامسة وعلى الخف فى السابعة . والسديس والبعير إذا ألقى سنه بعد الرباعية وذلك فى الثامنة فهو سديس .

ألا وإن قريشاً يريدون أن يتخذوا مال الله معونات دون عباده ، ألا فأما وابن الخطاب حى فلا ، إنى قائم دون شِعب الحرة آخذ بحلاقيم قريش وحجزها أن يتهافتوا فى النار » .

هذا مجمل من إدارة عمر ، وقد كان شديداً فى إقامة الحدود يقيمها على أقرب الناس إليه : حد فى الخمر ابنه ، وعاقب ابن عمرو بن العاص عامل مصر ، لأن أحد قبطها استعداه عليه . قال السائب بن يزيد كنا نؤتى بالشارب على عهد رسول الله وإمارة أبى بكر وصدر من خلافة عمر ، فنقوم إليه بأيدينا ونعالنا وأرجلنا وأرديتنا ، حتى كان آخر إمرة عمر فجلد أربعين ، حتى إذا عتوا وفسقوا جلدوا ثمانين . ولما ضعف نصاب الشهادة على المغيرة بالزنا سُرِّى عنه لأنه ما أراد أن يرجم أحداً من الصحابة[1] . وأراد أن يحد جبلة بن الأيهم من ملوك غسان لأن رجلا فزاريا[2] فى الحج وطىء على إزاره فلطمه جبلة فهشم أنفه ، وشكاه الفزارى فأراد عمر جبلة على أن يفتدى نفسه أو يأمر الرجل بلطمه ، فقال جبلة : كيف ذلك وأنا ملك وهو سوقة ؟ فقال : إن الإسلام جمعكما ، وسوى بين الملك والسوقة فى الحد ، ففر جبلة والتحق بالروم . وكان يساوى بين الناس فى القضاء مهما علت منزلتهم . وبلغه عن بعض عماله وهو فى الحرب أنه تعدى حداً من حدود الله فأغضى عنه لئلا يعتصم ببلاد الروم .

وكان يعرف أن الرسول قال : لأخرجن اليهود والنصارى من جزيرة العرب حتى لا أدع فيها إلا مسلماً ، فسكت عمر عنهم ، وراعى العهود التى أعطاها الرسول لهم ، ولما كان من جملة شروط نصارى نجران ألا يأكلوا الربا أمر بإجلائهم ، واشترى منهم أرضهم وأوصى بهم أهل الشام والعراق . ولما انطلق نصارى بنى تغلب هاربين من الجزية أضعفها عليهم[3] وشرط عليهم ألا يُنَصِّروا أولادهم ، ولم يسمع لقول أحد بنى تغلب أنهم قوم عرب يأنفون من الجزية وهم قوم لهم نكاية ، وقوله له مهدداً : لا تعن عدوك عليك . وكان

(١) فتوح البلدان للبلاذرى . (٢) تاريخ أبى الفداء . (٣) المعارف لابن قتيبة

يتحامى استعمال النصارى وعرضوا عليه كتاباً منهم فأبى أن يستعملهم . وكان إذا أراد[1] أن يأمر المسلمين بشيء أو ينهاهم عن شيء مما فيه صلاحهم بدأ بأهله وتقدم إليه بالوعظ لهم ، والوعيد على خلافهم أمره . وما كان يميز أحداً من آل بيته فى شيء ، وربما هضم بعض حقهم وأعطاه من هو أجدر منهم . قسم[2] عمر مرطا[3] بين نساء المدينة فبقى فيها مرط جيد فقال له بعض من عنده يا أمير المؤمنين ، أعط هذا ابنة رسول الله التى عندك[4] فقال : أم سليط أحق به فإنها ممن بايع رسول الله، وكانت تزفر[5] لنا القرب يوم أحد . وقال أحدهم لعمر اتق الله يا أمير المؤمنين فقال : لا خير فيكم إن لم تقولوها لنا ، ولا خير فينا إذا لم نقبلها منكم . وردت عليه امرأة فرجع إليها وقال : رجل أخطأ وامرأة أصابت .

وكان لا يقرب الشعراء ولكنه يجرى عليهم رزقاً يكفيهم . كتب مرة إلى المغيرة بن شعبة أن استنشد من قبلك من الشعراء ما قالوا فى الجاهلية والإسلام[6] فأرسل إلى الأغلب العجلى فقال إنه على استعداد لأن ينشده ، ثم أرسل إلى لبيد ابن ربيعة فقال أنشدنى : فقال إن شئت أنشدتك مما عفى عنه شعر الجاهلية قال : لا ، أنشدنى ما قلت فى الإسلام ، فانطلق إلى أديم فكتب فيه سورة البقرة فقال : أبدلنى الله مكان الشعر هذا . قال : فكتب بذلك إلى عمر فكتب إليه عمر : إنه لم يعرف أحد من الشعراء حق الإسلام إلا لبيد بن ربيعة فانقص من عطاء الأغلب خمسمائة واجعلها فى عطاء لبيد .

ونهج عمر لمن يخلفه النهج الذى يجب السير عليه فى تدبير الملك . وأوصى الخليفة بعده أن يقر عماله سنة فيما قيل ، وأوصاه[7] بتقوى الله لا شريك له وبالمهاجرين الأولين خيراً ، وأن يعرف لهم سابقتهم ، وأوصاه بالأنصار خيراً يقبل من محسنهم ويتجاوز عن مسيئهم وأوصاه بأهل الأمصار خيراً فإنهم

(١) تاريخ الطبرى . (٢) تيسير الوصول لابن الديبع . (٣) المرط كساء من خز أو صوف يؤتزر به . (٤) يريد أم كلثوم بنت على . (٥) تزفر القرب تخيطها . (٦) الإشراف لابن أبى الدنيا . (٧) البيان والتبيين للجاحظ .

ودء العدو وحياة الفيء ، وأن لا يحمل فيئهم إلا عن فضل منهم ، وأوصاه بأهل البادية خيراً فإنهم أصل العرب ومادة الإسلام ، وأن يأخذ من حواشي أموال أغنيائهم فيرده على فقرائهم ، وأوصاه بأهل الذمة خيراً وأن يقاتل من ورائهم ولايكلفهم فوق طاقتهم ، إذا أدوا ما عليهم للمؤمنين طوعاً أو عن يد وهم صاغرون ، وأوصاه بالعدل في الرعية والتفرغ لحوائجهم وثغورهم وأن لا يؤثر غنيهم على فقيرهم ، وأن يشتد في أمر الله وحدوده ومعاصيه على قريب الناس وبعيدهم ، ثم لا تأخذه في أحد رأفة حتى ينتهك منه مثل ما انتهك من حرم الله ، ويجعل الناس عنده سواء لا يبالي على من وجب الحق ، ثم لا تأخذه في الله لومة لائم ، وأوصاه أن لا يرخص لنفسه ولا لغيره في ظلم أهل الذمة ، ونشده الله أن يرحم جماعة المسلمين ، ويجل كبيرهم ، ويرحم صغيرهم ، ويوقر عالمهم ، وأن لا يضربهم فيذلوا ، ولا يستأثر عليهم بالفيء فيغضبهم ولا يحرمهم عطاياهم عند محلها فيفقرهم ، ولا يجمّرهم في البعوث فيقطع نسلهم ، ولا يجعل المال دُولة بين الأغنياء منهم ، ولا يغلق بابه دونهم فيأكل قويهم ضعيفهم .

إدارة عثمان بن عفان :

حافظ عثمان بن عفان على الأوضاع التي وضعها عمر ، وكان أول كتبه إلى أمراء الأجناد : « قد وضع لكم عمر ما لم يغب عنا بل على ملأمنا ، ولا يبلغني عن أحد منكم تغيير ولا تبديل ، فيغير الله ما بكم ويستبدل بكم غيركم » . وكان أول كتبه إلى عماله : « فإن الله أمر الأئمة أن يكونوا رعاة ، ولم يتقدم إليهم أن يكونوا جباة ، وإن صدر هذه الأمة قد خلقوا رعاة ولم يخلقوا جباة ، وليوشكن أئمتكم أن يصيروا جباة ولا يكونوا رعاة ، فإذا عادوا كذلك انقطع الحياء والأمانة والوفاء ، ألا إن أعدل السيرة أن تنظروا في أمور المسلمين وفيما عليهم ، فتعطوهم مالهم وتأخذوا ما عليهم ، ثم تثنوا بالذمة فتعطوهم الذي لهم وتأخذوهم بالذي عليهم » . وكتب إلى عمال الخراج : « أما بعد فإن الله خلق الخلق بالحق ، فلا يقبل إلا الحق ، خذوا الحق وأعطوا

الحق ، والأمانة الأمانة قوموا عليها ، ولا تكونوا أول من يسلبها فتكونوا شركاء من بعدكم إلى ما اكتسبتم ، والوفاء الوفاء لا تظلموا اليتيم ولا المعاهد فإن الله خصم لمن ظلمهم » وكتب فى الأمصار أن يوافيه العمال فى كل موسم ومن يشكوهم . وكتب إلى الناس فى الأمصار : « إن ائتمروا بالمعروف وتناهوا عن المنكر ، ولا يذل المؤمن نفسه ، فإنى مع الضعيف على القوى ما دام مظلوماً إن شاء الله » . وكان كصاحبيه لا يسكت عن حد من الحدود ولا يتساهل مع من يرتكب المحظورات . ابتاع حمدان بن أبان ، وعلمه الكتاب ، واتخذه كاتباً ، ثم وَجَد عليه لأنه كان وجهه للمسألة عما رفع على الوليد بن عقبة ، فارتشى منه وكذب ما قيل فيه . فتيقن عثمان صحة ذلك ، فقال : لا تساكنى أبداً وخيره بلداً يسكنه غير المدينة .

واعتمد عثمان لأول ولايته فى مشورته على من اعتمد عليهم الشيخان من قبل ، وفى الولايات على بعض من كانوا عمالا لعمر ، ثم على أناس من أهله وعشيرته ، وممن اعتمد عليهم مروان بن الحكم . وكان مروان فى ولايته على المدينة يجمع أصحاب الرسول يستشيرهم ويعمل بما يجمعون عليه . ولم يكن عثمان مبتدعاً بل كان متبعاً ، تبع سيرة العمرين فى الحكومة[1] . وما عزل أحداً إلا من شكاة أو استعفاء من غير شكاة ، وكثر المال فى أيامه فكان لا يتوفر فى إنفاقه . قيل إنه باع غنائم إفريقية بخمسمائة ألف دينار وأعطاها مروانا ولم يطالبه بها ، ولم يزل المال متوفراً حتى لقد بيعت الجارية بوزنها ورقاً ، وبيع الفرس بعشرة آلاف دينار ، وبيع البعير بألف والنخلة الواحدة بألف . وأعطى عبد الله بن الأرقم وكان عمر استعمله على بيت المال ثلثمائة ألف درهم فأبى أن يقبلها وقال : عملت لله وإنما أجرى على الله .

وكان عثمان جواداً يحث عماله على الجود ، قدم المدينة ابن خاله عبد الله بن عامر فاتح خراسان وأطراف فارس وسجستان وكرمان وزابلستان وهى أعمال

---

(١) يقولون العمران لأبى بكر وعمر لأن أهل الجمل نادوا بعلى بن أبى طالب : أعطنا سنة العمرين ، وعمر اسم مفرد لا كأبى بكر وإنما طلبوا الخفة « الكامل للمبرد » .

غزنة فقال له عثمان : صل قرابتك وقومك . ففرق فى قريش والأنصار شيئاً عظيما من الأموال والكسوات[١] . وأرسل إلى على بن أبى طالب[٢] بثلاثة آلاف درهم وكسوة ، فلما جاءته قال : الحمد لله أنا نرى تراث محمد يأكله غيرنا . فبلغ ذلك عثمان فقال لابن عامر : قبح الله رأيك أترسل إلى على بثلاثة آلاف درهم ؟ قال : كرهت أن أغرق ولم أدرما رأيك قال : فأغرق . قال : فبعث إليه بعشرين ألف درهم وما يتبعها . قال : فراح على إلى المسجد فانتهى إلى حلقة وهم يتذاكرون صلات ابن عامر ، هذا الحى من قريش . فقال على : هو سيد فتيان قريش غير مدافَع وكان ذلك من سياسة عثمان وحسن إدارته .

ومن ذلك أن عامله على الكوفة كتب إليه أن أهل الكوفة قد اضطرب أمرهم ، وغلب أهل الشرف منهم والبيوتات والسابقة والقدمة ، والغالب على تلك البلاد روادف ردفت وأعراب لحقت حتى ما ينفر إلى ذى شرف ولا بلاء من نازلتها ولا نابتتها ، فكتب إليه عثمان : أما بعد ففضل أهل السابقة والقدمة ممن فتح الله عليه تلك البلاد ، وليكن من نزلها بسببهم تبعاً لهم ، إلا أن يكونوا تثاقلوا عن الحق وتركوا القيام به وقام به هؤلاء ، واحفظ لكل منزلته ، وأعطهم جميعاً قسطهم من الحق فإن المعرفة بالناس بها يصاب العدل . اهـ .

وكانت[٣] مغازى أهل الكوفة فى زمنه الرى وآذربيجان ، وكان بالثغرين عشرة آلاف مقاتل من أهل الكوفة ستة آلاف بآذربيجان ، وأربعة بالرى ، وكان بالكوفة إذ ذاك أربعون ألف مقاتل ، وكان يغزو هذين الثغرين منهم عشرة آلاف فى كل سنة ، فكان الرجل يصيبه فى كل أربع سنين غزوة .

وضعفت الإدارة فى النصف الأخير من عهد عثمان لشيخوخته ، ولأنه لا يستطيع من كان فى سنه أن ينظر فى جميع المسائل ، واشتغل بعض كبار العمال بأطماعهم فى الولايات ، وشاغب المحرومون على المنصوبين ، وكثيراً ما كان يصر على تنفيذ أوامره لا يبالى كثيراً بالشكاوى . لعلمه بأنها صادرة

(١) أسد الغابة لابن الأثير . (٢) طبقات ابن سعد .
(٣) تاريخ الطبرى .

على الأكثر عن أغراض شخصية ، وما نفع اللين ولا الشدة يوم حم القضاء فكان من قتله ما كان .

ومن عمال عثمان عبد الله بن الحضرمى ، والقاسم بن ربيعة ، وعبد الله بن عامر وحبيب بن مسلمة الفهرى ، وأبو الأعور الأسلمى ، وعلقمة بن حكيم ، وجابر بن فلان المزنى وسماك الأنصارى ، والقعقاع بن عمر ، وجرير بن عيلان ، والأشعث بن قيس ، وعتيبة بن النهاس ، ومالك بن حبيب ، وسعيد بن قيس ، والسائب بن الأقرع ، وعقبة بن عامر ، ومعاوية بن أبى سفيان ، والغالب عليه مروان بن الحكم ، وكان عثمان ست سنين فى ولايته وهو أحب إلى الناس من عمر بن الخطاب ، وكان عمر رجلا[1] شديداً قد ضيق على قريش أنفاسها ، لم ينل أحد معه من الدنيا شيئاً ، إعظاماً له وإجلالا ، وتأسيا به واقتداء ، فلما وليهم عثمان وليهم رجل لين . ثم أنكر الناس عليه أشياء أشرا وبطرا . قال ابن عمر : لقد عيبت عليه أشياء لو فعلها عمر ما عيبت عليه .

إدارة على بن أبى طالب :

أما طريقة على بن أبى طالب فكانت أيضاً فى الإدارة طريقة من سبقوه إلى الإمامة : يولى العامل ويطلق يده على الجملة ويكشف حاله ، ويدعو عماله إلى التبلغ بميسور العيش والرفق بالرعية ، ويضع لهم المنهاج الذى يسيرون عليه . أوصى أحد عماله بأهل عمله فقال : إذا قدمت عليهم فلا تبيعن لهم كسوة شتاء ولا صيفاً ، ولا رزقاً يأكلونه ولا دابة يعملون عليها ، ولا تضرب أحداً منهم سوطاً واحداً فى درهم ، ولا تقمه على رجله فى طلب درهم ، ولا تبع لأحد منهم عرضاً فى شىء من الخراج ، فإنما أمرنا أن نأخذ العفو منهم . ومما كتبه إلى الأشتر النخعى : وتفقد أمر الخراج بما يصلح أهله فإن فى إصلاحه

---

(١) الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة .

وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم ، ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم . لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله ، وليكن نظرك فى عمارة الأرض أبلغ من نظرك فى استجلاب الخراج ، لأن ذلك لا يدرك إلا بالعمارة ، ومن طلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد ولم يستقم أمره إلا قليلا . . . وإنما يؤتى خراب الأرض من إعواز أهلها ، وإنما يعوز أهلها لإشراف الولاة على الجمع ، وسوء ظنهم بالبقاء ، وقلة انتفاعهم بالعبر .

ومما جاء فى هذا الكتاب : ثم انظر فى أمور عمالك فاستعملهم اختباراً ولا تولهم محاباة وأثرة ، فإنهم جماع من شعب الجور والخيانة ، وتوخ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقدم فى الإسلام المتقدمة . فإنهم أكثر أخلاقاً ، وأصح أعراضاً ، وأقل فى المطامع إشرافاً ، وأبلغ فى عواقب الأمور نظراً ، ثم أسبغ عليهم الأرزاق فإن ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم ، وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم ، وحجة عليهم إن خالفوا أمرك ، أو ثلموا أمانتك ، ثم تفقد أعمالهم ، وابعث العيون من أهل الصدق والوفاء عليهم ، فإن تعاهدك فى السر لأمورهم حدوة لهم على استعمال الأمانة والرفق بالرعية ، وتحفظ من الأعوان فإن أحد منهم بسط يده إلى خيانة اجتمعت بها عليه عندك أخبار عيونك ، اكتفيت بذلك شاهداً فبسطت عليه العقوبة فى بدنه . . . وجاء فى هذا الكتاب أيضاً : ثم إن للوالى خاصة وبطانة فيهم استئثار وتطاول وقلة إنصاف فى معاملة ، فاحسم مادة أولئك بقطع أسباب تلك الأحوال ، ولا تقطعن لأحد من حاشيتك وحامتك[1] قطيعة ، ولا يطمعن منك فى اعتقاد عقدة تضر بمن يليها من الناس فى شرب أو عمل مشترك يحملون مؤنته على غيرهم .

ومن وصية لعلى بن أبى طالب كان يكتبها لمن يستعمله على الصدقات ، وهى أشبه بالأوامر العامة : « انطلق على تقوى الله وحده لا شريك له ، ولا ترو عن مسلماً ، ولا تجتازن عليه كارهاً ، ولا تأخذن منه أكثر من حق

(١) الحامة بتشديد الميم الخاصة .

الله فى ماله . فإذا قدمت على الحى فانزل بمائهم ، من غير أن تخالط أبياتهم . ثم امض إليهم بالسكينة والوقار ، حتى تقوم بينهم فتسلم عليهم ، ولا تخدج[1] بالتحية لهم ، ثم تقول : عباد الله أرسلنى إليكم ولى الله وخليفته ، لآخذ منكم حق الله فى أموالكم ، فهل لله فى أموالكم من حق فتؤدوه إلى وليه ؟ فإن قال قائل : لا . فلا تراجعه ، وإن أنعم لك منعم فانطلق معه من غير أن تخيفه ، أو توعده ، أو تعسفه أو ترهقه . فخذ ما أعطاك من ذهب أو فضة . فإن كان له ماشية أو إبل فلا تدخلها إلا بإذنه ، فإن أكثرها له ، فإذا أتيتها فلا تدخل عليها دخول متسلط عليه ، ولا عنيف به ، ولا تنفرن بهيمة ولا تفزعنها ، ولا تسوأن صاحبها فيها ، واصدع المال صدعين ثم خيره ، فإذا اختار فلا تعرضن لما اختاره ، ثم اصدع الباقى صدعين ثم خيره فإذا اختار فلا تعرض لما اختاره ، فلا تزال كذلك حتى يبقى ما فيه وفاء لحق الله فى ماله ، فاقبض حق الله منه ، فإن استقالك فأقله ، ثم اخلطهما ثم اصنع مثل الذى صنعت أولا حتى تأخذ حق الله فى ماله ، ولا تأخذن عَوْداً[2] ولا هرمة ولا مكسورة ولا مهلوسة[3] ولا ذات عوار ، ولا تأمن عليها إلا من تثق بدينه ، رافقاً بمال المسلمين حتى يوصله إلى وليهم فيقسمه بينهم . ولا توكل بها إلا ناصحاً شفيقاً وأميناً حفيظاً ، غير معنف ولا مجحف ولا مُغلب ولا مُتعب[4] . ثم احدُر إلينا ما اجتمع عندك فصيره حيث أمر الله ، فإذا أخذها أمينك فأوعز إليه أن لا يحول بين ناقة وبين فصيلها ، ولا يمصر[5] لبنها فيضر ذلك بولدها ، ولا يجهدنها ركوباً ، وليعدل بين صواحباتها فى ذلك وبينها ، وليرفه على اللاغب ، وليستأن بالنقب والظالع[6] ، وليوردها ما تمر به من الغُدُر ، ولا يعدل بها عن نبت الأرض إلى جوَاد الطرق . وليروحها فى الساعات ، وليمهلها عند

(١) لا تنقص . (٢) العود المسن من الإبل . (٣) المهلوسة المريضة قد هلسها المرض وأفنى لحمها . والعوار العيب . (٤) المعنف ذو العنف بالغنم وهو ضد الرفق ، والمجحف الذى يسوق المال سوقاً عنيفاً فيجحف به أى يهلكه ، والمغلب المتعب واللغوب الإعياء . (٥) المصر : حلب ما فى الضرع جميعه . (٦) الظالع الذى ظلع أى غمز فى مشيه ، والنقب ذو النقب وهو رقة خف البعير حتى تكاد الأرض تجرحه .

النطاف[١] والأعشاب ، حتى تأتينا بإذن الله بدنا منقيات[٢] غير متعبات ولا مجهودات ، لنقسمها على كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وآله فإن ذلك أعظم لأجرك وأقرب لرشدك إن شاء الله » .

ومن كتاب له إلى بعض عماله وفيه جماع سياسة المخالفين والموافقين إذاجعله كل عامل دستوره فى عمله قال : أما بعد فإن دهاقين[٣] أهل بلدك شكوا منك غلظة وقسوة واحتقاراً وجفوة ، ونظرت فلم أرهم أهلا لأن يُدْنَوا لشركهم ، ولا أن يقصوا ويجفوا لعدهم ، فالبس لهم جلباباً من اللين تشوبه بطرف من الشدة ، وداول لهم بين القسوة والرأفة ، وامزج لهم بين التقريب والإدناء ، والإبعاد والإقصاء إن شاء الله . وكتب إلى زياد وكان عامله على فارس : أما بعد فإن رسولى أخبرنى بعجب ، زعم أنك قلت له فيما بينك وبينه أن الأكراد هاجت بك فكسرت عليك كثيراً من الخراج وقلت له : لا تعلم بذلك أمير المؤمنين . يا زياد وأقسم بالله إنك لكاذب ، ولئن لم تبعث بخراجك لأشدن عليك شدة تدعك قليل الوفر ، ثقيل الظهر ، إلا أن تكون لما كسرت من الخراج محتملا . وكتب إلى كعب بن مالك : أما بعد فاستخلف على عملك ، واخرج فى طائفة من أصحابك ، حتى تمر بأرض كورة السواد فتسأل عن عمالى ، وتنظر فى سيرتهم فيما بين دجلة والعذيب .

قال اليعقوبى[٤] : إن علياً حكم بأحكام عجيبة حتى إنه حرق قوماً ودخن على آخرين ، وقطع بعض أصابع اليد فى السرقة ، وهدم حائطاً على اثنين وجدهما على فسق ، وكان يقول : استتروا ببيوتكم والتوبة وراءكم ، من أبدى صفحته للحق هلك ، إن الله أدب هذه الأمة بالسوط والسيف ، وليس لأحد عند الإمام هوادة .

وكان على[٥] يقسم الا فى بيت المال كل جمعة حتى لايترك فيه شيئاً . ودخل

(١) النطاف جمع نطفة وهى الماء الصافى القليل . (٢) البدن بالتشديد السمان واحدها بادن ومنقيات ذوات نقى وهو المخ فى العظم والشحم فى العين من السمن وأنقت الإبل وغيرها سمنت وصار فيها نقى وناقة منقية وهذه الناقة لا تنقى . (٣) أرباب الأملاك من العجم .
(٤) تاريخ اليعقوبى . (٥) تاريخ أبى الفداء .

مرة إلى بيت المال فوجد الذهب والفضة فقال : يا صفراء اصفرّى ، ويا بيضاء ابيضى وغُرّى غيرى ، لا حاجة لى فيك . وقال أيها الناس أعينوا على أنفسكم فإن السبعة ، أو قال التسعة ، يكونون فى القرية فيحيونها بإذن الله عز وجل ، ولولا أن يضرب بعضكم وجوه بعض لقسمت هذا السواد بينكم . وانتهى إليه أن أحد عماله يفرق وينهب الأموال وكان عليها ، ولامه أن قسم فىء المسلمين فى قومه ومن اعتراه من السألة والأحزاب وأهل الكذب من الشعراء كما يقسم الجوز ، فأجابه عامله إنه منذ ولى العمل لم يرزأ من عمله ديناراً ولا درهما ولا غيرهما ، وأن العزل أهون عليه من هذه التهمة . وقال على : لئن بقيت لنصارى بنى تغلب لأقتلن المقاتلة ولأسبين الذرّية ، فإنى كتبت الكتاب بينهم وبين رسول الله على أن لا ينصّروا أولادهم . ورأى علىّ دارا للقاضى شريح عمرها فقومت عليه بثمانين ديناراً فوعظه وبكته ضمنا ، مع أنه كان يرزق خمسمائة درهم ، وكان يقبل الهدية ويكافئ بمثلها .

ومن مجموع هذه الفقرات من كتب على بن أبى طالب عرفنا منزعه فى تدبير الملك ، وشدته على من من يطيل يده بالأذى إلى الرعية وإلى أموال الدولة ، وكان هدية هدى أصحابه الثلاثة من قبل وما خالف على عمر ولا غير شيئاً مما صنع وقال : إن عمر كان رشيد الأمر ولن أغير شيئاً صنعه[1] عمر ولكن التوفيق أخطأه ، فاستغرقت أيامه فى الفتن ، أكثر من التنظيم والإدارة ، وفقد الاستقرار فى البلاد للنزاع الذى قام بينه وبين خصومه . قال الجاحظ : لا يعلم رجل فى الأرض متى ذكر السبق فى الإسلام والتقدّم فيـــه ، ومتى ذكرت النخوة والذب عن الإسلام ، ومتى ذكر الفقه فى الدين ، ومتى ذكر الزهد فى الأمور التى يتناصر الناس عليها ، كان مذكوراً فى هذه الخلال كلها إلا على .

ومن عماله عبد الله بن عباس وكان واليه على البصرة وإليه الصدقات والجند والمعاون وقُثَم بن العباس وعبيد الله بن عباس وأبو الأسود الدؤلى وسهل بن حنيف وغيرهم .

---

(١) الخراج ليحيى بن آدم .

إدارة الأمويين

الإدارة على عهد معاويه بن أبى سفيان :

ما عرفت للحسن بن على طريقة فى الإدارة لأنه لم يطل أمره غير بضعة أشهر وذلك فى العراق والحجاز ، أما سائر الأقطار فكانت فى يد معاوية ولكن عبد الله بن عباس من أعظم أنصار على كتب إلى الحسن أن يولى أهل البيوتات والشرف يستصلح بهم عشائرهم حتى تكون الجماعة ، فإنه بعض ما يكره الناس — ما لم يتعد الحق وكانت عواقبه تدعو إلى ظهور العدل وعز الدين — خير من كثير مما يحبون إذا كانت عواقبه تدعو إلى ظهور الجور ووهن الدين .

وتولى الأمر معاوية ، وساعده على حسن إدارة الملك سابقة له من تجربة طويلة ، ابتدأت منذ كان كاتب وحى رسول الله يشهد روعة الرسالة ، فتثقف على أتم ما يكون من الكمال ، ورأى منه أبو بكر وعمر ما رآه منه صاحبهما من الغناء فولى الشام عشرين سنة تمرس[1] خلالها بالسياسة ، واتسع أمامه أفق جديد من النظر ، فأدهش من تولى أمرهم بحلمه ، وعلمه ، وثاقب رأيه ، وفرط دهائه ، وكان أبوه من قبل يعالج شؤون الناس ويتألفهم ويعرف ما يصلحهم ، وعنه أخذ معاوية شيئاً فى هذا المعنى ، والناشئ فى مثل هذه الأعمال يتحنك فى لإدارة ، ويكون إماماً فى صناعته .

حافظ معاوية على أصول الرسول والراشدين فى الإدارة ، وما حاد عنها إلا فيما قضت به المصلحة ودعا إليه المحيط الجديد ، مثل إخراج الإدارة من سذاجة البداوة إلى بحبوحة الحضارة ، وعرف فوائد الشورى فما كان يصدر فى المهمات إلا عن مشورة ، يرى من الطبيعى أن يأخذ بآراء أشراف

(١) تمرس وامترس بالشيء : احتك به وتمرس بالنوائب والخصومات : مارسها .

القوم ، وينزل على حكم[1] وفود البلاد ؛ وله ولآل بيته مجالس يعقدونها في المسجد الجامع ، تدور بحوثها على سياسة البلاد وحكمها في الأكثر ، ومجالس الأمويين أشبه بمجالس النواب والولايات والشيوخ .

كان معاوية يفض مشاكله بالحسنى ، يلين للناس ويشفع المجاملة بالإحسان يوليه كل ناب[2] نابه في قومه ، سيد مسود في أهله ، ولا تلين قناته لمن يحاول قلب الخلافة وإخراجها عن بيته بعد أن آلت إليه ، وما كان مع من يظلم رعاياه إلا شديداً ، ويستميل القلوب بالعطاء وبالإقناع أو بالإغضاء أو بالمجادلة بالتي هي أحسن ، وبلغ من سعة الصدر ووافر الحلم أن ضرب المثل بحلمه ، وكان إذا لم تنجح في الناس وسائله اللينة ، يعمد بعد التماس كل حيلة إلى القوة ، وهو القائل « لا أضع سيفي حيث يكفيني سوطي ، ولا أضع سوطي حيث يكفيني لساني ، ولو أن بيني وبين الناس شعرة ما انقطعت » ، وقيل وكيف ذاك ؟ قال : « كنت إذا مدوها خليتها ، وإذا خلوها مددتها » وقال : إني لا أحول بين الناس وبين ألسنتهم ما لم يحولوا بيننا وبين سلطاننا . ومن المستحيل كم[3] الأفواه أو تنطق بما يراد ، ورضا الناس غاية لا تدرك . فما دام الأمر يفض بالكلام ، ولا يقوم رجل جد يقلقل أمر الجماعة ، فالعالم أحرار في أقوالهم ، ومتى لجأوا إلى القوة وتطاولوا إلى الفتنة انكفأ عليهم بقوته ، وهمته منذ تولى الحكم مصروفة إلى سياسة الدولة ، وما عدا ذلك فالناس وما يختارون من الآراء والمذاهب ، وهو يستشير أرباب الرأي من أنصار دولته ، ولا يأتمن في إدارة الولايات والأعمال إلا الكفاة من آل بيته ، فإذا اتفق أن كان فلان ينزع إلى كذا أو يحب فلاناً من خصومه ، أو يغلظ في بيان رأي يخالفه ، فهذا مما لا يتعلق به كبير أمر عنده .

(١) خطط الشام للمؤلف .
(٢) الناب : سيد القوم ، والنابه : الفطن ذو النباهة .
(٣) كم البعير : شد فمه بالكمام والكمام كالكمامة ما يكم به فم الحيوان لئلا يعطس أو يأكل .

فالسياسة هى كل ما حصر فيه معاوية وكده ومن أجل توطيد دعائمها لجأ إلى طرق فى الدعوة مؤثرة ، فجعل القصاص أو الوعاظ فى المساجد والمعسكرات يدعون لدولته وينفرون من أعدائها ، وذلك لما رأى عليا(١) عند منصرفه من صفين قنت فى الصلاة ودعا على من خالفه . فوقع فى نفس معاوية أن يعامل علياً بالمثل ، وأمر من يقص بعد الصبح وبعد المغرب أن يدعو له ولأهل الشام ، وحمل الأمصار على احتذاء مثاله فى عاصمته ، فأحدث قصص الخاصة . وظل قصاص العامة يجتمع إليهم النفر من الناس ، يعظونهم ويذكرونهم ، ويقصون عليهم ما يرقق قلوبهم ، وكان القصاص إذا سلم الإمام من صلاة الصبح جلس فذكر الله وحمده ومجده وصلى على نبيه ، ودعا للخليفة ولأهله ولأهل بيته وجنوده ، وعلى أهل حربه وعلى الكفار كافة . ومن القصاص من كانوا يرفعون أيديهم فى قصصهم كما كان سُلَيم بن عتر قاص الجند زمان عمرو بن العاص .

ويقول من أمعنوا فى درس تاريخ معاوية إن دعوى سنّة لعن على(٢) ، عقبى كل خطبة(٣) ، لم يقم عليها دليل ثابت يركن إليه ، وما من أثر يدل على أن هذا اللعن تقدم مروان بن الحكم ، وبذلك يبرأ معاوية من هذه الوصمة . وجلب لعن الأمويين علياً من(٤) البغضاء المستترة أكثر مما نالهم من الفائدة

---

(١) القضاة والولاة للكندى .

(٢) كان اللعن منذ القرن الأول من أيسر ما يقابل به خصم خصمه وبعد انقضاء ثلاثة عشر قرناً وانطواء ذلك البساط بما عليه جملة ، لم تشتف صدور شيعة على من النيل من الراشدين والأمويين والعباسيين حتى كان لعنهم يعد من أصول المذهب ، وصار بعضهم ينعتون الشيخين بصنمى قريش ويقذفون بابنتيهما الطاهرتين . وأصبح اللعن سنة من سنن العباسيين ، يلعنون كل من حارب سلطانهم ، وقد عزم المعتضد على سب معاوية على المنابر فحذره وزيره من اضطراب العامة وأمر المعتمد بلعن ابن طولون على المنابر لما استأثر بولاية مصر والشام فلعن ببغداد وسائر العراق ، ولعن ابن طولون المعتمد على المنابر فى جميع أعماله بمصر ، وعمد إلى هذا اللعن السياسى بعض خلفاء بنى العباس . أما الإسلام فلم يجوز اللعن إلا على الكفار لا على التعيين . وقد وردت عدة آيات فى الكتاب العزيز فى لعن الظالمين والمنافقين إكباراً لفعلتهم فى خراب العمران ، وما يشاهد فى بعض الكتب من لعن بعض أهل القبلة وغيرهم فإنما هو من زيادات النساخ على ما حقق ذلك العارفون من العلماء .

(٣) الكامل للمبرد .   (٤) معلمة الإسلام : مادة أمية .

الحقيقية ، كما أخطأ معاوية بإطلاق يد زياد فى سياسة القمع فى العراق على صورة هائلة تخالف ما كانت عليه سياسة معاوية من اللين ، وكان عليه أن يطبق بنفسه هذه السياسة مباشرة . وانتشر لعن الطالبيين للأمويين ولعن الأمويين للطالبيين فى كل مكان ، وقد لعن الأمويون علياً على منابرهم نحو ألف شهر ، ولم تبطل هذه البدعة السيئة إلا فى عهد عمر بن عبد العزيز ، استعاض عنها بآية : « ربنا اغفر لنا ولأخواننا الذين سبقونا » إلى آخر الآية الشريفة وقيل بل جعل مكان ذلك : « إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر » . وقيل بل جعلهما جميعاً ، وكان العلويون يقنتون عقب الصلوات يلعنون بنى أمية يشفون بذلك نفوسهم الثائرة ، من أجل دماء مطلولة وطوائل[1] طويلة ، وملك مستأثر به .

واقتفى معاوية فعل عمر بن الخطاب فى العلم بأخبار رجاله ورعيته فانتظم له أمره ، وكذا كان زياد بن أبيه وعبد الملك والحجاج . قال الجاحظ : ثم لم يكن من هؤلاء أحد فى مثل هذه السياسة حتى ملك المنصور . ونقل عن زياد أن رجلا كلمه فى حاجة وجعل يتعرف إليه ويظن أن زياداً لا يعرفه فقال : أنا فلان بن فلان ، فتبسم زياد وقال له : أتتعرف إلى وأنا أعرف منك بنفسك ، والله إنى لأعرفك ، وأعرف أباك وأمك وأعرف جدك وجدتك ، وأعرف هذا البرد الذى عليك وهو لفلان وقد أعارك إياه ، فبهت الرجل وأرعد[2] حتى كاد يغشى عليه .

قلنا إن معاوية كان يتخير عماله من كفاة أهل بيته أو من غيرهم من رجال دولته وأنصار دعوته . وقد انتهى إلى علمه أن ابن أخته عبد الرحمن بن أم الحكم عامله على الكوفة قد أساء السيرة فى إمارته فعزله وأقصاه عن الحكم . وقيل إن سبب عزله أن عبد الله بن همام السلولى قال شعراً وكتبه فى رقاع ألقاها فى المسجد الجامع وهى :

ألا أبلغ معاوية بن صخر ... فقد خرب السواد فلا سوادا

(١) طل دمه هدره . والطوائل جمع طائلة وهى العداوة والترة .
(٢) أرعد : أخذته الرعدة (بفتح الراء أو كسرها) وهى الاضطراب يكون من الفزع وغيره .

أرى العمال أقساء علينا بعاجل نفعهم ظلموا العبادا
فهل لك أن تدارك ما لدينا وتدفع عن رعيتك الفسادا
وتعزل تابعاً أبداً هواه يخرب من بلادته البلادا
إذا ما قلت أقصر عن هواه تمادى فى ضلالته وزادا

وكان معاوية إذا أراد أن يولى رجلا من بنى حرب ولاه الطائف ، فإن رأى منه خيراً وما يعجبه ولاه مكة معها ، فإن أحسن الولاية وقام بما ولى قياماً حسناً جمع له معهما المدينة . فكان إذا ولى الطائف رجلا قيل هو فى أبى جاد : فإذا ولاه مكة قيل هو فى القرآن ، فإذا ولاه المدينة قيل هو قد حذق(١) . وأوصى أحد أقاربه ممن استعمله فقال : لا تبيعن كثيراً بقليل ، وخذ لنفسك من نفسك ، واكتف فيما بينك وبين عدوك بالوفاء ، تخف عليك المؤنة وعلينا منك ، وافتح بابك للناس . وقال لآخر : إذا أعطيت عهداً ففِ به ، ولا تخرجن منك أمراً حتى تبرمه ، فإذا خرج فلا يردن عليك ، ولا تطمعن أحداً فى غير حقه ، ولا تؤيسن أحداً من حق له . قواعد وضعها معاوية لعماله وفيها شىء من الأساليب لكف الناس بعضهم عن بعض ، وإرضاء كل واحد بحقه ، وتوفير ثقة الرعايا بولاتهم ، ليعتقدوا أنهم لا يكذبون وأنهم إذا قالوا فعلوا .

ومن يمن الدولة الأموية أن كانت لا تستعمل من العمال إلا من ثبتت كفايته ونجدته فى تأييد سلطانها ، يمحضونها النصح ولا يغفلون عن تعهد حال الناس وكشف ظلاماتهم ، واتخاذ الطرق المفضية إلى ما فيه ، راحتهم وهناؤهم ، وإذا تبرم أهل قطر بتدابير من وليهم ينقله الخليفة إلى قطر آخر يستعيض عنه أكفأ منه ، أو من كان على شاكلته أو ألين منه عريكة ، يريد عاملا حقيقياً للعمل ، لا عملا لعامل يرزقه ، يتطلب عاملا إذا عرضت له المعضلات أن يفتق له وجه الحيلة ما يتوجه له فيه وجه .

---

(١) تاريخ الطبرى .

أوعز زياد إلى والى خراسان أن يصطفى لمعاوية الصفراء والبيضاء فلا يقسم فى الناس ذهباً ولا فضة عملا بكتاب ورد عليه من الخليفة . فكتب والى خراسان إلى زياد : بلغنى ما ذكرت من كتاب أمير المؤمنين ، وإنى وجدت كتاب الله تعالى قبل كتاب أمير المؤمنين ، وإنه والله لو أن السماء والأرض كانتا رتقا[١] على عبد ثم اتقى الله جعل له مخرجاً والسلام . وقسم الفىء بين الناس من الذهب والفضة ، ولم ينفذ ما أمر به الخليفة من أمر يجحف بأرباب الاستحقاق فى العطاء من الجند والعمال ، ذلك لأنه رأى فى ولايته ما لم يره الخليفة ولا عامله الأكبر زياد . وكتب معاوية إلى عامله على مصر أن زد على كل رجل من القبط قيراطاً ، فكتب إليه كيف أزيد عليهم وفى عهدهم أن لا يزاد عليهم . وهذا مما يشعر بما كان للعامل الأمين فى عهد معاوية من الحرية فيما يرتئيه لإصلاح عمله . والإدارة فى قطر قد لا تصلح لقطر آخر . والحاضر يرى ما لا يراه الغائب .

قال زياد ما غلبنى أمير المؤمنين إلا فى واحدة ، طلبت رجلا فلجأ إليه وتحرّم[٢] به فكتبت إليه . إن هذا لفساد لعملى إذا طلبت رجلا لجأ إليك وتحرّم بك . فكتب إليه معاوية : إنه لا ينبغى أن نسوس الناس بسياسة واحدة فيكون مقامنا مقام رجل واحد ، ولكن تكون أنت للشدّة والغلظة ، وأكون أنا للرأفة والرحمة ، فيستريح الناس بيننا . وقديماً قالوا ، الدهاة أربعة ، معاوية للروية ، وعمرو بن العاص للبديهة ، والمغيرة بن شعبة للمعضلات ، وزياد لكل كبيرة وصغيرة . وقال بعضهم : دهاة العرب وذوو الرأى والمكيدة ، معاوية وعمرو والمغيرة وقيس بن سعد وعبد الله بن بديل بن ورقاء . وأربعة ممن ذكر دبروا ملك بنى أمية ، والآخران كانا من جماعة علىّ .

---

(١) الرتق : ضد الفتق والصدع وفى التنزيل كانتا رتقاً ففتقناهما أى مصمتين منضمتين لا فرجة بينهما .

(٢) يقال : تحرمت بطعامك ومجلسك ، أى حرم عليك منى بسببهما ما كان لك أخذه ، وتحرم فلان بفلان إذا عاشره ومالحه وتأكدت الحرمة بينهما .

علمنا أن معاوية ما كان يستخدم الحسام، إذا أجزأه[١] الكلام، رمى أهل مصر بعمرو بن العاص لأنهم اشتركوا في مقتل عثمان، ولما هلك ولى مصر أخاه عتبة بن أبي سفيان[٢]. وكان والى عمر على الطائف وصدقاتها وهو من بلغاء الخطباء، قيل لم يكن في بني أمية أخطب منه. فاشتد على أهل مصر وطأمن من جماحهم، وأدخل الرهبة على قلوبهم. ومن جملة ما خطبهم، وفيه نموذج من خطته وخطة أخيه، قوله: يا أهل مصر خفّ على ألسنتكم مدح الحق ولا تفعلونه، وذم الباطل وأنتم تأتونه، كالحمار يحمل أسفاراً أثقله حملها، ولم ينفعه علمها، وإني والله لا أداوى أدواءكم بالسيف، ولا أبلغ السيف، ما كفاني السوط، ولا أبلغ السوط ما كفتني الدرّة، ولا أبطئ عن الأولى، إن لم تصلحوا عن الأخرى، ناجزاً[٣] بناجز، ومن حذر كمن بشر، فدعوا قال ويقول، من قبل أن يقال فعل ويفعل، فإن هذا اليوم الذي ليس فيه عقاب، ولا بعده عتاب. وخطب الناس بمصر عن مَوْجِدة[٤] فقال: يا حاملي ألأم آنف[٥] ركبت بين أعين، إني إنما قلمت[٦] أظفاري عنكم ليلين مسي لكم، وسألتكم صلاحكم إذا كان فسادكم باقياً عليكم، فأما إذ أبيتم إلا الطعن على السلطان، والتنقص للسلف، فوالله لأقطعن بطون السياط على ظهوركم، فإن حسمت أدواءكم، وإلا فإن السيف من ورائكم، فكم من حكمة منا لم تعها قلوبكم، ومن موعظة منا صمت عنها آذانكم، ولست أبخل عليكم بالعقوبة، إذا جدتم بالمعصية، ولا أوئسكم من مراجعة الحسنى، إن صرتم إلى التي هي أبر وأتقى.

واستخلف عتبة هذا عاملا له على أهل مصر، وكانت له شدّة، فامتنع عليه بعض أهلها، فكتب إلى عتبة، فقدمها فدخل المسجد ورقى المنبر وقال: يا أهل مصر قد كنتم تعذرون ببعض المنع منكم، لبعض الجور عليكم، وقد

(١) أجزأ عنى: أغنى (٢) أسد الغابة لابن الأثير. (٣) الناجز والنجيز: الحاضر. (٤) الموجدة الغضب. (٥) الآنف: جمع أنف، تجمع على آناف وأنوف. (٦) قلم الظفر: قطع ما كان منه شيئاً بعد شيء.

وليكم من إن قال فعل فإن أبيتم درأكم[١] بيده ، فإن أبيتم درأكم بسيفه ، ثم جاء فى الآخر ما أدرك فى الأول : إن البيعة شائعة ، لنا عليكم السمع ، ولكم علينا العدل ، وأينا غدر فلا ذمة له عند صاحبه . فناداه المصريون من جانب المسجد « سمعاً سمعاً » فناداهم « عدلا عدلا » .

وكلما لمح عتبة شرارة الفتنة خطب القوم بما يطفئها من معين بلاغته . احتبست كتب معاوية حتى أرجف أهل مصر بموته ، ثم ورد كتابه بسلامته . فصعد عتبة المنبر والكتاب بيده وقال : يا أهل مصر ، قد طالت معاتبتنا إياكم بأطراف الرماح وظُبَات[٢] السيوف حتى صرنا شجىً فى لهواتكم[٣] ما تسبغنا حلوقكم ، وأقذاء[٤] فى أعينكم ما تطرف عليها جفونكم ، فحين اشتدت عرا الحق عليكم عقدا ، واسترخت عقد الباطل منكم حلا ، أرجفتم بالخليفة ، وأردتم توهين السلطان ، وخضتم الحق إلى الباطل ، وأقدم عهدكم به حديث فاربحوا أنفسكم إذا خسرتم دينكم ، فهذا كتاب أمير المؤمنين بالخبر السار عنه ، والعهد القريب منه ، واعلموا أن سلطاننا على أبدانكم دون قلوبكم ، فأصلحوا لنا ما ظهر نكلكم إلى الله فيما بطن ، وأظهروا خيراً وإن أسررتم شراً فإنكم حاصدون ما أنتم زارعون ، وعلى الله نتوكل وبه نستعين . ا ه .

وخطب عتبة فى الموسم فى سنة إحدى وأربعين ، وعهد الناس حديث بالفتنة ، فاستفتح ثم قال : « أيها الناس إنا قد ولينا هذا الموضع الذى يضاعف الله فيه للمحسن الأجر ، وعلى المسىء الوزر ، فلا تمدوا الأعناق إلى غيرنا ، فإنها تنقطع دوننا ، ورب متمن حتفه فى أمنيته ، اقبلوا العافية ما قبلناها منكم وفيكم » وقد عرفنا بهذه النموذجات من الخطب السياسية كيف أخذ بنو أمية

(١) درأه : دفعه شديداً . (٢) الظبة : حد السيف والسنان ونحوهما والجمع ظبات وظبى . (٣) اللهاة اللحمة المشرفة على الحلق فى أقصى سقف الفم وجمعها لهوات ولهيات ولهى . والشجى : ما اعترض فى الحلق من عظم ونحوه . (٤) القذى : ما يقع فى العين وفى الشراب من تبنة وغيرها .

يصفون البلاد من كدر الفتنة . وبعتبة وأمثاله أدخلوا الناس فى الطاعة ، وكانوا ركبوا رؤوسهم[١] فى الغوائل وأوغلوا ، وبعتبة وبأمثاله من العمال الذين كانوا يعملون للجماعة بعقولهم وقلوبهم ، دفعوا الناس إلى الانقطاع إلى أعمالهم ، واضطروهم إلى أن يتركوا الخوض فى سياسة الملك إلى من يحسن القيام عليها .

ومن نظر فى سيرة أولئك العمال يأخذه العجب من عفتهم عن الأموال ، وتبلغهم بالقليل ، وإنفاقهم بلا حساب ، لتأليف الشارد واستمالة الخصم المعاقد . ولى عمرو بن العاص الذى ولى مصر مرتين ، وجعلها له معاوية فى المرة الثانية طعمة بعد الإنفاق على مرافقها ، فلم تعد عليه هذه الطعمة بثروة تذكر . وما اشتد عمرو على أهل مصر اشتداد عتبة ، لأن هذا كان فى سن الكهولة وعمرو فى سن الشيخوخة . والشيوخ فى الإدارة أقرب إلى الحنكة[٢] والروية من الشباب على الأغلب . أما سائر عمال الدولة فكانوا بحسب الحال : على طريقة عتبة الناطقة أو على طريقة عمرو الصامتة .

رمى معاوية العراق بزياد بن أبى سفيان فخطب أهلها قائلا : حرام على الطعام والشراب حتى أسويها بالأرض هدماً وإحراقاً ؛ إياى ودلج[٣] الليل . فإنى لا أوتى بمدلج إلا سفكت دمه ، وإياى ودعوى الجاهلية ، فإنى لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعت لسانه ، وقد أحدثتم أحداثاً ، وأحدثنا لكل ذنب عقوبة ، فمن غرق قوماً أغرقته ، ومن أحرق قوماً أحرقته ؛ ومن نقب بيتاً نقبت عن قلبه ، ومن نبش قبراً دفنته فيه حياً ، فكفوا أيديكم وألسنتكم أكف عنكم ، وقد كانت بينى وبين أقوام أشياء قد جعلتها دبر أذنى وتحت قدمى ، فمن كان محسناً فليزدد ، ومن كان مسيئاً فلينزع . إنى لو علمت أن أحدكم قد قتله السل من بغضى لم أكشف له قناعاً ، ولم أهتك له ستراً ، حتى يبدى لى

(١) ركب رأسه : مضى على وجهه بغير روية . (٢) حنك وأحنك وتحنك الدهر الرجل : جعلته التجارب والأمور وتقلبات الدهر حكيماً والحنكة الاسم من حنكة الدهر .
(٣) الدلج : سير الليل كله أو فى آخره .

صفحته[١] ، فإذا فعل ذلك لم أناظره ، فأعينوا على أنفسكم وأتنفوا[٢] أمركم » ومعنى هذا أن زياداً أعلن فى العراق الإدارة العرفية العسكرية ، وصرح بأنه يتناسى ما سبق للقوم من الخطيئات للدولة ولنفسه ، إذا أحسنوا السيرة ، وأنه ينوى افتتاح عهد جديد يغاث فيه الناس ويستريح السلطان .

ومع هذه الشدة البادية فى كلام[٣] زياد كان يبعث إلى الجماعة منهم فيقول ما أحسب الذى يمنعكم من إتيانى إلا الرجلة[٤] فيقولون : أجل فيحملهم ويقول : أغشونى الآن واسمروا عندى . يحاول تألفهم والوقوف على آرائهم من طرف خفى ، والبعد جفاء ، والعامل مضطر إلى أن يعلم البواطن والظواهر ، ولا ميدان لالتقاط الفوائد إلا فى المجالس الخاصة . قال عمر بن عبد العزيز : « قاتل الله زياداً جمع لهم كما تجمع الذرة ، وحاطهم كما تحوط الأم البرة ، وأصلح العراق بأهل العراق وترك أهل الشام فى مشامهم وجبى العراق مائة ألف ألف وثمانيةعشر ألف ألف » .

كان زياد إذا ولى رجلا قال له : خذ عهدك وسر إلى عملك . واعلم أنك مصروف رأس سنتك ، وأنك تصير إلى أربع خلال فاختر لنفسك : إذا وجدناك أميناً ضعيفاً استبدلنا بقوتك لضعفك ، وسلمتك من موتنا أمانتك ، وإن وجدناك خائناً قوياً استهنا بقوتك ، وأحسنا على خيانتك أدبك فأوجعنا ظهرك ، وأثقلنا غرمك وإن جمعت علينا الجرمين ، جمعنا عليك المضرتين ، وإن وجدناك أميناً قوياً زدنا فى عملك ، ورفعنا لك ذكرك ، وأكثرنا مالك ، وأوطأنا[٥] عقبك . هذا مثال من أعمال عمال معاوية وما يريدون أن يكون عليه من يتصرفون للسلطان ليستقيم أمر لبلاد .

---

(١) صفحة الرجل : عرض صدره والصفحة الورقة والجنب ومن المجاز أبدى له صفحته كاشفه . (٢) أتنف واستأنف الشيء : أخذ فيه وابتدأه . (٣) الكامل للمبرد .
(٤) الرجلة المشى . (٥) يقال فلان موطأ العقب : أى كثير الاتباع .

وكان زياد يقول : استوصوا بثلاثة منكم خيراً : الشريف والعالم والشيخ ، فوالله لا يأتيني شيخ بشاب قد استخف به إلا أوجعته ، ولا عالم بجاهل استخف به إلا نكلت به ، ولا يأتيني شريف بوضيع استخف به إلا انتقمت له منه . قال زياد لحاجبه : كيف تأذن للناس ؟ قال : على البيوتات ، ثم على الأنساب ثم على الآداب ، قال فمن تؤخر ؟ قال : من لا يعبأ الله بهم . قال : ومن هم ؟ قال : الذين يلبسون كسوة الشتاء فى الصيف ، وكسوة الصيف فى الشتاء . وقال لحاجبه : وليتك حجابتى وعزلتك عن أربع : هذا المنادى إلى الله فى الصلاح والفلاح لا توقفه عنى ، ولا سلطان لك عليه ، وطارق الليل لا تحجبه فشرٌ ما جاء به ، ولو كان خيراً ما جاء فى تلك الساعة ، ورسول صاحب الثغر ، فإن أبطأ ساعة فسد عمل سنة ، وصاحب الطعام فإن الطعام إذا أعيد تسخينه فسد . قال العتبى : كان فى مجلس زياد مكتوب : « الشدة فى غير عنف ، واللين فى غير ضعف ، المحسن يجازى ، بإحسانه ، والمسىء يعاقب بإساءته ، الأعطيات فى أيامها ، لا احتجاب من طارق ولا صاحب ثغر » . وكان زياد يؤثر الأعمال على الأقوال لعلمه بأنها تنادى على نفسها . فقد بنى بالبصرة أحياء ودوراً ومساجد وحفر أنهاراً وترعاً وكل ما بنى فيها أو صنع فإنه نسب إلى غيره[1] .

ولم يزل زياد بالمداراة من يوم كان أميراً على فارس، وهى تضرم ناراً[2]، حتى عادوا إلى ما كانوا عليه من الطاعه والاستقامة ، لم يقف موقفاً للحرب . وكان أهل فارس يقولون ما رأينا سيرة أشبه بسيرة كسرى أنوشروان من سيرة هذا العربى فى اللين والمدارة والعلم بما يأتى . ولما قدم فارس بعث إلى رؤسائها فوعد من نصره ومناه ، وخوف قوما وتوعدهم ، وضرب بعضهم ببعض ، ودل بعضهم على عورة بعض ، وهربت طائفة وأقامت طائفة ، فقتل بعضهم بعضا ، وصفت له فارس فلم يلق فيها جمعاً ولا حرباً ، وفعل ذلك بكرمان ، هذا مع أن جماعة مقاتلة البصرة كانوا أيام زياد ثمانين ألفاً ،

(١) كتاب البلدان لابن الفقيه . (٢) تاريخ الطبرى .

وعيالهم مائة ألف وعشرين ألف عيل ، ومقاتلة الكوفة ستين ألفاً وعيالهم ثمانين ألفاً . وكان له فى البصرة ديوان اسمه ديوان جند العرب .

وقدم زياد العراق وهى جمرة تشتعل(١) فسل أحقادهم ، وداوى أدواءهم . وابنه عبد الله تولى العراق بعده ، وهو أول من عرف العرفاء ، ودعا الفقراء ، ونكب(٢) المناكب وحصل الدواوين ، ومشى بين يديه بالعمد ووضع الكراسى ، وعمل المقصورة ولبس الزيادى ، وربع الأرباع بالكوفة ، وخمس الأخماس بالبصرة ، وأعطى فى يوم واحد للمقاتلة والذرية من أهل البصرة والكوفة . وضبط زياد وابنه عبد الله العراق بأهل العراق . هكذا كانت أعمال العمال تسير على أجمل مثال .

كتب معاوية إلى سُلَيم بن عتر قاضى مصر يأمره بالنظر فى الجراح والحكم فيها ، وكان الرجل إذا أصيب فجرح بذلك الجرح فقصته على عاقلة(٣) الجارح ، ويرفعها إلى صاحب الديوان ، فإذا حضر العطاء اقتضى من أعطيات عشيرة الجارح ما وجب للمجروح وينجم(٤) ذلك فى ثلاث سنين . والقاضى سليم هذا أول من سجل فى مصر سجلا بقضائه ، وذلك أنه اختصم إليه فى ميراث فقضى بين الورثة ثم تناكروا فعادوا إليه ، فقضى بينهم وكتب كتاباً بقضائه ، وأشهد فيه شيوخ الجند ثم سجله . وكان من سياسة معاوية أن يحمى عماله الصادقين ، وما كان يقيد من عماله ويدى(٥) من بيت المال .

ابتكر معاوية فى الدولة أشياء لم يسبق أحد إليها ، منها أنه أول من(٦) وضع الحشم للملوك ، ورفع الحراب بين أيديهم ، ووضع المقصورة التى يصلى فيها

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه . (٢) نكب على قومه ينكب نكابة ونكوبا إذا كان منكباً لهم يعتمدون عليه ، والمنكب عريف القوم أو عونهم . (٣) العاقلة : العصبة الأقارب من قبل الأب أى بنو العم الأدنون الذين يعطون دية قتل الخطأ . (٤) نجم المال جعله نجوماً والنجم الوقت المضروب ، ونجمت المال — وزعته كأنك فرضته أن تدفعه عند طلوع كل نجم ثم أطلق النجم على وقته ثم على ما يقع فيه . (٥) أقاد القاتل بالقتيل : قتله به يقيده إقادة . واتدى فلان اتداء : أخذ الدية ولم يثأر بقتيله وأصله أوتدى . (٦) خطط الشام للمؤلف .

الخليفة منفرداً عن الناس . وهو أول مسلم غزا فى البحر وأنشأ الأسطول فى صناعة صور وطرابلس ، وغزا الروم ، ولما فتح قبرص ورودس كان معه ١٧٠٠ سفينة ، وأهم ما قام به تنظيم الجيش فضاعف عطاءه ، ووقت أوقاتاً لتناول أرزاق الجنـــد ، ووفق إلى استخدام أكبر رجال الإدارة وأعظمهم : زياد ثم عمرو بن العاص والمغيرة بن شعبة والضحاك بن قيس وأبو الأعور السلمى ومسلم بن عقبة وبشر بن أبى أرطاة وحبيب بن سلمة . وكان إذا لامه أهله على كثرة بذله المال للعلويين والهاشميين أجابهم أن الحرب تستلزم نفقات أكثر من هذا العطاء . وهو أول من وضع البريد ، أحضر رجالا من دهاقين الفرس وأهل عمال الروم فعرفهم ما يريد فوضعوا له البريد ، واتخذوا له بغالا بأكف كان عليها سفر البريد ، وكان لا يجهز عليه إلا الخليفة أو صاحب الخبر . وهو الذى اخترع ديوان الخاتم وحزم الكتب ولم تكن تحزم . واستكتب عبد الله بن أوس الغسانى سيد أهل الشام وجعل على كل قبيلة من قبائل مصر رجلا يصبح كل يوم فيدور على المجالس ، فيقول : هل ولد الليلة فيكم مولود ، وهل نزل بكم نازل ، فيقال ولد لفلان غلام ولفلان جارية فيكتب أسماءهم . ويقال نزل بهم رجل من أهل كذا بعياله فيسميه وعياله ، فإذا فرغ من القبيل أتى الديوان حتى يثبت ذلك . وعلى هذا كانت الدولة تحصى السكان ، ولا يفوتها خبر من يتنقل فى أرجاء البلدان .

واستخدم معاوية النصارى فى مصالح الدولة ، وكان عمر يمتنع من استخدامهم إلا إذا أسلموا ، فعهد إلى سرجون بن منصور ، ثم إلى ابنه منصور بن سرجون من نصارى الشام ، بإدارة أمواله . وكان منصور والد سرجون على المال فى الشام من عهد هرقل قبل الفتح ، ساعد المسلمين على قتال الروم بأن أبى أن يمسك الرجال بالمال[1] قائلا : إن الملك أى هرقل غير محتاج إلى هذا العسكر العظيم ، لأنه يحتاج إلى مال كثير وليس بدمشق مال عظيم ،

(١) خطط الشام للمؤلف .

قالوا إنه أراد بذلك أن يسمع الرجال أن ليس بدمشق مال يعطيهم ، فيتفرق الجند ويسلم المدينة إلى العرب ، أحب معاوية الانتفاع من كل قوة تستخدم فى قيام الدولة ، وتعين على انتظام الجماعة . ولما رحل جبلة بن الأيهم[1] إلى الروم وارتد عن إسلامه ، دعاه معاوية بن أبى سفيان إلى الرجوع إلى الإسلام ، ووعده إقطاع الغوطة بأسره ، يريد بذلك تلافى خطأ عمر بن الخطاب يوم أبى إلا إقامة الحد على جبلة فكان من ذلك فراره إلى الروم . و « كان آل جفنة عمال القياصرة على عرب الشام ، كما كان آل نصر عمال الأكاسرة على عرب العراق » .

وباتخاذ دمشق دار الخلافة بعد أن كانت دار إمارة الشام ، انتقلت سياسة الملك من المدينة فكثر سكان الفيحاء من العرب ، يقصدها طلاب العمل وغيرهم من الأقطار ، ويختص الخليفة أهل الشام بعنايته ، ويستعمل الصالحين من أهل الذمة فى أعماله الإدارية . ورأى النصارى أكثرية فى الشام وأنهم كثيراً ما تطالوا إلى الروم وداوهم على عورات البلاد ، فنقل إلى السواحل قوماً من زط البصرة والسيابجة ، وأنزل بعضهم أنطاكية ، وأصل الزط من السند يغلب السواد على سحناتهم ، ونقل قوماً من فرس بعلبك وحمص وأنطاكية إلى سواحل الأردن وصور ، ونقل من أساورة[2] البصرة والكوفة وفرس بعلبك وحمص إلى أنطاكية جماعة ، وأسكن حصن سفيان الذى بناه على أميال من طرابلس جماعة كثيرة من اليهود ، وجعل قنسرين وأنطاكية ومنبج وذواتها جنداً ، وبنى حصوناً فى الساحل . وأسكن الشام جمهرة من القبائل العربية فزجهم بأهلها الأصليين حتى يكون آمناً فى دار ملكه . وبعمله هذا أصبح الساحل الشامى غاصاً بالعجم والعرب ، وذلك تفادياً من أن يستأثر النصارى وحدهم بمفتاح البلاد من البحر ، وفى مزج العرب والفرس بسكان البلاد الأصليين يصبح كل عنصر رقيباً على العنصر الآخر ومنافساً له . ولما صالح صاحب قبرص خير أهلها بين أن يسكنوا الشام أو يرتحلوا إلى بلاد الروم .

---

(١) الأغانى للأصفهانى . (٢) الأساورة : قوم من العجم بالبصرة نزلوها قديماً كالأحامرة بالكوفة قيل أصل الأساورة أساوير والتاء عوض عن الياء كالزناديق والزنادقة .

ولئن غدت دمشق قبلة الإسلام ودار الملك ، فقد ظلت المدينة عاصمة الفقه والدين مدة خلافته وخلافة من خلفوه، وما جعل مقره فى الشام إلا لأن أهلها أحبوه لما بلوه ، وكفى بعهد إمارته عليهم أن يعرفهم ويعرفوه ، ويطبع طباعهم بطابع الطاعة والتزام جانب الجماعة . وخصلة أخرى أيضاً ، وهى أن دمشق متوسطة فى البلاد الإسلامية أكثر من الحجاز ، وفى الشام من الخيرات الطبيعية والأعمال الصناعية ما يمتار منه الجيش ويرتفق ، وما يترفه به العلية من رجال الدولة ويقوون ، ونحن على صواب إذا قلنا إن دمشق أصبحت فى عهد معاوية ثم فى عهد الخلفاء بعده مدرسة يتخرج فيها القواد والأمراء والجند .

ومن أهم ما قام به معاوية للتأثير فى الرأى العام حسن معرفته باستخدام الشعراء(١) وكان الشعراء كأرباب الصحافة فى هذا العصر ، فانتفع بهم لمصلحة الدولة ، وتكوين الوطنية العربية ، فأبعد الشعر عن الهجو المألوف بين القبائل وجعله أداة عمل صالحة . ولم يغفل معاوية فى وقت من الأوقات عن تعهد الزراعة وعنى بها فى الحجاز عناية خاصة ، فأحيا موات الأرضين ، واحتفر الآبار للسقيا ، وأقام أسداداً للانتفاع بالمياه ، وسرت أسرته ومعاصروه على طريقته ، فشهدت الحجاز قرناً من الارتقاء لم تره من بعد . هذا مع أن طبيعة الحجاز قاسية غير ملائمة ، ولكن الخليفة العاقل ما أحب لأهل الحجاز أن يعيشوا من العطايا والصدقات وموسم الحج، لأنها موارد غير طبيعية فى المعاش ، ومذاهب فى الاتكال لا يؤمن مع زوالها عيش ونعمة . وصالحت الروم معاوية على أن يؤدى إليهم مالا ، وارتهن معاوية منهم رهناء فوضعهم ببعلبك ، ثم إن الروم غدرت فلم يستحل معاوية والمسلمون قتل من فى أيديهم من رهنهم وخلوا سبيلهم ، وقالوا وفاء بغدر خير من غدر بغدر.

كان معاوية فى الإبداع بتأسيس دولة الأمويين كعمر بن الخطاب فى إبداعه بإنشاء دولة الراشدين ، ومع هذا فقد قيل إن أحد الصلحاء سئل أيام

(١) معلمة الإسلام ، مادة معاوية .

معاوية كيف تركت الناس قال: تركتهم بين مظلوم لا ينتصف وظالم لا ينتهى. كأنه يريد أن تكون إدارة الملك على عهد ابن أبى سفيان، كما كانت على عهد عمر بن الخطاب، وفاته أن لكل عصر طريقته ورجاله. والغالب أن البعيد لا يقدر الأمور بقدرها كالقريب، وأرباب الصلاح يتوهمون أن العدل المطلق يستفيض فى الناس بأمر من الخليفة أو بعناية عماله وحدهم، وأن كل خير لا يأتى إلا من السلطان. أما المحكومون فليس لهم كبير أثر فى إفاضة العدل فى العالم ولا تلحق بهم تبعة، والنقد سهل والصعوبة فى الإبداع.

قال المسعودى: — وهو مشهور بتشدده فى تشيعه — وأخبار معاوية وسياساته وما أوسع الناس من أخلاقه، وما أفاض عليهم من بره وعطائه، وشملهم من إحسانه مما اجتذب به القلوب، واسترعى به النفوس، حتى آثروه على الأهل والقرابات، وقد كان ائتم بأخلاقه جماعة بعده مثل عبد الملك ابن مروان وغيره فلم يدركوا حلمه، ولا إتقانه للسياسة، ولا التأنى للأمور، ولا مداراته للناس على منازلهم، ورفقه بهم، ورفعه لهم على طبقاتهم. وقال الطبرى: لما حضر معاوية أوصى بنصف ماله أن يرد إلى بيت المال، كأنه أراد أن يطيب له الباقى لأن عمر قاسم عماله.

إدارة يزيد ومعاوية الصغير ومروان وابنه عبد الملك:

عنى معاوية فى آخر أمره بتخريج يزيد ابنه وولى عهده، يستشيره فى المسائل الطارئة، ويأخذ برأيه أحياناً، ويبعث همته على العمل، ليتولى الأمر عن كفاية، ومشى يزيد فى إدارته على أثر أبيه، فكان لا يضن بالمال مهما عظم فى سبيل الخلافة. وفد عليه عبد الله بن جعفر فقال له: كم كان عطاؤك فقال له ألف ألف. قال قد أضعفناها لك. قال: فداك أبى وأمى، وما قلتها لأحد قبلك قال: أضعفناها لك ثانية — فقيل ليزيد: أتعطى رجلا واحداً

أربعة آلاف ألف. فقال : ويحكم إنما أعطيتها أهل المدينة أجمعين ، فما يده إلا عارية ، وما زال يزيد يزيد فى إعطائه لمنزلته ، ولأنه يريد أن يتألف بواسطته أهل المـــدينة ، ويرفع يد ابن الزبير عنها وعن دعوى الخلافة . وما أثر عن يزيد أنه غير شيئاً من أصول إدارة أبيه لاستغراق حرب الحسين ابن على فى العراق وعبد الله بن الزبير فى الحجاز معظم أوقاته . أما ابنه وخليفته معاوية الصغير أو الثانى فكانت خلافته أياما وما أراد أن يدخل فى شىء من مهامها .

كان مروان كمعاوية آية فى عقله وسياسته وتدبيره ، درس الإدارة زمناً طويلا فى الحجاز ، وعرف ما يفسد الناس ويصلحهم ، ولكن أمره لم يطل كثيراً ، وتستبين محاسنه فى تدبيره الملك مما وقع لابنه عبد العزيز معه ؛ فإن مروان لما ولى الخلافة جاء إلى مصر فأقام بها شهرين ثم جعل ولايتها إلى ابنه عبد العزيز ؛ جعل إليه صلاتها،وخراجها فقال عبدالعزيز[1]: يا أمير المؤمنين كيف المقام ببلد ليس به أحد من بنى أبى؟ فقال مروان : يا بنى عمهم بإحسانك يكونوا كلهم بنى أبيك ، واجعل وجهك طلقاً تصف لك مودتهم ، وأوقع إلى كل رئيس منهم أنه خاصتك دون غيره ، يكن عيناً لك على غيره[2] وينقد قومه إليك ، وقد جعلت معك أخاك بشراً مؤنساً ، وجعلت لك موسى بن نصير وزيراً ومشيراً ، وما عايك يا بنى أن تكون أميراً بأقصى الأرض ، أليس ذلك أحسن من إغلاق بابك وخمولك فى بيتك ؟

هكذا دبر مروان ابنه ليخرجه فى الإدارة ويعلمه حكم الناس ، جعل له موسى بن نصير وزيراً ، وهو ما هو بعلمه وعقله وحسن سياسته ؛ وفارق موسى أميره عبد العزيز بعد حين ذاهباً إلى أفريقية والمغرب ، فقضى على البربر والرومان ، ثم فتح الأندلس . أما بشر بن مروان مؤنس أخيه يوم تولى مصر ، فقد تقلد البصرة والكوفة ، فكان الناس يدخلون عليه من غير استئذان ، ليس على بابه حجاب ولا ستر ، ولابن عبدل فى بشر بن مروان :

---

(١) تاريخ الولاة والقضاة للكندى . (٢) العين : الجاسوس .

ولو شاء بشر كان من دون بابه طماطم سود أو صقالبة حمر
ولكن بشراً أسهل الباب للتى يكون لبشر عندها الحمد والأجر
بعيد مراد العين ما ردّ طرفه حذار الغواشى باب دار ولاستر

استعمل عبد الملك بشراً وأمره بالشدة والغلظة على أهل المعصية[1] ، وباللين على أهل الطاعة ، وخلف معه أربعة آلاف من أهل الشام منهم رَوْح ابن زِنباع ورجاء بن حَيَوة الكندى،وهما من أمثل رجال بنى أمية وأعلمهم وأسوسهم . وكان من سياسة بشر أو من سياسة دولته عامة ، أنه إذا ضرب البعث[2] على أحد من جنده ثم وجده قد أخل بمركزه أقامه على كرسى ، ثم سمر يديه فى الحائط ، ثم انتزع الكرسى من تحت رجليه ، فلا يزال يتخبط حتى يموت . وبهذه الشدة على المجندين ما كانت تحدث أحداً نفسه بالهزيمة من الخدمة ، وكان جيش بنى أمية أطوع جيش عربى . ولا يستغربن أحد هذه الشدة فجزاء الفار من الجندية فى يومنا هذا القتل .

رأينا عبد العزيز بن مروان أمير مصر وما كان من نصيحة أبيه له فى سياسة الرؤساء ، ليسلس له قياد المرؤوسين ، وكيف لقنه أبوه أقرب الطرق إلى استمالة القلوب وكان عند حسن ظنه به ، فجاء عبد العزيز نابغة فى إدارته ، عمرت مصر فى أيامه عمراناً ليس مثله ، ومما بنى فى حلوان الدور والمساجد وغيرها أحسن[3] عمارة وأحكمها ، وغرس نخلها وكرمها ، وكان له ألف جفنة[4] كل يوم تنصب حول داره ، ومائة جفنة يطاف بها على القبائل تحمل على العجل إلى قبائل مصر .

ولى عبد العزيز مصر فكان خراجها وجبايتها إليه ، فلم يوجد له مال ناض[5] يوم موته إلا سبعة آلاف دينار ، وكانت ولايته على مصر عشرين سنة وعشرة أشهر وثلاثة عشر يوماً ، على حين لما مات عبد الله بن عبد الملك

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر . (٢) البعث : الجيش أو كل قوم بعثوا والجمع بعث بضمتين وبعوث . (٣) الولاة والقضاة للكندى . (٤) الجفنة : القصعة الكبير . (٥) الناض : الدرهم والدينار .

ابن مروان وكان عاملا على مصر ترك ثمانين مدا من الذهب . وتقدم إليه أبوه أن يعفى آثار عمه عبد العزيز لمكانه من ولاية العهد ، فاستبدل بالعمال عمالا وبالأصحاب أصحاباً ، ذلك لأن عبد العزيز لم يرض أن ينزل عن ولاية العهد لابن أخيه فى حياته ، وعبد العزيز هو والد أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز الخليفة الأموى العادل .

وجرى عبد الملك بن مروان فى إدارة الملك على طريقة والده وطريقة معاوية فى تخريج آله وعماله فى سياسة البلاد ؛ فزادت الأمور استقراراً ، والأعمال تسلسلا ، والعمال رغبة ورهبة ، والرعايا أمناً ودعة . ولقد قيل له أن يأخذ بسيرة عثمان فقال : « وما خالف عثمان عمر فى شىء من سيرته إلا باللين ، فإن عثمان لان لهم حتى ركب ، ولو كان غلظ عليهم جانبه كما غلظ ابن الخطاب ما نالوا منـــه ما نالوا » . وقال : « إنى رأيت سيرة السلطان تدور مع الناس ، إن ذهب اليوم رجل يسير بتلك أى باللين أغير على الناس فى بيوتهم ، وقطعت السبل ، وتظالم الناس ، وكانت الفتن ، فلا بد للوالى أن يسير فى كل زمان بما يصلحه » . وهذا هو السر العظيم فى نجاح الممالك فى كل عصر وأمة . وقال عبد الملك يوماً : أنصفونا يا معشر الرعية تريدون منا سيرة أبى بكر وعمر ، ولا تسيرون فينا ولا فى أنفسكم بسيرة رعية أبى بكر وعمر ، نسأل الله أن يعين كلا على كل . وسأله ابنه الوليد يا أبت ما السياسة ؟ قال هيبة الخاصة مع صدق مودتها : واقتياد قلوب العامة بالإنصاف لها ، واحتمال هفوات الصنائع[1] .

ولى عبد الملك العراقين الحجاج بن يوسف الثقفى فقال : دلونى على رجل أوله ، فقيل له أى الرجال تريد ؟ قال : أريد دائم العبوس ، طويل الجلوس ، سمين الأمانة ، أعجف الخيانة ، لا يحنق فى الحق على مرة ، يهون عليه سؤال الأشراف فى الشفاعة . فقيل عليك بعبد الرحمن بن عبيد التميمى فأرسل إليه فاستعمله فقال له : لست أقبلها إلا أن تكفينى عمالك وولدك وحاشيتك . فقال الحجاج : يا غلام ناد من طلب إليه منهم حاجة فقد برئت

(١) الصنائع : جمع صنيعة أى الإحسان والصنائع المصطنعون .

الذمة منه . قال الشعبى : فوالله ما رأيت قط صاحب شرطة مثله ، كان لا يحبس إلا فى دين ، وكان إذا أتى برجل نقب على قوم ، وضع منقبته فى بطنه حتى تخرج من ظهره ، وكان إذا أتى برجل نباش حفر له قبراً ودفنه فيه حياً ، وإذا أتى برجل قاتل بحديدة وأظهر سلاحاً قطع يده ، فربما أقام أربعين يوماً لا يؤتى إليه بأحد ، فضم إليه الحجاج شرطة البصرة مع شرطة الكوفة .

خطب الحجاج أهل العراق : « إنى رأيت آخر هذه الأمة لا يصلح إلا بما صلح به أولها : لين فى غير ضعف ، وشدة فى غير عنف ، وإنى أقسم بالله لآخذن الولى بالمولى ، والمقيم بالظاعن ، والمطيع بالعاصى ، حتى يلقى الرجل أخاه فيقول : أنج سعد فقد هلك سعيد ، أو تستقيم لى قناتكم » . ولما اتصل بعبد الملك إسراف الحجاج فى القتل(١) وأنه أعطى أصحابه الأموال كتب إليه : أما بعد فقد بلغنى سرفك فى الدماء وتبذيرك الأموال ، وهذا ما لا أحتمله لأحد من الناس ، وقد حكمت عليك فى القتل بالقود ، وفى الخطأ بالدية ، وأن ترد الأموال إلى أصحابها ، فإنما المال مال الله ونحن خزانه ، وقد متعنا بحق فأعطينا باطلا . كتب الحجاج إلى عبد الملك يستأذنه فى أخذ الفضل من أموال السواد فمنعه من ذلك وكتب إليه : « لا تكن على درهمك المأخوذ أحرص منك على درهمك المتروك ، وأبق لهم لحوماً يعقدون بها شحوماً » .

وكان الحجاج يأخذ بأيدى العلماء ممن لا يتدخلون فى سياسته ، ولا يشاركونه فى سلطانه ، ويضع فى كل يوم(٢) ألف خوان فى رمضان وفى سائر الأيام خمسمائة خوان ، على كل خوان عشرة أنفس وعشرة ألوان وسمكة مشوية طرية وأرزة بسكر ، وكان يحمل فى محفة ويدار به على موائده ويتفقدها ، فإذا رأى أرزة ليس عليها سكر ، وسعى الخباز ليجيء بسكرها فأبطأ ، حتى أكلت الأرزة بلا سكر أمر بضربه مائتى سوط ، فكانوا بعد

(١) الأشراف لابن أبى الدنيا . (٢) العقد الفريد لابن عبد ربه .

ذلك لا يمشون إلا متأبطى خرائط السكر . وكان يوسف بن عمر والى العراق فى أيام هشام بن عبد الملك يضع خمسمائة خوان ، فكان طعام الحجاج لأهل الشام خاصة ، وطعام يوسف بن عمر لمن حضره ؛ فكان عند الناس أحمد .

واشتهر عهد الحجاج[1] بإصلاح الموازين والخراج والزراعة فهو رجل الدولة بإصلاحاته ، ولم يكن مصلحاً فحسب بل كان مصلحاً وموجداً ، ومن إيجاده وضع الحركات والإعجام فى المصاحف ، لئلا يلتبس شىء من الآيات على من لا يعلم القرآن . واتخذ[2] الحجاج دار الضرب وجمع فيها الطباعين . فكان يضرب المال للسلطان مما يجتمع له من التبر وخلاصة الزيوف والستوقة والبهرجة ، ثم أذن للتجار وغيرهم فى أن تضرب لهم الأوراق ، واستغلها من فضول ما كان يؤخذ من فضول الأجرة للصناع والطباعين ، وختم أيدى الطباعين .

حرض عبد الملك ابنه على المشاورة فى قضاء الأمور لما أسند إليه إمارة مصر قائلا له : « أنظر أى بنى إلى أهل عملك فإن كان لهم عندك حق غدوة فلا تؤخره إلى عشية ، وإن كان لك عشية فلا تؤخره إلى غدوة ، وأعطهم حقوقهم عند محلها ، تستوجب بذلك الطاعة منهم ، وإياك أن يظهر لرعيتك منك كذب ، فإنهم إن ظهر لهم منك كذب لم يصدقوك فى الحق ، واستشر جلساءك وأهل العلم ، فإن لم يستبن لك فاكتب إلى يأتك رأيى فيه إن شاء الله ، وإن كان بك غضب على أحد من رعيتك فلا تؤاخذه به عند سَورة[3] الغضب ، واحبس عقوبتك حتى يسكن غضبك ، ثم يكون منك ما يكون ، وأنت ساكن الغضب مطفأ الجمرة ، فإن أول من جعل السجن كان حليما ذا أناة ، ثم انظر إلى أهل الحسب والدين والمروءة فيكونون أصحابك وجلساءك ، ثم ارفع منازلهم منك على غيرهم ، على غير استرسال ولا انقباض ، أقول هذا وأستخلف الله عليك » . وهذا من أجمل أساليب الإدارة وسياسة الناس ؛ لا تأخير فى

(١) معلمة الإسلام – مادة الحجاج . (٢) فتوح البلدان البلاذرى .
(٣) سورة الغضب : شدته .

الفصل بينهم ، ولا كذب فى الوعود والمواعيد ، واستشارة العارفين والعالمين ، وجعلهم وحدهم بطانة وسماراً وجلساء ، ولا إسراع فى إنزال العقوبات حتى يذهب الغضب .

وبلغ عبد الملك أن بعض كتابه قبل هدية فقال له : والله إن كنت قبلت هدية لا تنوى مكافأة المهدى لها إنك لئيم دنىء ، وإن كنت قبلتها تستكفى رجلا لم تكن تستكفيه لولاها إنك خائن . وإن كنت نويت تعويض المهدى عن هديته وأن لا تخون له أمانة ولا تثلم له ديناً ، فلقد قبلت ما بسط عليك لسان معامليك ، وأطمع فيك سائر مجاوريك ، وسلبك هيبة سلطانك . ثم صرفه عن عمله . ذلك لأن غاية الخليفة ترتيب قواعد الدولة على أصول نقية من الشوائب ، والرشوة من طريق الهدايا تذهب بها حقوق أحد المتنازعين أو حقوقهما معاً . وكان عبد الملك بن رفاعة أمير مصر (٩٦) يقول : إذا دخلت الهدية من الباب خرجت الأمانة من الطاق .

وأدخل عبد الملك أموراً جديدة فى الإدارة ، وهو أول من أفرد للظلامات يوماً يتصفح فيه قصص المتظلمين من غير مباشرة للنظر ، وكان إذا قعد للقضاء أقيم على رأسه بالسيوف وينشد قول سعيد بن عريض ابن عادياء من يهود الحجاز :

إنا إذا مالت دواعى الهوى وأنصت الساكت للقائل
واصطرع الناس بألبابهم نقضى بحكم عادل فاضل
لا نجعل الباطل حقاً ولا نلط[1] دون الحق بالباطل
نخاف أن تسفه أحلامنا فنخمل الدهر مع الخامل

وزاد عبد الملك الجزية ، وأقل الجزية دينار وأكثرها مفوض إلى الاجتهاد ، استقل ما يؤخذ منها بالجزيرة — وكانت ديناراً على كل جمجمة ومدين قمحاً ، وقسطين زيتاً وقسطين خلا ، وضعها عليهم عياض بن غنم فى الفتح — فأحصى عبد الملك الجماجم وجعل الناس كلهم عمالا بأيديهم ، وحسب ما يكسبه العامل

(١) لط بالأمر : لزمه ولط عليه الخبر : ستره : وفى رواية نلفظ دون الحق بالباطل بدل نلط .

سنته كلها ، ثم طرح من ذلك نفقته فى طعامه وأدْمه[١] وكسوته وحذائه ، وطرح أيام الأعياد فى السنة كلها ، فوجد الذى يحصل بعد ذلك لكل واحد أربعة دنانير ، فألزمهم ذلك جميعاً وجعلهم طبقة واحدة ، ثم جمل الأموال على قدر قربها وبعدها[٢] ، وهذا خلا نوائب الرعية ، وهو ما يضربه عليهم الإمام من الحوائج كإصلاح القناطر والطرق وغير ذلك مما فيه عمارة بلادهم .

وفى أيام عبد الملك نقلت دواوين مصر والشام والعراق من القبطية والرومية والفارسية إلى العربية ، فكان ذلك من أهم الأسس التى أقيمت فى بناء القومية العربية فى الممالك الإسلامية كافة ، وقطع به آخر مظهر من مظاهر الأعاجم ، فأصبحت البلاد عربية بأوضاعها سائرة إلى التعرب بسكانها . وكان كاتب الرسائل سليمان بن سعد الخشنى من أهل الأردن أول مسلم ولى الدواوين كلها ، وكان يتولاها القبط والروم والعجم ، وكان بالبصرة والكوفة[٣] ديوانان لإعطاء الجند والمقاتلة والذرية بكتاب العربية وديوانان بالفارسية ، وبالشام ديوان بالعربية لمثل ذلك ، وديوان بالرومية ، فحول ديوان العراق إلى العربية أبو الوليد صالح بن عبد الرحمن البصرى ، قدمه لذلك الحجاج فكان كتاب العراقيين كلهم غلمانه وتلاميذه[٤] . ونقل ديوان مصر من القبطية إلى العربية عبد الله ابن عبد الملك بن مروان أمير مصر فى خلافة الوليد بن عبد الملك سنة سبع وثمانين ونسخها بالعربية ، وجعل على الديوان ابن يربوع الفزارى من أهل حمص . وتأخرت بعض البلاد فى هذا التغيير من رسم الإدارة ، فإن أول من كتب بالعربية فى ديوان أصبهان سعد بن إياس كاتب عاصم بن يونس عامل أبى مسلم صاحب الدعوة ، وهو أول من أخذ الناس بتعلم القرآن من أهل أصبهان ، يقال إنه استقرأ المسلمين بها فلم يجد إلا ثمانين رجلا لم يكن فيهم من يحفظ القرآن إلا ثلاثة ، فلم يحل الحول حتى تعلم الناس القرآن وحفظوه .

---

(١) الأدم ما يؤتدم به وائتدم أكل الخبز مع الإدام وإدام الطعام هو ما يجعل مع الخبز فيطيبه
(٢) الخراج لأبى يوسف . (٣) أدب الكتاب للصولى . (٤) خطط المقريزى .

وعبد الملك أول من كتب على الدينار (قل هو الله أحد) وذكر النبي فى الطوامير ، وكانت الدنانير رومية تدخل من بلاد الروم، والدراهم كسروية وحميرية[١] قليلة ، فهو أول من ضرب الدراهم المنقوشة ، وكان على خاتمه قبيصة بن ذؤيب والبريد إليه ، يقرأ الكتب إذا وردت ثم يدخلها على عبد الملك فيخبره بما فيها[٢] . ومن أهم أعمال الدولة وظيفة صاحب الشرطة، ومن أعماله أن يحجب الناس ويحافظ على الخليفة ، وكان الأمويون لا يأذن خلفاؤهم بالدخول عليهم إلا بالترتيب الذى عينوه . والولاة ينزلون فى المعسكر تحيط بهم الجند لتسهل المحافظة عليهم فلا يغتالهم مغتال ، وقد يتنقلون فى عمالاتهم ، فزياد يقيم بالكوفة ستة أشهر وفى البصرة مثلها[٣] ، وهو أول من سير بين يديه بالحراب والعمد واتخذ الحراس خمسمائة لا يفارقون مكانه .

وكانت تقرأ عهود القضاة الذين نصبوا حديثاً فى المسجد الجامع أولا ، ثم يقصدون دار الأمير فيقرأ أمامه عهد القاضي . والقضاة يقضون فى الجوامع . وكان الجامع فى الإسلام هو المجمع والمجلس والمحكمة وديوان المال والمدرسة وكل ما له علاقة بالسلطان والسكان . ويدبر الولاة ولاياتهم فى المعسكرات ، والمعسكرات بعيدة عن دور الحكومة القديمة . وليس[٤] من مدينة عظيمة إلا وبها دار ينزلها غزاة تلك البلدة ، ويرابطون بها إذا وردوها ، وتكثر لديهم الصلات ، وترد عليهم الأموال والصدقات العظيمة » . وإذا رحل الجيش واضطر إلى النزول فى القرى لشدة البرد فى الشتاء يُؤْويه أهلها ثلاثة أيام ويطعمونه مما يطعمون . ويقول البلاذرى إن مسلمة بن عبد الملك لما غزا عمورية حمل معه نساءه وحمل ناس ممن معه نساءهم . وكانت بنو أمية تفعل ذلك إرادة الجد فى القتال للغيرة على الحرم . وكانت أمور الحرب بيد الولاة فى الولايات تقوم[٥] بها القبائل المهاجرة إليها ، أما جيش الخليفة الخاص وهو عبارة عن أجناد الشام فكان خاصاً بقتال الروم وحماية الخليفة من فتنة داخلية،

---

(١) الأحكام سلطانية للماوردى . (٢) طبقات ابن سعد . (٣) تاريخ أبى الفداء .
(٤) المسالك والممالك لابن حوقل . (٥) معلمة الإسلام – مادة أمية .

ويفضل هذه القوى المخلصة للأمويين ظفروا فى الحرب الأهلية سنة ٦٤ وجرى عبد الملك على طريقة عمر ومعاوية وزياد والحجاج فى أخذ نفسه بالتطلع إلى استعلام بواطن أمور الرعايا ، وكذلك كان فى التطلع إلى أخبار الروم وغيرهم ممن كانوا يودون أبداً أن يكيدوا للمسلمين .

أوصى أميراً سيره إلى أرض الروم فقال : أنت تاجر الله لعباده ، فكن كالمضارب الكيس الذى إن وجد ربحاً تجر وإلا تحفظ برأس المال ، ولا تطلب الغنيمة حتى تحوز السلامة ، وكن من احتيالك على عدوك أشد حذراً من احتيال عدوك عليك . وأوصى أولاده أن يعطف الكبير منهم على الصغير ، وأن يعرف الصغير حق الكبير ، وحذرهم البغى والتحاسد ، وأوصاهم بأخيهم مسلمة وأن يصدروا عن رأيه ، وأن يكرموا الحجاج فإنه هو الذى وطأ لهم هذا الأمر .

إدارة الوليد وسليمان :

تولى الوليد بن عبد الملك الخلافة فسار على سيرة أبيه ، وراعى إخوته ، وحث أولاده على اصطناع المعروف ، وكان غرامه بعمران البلاد وإقامة المصانع والجوامع واعتقاد[1] الضياع ، فقلده رعاياه فى ذلك ، فكان الناس فى أيامه يخوضون فى وصف الأبنية ، ويحرصون على التشييد والتأسيس ، ويولعون بالضياع والعمارات[2] لوفرة الثروة فى أيدى الناس . وقد كتب أحد عمال الوليد بن عبد الملك أن بيوت الأموال قد ضاقت من مال الخمس ، فكتب إليهم أن يبنوا المساجد . وأجرى الوليد الأرزاق على القراء وقوام المساجد وعلى العميان ، وأصحاب العاهات والمجذّمين ، وأخدم كل واحد منهم خادماً ، وكان يهب أكياس الدراهم تفرق فى الصالحين ، وأخرج لعيالات الناس الطيب والكسوة ، وزاد الناس جميعاً فى العطاء عشرة عشرة وذلك للشاميين خاصة ، وزاد أهل بيته فى جوائزهم الضعف . وفى مئات

(١) اعتقد الضياع : اقتناها واعتقد مالا جمعه .

(٢) لطائف المعارف للثعالبى .

الألوف من الدنانير التى أنفقها على إقامة الجوامع والمصانع ، وما كان فى خزائنه من الأموال التى تكفى الدولة خمس عشرة سنة مقنع لمن أراد أن يتصور الأموال التى احتجتها هو ومن قبله من الخلفاء استعداداً للطوارئ .

ودخلت الدولة فى حالة استقرار ونظام وانتهى[1] تعريب الملك والإدارة ، وأخذت الوظائف الكبرى من النصارى ، ونحى آل سرجون الدمشقيون عن إدارة الأموال ، وبلغت الفتوحات أقصى حدودها . وظهرت أبهة الملك والسلطان ، ومالت الدولة إلى إقامة الأعمال العظيمة على الدهر ، تخليداً للذكر وإشادة بالفخر ، والوليد هو الذى جود القراطيس ، وجلل[2] الخطوط وفخم المكاتبات ، وتبعه من بعده من الخلفاء إلا عمر بن عبد العزيز ويزيد ابن الوليد ، فإنهما جريا فى المكاتبات على طريقة السلف . ثم جرى الأمر بعدهما على ما سنه الوليد بن عبد الملك إلى أن صار الأمر إلى مروان بن محمد فعمدوا إلى الإطناب وكان الوليد موفقاً فى فتوحه فى الشرق والغرب بفضل قواده وولاته ممن كان يعرف لهم أقدارهم ، وما كانت فتوحه تشغله عن النظر فى عمران البلاد . ومن خلق الوليد أنه كان سمحاً يسره أن يرى لعماله شيئاً من الرفاهية . كتب إليه الحجاج إنه أصيب لمحمد بن يوسف خمسون ومائة ألف دينار ، فإن يكن أصابها من حلها فرحمه الله ، وإن تكن من خيانة فلا رحمه الله . فكتب إليه الوليد إن محمد بن يوسف أصاب ذلك المال من تجارة أحللناها له ، وأمره أن يترحم عليه .

وتوسع الأمويون فى هذه الحقبة فى إفاضة الأموال على عمالهم ، وكان القاضى بمصر مثلا يرزق ألف دينار فى السنة . كان ابن حجيرة الأكبر فى مصر (٦٩ — ٨٣) على القضاء والقصص[3] وبيت المال ، فكان رزقه من القضاء مائتى دينار ، وفى القصص مائتى دينار ، ورزقه فى بيت المال مائتا دينار ، وعطاؤه مائتا دينار وجائزته مائتا دينار : والعادة الجارية عندهم أن

(١) معلمة الإسلام : الوليد . (٢) جلل عظم . (٣) صبح الأعشى للقلقشندى .

لا يعطى العامل سوى رزق واحد . ولم يكن أحد من بنى مروان يأخذ العطاء إلا عليه الغزو ، فنهم من يغزو ، ومنهم من يخرج بدلا . وكانوا يصيرون أنفسهم فى أعوان الديوان فى بعض ما يجوز لهم المقام به ، ويوضع به الغزو عنهم . أما الحجاج فكان يشتد فى تجنيد الناس لأنه يقظ حذر دائماً ، فكان لا يدع قرشياً ولا رجلا من بيوتات العرب إلا أخرجه « وضرب(١) البعث على المحتلمين ومن أنبت من الصبيان ، فكانت المرأة تجىء إلى ابنها وقد جرد فتضمه إليها وتقول له : « بأبى ، جزعاً عليه ، فسمى ذلك الجيش جيش بأبى » . وكان تجريد الشبان من ثيابهم للاطلاع على عيوب أجسامهم ، فينبذ السقيم ، ويجند السليم .

خطب الحجاج لما جاء والياً على العراق ، وقد بعث بشر بن مروان المهلب إلى الحرورية ومما قال : وإياى وهذه الزرافات والجماعات وقال وقيل وما يقولون وفيم أنتم ، والله لتستقيمن على طريق الحق أو لأدعن لكل رجل شغلا فى جسده ، ومن وجدته بعد ثالثة من بعث المهاب سفكت دمه ، وانتهبت ماله وهدمت منزله . فشمر الناس بالخروج إلى المهلب ، ولا يمنع بعث البعوث عند الشدائد من وجود جيوش عند الخليفة وعماله فى الأقطار ؛ تشبه الجيش الدائم تحت السلاح ، يتيسر شده عند الحاجة بقليل من العناية .

وكأن سياسة الدولة فى هذا العهد كانت صورة من سياسة الحجاج فقد كتب إليه الوليد يأمره أن يكتب إليه بسيرته فكتب إليه : إنى أيقظت رأيى وأنمت هواى ، وأدنيت السيد المطاع فى قومه ، ووليت الحرب الحازم فى أمره ، وقلدت الخراج الموفر لأمانته ، وقسمت لكل خصم من نفسى قسم أعطيته حظاً من لطيف عنايتى ونظرى ، وصرفت السيف إلى النطف(٢) المسىء ، والثواب إلى المحسن البرىء ، فخاف المريب صولة العقاب ، وتمسك المحسن بحظه من الثواب . ا هـ .

ولما أفضى الأمر إلى سليمان بن عبد الملك أقر عمال من كانوا قبله على أعمالهم ، وجلس فى صحن المسجد وقد بسطت لديه البسط والنمارق عليها(٣) ،

(١) الأغانى للأصفهانى . (٢) النطف المريب . (٣) النمرقة والنمرق الوسادة . الجمع نمارق .

وصفت الكراسى ، وأذن للناس بالجلوس ، وإلى جانبه الأموال والكساوى وآنية الذهب والفضة ، فيدخل وفد الجند ويتقدم صاحبهم فيتكلم عنهم وعمن قدموا من عنده ، فيأمر سليمان بما يصلحهم ويرضيهم ، فما يطلب أحد شيئاً إلا نوله مرامه ، ورد المظالم وعزل عمال الحجاج وأخرج من كان فى سجنه فى العراق وأعتق سبعين ألف مملوك ومملوكة وكساهم .

إدارة عمر بن عبد العزيز :

عمل الخلفاء السبعة الأولون من الأمويين فى إدارة الملك الإسلامى بما أوحاه إليه عقلهم وعلمهم ، فكان الصحابة منهم والتابعون على مثال خالفوا فيه مرغمين بعض طريقة الراشدين ، لأن علمهم بالناس زاد بما فتح الله عليهم من البلاد ، ولأنه نشأت أحداث جديدة ، ودخلت فى الإسلام عناصر أخرى . وكان عهد الأمويين صورة من دولة عادلة تتساهل فى الأخذ بما لا يضر من الأوضاع ، وتقتبس ما تضطرها إليه طبيعة البلاد المفتتحة . وأكثر ما اهتموا له توفير الجباية مع النظر إلى عمران البلاد والدفاع عن الحوزة والحساب للمستقبل بادخار فضل الأموال ، والظهور بمظهر دنيوى لا يعبث بأصل من أصول الدين .

كان أكثر خلفاء الأمويين يقيلون العامل إذا حدث فى جهته خرق لا يستطيع رتقه ، أو فتنة تهرق فيها الدماء ، وتكلف الدولة مالا ، وجعلوا همهم فى مقاتلة الخوارج والشيعة فى الداخل ، وغزو الروم والتوسع فى الفتح من المشرق والغرب فى الخارج ، وكثيراً ما كانت بعض الأنحاء تثور على الدولة ، إما لسبب تفاحش الخراج ، أو لأسباب أخرى كما كان من قبط مصر ، فخرجوا غير مرة على الأمويين وعلى من خلفوهم ، وربما كان من بعض عمالهم من اشتط فى تقاضى الخراج والجزية والصدقات ، والظلم ما خلا عصر منه ، وخصوصاً فى دولة ليست مشاكلها متشاكلة ، ولا أجيال الناس فى أصقاعها متوحدة متماثلة ، وغاية ما يقال فى الإدارة المتبعة أبداً توسيع سلطة

العامل ، حتى يسرع فى فض مصالح الناس ، ذلك لأن العرب ألفوا التقاضى على عجل ، وما عرفوا التطويل فى الخصومات والمراجعات ، وهذا ما كان ظاهراً كل الظهور فى عهد الخوالف من بنى أمية ، ولا سيا فى خلافة عمر ابن عبد العزيز واسطة عقد الأمويين ، والمثل الأعلى للعدل الإسلامى .

كان الوليد بن عبد الملك عهد لعمر بإمارة الحجاز « مكة والمدينة والطائف » قبل أن يتقلد الخلافة فأبطأ عن الخروج ، فقال الوليد لحاجبه : ما بال عمر لا يخرج إلى عمله . قال : زعم أن له إليك ثلاث حوائج . قال : فجعله علىّ ، فجاء به الوليد . فقال عمر : إنك استعملت من كان قبلى ، فأنا أحب أن لا تأخذنى بعمل أهل العدوان والظلم والجور . فقال له الوليد : إعمل بالحق وإن لم ترفع إلينا درهما واحد[1] . فلعمر إذاً طريقته فى الإدارة اشترط قبل أن يتولى الإمارة أن تترك له حرية العمل . وكان يشعر قبل الخلافة بأن فى إدارة الدولة شيئاً من الظلم . قال يوماً لأسامة بن زيد — وقد بعثه سليمان بن عبد الملك على ديوان جند مصر وحثه على توفير الخراج — : ويحك يا أسامة إنك تأتى قوماً قد ألح عليهم البلاء منذ دهر طويل ، فإن قدرت أن تنعشهم فأنعشهم ؟

ولما بويع عمر شرع لأول أمره بصرف عمال من كان قبله من بنى أمية ، واستعمل أصلح من قدر عليه فسلك عماله طريقته[2] ، وأخذ يرد المظالم مظلمة مظلمة ، لا يدع شيئاً مما كان فى أيدى أهل بيته إلا رده . وكتب إلى جميع عماله أن الناس قد أصابهم بلاء وشدة وجور فى أحكام الله ، وسنن سيئة سنتها عليهم علماء السوء ، قلما قصدوا الحق والرفق والإحسان . وكان أول خطبة خطبها : « أيها الناس من صحبنا فليصحبنا بخمس وإلا فلا يقربنا : يرفع إلينا حاجة من لا يستطيع رفعها ، ويعيننا على الخير جهده ، ويدلنا على الخير على ما نهتدى إليه ، ولا يغتابن عندنا الرعية ، ولا يعترضنّ فيما لا يعنيه » .

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز . (٢) المحاسن والمساوئ للبيهقى .

وبدأ بنفسه فنزل عن أملاكه التى انتقلت إليه من أبيه بالإرث الشرعى .
ورد على رجل قدم عليه من حلوان إقطاعاً ادعى أن والده عبد العزيز لما كان والياً على مصر أقطعه عبد الملك بن مروان أرض حلوان فورثها عمر وإخوته فقال عمر : إن لى فيها شركاء إخوة وأخوات ، لا يرضون أن أقضى فيها بغير قضاء قاض . وقام معه الى القاضى فعقد بين يديه ، فتكلم عمر بحجته وتكلم المدعى فقضى له القاضى ، فقال عمر : إن عبد العزيز قد أنفق عليها ألف ألف درهم . قال القاضى : قد أكلتم من غلتها بقدر ذلك . فثلجت نفس عمر بحكم القاضى وقال : وهل القضاء إلا هذا ، تالله لو قضيت لى ما وليت لى عملا ، وخرج إلى الرجل من[1] حقه . وأراد أهله أن يتخلوا عن أملاكهم فقطع بالمقراض كتب الإقطاعات بالضياع والنواحى . قالوا ولما أقبل عمر رد المظالم وقطع عن بنى أمية جوائزهم وأرزاق حراسهم ، ورد ضياعهم إلى الخراج وأبطل قطائعهم ، ضجوا من ذلك على رؤوس الملأ فى المسجد . وكانت انتهت إليهم هذه الإقطاعات من الخلفاء السالفين ؛ ذكروا أنه كانت غلة عمر لما بويع بالخلافة بين أربعين وخمسين ألف دينار ، وما زال يردها حتى كانت يوم وفاته مائتى دينار ، ولو بقى لردها كلها فأفقر نفسه حتى يقوى على بعض آله ، فيسترد منهم ما أخذوه من عقار ومزارع . وخلف من الناض بضعة دنانير ولم يرتزق من بيت مال المسلمين شيئاً ولم يرزأه[2] حتى مات . وأداه اجتهاده إلى أن فى صيغة امتلاك آل بيته الضياع والرباع نظراً ، وأن ما ورثه وورثوه بالطرق المشروعة يقضى العدل المطلق برده على من أخذ منه . واعتقاد الضياع واستثمار الأموال من شأن الرعايا لا الرعاة ، فكان نظره أعلى ، وطريقته أمثل وأعدل .

كان الرسول أقطع بلال بن الحرث المزنى أرضاً فيها جبل ومعدن فباع بنو بلال عمر بن عبد العزيز أرضاً منها فظهر فيها معدن أو قال معدنان فقالوا : إنما بعناك أرض حرث ولم نبعك المعادن ، وجاءوا بكتاب النبى لهم فى جريدة

(١) مروج الذهب للمسعودى . (٢) رزأه ماله : كجعله وعلمه يرزؤه رزءاً أصاب فيه شيئاً كارتزأه .

فقبلها عمر ومسح بها عينه وقال لقيمه : أنظر ما خرج منها وما أنفقت وقاصهم بالنفقة ورد عليهم الفضل .

وأبطل عمر بن عبد العزيز هدايا النيروز والمهرجان(١) . وكانت تحمل إلى معاوية ومن بعده وقدرها عشرة آلاف ألف ، وهي من العادات الفارسية ، أقرها معاوية وأنكرها علي . وقضى عمر بأن يكتفى بالخراج « وزن سبعة » ليس لها آيين(٢) ولا أجور الضرابين ولا هدية النيروز

---

(١) النيروز أو النوروز : اسم أول يوم من السنة عند الفرس عند نزول الشمس أول الحمل ، معرب نوروز أي اليوم الجديد . والمهرجان : أول نزول الشمس في برج الميزان .

(٢) الآيين : العادة والقانون ، وأصل معناه السياسة المسيرة بين فرقة عظيمة . ويقول البيروني في الآثار الباقية : كان من آيين الأكاسرة أن يبدأ الملك يوم النيروز فيعلم الناس بالجلوس لهم والإحسان إليهم ، وفي اليوم الثاني يجلس لمن هو أرفع مرتبة وهم الدهاقين وأهل البيوتات ، وفي اليوم الثالث يجلس لأساورته وعظماء موابذته ، وفي اليوم الرابع لأهل بيته وقرابته وخاصته ، وفي اليوم الخامس لولده وصنائعه ، فيصل إلى كل واحد منهم ما استحقه من الرتبة والإكرام ، ويستوفي ما استوجبه من المبرة والانعام ، فإذا كان اليوم السادس كان قد فرغ من قضاء حقوقهم فنورز لنفسه ، ولم يصل إليه إلا أهل انسه ومن يصلح لخلوته ، وأمر بإحضار ما حصل من الهدايا على مراتب المهدين ، فيتأملها ويفرق منها ما يشاء ويودع الخزائن ما شاء .

وفي كتاب أخلاق الملوك للجاحظ . إن من حق الملك هدايا المهرجان والنيروز ، والعلة في ذلك أنهما فصلا السنة ، فالمهرجان دخول الشتاء وفصل البرد ، والنيروز إيذان بدخول فصل الحر ، إلا أن في النيروز أحوالا ليست في المهرجان ، فمنها استقبال السنة وافتتاح الخراج ، وتولية العمال والاستبدال ، وضرب الدراهم والدنانير ، وتذكية بيوت النيران وصب الماء ، وتقريب القربان وإشادة البنيان وما أشبه ذلك ، فهذه فضيلة النيروز على المهرجان ، ومن حق الملك أن يهدى إليه الخاصة والعامة « العامة والخاصة من الأهل » ، والسنة في ذلك عندهم أن يهدى الرجل ما يحب من ملكه إذا كان في الطبقة العالية ، فإن كان يحب المسك أهدى مسكاً لا غيره ، وإن كان يحب العنبر أهدى عنبراً ، وإن كان صاحب بزة ولبسه أهدى كسوة وثياباً ، وإن كان الرجل من الشجعان والفرسان فالسنة أن يهدى فرساً أو رمحاً أو سيفاً ، وإن كان رامياً فالسنة أن يهدى نشاباً ، وإن كان من أصحاب الأموال فالسنة أن يهدى ذهبا أو فضة ، وإن كان من عمال الملك وكانت عليه موانيذ (متأخرات أو بقايا) السنة الماضية ، جمعها وجعلها في بدر حرير صيني وشريحات فضة وخيوط إبريسم وخواتيم عنبر ثم وجهها . وكذلك إنما كان يفعل من العمال من أراد أن يتزين بفضل نفقاته أو بفضل عمالته أو أداء أمانته . وكان يهدى الشاعر الشعر والخطيب الخطبة والنديم التحفة والطرفة والباكورة من الخضروات . وعلى خاصة نساء الملك وجواريه أن يهدين إلى الملك ما يؤثرنه ويفضلنه ، ويجب على المرأة من نساء الملك إن كانت عندها جارية تعلم أن الملك يهواها ويسر بها أن تهديها إليه بأكل حالاتها وأفضل زينتها وأحسن —

والمهرجان ولا ثمن الصحف ولا أجور الفيوج[١] ولا أجور البيوت ولا دراهم النكاح ، ورفع الخراج عمن أسلم من أهل الأرض ، وأبطل جوائز الرسل وأجور الجهابذه وهم القساطرة وأرزاق العمال وإنزالهم ، وأبطل السخرة والعطاء ، وورث العيالات على ما جرت به السنة ، وأقر القطائع التى أقطعها[٢] أهل بيته ، ولم ينقص العطاء فى الشرف ولم يزد فيه ، وزاد أهل الشام فى أعطياتهم عشرة دنانير ثم رأى الرجوع عنها . وورد كتابه على عامله فى مصر بالزيادة فى أعطيات الناس عامة ، وكسرت دنان الخمر وعطلت حاناتها ، وقسم للفلاحين بخمسة وعشرين ألف دينار ، ونزعت مواريث القبط عن الكور واستعمل المسلمون عليها .

ووضع المكس[٣] عن كل أرض واكتفى بالعشر ، والعشر ما يجب فى الزروع التى سقيت بماء السماء وما يؤخذ من أموال أهل الحرب إلى بلد الإسلام المتاخم لهم ، وإذا استقر الصلح معهم على أخذ العشر أو الخمس أو أكثر منه أو أقل منه أثبت ذلك الشرط فى الديوان . ووضع الجزية عن كل

= ديآتها ، فإذا فعلت ذلك فمن حقها على الملك أن يقدمها على نسائه ويخصها بالمنزلة ويزيدها فى الكرامة . ومن حق البطانة والخاصة على الملك فى هذه الهدايا أن تعرض عليه وتقوم قيمة عدل . وكان من تقدمت له هدية فى النيروز والمهرجان صغرت أم كبرت كثرت أم قلت ثم لم يخرج له من الملك صلة عند نائبة تنوبه أو حق يلزمه ، فعليه أن يأتى ديوان الملك ويذكر بنفسه الخ . والغالب أن هدايا النيروز والمهرجان كانت عادة تحمل إلى الخلفاء ، ولا سيما فى عهد بنى العباس فقد ذكر صاحب نشوار المحاضرة أنه حملت الهدايا إلى المتوكل فى مثل هذه المواسم من كل شىء عالم ظريف مليح .

(١) الفيوج جمع فيج وهو الساعى أى رسول السلطان الذى يسعى بين يديه .

(٢) أقطعه قطعة من الأرض والقطائع : طائفة من أرض الخراج .

(٣) المكس : الظلم وهو ما يأخذه العشار وهو مكاس وماكس . والأحماء : جمع حمى وهو موضع فيه كلأ يحمى من الناس أن ترعى . قال الشافعى فى تفسير الحديث لا حمى إلا لله ولرسوله : إن الشريف من العرب فى الجاهلية كان إذا نزل بلداً فى عشيرته استعوى كلبا فحمى لخاصته مدى عواء الكلاب . لا يشركه فيه غيره ، فلم يرعه معه أحد ، وكان شريك القوم فى سائر المواقع حوله ، فنهى الرسول أن يحمى على الناس حمى كما كانوا فى الجاهلية يفعلون ، إلا ما يحمى لخيل المسلمين وركابهم التى ترصد للجهاد ويحمل عليها فى سبيل الله وإبل الزكاة كما حمى عمر النقيع لنعم الصدقة والخيل المعدة فى سبيل الله — نقله فى التاج . والجزيرة : هى الأرض التى لا يعلوها السيل وتحدق بها وفى الأصل كل أرض ينجزر عنها المد .

مسلم ، وأباح الجزائر والأحماء كلها إلا النقيع[١] ، وقال فى الجزائر هو شىء أنبته الله فليس أحد أحق به من أحد ، وفرض للناس إلا للتاجر ، لأن التاجر مشغول بتجارته عما يصلح المسلمين ، وسوّى بين الناس فى طعام الجار ، وكان أكثر ما يكون طعام الجار أربعة أرادب ونصف أردب لكل إنسان . وكتب إلى أحد عماله أن يستبرئ الدواوين[٢] وينظر إلى كل جور جاره من قبله من حق مسلم أو معاهد فيرده عليه ، فإن كان أهل تلك المظلمة قد ماتوا يدفعه إلى ورثتهم . وقضى على عماله بإبطال المائدة والنوبة[٣] ، ومن أدى زكاة ماله قبل منه ، ومن لم يؤد فالله حسيبه . ورد الخمس على أهله وعلى أهل الحاجة ، وقضى أن لا يؤخذ من المعادن الخمس بل تؤخذ الصدقة ، وضرب أحدهم سبعين سوطاً لأنه سخر دواب النبط .

وجرت عادة الخلفاء إذا جاءتهم جبايات الأمصار أن يأتيهم مع كل جباية عشرة رجال من وجوه الناس وأجنادها ، فلا يدخل بيت المال من الجباية دينار ولا درهم حتى يحلف الوفد ما فيها دينار ولا درهم إلا أخذ بحقه ، وأنه فضل أعطيات أهل البلد من المقاتلة والذرية بعد أن أخذ كل ذى حق حقه ، أى فضل أعطيات الأجناد وفرائض الناس . وقضى عمر على عماله أن ينظروا الأرض ولا يحملوا خراباً على عامر ولا عامراً على خراب ، وإن أطاق الخراب شيئاً يؤخذ منه ما أطاق ويصلح ليعمر ، ولا يؤخذ من عامر لا يعتمل شيئاً ، وما أجدب من العامر يؤخذ خراجه فى رفق . وكانوا بفارس يخرصون الثمار على أهلها ثم يقومونها بسعر دون سعر الناس الذى يبتاعون به فيأخذونه وَرِقاً على قيمهم التى قوموا بها ، فرد عمر إلى من شكوا الثمن الذى أخذ منهم وأخذوا بسعر ما باع أهل الأرض غلتهم .

---

(١) النقيع : البئر الكثيرة الماء والجمع أنقعة . والنقيع : موضع على مقربة من المدينة حماه عمر لنعم الفىء وخيل المجاهدين لا يرعاه غيرها والأرجح أنه المقصود هنا .

(٢) استبرأ طلب الإبراء من الدين والذنب واستبرأ الشىء طلب آخره ليقطع الشبهة عنه .

(٣) النوبة النازلة : جمع نوب ونوائب الرعية ما يتحتم عليهم من إصلاح القناطر والطرق وسد البثوق ، وأهل المائدة ما كان يألفه العمال من إطعام الناس على موائدهم ، وهذا مال كثير يمكن اقتصاده حتى لا يسرف فى بيت المال .

كتب إلى عامله على البصرة : أما بعد فإنى كنت كتبت إلى عمرو بن عبد الله أن يقسم ما وجد بعمان من عشور التمر والحب فى فقراء أهلها ، ومن سقط إليها من أهل البادية ، ومن أضافته إليها الحاجة والمسكنة وانقطاع السبيل ، فكتب إلىّ أنه سأل عاملك قبله عن ذلك الطعام والتمر فذكر أنه قد باعه وحمل إليك ثمنه ، فاردد إلى عمرو ما كان حمل إليك عاملك على عمان من ثمن التمر والحب ليضعه فى المواضع التى أمرته بها ويصرفه فيها إن شاء الله والسلام .

وأمر عماله بالرفق بأهل الذمة ، وإذا كبر الرجل منهم وليس له مال تنفق عليه الدولة ، فإن كان له حميم ينفق عليه حميمه ، كما لو كان لك عبد فكبرت سنه لم يكن بد من الإنفاق عليه حتى يموت أو يعتق . وكتب إلى عامله على الكوفة أن قوّ أهل الذمة ، فإنا لا نريدهم لسنة ولا لسنتين . وأعطى بطريقاً[١] ألف دينار يستألفه على الإسلام[٢] .

خاصم حسان بن مالك[٣] عجم أهل دمشق إلى عمر فى كنيسة كان رجل من الأمراء أقطعه إياها ، فقال عمر : إن كانت من الخمس العشرة الكنيسة التى فى عهدهم فلا سبيل لك عليها . وخاصم عجم أهل دمشق إلى عمر فى كنيسة كان فلان أقطعها لبنى نصر بدمشق فأخرجها عن المسلمين وردها إلى النصارى وشكا نصارى دمشق أن الوليد هدم كنيسة يوحنا وأدخلها فى المسجد فهمّ أن يعيدها إليهم ، لولا أن المسلمين أقباوا على النصارى فسألوهم أن يعطوا جميع كنائس الغوطة على أن يصفحوا عن كنيسة يوحنا ، ويمسكوا عن المطالبة بها ، فرضوا بذلك وأعجبهم فكتب به إلى عمر فسره وأمضاه .

---

(١) إن البطريق غير البطريرك فالأول لقب ذى منصب سياسى والآخر لقب ذى منصب دينى . والأول Patrique و Patrice بالفرنسية والثانى Patriarche وقد عربته العرب أيضا بقولهم بطريرخ وفى بعض الأحيان يختصرونه ويقولون بطرك — قاله أحمد زكى .

(٢) استألف طلب إلفا صديقا مؤانسا .

(٣) فتوح البلدان للبلاذر

وعمر أول من ندب نفسه للنظر فى المظالم فى الدولة الأموية فردها ، وذلك لانتشار الأمر حتى تجاهر الناس بالظلم والتغالب ، فاحتاجوا فى ردع المتغلبين ، وإنصاف المغلوبين إلى نظر المظالم الذى تمتزج به قوّة السلطة بنصفة القضاء . وما شرهت قط نفس عمر إلى أخذ أموال الناس ، بل ما كان يحب أن يأخذ منهم أكثر من الفضل ، ويسامح بكثير من هذا الفضل . كتب إليه عامله على العراق أن أناساً قبله قد اقتطعوا من مال الله مالا عظيما ليس يقدر على استخراجه من أيديهم إلا أن أن يمسهم بشىء من العذاب . فكتب إليه عمر : « أما بعد فالعجب كل العجب من استئذانك إياى فى عذاب البشر ، كأنى لك جُنّة[1] من عذاب الله ، وكأن رضاى ينجيك من سخط الله ، فانظر فما قامت عليه البينة فخذه بما قامت عليه ، ومن أقر لك بشىء فخذه بما أقرّ به ، ومن أنكر فاستحلفه بالله وخل سبيله ، فوالله لأن يلقوا بخياناتهم أحب إلىّ من أن ألقى الله بدمائهم » .

وكتب إليه عامله على مصر إن أهل الذمة قد أسرعوا فى الإسلام وكسروا الجزية ، حتى استلفت من الحارث بن ثابتة عشرين ألف دينار لأتم بها عطاء أهل الديوان . وطلب إليه أن يأمر بتوقيف الذميين عن انتحال الإسلام . فأجابه عمر : قد وليتك جند مصر وأنا عارف بضعفك ، وقد أمرت رسولى بضربك على رأسك عشرين سوطاً ، فضع الجزية عمن أسلم ، قبح الله رأيك ، فإن الله إنما بعث محمدا هادياً ولم يبعثه جابياً » . وكتب إليه عامله على العراق عدى بن أرطاة : إن الناس قد كثروا فى الإسلام حتى خفت أن يقل الخراج . فكتب إليه : « والله لوددت أن الناس كلهم أسلموا حتى نكون أنا وأنت حراثين ، نأكل من كسب أيدينا » . وقال فى إحدى خطبه : وددت أن أغنياء الناس اجتمعوا فردوا على فقرائهم حتى نستوى نحن وهم وأكون أنا أولهم ، ثم قال مالى وللدنيا أم مالى ولها !

ولم يشهد مثل تحرى عمر فى اختيار العمال وتعليمهم إحسان العمل ، وكان

(١) وقاية .

يرى كل مظلمة تقع فى أقصى البلاد إذ لم يردّها ويكشف ظلامة صاحبها ، كأنه هو فاعلها أو على الأقل المسئول عنها . وإذا شُكى إليه عامل وتحقق ظلمه جاء به مقيداً ولا يخليه من ضرب يوجعه به . وكان لا يفتأ يبحث عن سيرة عماله ورضا الناس عنهم ، وإذا عزلهم لا يستعين بهم بعدها أبداً . كتب إلى أحد عماله : « أما بعد فإذا دعتك قدرتك على الناس إلى ظلمهم ؛ فاذكر قدرة الله عليك ، وفناء ما توتى إليهم وبقاء ما يأتون إليك » . وكتب إلى عامله على العراق : « إن العرفاء من عشائرهم بمكان ، فانظر عرفاء الجند ، فمن رضيت أمانته لنا ولقومه فأثبته ، ومن لم ترضه فاستبدل به من هو خير منه ، وأبلغ فى الأمانة والورع » . وما كان يضن على عماله بالمشاهرات الحسنة وقد قيل له : ترزق الرجل من عمالك مائة دينار ومائتى دينار فى الشهر وأكثر من ذلك قال : أراه لهم يسيراً إن عملوا بكتاب الله وسنة نبيه ، وأحب أن أفرغ قلوبهم من الهم بمعايشهم . وقال : ما طاوعنى الناس على ما أردت من الحق حتى بسطت لهم من الدنيا شيئاً .

وأخذ عمر نفسه بالسير فى إصلاحه بالتدريج ، ناظراً قبل كل اعتبار إلى الدين لا يحيد عن صراطه قيد أنملة ، ولو كان فى ذلك بعض الضرر على بيت المال ، أو إدخال بعض الوهن على ما اصطلحوا عليه من قبله ، إرادة إلقاء الهيبة فى النفوس . قال لابنه : ما مما أنافيه أمر هو أهمُّ إلىَّ من أهل بيتك ، هم أهل العدة والعدد وقِبلَهم ما قبلهم ، فلو جمعت ذلك فى يوم واحد خشيت انتشاره علىَّ ، ولكنى أنصف من الرجل والاثنين فيبلغ ذلك من وراءه فيكون أنجع له ، فإن يرد الله إتمام هذا الأمر أتمه ، وإن تكن الأخرى فحسب عبد الله أن يعلم الله أنه يجب أن ينصف جميع رعيته . وكتب إلى عامله على خراج خراسان : « إن للسلطان أركاناً لا يثبت إلا بها ، فالوالى ركن ، والقاضى ركن ، وصاحب بيت المال ركن ، والركن الرابع أنا ، وليس من ثغور المسلمين ثغر أهم إلىَّ ولا أعظم عندى من ثغر خراسان ، فاستوعب الخراج وأحرزه فى غير ظلم ، فإن بك كفافاً لأعطياتهم فسبيل ذلك . وإلا

فاكتب إلى حتى أحمل إليك الأموال فتوفر لهم أعطياتهم . ولما وجد خراج تلك البلاد يفضل عن أعطيات جندها وأهلها قسم عمر الفضل فى أهل الحاجة .

وكتب إلى أمصار الشام(١) أن يرفعوا إليه كل أعمى فى الديوان أو مقعد أو من به فالج ، أو من به زمانة تحول بينه وبين القيام إلى الصلاة ، فأمر لكل أعمى بقائد ، ولكلى اثنين من الزَّمنى بخادم . وأمر أن يرفعوا إليه كل يتيم ومن لا أحد له ممن قد جرى على والده الديوان ، فأمر لكل خمسة بخادم يتوزعونه بينهم بالسوية ، وفرض للعوانس الفقيرات ، وكان لا يُفرض للمولود حتى يفطم ، فنادى مناديه لا تعجلوا أولادكم عن الفطام ، فإنا نفرض لكل مولود فى الإسلام .

واتخذ دار الطعام للمساكين والفقراء وابن السبيل ، وأوصى أن لا يصيب أحد من هذه الدار شيئاً من طعامها لأنه خاص بمن طبخ لهم . وقسم فى ولد على بن أبى طالب عشرة آلاف دينار ، وكان الناس فى عهده يعرضون على ديوانهم لتناول عطائهم ، فمن كان غائباً قريب الغيبة يعطى أهل ديوانه ؛ ومن كان منقطع الغيبة يعزل عطاؤه إلى أن يقدم ؛ أو يأتى نعيه أو يوكل عنه الوالى بوكالة بينة على حياته ليدفعه إلى وكيله . ونظر فى السجون وأمر أن يستوثق من أهل الدعارات(٢) ويكتب لهم برزق الصيف والشتاء ويعاهد مريضهم ممن لا أهل له ولا مال ، ولا يجمع فى السجون بين قوم حبسوا فى دين وبين أهل الدعارات فى بيت واحد ، ولا حبس واحد ، وجعل للنساء حبساً على حدة ، وعهد بالحبوس إلى من يوقن بأماناتهم ومن لا يرتشى « فإن من ارتشى صنع ما أمر به » وأنشأ الخانات فى بلاده يَقرى من مر بها من المسلمين يوماً وليلة ويتعهد دوابهم ، ويقرون من كانت به علة يومين وليلتين ، فإن كان منقطعاً به يقوى بما يصل به إلى بلاده . وأمر أن لا يخرجن لأحد من العمال رزق فى العامة والخاصة ، فإنه ليس لأحد أن يأخذ رزقاً من مكانين فى

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى .

(٢) استوثقت منه : أخذت فى أمره بالوثيقة ، وأهل الدعارة : أهل الفساد والشر .

الخاصة والعامة . وأطلق الجسور والمعابر للسابلة يسيرون عليها بدون جُعل ، لأن عمال السوء تعدوا غير ما أمروا به . وجعل لكل مدينة رجلا يأخذ الزكاة .

ولى عاملا له على الموصل فلما قدمها وجدها من أكثر البلاد سَرَقاً(١) ونقباً . فكتب إلى عمر يعلمه حال البلد ويسأله أخذ الناس بالظنة ، وضربهم على التهمة ، أو يأخذهم بالبينة . فكتب أن خذ الناس بالبينة وما جرت عليه السنة ، فإن لم يصلحهم الحق فلا أصلحهم الله . وكتب إليه أحد عماله يذكر شدة الحكم والجباية ، فأجابه أنه لم يكلفه ما يعنته ، وأن يجبى الطيب من الحق ، فإذا التبس عليه أمر يرفعه إليه قائلا : فلو أن الناس إذا ثقل عليهم أمر تركوه ما قام دين ولا دنيا . وكتب إلى أحد عماله : إن العمل والعلم قريبان فكن عالماً بالله عاملا له ، فإن أقواماً علموا ولم يعملو فكان عملهم عليهم وبالا . وكتب أيضاً أما بعد فاعمل عمل رجل يعلم أن الله لا يصلح عمل المفسدين . وكتب إلى عامل : أن دع لأهل الخراج من أهل الفرات مايتختمون(٢) به الذهب والفضة ، ويلبسون الطيالسة ويركبون البراذين ، وخذ الفضل . وكتب إلى عامله : أما بعد فالزم الحق ينزلك الحق منازل أهل الحق ، يوم لا يقضى بين الناس إلا بالحق وهم لا يظلمون . وكتب إلى أمير مكة أن لا يدع أهل مكة يأخذون على بيوت مكة أجراً فإنه لا يحل لهم لقوله تعالى : (سواء العاكف فيه والباد) . والبادى : من يخرج من الحجاج والمعتمرين سواء فى المنازل ينزلون حيث شاءوا ، ولا يخرج أحد من بيته . وكتب إلى عماله على مكة والطائف ، إن فى الخلايا صدقة فخذوها منها ، والخلايا الكوائر كوائر النحل . وكتب إلى عامله على اليمن يأمره بإلغاء الوظيفة والاقتصار على العشر ، وقال والله لأن لا تأتينى من اليمن حفنة كتم أحب إلى من إقرار هذه الوظيفة . وكان ضربها محمد بن يوسف على أهل اليمن ، وهى الخراج جعله وظيفة .

(١) يقال السرقة والسرَق والسرق .
(٢) تختم بالعقيق : لبسه وبالذهب والفضة أيضاً .

وما كان عمر مذ كان والياً على المدينة يقطع أمراً بدون استشارة ، وكان دعا إليه عدة من الفقهاء ، وحرضهم على أن يبينوا له زلاته إذا رأوا منه ذلك وسمعوا ، فكان إذا جلس مجلس الإمارة فى عهد خلافته أمر فألقى لرجلين منهما وسادة قبالته ، فقال لهما إنه مجلس شرّة وفتنة ، فلا يكن لكما عمل إلا النظر إلىّ ، فإذا رأيتما منى شيئاً لا يوافق الحق فخوفانى وذكرانى بالله عز وجل . وكان يقول ، بعد أن ولى الخلافة ، لأن يكون لى مجلس من عبيد الله – أحد الفقهاء السبعة بالمدينة ومؤدبه لما كان صغيراً – أحب إلى من الدنيا وما فيها . وقال : وإنى والله لأشترى ليلة من ليالى عبيد الله بألف دينار من بيت المال . فقالوا : يا أمير المؤمنين تقول هذا مع تحريك وشدة تحفظك . فقال أين يُذهب بكم والله إنى لأعود برأيه وبنصيحته وبهدايته على بيت مال المسلمين بألوف وألوف . وكان يحب السمر مع أهل الفضل فقيل له فى ذلك فقال : لقاء الرجال تلقيح الألباب . وقال : إن فى المحادثة تلقيحاً للعقل ، وترويحاً للقلب ، وتسريحاً للهم ، وتنقيحاً للأدب . وما زال يرد المظالم ويحيى السنن ويطفىء البدع ويقسم الأموال والأعطيات بين الناس . وردّ فدك إلى ما كانت عليه أى إلى آل الرسول .

أبعد عمر بن عبد العزيز الشعراء والخطباء عن حماه ، وما كان يحب المديح والهجاء ، وهو يعرف استرسال الشعراء فى المجون والهزل[1] ، وأنهم يمدحون من يعطيهم ويهجون من يضن عليهم ، وإذا كان رجل جد وتقوى حجبهم فانقشعوا[2] عنه كلهم ، وثبت الفقهاء والزهاد فكان يعطيهم عطاء كثيراً . أما الشعراء فاكتفوا بالقليل الذى كان يعطيهم من ماله الخاص ، وأعطى قوماً فى حمص نصبوا أنفسهم للفقه ، وحبسوها فى المسجد عن طلب الدنيا ، مائة دينار لكل رجل منهم ، يستعينون بها على ما هم عليه من بيت مال المسلمين . وبحسن سياسته سكنت الخوارج فى أيامه فلم يثوروا لأنه ناقشهم فأفحمهم ، وأقسموا أن لا يشغبوا ما دام خليفة . وما حدثته نفسه قط بإهراق

---

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه . (٢) تفرقوا .

دماء من خالفوه فى مذهبه . وقد كتب إلى عامله على الكوفة أن يستتيب القدرية مما دخلوا فيه ، فإن تابوا يخل سبيلهم وإلا ينفهم من ديار المسلمين ؛ أراد بذلك حقن دمائهم ، وكان غيره من الخلفاء يبادر إلى قتلهم .

وطريقة عمر فى إدارة ولايته طريقة أسلافه فى إطلاق الحرية للعامل ، لا يشاور الخليفة إلا فى أهم المهمات مما يشكل عليه أمره . كتب إلى عامله على اليمن : أما بعد فإنى أكتب إليك آمرك أن ترد على المسلمين مظالمهم ، فتراجعنى ولا تعرف مسافة ما بينى وبينك ، ولا تعرف أحداث الموت ، حتى لو كتبت إليك أن اردد على مسلم مظلمة شاة ، لكتبت أردّها عفراء أو سوداء ، فانظر أن ترد على المسلمين مظالمهم ولا تراجعنى . وأملى على كاتبه يوماً كتاباً إلى عامله على الكوفة قال فيه : « إنه يخيل إلى أنى لو كتبت إليك أن تعطى رجلا شاة لكتبت إلى أضأن أم ماعز ، فإن كتبت بأحدهما كتبت إلى أصغير أم كبير ، فإن كتبت إليك ، كتبت إلى أذكر أم أنثى ؛ فإذا أتاك كتابى هذا فى مظلمة فاعمل به ولا تراجعنى » . وكتب إلى آخر : « إنك تردد إلى الكتب فنفذ ما أكتب به إليك من الحق ، فإنه ليس للموت ميقات نعرفه » .

كان ينهى عماله عن المثلة فى العقوبة أى جز الرأس واللحية ، وينهاهم عن الإسراف حتى فى القراطيس التى يكاتبونه فيها . فقد قيل له ما بال هـــذه الطوامير التى تكتب بالقلم الجليل وتمد فيها وهى من بيت مال المسلمين . فكتب إلى العمال أن لا يكتبن فى طومار ولا يمدّن فيه . قالوا وكانت الطوامير شبراً ونحو ذلك . ومما كتب إلى أحد عماله : أدق قلمك ، وقارب بين سطورك واجمع بين حوائجك ، فإنى أكره أن أخرج من أموال المسلمين ما لاينتفعون به . وكان عمر من كبار الكتاب والخطباء ، وكان إذا خطب على المنبر فخاف فيه العجب قطع ، وإذا كتب كتاباً فخاف فيه العجب مزقه ، ويقول : اللهم إنى أعوذ بك من شر نفسى . ولما بويع بالخلافة دعا إليه كاتباً فأملى عليه كتاباً واحداً من فيه إلى يد الكاتب بغير نسخة ، فأملى أحسن إملاء وأبلغه وأوجزه

ثم أمر بذلك الكتاب فنسخ إلى كل بلد . قالوا وجعل يكتب بيده إلى العمال في الأمصار[١] .

كان عمر يحسن ظنه بعماله ولا يتخلى عن كشف أحوالهم ، فقد وفد عليه بلال بن أبي بردة بخناصرة فقال عمر للعلاء[٢] بن المغيرة بن البندار ، وقد رأى بلالا يديم الصلاة : إن يكن سر هذا كعلانيته ، فهو رجل أهل العراق غير مدافَع . فقال العلاء : أنا آتيك بخبره ، فأتاه وهو يصلي بين المغرب والعشاء فقال : اشفع صلاتك فإن لي حاجة إليك ، ففعل ، فقال له العلاء : قد عرفت حالي من أمير المؤمنين فإن أنا أشرت بك على ولاية العراق فما تجعل لي ؟ قال : لك عُمالتي[٣] سنة ، وكان مبلغها عشرين ألف درهم ، قال : فاكتب لي بذلك . قال : فأرقد[٤] بلال إلى منزله فأتى بدواة وصحيفة فكتب له بذلك ، فأتى العلاء عمر بالكتاب ، فلما رآه كتب إلى والي الكوفة : « أما بعد فإن بلالا غرنا بالله ، فكدنا نغتر ، فسبكناه فوجدناه خبثاً كله والسلام » وبلال هذا كان فيما يقال أول من أظهر الجور من القضاة في الحكم ، وكان أمير البصرة وقاضيها . وكان عمر يقول . لا ينبغي للرجل أن يكون قاضياً حتى تكون فيه خمس خصال : يكون عالماً قبل أن يستعمل ، مستشيراً لأهل العلم ، ملقياً للرَّثَع[٥] ، منصفاً للخصم ، مقتدياً بالأئمة .

سخط مسلمة بن عبد الملك على العريان بن الهيثم فعزله عن شرطة الكوفة ، فشكا ذلك إلى عمر بن عبد العزيز فكتب إليه : إن من حفظ أنعم الله رعاية ذوي الأسنان ، ومن إظهار شكر الموهوب صفح القادر عن الذنوب ، ومن تمام السؤدد حفظ الودائع واستتمام الصنائع . وقد كنت أودعت العريان نعمة من أنعمك فسلبتها عجلة سخطك وما أنصفته ، غضبته على أن وليته ثم عزلته

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي .
(٢) الكامل للمبرد .
(٣) العمالة : الأجرة .
(٤) أرقد : أسرع .
(٥) الرثع : الطمع .

وخليته ، وأنا شفيعه ، فأحب أن تجعل له من قلبك نصيبه ، ولا تخرجه من حسن رأيك ، فتضيع ما أودعته وتتوى[1] ما أفدته . فعفا عنه ورده إلى عمله .

خطب يوماً فقال : أيها الناس ، لا كتاب بعد القرآن ، ولا نبى بعد محمد صلى الله عليه وسلم ، ألا وإنى لست بقاض ، ولكنى مقتد ، ألا وإنى لست بمبتدع ولكنى متبع ، إن الرجل الهارب من الإمام الظالم ليس بعاص ، ولكن الإمام الظالم هو العاصى ، ألا لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق . وقال من خطبة : وما منكم من أحد تبلغنا حاجته يتسع له ما عندنا إلا حرصنا أن نسد حاجته ما استطعنا ، وما منكم من أحد تبلغنا حاجته لا يتسع له ما عندنا إلا تمنيت أن يبدأ بى وبخاصتى ، حتى يكون عيشنا وعيشه سواء . ومن غريب أمره فى إطلاق حرية القول أن يخطب الناس عبد الله بن الأهتم ، ويذكر ما آل إليه أمر الأمة على عهد صاحب الشريعة والخليفتين من بعده ثم يقول : إنا والله ما اجتمعنا بعدهما إلا على ضلع[2] أعوج . يقول هذا فى عهد عمر بن عبد العزيز ، وعمر يسكت عنه ، ولطالما أسمعه بعض الناقمين على أهل بيته ما يغضب له الحليم ، فما كان يقابلهم بغير الإغضاء ، يفهمهم من طرف خفى أنه لا يليق بالرجل أن ينال من آله .

وكان عمر يجلس إلى قاص العامة ويرفع يديه إذا رفع ، وقاصه محمد بن قيس . وعلم أن أناساً من القصاص يصلون على خلفائهم وأمرائهم ، يلتمسون الدنيا بعمل الآخرة ، فأمرهم بالدعاء للمؤمنين عامة وأن يلغوا ما سوى ذلك . وأدرك أن البادية يتحفزون إلى أن يرجعوا سيرتهم فى الجاهلية ، فبعث إليهم برجلين من أرباب الفقه يفقهان الناس فى البدو وأجرى عليهما رزقاً . وكأنه قطع عهداً على نفسه إذا ولى أمر المسلمين «أن لا يضع لبنة على لبنة ولا آجرة على آجرة » لئلا يقع فى ذلك حيف على الرعية ، وهم يتولون من ذلك ما يصلحهم من

(١) توى : كرضى هلك وأتواه الله فهو تو أذهبه فهو ذاهب والتوى الهلاك .
(٢) الضلع : الميل .

إقامة القصور والبيوت . أما هو فيعمل لإغنائهم وحملهم على الجادة ، حتى لم يبق فقير في أيامه في أكثر الأمصار ، لكثرة ما وزع على الفقراء من أموال الصدقات : يقبض عماله الصدقة ثم يقسمونها في المحاويج حتى ليصيب الرجل الفريضتان أو الثلاث فما يفارقون الحي وفيهم معوز ، ولا ينصرفون إلى الخليفة[١] بدرهم . بعث عاملا على صدقات إفريقية[٢] فأراد أن يعطى منها الفقراء فالتمسهم في كل مكان فلم يجد فيها فقيراً يقبل أن يأخذ صدقة بيت المال ، فاشترى بها رقاباً وأعتقها وجعل ولاءهم للمسلمين ، وما مات عمر حتى جعل الرجل يأتي بالمال العظيم ويقول : اجعلوا هذا حيث ترون في الفقراء ، فما برح حتى يرجع بماله ، لا يجد من يضعه فيهم ، لكثرة ما أغنى الناسَ عمر .

ومن أهم ما عمله عمر في حسن الأدارة والسياسة أنه لم يشأ — لما أسندت إليه الخلافة — أن يبدأ بعمل قبل أن يستدعي المسلمين من أرض الروم ، وقال : لرجل من المسلمين أحب إلى من الروم وما حوت . وفي سنة ١٠٠ أمر أهل طُرَنْدة بالقفول عنها إلى مَلَطْيَة ثم يشترى ملطية من الروم بمائة ألف أسير ، فجعل لدولته سداً منيعاً ، وأنقذ المسلمين من ذل الأسر . وأراد هدم المصيصة ونقل أهلها عنها لما كانوا يلقون من الروم فتوفي بعد ذلك .

ولما بلغ صاحب القسطنطينية نعيه نزل عن سريره وبكى ، وذكر من مآثر عمر أمام وفد من العرب ، كان ذهب للفداء بين المسلمين والروم ، ما أبكى المقل ، ومما قال : لقد بلغني من بره وفضله وصدقته ما لو كان أحد بعد عيسى يحيي الموتى ، لظننت أنه يحيي الموتى ، ولقد كانت تأتيني أخباره باطناً وظاهراً ، فلا أجد أمره مع ربه إلا واحداً ، بل باطنه أشد حين خلواته بطاعة مولاه ، ولم أعجب لهذا الراهب الذي ترك الدنيا وعبد ربه على رأس صومعته ، ولكني عجبت لهذا الراهب الذي صارت الدنيا تحت قدميه فزهد فيها حتى صار مثل الراهب[٣] .

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي . (٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم . (٣) مروج الذهب للمسعودي .

وأحب عمر أن يجلى المسلمين من الأندلس لأنه كان يعتقد أن مقامهم فيها غير طبيعى ، لأنهم محاطون بالأعداء بعيدون عن مقر الخلافة . فأمر أحد عماله أن يرسم له مصوّر الأندلس ليرى فى إجلاء المسلمين رأيه . وكتب إلى عامله عبد الرحمن بن نعيم يأمره بإقفال من وراء النهر من المسلمين بذراريهم فأبوا . وكتب إلى عمر بذلك فكتب إليه : « اللهم إنى قد قضيت الذى على فلا تغز بالمسلمين فحسبهم الذى قد فتح الله عليهم » كل أولئك يدل على أن عمر ما كان يريد التوسع فى الفتوح ، ويحاول أن يقتصر على البلاد التى دخلت فى المملكة الإسلامية حتى لا تهرق الدماء على غير طائل ، ويعمر الناس البلاد ، ويصلح أهلها صلاحاً دائماً على أن يكونوا بين أخروى يرجو ثواب الله ، ودنياوى يستجمع صفات الشرف فى نفسه .

وكتب إلى ملوك الهند يدعوهم(١) إلى الإسلام والطاعة على أن يملكهم ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم . وقد كانت بلغتهم سيرته ومذهبه فأسلموا وتسموا بأسماء العرب . ولما ولى إسماعيل بن عبد الله بن أبى المهاجر مولى بنى مخزوم بلاد المغرب سار أحسن سيرة ودعا البربر إلى الإسلام . وكتب إليهم عمر بن عبد العزيز كتاباً يدعوهم إلى الإسلام فقرأه إسماعيل فى النواحى فغلب الإسلام على المغرب . وكتب فى اللواتيات : إن من كانت عنده لواتية فليخطبها إلى أبيها أو فليرددها إلى أهلها . ولواتة قبيلة من البربر كان لهم عهد : ولما استخلف كتب إلى ملوك ما وراء النهر يدعوهم إلى الإسلام فأسلم بعضهم ورفع الخراج عمن أسلم بخراسان وفرض لمن أسلم ، وابتنى خانات ، ثم بلغ عمر عن عامله عصبية . وكتب إليه أنه لا يصلح أهل خراسان إلا السيف فأنكر ذلك وعزله ، وكان عليه دين فقضاه . ووفد عليه قوم من أهل سمرقند فرفعوا إليه أن قتيبة دخل مدينتهم وأسكنها المسلمين على غدر ، فكتب إلى عامله أن ينصب لهم قاضياً ينظر فيما ذكروا ، فإن قضى بإخراج المسلمين

---

(١) فتوح البلدان للبلاذرى .

أخرجوا ، فحكم القاضي بإخراج المسلمين على أن ينابذوهم على سواء[1] ، فكره أهل سمرقند الحرب وأقروه فأقاموا بين أظهرهم . قال عمر لمزاحم مولاه إن الولاة جعلوا العيون على العوام ، وأنا أجعلك عيني على نفسي فإن سمعت مني كلمة تربأ بي عنها أو فعلا لا تحبه ، فعظني عنده وانهني عنه . وكان عنده رجلان فجعلا يلحنان فقال الحاجب : قوما قد آذيتما أمير المؤمنين . فقال عمر : أنت آذى لي منهما .

هذا مجمل ما تم في عهد أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز من الإصلاح فأعاد إلى الخلافة جمالها وجلالها ، على ما كانت عليه أيام جده لأمه عمر ابن الخطاب ولكن عمر بن عبد العزيز عمل في غير زمان عمر بن الخطاب وعمل بغير رجاله . وكان دأب عمر بن عبد العزيز أن يذكر الناس بالآخرة ويخوفهم العذاب ، ودأب ابن الخطاب أن يذكرهم العمل للدنيا مع شدة التمسك بحقوق الأخرى ، فكانت إدارة عمر بن الخطاب ملائمة لزمانه وسيرة حفيده كذلك . لأن الناس فسدوا في أواخر القرن الأول أو بدأوا بالفساد ، فكان هجيراه أن يذكرهم بالمعاد ويطهر أخلاقهم . عمل عمر كل هذا في سنتين وخمسة أشهر وهذا من أعجب ما يدون في تاريخ عظماء الأرض .

لما مرض مرضته التي مات فيها دخل عليه مسلمة بن عبد الملك فقال : ألا توصي يا أمير المؤمنين ؟ فقال : فيم أوصي ، فوالله إن لي من مال فقال : هذه مائة ألف فمر فيها بما أحببت . فقال أو تقبل ؟ . قال : نعم . قال : ترد على من أخذت منه ظلماً . فبكى مسلمة ثم قال : يرحمك الله لقد ألنت منا قلوباً قاسية ، وأبقيت لنا في الصالحين ذكراً .

إدارة يزيد بن عبد الملك وهشام ويزيد بن الوليد ومروان بن محمد :

ولم يكد عمر بن عبد العزيز يلحق بمولاه حتى عادت الدولة إلى سابق عهدها إلا قليلا . وعزل يزيد بن عبد الملك عمال عمر بن عبد العزيز جميعاً ،

(١) قوله تعالى : فانبذ إليهم على سواء معناه إذا هادنت قوما فعلمت منهم النقض للعهد فلا توقع بهم سابقا إلى النقض حتى تعلمهم أنك نقضت العهد فتكونوا في علم النقض مستوين ثم أوقع بهم (المصباح) .

وأعاد سب علىّ على المنابر . وكتب إلى عمال عمر : « أما بعد ، فإن عمر كان مغروراً غررتموه أنتم وأصحابكم ، وقد رأيت كتبكم إليه فى انكسار الخراج والضريبة ، فإذا أتاكم كتابى هذا فدعوا ما كنتم تعرفون من عهده ، وأعيدوا الناس إلى طبقتهم الأولى ، أخصبوا أم أجدبوا ، أحبوا أم كرهوا ، حيوا أم ماتوا والسلام » :

وجاء دور هشام فى الخلافة وناهيك به من « رجل محشو عقلا » وفيه من الحلم والأناة والعفة ما ظهرت آثاره فى إدارة الملك ، وعد أحد السواس الثلاثة من بنى أمية وهم معاوية وعبد الملك وهشام ؛ وبه ختمت أبواب السياسة وحسن السيرة ، وكان يحب جمع المال وعمارة الأرض واصطناع الرجال وتقوية الثغور وإقامة البرك والقنى فى طريق مكة وغير ذلك ، ويسير بموكب كسائر الخلفاء من أهل بيته ، ولم يكن مثل ذلك لغير أخيه مسلمة ابن عبد الملك . وافتتح عهده بعزل عمر بن هبيرة عن العراق وتولية خالد بن عبد الله القسرى ، فأدار هذه الولاية[1] العظيمة نحو خمس عشرة سنة بإقامة العدل وإفاضة السلام والعمل الصالح . وكان هشام على غاية الإخلاص متقللا متقشفاً فى ذاته ، يقوم بواجب الخلافة حق القيام ، ومن أكبر همه إصلاح أموال الدولة ، وغلب عليه الاقتصاد حتى كاد ينقلب إلى شح . بينا هو يوصى عقال بن شُبَّة[2] لما وجهه إلى خراسان نظر هذا إلى قباء الخليفة فقال : مالك ؟ قال : رأيت عليك قبل أن تلى الخلافة قباء فنك[3] أخضر فجعلت أتأمل هذا أهو ذاك أم غيره . فقال : هو والله الذى لا إله إلا هو ذاك ، مالى قباء غيره ، وأما ما ترون من جمعى هذا المال وصونه فإنه لكم .

وكانت دواوينه مثال التنسيق والعناية فى معاملة الرعية ومحاسبة العمال الذين يتصرفون له يتخيرهم من الأمناء البعيدين « من الفساد ومن الرشا ومن الحكم بالهوى » ويعتمد فى إسناد عظام الأعمال على أناس من أهل بيته . قال

(١) معلمة الإسلام . مادة هشام . (٢) تاريخ الطبرى .
(٣) الفنك (محركة) : جلد يلبس ، فروته أطيب أنواع الفراء وأشرفها وأعدلها صالح لجميع الأمزجة المعتدلة .

عبد الرحمن بن على : جمعت دواوين بنى مروان فلم أر ديواناً أصح للعامة وللسلطان من ديوان هشام . وقال غسان بن عبد الحميد : لم يكن أحد من بنى مروان أشد حصراً فى أمر الصحابة ودواوينه ولا أشد مبالغة فى الفحص عنهم من هشام .

كتب هشام إلى والى العراق لما أخذ ابن حسان النبطى فضربه بالسياط ، وكان أوغر صدر هشام عليه من إفراط الدالة واحتجان الأموال وكفر ما أسداه إليه من توليته إياه العراق : « إن هشاماً آثرك بولاية العراق، بلا بيت رفيع ولا شرف قديم ، وهذه البيوتات تعلوك وتغمرك وتسكتك وتتقدمك فى المحافل والمجامع عند بداءة الأمور وأبواب الخلفاء » . ومما قال له إنه استعان بالمجوس والنصارى وولاهم رقاب المسلمين وجبوة خراجهم وسلطهم عليهم . وقال له : والله لو كنت من ولد عبد الملك بن مروان ما احتمل لك أمير المؤمنين ما أفسدت من مال الله ، وضيعت من أمور المسلمين ، وسلطت من ولاة السوء على جميع أهل كور عملك تجمع إليك الدهاقين[٢] هدايا النيروز والمهرجان ، حابساً لأكثره ، رافعاً لأقله ، مع مخابث مساويك[١] .

وغزا هشام الروم عدة غزوات موفقة ، وكان الأسطول يشترك مع الجيش البرى من اليابسة ، وذلك بقيادة ابنيه معاوية وسليمان ، وتقدمت جيوشه فى الشرق فغزا الترك . وأخذ دعاة بنى العباس وثوار الخوارج فى أيامه يعملون سراً ، وجهراً إذا أمكنتهم الحال . وما كان بما عرف فيه من العقل يريد إثارة الخواطر فيما لا يعود على السلطان بفائدة ، فقد لقيه فى الحج سنة ١٠٦ سعيد بن عبد الله بن الوليد بن عثمان بن عفان وقال له : يا أمير المؤمنين إن الله لم يزل ينعم على بيت أمير المؤمنين وينصر خليفته المظلوم ، ولم يزالوا يلعنون فى هذه المواطن الصالحة أبا تراب (على بن أبى طالب) فأمير المؤمنين ينبغى له أن يلعنه فى هذه المواطن الصالحة . فشق ذلك على هشام

---

(١) الدهقان : جمعه دهاقنة ، التاجر وزعيم فلاحى العجم ورئيس الإقليم أو مقدم القرية أو صاحبها بخراسان والعراق . (٢) يقال : هو خبيث مخبث وفيه مخابث جمة .

وثقل عليه كلامه ثم قال : ما قدمنا لشتم أحد ولا للعنه ، قدمنا حجاجاً ، ثم قطع كلامه(١) .

وذكروا أن هشاماً كان ينزل الرصافة من أرض قنسرين وكان سبب نزوله إياها أن الخلفاء كانوا ينتبذون(٢) ويهربون من الطاعون فينزلون البرية خارجاً عن الناس ، فلما أراد هشام أن ينزل الرصافة قيل له : لاتخرج فإن الخلفاء لا يطعنون ولم ير خليفة طعن . فقال : أتريدون أن تجربوا بى . فنزل الرصافة وهى برية وابتنى بها قصرين . وكان(٣) لا يدخل بيت ما له مال حتى يشهد أربعون قسامة(٤) أنه أخذ من حقه ، وأعطى لكل ذى حق حقه . وهو من أحزم بنى أمية ومن أعقلهم يفضل على العلماء والفقهاء كثيراً .

وتولى يزيد بن الوليد الخلافة فنقص الناس من عطائهم ، وكان أشد ضنانة بالمال من هشام ، فسمى يزيد الناقص ، فاضطربت عليه البلدان، وكان الخليفة من بنى أمية إذا مات وقام آخر زاد فى أرزاقهم وعطاياهم عشرة دراهم فيقولون : (عير بعير(٥) وزيادة عشرة) أى رجل برجل وزيادة عشرة . فسار هذا القول مسير الأمثال عند أهل الشام . وكان يزيد يهتم باللهو واللذة والركوب للصيد وشرب النبيذ ومنادمة الفساق ، وأفسد على نفسه بنى عميه ولد هشام وولد الوليد ابنى عبد الملك بن مروان . وأفسد على نفسه اليمانية وهم أعظم جند الشام ؛ ولعل هذه الغلطات الإدارية جسمت ما اتهم به ، فكانت حجة للخواص عند العوام حتى أوردوه موارد الهلكة . وقال خالد ابن يزيد : يا أمير المؤمنين قتلت ابن عمك لإقامة كتاب الله تعالى وعمالك يغشمون ويظلمون . قال : لا أجد أعواناً غيرهم وإنى لأبغضهم . قال : يا أمير المؤمنين ول أهل البيوتات ، وضم إلى كل عامل رجلا من أهل الخير والعفة ، يأخذونهم بما فى عهدك . قال : افعل .

---

(١) تاريخ الطبرى . (٢) انتبذ الرجل : اعتزل ناحية .
(٣) تاريخ الطبرى . (٤) القسامة : الذين يقسمون على دعواهم .
(٥) العير : السيد والملك .

وأمر الوليد بن يزيد بعض رجاله بتعذيب بعض العمال لأنه كان رفع إليه أنهم أخذوا مالا كثيراً[1] . ولما قتل الوليد (١٢٦) كان في بيت المال سبعة وسبعون ألف ألف دينار ففرقها يزيد عن آخرها ، وتعهد الناس أن لا يضع حجراً فوق حجر ، ولا لبنة على لبنة ، ولا يكرى نهراً ولا يكنز مالا ، ولا ينقل مالا من بلد إلى بلد ، حتى يسد ثغرة وخصاصة أهله بما يغنيهم ، فما فضل منه نقله إلى البلد الآخر الذي يليه ، ولا يغلق بابه دونهم ، ولهم أعطياتهم في كل سنة وأرزاقهم كل شهر ، حتى يكون أقصاهم كأدناهم . أما مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية فقد كان شيخ بني أمية وكبيرهم[2] « ذا أدب كامل ورأي فاضل » وهو أحزم بني مروان وأنجدهم[3] وأبلغهم ، ولكنه ولي الخلافة والأمر مدبر عنهم .

هذا ما كان من إدارة دولة امتد حكمها مسافة[4] مائتي يوم من المشرق إلى المغرب تقرأ آي القرآن في سمرقند كما تتلى في قرطبة ، ويتلاقى الهندي مع السوداني في مكة للحج وكلاهما يدين لبني أمية . وفي أيامهم ظهرت على الممالك قدرة وغنى . وكانت كلمة الدولة نافذة في ثلاثة أقسام من الأرض آسيا وإفريقية وأوربا . ملكوا من براري جبل الطور إلى قفار ما وراء النهر ، ومن وادي كشمير إلى منحدر جبل طوروس على البحر المتوسط وأطراف الأناضول ، وسائر مملكة الأكاسرة وما عجز عنه الأكاسرة ، وأخذت الجزية التي قررها عمر بن الخطاب من النوبة كما أخذت من الهند والصين على ما قدرها مسلم بن قتيبة الباهلي . وكل ذلك على قواعد العدل وقسطاس الحق . حتى صارت دمشق في نظر المسلمين كأنما هي رومية في نظر النصارى ، وانتشرت حضارة الإسلام[5] في نصف قرن تقريباً من سواحل البحر الأطلنطي إلى بلاد الصين ، ومن جبال القوقاز وما وراءها إلى خط الاستواء وما وراءه ، ودخلت في حوزة الإسلام أمم كثيرة من السلالة السامية « العرب

---

(١) تاريخ الطبري . (٢) الأخبار الطوال لأبي حنيفة الدينوري .
(٣) العقد الفريد لابن عبد ربه . (٤) حياة الإسلام لمصطفى نجيب .
(٥) الحضارة الإسلامية لأحمد زكي .

والسريان والكلدان » ومن السلالة الحامية « المصريون والنوبيون والبربر والسودان » ومن السلالة الآرية « الفرس واليونان والأسبان والأهاند أى الهنود » ومن السلالة المسماة بالتورانية « الترك والتتار » .

كل هذا وما كان جميع الناس راضين عن إدارة الأمويين ولا سيما خصومهم السياسيون . ومتى كان الخصم ينصف خصمه ؟ وإليكم مثالا من ذلك صدر عن أحد نساك الأباضية وخطبائهم وهو أبو حمزة يحيى بن مختار الخارجى ، خطب فى مكة ووصف سيرة الخلفاء الراشدين ثم قال فى بنى أمية : وأما بنو أمية ففرقة ضلالة ، وبطشهم بطش جبرية ، يأخذون بالظنة ، ويقضون بالهوى ، ويقتلون على الغضب ويحكمون بالشفاعة ، ويأخذون بالفريضة من غير موضعها ، ويضعونها فى غير أهلها ، وقد بين الله أهلها فجعلهم ثمانية أصناف فقال : (إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل) فأقبل صنف تاسع منها فأخذها كلها ، تلكم الفرقة الحاكمة بغير ما أنزل الله ا هـ . والله أعلم بمقدار ما فى هذا الخطاب — على جلالة قدر صاحبه — من الخطأ والخطل . ولكن غضب العربى فى رأسه فإذا غضب لم يهدأ حتى يخرجه بلسانه أو يده كما قالوا .

لا جرم أن إدارة الأمويين لم تكن فى كل أيام خلفائهم بريئة من العيوب ، ولم تضعف فى الحقيقة إلا فى أيام يزيد بن الوليد ، وكان على غير طريقة أسلافه فى أعماله ، وكان آخرهم مروان بن محمد ، على عظم همته وشدة بأسه مشغولا بالدفع عن الخلافة وكثرت الفتوق فضعفت إدارة المملكة : كانت حكومتهم عربية صرفة يتولاها أهل البيوتات والأشراف على الأكثر :

إدارة العباسيين

تدابير السفاح والمنصور :

داول أبو العباس السفاح بين الكوفة والأنبار والحيرة والهاشمية من المدن ، فكان يتنقل فيها ، ولم يجعل له عاصمة مستقرة . واتخذ له وزيراً أبا سلمة الخلال حفص بن سليمان وسلمه الدواوين ، وكان يسمى وزير آل محمد . وأصبحت الوزارة فى الدولة العباسية مقررة القواعد والقوانين ، وما كانت تُعهد فى الدولة الأموية . كان من يستشيرهم الأمويون يسمون كتاباً ومشيرين على الأغلب ، ويسمى وزيراً من باب التجوز لا على مثال بنى العباس . استوزر السفاح خالد بن برمك بعد أن قتل أبا سلمة الخلال . فجعل خالد له دفاتر فى الدواوين من الجلود وكتب فيها وترك الدروج . وكانت كتابة الدواوين فى صدر الإسلام أن يجعل ما يكتب فيه صحفاً مدرجة . دام ذلك مدة بنى أمية . ولما تصرف جعفر بن يحيى بن خالد بن برمك فى الأمور أيام الرشيد اتخذ الكاغد وتداوله الناس من بعد[1] .

لم يتفرغ السفاح لوضع أساس ثابت للإدارة لانصرافه جملة واحدة إلى توطيد دعائم الفتح وقتال الخوارج عليه ، وسار فى الجملة على نظام الأمويين وكان أخوه أبو جعفر يتولى لأخيه كل أمر عظيم ، وكانت العراق على حظ وافر من ترتيب دواوينها وانتظام شئون إدارتها على العهد الأموى ، بفضل من وليها من أكبر رجال الإدارة والسياسة من بنى أمية . وكذلك الحال فى معظم الأقطار ، تبدلت دولة بدولة وخليفة بخليفة ، ونسج الآخر على منوال الأول اضطراراً واختياراً ، وقل أن خالفه فى ترتيبة ونظمه . خطب السفاح قائماً ، وكانت بنو أمية تخطب قعوداً ، فضج الناس وقالوا : أحييت السنة يا ابن عم رسول الله .

(١) مروج الذهب للمسعودى .

كان السفاح جميل العشرة جواداً بالمال يحب مسامرة الرجال ، وكان كثيراً ما يقول : العجب ممن يترك أن يزداد علماً ويختار أن يزداد جهلا ، فقال له أبو بكر الهذلى : ما تأويل هذا الكلام يا أمير المؤمنين ؟ قال : يترك مجالسة مثلك ومثل أصحابك ويدخل إلى امرأة وجارية ، فلا يزال يسمع سخفاً ويرى نقصاً . فقال له الهذلى : لذلك فضلكم الله على العالمين ، وجعل منكم خاتم النبيين .

ومن أثمن ما وصل إلى أبى العباس من ميراث بنى أمية بردة الرسول وقضيبه . وكان مروان[1] بن محمد حين أحيط به فى مصر دفعهما إلى خادم له وأمره أن يدفنهما فى بعض تلك الرمال . فلما أخذ الخادم فى الأسرى قال : إن قتلتمونى ضاع ميراث النبى ، فأمنوه على أن يسلم لهم ذلك . وكان للبردة والقضيب شأن وأى شأن عند جميع الخلفاء من بعده .

ولى المنصور الخلافة وكان أسن من أخيه أبى العباس السفاح ، ودبر المملكة فى أيامه تدبيراً حسناً . أفضى إليه الملك وهو حنيك[2] كما قال عن نفسه ، قد حلب هذا الدهر أشطره[3] ، وزاحم المشاة فى الأسواق ، وشاهدهم فى المواسم ، وغازاهم فى المغازى قال : فوالله ما أحب أن أزداد بهم خبراً ، على أنى أحب أن أعلم ما أحدثوا بعدى ، مذ تواريت عنهم بهذا الجدارات ، وتشاغلت عنهم بأمورهم ، مع أنى والله ما لمت نفسى أن أكون قد أذكيت عليهم العيون حتى أتتنى أخبارهم وهم فى منازلهم . وأبو جعفر المنصور فى تأسيسه دولة بنى العباس كمعاوية فى تأسيس دولة بنى أمية ، مع اعتبار الفرق بين عصريهما ، والسر الأعظم فى نجاحهما أنهما مرنا على الإدارة قبل أن تسند الخلافة إليهما .

---

(١) البيان والتبيين للجاحظ .

(٢) الحنيك والمحنك والمحتنك والحنك : هو المجرب البصير بالأمور .

(٣) يقال للرجل المجرب الأمور فلان قد حلب الدهر أشطره أى قد قاسى الشدائد والرخاء وتصرف فى الفقر والغنى ، وأشطره خلوفه أو أخلاف من أخلاف الناقة . وحلب فلان الدهر أشطره أى مر به خيره وشره .

ولى المنصور أهله البلدان ، وفرق العمالات بين قواد من العرب وقواد من مواليه . فكان ينقل قواد العرب فى أعماله لثقته بهم واعتماده عليهم ، ثم استعمل مواليه وغلمانه فى أعماله ، وصرفهم فى مهماته ، وقدمهم على العرب فامتثلت ذلك الخلفاء من بعده من ولده ، فسقطت قيادات العرب ، وزالت رياستها وذهبت مراتبها . فهو الذى « أصل[1] الدولة ، وضبط المملكة ، ورتب القواعد ، وأقام الناموس ، واخترع أشياء ، ولم تكن الوزارة فى أيامه طائلة لاستبداده واستغنائه برأيه وكفايته ، على أنه كان يشاور فى الأمور دائماً ، وإنما كانت هيبته تصغر لها هيبة الوزراء » .

اجتمع للمنصور كثير من الخيل لم يعرف مثله فى جاهلية ولا إسلام واستجاد الكساء والفرش وعدد الحرب ومؤنها ، واصطنع الرجال وقوى الثغور . ولقب بأبى الدوانيق لتشدده فى محاسبة العمال والكتاب . وجماع سياسته المالية أن يدخر المال قائلا : « من قل ماله قل رجاله ومن قل رجاله قوى عليه عدوه ، ومن قوى عليه عدوه اتضع ملكه ، ومن اتضع ملكه استبيح حماه » وذكر أنه أخذ أموال الناس حتى ما ترك عند أحد فضلا[2] وكان يعطى الجزيل والخطير[3] إذا رأى فى العطاء فائدة ، ويمنع اليسير والحطير إذا كان عطاؤه تضييعاً ، فكان كما قال زياد لو أن عندى ألف بعير وعندى بعير أجرب لقمت عليه قيام من لا يملك غيره . ومن أجل هذا كان يثمر ماله وينظر فيما لا ينظر فيه العوام ، ووافق صاحب مطبخه على أن له الرؤوس والأكارع والجلود وعليه الحطب والتوابل .

وَعدَ محمد بن عبد الله لما خرج عليه إذا رجع إلى طاعته من قبل أن يقدر عليه أن يعطيه ألف ألف درهم ، ويؤمنه على نفسه وولده وإخوته ، ومن بايعه وتابعه وشايعه ، ويطلق من فى سجنه من أهل بيته وأنصاره ، آثر أن يحقن الدماء ويعطى هذا العطاء على أن يبعث البعوث وينفق الأموال . وأنفق

---

(١) الفخرى لابن الطقطقى . (٢) تاريخ اليعقوبى .
(٣) مروج الذهب المسعودى .

ثلاثة وستين ألف درهم على جيش واحد كان مؤلفاً من خمسين ألفاً وجهه إلى إفريقية لقتال الخوارج ، بمعنى أن أبا جعفر كان الحزم كله فى تدبير ملكه ، والحزم كله فى جمع المال للشدائد ، والإنفاق منه عند الحاجة لقيام الدولة ، ويذكرون له فى باب الإمساك أخباراً كثيرة .

يقول المسعودى إن المنصور[١] كان فى الحزم وصواب التدبير وحسن السياسة على ما تجاوز كل وصف، وهو أول من رتب المراتب من الخلفاء[٢] وكان لبنى أمية بيوت بلا منعة ولا إذن ، وإنما كان الناس يقفون على أبوابهم حتى يؤذن لهم أو يصرفوا . فلما ولى بنو العباس وبنى المنصور بيته اتخذ فى قصره بيوتاً للإذن ، فجرى الأمر على ذلك . وكانت أرزاق الكتاب فى أيامه ثلثمائة ثلثمائة ، وكذلك كانت فى أيام بنى أمية . وكان المنصور متقللا متقشفاً لا يحب البذخ والرفاهية بعد كل ما يأكل ويلبس نعمة عظمى بالقياس إلى حاله قبل الخلافة . فهو شديد فى قتال أعدائه ، شديد فى نظامه وترتيبه ، يعرف قيمة الوقت فلا يصرفه إلا فيما ينفع الدولة ويعمل فى خدمتها ليله ونهاره ، وكان شغله[٣] فى صدر نهاره بالأمر والنهى والولايات والعزل وشحن الثغور والأطراف وأمن السبل والنظر فى الخراج والنفقات ، ومصلحة معاش الرعية والتلطف بسكونهم ، فإذا صلى العصر جلس لأهل بيته ، فإذا صلى العشاء الآخرة جلس ينظر فيما ورد من كتب الثغور والأطراف والآفاق وشاور سماره . وهو على انتباه لكل دقيق وجليل . وكان يقول ما أحوجنى أن يكون على بابى أربعة نفر لا يكون على بابى أعف منهم ، هم أركان الدولة ولا يصلح الملك إلا بهم : أما أحدهم فقاض لا تأخذه فى الله لومة لائم ، والآخر صاحب الشرطة ينصف الضعيف من القوى ، والثالث صاحب خراج يستقصى ولا يظلم الرعية ، ثم عض على إصبعه السبابة ثلاث مرات يقول فى كل مرة آه آه . قيل ما هو يا أمير المومنين ؟ قال : صاحب بريد يكتب خبر هؤلاء على الصحة .

(١) مروج الذهب للمسعودى . (٢) لطائف المعارف للثعالبى .
(٣) تاريخ ابن الأثير .

استعمل المنصور في ولاياته وأعماله قليلا من عمال الدولة البائدة ، وكثيراً من أهل بيته ورجالات العرب وبعض الفرس ، استوزر ابن عطية الباهلي وهو من صميم العرب كما وزر له أبو أيوب المورياني الخوزي وهو فارسي . وما كان يترك الوزير يعمل برأيه فقط ، بل ينهي إليه كل ما يعرض له من أمور الدولة قبل البت فيها . وطريقته في حكم الأمصار طريقة «اللا مركزية» أي طريقة الأمويين والراشدين من قبل . دعاه إلى اتخاذها تباعد ما بين أجزاء المملكة ، وبعد الشقة في نقل الأخبار ، على ما كان في عهده من انتظام البريد وحمام الزاجل يطير في المهمات السريعة . كتب المنصور إلى مسلم بن قتيبة يأمره بهدم دور من خرج مع أحد الخوارج وعقر نخلهم . فكتب إليه : بأي ذلك نبدأ أبالنخل أم بالدور؟ فكتب إليه أبو جعفر : « أما بعد فإني لو أمرتك بإفساد تمرهم لكتبت إلى تستأذن في أيه نبدأ أبا لبَرني أم بالشّهريز[1] » وعزله

لم ينفتق على المنصور في ملكه الواسع خرق إلا سده ، لأن جيشه كثير ، وآلته تامة ، وقواده يعرفون منه أن من سياسته أن يقتل على التهمة ، فهم يصدعون بأمره كله ، ولا يخرمون منه مادة واحدة . احتل الروم طرابلس الشام وظهر في الشام رجل من أهل المنيطرة[2] (١٤٢ – ١٤٣) سمى نفسه ملكاً ، ولبس التاج وأظهر الصليب ، واجتمع أنباط أهل جبل لبنان وغيرهم ثم استفحل أمرهم فظهر عليهم الجيش العباسي ، فأمر أمير دمشق بإخراج من بقي في الجبل وتفريقهم في بلاد الشام وكورها ، فكان هذا التدبير الإداري مما انتقده الإمام الأوزاعي بشدة ، لأنه إن كان من نصارى لبنان المعتدي على حقوق السلطان ، فإن منهم البريء وليس من الجائز[3] أن يجلى عن أرضه ويعامل الطائع كالعاصي .

كان المنصور في أكثر أموره وسياسته وتدبيره متبعاً في أفعاله هشام ابن عبد الملك لكثرة ما كشفه من أخبار هشام وسيرته ، وكان يقول إنه أي هشاماً

---

(١) البرني : تمر أصفر مدور وهو أجود التمر واحدته برنية . والشهريز : ضرب من التمر في نواحي البصرة .

(٢) تاريخ ابن عساكر . (٣) فتوح البلدان للبلاذري .

فتى القوم أى رجل بنى أمية . وقال : الملوك ثلاثة معاوية وكفاه حجاجه ، وعبد الملك وكفاه زياده ، وأنا ولا كافى لى . وكان يقول لأهل بيته : إنى لأجهل موضعى حتى أحذر منكم لأنه ما فيكم إلا عم وأخ وابن عم وابن أخ ، فأنا أراعيكم ببصرى وأهتم بكم بنفسى ، فالله فى أنفسكم فصونوا ، وفى أموالكم فاحتفظوا بها ، وإياكم والإسراف فيوشك أن تصيروا من ولد ولدى إلى من لا يعرف الرجل حتى يقول له من أنت .

كان المنصور آية فى الإشراف على عماله وإرادتهم على العدل ، يهدّدهم بالعقوبات إذا ولاهم ، وأكثرهم يصححون ويناصحون ويختار أهل البلاء منهم . ولقد وفد عليه قاضي إفريقية ، وكان رفيقه فى طلب العلم ، فسأله كيف رأيت سلطان من سلطان بنى أمية ، وكيف ما مررت به من أعمالنا حتى وصلت إلينا ؟ فقال : يا أمير المؤمنين رأيت أعمالا سيئة وظلماً فاشياً ، والله يا أمير المؤمنين ما رأيت فى سلطانهم شيئاً من الجور والظلم إلا رأيته فى سلطانك ، وكنت ظننته لبعد البلاد منك ، فجعلت كلما دنوت كان الأمر أعظم . فنكس الخليفة رأسه طويلا ثم رفعه وقال ، كيف لى بالرجال : فقال القاضى : أليس عمر ابن عبد العزيز كان يقول إن الوالى بمنزلة السوق يجلب إليها ما ينفق فيها ، فإن كان براً أتوه ببرهم ، وإن كان فاجراً أتوه بفجورهم . ووعظ الأوزاعى المنصور فقال له ؛ إن السلطان أربعة : أمير يظلف[1] نفسه وعماله ، فذلك أجر المجاهد فى سبيل الله وصلاته سبعون ألف صلاة ؛ ويد الله بالرحمة على رأسه ترفرف ، وأمير رتع ورتع عماله فذلك يحمل أثقاله وأثقالا مع أثقاله ، وأمير يظلف نفسه ويرتع عماله فذاك الذى باع آخرته بدنيا غيره ، وأمير يرتع ويظلف عماله فذاك شر الأكياس .

كان المنصور يقول لابنه : يا أبا عبد الله ليس العاقل الذى يحتال للأمر الذى وقع فيه حتى يخرج منه ، ولكنه الذى يحتال للأمر الذى غشيه حتى لا يقع فيه .

---

(١) يكف نفسه .

وكتب إليه عامله على إرمينية يخبره أن الجند شغبوا عليه ونهبوا ما فى بيت المال فوقع فى كتابه : « اعتزل عملنا مذموماً مدحوراً ، فلو عقلت لم يشغبوا ، ولو قويت لم ينهبوا » . ولقد حدث أن المنصور ولى المدينة رياح بن عثمان فخطب أهلها يهددهم ويقول « أنا الأفعى بن الأفعى ، أنا ابن عثمان بن حيان وابن عم مسلم بن عقبة المبيد خضراءكم المفنى رجالكم ، والله لأدعنها بلقعاً لا ينبح فيها كلب . فوثب عليه قوم منهم وكلموه وقالوا : والله يا ابن المجلود حدين لتكفن أو لنكفنك عن أنفسنا . فكتب الوالى إلى المنصور يخبره بسوء طاعة أهل المدينة ، فأرسل المنصور إلى رياح رسولا ، وكتب معه كتاباً يقول فيه : وأمير المؤمنين يقسم بالله لئن لم تنزعوا ليبدلنكم بعد أمنكم خوفاً ، وليقطعن البر والبحر عنكم ، وليبعثن عليكم رجالا غلاظ الأكباد بعاد الأرحام . فلما قرئ عليهم نادوه من كل جانب كذبت يا ابن المجلود حدين ، ورموه بالحصا وبادر المقصورة فأغلقها ، فدخل عليه أيوب ابن سلمة المخزومى فقال : أصلح الله الأمير إنما تصنع هذا رعاع الناس . وقال بعض من حضر من وجوه بنى هاشم : لا نرى هذا ؛ ولكن أرسل إلى وجوه الناس وغيرهم من أهل المدينة فاقرأ عليهم كتاب المنصور ، فجمعهم وقرأ عليهم فقالوا : ما أمرتنا فعصيناك ولا دعوتنا فخالفناك . وانفض الأمر بسلام .

وعنى المنصور بالعمارة فى ملكه يعمر الجسور والقنى والآبار ، ففشت فى أيامه أعمال العمران ، وحمل المهندسين من الآفاق إلى العراق خصوصا لبناء مدينة بغداد ، واختار المنصور موقعها بنفسه لاحاطتها بدجلة والفرات بحيث يصعب على أكثر الجيوش تخطيها ، ولأن مواد الشام والجزيرة تأتيها بالفرات ، ومواد الموصل وما وراءها تحمل إليها فى دجلة . وبنى الرصافة لابنه المهدى ليصير ابنه فى مدينة ، وعسكر بالجانب الشرقى ، ويصير المنصور فى مدينة ، وعسكر بالجانب الغربى ، فلا يشغب الجند .

وحج المنصور آخر حجة وكان موقناً أنه لا يرجع من حجه ، زاعماً أنه عرف ذلك من المنجمين ، فقال لابنه وأشار إلى سفط له فيه دفاتر وعليه قفل

لايفتحه غيره : أنظر إلى هذا السفط فاحتفظ به ؛ فإن فيه علم آبائك ماكان وما هو كائن إلى يوم القيامة . فإن حزَبك أمر فانظر فى الدفتر الكبير ، فإن أصبت فيه ما تريد وإلا فنى الثانى والثالث ، حتى تبلغ سبعة ، فإن ثقل عليك فالكراسة الصغيرة ، فإنك واجد فيها ما تريد ، وما أظنك تفعل ، وانظر هذه المدينة أى بغداد ، وإياك أن تستبدل بها غيرها ؛ وقد جمعت لك فيها من الأموال ما إن كسر عليك الخراج عشر سنين كفاك لأرزاق الجند والنفقات والذرية ومصلحة البعوث فاحتفظ بها ، فإنك لا تزال عزيزاً ما دام بيت مالك عامراً . وأوصى ابنه بأهل بيته وأن يحسن إليهم ويقدمهم ، ويوطئ الناس أعقابهم ، ويوليهم المنابر . وأوصاه بأهل خراسان خيراً لأنهم أنصاره وشيعته الذين بذلوا أموالهم ودماءهم فى دولته ، وأوصاه أن لا يدخل االنساء فى أمره ، وأن يعد الكراع والرجال والجند ما استطاع ، وأن يعد رجالا بالليل لمعرفة ما يكون بالنهار ، ورجالا بالنهار لمعرفة ما يكون بالليل ، وأن يباشر الأمور بنفسه ، وأن يستعمل حسن الظن ، ويسىء الظن بعماله وكتابه ، وأن لا يبرم أمراً حتى يفكر فيه، فإن فكر العاقل مرآة تريه حسنه وسيئه . وقال له : لايصلح السلطان إلا بالتقوى ، ولا تصلح رعيته إلا بالطاعة ، ولا تعمر البلاد بمثل العدل ، وأقدر الناس على العفو أقدرهم على العقوبة ، وأعجز الناس من ظلم من هو دونه ، واعتبر عمل صاحبك وعلمه باختباره . وقال له أيضاً : إنى تركت الناس ثلاثة أصناف : فقيراً لايرجو إلا غناك ، وخائفاً لا يرجو إلا أمنك ، ومسجوناً لايرى الفرج إلا منك ، فإذا وليت فأذقهم طعم الرفاهية ولا تمدد لهم كل المد .

هذا إجمال ماعمله أبو جعفر المنصور ، وما أوصى به ابنه لإتمام ما بدأ به من التراتيب . وقد أبقت الأيام كتاباً لابن المقفع فى الصحابة[1] أى أصحاب الخليفة ، كتبه إل أبى جعفر أورد فيه ما يحتاج إليه الملك من الإصلاح ليسير على قواعد مطردة سليمة من الشوائب ، وأدركنا منه بعض المسائل الإدارية

(١) رسائل البلغاء نشرها المؤلف .

التي كانت تشغل الأذهان في ذاك الزمان . بدأه بتذكير الخليفة بجند خراسان فقال : إنهم جند لم يدرك مثلهم في الإسلام ، وفيهم منعة وهم أهل بصر بالطاعة ، وفضل عند الناس ، وعفاف نفوس وفروج ، وكف عن الفساد ، وذل للولاة ، فرأى أن يكتب لهم أماناً معروفاً بليغاً وجيزاً محيطاً بكل شيء بالغاً في الحجة ، قاصراً عن الغلو ، يحفظه رؤساؤهم ، حتى يقودوا به دهماءهم ، وارتأى أن لا يولى أحداً منهم شيئاً من الخراج ، فإن ولاية الخراج مفسدة للمقاتلة ، وأن منهم من المجهولين من هو أفضل من قادتهم ، فلو التمسوا وصُنعوا(١) كانوا عدة وقوة ، وكان ذلك صلاحاً لمن فوقهم من القادة ، ومن دونهم من العامة ، وأن يتعهد أدبهم في تعليم الكتاب والتفقه في السنة والأمانة والعصمة والمباينة لأهل الهوى . وأن يظهر فيهم من القصد والتواضع واجتناب زى المترفين وشكلهم مثل الذي يأخذ به أمير المؤمنين في أمر نفسه . قال : ولا يزال يطلع من أمر أمير المؤمنين ويخرج منه القول ، ما يعرف مقته للاتراف(٢) والإسراف وأهلهما ، ومحبته القصد والتواضع ومن أخذ بهما ، حتى يعلموا أن معروف أمير المؤمنين محظور عن يكنزه ، بخلا أن ينفقه سرفاً في العطر واللباس والمغالاة بالنساء والمراتب .

وأشار أن يوقت الخليفة للجند وقتاً يعرفونه في كل ثلاثة أشهر أو أربعة أو ما بدا له ، أنهم يأخذون فيه ، فينقطع الاستبطاء والشكوى ، هذا مع كثرة أرزاقهم وكثرة المال الذي يخرج لهم ، وأن الجند يحتاجون إلى ما يحتاجون إليه من كثرة الرزق لغلاء السعر . والرأى أن يجعل بعض أرزاقهم طعاماً وبعضه علفاً يعطونه بأعيانه . ورأى أن لا يخفى عن أمير المؤمنين شيئاً من أخبار هذا الجند وحمالاتهم(٣) وباطن أمرهم بخراسان والعسكر والأطراف ، وأن يحتقر في ذلك النفقة ، ولا يستعين فيه إلا بالثقات النصاح « فإن ترك ذلك وأشباهه أحزم بتاركه من الاستعانة فيه بغير الثقة فيصير جُنة للجهالة والكذب»

---

(١) أحسن إليهم . (٢) أترف الرجل : أعطاه شهوته .

(٣) الحمالة : كسحابة للدية والغرامة التي يحملها قوم عن قوم .

ووصى بأهل المصرين الكوفة والبصرة قائلا إنهم أقرب الناس إلى أن يكونوا شيعة الخليفة ومعينيه وأن فى أهل العراق من الفقه والعفاف والألباب والألسنة شيئاً لا يكاد يشك أنه ليس فى جميع من سواهم من أهل القبلة مثله ولا مثل نصفه . وأراده على أن يكتفى بهم ، وأنه ما أزرى بأهل العراق إلا أن من ولوا بلادهم كانوا أشرار الولاة ، وأعوانهم من أهل أمصارهم كذلك « فحمل جميع أهل العراق على ما ظهر من أولئك الفسول(١) ، وتعلق بذلك أعداؤهم من أهل الشام فنعوه عليهم ، ثم كانت هذه الدولة فلم يتعلق من دونكم من الوزراء والعمال إلا بالأقرب فالأقرب ، ممن دنا منهم أو وجدوه بسبيل شىء من الأمر ، فوقع رجال مواقع شائنة لجميع أهل العراق حيثما وقعوا من صحابة خليفة ، أو ولاية عمل أو موضع أمانة أو موطن جهاد ، وكان من رأى أهل الفضل أن يُقصدوا حتى يلتمسوا فأبطأ ذلك بهم أن يعرفوا أو ينتفع بهم » « فنزلت الرجال عن منازلها لأن الناس لا يلقون صاحب السلطان إلا متصنعين بأحسن ما يقدرون عليه من الصمت والكلام ، غير أن أهل النقص هم أشد تصنعاً ، وأحلى ألسنة ، وأرفق تلطفاً للوزارء أو تمحلا لأن يثنى عليهم من وراء وراء » . ثم ذكره بإصلاح القضاء وما يصدر عن القضاة من الأحكام المتناقضة ، ورجا أن يوحد القضاء ويوضع للقضاة كتاب يرجعون إليه .

وتعرض لأهل الشام وذكره أنهم أشد الناس مؤونة وأخوفهم عداوة وبائقة ، فمن الرأى أن يختص منهم خاصة ممن يرجو عنده صلاحاً ، أو يعرف منه نصيحة أو وفاء ، فإن أولئك لا يلبثون أن ينفصلوا عن أصحابهم فى الرأى والهوى ، ويدخلوا فيما حملوا عليه من أمرهم ، ولا يعاملوا أهل الشام كما عاملوا أهل العراق من جعل فيئهم إلى غيرهم ، وتنحيتهم عن المنابر والمجالس والأعمال كما كانوا ينحون عن ذلك من لا يجهلون فضله فى السابقة والمواضع ، ومنعت منهم المرافق كما كانوا يمنعون الناس أن ينالوا معهم أكلة من الطعام الذى

(١) الفسل : من الرجال الرذل الذى لا مروءة له ج أفسل فسول .

يصنعه أمراؤهم للعامة . ورجاه أن يأخذ منهم أهل القوة والغناء وخفة المؤونة والعفة فى الطاعة ، ولا يفضل أحداً منهم على أحد إلا على خاصة معلومة . وقال بهذا المعنى فى إقامة العذر لأهل الشام على نزواتهم ، وأنه لم يخرج الملك من قوم إلا بقيت فيهم بقية يتوثبون بها ، ثم كان ذلك التوثب هو سبب استئصالهم وتدويخهم .

وذكره بأصحابه « الذين هم بهاء فنائه ، وزينة مجلسه ، وألسنة رعيته ، والأعوان على رأيه ، ومواضع كرامته ، والخاصة من عامته » . وأبان أنها مراتب طمع فيها الأوغاد « ممن لا ينتهى إلى أدب ذى نباهة ، ولا حسب معروف ، ثم هو مسخوط الرأى ، مشهور بالفجور فى أهل مصره ، قد غبر عامة دهره صانعاً يعمل بيده ، فصار يؤذن له على الخليفة قبل كثير من أبناء المهاجرين والأنصار ، وقبل قرابة أمير المؤمنين وأهل البيوتات من العرب ، ويجرى عليه من الرزق الضعف مما يجرى على كثير من بنى هاشم وغيرهم من سروات قريش ، ويخرج له من المعونة على نحو ذلك ، لم يضعه بهذا الوضع رعاية رحم ، ولا فقه فى دين ، ولا بلاء فى مجاهدة علو معروفة ماضية متابعة قديمة ، ولا غناء حديث ، ولا حاجة إليه فى شىء من الأشياء ، ولا عدة يستعد بها ، وليس بفارس ولا خطيب ولا علامة، إلا أنه خدم كاتباً أو حاجباً فأخبر أن الدين لا يقوم إلا به ، حتى كتب كيف شاء ، ودخل حيث شاء » . ثم ذكره بأمر فتيان أهل بيته وبنى أبيه وبنى على وبنى العباس ووصفهم بأن فيهم رجالا لو مُتعوا بجسام الأمور والأعمال سدوا وجوهاً وكانوا عدة لأخرى .

ومن أهم ما ذكره به أمر الأرضين والخراج . قال : فليس للعمال أمر ينتهون إليه ولا يحاسبون عليه ، ويحول بينهم وبين الحكم على أهل الأرض بعد ما يتأنقون لها فى العمارة ، ويرجون لها الفضل ما تعمل أيديهم ، فسيرة العمال فيهم إحدى ثنتين : إما رجل أخذ بالخرق والعنف من حيث وجد وتتبع الرجال والرساتيق بالمغالاة ممن وجد . وإما رجل صاحب مساحة يستخرج

ممن زرع ويترك من لم يزرع ، فيعمر من يعمر ويسلم من أخرب . ورجاه على أن يعمل رأيه فى التوظيف على الرساتيق والقرى والأرضين وظائف معلومة . وتدوين الدواوين بذلك ، وإثبات الأصول حتى لا يؤخذ رجل إلا بوظيفة قد عرفها وضمنها ، ولا يجتهد فى عمارة إلا من كان له فضلها ونفعها ليكون فى ذلك صلاح للرعية ، وعمارة للأرض ، وحسم لأبواب الخيانة وغشم العمال . قال : « وهذا رأى مؤنته شديدة ، ورجاله قليل ، ونفعه متأخر ، وليس بعد هذا فى أمر الخراج إلا رأى قد رأينا أمير المؤمنين أخذ به ، ولم نره من أحد قبله ، من تخير العمال وتفقدهم » .

ثم ذكره بجزيرة العرب وأن يختـــار لولايتها الخيار من أهل بيته وغيرهم ، لأن ذلك من تمام السيرة العادلة والكلمة الحسنة التى قد رزق أمير المؤمنين وأكرمه بها من الرأى الذى هو بإذن الله حمى ونظام لهذه الأمور كلها فى الأمصار والأجناد والثغور والكور . ومما قاله فى خاتمة كتابه : « إن بالناس من الاستخراج[1] والفساد ما قد علم أمير المؤمنين ، وبهم من الحاجة إلى تقويم آدابهم وطرائقهم ما هو أشد من حاجتهم إلى أقواتهم التى يعيشون بها . وأهل كل مصر وجند أو ثغر فقراء إلى أن يكون لهم من أهل الفقه والسنة والنصيحة مؤدبون مقومون ، يذكرون ويبصرون بالخطأ ، ويعظون عن الجهل ، ويمنعون عن البدع ، ويحذرون الفتن ، ويتفقدون أمور عامة من هم بين أظهرهم حتى لا يخفى عليهم منها مهم ، ثم يستصلحون ذلك ويعالجون ما استنكروا منه بالرأى والرفق والنصح ، ويرفعون ما أعياهم إلى ما يرجون قوته عليه ، مأمونين على سير ذلك وتحصينه ، بصراء بالرأى حين يبدو ، أطباء باستئصاله قبل أن يتمكن ، وفى كل قوم خواص رجال عندهم على هذا معونة إذا صنعوا لذلك وتلطف لهم ، وأعينوا على رأيهم ، وقووا على معاشهم ببعض ما يفرغهم لذلك ويبسطه لهم . وخطر هذا جسيم فى أمرين : أحدهما برجوع أهل الفساد إلى الصلاح ، وأهل الفرقة إلى الألفة . والأمر الآخر أن لا يتحرك متحرك

(١) الاستخراج والاختراج : الاستنباط .

فى أمر من أمور العامة إلا وعين ناصحة ترمقه ، ولا يهمس هامس إلا وإذن شفيقة تصيخ نحوه » قال : « وقد علمنا علماً لا يخالطه الشك أن العامة قط لم تصلح من قبل أنفسها ، ولم يأتها الصلاح إلا من قبل خاصتها ، وأن الخاصة قط لم تصلح من قبل أنفسها وأنها لم يأتها الصلاح إلا من قبل إمامها » . « فإذا جعل الله فيهم خواص من أهل الدين والعقول ينظرون إليهم ويسمعون منهم ، اهتمت خواصهم بأمور عوامهم وأقبلوا عليه بجد ونصح ومثابرة وقوة ، جعل الله ذلك صلاحاً لجماعتهم ، وسبباً لإصلاح الصلاح من خواصهم ، وزيادة فيما أنعم الله به عليهم ، وبلاغاً إلى الخير كله . وحاجة الخواص إلى الإمام الذى يصلحهم الله به كحاجة العامة إلى خواصهم وأعظم من ذلك » .

هذه زبدة تقرير ابن المقفع للمنصور وفيه صورة جميلة مما تحتاجه إدارة البلاد من الإصلاح ، وما يجب القيام به لاستصلاح الجند والرفق بأهل الكوفة والبصرة ، والعناية بأهل العراق والعطف على الحجاز واليمن واليمامة واختيار العمال الكفاة والرجوع إلى أهل الرأى ، واصطناع أرباب العقل من أهل الشام وإشارة إلى أن بغضهم بنى العباس من الأمور الطبيعية لأن الملك كان فيهم فانتقل إلى غيرهم ، وعرفه الطرق إلى استصلاح العامة واختيار الخاصة من الأصحاب والموالين إلى غير ذلك من الأمور التى يمكن تطبيقها لعمران البلاد ، ورفع الحيف عن الخلق والانتفاع بالقوى المفيدة للرعية وأرضهم . ومن أهم ما وقفنا عليه هذا التقرير أن الأمة لم تعدم فى إبان مجدها رجالا يدلونها على مواطن الضعف من سلطانها ، ومعالجة الإصلاح بالعقل حتى يبلغ كماله ، والأخذ فى كل أمر من أمور الدولة بالحزم النافع والمصلحة الشاملة .

إدارة المهدى والهادى والرشيد:

سار المهدى بالخلافة على الخطة التى اختطها له أبوه . ينظر فى الدقائق من الأمور ، ويظهر أبهة الوزارة ، لكفاية وزيره أبى عبيد الله بن معاوية بن يسار ، فإنه جمع له حاصل المملكة ورتب له الديوان[١] وقرر القواعد ، وكان كاتب الدنيا وأوحد الناس حذقاً وعلماً وخبرة ، اخترع أموراً منها أنه نقل الخراج إلى المقاسمة . وكان السلطان يأخذ عن الغلات خراجاً مقرراً ولا يقاسم ، وجعل الخراج على النخل والشجر ، وضبطت الأمور فى أيامه ضبطاً محكماً . وكان من جملة حظ المهدى أن يكون له وزراء من هذا الطراز العالى ، وهو يعتمد عليهم ويضع ثقته فى رجال دولته ، واستوزر أيضاً يعقوب بن داود فخرج كتاب المهدى إلى الديوان أن أمير المؤمنين آخى يعقوب بن داود ، فلم يكن ينفذ شىء من كتب المهدى حتى يرد كتاب الوزير يعقوب معه إلى أمينه بإنفاذه . أى أن الخليفة ووزيره كانا يراقب أحدهما عمل صاحبه لتقرير ما تلزم به المصلحة قبل إمضائه .

وضع المهدى ديوان الأزمّة ولم يكن لبنى أمية ذلك . ومعنى ديوان الأزمة أن يكون لكل ديوان زمام وهو رجل يضبطه . وقد كانت الدواوين قبل ذلك مختلطة[٢]. والسبب فى وضع ديوان الأزمة أنه لما جمعت الدواوين لعمر بن بزيع فكر فإذا هو لا يضبطها إلا بزمام يكون له على كل ديوان ، فاتخذ دواوين الأزمة ، وولى كل ديوان رجلا . وأنشأوا ديواناً سموه ديوان النظر أى المكاتبات والمراجعات تسهيلا على أرباب المصالح . والديوان يقسم أربعة أقسام[٣] : ديوان الجيش وفيه الإثبات والعطاء ، وديوان الأعمال ويتولى الرسوم والحقوق ، وديوان العمال ويختص بالتقليد والعزل ، وديوان بيت المال ينظر فى الدخل والخرج .

كان المهدى أول من جلس للمظالم من بنى العباس ، يقيم العدل بين المتظالمين ، ومشى على إثره الهادى والرشيد والمأمون . وكان المهتدى

(١) الفخرى لابن الطقطقى . (٢) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى .
(٣) الأحكام السلطانية للماوردى .

آخر من جلس للنظر فيها . وبسط المهدى يده فى العطاء فأذهب جميع ما خلفه المنصور وهو ستمائة ألف ألف درهم وأربعة عشر ألف ألف دينار . وأجرى المهدى على المجذمين وأهل السجون فى جميع الآفاق ، وأمر بإقامة البريد بين مكة والمدينة واليمن وبغداد ببغال وإبل . ولم يكن هناك بريد قبل ذلك ولا فى قطر من الأقطار . وكان وزيره « يرفع إليه النصائح فى الأمور الحسنة من أمر الثغور والولايات ، وبناء الحصون وتقوية الغزاة ، وتزويج العزاب وفكاك الأسرى والمحبسين ، والقضاء على الغارمين والصدقة على المتعففين » واشتد المهدى على الزنادقة فقتل فى جملة من قتل ابن وزيره أبى عبد الله بن معاوية فاستوحش كل منهما من صاحبه فاعتزل الوزير الخدمة .

قال رجل للمهدى عندى نصيحة يا أمير المؤمنين فقال : لمن نصيحتك هذه ؟ لنا أم لعامة المسلمين أم لنفسك ؟ قال : لك يا أمير المؤمنين . قال : ليس الساعى بأعظم عورة ولا أقبح حالا ممن قبل سعايته ، ولا تخلو من أن تكون حاسد نعمة فلا نشفى غيظك ، أو عدوا فلا نعاقب لك عدوك . ثم أقبل على الناس فقال : لا ينصح لنا ناصح إلا بما فيه رضا الله وللمسلمين صلاح ، فإنما لنا الأبدان وليس لنا القلوب ، ومن استتر عنا لم نكشفه ، ومن بادانا طلبنا توبته ، ومن أخطأ أقلنا عثرته ، فإنى أرى التأديب بالصفح أبلغ منه بالعقوبة ، والسلامة مع العفو أكثر منها مع العاجلة ، والقلوب لا تبقى لوال لا ينعطف إذا استعطف ، ولا يعفو إذا قدر ، ولا يغفر إذا ظفر ، ولا يرحم إذا استرحم ، وهذا أرقى الأدب فى استمالة القلوب وحسن سياسة الناس ، ومن وفق إلى تطبيق هذه القواعد على أمته لم يحتج إلى سلاح يخيفهم ولا إلى جند يضبطهم .

وأفضت الخلافة إلى الهادى ، والدواوين مدونة مرتبة ، فمن ديوان الخراج إلى ديوان الضياع ، إلى ديوان الزمام ، إلى ديوان التوقيع والتتبع على العمال ، إلى ديوان النظر أى المكاتبات والمراجعات ، إلى ديوان الرسائل ، إلى ديوان البريد والخرائط ، إلى غير ذلك من الدواوين . وجعل الهادى أمور الدولة تسير فى قواعدها المرعية على ما تقضى به أحكام الشرع والعقل ، ويراه الوزراء والأمراء والقضاة . وكان جباراً عظيما وهو أول من مشت

الرجال بين يديه بالسيوف المرهفة ، والأعمدة المشهورة ، والقسىّ الموتورة ، فسلكت عماله طريقته ، ويمموا منهجه ، وكثر السلاح فى عصره .

سار الرشيد فى إدارته على نهج قويم ، وأعاد إلى الخلافة رونقها الذى كان لها على عهد جده المنصور ، وما كان بالمسرف ولا بالمبخّل ؛ وسمى الناس أيامه « أيام العروس » لنضارتها وكثرة خيرها وخصبها . وكانت دولته[1] « من أحسن الدول وأكثرها وقاراً ورونقاً وخيراً وأوسعها رقعة مملكة : جبى الرشيد معظم الدنيا وكان أحد عماله صاحب مصر » وقلد وزارته يحيى بن خالد وقال له : « قد قلدتك أمر الدولة وأخرجته من عنقى إليك ، فاحكم فى ذلك بما ترى من الصواب ، واستعمل من رأيت واعزل من رأيت ، وامض الأمور على ما ترى » ودفع إليه خاتم الخلافة . أما الولايات فقد فوضها إلى أمراء جعل لهم الولاية على جميع أهلها ينظرون[2] فى تدبير الجيوش والأحكام ويقلدون القضاة والحكام ، ويجبون الخراج ويقبضون الصدقات ويقلدون العمال فيها ، ويحمون حدوده ، ويؤمون فى الجمع والجماعات أو يستخلفون عليها ، ويسيرون الحج من أعمالهم ، فإن كانت أقاليمهم ثغراً متاخماً للعدو تولوا جهاده .

وما قسمت أعمال الدولة منذ انتقالها إلى بنى العباس تقسيمها فى زمن الرشيد ، ولذلك كان للخليفة وقت ليحج ووقت ليغزو ، ووقت ليصطاف ويرتبع فى الرقة ، ويترك قصر الخلد فى بغداد ، وما اشتعلت فتنة فى أرجاء مملكته إلا أطفأها ، ومنها فتنة النزارية واليمانية فى الشام أى قيس ويمن ، عادوا إلى ما كانوا عليه فقتل منهم بشر كثير ، فأرسل عليهم إبراهيم بن محمد المهدى والياً . ففكر أن يعمد إلى طرق إدارية لقطع شأفة هذه الغائلة ، فرأى أن يلهيهم بقشور ، ويتقرب من قلوبهم بما يستميلها ، فسار فى استقبالهم على قانون من « التشريفات » أو « البروتوكول » أرضاهم به وما تكلف شيئاً ، فقد أمر حاجبه بإحضار وجوه الحيين ، وأمره بتسمية أشرافهم ، وأن يقدم من

(١) الفخرى لابن الطقطقى . (٢) الأحكام السلطانية الماوردى .

كل حي الأفضل فالأفضل منهم ، فأمر بتصيير أعلا الناس من الجانب الأيمن مضرياً وعن شماله يمانياً ، ومن دون اليماني مضري ومن دون المضري يماني ، حتى لا يلتصق مضري بمضري ولا يماني بيماني ، فلما قدم الطعام قال قبل أن يطعم شيئاً : « إن الله عز وجل جعل قريشاً موازين بين العرب ، فجعل مضر عمومتها ، وجعل يمن خؤولتها ، وافترض عليها حب العمومة والخؤولة ، فليس يتعصب قرشي إلا للجهل بالمفترض عليه » ثم قال : « يا معشر مضر كأني بكم وقد قلتم إذا خرجتم لإخوانكم من يمن قد قدّم أميرنا مضر على يمن ، وكأني بكم يا من قد قاتم وكيف قدمكم علينا ، وقد جعل بجانب اليماني مضرياً وبجانب المضري يمانياً ، فقلتم يا معشر مضر إن الجانب الأيمن أعلا من الجانب الأيسر ، وقد جعلت الأيمن لمضر والأيسر ليمن ، وهذا دليل على تقدمته إيانا عليكم ، ألا أن مجلسك يا رئيس المضرية في غد من الجانب الأيسر ، ومجلسك يا رئيس اليمنية في غد من الجانب الأيمن . وهذان الجانبان يتناوبان بينكما ، يكون كل من كان في جهة متحولا عنها في غده إلى الجانب الآخر ، فانصرف القوم كلهم حامداً .

وبمثل هذه القوانين الإدارية رجع السلام إلى الشام ست سنين ، واستراحت من العصبية الجاهلية وبأو[1] القبلية . قال الجاحظ[2] : حدثني إبراهيم ابن السندي قال لما كان أبي بالشام والياً أحب أن يسوي القحطاني والعدناني وقال : لسنا نقدمكم إلا على الطاعة لله عزّ وجلّ وللخلفاء ، وكلكم أخوة ، وليس للنزاري شيء ليس لليماني مثله قال : وكان يتغدى مع جِلة من جِلة الفريقين ، ويسوي بينهم في الإذن والمجلس .

ومن عمال الرشيد من أبدع طرقاً جديدة في الإدارة ، ولي عمر بن مهران مصر فقال هـذا لغلامه : لا تقبل من الهدايا إلا ما يدخل في الجراب ، لا تقبل دابة ولا جارية ولا غلاماً . فجعل الناس يبعثون بهداياهم فجعل يرد ما كان من الألطاف[3] ويقبل المال والثياب ، ويوقع عليها أسماء من بعث

(١) البأو : التكبر . (٢) الحيوان للجاحظ .

(٣) الألطاف : الهدايا واحدها لطف وألطفه بكذا أتحفه وبره وتكون في الغالب من المأكول والمشروب والمشموم .

بها ثم وضع الجباية . وكان بمصر قوم قد اعتادوا المطل وكسر الخراج . فاستأدى من الخراج النجم الأول والنجم الثانى ، فلما كان فى النجم الثالث وقعت المطالبة والمطل فأحضر أهل الخراج والتجار ، فطالبهم فدافعوه وشكوا الضيقة ، فأمر بإحضار تلك الهدايا التى بعث بها إليه ، ونظر فى الأكياس وأحضر الجهبذ[1] فوزن ما فيها وأجزى أثمانها عن أهلها ثم قال : يا قوم حفظت عليكم هداياكم إلى وقت حاجتكم إليها ، فأدوا إلينا مالنا . فأدوا إليه حتى أغلق مال مصر ، فانصرف ولا يعلم أنه أغلق مال مصر غيره[2] .

ولقد كان الرشيد على أشد ما يكون من الانتباه لكل ما دق وجل من شئون الملك ، « ومن أشد الملوك بحثاً عن أسرار رعيته وأكثرهم بها عناية وأحزمهم فيها أمراً » يصطنع الرجال ويحلم عن مساوئ تغتفر من رجاله ، ويسعى فى عمران البلاد ويكف الأذى عن الرعية ، ويأخذ بأيدى العلماء والباحثين ويجتمع إليهم ويأنس بهم ، ولما رأى أن ملكه فى خطر محقق من نفوذ آل برمك وزرائه وخاصته ، لانصراف الوجوه إليهم لكثرة ما أحسنوا إلى الناس ، ولإجماع القاصى والدانى على حبهم ، حتى ساموا الخليفة أو أربوا عليه فى المكانة ، أمر بالقبض عليهم ومصادرتهم وقتلهم ، وما أراد أن يبوح بسر ما أتاه ، فرجم القوم الظنون به ، وذلك لأنه خافهم على ملكه ، وهم فرس لهم قديم يمتون إليه من الإمارة ، والفرس يحاولون منذ القرن الأول أن يعيدوا الملك فيهم فارسياً ويخرجوه عن صبغته العربية . ونشأت من قتلهم قصة طويلة سداها ولحمتها المبالغة ، بل الاختلاق ، شغل الرشيد بها الناس عن نفسه وعن سياسة بلاده .

ووضع الرشـــيد على أهل السواد العشر الذى كان يؤخذ منهم بعد النصف ، وترك بعض أهل الضياع فى فلسطين أرضهم فوجه إليهم أحد كبار قواده فدعا قوماً من أكرتها ومزارعيها إلى الرجوع إليها ، على أن يخفف

(١) الصراف أو قابض المال . (٢) تاريخ الطبرى .

عنهم من خراجهم وتلين معاملتهم ، فرجعوا فأولئك أصحاب التخافيف . وجاء قوم منهم بعدُ فردت عليهم أرضوهم على مثل ما كانوا عليه وهم أصحاب الردود . والرشيد يسد كل خلل فى مملكته ، ويهتم كل الاهتمام أن يخفف عن الفلاحين . وكان رجاله لا يألونه نصحاً لأنه يهتم لكل ما ينفع . وفى الرسالة التى كتبها له قاضيه أبو يوسف فى الخراج نموذج من هذه العناية . ومما قال فيها : وقد بلغنى أن عمال الخراج يبعثون رجالا من قبلهم فى الصدقات فيظلمون ويعسفون ويأتون ما لا يحل ، وإنما ينبغى أن يتخير للصدقة أهل العفاف والصلاح ، فإذا وليتها رجلا ، ووجد من قبله من يوثق بدينه وأمانته ، أجريت عليهم من الرزق بقـــدر ما تجرى ، ولا تجرى عليهم ما يستغرق أكثر الصدقة . . . ويكون من يولى فقيهاً عالماً مشاوراً لأهل الرأى مؤتمناً على الأموال ، إنى قد أراهم لا يحتاطون فيمن يولون الخراج ، إذا لزم الرجل منهم باب أحدهم أياماً ولاه رقاب المسلمين وجباية خراجهم ، ولعله أن لا يكون عرفه بسلامة ناصية ولا بعفاف ، ولا باستقامة طريقة ولا بغير ذلك . . . وتقدم إلى من وليت أن لا يكون عسوفاً لأهل عمله ، ولا محتقراً لهم ، ولا مستخفاً بهم ، ولكن يلبس لهم جلباباً من اللين ، يشوبه بطرف من الشدة والاستقصاء من غير أن يظلموا أو يحملوا ما لا يجب عليهم ، واللين للمسلم والغلظة على الفاجر . والعدل على أهل الذمة وإنصاف المظلوم ، والشدة على الظالم ، والعفو عن الناس . . فإن كل ما عمل به والى الخراج من الظلم والعسف فإنه يحمل على أنه قد أمر به وقد أمر بغيره ، وإن أحللت بواحد منهم العقوبة الموجعة انتهى غيره واتقى وخاف ، وإن لم تفعل هذا بهم تعدوا على أهل الخراج ، واجترأوا على ظلمهم وعسفهم وأخذهم بما لا يجب عليهم ، وإذا صح عندك من العامل والوالى تعد بظلم أو عسف وخيانة لك فى رعيتك ، واحتجان شىء من الفىء ، أو خبث طعمته ، أو سوء سيرته ، فحرام عليك استعماله والاستعانة به ، وأن تقلده شيئاً من أمر رعيتك أو تشركه فى شىء من أمرك ، بل عاقبه على ذلك عقوبة تروع غيره فلا يتعرض لمثل ما تعرض له .

وقال : « بلغنى عن ولاتك على البريد والأخبار فى النواحى تخليط كثير ، ومحاباة فيما يحتاج إلى معرفته من أمور الولاة والرعية ، وأنهم ربما مالوا مع العمال على الرعية ، وستروا أخبارهم وسوء معاملتهم للناس ، وربما كتبوا فى الولاة والعمال بما لم يفعلوا إذا لم يرضوهم ، وهذا ، مما ينبغى أن تتفقده ، وتأمر باختيار الثقات العدول من أهل كل بلد ومصر فتوليهم البريد والأخبار » . « وينبغى أن لا يقبل خبر إلا من ثقة عدل ، ويجرى لهم من الرزق من بيت المال وليدرّ عليهم وتقدم إليهم فى أن لا يستروا عنك خبراً عن رعيتك ولا عن ولاتك ولا يزيدوا فيما يكتبون به عليه خبراً ، فمن لم يفعل منهم ينكل به ، ومتى لم يكن أصحاب البرد والأخبار فى النواحى ثقات عدولا فلا ينبغى أن يقبل لهم خبر فى قاض ولا وال . إنما يحتاط بصاحب البريد على القاضى والوالى وغيرهما فإذا لم يكن عدلا فلا يحل ولا يسع استعمال خبره ولا قبوله[1] » .

بمثل هذا اللسان يتلطف أبو يوسف وينصح لخليفته فى اختيار عمال الخراج والأمناء على الأخبار لمراقبة العمال والولاة والقضاة ، على أن الرشيد أخذ العمال[2] والتناء والدهاقين وأصحاب الضياع والمبتاعين للغلات والمقبلين[3] وكان عليهم أموال مجتمعة فطولبوا بصنوف من العذاب . وهذا ما دعا بعض الناس فى الدولة العباسية إلى أن يقولوا إن بنى أمية[4] كانت مصائبهم فى أديانهم ، وأن جبايتهم وأموالهم سليمة لم يظلموا فى العشر والخراج ، أما بنو العباس فمع سلامة أديانهم كانت أموالهم فاسدة وجباياتهم بالظلم والغش . وأوضاع كل أمة تثقل وتخف فى الميزان بحسب عناء القائمين على تطبيقها ، يزنون بالقسطاس المستقيم ، أو يُخسرون إذا كالوا أو وزنوا .

ولى الرشيد أحدهم بعض أعمال الخراج . فدخل على الرشيد يودعه ، وعنده يحيى وجعفر بن يحيى ، فقال الرشيد ليحيى : أوصياه ، فقال له

(١) الخراج لأبى يوسف . (٢) تاريخ اليعقوبى .

(٣) المتقبلون ملتزمو الجباية من الولاة والدهاقين التجار أو رؤساء الأقاليم ، والتناء السكان جمع تانئ . (٤) نشوار المحاضرة للتنوخى .

يحيى : وفّر وعمر . وقال له جعفر : أنصف وانتصف . فقال له الرشيد : إعدل وأحسن . وانتهى إلى علم الرشيد أن عامل الأهواز قد اقتطع مالا كثيراً من مال البلد ، ولما سأله الرشيد أجاب : وحلفت بأيمان البيعة أنى قد نصحت وشكرت الصنيعة ، ووفرت وما أسرفت ولا خنت ، والله لأصدقنك عن أمرى : عمرت البلاد واستقصيت حقوقك من غير ظلم ، ووفرت أموالك وفعلت ما يفعله الناصح لسيده ، وكنت إذا كان وقت بيع الغلات جمعت التجار ، فإذا تقررت العطايا أنفذت البيع وجعلت لى مع التجار فيه حِصة ، فربما ربحت وربما وُضِعت . إلى أن اجتمع لى من ذلك ومن غيره فى عدة سنين عشرة آلاف ألف درهم فاتخذت أزجاً[1] كبيراً عقد بالجص والآجر كأنه مجلس ؛ وجعلت بين يديه موضعاً أقعد فيه وعبيت البدر شيئاً بعد شيء فى الأزج ثم سددته ، وهو بحاله ما أشك أن العنكبوت قد نسجت على ما فيه ، فخذها وحول وجهك إلى عبدك فقال الرشيد : بارك الله لك فى مالك ، فارجع إلى عملك ودارِ رعيتك .

ولما دخل عليه عامله بدمشق يرسف فى قيده قال له الرشيد : وليتك دمشق وهى جنة بها غُدر تتكفأ أمواجها على رياض كالزرابى واردة منها كفايات المؤن إلى بيوت أموالى . فما برح بك التعدى لأرفاقهم فيما أمرتك ، حتى جعلتها أجرد من الصخر ، وأوحش من القفر . قال : والله يا أمير المؤمنين ما قصدت لغير التوفير من جهة ، ولكن وليت أقواماً ثقل على أعناقهم الحق فتفرقوا إلى ميدان التعدى ، ورأوا المراغمة بترك العمارة أوقع بأضرار الملك وأنوه بالشنعة على الولاة ، فلا جرم أن أمير المؤمنين قد أخذ لهم بالحظ الأوفر من مساءتى .

وكان الرشيد إذا أحس من عامل له خيانة دبر له من صائب رأيه ولطف حيلته ما يدل على بعد نظره وحسن إدارته ، وجميل تدينه ، وشدة غيرته على مصلحة ملكه ، فيمسك أقصر الطرق إلى القضاء على الفتن الملحوظة والغوائل

(١) بيت يبنى طويلا .

المستجنة ، فيضرب على المسىء بسيفه وسنانه ، كما يغمر المحسن بإنعامه وإحسانه . أراد مرة أن يعزل على بن عيسى عن خراسان — وخراسان كثيراً ما كانت تشغل بال الرشيد كما شغلت بال أسلافه — فدعا هرثمة بن أعين مستخلياً به فقال : إنى لم أشاور فيك أحداً ، ولم أطلعه على سرى فيك . وقد اضطربت علىّ ثغور المشرق . وأنكر أهل خراسان أمر على بن عيسى إذ خالف عهدى ونبذه وراء ظهره . وقد كتب يستمد ويستجيش ، وأنا كاتب إليه أخبره أنى أمده بك ، وأوجه إليه معك من الأموال والسلاح والقوة والعدة ما يطمئن إليه قلبه ، وتتطلع إليه نفسه . وأكتب معك كتاباً بخطى فلا تفضه ولا تطلعن فيه ، حتى تصل إلى مدينة نيسابور ، فإذا نزلتها فاعمل بما فيه وامتثله ولا تجاوزه إن شاء الله . وأنا موجه معك رجاء الخادم بكتاب أكتبه إلى على بن عيسى ليعرف ما يكون منك ومنه ، وهون عليه أمر على فلا تظهرنه عليه ، ولا تعلمنه ما عزمت عليه ، وتأهب للمسير وأظهر لخاصتك وعامتك أنى أوجهك مدداً لعلى بن عيسى وعوناً له .

ثم كتب إلى على بن عيسى كتاباً بخطه نسخته : « بسم الله الرحمن الرحيم . يا ابن الزانية ، رفعت من قدرك ، ونوهت باسمك ، وأوطأت سادة العرب عقبك ، وجعلت أبناء ملوك العجم خولك وأتباعك ، فكان جزائى أن خالفت عهدى ، ونبذت وراء ظهرك أمرى ، حتى عثت فى الأرض ، وظلمت الرعية ، وأسخطت الله وخليفته بسوء سيرتك ، ورداءة طعمتك ، وظاهر خيانتك . وقد وليت هرثمة بن أعين مولاى ثغر خراسان وأمرته أن يشدد وطأته عليك ، وعلى ولدك وكتابك وعمالك ، ولا يترك وراء ظهوركم درهما ولاحقاً لمسلم ولا معاهد إلا أخذكم به ، حتى ترده إلى أهله . فإن أبيت ذلك وأباه ولدك وعمالك ، فله أن يبسط عليكم العذاب ، ويصب عليكم السياط ، ويحل بكم ما يحل بمن نكث وغير ، وبدل وخالف ، وظلم وتعدى وغشم ، انتقاماً لله عز وجل بادئاً ، ولخليفته ثانياً ، وللمسلمين والمعاهدين ثالثاً ، فلا تعرض نفسك للتى لا سوى لها ، واخرج مما يلزمك طائعاً أو مكرهاً » .

وكتب عهد هرثمة بخطه ونصه « هذا ما عهد هارون الرشيد أمير المؤمنين إلى هرثمة بن أعين حين ولاه ثغر خراسان وأعماله وخراجه ، أمره بتقوى الله وطاعته ، ورعاية أمر الله ومراقبته ، وأن يجعل كتاب الله إماماً فى جميع ما هو بسبيله . فيحل حلاله ويحرم حرامه ، ويقف عند متشابهه ، ويسأل عنه أولى الفقه فى دين الله ، وأولى العلم بكتاب الله ، أو يرده إلى إمامه ليريه الله عز وجل فيه رأيه ، ويعزم له على رشده ، وأمره أن يستوثق من الفاسق على بن عيسى وولده وعماله وكتابه ، وأن يشد عليهم وطأته ، ويحل بهم سطوته ، ويستخرج منهم كل مال يصح عليهم من خراج المؤمنين وفىء المسلمين ، فإذا استنظف ما عندهم وقِبَلهم من ذلك ، نظر فى حقوق المسلمين والمعاهدين ، وأخذهم بحق كل ذى حق حتى يردوه إليهم ، فإن ثبت قبلهم حقوق لأمير المؤمنين وحقوق المسلمين فدافعوا بها وجحدوها ، أن يصب عليهم سوط عذاب الله وأليم نقمته ، حتى يبلغ بهم الحال التى إن تخطاها بأدنى أدب ، تلفت أنفسهم وبطلت أرواحهم ، فإذا خرجوا من حق كل ذى حق فأشخصهم كما تشخص العصاة من خشونة الوطاء ، وجشوبة المطعم والمشرب وغلظ الملبس مع الثقات من أصحابه إلى باب أمير المؤمنين إن شاء الله . فاعمل يا أبا حاتم بما عهدت إليك ، فإنى آثرت الله ودينى على هواى وإرادتى ، فكذلك فليكن عملك وعليه فليكن أمرك . ودبر فى عمال الكور الذين تمر بهم فى صعودك ما لا يستوحش معه إلى أمر يريبهم وظن يرعبهم ، وابسط من آمال أهل ذلك الثغر ومن أمانيهم وعذرهم ، ثم اعمل بما يرضى الله منك وخليفته ومن ولاك الله أمره إن شاء الله . هذا عهدى وكتابى بخطى أشهد الله وملائكته وحملة عرشه وسكان سماواته وكفى بالله شهيدا . وكتب أمير المؤمنين بخط يده لم يحضره إلا الله وملائكته » .

أمثلة تكشفت بها حقيقة إدارة الرشيد وبعد غوره فى تراتيبه . ولقد رفع إليه أن رجلا بدمشق من بقايا بنى أمية عظيم الجاه واسع الدنيا كثير المال والأملاك مطاعاً فى البلد له جماعة وأولاد ومماليك وموال ، يركبون الخيل ،

ويحملون السلاح ، ويغزون الروم ، وأنه سمح جواد كثير البذل والضيافة وأنه لا يؤمن منه ، فعظم ذلك عليه ، فاستدعى منارة صاحب الخلفاء وأمره بالخروج إلى دمشق ، وضم إليه مائة غلام وأجله لذهابه ستة وإيابه ستة ويوماً لقعوده ، وأمره أن يتفقد دار الرجل وجميع ما فيها وولده وأهله وحاشيته وغلمانه ، وما يقولون وقدر النعمة والحال والمحل . فجاءه به فى الميعاد المضروب وقص عليه ما سمعه ورآه . فعرف الرشيد أن الرجل محسود على النعمة مكذوب عليه ، فأدناه واعتذر عن استدعائه ، وقال له : سل ما تحتاج إليه من مصالح جاهك ومعاشك . فقال : عمال أمير المؤمنين منصفون وقد استغنيت بعدله عن مسألته من ماله ، وأمورى منتظمة وأحوالى مستقيمة ، وكذلك أمور أهل البلد بالعدل الشامل فى ظل دولة أمير المؤمنين . فأعاده إلى بلده على خير حال ، ولم يترك للوشاة سبيلا إليه .

ولقد توسع الرشيد فى توسعة سلطة عماله ، شخص الفضل بن يحيى إلى خراسان والياً عليها فبنى فيها المساجد والرباطات ، واتخذ بخراسان جنداً من العجم سماهم العباسية ، وجعل ولاءهم لهم ، وذكروا أن عدتهم بلغت خمسمائة ألف رجل وإنه قدم منهم بغداد عشرون ألف فسموا ببغداد الكرنبية وخلف الباقى بخراسان على أسمائهم ودفاترهم . وكتب والى إرمينية للرشيد إلى وزيره أن قوماً صاروا إلى سبيل النصح ، فذكروا ضياعاً بإرمينية قد عفت ودرست يرجع منها إلى السلطان مال عظيم ، وأنى وقفت عن المطالبة حتى أعرف رأيك فكتب إليه : « قرأت هذه الرقعة المذمومة وفهمتها ، وسوق السعاية بحمد الله فى أيامنا كاسدة ، وألسنة السعاة فى أيامنا كليلة خاسئة ، فإذا قرأت كتابى هذا فاحمل الناس على قانونك ، وخذهم بما فى ديوانك ، فإنا لم نولك الناحية لتتبع الرسوم العافية ، ولا لإحياء الأعلام الداثرة ، وجنبنى وتجنب بيت جرير يخاطب الفرزدق :

وكنت إذا حللت بدار قوم رحلت بخزية وتركت عارا

وأجر أمورك على ما يكسب الدعاء لنا لا علينا ، واعلم أنها مدة تنتهى وأيام تنقضى ، فإما ذكر جميل ، وإما خزى طويل » .

ومما يعد فى توسيع السلطة أن قاضى الرشيد أبا يوسف كان أول من دعى فى الإسلام قاضى القضاة ولم يقع[1] هذا الاسم على غيره كما وقع له فيه ، فإنه كان قاضى المشرق والمغرب ، فهو قاضى القضاة على التحقيق ، والقضاة يعينون باقتراحه ، وكان القاضى فى العواصم لا يتناول أقل من ألف دينار فى السنة ، وأجرى على قاضى مصر[2] مائة وثمانية وستين ديناراً فى كل شهر وهو أول قاض أجرى عليه هذا ، وأجروا بعد ذلك على القاضى سبعة دنانير كل يوم . ثم صار أبو الجيش يجرى على قاضيه كل شهر ثلاثة آلاف دينار ، وكانوا يجرون على القضاة والعمال الأرزاق من بيت المال من جباية الأرض أو من خراجها والجزية .

والرشيد لا يضن بالمال فى سبيل الدولة ، والمال وحده لا يكفى الخليفة أمر الفتوق التى تحدث إن لم يكن لها من يوثق بأمانته فى تلافى شرها ، والرشيد على كثرة بذله المأثور خلف من المال ، « ما لم يخلف أحد مثله منذ كانت الدنيا » وذلك أنه خلف من الأثاث والعين والورق والجوهر والدواب سوى الضياع والعقار ما قيمته مائة ألف ألف وخمسة وعشرون ألف ألف دينار » قال ابن الأثير كان الرشيد يطلب العمل بآثار المنصور إلا فى بذل المال فإنه لم ير خليفة قبله كان أعطى منه للمال ، وكان لا يضيع عنده إحسان محسن ولا يؤخر ذلك .

إدارة الأمين والمأمون :

لم يعرف التاريخ شيئاً من التدبير الذى جرى عليه الأمين بعد الرشيد ، لأنه كان يعبث وقلما يجد ، وفرق ما فى خزائن الدولة من الأموال والأعلاق والذخائر ، حتى دالت الخلافة وضاعت بعد الرشيد ، ولم يرزق الأمين وزراء كوزراء أخيه ، طاهر بن الحسين وهرثمة بن أعين والحسن بن سهل والفضل بن سهل ثم أحمد بن يوسف وعمرو بن مسعدة وأضرابهم ، بل

(١) النجوم الزاهرة لابن تغرى بردى .
(٢) أخبار الولاة والقضاة للكندى .

اصطنع من نبذهم أبوه الرشيد ، وكان أقصاهم لسوء سيرتهم ، فربح المأمون برجاله وعقله ، وخسر الأمين برجاله وضعف تدبيره .

وبينما كان المأمون فى مرو ينظر فى أمور الدولة كان الأمين يوجه « إلى جميع البلدان فى طلب الملهين وضمهم إليه ، وأجرى لهم الأرزاق ونافس فى ابتياع فُره الدواب وأخذ الوحوش والسباع والطير وغير ذلك واحتجب عن إخوته وأهل بيته وقواده واستخف بهم ، وقسم ما فى بيوت الأموال وما بحضرته من الجوهر فى خصيانه وجلسائه ومحدثيه ... وأمر ببناء مجالس لمتنزهاته ومواضع خلوته ولهوه ... وأمر بعمل خمس حراقات فى دجلة على خلقة الأسد والفيل والعقاب والحية والفرس وأنفق فى عملها مالا عظيما » .

ولما حصر الأمين وضغطه[1] الأمر قال : ويحكم أما أحد يستراح إليه ؟ فأتوه برجل من العرب فلما صار إليه قال له : أشر علينا فى أمرنا . قال له : يا أمير المؤمنين قد بطل الرأى اليوم وذهب ، ولكن استعمل الأراجيف فإنها من آلة الحرب . فكان يضع له الأخبار فإذا مشى الناس تبينوا بطلانها . فالأمين كان يسف إلى ذلك ، وأخوه المأمون يعمد إلى القواد والعظماء والعلماء الأعلام يستشيرهم ويأتمنهم .

وغلط المأمون لأول أمره ثلاث غلطات إدارية : منها أنه لم يأت إلى عاصمة ملكه عقيب مقتل أخيه فقضى فى الطريق من مرو إلى بغداد سنتين بعد أن أقام بمرو تسع سنين ، وكان عليه أن يبادر لجمع القلوب وكسر شوكة المتلاعبين من القواد . وبايع المأمون بولاية عهده إلى على بن موسى الرضا وهو فى خراسان فأخرج الخلافة من آل العباس ، حتى أجمعوا على خلافه وبايعوا بالخلافة إبراهيم بن المهدى فى بغداد وخلعوا طاعته . ومنها أنه سمع لوشاية وزيره الفضل بن سهل فى هرثمة بن أعين الذى كان بحسن تدبيره العامل الأول فى القضاء على جيوش أخيه الأمين وإيصال الخلافة للمأمون .

(١) تاريخ الطبرى .

وكانت أتت هرثمة كتب المأمون أن يلي الشام والحجاز فأبى وقصد إلى المأمون في خراسان[١] « إدلالا منه عليه لما كان يعرف من نصيحته له ولآبائه وأراد أن يعرف المأمون ما يدبر عليه الفضل بن سهل وما يكتم عنه من الأخبار وألا يدعه حتى يرده إلى بغداد دار خلافة آبائه وملكهم ، ليتوسط سلطانه ويشرف على أطرافه ، فعلم الفضل ما يريد فقال للمأمون : إن هرثمة قد أنغل عليك البلاد والعباد وظاهر عليك عدوك » . ولما أدخل هرثمة على المأمون وقد أشرب قلبه ما أشرب من ناحيته ، ذكر له ما بلغه عنه مما افتراه الفضل ، وذهب هرثمة يتكلم ويعتذر ويدفع عن نفسه ما قُرِّف به ، فلم يقبل ذلك منه وأمر به فوجئ على أنفه وديس بطنه وسحب من بين يديه ثم قتل .

وكاد المأمون يغلط غلطة رابعة بتخليه عن طاهر بن الحسين : « الذى أبلى[٢] فى طاعته ما أبلى وافتتح ما افتتح ، وقاد إليه الخلافة مزمومة ، حتى إذا وطأ الأمر أخرج من ذلك كله ، وصير فى زاوية من الأرض بالرقة ، قد حظرت عليه الأموال حتى ضعف أمره فشغب عليه جنده » وتنوسى حتى لا يستعان به فى شىء فى الحروب ، واستعين بمن هو دونه أضعافاً . لكن عقل المأمون تدارك هذه الغلطات ، وما أن جاء بغداد حتى قبض على قياد الملك قبضة الرجل الحازم ، وظهرت مواهبه ونبوغه فى السياسة والإدارة ، فى زمن غلبت الفتنة على قلوب الناس فاستعذبوها ، ولا مال له يرضيهم به . وقال يتخوف هائجاً يهيج وبيوت المال فارغة : إن الناس فى هذه المدينة على طبقات ثلاث : ظالم ومظلوم ، ولا ظالم ولا مظلوم ، فأما الظالم فليس يتوقع إلا عفونا وإحساننا ، وأما المظلوم فليس يتوقع أن ينتصف إلا بنا ، ومن كان لا ظالما ولا مظلوماً ، فبيته يسعه .

وقيل إن المأمون بكى لما رأى طاهر بن الحسين . فلما سئل عن سبب بكائه قال إنى ذكرت محمداً أخى « الأمين » وما ناله من الذلة فخنقتى العبرة ، فاسترحت إلى الإفاضة ، ولن يفوت طاهراً منى ما يكره ، فبلغ ذلك طاهراً

(١) تاريخ الطبرى . (٢) تاريخ الطبرى .

فركب إلى أحمد بن أبي خالد فقال له : إن الثناء منى ليس برخيص ، وإن المعروف عندى ليس بضائع ، فغيبنى عن عينه . فسعى له بتولية خراسان ، وكان قبل ولايته ندبه الحسن بن سهل للخروج إلى محاربة نصر بن شبث فقال : حاربت خليفة ، وسقت الخلافة إلى خليفة ، وأومر بمثل هذا ، وإنما يجب أن توجه لهذا قائداً من قوادى. ثم وسد المأمون إلى عبد الله بن طاهر وهو ابن طاهر بن الحسين الرقة وحرب نصر بن شبث وولاه البلاد التى فى طريقه ليكون حكمه نافذاً مهيباً ، مهيأة له أسباب الظفر من كل وجه . وذلك لئلا تتعارض السلطات ، ويجمع القائد فى العادة بين السلطة العسكرية والسلطة المدنية . وهذا من دقيق سياسة العباسيين . ولما أسندت إلى عبد الله بن طاهر قيادة الجيش لقتال الخارجى ابن شبث كتب إليه أبوه طاهر بن الحسين كتاباً تنازعه[1] الناس وكتبوه وتدارسوه وشاع أمره حتى بلغ المأمون فدعا به وقرئ عليه فقال : ما أبقى أبو الطيب شيئاً من أمر الدين والدنيا ، والتدبير والرأى والسياسة وإصلاح الملك والرعية وحفظ البيضة ، وطاعة الخلفاء وتقويم الخلافة ، إلا وقد أحكمه وأوصى به ، وتقدم وأمر أن يكتب بذلك إلى جميع العمال فى نواحى الأعمال .

ومما ورد فى هذا الكتاب فى الإدارة : ولا تتهمن أحداً من الناس فيما توليه من عملك قبل تكشف أمره بالتهمة ، فإن إيقاع التهم بالبداء والظنون السيئة بهم مأثم ، واجعل من شأنك حسن الظن بأصحابك ، واطرد عنك سوء الظن بهم وارفضه فيهم ، يعنك[2] ذلك على اصطناعهم ورياضتهم ، ولا يمنعنك حسن الظن بأصحابك والرأفة برعيتك ، أن تستعمل المسألة والبحث عن أمورك ، ولتكن المباشرة لأمور الأولياء ، والحياطة للرعية ، والنظر فيما يقيمها ويصلحها ، والنظر فى حوائجهم وحمل مؤوناتهم آثر عندك مما سوى ذلك ، وأقم حدود الله فى أصحاب الجرائم على قدر منازلهم وما استحقوه ، ولا تعطل ذلك ولا تهاون به ، ولا تؤخر عقوبة أهل العقوبة ، فإن فى تفريطك فى ذلك ما يفسد عليك حسن ظنك ، واعتزم على أمرك فى ذلك بالسنن المعروفة ،

(١) تاريخ الطبرى . (٢) رواية ابن الأثير يغنيك ذلك عن اصطناعهم .

وجانب البدع والشبهات ، يسلم لك دينك ، وتستقم لك مروءتك . وإذا عاهدت عهداً ففِ به ، وإذا وعدت الخير فأنجزه واقبل الحسنة وادفع بها . وأغمض عن عيب كل ذى عيب من رعيتك ، واشدد لسانك عن قول الكذب والزور وأبغض أهله ، وأقص أهل النميمة ، فإن أول فساد أمرك فى عاجل الأمور وآجلها[1] تقريب الكذوب ، والجرأة على الكذب ، لأن الكذب رأس المآثم ، والزور والنميمة خاتمها ، لأن النميمة لا يسلم صاحبها وقائلها ، ولا يسلم له صاحب ، ولا يستقيم لمطيعها أمر ، واجتنب سوء الأهواء والجور ، واصرف عنها رأيك ، وأظهر براءتك من ذلك لرعيتك ، وأنعم بالعدل سياستهم ، وقم بالحق فيهم ، وبالمعرفة التى تنتهى بك إلى سبيل الهدى ، واملك نفسك عند الغضب ، وآثر الوفاء والحلم ، وإياك والحدة والطيرة والغرور فيما أنت بسبيله ، ولتكن ذخائرك وكنوزك التى تذخر وتكنز ، البر والتقوى والمعدلة واستصلاح الرعية ، وعمارة بلادهم والتفقد لأمورهم ، والحفظ لدمائهم ، والإغاثة لملهوفيهم . واعلم أن الأموال إذا كثرت وزخرت فى الخزائن لا تثمر ، وإذا كانت فى إصلاح الرعية ، وإعطاء حقوقهم وكف المؤونة عنهم ، نمت وربت ، وصلحت بها العامة ، وتزينت بها الولاة ، وطاب بها الزمان ، واعتقد فيها العز والمنعة ، فليكن كنز خزائنك تفريق الأموال فى عمارة الإسلام وأهله ووفر منه على أولياء أمير المؤمنين قِبَلك حقوقهم ، وأوف رعيتك من ذلك حصصهم ؛ وتعهد ما يصلح أمورهم ومعايشهم ، فإنك إذا فعلت ذلك قرت النعمة عليك ، واستوجبت المزيد من الله ، وكنت بذلك على جباية خراجك ، وجمع أموال رعيتك وعملك أقدر ، وكان الجميع لما شملهم من عدلك وإحسانك أسلس لطاعتك ، وأطيب نفساً لكل ما أردت .

وعاد فوضع له قواعد فى حكمة الأخلاق لا تصلح بغيرها الولاية فقال :
« ولا تحقرن ذنباً ، ولا تمالئن حاسداً ، ولا ترحمن فاجراً ، ولا تصلن كفوراً ،

(١) رواية ابن الأثير : فساد أمورك فى عاجلها وآجلها .

ولا تداهنن عدوا ، ولا تصدقن نماماً ، ولا تأتمنن غداراً ، ولا توالين فاسقاً ، ولا تبتغين عادياً ، ولا تحمدن مرائياً ، ولا تحتقرن إنساناً ، ولا تردن سائلا فقيراً ، ولا تجيبن باطلا ، ولا تلاحظن مضحكاً ، ولا تخلفن وعداً ، ولا ترهقن هُجراً ، ولا تظهرن غضباً ، ولا تأتين بذخا ، ولا تمشين مرحاً ، ولا تركبن سفها ، ولا تفرطن فى طلب الآخرة ، ولا تدفع الأيام عتاباً ، ولا تغمض عن الظالم رهبة منه أو مخافة ، ولا تطلبن ثواب الآخرة فى الدنيا .

قال : وأكثر مشاورة الفقهاء ، واستعمل نفسك بالحلم ، وخذ عن أهل التجارب وذوى العقل والرأى والحكمة ، ولا تدخلن فى مشورتك أهل الذمة والنحل ولا تسمعن لهم قولا ، فإن ضررهم أكثر من منفعتهم ، وليس شىء أسرع فساداً لما استقبلت فيه أمر رعيتك من الشح : واعلم أنك إذا كنت حريصاً كنت كثير الأخذ قليل العطية ، وإذا كنت كذلك لم يستقم لك أمرك إلا قليلا ، فإن رعيتك إنما تعقد على محبتك بالكف عن أموالهم وترك الجور عنهم . . . وتفقد أمور الجند فى دواوينهم ومكاتبهم ، وأدرر عليهم أرزاقهم ، ووسع عليهم فى معايشهم ، يذهب الله بذلك فاقتهم ، فيقوى بك أمرهم ، وتزيد به قلوبهم فى طاعتك وأمرك خلوصاً وانشراحاً .:.

ثم ذكر له القضاء وإقامة العدل فيه « لتصلح الرعية ، وتأمن السبل ، وينتصف المظلوم ، ويأخذ الناس حقوقهم ، وتحسن المعيشة ، ويؤدى حق الطاعة » . إلى أن قال — بعد أن عرفه ما يفعل لحقن الدماء وإعطاء الحقوق — « وانظر هذا الخراج الذى استقامت عليه الرعية ، وجعله الله للإسلام عزاً ورفعة ، ولأهله سعة ومنعة ، ولعدوه وعدوهم كبتاً وغيظاً ، ولأهل الكفر من معاهديهم ذلا وصغاراً ، فوزعه بين أصحابه بالحق والعدل والتسوية والعموم فيه ، ولا ترفعن منه شيئاً عن شريف لشرفه ولا عن غنى لغناه ، ولا عن كاتب لك ، ولا عن أحد من خاصتك وحاشيتك ، ولا تأخذن منه فوق الاحتمال له ، ولا تكلفن أمراً فيه شطط ، واحمل الناس كلهم على مر

الحق ، فإن ذلك أجمع لألفتهم ، وألزم لرضا العامة . واعلم أنك جعلت بولايتك خازناً وحافظاً وراعياً . وإنما سمى أهل عملك رعيتك ، لأنك راعيهم وقيّمهم ، تأخذ منهم ما أعطوك من عفوهم ومقدرتهم ، وتنفقه فى قوام أمرهم وصلاحهم وتقويم أودهم . فاستعمل عليهم فى كور عملك ذوى الرأى والتدبير والتجربة والخبرة بالعمل والعلم بالسياسة والعفاف ، ووسع عليهم فى الرزق فإن ذلك من الحقوق اللازمة لك فيما تقلدت وأسند إليك ، ولا يشغلنك عنه شاغل ، ولا يصرفنك عنه صارف ، فإنك متى آثرته وقمت فيه بالواجب استدعيت به زيادة النعمة من ربك ، وحسن الأحدوثة فى عملك ، وأحرزت به المحبة من رعيتك ، وأعنت على الصلاح فدرت الخيرات ببلدك ، وفشت العمارة بناحيتك ، وظهر الخصب فى كورك فكثر خراجك ، وتوفرت أموالك ، وقويت بذلك على ارتباط جندك ، وإرضاء العامة بإفاضة العطاء فيهم من نفسك ، وكنت محمود السياسة ، مرضى العدل فى ذلك عند عدوك ، وكنت فى أمورك كلها ذا عدل وقوة وآلة وعدة ، فنافس فى هذا المقام ولا تقدم عليه شيئاً تحمد مغبة أمرك إن شاء الله .

واجعل فى كل كورة من عملك أميناً يخبرك أخبار عمالك ، ويكتب إليك بسيرتهم وأعمالهم ، حتى كأنك مع كل عامل فى عمله ، معاين لأمره كله ، وإن أردت أن تأمره بأمر فانظر فى عواقب ما أردت من ذلك ، فإن رأيت السلامة فيه والعافية ، ورجوت فيه حسن الدفاع والنصح والصنع ، فأمضه وإلا فتوقف عنه ، وراجع أهل البصر والعلم به ثم خذ فيه عدته ...

« وافرغ من عمل يومك ولا تؤخره لغدك ، وأكثر مباشرته بنفسك ؛ فإن لغد أموراً وحوادث تلهيك عن عمل يومك الذى أخرت ، واعلم أن اليوم إذا مضى ذهب بما فيه ، وإذا أخرت عمله اجتمع عليك أمر يومين ، فيشغلك ذلك حين تعرض له ، فإذا أمضيت لكل يوم عمله ، أرحت نفسك ، وبذلك

أحكمت أمور سلطانك . وانظر أحرار الناس وذوى الشرف[١] منهم ممن تستيقن صفاء طويتهم ، وشهدت مودتهم لك ، ومظاهرتهم بالنصح والمخالصة على أمرك ، فاستخلصهم وأحسن إليهم ، وتعاهد أهل البيوتات ممن قد دخلت عليهم الحاجة ، فاحتمل مؤونتهم ، وأصلح حالهم حتى لايجدوا لخلتهم مسا ، وأفرد نفسك للنظر فى أمور الفقراء والمساكين ، ومن لا يقدر على رفع مظلمة إليك ، والمحتقر الذى لا علم له بطلب حقه ، فسل عنه أخفى مسألة ، ووكل بأمثاله أهل الصلاح من رعيتك ، ومرهم برفع حوائجهم وحالاتهم إليك ، لتنظر فيها بما يصلح الله به أمرهم ، وتعاهد ذوى البأساء ويتاماهم وأراملهم ، واجعل لهم أرزاقاً من بيت المال :

« وأجر للأضراء[٢] من بيت المال ، وقدم حملة القرآن منهم ، والحافظين لأكثره فى الجراية على غيرهم ، وانصب لمرضى المسلمين دوراً تؤويهم ، وقوّاماً يرفقون بهم ، وأطباء يعالجون أسقامهم ، واسعفهم بشهواتهم ما لم يؤد ذلك إلى سرف فى بيت المال . واعلم أن الناس إذا أعطوا حقوقهم وفضل أمانيهم ، لم يرضهم ذلك ولم تطب أنفسهم ، دون رفع حوائجهم إلى ولاتهم ، طمعاً فى نيل الزيادة ، وفضل الرفق بهم ، وربما تبرم المتصفح لأمور الناس لكثرة ما يرد عليه ويشغل فكره وذهنه ، ما يناله به مؤونة ومشقة :

« وأكثر الإذن للناس عليك ، وأبرز للناس وجهك ، وسكن لهم حواسك ، واخفض لهم جناحك ، وأظهر لهم بشرك ، ولن لهم فى المسألة والمنطق ، واعطف عليهم بجودك وفضلك ، وإذا أعطيت فأعط بسماحة وطيب نفس ، والتمس الصنيعة والأجر من غير تكدير ولا امتنان ، فإن العطية على ذلك تجارة مربحة ... » « واعرف ما تجمع عمالك من الأموال وينفقون منها ، ولا تجمع حراماً ، ولا تنفق إسرافاً ، وأكثر مجالسة العلماء ومشاورتهم ومخالطتهم ،

(١) هذه رواية الطبرى وفى رواية ابن الساعى ذوى السن .

(٢) رواية ابن الساعى « الاضراب » بدل الاضراء .

وليكن هواك اتباع السنن وإقامتها ، وإيثار مكارم الأمور ومعاليها . وليكن أكرم دخلائك وخاصتك عليك من إذا رأى عيباً فيك لم تمنعه هيبتك من إنهاء ذلك إليك فى سر ، وإعلامك ما فيه من النقص ، فإن أولئك أنصح أوليائك ومظاهريك :

« وانظر عمالك الذين بحضرتك وكتابك فوقت لكل منهم فى كل يوم وقتاً يدخل عليك بكتبه ومؤامرته ، وما عنده من حوائج عمالك وأمور كورك ورعيتك ، ثم فرغ لما يورده عليك من ذلك سمعك وبصرك وفهمك وعقلك ، وكرر النظر فيه والتدبر له ، فما كان موافقاً للحزم والحق فأمضه ، واستخر الله فيه ، وما كان مخالفاً لذلك فاصرفه إلى التثبت فيه والمسألة عنه . ولا تمنن على رعيتك ولا على غيرهم بمعروف تؤتيه إليهم ، ولا تقبل من أحد منهم إلا الوفاء والاستقامة والعون فى أمور أمير المؤمنين ، ولا تضعن المعروف إلا على ذلك .. » .

أرأيتم هذا الكلام الآخذ بمجامع الفؤاد الذى كتب به طاهر بن الحسين إلى ابنه قبل خمسين ومائة وألف سنة فى هذا الموضوع الجليل الذى فيه قوام الممالك والشعوب ؟ أتظنون أن هذه الأفكار يصدر اليوم أحسن منها عن أكبر عالم إدارى عارف بطبائع الناس وما يصلحهم ، والممالك وما ينبغى لها ، وعرفنا من هذا الكتاب مكانة طاهر بن الحسين من قيام الدولة والدفاع عن حوزة الخلافة ، وأن المأمون الذى يكون من جملة قواده ورجال دولته هذا العظيم لا بد أن يكون فى عمله جد عظيم .

تقدم معنا أن عبد الله بن طاهر ندب لحرب نصر بن شبث ، فلما استأمن هذا وصفت البلاد ، جاء الشام فعمل أحسن الأعمال لراحة أهلها واستقراها بلداً بلداً ، لا يمر ببلد إلا أخذ من رؤساء القبائل والعشائر والصعاليك والزواقيل(١) وهدم الحصون وحيطان المدن ، وبسط الأمان للأسود والأبيض والأحمر وضمنهم جميعاً ، ونظر فى مصالح البلدان وحط عن بعضها الخراج ، ثم قصد

(١) الزواقيل : اللصوص .

إلى مصر فضرب على أيدى الخوارج فيها ، وربطها بالخلافة ربطاً محكماً . وكان نحو[1] الخمسة عشر ألفاً من أهل قرطبة جلوا من الأندلس بعد وقعة الربض فى سنة ٢٠٢ فانتهوا إلا الإسكندرية فلكوها مديدة ، فلما ورد عبد الله بن طاهر على مصر صالحهم على التخلى عنها على مال بذله لهم ، وخيرهم فى النزول حيث شاءوا من جزائر البحر فاختاروا جزيرة إقريطش من البحر الرومى .

وكان من تربية طاهر بن الحسين أن جاء ابنه كما قال له أحمد بن يوسف الكاتب موفقاً فى الشدة واللين فى مواضعهما ، ولا يعلم سائس جند ورعية عدل بينهم عدله ، ولا عفا بعد القدرة عمن آسفه وأضغنه عفوه . قال : ولقل ما رأينا ابن شرف لم يُلقِ بيده متكلا على ما قدمت له أبوته . قال يونس بن عبد الأعلى : أقبل إلينا (فى مصر) فتى حدث من المشرق ، يعنى ابن طاهر ، والدنيا عندنا مفتونة ، قد غلب على كل ناحية من بلادنا غالب ، والنـــاس فى بلاء ، فأصلح الدنيا وأمن البرىء وأخاف السقيم واستوثقت له الرعية بالطاعة ولقد قال المأمون لبعض جلسائه : من أنبل ما تعلمون نبلا وأعفهم عفة ؟ فجالوا بما فتح الله عليهم ، وبعضهم مدحه وقرظه . قال : ذلك والله أبو العباس عبد الله بن طاهر دخل مصر وهى كالعروس الكاملة ، فيها خراجها وبها أموالها جمة . ثم خرج عنها فلو شاء الله أن يخرج منها بعشرة آلاف ألف دينار لفعل ، ولقد كان لى عليه عين ترعاه ، فكتب إلى أنه عرضت عليه أموال لو عرضت على أو بعضها لشرهت إليها نفسى ، فما علمته خرج من ذلك البلد إلا وهو بالصفة التى قدمها فيها ، إلا مائة ثوب وحمارين وأربعة أفراس . فمن رأى أو سمع بمثل هذا الفتى فى الإسلام . فالحمد لله الذى جعله غرس يدى وخريج نعمتى .

هكذا كان عدل العمال وشرف أنفسهم ، وهكذا كان علمهم وبعد نظرهم فى عصر المأمون ، فلا يستغرب بعد ذلك ما ذكر من قصة[2] تلك المرأة

(١) الحلة السيراء لابن الأبار . (٢) خطط المقريزى .

القبطية التي نادت المأمون لما مر بقريتها طاء النمل[1] من أرض مصر وسألته أن يقبل قراها ، ليجعل لها الشرف ولعقبها بذلك ، وأن لا يشمت بها الأعداء ، وبكت بكاء كثيراً ، فنزل عليها بجيشه ورجاله وكانت ضيافتها من فاخر الطعام ولذيذه ، وفى الصباح بعثت إلى المأمون بعشر وصائف مع كل وصيفة طبق ، فى كل طبق كيس من ذهب . فاستحسن ذلك وأمرها بإعادته فقالت : لا والله لا أفعل . فتأمل الذهب فإذا به ضرب عام واحد كله . فقال : هذا والله أعجب ، وربما عجز بيت مالنا عن مثل ذلك فقالت : يا أمير المؤمنين لا تكسر قلوبنا ولا تحتقر بنا . فقال : إن فى بعض ما صنعت لكفاية ولا نحب التثقيل عليك ، فردى مالك بارك الله فيك ، فأخذت قطعة من الأرض وقالت : يا أمير المؤمنين هذا ، وأشارت إلى الذهب — من هذا — وأشارت إلى الطينة التى تناولتها من الأرض — ثم من عدلك يا أمير المؤمنين ، وعندى من هذا شىء كثير فأمر به فأخذ منها ، وأقطعها عدة ضياع ، وأعفاها من بعض خراج أرضها .

وفى الحق إنه لم يعرف كعصر المأمون وعصر أبيه وأخيه الأمين فى استفاضة الأموال فى كل طبقة من طبقات الأمة . فقد أنفق الحسن بن سهل على عرس ابنته بوران على المأمون أربعة آلاف ألف دينار ، وماتت الخيزران أم الهادى والرشيد (١٧٣) وكانت غلتها ألف ألف وستين ألف ألف درهم ، ومات محمد بن سليمان وقبض الرشيد أمواله بالبصرة وغيرها ، فكان مبلغها نيفاً وخمسين ألف ألف درهم سوى الضياع والدور والمستغلات ، وكان محمد بن سليمان يغل كل يوم مائة ألف درهم . وأنفق جعفر بن يحيى على داره التى ابتناها فى دار السلام نحوا من عشرين ألف ألف درهم ، وغنى إبراهيم بن المهدى محمدا الأمين صوتاً فأعطاه ثلاثمائة ألف درهم . فقال إبراهيم : يا سيدى قد أمرت لى إلى هذه الغاية بعشرين ألف ألف درهم فقال : وهل هى إلا خراج بعض الكور !

(١) طاء النمل : يقال لها طنامل (بضم الطاء وتشديد النون) وهى مركز أجا من الدقهلية .

ووقع للمأمون غير مرة أنه كان يخف إلى الأقطار التى تنشب فيها فتنة جديدة لايعتمد على رجاله ، على كثرة الصالحين منهم للعمل . ولما انتقضت أسفل الأرض كلها بمصر عربها وقبطها ، وأخرجوا العمال وخالفوا الطاعة ، وكان ذلك لسوء سيرة العمال فيهم ، هبط المأمون مصر لعشر خلون من المحرم سنة سبع عشرة ومائتين ، وسخط على عامله عيسى بن منصور ، وأمر بحل لوائه وأمره بلباس البياض وقال : لم يكن هذا الحدث العظيم إلا عن فعلك وفعل عمالك . حملتم الناس ما لا يطيقون وكتمتمونى الخبر ، حتى تفاقم الأمر واضطرب البلد . وقال : ما فتق علىّ قط فتق فى مملكتى إلا وجدت سببه جور العمال . وقال لمن رفع إليه خبراً فى عامل : إنى امرؤ أدارى عمالى مداراة الخائف ، وبالله ما أجد إلى أن أحملهم على المحجة البيضاء سبيلا ، فاعمل على حسب ذلك ولِنْ لهم تسلم منهم .

وخص المأمون بالإغضاء عن المساوئ ، والتغابى عن التافهات ، وحمل الناس على مجمل الخير ، وجهد أن يسوق إليهم كل خير ، وهذا مع كثرة عنايته بالأخذ بأخبار عماله ورعيته . قيل إنه كان للمأمون ألف عجوز وسبعمائة يتفقد بها أحوال الناس ومن يحبه ويبغضه ومن يفسد حرم المسلمين ؛ وكان لا يجلس إلى دار الخلافة حتى تأتيه كلها ، وكان يدور ليلا ونهاراً مستتراً ، ومع كل هذا كان المأمون أبداً إلى جانب المسامحة والعفو ، وتتجافى نفسه العظيمة عن كل ما تشتم منه رائحة الطمع والإسفاف إلى أموال العمال ، وكادت المصادرات والنكبات تبطل فى أيامه ، ولا ينكب إلا من حاول نقض بنيان الدولة ؛ ولقد رفع إليه أن عمرو بن مسعدة أحد وزراء دولته خلف ثمانين ألف ألف درهم ، أو نحو ثمانية ملايين دينار ، فوقع على الرقعة : « هذا قليل لمن اتصل بنا وطالت خدمته لنا ، فبارك الله لولده فيه » .

وكأنه استفظع القتل لذى يصيب كل عدو للدولة فبسط جناح الرحمة ، وقلل من إهلاك النفوس ما أمكن ، وأقام نفسه مقام رجل يعرف الطباع

البشرية ، وينصف خصومه وأعداءه ويحسن إليهم ولا يسيء ، كتب صاحب بريد همدان[١] إلى المأمون بخراسان يعلمه أن كاتب البريد المعزول أخبره أن صاحبه وصاحب الخراج كانا تواطآ على إخراج مائتى ألف درهم من بيت المال واقتسماها بينهما ، فوقع المأمون : إنا نرى قبول السعاية شراً من السعاية ، فإن السعاية دلالة والقبول إجازة ، وليس من دل على شيء كمن قبله وأجازه ، فانف الساعي عنك ، فلئن كان فى سعايته صادقاً لقد كان فى صدقه لئيما ، إذ لم يحفظ الحرمة ولم يستر على أخيه .

وقال المأمون لولده فى معنى الوشاة : « يا بنى نزهوا أقداركم وطهروا أحسابكم من دنس الوشاة وتمويه سعايتهم ، فكل جان يده فى فيه ، وليس يشي إليكم إلا أحد الرجلين : ثقة وظنين . أما الثقة فقد قيل إنه لا يبلغ ولا يسيئن بالوشاية قدره ، وأما الظنين فأهل أن يتهم صدقه ، ويكذب ظنه ، ويرد باطله ، وما سعى رجل برجل إلىّ قط إلا انحط[٢] من قدره عندى ما لا يتلافاه أبداً ، فلا تعطوا الوشاة أمانيهم فيمن يشون بهم » . ولئن لم يترك المأمون مجالا للوشاة يخربون بيوت الناس ، ويزيلون نعمتهم ، أو يوردونهم موارد الهلكة ، فما كان يخفى عليه خبر من الأخبار الخاصة والعامة فى القاصية والدانية ، حتى إنه لما ضاق صدره من تشدد بعض العلماء فى حوار خلق القرآن ، كتب إلى عامله بمعايبهم رجلا رجلا ، وقال إنه أعلم بما فى منازلهم منهم ، وخبر فى هذه الرسالة عن عيب واحد واحد من الفقهاء وأصحاب الحديث وعن حالتهم وأمورهم التى خفيت أو أكثرها عن القريب والبعيد .

ولقد كان من أهم قوانين إدارة المأمون التوسعة على عماله حتى لا يسرقوا الرعية والسلطان ويضيعوا حقوقهم ؛ رفع منزلة الفضل بن سهل وعقد له على الشرق طولا وعرضاً وجعل عمالته ثلاثة آلاف ألف درهم . وما كان المأمون بالخليفة الذى يتخلى عن خاصة عماله لأدنى سبب ، بل يغض الطرف عن مساويهم ويتركهم فى برزخ بين الرغبة والرهبة ، ولذلك استراح

(١) المحاسن والمساوئ للبيهقى .

(٢) أخلاق الملوك للجاحظ .

واستراح الناس معه ، وعلى قدر ما كان يراعى الخاصة يراعى العامة ، فقد قال فى وصيته للخليفة بعده : ولا تغفل أمر الرعية والعوام فإن الملك بهم وبتعهدك لهم . الله الله فيهم وفى غيرهم من المسلمين ، ولا ينتهين إليك أمر فيه صلاح للمسلمين ومنفعة إلا قدمته وآثرته على غيره من هواك ، وخذ من أقويائهم لضعفائهم ، ولا تحمل عليهم فى شىء ، وأنصف بعضهم من بعض بالحق بينهم ، وقربهم وتأن بهم .

وكان المأمون يحرص كل الحرص على الانتفاع برجاله ، ويطلق لهم حريتهم فى العمل ، وممن كان يستمع لمشورتهم أحمد بن أبى داود ، وهذا كان أول من افتتح الكلام مع الخلفاء ، وكانوا لا يبدؤهم أحد حتى يبدءوه . ولما أسند[1] المأمون وصيته عند الموت إلى أخيه المعتصم قال فيها : وأبو عبد الله أحمد بن أبى داود لا يفارقك الشركة فى المشورة فى كل أمر فإنه موضع ذلك ، ولا تتخذن من بعدى وزيراً . ومن جملة ما أوصى به المأمون أخاه المعتصم فى مرضه : خذ بسيرة أخيك فى القرآن والإسلام ، واعمل فى الخلافة إذا طوقكها الله عمل المريد لله ، الخائف من عقابه وعذابه ، ولا تغتر بالله ومهلته ، وكأن قد نزل بك الموت . ومن ذلك عرفنا أن سياسة المأمون ملكه كانت علماً وعملا ، وهكذا يريد أن يكون عماله : وعظه رجل فأصغى إليه منصتاً فلما فرغ قال : قد سمعت موعظتك فاسأل الله أن ينفعنا بها وربما عملنا ، غير أنا أحوج إلى المعاونة بالفعال منا إلى المعاونة بالمقال ، فقد كثر القائلون وقل الفاعلون .

كان فى المأمون شىء من الجاذبية الفطرية يستميل بها القلوب ويجمعها على حبه ، ذلك أنه كان يعرف أمزجة أمته فيشغلها فى المفيد ، ولا لغو ولا لهو فى حياته ، فكان بإدارته مثال الجد فى الخوالف من بنى العباس ، يفكر فى أمر رعيته أكثر من تفكيره فى أمور نفسه . كتب إلى عامله على دمشق فى التقدم إلى عماله فى حسن السيرة وتخفيف المؤونة وكف الأذى عن أهل محله ،

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان .

وأن يتقدم إلى عماله فى ذلك أشد التقدمة ، وأن يكتب إلى عمال الخراج بمثل ذلك ، وكتب بهذا إلى جميع عماله فى أجناد الشام ، واستجلب المأمون لمساحة أرض الشام مساح العراق والأهواز والرى . وكان يعدل الخراج إذا شكا منه أهله . كان العلاء بن أيوب لما ولى فارس من قبل المأمون يكتب عهد العمال فيقرؤه من يحضره من أهل ذلك العمل ويقول أنتم عيونى عليه فاستوفوه منه ، ومن تظلم إلىَّ منه فعلىَّ انصافه ونفقته جائياً وراجعاً . ويأمر العمال أن يقرءوا عهده على أهل عمله فى كل جمعـــة ويقول لهم : هل استوفيتهم ؟

أصاب أهل مكة سيل جارف مات تحته خلق كثير ، فكتب والى الحرمين إلى المأمون يذكر له الحال ، فوجه إليه المأمون بالأموال الكثيرة وكتب إلى الوالى : «أما بعد ، فقد وصلت شكيتك لأهل حرم الله إلى أمير المؤمنين ، فبكاهم بقلب رحمته ، وأنجدهم بسبب نعمته ، وهو متبع ما أسلف إليهم ، بما يخلفه عليهم ، عاجلا وآجلا ، إن أذن الله فى تثبيت عزمه على صحة نيته » : قالوا فصار كتابه هذا آنس لأهل مكة من الأموال التى أنفذها . وكان له فى كل بلد حوادث من الإحسان قلما يتسامى إليها أحد من الخلفاء . ذكر المؤرخون أن المأمون لما كان فى دمشق أضاق إضاقة شديدة ، ثم وافاه المال ثلاثون ألف ألف درهم . فقال ليحيى بن أكثم : اخرج بنا لننظر إلى هذا المال فخرج وخرج الناس ، وكان قد زين الحمل وزخرف ، فنظر المأمون منه إلى شىء حسن كثير ، فاستعظم الناس ذلك واستبشروا به . فقال المأمون : إن انصرافنا إلى منازلنا بهذا المال وانصراف الناس خائبين لؤم . فأمر كتابه أن يوقع لهذا بألف ألف ولذاك بمثلها ولآخر بأكثر منها حتى فرق أربعة وعشرين ألف ألف درهم ورجله فى الركاب ، ثم حول الباقى على عرض الجيش برسم مصالح الجند .

عقد المأمون لأخيه أبى إسحاق على ثغر المغرب ، ولابنه العباس على الشام والجزيرة ، ولعبد الله بن طاهر على الجند ومحاربة بابك . وفرق فيهم

ما لم يفرق مثله أحد مذ كانت الدنيا : أمر لكل واحد منهم بخمسمائة ألف دينار ، وما كان المأمون يضن بمال إذا كان فيه صلاح الدولة والرعية . وخمسمائة ألف دينار يأخذها العامل ينفقها فى أتباعه ورجاله ومروءته . وكانت نفقة المأمون كل يوم ستة آلاف دينار يصرف أكثرها على الرعية ولا يناله منها إلا جزء طفيف . كتب عمرو بن مسعدة إلى المأمون كتاباً يستعطفه على الجند ونصه : « كتابى إلى أمير المؤمنين ومن قبلى من أجناده وقواده فى الطاعة والانقياد على أحسن ما تكون عليه طاعة الجند تأخرت أرزاقهم ، واختلت أحوالهم » . فقال المأمون والله لأقضين حق هذا الكلام ، وأمر بإعطائهم ثمانية أشهر. وكتب بعض ولاة الأجناد إلى المأمون: إن الجند شغبوا ونهبوا . فكتب إليه : لو عدلت لم يشغبوا ، ولو وفيت لم ينهبوا . وعزله عنهم ، وأدر عليهم أرزاقهم .

روى الجاحظ قال حدثنا أحمد بن أبى دواد قال: قال لى المأمون لايستطيع الناس أن ينصفوا الملوك من وزرائهم ، ولايستطيعون أن ينظروا بالعدل بين ملوكهم وحماتهم وكفاتهم وبين صنائعهم وبطانتهم ، وذلك أنهم يرون ظاهر حرمهم وخدمهم واجتهادهم ونصحهم ، ويرون إيقاع الملوك بهم ظاهراً حتى لا يزال الرجل يقول ما أوقع به إلا رغبة فى ماله أو رغبة فى بعض ما لا تجود النفس به ، ولعل الحسد والملالة وشهوة الاستبدال اشتركت فى ذلك ، فلا يستطيع الملك أن يكشف للعامة موضع العورة فى الملك ، ولا أن يحتج لتلك العقوبة بما يستحق ذلك المريب ، ولا يستطيع ترك عقابه لما فى ذلك من الفساد على عمله بأن عذره غير مبسوط للعامة ولا معروف عند أكثر الخاصة .

ويتعذر تعداد أفضال المأمون على الأفراد، وحرصه على اختيار رجاله وعنايته بآرائهم وتجاربهم ، وغرامه بالعفو والإحسان . قال أحمد بن أبى خالد وزير المأمون لثمامة بن أشرس : كل واحد فى هذه الدار ، أى فى دار الخليفة ، له معنى غيرك ، فإنه لا معنى لك فى دار أمير المؤمنين . فقال له المأمون :

إن له معنى فى الدار ، والحاجة إليه بينة . قال: وما الذى يصلح له ؟ قال: أشاوره فى مثلك هل تصلح لمن معك أو لا تصلح ؟ وثمامة هو من الجماعة الذين كانوا يغشون دار الخلافة[1] وهى دار العامة ، ومنهم محمد بن الجهم والقاسم بن سيار ، وكان هؤلاء الرجال أشبه بالمستشارين بل أشبه بدعاة الدولة ، وعنوان الخلافة . هذا إلى ما هناك من شعراء وأدباء وعلماء وفقهاء يختلفون فى الأحايين إلى الخليفة فيشاركهم فى حديثهم ،وينافسهم فى صناعتهم ، ويفضل عليهم من هباته ، فيخرجون وألسنتهم تنطق بحمده ، وتدعو بدوام ملكه ، ويذكرون للعامة والخاصة ما هو عليه من بعد النظر فى سياسة الملك . قال الجاحظ : كان إبراهيم بن السندى مولى أمير المؤمنين عالماً بالدولة شديد الحب لأبناء الدعوة ، وكان يحوط مواليه ويحفظ أيامهم ، ويدعو الناس إلى طاعتهم ويدرسهم مناقبهم ، وكان فخم المعانى فخم الألفاظ ، لو قلت لسانه كان أرد على هذا الملك من عشرة آلاف سيف شهير وسنان طرير لكان ذلك قولا ومذهباً .

أرانا قد خرجنا من وصف إدارة المأمون إلى وصف سيرته . ونحن إلى ذلك مسوقون على الرغم منا ، وأنى لنا أن نصدر حكماً صحيحاً على حكومة مطلقة قبل أن نتعرف أخلاق رأسها خليفة كان أو ملكاً أو أميراً . والرأس هو الكل فى مثل هذه الدول ، إذا صلح صلح الجسد كله .

الإدارة على عهد المعتصم وأخلاقه :

إذا ذكر المعتصم فأول ما يتبادر إلى ذهن قارئ التاريخ الإسلامى أنه الخليفة الذى أشرك الترك فى الخلافة العباسية وأبعد العرب عنها . اجتمع له من الأتراك أربعة آلاف فألبسهم أنواع الديباج والمناطق الذهبية ، وأبانهم بالزىّ على سائر جنده ، واصطنع قوماً من اليمن وقيس ومضر وسماهم المغاربة ، وأعد رجال خراسان من الفراغنة والأشروسنية وغيرهم من الترك ، فكانت جيوش المعتصم كثيرة مستعدة للقتال عند أقل إشارة ، وكان السعد حليفه

(١) مناقب الترك وعامة جند الخلافة للجاحظ .

غزواته للروم . قيل إنه لما فتح(١) عمورية كانت عدة عساكره خمسمائة ألف فارس ، وعلى مقدمته خمسمائة من الخيول البلق ، وكانت الحاميات فى الثغور أبداً على أتم نظام ، وارتفاع الثغور الشامية(٢) نحو المائة ألف دينار(٣) تنفق فى مصالحها من المراقب والحرس والفوائير والركاضة(٤) والموكلين بالدروب والمخاوض والحصون وغير ذلك من الأمور والأحوال ، وما يحتاج إلى شحنتها من الجنود والصعاليك(٥) . وتنفق الدولة على مغازى الصوائف والشواتى فى البر والبحر فى السنة على التقريب مائتى ألف دينار ، وعلى المبالغة ثلاثمائة ألف دينار . بيد أن المعتصم لم يكن بالنفقة على شىء أسمح منه بالنفقة على الحرب . وربما كان للمعتصم بعض العذر فى ثقته بالأتراك فى جيشه وهم من القديم عرفوا بالحرب واشتهروا بالطاعة لقوادهم : ولكن هذه الغلطة الإدارية كان وبالها بعد على الدولة لأن الأتراك تسللوا إلى الوزارات والقيادات واستأثروا بالولايات والعمالات ، فأصبح لهم بعدُ السلطان الحقيقى على البلاد ، وللخلفاء صيغة غير عملية من الحكم .

أراد المعتصم أن يتشبه بأخيه المأمون فسار على أحكامه ونظامه ، ومن أين له أن يشبهه بعلمه وحلمه . فقد ذكر واصفوه أنه كان قليل البضاعة من الأدب ، وإذا غضب لا يبالى من قتل ولا ما فعل . وقالوا إنه كان يحب العمارة ويقول إن فيها أموراً محمودة من عمران الأرض التى يحيا بها العالم ، وعليها يزكو الخراج ، وتكثر الأموال ، وتعيش البهائم ، وترخص الأسعار ويكثر الكسب ، ويتسع المعاش . ولطالما قال لوزيره محمد بن عبد الملك إذا وجدت موضعاً متى أنفقت فيه عشرة دراهم جاءنى بعد سنة أحد عشر درهماً فلا تؤامرنى فيه . وأعطى أهل الشاش ألفى ألف درهم لكرى نهر لهم اندفن فى صدر الإسلام .

(١) التيسير والاعتبار للأسدى (مخطوط) .

(٢) الثغور الشامية هى : طرسوس وأذنه والمصيصة والإسكندرونة وأولاس وعين زربة والكنيسة السوداء والهارونية وبياس . ومن ثغور الجزيرة مرعش وأنطاكية وبغراس .

(٣) الخراج لقدامه . (٤) الفوائير : الكشافة . الركاضة : البريديون .

(٥) الصعاليك : الجند غير المنظم .

لم يبتدع المعتصم ولا ابنه الواثق شيئاً جديداً فى الإدارة لم يعرفه المأمون والرشيد ، بل عاشا وعاشت الخلافة العباسية بعد ذلك بالأساس الذى وضعه المنصور للدولة . ولم يكن لها بعد منتصف القرن الثالث تلك الروعة التى كانت لها فى عهد الخلفاء الأول : وقل بعد المأمون الخلفاء النادرون بذكائهم وتجاربهم فأصيبت الخلافة بعد عظائها بفتور ، وأعمالهم بقلة الرواء والاتساق . ومن أهم الدوعى إلى هذا الانحطاط فساد الإدارة واختلال أحوال القضاء ، وقد نشأ ذلك من شراهة نفوس العمال والوزراء وإضاعة الحقوق . ومن يصادر أو يموت عن عشرات أو مئات الألوف من الدنانير من هذه الطبقة كيف يصح لك أن تحكم عليه بالبراءة من مال السحت والرشا والسرقات . مساوئ ما فشت فى أمة إلا ضاع حق سلطانها وحق رعيته ؟

كانت أهم عقوبة تقع على الظالم من العمال مصادرة الخليفة أو وزيره أو عامله الأكبر ، وأصبح العمال فى الدولة العباسية صورة عجيبة من استنزاف الأموال ، وهم موقنون بأن مصيرهم بما جمعوه إلى المصادرة والقتل . وقل فيهم من كان يكتفى بما قرره له الخليفة أو العامل الأعظم من الجرايات والمشاهرات ، وقد تكون على حد الكفاية وأكثر من الكفاية بالنسبة لتلك الأعصر ، وما حدث فيها من وفرة الثروة وعوائد الترف والسرف . وللوزراء ومن يلونهم طرق إبليسية فى السلب . والأرجح أن أهم موارد الوزراء والولاة كان من نهب جباية الدولة أو بيت مالها ، ومن الهدايا التى يضطرون صغار عمالهم إلى تقديمها فى كل فرصة ، ومن رشا يتناولونها من يحاولون أن يستخدموا فى أعمال الدولة ، إلى غير ذلك من وجوه انتهاب الأموال وإعنات الناس . وكانت هذه الطبقة من الوزراء والكبراء تصوم وتصلى وتتعبد وتتصدق وتغار على الإسلام والدولة ، ثم تجوز الاحتيال لأخذ الأموال لأن الأبهة تقتضى التوسع فى الانفاق !

قال عامل لأحد من زاره من وزراء العباسين فى الفسطاط فرأى جسراً يحتسب العمال عنه على السلطان ستين ألف دينار فى كل سنة ، وهو لا يكلف

عشرة دنانير : إن جاريه ثلاثة آلاف فى الشهر ولا يمكنه وهو عامل مصر أن يكون بغير كتاب ولا عمال ولا كراع ولا جمال ولا إعطاء ولا إفضال ؛ وله حرم وأولاد وأقارب وأهل يحتاج لهم إلى مؤونة ، ولا يخلو أن يرد عليه زوار بكتب من الرؤساء فتقضى المروءة أن يبرهم ويصلهم ، إلى غير ذلك مما يصانع به ، ومنها هدايا سنوية إلى الخليفة وأنجاله والسيدة والقهرمانة وكتابهم وأسبابهم ؛ وبهذا رأينا أن العامل كان مضطرا بحسب مصطلح ذلك الزمان إلى أن يسد العجز فى موازنته الخاصة من طرق غير مشروعة ، وقل العف الجيد الطعمة . وكلما تقدم الزمن وزادت الخلافة العباسية عتقاً بليت الأخلاق فى الناس وتبعها تقلقل الإدارة ، لفسولة رأى القائمين بالدولة وتشعب أغراضهم .

ولقد كان الخلفاء على الأكثر يتخيرون للولايات والوزارات أكتب الناس وأعلمهم وللقضاء أقضاهم وأفتاهم . وحظوة الرجل عند قومه قد تكون من بواعث إسناد كبار الأعمال إليه خصوصاً الوزارات والولايات والقيادات . وأتى زمن المعتصم والوزير أعجم طمطم لا يفهم ولا يُفهم ، وأصبح أنصار الدولة والغيُر عليها يتأففون ممن لا يحسنون العربية ، وإن كان منطوياً على صفات أخرى صالحة فى تدبير الملك ؛ وذلك لكثرة من دخل فى الأعمال من غير العرب . وكان معظم العمال يحاولون أن يجروا الرعية على المعاملات القديمة ، ويحملوهم على الرسوم السليمة . ولكن تطلب أنفس الولاة والعمال إلى العبث بحقوق الناس ، ليجنوا من ذلك ما تتلمظ له شفاههم من المغانم ، كان الباعث على استشراء الفساد فى معظم طبقات المجتمع .

ثم أصبح بعض العظماء[1] ينفرون من الوزارة لأن خاتمة حياتهم التقتيل، ولأن مصير أموالهم وأموال ذويهم كان فى الغالب إلى المصادرة والاغتصاب . ولقد عمت المصادرة سائر رجال الحكومة حتى الرعية ، وأصبحت بتوالى الأيام ، المصدر الرئيسى لتحصيل المال ؛ فالعامل يصادر الرعية ، والوزير

(١) عصر المأمون لأحمد فريد رفاعى .

يصادر العمال ، والخليفة يصادر الوزراء ، ويصادر الناس على اختلاف طبقاتهم . حتى أنشأوا للمصادرة ديواناً خاصاً مثل سائر دواوين الحكومة ؛ فكان المال يتداول بالمصادرة كما يتداول بالمتاجرة .

غضب المعتصم على وزيره الفضل بن مروان وأخذ منه عشرة آلاف ألف دينار ثم نفاه . ثروة ضخمة لو فكر الفضل أن يخلع طاعة الخليفة وينشئ بها ملكاً له لما أعجزه ذلك . وغضب الواثق على كتاب الدواوين وسجنهم وأخذ منهم ألفي ألف دينار ، وفيهم بعض الوزراء ومن كانوا فى منزلتهم : وقل أن كان الوزير ينجو من نكبة إذا طالت أيامه ، وأيقن الخليفة أنه اغتنى وعبث بأموال الدولة ، أو حفزت الحاجة أحد الخلفاء إلى المال فتفقده فى خزائنه فلم يجده ، ولم يعهد لوزير أن وزر وزارة واحدة بلا صرف لثلاثة خلفاء متسقين إلا محمد بن عبد الملك الزيات ، وانتهى أمره بحرقه فى التنور ومصادرة أمواله . وكان من العلم والأدب فى الذروة العليا . وكان سلفه فى وزارة المعتصم أحمد بن عامر الذى وصفه ووصف نفسه بقوله : « خليفة أمى ووزير عامى » [(١)] .

قال الوزير ابن الفرات : تأملت ما صار إلى السلطان من مالى فوجدته عشرة آلاف ألف دينار ، وحسبت ما أخذته من الحسين بن عبد الله الجوهرى فكان مثل ذلك . فكأنه لم يخسر شيئاً لأنهم كانوا يقبضون بالمصادرة ويدفعون بالمصادرة ، وإذا صودر أحدهم على مال لم يكن فى وسعه أداؤه كله معجلا أجلوه بالباقى وساعدوه على تحصيله وجمعه ، وتعددت أسباب المصادرة وجهاتها حتى أصبح كل صاحب مال أو منصب عرضة لها . وكانت وزارة ابن الفرات ثلاث سنين وثمانية أشهر واثنى عشر يوماً[(٢)] — وولى الوزارة ثلاث مرات — وطولب بأمواله وذخائره فاجتمع منها مع ودائع كانت له سبعة آلاف ألف دينار ، فيما حكى عن الصولى ، وكان مشاهداً ومشرفاً

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان .
(٢) دول الإسلام للذهبى .

على أخبارهم . قال : وما سمعنا بوزير جلس فى الوزارة وهو يملك من العين والورق والضياع والأثاث ما يحيط بعشرة آلاف ألف غير ابن الفرات .

كان الواثق فى حلمه وحسن خلقه يشبه عمه المأمون ؛ يحب العدل ويعطف على أهل بيته ويتفقد رعيته . حشم[1] الأمراء عن الظلم ، وكان يجلس لحساب الدواوين بنفسه ، وترك جباية أعشار سفن البحر ، وكان مالا عظيما . وقيل إنه سد باب اللهو والغناء أما هو فكان يسمع المغنيات ولا يتبذل ولا يسرف . واشتد على الناس كأبيه وعمه فى مسألة خلق القرآن حتى قيل إنه أمر فى سنة ٢٣١ وهى سنة الفداء بين المسلمين والروم أن يمتحن[2] أسارى المسلمين ، فمن قال القرآن مخلوق وأن الله لا يرى فى الآخرة فودى به وأعطى ديناراً ، ومن لم يقل ذلك ترك فى أيدى الروم .

كان لولى العهد فى الممالك الثلاث التى قسمها الواثق بين أولاده ، أو المملكة العباسية بأجمعها ، الصلاة والمعاون ، أى الشحنة والشرطة ، والقضاء والمظالم والخراج والضياع والغنيمة والصدقات وغير ذلك من حقوق أعمالها ، وما فى عمل كل واحد منها من البريد والطراز وخزن بيوت الأموال ودور الضرب : يستخلفون على القطر الكبير حرباً وخراجاً ، ويفوضون الأمور كلها للعامل يأذن إليه فى الحل والعقد بغير استئمار ويخلعون عليه سواداً . أى أن القطر الواحد بل المصر الواحد يحكم برأى عامله وجماعة ممن يختارهم لمشورته ومعاونته فينظر فى الأمور بحسب فهمه وما يوحيه إليه المحيط والعادة والعرف ، ويطبق الأحكام الشرعية على الكبير والصغير والملى والذمى ، وينصب العامل الأكبر فى الولاية العمال من ذوى الرأى والتدبير والخبرة والعلم بالسياسة ، ويشاور الفقهاء وأرباب التجارب ، وينفق من المال ما تصلح به الولاية ، وما يوسع به على القراء والفقراء وذوى الحاجات ، وما تقتضيه من عطاء الجند وتقوية

(١) تاريخ الطبرى .
(٢) صلة تاريخ الطبرى لعريب .

الثغور وشحن المصالح ثم يبعث بالباقى من الأموال إلى الخليفة . وللخليفة الخطبة والسكة ، فإذا كان العامل يحسن عمله ، ويعرف مدى التبعة الملقاة عليه ، يستسيغ الخراج إن كان ذا قوة ، أو آنس من جانب الحضرة ضعفاً . ولا يرجع فى العادة إلى استشارة العاصمة إلا فى عويص المسائل التى يمكن تأجيلها ، وتكون من حقوق الخليفة داخلة فى أمهات المسائل الكبرى فى الدولة . وقد يجتهد ويرتكب غلطاً فتصرفه العاصمة إن أحسته أو توجعه فى العقوبة ، كما فعل المنصور لما بلغه ضرب عامله على المدينة عالمها مالك بن أنس فشق ذلك على الخليفة وأهان عامله وصرفه . ولكن كانت كتف مالك قد زالت عن مكانها بالضرب المبرح . فالعامل فى الحقيقة هو الملك الفعلى ، ولايسع العاصمة إلا أن تقره على مايقرر ويدبر فى أكثر الحالات . وقد ظهرت مضار هذه الطريقة عندما كانت العاصمة تعجز عن ضبط كل شىء من أمور الولايات لضعف الخلافة ووناء القائم على سدتها . وإذا كان هناك قضاة وولاة وناظرون ومفتشون وكتاب وحساب فإن التنفيذ يختلف قوة وضعفاً بحسب كفاية العامل وسلطان الخليفة والوزير .

خلع المتوكل على عبيد الله بن يحيى وأمر أن لا يعرض أحد من أصحاب الدواوين على الخليفة شيئاً ، وأن يدفعوا أعمالهم إلى وزيره ليعرضها ، وأجرى له فى كل شهر عشرة آلاف درهم ، لما كان فى نفسه من الأتراك واستبدادهم بالأمر . فكان عهده عهد جذب ودفع بين أصحاب الخلافة ومن رفعهم المعتصم على رقاب الناس من الترك ، وعلق المتوكل يداوى الأمراض البادية فى جسم الدولة بإنفاق المال الذى جمعه المأمون والمعتصم والواثق على نحو ما فعل الأمين ؛ وهذا فرق ما جمعه السفاح والمنصور والمهدى والرشيد من الأموال . فقال الناس إن أيام المتوكل كانت فى حسنها ونضارتها ورفاهية العيش فيها ورخص أسعارها وحمد الخاص والعام لها ورضاهم عنها أيام سراء لا ضراء . نعم كان هذا الخليفة منفاقاً لا يحسن تدبير خرجه ، وله مع هذا عناية خاصة بديوان زمام النفقات . أنفق ما أنفق مما أدخره أجداده فى بيوت

أمواله ، فكان هذا منه تدبيراً موقتاً غير ناجح ، وما استطاع أن يداوى ما تجلى من تسلط الأتراك على الدولة فى عامة أقطارها وأعمالها .

شدد على أهل الذمة لما أيقن أنهم كانوا يتطلعون إلى دولة الروم ويعملون ما يخالف مصلحة الدولة . وأمر بإجلاء النصارى عن حمص لأنهم كانوا يعينون الثوار من اليمانيين ، والثورة لا تكاد تنطفئ كل حين من حمص حتى سميت الكوفة الصغرى ؛ لكثرة قيام أهلها على العمال ، كما خصت تونس بالتشغب والقيام على الأمراء والخلاف للولاة .

وجاء المنتصر يقاوم العلويين كأبيه المتوكل ويكتب إلى عامل مصر (٢٤٧) أن لا يقبل علوى ضيعة ، ولا يركب فرساً ، ولا يسافر من الفسطاط إلى طرف من أطرافها ، وأن يمنعوا من اتخاذ العبيد إلا العبد الواحد ، وإن كانت بين العلوى وبين أحد خصومه قُبل قول خصمه فيه ولم يطالب ببينة . ذلك لأن العلويين ما ناموا ساعة عن المطالبة بالملك ، فمثل هذا الأمر يضيق عليهم دائرة حركتهم ، وإن كان فى بعض ما يرمى إليه غير عادل .

إدارة المعتز والمهتدى والمعتمد :

تولى المعتز الخلافة فأمر بإحضار جماعة ممن صفت أذهانهم ، ورقت طباعهم ، ولطف ظنهم ، وصحت نحائزهم ، وجادت غرائزهم ، وكملت عقولهم بالمشورة ، وحاول أن يتخلص من الأترك وكانوا تأصلوا فى جسم الدولة وروحها ، وكانوا كثروا وأى كثرة فى العاصمة والولايات ، وقدرت أرزاقهم وأرزاق المغاربة والشاكرية فى سنة ٢٥٢ فكان مبلغ ما يحتاجون إليه فى السنة مائتى ألف ألف دينار ، وذلك خراج المملكة لسنتين ، فإذا تأخر عطاؤهم فهناك المؤامرات والمشاغبات وخوف البدوات والنزوات والوثوب بالدولة .

وأسندت إمارة مصر لأحمد بن طولون (٢٥٤) من الأتراك ، واستبد بجميع أعمال مصر لما وسد إليه أمر الأموال . وكان الأمير فى مصر من قبل

ليس له إلا الجند والشرطة وللعامل النظر فى الأموال ، وكلاهما يراقب صاحبه ، وهما متساويان فى المكانة وربما تقدم العامل على الأمير . والأقباط مذ كان الإسلام يتولون النظر فى الأموال ؛ فتنظر إليهم الأمة نظرها إلى الصل والثعبان ، ويراهم صاحب الأمر مختلسين. وكانت جمهرة جيش ابن طولون من المماليك والديالمة يشتريهم كما يشترى الرقيق . وبلغت عدتهم أربعة وعشرين ألف مملوك وأربعين ألفاً من العبيد الزنج ومن العرب وغيرهم . أما ابنه خمارويه فقيل إن عدة جيشه بلغت أربعمائة ألف فارس . وحسنت حال مصر على عهد ابن طولون ودر خراجها واستفاض عمرانها على كثرة ما سفك من الدماء . ولما انقرض الطولونيون خلفتهم الدولة الإخشيدية[1] فسارت على خطتها فى إدارة مصر ولكن ليس المقلد كالمقلد .

تولى المهتدى « والدنيا كلها مفتونة » فحاول ، إعادة الخلافة إلى رونقها ، وأمر بإخراج الفتيان والمغنين والمغنيات من سامرا ونفاهم إلى بغداد ، وأمر بقتل السباع وطرد الكلاب وإبطال الملاهى ورد المظالم ، وجلس ليرفعها فرفعت إليه قصص ، فى الكسور ، فسأل عنها فقال وزيره سليمان بن وهب شيئاً فى تاريخ الخراج منذ عهد عمر إلى عهد المنصور فأجاب المهتدى : معاذ الله أن ألزم الناس ظلماً تقدم العمل به ولو تأخر ، أسقطوه عن الناس . فقال أحدهم إن اسقط أمير المؤمنين هذا ذهب من أموال السلطان فى السنة اثنا عشر

---

(١) كان يطلق هذا الإسم « الإخشيد » على ملوك فرغانة وهو لفظ فارسى معناه ملك الملوك كما يطلق على ملوك الفرس الساسانية لقب شاهنشاه « ملك الملوك » وكسرى ، وعلى ملك الروم باسيل وهو قيصر ، وعلى ملوك الاسكندرية بطليموس . واليمن تبع ، والترك الخزر والقرغز خاقان ، والترك الغزية حنوتة ، والصين بغبور ، والهند بلهرا ، وقنوج رابى ، والحبشة النجاشى ، والنوبة كابيل ، وجزائر البحر الشرقى مهراج ، وجبال طبرستان اصفهبذ ، ودنباوند مصمغان ، وغرجستان شار ، وسرخس زاذوية ، ونساوأبيورد بهمنة ، وكش نيدون ، وأشروسنة أفشين ، والشاش تدن ، ومرو ماهويه ، ونيسابور كنبار ، وسمرقند طرخون ، والسرير الحجاج ، ودهستان صول وجرجان أناهبذ ، والصقالبة قبار ، وملوك السريانيين نمروذ ، والقبط فرعون ، وباميان شيرباميان ، ومصر العزيز ، وكابل كابل شاه ، والترمذ ترمذ شاه ، وخوارزم شاه ، وشروان شروان شاه ، وبخارا بخارا خداه ، وكوزكان كوز كانان خداه — ذكر ذلك البيرونى فى الآثار الباقية .

ألف ألف درهم . فقال المهتدى على أن أقرر حقاً وأزيل ظلماً وأن أجحف بيت المال .

وكان المهتدى آخر الخلفاء الذين كانوا يتولون بأنفسهم القضاء والمظالم ، وربما كانوا يجعلون القضاء والمظالم لقضاتهم كما فعل عمر مع قاضيه أبى إدريس الخولانى وكما فعل المأمون مع يحيى بن أكثم والمعتصم مع أحمد بن أبى داود ، وربما كانت تجعل قيادة الجيوش للقضاة ، وكان يحيى بن أكثم يخرج أيام المأمون بالصائفة إلى أرض الروم . وكان تولية هذه الوظائف إنما تكون للخلفاء أو من يجعلون ذلك له من وزير مفوض أو سلطان متغلب .

ولما هم الجند بقتل المهتدى خطبهم فقال : أما دين؟ أما حياء ؟ كم يكون هذا الخلاف على الخلفاء ، والأقدام والجرأة على الله ، سواء عليكم من قصد الإبقاء عليكم ، ومن كان إذا بلغه مثل هذا عنكم دعا بارطال الشراب فشربها سروراً بمكروهكم ، وحباً ببواركم . ثم ذكر لهم أنه لم يصل إليه من دنياهم شيء وأنه ليس فى منازل اخوته وولده فرش أو وصائف أو خدم أو جوار ولا لهم ضياع ولا غلات . وكان حقيقة مقلا من اللباس والفرش والمطعم ، وأمر بإخراج آنية الذهب والفضة من الخزائن فكسرت وضربت دنانير ودراهم ، وعمد إلى الصور التى كانت فى المجالس فمحيت[1] .

وجىء بالمعتمد فقسم المملكة بين ابنه وأخيه الموفق ، فغلب أخوه عليه وشغل هو بلذاته ، وكثر دخول الزعانف فى القبض على الأعمال والفتن منتشرة ؛ ومن أهمها فتنة صاحب الزنج ، والموفق يقود العساكر ، ويرابط ويرتب الوزراء والأمراء . وقيل أن المعتمد احتاج إلى ثلاثمائة دينار فلم يجدها فقال :

أليس من العجائب أن مثلى ... يرى ما قل ممتنعاً عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً ... وما من ذاك شىء فى يديه

(١) مروج الذهب للمسعودى .

وطالت أيام المعتمد ولم يؤثر عنها ابداع جديد فى الإدارة والسياسة . وكان ديوان الموفق مائة ألف مرتزق . وكان المعتضد حسن الإدارة عمرت[١] مملكته ، وكثرت الأموال وضبطت الثغور ، كان قوىّ السياسة شديداً على أهل الفساد ، وكان ولى والدنيا خراب والثغور مهملة ، فقام قياماً مرضياً فسكنت الفتن ، وصلحت البلدان وارتفعت الحروب ، ورخصت الأسعار ، وهدأ الهيج ، وسالمه كل مخالف ، ودانت له الأمور ، وانفتح له الشرق والغرب ، وأديل له من أكثر المخالفين . وكان سريع[٢] النهضة عند الحادثة ، قليل الفتور يتفرد بالأمور ، ويمضى تدبيره بغير توقف ، ولى الأمر بضبط وحركة وتجربة ، وكف من كان يتوثب ويتشغب من الموالى .

وأمر المعتضد بافتتاح الخراج فى النيروز المعتضدى وهو فى حزيران من شهور الروم ، وذلك للرفق بالناس ، وكتب إلى الأقطار برد الفاضل من سهام المواريث على ذوى الأرحام ، وإبطال ديوان المواريث ، وكان من قبل يلحق كثيراً من الناس إعنات فى مواريثهم ، ويتناول على سبيل الظلم من أموالهم ، ويتقلد جبايتها أناس يجرون مجرى عمال الخراج ، شىء لم يكن فى خلافة من الخلافات إلى أن مضى صدر من خلافة المعتمد ، فجرى العمل بذلك على سبيل تأوّل ، فأزال المعتضد ذلك وأمر أن يرد على ذوى الأرحام ما أوجب الله ورسوله وعمر بن الخطاب وعلى بن أبى طالب وعبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود ، وأن ترد تركة من مات من أهل الذمة ولم يخلف وارثاً على أهل ملته ، وأن يصرف جميع عمال المواريث فى النواحى ويبطل أمرهم ، ويرد النظر فى أعمال المواريث إلى الحكام ، وكانوا يرتادون القضاة من أهل البلاد نفسها .

وللمعتضد مذهب جميل فى سياسة عماله ؛ بلغه أن عامله على فارس أظهر أبهة فى ولايته ، وأنفق ما وقعت له به هيبة فى نفوس الرعية ، فسأل عن

---

(١) تاريخ ابن الطقطقى .

(٢) التنبيه والإشراف للمسعودى .

رزقه فقيل له ألفان وخمسمائة دينار فى الشهر ، فقال اجعلوها ثلاثة آلاف ليستعين بها على مروءته[١] . وكتب إليه فى عامل عجز فى ضمانة وهو مسجون بأنه كان فى أيام ولايته يفرق عشرين كراحنطة فى كل شهر على حاشيته والفقراء والمساكين من أهل معرفته ، وأنه فرق ذلك فى هذا الشهر على عادته . فقال : سرّنى قيامه بمروءته ومعروفه . وأعفاه من أداء مبلغ كان يطالب به ، ورده إلى عمله وأحمد ما كان منه .

سارت الخلافة فى طريق سوى على عهد المعتضد لسطوته ومهابته وعفته وإمساكه ، فكان مع حرصه على إبقاء سلطانه يخافه عماله ويكفون عن المظالم، واستعمل بعضهم الشدة فى حفظ الأمن . بلغ عامله بدمشق[٢] أن رجلا أعرابياً فى أذرعات نتف خصلتين من شعر أحد فرسان الدولة ، فطلب الوالى معلماً يعلم الصبيان وقال له : تخرج إلى اليرموك وأعطيك طيوراً تكون معك فإذا دخلت القرية فقل لهم : إنى معلم جئت أطلب المعاش وأعلم صبيانكم ، فإذا تمكنت من القرية فارصد لى الأعرابى الذى نتف سبال الفارس وخذ خبره واسمه ، فإذا رأيته قد وافى أرسل الطيور بخبره . ثم قبض على الإعرابى وقطع رأسه وصلبه وضرب الجندى مائة عصا وأسقط اسمه من الديوان ، لأنه استخذى للأعرابى حتى فعل بسباله ما فعل .

كان من جميل سيرة المعتضد مع عماله وخوفه البطش بهم إذا جنوا مايعاقبون عليه ، أنه إذا نكب رجلا من جلة العمال ورؤسائهم وكل به من يحفظه من قبله وشدد الوصية فى صيانته ، ويظهر أن هذا التوكيل للمطالبة وزيادتها والتشدد فيها لا ليحفظ نفسه ، لئلا يطمع العامل . وكان يقول : هؤلاء أكابر من العمال الذين قامت هيبتهم فى نفوس الرعية وعرفوا أقطار البلاد ، وهم أركان الدولة وأعضاء الوزارة والمرشحون لها ، فإن لم تحفظ نفوسهم فسد الأمر . وهذه هى الغاية فى الوقوف على نفسية العمال وحفظهم فى أنفسهم . ومع هذه المسامحة واللين لم يرتفع السواد سواد العراق لأحد بعد عمر بن الخطاب بمثل ما ارتفع له أيام المعتضد[٣] . وجمع تسعة آلاف ألف دينار فاضلة عن

---

(١) نشوار المحاضرة للتنوخى . (٢) تاريخ دمشق لابن عساكر .
(٣) تاريخ الوزراء الصابى .

جميع النفقات وأراد أن يسبكها نقرة واحدة إذا أتمها عشرة آلاف ألف ويطرحها على باب العامة ليبلغ أصحاب الأطراف أن له عشرة آلاف ألف دينار وهو مستغن عنها » بعد النفقات الراتبة والحادثة ، وإطلاق الجارى للأولياء فى سائر النواحى وجميع المرتزقة بها وبالحضرة » .

الإدارة على عهد المكتفى والمقتدر وكلام فى الوزراء :

اكتفى المكتفى بنهج منهج والده المعتضد فى الإدارة ، وكان وزيره العباس بن الحسن يقول لنوابه بالأعمال : أنا أوقع لكم وأنتم افعلوا ما فيه المصلحة . وقد كان يأخذ الوزير سبعة آلاف دينار فى الشهر راتباً ، ومن الكبراء من فادوا بخمسمائة ألف دينار ليصلوا إلى الوزارة . ومنهم من أعطوا المنجمين مائة ألف دينار ليحتالوا على الخليفة ويغيروا خاطره على أحد وزرائه ثم يتوصلون إلى منصب الوزارة . دليل ناصع أن الخلفاء انحطوا والوزراء كذلك .

بيد أن قواعد الدولة لم تتزلزل دفعة واحد لأن المعتضد ثبت قواعدها ، ومن يجيء بعده مهما ارتكب من الأغلاط لا يقضى على عامة التراتيب الموضوعة للخلافة منذ سنين . وقد خلف المكتفى فى بيوت الأموال من العين ثمانية آلاف ألف دينار ، ومن الورق خمسة وعشرين ألف ألف دينار : وفى رواية أنه خلف مائة ألف ألف دينار عيناً وعقاراً وأوانى بمثلها .

واستخلف المقتدر طفلا ، ووالدته وخالته وأم ولد المعتضد تدير الملك ، حتى أن هذه السيدة جلست بالرصافة للمظالم تنظر فى الكتب يوماً فى كل جمعة ، فأنكر الناس ذلك واستبشعوه وكثر عيبهم عليه والطعن فيه . ولم يكن جلوسها أول يوم طائل . وفى اليوم الثانى أحضرت القاضى فحسن أمرها وخرجت التوقيعات عن سداد ، فانتفع بذلك المظلومون وسكن الناس إلى ما كانوا نافرين من قعودها ونظرها ، فالمقتدر فى سنيه الأولى خصوصاً كان يتدبر بآراء النساء والحاشية ، والسيدة وقهرماناتها ومن يجرى مجراهن من

نساء القصر ، يتحكمن فى كل أمر ويتدخلن فى العزل والنصب ، وأمروا صاحب الشرطة ببغداد أن يُجلس فى كل ربع من الأرباع فقيها يسمع من الناس ظلاماتهم ، ويعتنى بمسائلهم حتى لا يجرى على أحد ظلم . وأمروه ألا يكلف الناس ثمن الكاغد الذى تكتب فيه القصص وأن يقوم به ، وألا يأخذ الذين يشخصون مع الناس أكثر من دانقين فى أجعالهم .

وردّ المقتدر رسوم الخلافة[1] إلى ما كانت عليه من التوسع فى الطعام والشراب وإجراء الوظائف . وكان فى داره أحد عشر ألف خادم خصى من الروم والسودان . وزاد فى أرزاق بنى هاشم وأعاد الرسوم فى تفريق الأضاحى على الفقراء والعمال وأصحاب الدواوين والقضاة والجلساء ، وأسرف فى الأموال فمحق من الذهب ثمانين ألف ألف دينار[2] وفرق فى خمس وعشرين سنة ما جمعه المنتصر والمهتدى والمعتمد والمعتضد والمكتفى .

قيل إنه كان بين ابن زبر القاضى وبين على بن عيسى الوزير عداوة وعجز ابن زبر عن رضاه فألقى رقعة فى ورق المظالم ، وفيها أن رجلا من خراسان رأى فى ثلاث ليال متوالية العباس بن عبد المطلب فى وسط دار السلام يبنى داراً ، فكلما فرغ من موضع تقدم رجل لهدمه . فقال له : يا عم رسول الله من هذا الذى بليت به ؟ فقال هذا على بن عيسى كلما بنيت لولدى بناء هدمه . فقرئت الرقعة على المقتدر فقال : إن هذه الرؤيا صحيحة يصرف على بن عيسى ويقبض عليه . فما جاء آخر النهار حتى وافى ابن زبر ومعه عهده بقضاء مصر ودمشق . فإن صحت هذه القصة كان تصديق المقتدر حيلة القاضى من أغرب ما أثر من ضعف العقول .

وعلى بن عيسى هذا أكبر وزراء ذاك العهد ومن الأسر العريقة فى خدمة الدولة منذ أيام المعتضد[3] كان من الثقة والصيانة والصناعة على جانب ،

(١) صلة تاريخ الطبرى لعريب .
(٢) لطائف المعارف للثعالبى .
(٣) تجارب الأمم لابن مسكويه .

عامل المصادرين من الوزراء والعمال بالرفق ، وكتب إلى كل واحد من العمال بما جرت العادة به من تشريف أمير المؤمنين إياه بالخلع ، ورد أمر الدواوين والمملكة إليه ، وأقرهم على مواضعهم ، وأمرهم بالجد والاجتهاد فى العمارة ، وكتب إليهم بإنصاف الرعية والعدل عليها ، ورفع صغير المؤن وكبيرها عنها ، كما كان يطالب بتوفير حقوق السلطان وتصحيحها وصيانة الأموال وحياطتها . ونظر إلى من تعود اقتطاع الأموال السلطانية وإقامة مروات نفسه فيها ، وقصر فى العمارة واعتمد غيره . وعمر الثغور والبيمارستانات وأدر الأرزاق لمن ينظر فيها ، وأزاح علل المرضى والقوام ، وعمر المساجد الجامعة وكتب إلى جميع البلدان بذلك ، ووقع إلى العمال وكتب إليهم فى أمر المظالم وأمر بأن يستوفى الخراج بغير محاباة للأقوياء ، ولا حيف على الضعفاء ، وساس الناس أحسن سياسة ، ورسم للعموم الرسوم الجميلة ، وأنصف الرعية وأزال السنن الجائرة ، ودبر أمر الوزارة والدواوين وسائر أمور المملكة بكفاية تامة وعفاف وتصون حتى أسقط الزيادات فى اقطاعات الجند والعمال وغيرهم ، لما رأى نفقات السلطان زائدة على دخله زيادة مفرطة تحوج إلى هدم بيوت الأموال وصرفها فى نفقات يستغنى عنها .

وكان يجرى على خمسة وأربعين ألف انسان جرايات تكفيهم ، وخدم السلطان سبعين سنة لم يزل فيها نعمة عن أحد . قال الصولى : ولا أعلم أنه وزر لبنى العباس وزير يشبهه فى زهده وعفته ؛ بلغه أن أسارى المسلمين فى الروم ساء حالهم وأن الروم يحاولون تنصيرهم فغمه ذلك . ولما كان يعرف أن الخليفة لا يريد قتال الروم عمد إلى طرق سلمية فندب بطريق أنطاكية وجاثليق القدس أن يكتبا إلى الروم كتاباً يقبحان هذه المعاملة ويتوعدان ، فاضطرت دولة الروم أن تحسن معاملة المسلمين . وما عابوا على على بن عيسى الوزير إلا أنه كان ينظر كثيراً فى جزئيات الأمور فربما شغلته عن[1] الكليات.

(١) الفخرى لابن الطقطقى .

منع على ابن عيسى من إكراه التناء والمزارعين «على[1] تضمين غلات يبادرهم بالحزر والتقدير ، وإلزامهم حق الأعشار فى ضياعهم على التربيع ، واستخراج الخراج منهم على أوفر عبرة ، قبل إدراك غلاتهم وثمارهم ، وإكراه وجوههم على ابتياع الغلات السلطانية بأسعار مسرفة مجحفة» ولما غلب السجزية على فارس جلا قوم من أرباب الخراج عنها لسوء المعاملة ففض خراجهم على البقين وكمل بذلك قانون فارس القديم ، ولم تزل هذه التكملة تستوفى على زيادة تارة ونقصان ، وجاءه قوم من اجلاء فارس وقالوا نمنع غلاتنا وتعتاق فى الكناديج[2] حتى تهلك وتصير هكذا «وطرحوا من أكمامهم حنطة محرقة» ونطالب بتكملة ما وجب علينا فتدعونا الضرورة إلى بيع نفوسنا وشعور نسائنا وأدائها حتى تطلق الغلة وهى على هـذه الصورة «ثم رموا من أكمامهم تيناً يابساً وخوخاً مقدوداً ولوزاً وفستقاً وبندقاً وغبيراء وعنابا» وقالوا وهذا كله خراج لقوم آخرين والبلد فتح عنوة ، فإما تساوينا فى العدل أو الجور . فأنهى على بن عيسى ذلك إلى المقتدر بالله ، وجمع القضاة والفقهاء ، ومشايخ الكتاب والعمال وجلة القواد فى دار الوزارة وقد جعلها ديواناً ، وتناظر الفريقان من أرباب الشجر وأرباب التكملة فقال أرباب الشجر : هذه أملاك قد أنفقنا عليها أموالنـا حتى أنبتت الغروس فيها ، وحصل لنا بعض الاستغلال منها ، ومتى ألزمت الخراج بطلت قيمتها . وقد كان المهدى أزال المطالبة ورسم الخراج عنها . وقال المطالبون بالتكملة ما شكوا به حالهم واستمرار الظلم عليهم بها . ورجع إلى الفقهاء فى ذلك فأفتوا بوجوب الخراج وبطلان التكملة .

هذا تمثيل للإدارة على ذاك العهد وصورة من أعمال الوزراء . وبأمثال على بن عيسى وابن الفرات كانت القوة تدخل على ملك بنى العباس إذا عراه الضعف ويجبرون نقص الخلفاء . وبمثل الوزير الخاقانى والوزير

---

(١) تاريخ الوزراء للصابى .

(١) صلة تاريخ الطبرى لعريب .

الخصيبي ترجع القهقرى . فإن كان على بن عيسى بعيد النظر فى أمور الدولة جد عارف بما يصلحها ، عفاً عن أموال الرعية ، ساهراً على مصلحتهم الحقيقية ، فإن ابن الفرات كان نافذاً فى عمل الخراج وتدبير البلاد وجباية المال وافتتاح الأطراف . وكلاهما من بلغاء الكتاب ومن العارفين بأدب الملك .

وكان للدولة رسوم فى تخريج رجال الإدارة ومما ذكروه أن بادوريا كان يتقلدها جلة العمال . قال ابن الفرات : سمعت أبا العباس أخى يقول من استقل ببادوريا استقل بديوان الخراج ، ومن استقل بديوان الخراج استقل بالوزارة . وذلك لأن معاملتها مختلفة وقصبتها الحضرة . والمعاملة فيها مع الوزراء والأمراء والقواد والكتاب والاشراف ووجوه الناس . فإذا ضبط اختلاف المعاملات واستوفى على هذه صح للأمور الكبار .

شكى إلى ابن الفرات عامل قطر بل وإغفاله عمل البزندات[1] فوقع إليه : ينبغى أن تراعى العمل قبل الوقت للوقت وفى الوقت للوقت . وكان يقول : العامل فى أول سنة أعمى ، وفى الثانية أعور ، وفى الثالثة بصير . وقال لمن سأله تضمينه الصدقات بفارس : « إنما يرغب فى عقد الضمان على تاجر ملى ، أو عامل وفى ، أو تان غنى[2] ، فأما أصحاب الحروب فعقد الضمان عليهم ، ومطالبتهم بالخروج من أموالها ، تستدعى منهم العصيان وخلع طاعة السلطان » .

وقرأ كتاباً ورد من صاحب البريد بالموصل أن أبا أحمد الحسن قد قسط فى الأعمال ، ومد يده إلى المال ، وزاد فى إظهار المروءة ، وركب باللبود الطاهرية ، وبين يديه عدة حجاب وخلفه جماعة غلمان ، حتى إنه يسير بينهم فى موكب ، وأنه وصل معه من البغال والجمال والزواريق التى تحمل أثقاله شىء كثير ، وهذا إنفاق وتوسع لا يقتضيه الرزق وإنما هو من الأصول . فرمى ابن الفرات بالكتاب وقال لكاتبه : وقع عليه يجاب بأنه نفع الرجل

(١) الجسور . (٢) الملى الغنى وتان قاطن .

من حيث أراد الإضرار به ، لأنه إذا كان فى مثل هذا الصقع عامل ذو وجاهة وتجمل ومروءة ، صلح أن يتقلد للسلطان مصر وأجناد الشام متى أنكر من عمالها حالا .

وكان ابن الفرات يكره السعايات ويقطع الطريق على من يتجرون بالوشايات ويتقربون بها إلى صاحب السلطان . فمن ذلك أنه كان إذا أتاه إنسان بشىء من هذا أهانه . وقد ينادى الآذن علناً إذا أراد الاستئذان على الوزير : أين فلان الذى قدم كذا فى السعاية . ولما جرت فتنة ابن المعتز واستظهر المقتدر(١) واستوز ابن الفرات أحضرت إليه رقاع جماعة أرباب الدولة ، تنطق بميلهم إلى ابن المعتز وانحرافهم عن المقتدر ، أشار عليه بعض الحاضرين بأن يفتحها ويطالعها فيعرف بها الصدوق الصديق . فماذا كان من ابن الفرات ؟ والوزراء فى الغالب يتطلعون إلى عيوب الناس ويتخذون من مثل هــذه الوثائق شكائم لبعض من يريدون استتباعهم أو وسائط للنجاة ممن يخالفونهم . كان منه أن أمر بإحضار الكانون وفيه نار فلما أحضر جعل تلك الرقاع بمحضر من الناس ولم يقف على شىء منها . وقال للحاضرين : هذه رقاع أرباب الدولة فلو وقفنا عليها تغيرت نياتنا لهم ونياتهم لنا ، فإن عاقبناهم أهلكنا رجال الدولة ، وكان فى ذلك أتم الوهن على المملكة ، وان تركنا كنا قد تركناهم ونياتهم متغيرة وكذلك نياتنا فما ننتفع بهم . وهذا من حكمة الإدارة فى سياسة الممالك والإحاطة التامة بمعرفة الطبائع البشرية .

ولما تقلد الوزارة فى أول أمره أجرى كلا من حجابه وكتابه وأصحابه على رسمهم ، وأقرهم على ما كانوا يتولونه من أمره لم يستبدل بهم ولا استزاد فيهم ، لاكتفائه بمن كان معه من غيرهم ، وكانت أخلاقه وهو وزير ، مثله وهو صاحب ديوان . وفى وزارته الثالثة صرف أصحاب الدواوين والعمال والمتنفعين وأصحاب البرد والخرائط وأكثر القضاة وبعض أصحاب المعاون ، وقلد هذه الأعمال صحابه وذوى عناياته فصار الأول أعداء له وسعاة عليه .

---

(١) الفخرى لابن الطقطقى .

وقال الناس إنه قلد للعناية لا للكفاية ، حتى قال الخليفة أما كان فى هؤلاء المتصرفين من يصلح للأقرار[1] على عمله . وهذه الطريقة مألوفة فى الإدارات المستبدة يأتى الوزير فيقاد أصحابه وحملة عرشه الولايات والأعمال ، حتى إذا نكب ينكبون بنكبته ، فهم يتصرفون بتصرفه ويتعطلون بعطلته :

عزم ابن الفرات يوماً على الصبوح وكان يوم الأحد ومن رسمه أن يجلس للمظالم فيه ، ثم انتبه أنه لا يجوز أن يتشاغل بالسرور ، ويصرف عن بابه قوماً كثيرين قد قصدوه من نواح بعيدة وأقطار شاسعة مستصرخين متظلمين ، فهذا من أمير ، وهذا من عامل ، وهذا من قاض ، ويمضون مغمومين داعين عليه . فأجلس صاحب ديوان المظالم وشخصاً آخر من خاصته يستدعيان القصص ويوقعان منها ما يجوز توقيعهما فيه ، ويفردان ما لا بد من وقوفه عليه ويحضرانه ليوقع عليه ، وينصرف أرباب الظلامات مسرورين .

وعرض عليه فى وزارته الثالثة وقد جلس للمظالم رجل عُمَرى رقعة تتضمن شكوى حاله ورقتها ، وان عليه دينا قد ضاق ذرعه به ، وعلى ظهرها توقيع أحد الوزراء بأن يقضى دينه من مال الصدقات فقال : يا هذا إن مال الصدقات لأقوام بأعيانهم لا يتجاوزهم ، ولقد رأيت المهتدى بالله رحمة الله عليه وقد جلس للمظالم وأمر فى مال الصدقات بما جرى هذا المجرى فقال له أهلها : ليس لك يا أمير المؤمنين ذلك ، فإن حملتنا على أمرك وإلا حاكمناك إلى قضاتك وفقهائك . فحاكمهم فخاصموه وإن شئت أنت حاكمتك . فقال له العمرى : لا حاجة بى إلى المخاصمة قال : الآن نعم أواسيك وأقضى دينك وفعل ، وكان مبلغه خمسمائة دينار » .

وكان من رسمه أن يغدو إليه الكتاب فيوافقهم على الأعمال ويسلم إلى كل منهم ما يتعلق بديوانه ، ويوصيه بما يريد وصاته فيه ثم يروحون إليه بما

(١) تاريخ الوزراء الصابى .

يعلمونه من أعمالهم فيوافقهم عليها وعلى ما أخرجوه من الخروج وأمضوه من الأمور ، ويقيمون إلى بعض الليل . وإذا خف العمل وقد عرضت عليه فى أثنائه الكتب بالنفقات والتسبيبات والاطلاقات والحسبانات ، نهض من مجلسه وانصرفت الجماعة بعد قيامه . وكان يقول : أصل العمارة وزيادة الارتفاع حفظ البذور ولن يتم ذلك إلا بالعدل . ويقول : الضمان يذهب بالارتفاع كما يذهب الساكن بالعقار . ويقول أيضاً : سبيل العامل أن يؤدب على الزيادة فى المساحة كما يؤدب على الاقتطاع منها . ووقع إلى بعض العمال وقد رفع إليه صاحب الخبر أنه صفع واحداً من التناء لتقاعده عن أداء الخراج « فى الحبس للتناء مأدبة ، فلا تعامل بعدها أحداً بهذه المعاملة ، فأمكنه من الاقتصاص منك » وكان يستظهر فى نفقات المصالح ويستكثر من إعداد الآلات على الأماكن التى تخاف الحوادث منها(١) .

الآن وقد رسمنا صورة وزيرين عبقريين بإدارتهما وسياستهما أصبح من الواجب أن نمر مراً بسيرة وزيرين آخرين كانا بلاء على الدولة بجهلهما وقلة عنايتهما، عنيناً بهما الخاقانى والخصيبى . فقد كان الخاقانى مدّة وزارته متشاغلا بخدمة السلطان ومراعاة أعدائه ، لا يقرأ الكتب الواردة عليه ولا النافذة ، واعتمد على ابنه فقلده خلافته على الأعمال والتنفيذ للأمور ، فتشاغل بالشراب وما كانت الكتب تقرأ إلا بعد فوات الأمر الذى وردت فيه ، وربما وردت الرسائل بالحمول ، وكتب فيها سفاتج بمال ، فتبقى أياماً فى خزانة الأب وابنه لا تفض ولا يعرف حال ما فيها . « وبسط يده وأيدى أولاده وكتابه بالتوقيعات بالصلات والاطلاقات والإقطاعات والتسويغات وتخفيف الطسوق والمعاملات وأخذ المرافق على إضاعة الحقوق وإسقاط الرسوم فسخفت الوزارة ، واخلقت الهيبة ، وزادت الحال فى اختلال الأعمال ووقوف الأموال ، وقصور المواد ، وتضاعف الاستحقاقات ، واشتداد المطالبات ، وشغب الجند شغباً بعد شغف ، وتسحبوا على السلطان تسحباً بعد تسحب » . وكان هذا الوزير يقلد

(١) تاريخ الوزراء للصابى . (٢) الطسق مكيال أو شبه ضريبة معلومة .

فى أسبوع واحد الكورة الواحدة عدة من العمال ، وذلك لارتفاق أولاده وكتابه من العمال الذين يولونهم . ويتقرب مع هذه الأعمال الجائرة إلى قلوب الخاصة والعامة بأن يمنع خدم السلطان ووجوه القواد أن يترجموا رقاعهم بالتعبد ويتقرب إلى العامة بأن يصلى معهم فى المساجد التى على الطرق ، فاتضعت الوزارة بأفعاله وذلّت .

ومثله كان الوزير الخصيبى ، يواصل شرب النبيذ بالليل ، والنوم فى النهار ، وإذا انتبه يكون مخموراً لا فضل فيه للعمل فيردّ إلى غيره فض الكتب الواردة من عمال الخراج والمعاون على قراءتها والتوقيع عليها وإخراجها إلى الدواوين ، وقراءة الكتب النافذة والإعلام عليها ، وكانت تعمل له جوامع خاصة مختصرة للمهم مما يرد وينفذ فيعرض عليه إذا انتبه ، فربما قرأه وربما لم يقرأه . وإذا كثرت الرسائل تقرأ عليه ، وإلى أن ينفذ الجواب تتمرد البثوق وتتسع الفتوق ، وتحتمل الغلات الأعراب ، وتحدث الحوادث المفسدة لمعنى ذلك الكتاب . وكان أكثر هؤلاء الوزراء يضيعون الأموال ويخربون الملك ، ويولون بالعناية ، ويصانعون على الولايات بالرشوة . تولى المقتدر الخلافة نحو خمس وعشرين سنة فكان الوزراء يديرون الملك فإن كانوا من عيار على بن عيسى وابن الفرات جرت الأمور على سداد ، وإن كانوا من عيار الخصيبى والخاقانى كان البلاء ظلمات فوق ظلمات .

الإدارة على عهد القاهر والراضى ومن بعدهما :

أفضت الخلافة إلى القاهرة فأظهر فى أول أمره من الجود والتقشف والتصون وبعد الهمة والاقتصاد والقناعة ما هابه به الناس . أراد قطع ثوب يلبسه فحمل إليه من داره فقيل له لو أخذ لك ثوب من خزائن الكسوة فقال : لا تمسوا لهم شيئاً ، وعرضت عليه صنوف الألوان والحلواء والفواكه التى كانت توضع بين أيدى الخلفاء فى كل يوم فاستكثرها وقال فى الفاكهة بكم تبتاع هذه كل يوم فقيل له بثلاثين ديناراً فقال : نقتصر من ذلك على

دينار واحد ، ومن الطعام على اثنى عشر لوناً ، وكان يصلح لغيره كل يوم ثلاثون لوناً من حلواء فاقتصر على الكافى له .

ونادى القاهر فى بغداد بإبطال المغنيات والخمر والمخانيث وكسر آلات الطرب ، على أنه لم يكن يصبر على الشراب وسماع القينات ، وقضى على أن تباع المغنيات على أنهن سواذج لا يعرفن الغناء ثم وضع من يشترى منهن كل حاذقة فى صنعتها فاشترى منهن من أراد بأرخص الأثمان . قال ابن الأثير : « وكان القاهر مستهتراً بالغناء والسماع جعل ذلك طريقاً إلى تحصيل غرضه رخيصاً ، نعوذ بالله من هذه الأخلاق التى لا يرضاها عامة الناس » ، وقيل إن السبب فى غضبه على إسحاق بن اسمعيل أنه كان أراد اشتراء جارية قبل الخلافة وكانت موصوفة بالجمال والغناء ، فزايده اسحاق فيها واشتراها ؛ وأن نصر بن حمدان كان أراد شراء جارية أخرى قبل الخلافة فاشتراها نصر وما زال به بعد الخلافة حتى قتله . وبضروب من مثل هذه السخافة لا تدار خلافة .

كان القاهر يحب جمع المال وهو أهوج طائش لا يعرف كيف يسير ويقدم على سفك الدماء فيهاب رهبة منه لا رغبة فيه . أما خلفه الراضى فأحيا رميم الخلافة وختم الخلفاء فى أمور عدة ؛ منها أنه آخر خليفة له شعر ؛ وآخر خليفة انفرد بتدبير الجيوش والأموال ، وآخر خليفة خطب على منبر فى يوم جمعة ، وآخر خليفة جالس الجلساء ووصل إليه الندماء ، وآخر خليفه كانت نفقته وجوائزه ومطابخه وشرابه ومجالسه وخدمه وحجابه وأموره جارية على ترتيب الخلافة الأولى ، وآخر خليفة سافر بزى الخلفاء القدماء ، وله فضائل كثيرة .

وفى أيام الراضى بطلت الوزارة من بغداد ، وبقى ابن رائق الناظر فى الأمور جميعها وتقلب عمال الأطراف عليها ، ولم يبق للراضى غير بغداد وليس له فيها حكم وفى أيام المتقى عزت الوزارة وصغرت لضعف الدولة وصغر دائرة الخلافة . وكان الخليفة هو الذى يولى أرباب الوظائف من القضاة

وغيرهم وتكتب عنه العهود والتقاليد لا يشاركه فى ذلك سلطان . وكان قاضى القضاة ببغداد منذ عهد الرشيد يستخلف على قضاء الأمصار وهؤلاء يستخلفون نواباً عنهم فى أقطارهم ، ثم صار القضاء يقلده صاحب المال والجاه منذ القرن الثالث فما بعده ، وربما توسط أهل البلد فكتبوا محضراً بطلب فلان وإسقاط فلان ، ويكون العامة مع واحد والخاصة مع آخر . والعامة إذا دخلوا فى مسائل أعلى من عقولهم كان الفساد فى الأعمال .

وكان من القضاة من يجمع الألوف وعشرات الألوف من الدنانير مدة قضائه وهذا إذا كان قاضى القضاة ، والقضاة يولون صغار القضاة فى الأقاليم . وهناك ترى النفوس تشره إلى المال لا يردها عن إتيان ذلك خوف الديان ولا خوف السلطان . أفسد الوزير ابن الفرات القضاة وفرق من جهة ثانية على طلاب الأدب ومن يكتب الحديث وعلى الشعراء مالا ؛ ولم يفعل ذلك غير مسلمة بن عبد الملك فى دولة بنى أمية ، فقد قيل إنه أوصى بالثلث من ثلثه لطلاب الأدب ، وقال إنهم مجفوون أو أهل صناعة مجفوة . استتر ابن الفرات فى دار أبى الأخوص البصرى فخرج فولى الوزارة فكافأه على جميله بأن قلده القضاء وكان ابن الأخوص بزازاً : واختفى الوزير عبد الله بن وهب (٣٨٨) عند ابن أبى العون التاجر وأراد أن يغنيه فأحضر التجار وسعر مائة ألف كر[1] من غلات السلطان بالسواد عليهم ، فأباحها ابن أبى عون بنقصان دينار مما قرر به السعر على التجار ، وباعه عليهم بسعر قرره معهم وأخرهم بالثمن إلى أن يتسلموا الغلال ، وكتب إلى النواحى بتقبيضهم ذلك فحصل لابن أبى عون مائة ألف دينار . وجعله الوزير واسطة لقضاء مصالح الناس بالجعالة العالية حتى أثرى إثراء عظيما من مال السلطان ومال رعيته . أعمال جائرة على الراعى ومن يرعاهم يقوم بها مهرة « بتحلب[2] الفىء وقتل النفوس واخراب البلاد » .

ولقد كان الخليفة إذا مالت نفسه عن الوزير ، أو أريد أن يغضب عليه بإيعاز أحد النافذين فى دولته من كبار قواد مملكته ، يسلمه إلى يد من يخلفه

(١) نشوار المحاضرة للتنوخى . (٢) أدب الكاتب لابن قتيبة .

من الوزراء فيهلكه بالضرب والإهانة ، وربما يقتله ويقتل بعض خاصته ، أو يقر بما احتجن من أموال الدولة وأموال الناس . ويقبض على أسبابه وعلى عماله ، وينالهم بسبب من ولاهم كل ضيم فى أنفسهم ، وإذا انفصلوا من الخدمة كانت قيمتهم قيمة اللصوص . ولما كانت الوزارة تنتقل بين أيدى بضعة أشخاص على الأغلب فى كل دور ، كان كل معزول يؤمل الرجوع إلى دست الوزارة ، فإذا عاد فهناك الانتقام من كل إهانة وقعت عليه من الوزراء والعمال .

وما حدث شغب فى الجيش فأدى إلى قتل عامل أو وزير أو خليفة إلا كان السبب فيه على الأغلب تأخر أرزاق الجند أشهراً ، ذلك لأن كل من كانت إليه الجباية يفكر فى مصلحته قبل كل مصلحة على الأكثر ، وقلما يتعادل دخل الدولة مع خرجها ، والإسراف شامل قصر الخليفة فما دونه . لا تعد الدولة المال إلى حين الحاجة المبرمة على ما كان المنصور والرشيد . فقد كان الجند إذا شكا التريث فى تقاضى رواتبه يعطى أشهراً بل سنة مقدماً فتضمحل كل ثورة ، وينطفئ لهيب الفتنة . « كان الخلفاء المتقدمون يجمعون الأموال ليقمعوا بها أعداء الدين والخوارج وليحفظوا بها الإسلام والمسلمين » .

يعيد الخلفاء إلى الخدمة من الوزراء ، من كانوا غضبوا عليهم وسلبوهم ، وذلك فى الأزمات التى لا يستطيعون حلها ، كما فعل مع على بن عيسى ، وأبى الحسن ابن الفرات . ومن كتاب عن المقتدر فى شأن ابن الفرات « ولما لم يجد أمير المؤمنين غنى عنه ، ولا للملك بدا منه ، وكان كتاب الدواوين على اختلاف أقدارهم ، وتفاوت ما بين أخطارهم ، مقرين برياسته ، معترفين بكفايته ، متحاكمين إليه إذا اختلفوا ، واقفين عند غايته إذا استبقوا مذعنين بأنه الحول القلب ، المحنك المجبب ، العالم بدرّة المال كيف تحلب ، ووجوهه كيف تطلب ، انتضاه من غمده ، فعاد ما عرف من حده ، فنفذ الأعمال كأن لم يغب عنها ، ودبر الأمور كأن لم يخل بها » .

وهمّ الخلفاء فى هذه الحقبة إذا كانوا على انتباه ، وبمنجاة من شهواتهم وشرابهم ، أن يخزنوا الأموال ويصادروا من طالت أيديهم إليها من عمالهم ، يستأثرون بما جمعوا لأنفسهم ، أو لبيت مال الخاصة . حكى ابن مسكويه فى معنى تبذير المقتدر للأموال ، والتنفير من هذه الطريقة نصيحة ساقها للملوك ومدبرى أمر المملكة، لئلا يغتروا بكثرة الأموال فيتركوا تثميرها ، ويعدلوا عن التعب به إلى الراحة اليسيرة ، لأن من كان هذا حاله يبتدر حينئذ ولا يلحق ، ويكون مثله مثل البثق الذى ينفجر بمقدار سعة الدرهم ثم يتسع فلا يضبط . وقد ذكر أن المقتدر أتلف نيفاً وسبعين ألف ألف دينار سوى ما أنفقه فى موضعه وأخرجه فى وجوهه ، وهذا أكثر مما جمعه الرشيد وخلفه . ولم يكن فى ولد العباس من جمع أكثر مما جمعه الرشيد فإنه خلف ثمانية وأربعين ألف ألف دينار . ولما تقلد المقتدر الخلافة كان فى بيت مال الخاصة أربعة عشر ألف ألف دينار ، وأخذ من أموال ابن الفرات فى مصادرته ومصادرات كتابه وأسبابه أربعة آلاف ألف وأربعمائة ألف دينار ، ومن ابن الجصاص الجوهرى ألفى ألف دينار ، ومن العباس بن الحسن ألفى ألف وثمانمائة ألف ألف دينار ، ومن أموال حامد بن العباس ألفى ألف ومائتى ألف دينار ، ومن الحسين ومحمد المادرائيين ألف ألف وثلاثمائة ألف دينار ، ومن على بن عيسى وابن الحوارى وسائر الكتاب ووجوه العمال المصادرين ألفى ألف دينار ، ومن تركة الراسبى خمسمائة ألف دينار ، ومن تركة المسمعى ثلاثمائة ألف دينار ، وما حصل من أموال أم موسى وأخيها وأختها وأسبابها ألفى ألف دينار . هذا عدا خراج الأقطار وغيره من الموارد الكثيرة . ولقد شغبوا على المقتدر وطلب الجند الزيادة وشتموه ونهبوا القصر الملقب بالثريا وصاحوا : أبطلت حجنا وأخذت أموالنا وجرأت العدو وتنام نوم الجارية ! فبذل لهم المال فسكنوا .

وفى ذاك الدور كان فى بغداد أنواع من الدواوين منها ديوان المشرق وديوان المغرب ، وديوان الضياع الخاصة والمستحدثة ، وديوان الضياع

الفراتية ، وديوان زمام الخراج والضياع العامة ، ودان زمام النفقات والخزائن ، وديوان الدار وديوان البر — وهو أشبه بديوان الاحباس — وديوان الصدقات وديوان زمام الجيش وديوان الحرم وديوان الفص والخاتم وديوان الجهبذ وديوان زمام القواد . وديوان الخاصة وديوان الدار الأصغر تنشأ منه الكتب بالزيادات والنقل .

وأخذت الألقاب تكثر فى الرسائل من كل صنف ، ووضع الوزير ابن الفرات الألقاب فى مخاطبة الملوك والأمراء والوزراء والعمال فى مكاتبتهم[1] وأنف الملوك ومن بعدهم من الوزراء من ذكرهم بسيدنا ، واستقلوا خطابهم بمولانا ، فعدل الناس بأولئك إلى الحضرة الشريفة والحضرة العالية والحضرة السامية ، وبالوزراء إلى مثل ذلك ثم كنوا عن الخلفاء بالموقف الأشرف المقدس وذكروه بالمقام الأطهر النبوى ، ونقلوا الملك إلى الأشرف والأعظم ، وقالوا فى الدعاء : نوره الله ونصره الله إلى ما بعد ذلك من المغالاة والمبالغة . وانتهت هذه الحال إلى أن شاركهم فيها الأكابر من أصحاب الأطراف ووقفوا بالوزارة على الحضرة السامية ، ثم ألحقوا بها المظفرة والمنصورة مع النسبة إلى الألقاب كالوزيرية والعميدية والكمالية وما جرى هذا المجرى . وداخلهم فى ذلك من يتلوهم من خلفائهم وأصحاب الجيوش وأمراء العرب والأكراد[2]

(١) تاريخ الوزراء للصابى .

(٢) قال البيرونى : وبنو العباس لما لقبوا أعوانهم بالألقاب الكاذبة وسووا فيها بين الموالى والمعادى ، ونسبوها إلى الدولة بأسرهم ، ضاعت دولتهم ، فإنهم أفرطوا فى ذلك حتى أصبح القائم بحضرتهم لا فرق بينه وبين غيرهم فثنوا له التلقيب ، ورغب فى مثل ذلك غيرهم ، وكان الراغب ينجح حاجته بالبذل ، وتنزاح علته بالإدلاء ، فاحتيج ثانياً إلى الفرق بين هؤلاء وبين المختص بحضرتهم ، فثلثوا له التلقيب وألحقوا به الشاهانشاهية ، وبلغ الأمر غايته من التكليف والتثقيل ، حتى إن الذاكر لهم يمل ذكرهم قبل أن يبتدئ به ، والكاتب يفنى زماناً وأسطراً ، والخاطب لهم على خطر من فوت وقت الصلاة ، ثم ذكر أسماء الملقبين بالألقاب الصادرة عن حضرة الخلافة بين ولى الدولة وعميدها وناصرها وسعدها وسيفها وعمادها ومعزها وركنها وعزها وعمدتها وسندها وظهيرها ومؤيدها واعزازها وشمس المعالى وولى الدولة وعضدها وتاج الملة وفخر الدولة وفلك الأمة وصمصام الدولة وشمس الملة وشرف الدولة وركن الأمة ومجد الملة وكهف الأمة ويمين الدولة وأمين الملة وبهاء الدولة وضياء الملة وغياث الأمة وناصر الدولة وحسامها ومعينها وسنانها ونصيرها . قال وكذلك وزراء الخلافة لقد لقبوا بالأذواء كذى اليمينين —

كتب الإخشيد إلى عبده كافور الخادم فى مصر : ومما يجب أن تقف عليه أطال الله بقاءك أنى لقيت أمير المؤمنين بشاطئ الفرات فأكرمنى وكنانى

= وذى الرئاستين وذى الكفايتين وذى السيفين وذى القلمين وأمثال ذلك . وتشبه بهم آل بويه لما كانت الدولة منتقلة إليهم ، وبالغوا فيه واستغرقهم الكذب ، فسموا وزراءهم بكافى الكفاة والكافى الأوحد وأوحد الكفاة . ولم ترغب السامانية ولاة خراسان فى هذه الألقاب بل اكتفوا بالتكنية . وكانوا يذكرون فى حياتهم بالملك المؤيد الموفق والمنصور والمعظم والمنتصر وبعد وفاتهم بالحميد والشهيد والسعيد والسديد والرضى وأمثال ذلك ، ولكنهم لقبوا قواد جيوشهم بناصر الدولة وعمادها وحسامها وعميدها وسيفها وسنانها ومعينها ونصيرها اقتداءاً بأفعال الخلفاء وكذلك فعل بغراخان لما خرج فى سنة اثنين وثمانين وثلثمائة من تلقيب نفسه بشهاب الدولة ، وجاوز نفر منهم هذا الحد فسموا أنفسهم بأمير العالم وسيد الأمراء فأذاقهم الله الخزى فى الحياة الدنيا وأظهر لهم ولغيرهم عجزهم . ا هـ .

وأول من لقب بالدين فى الإسلام بهاء الدولة بن بويه ركن الدين وذلك فى القرن الرابع وسرت هذه الألقاب إلى العامة والخاصة ولم تخل منها إلا الأندلس لأن دولهم بقيت على عربيتها وبقى الأمر كما قال القلقشندى على التلقيب بالإضافة إلى الدولة إلى أيام القادر فافتتح التلقيب بالإضافة إلى الدين ، وكان أول من لقب بالإضافة إليه أبو نصر بهاء الدولة بن عضد الدولة بن بويه فصار لقبه بهاء الدولة ونظام الدين . ودرج على هذه الألقاب الترك كما يقول ابن الحاج فى المدخل فإنهم لما تغلبوا على الخلافة سموا هذا شمس الدولة وهذا ناصر الدولة وهذا نجم الدولة إلى غير ذلك ، فتشوفت نفوس بعض العوام ممن ليس له علم بتلك الأسماء لما فيها من التعظيم والفخر ، فلم يجدوا سبيلا إليها لعدم دخولهم فى الدولة ، فرجعوا إلى أمر الدين فكانوا أول ما حدثت عندهم هذه الأسماء إذا ولد لأحدهم مولود لا يقدر أن يكنيه بفلان الدين إلا بأمر يخرج من السلطنة ، فكانوا يعطون على ذلك الأموال حتى يسمى ولد أحدهم بفلان الدين ، فلما أن طال المدى وصار الأمر إلى الترك لم يبق لهم بالتسمية بالدولة معنى إذ أنها قد حصلت لهم فانتقلوا إلى الدين ثم فشا الأمر وزاد حتى رجعوا يسمون أولادهم بغير ما يعطونه على ذلك ، ثم انتقل إليه بعض من لا علم عنده ، ثم صار الأمر متعارفاً متعاهداً حتى أنس به العلماء فتواطأوا عليه انتهى .

وجاء فى رسالة معرفة الحلى والكنى والأسماء والألقاب : اعلم أن الكنى المشروعة فى الإسلام أن يكنى الرجل بولده أو ولد غيره وكذلك المرأة تكنى بولدها أو ولد غيرها . والكنية ما فيها لفظ أب كأبى زيد أو أم كأم كلثوم . والأدب أن لا يكنى نفسه فى كتاب أو غيره إلا إن كانت أشهر من الإسم أو لا يعرف إلا بها . وقال الزمخشرى لم تكن الكنى لشىء من الأمم إلا للعرب خاصة وهى من مفاخرها والكنية إعظام وما كان يؤهل لها إلا ذو شرف من قومه والذى دعاهم إلى التكنية الاجلال عن التصريح بالاسم بالكناية عنه ، ثم ترقوا عن الكنى إلى الألقاب . وأما اللقب فهو غير خاص بالعرب ، واللقب ما أشعر بمدح أو ذم والعمدة فيه الاستعمال ، ثم إن كان اللقب يتأذى به صاحبه كالأعرج والأعمش ونحو ذلك حرم النداء به للايذاء وإن كان لا يعرف إلا به جاز ولا بأس باللقب الحسن إلا ما توسع فيه الناس حتى سموا السفلة بفلان الدين وقد وضعوا لمن اسمه محمد جميع الألقاب فإن كان من المتعممين لقب بشمس =

وقال : كيف أنت يا أبا بكر أعزك الله ؟ فرح بأن كناه والخليفة لا يكنى أحدا . وكان المعتضد يكنى فى الخلوات طبيبه وفى الملأ يسميه . وهكذا أصبح الكبير يدهن للصغير والصغير يتقرب من قلب الكبير بالألقاب[1] ، وصار الصغير يكتب فى الكتب عبد فلان وخادمه وصارت عادة تكتب بها إلى جميع الوزراء ولقبوا عمالهم أو المتغلبين على بعض أصقاعهم بملك الملوك وذلك بفتوى من العلماء ، وأجازها بعضهم وأنكرها آخرون ، ولقبوا أحد وزرائهم بسيد الوزراء وصدر الشرق والغرب ، وأمر المستكفى أن تضرب ألقاب بنى بويه على الدراهم والدنانير .

الإدارة فى العهد العباسى الأخير :

بعد أن آضت الخلافة إلى ما آضت إليه من الضعف ، وصار الخليفة تابعاً للملك أو المتغلب ، لم يبق شىء يقال له إدارة لأن الخليفة لا يحكم حتى على بيته ، بل أصبحت الإدارة إدارة ملوك الأطراف والشأن فى السلطان شأنهم ، لا تكاد تسمع للخلفاء اسما . ذكروا أنه لما ولى المستضىء شملت رحمته من كان فى السجن حتى لم يبق فيه أحد إلا أفرج عنه ، ومن وجد

— الدين وبدر الدين ونور الدين وشرف الدين ونحو ذلك وإن كان من الجند فبناصر الدين وما أشبه ذلك فقد يقع فى الجند من يلقب بشمس الدين ونحوه لكن ما ذكر هو الأغلب ووضعوا لمن اسمه أحمد من المتعممين شهاب الدين و يى الدين وشارك فى ذلك الجند أيضاً ووضعوا لمن اسمه أبو بكر من المتعممين عز الدين وهو أحسن ما يلقب به وشاع فيه سراج الدين ويلقب بفتح الدين ونحوه ومن الجند زين الدين وعز الدين ووضعوا لمن اسمه عثمان من المتعممين فخر الدين ونور الدين وهو أحسن ما لقب به ومن الجند فخر الدين أيضاً ووضعوا لمن اسمه على من المتعممين علاء الدين وعماد الدين ومن الجند سيف الدين وهو أحسن ما لقب به وشاع فيه نور الدين على ووضعوا لمن اسمه عبد الله شمس الدين وعفيف الدين وشارك الجند فى ذلك أيضاً ووضعوا لمن اسمه يوسف أمين الدين وصلاح الدين وأحسن ما يكنى به أبو المحاسن وشاع فيه جمال الدين ووضعوا لمن اسمه ابراهيم برهان الدين ووضعوا لداود علم الدين وموفق الدين وسليمان علم الدين وموسى وعيسى شرف الدين وحسن بدر الدين وحسام الدين وحسين وجعفر كريم الدين وإسماعيل عماد الدين وخليل غرس الدين وحمزة عز الدين وزكريا محيى الدين ونبيه الدين وإسحاق مجد الدين ويعقوب تاج الدين وقاسم شرف الدين .

(١) طبقات الأطباء لابن أبي أصيبعة .

له بخزانته شيئاً عليه اسمه أعاده إليه ، وكل من كان فى ولاية أعاده إليها ، ومن وجد من ملكه شيئاً تحت الاعتراض أفرج عنه وأعاده إليه[١] .

وجاء الناصر فملأ القلوب هيبة وفتح البلاد البعيدة وكان ردىء السيرة فى الرعية مائلا إلى الظلم والعسف ، ففارق أهل البلاد بلادهم وأخذ أموالهم ، وكان يفعل أفعالا متضادة وكان يتشيع ويميل إلى مذهب الإمامية بخلاف آبائه وطالت خلافته (٤٧) سنة وكان منصرف الهمة إلى رمى البندق والطيور المناسيب ويلبس سراويلات الفتوة ، والفتوة أشبه بجمعية فوضوية ، فكان الفتيان يغتالون كل من يخالفهم حتى أفتى الفقهاء بعد ذلك العصر بتحريم الفتوة ، وأنكروا نسبتها إلى أمير المؤمنين على بن أبى طالب . ومن قواعد الفتوة أنه متى قتل الفتى فتى من حزبه سقطت فتوته وعوقب ، وان قتل غير فتى عوناً من الأعوان أو متعلقاً بديوان فى بلد الناصر سقطت فتوته بهذا السبب أيضاً . وكتب الناصر منشوراً وسلمه إلى كل واحد من رؤوس الأحزاب وألزم الناس إجراء الأمر على ما تضمنه .

ولم يكن[٢] للناصر وزير وإنما له خديم يعرف بنائب الوزراء ، ويحضر الديوان المحتوى على أموال الخلافة وبين يديه الكتب فينفذ الأمور ، وله قيم على جميع الديار العباسية ، وأمين على الحرم الباقيات من عهد جده وأبيه ، وعلى جميع من تضمه الحرمة الخلافية يعرف بالصاحب مجد الدين أستاذ الدار ، هذا لقبه ويدعى له إثر الدعاء للخليفة ، قال ابن جبير : ورونق هذا الملك إنما هو على الفتيان والأحابيش المجابيب منهم فتى اسمه خالص وهو قائد العسكرية كلها ، أبصرناه خارجاً أحد الأيام وبين يديه وخلفه أمراء الأجناد من الأتراك والديلم وسواهم وحوله نحو خمسين سيفاً مسلولة فى أيدى رجال

---

(١) معجم الأدباء لياقوت .

(٢) رحلة ابن جبير .

قد احتفظوا به ، وشاهدنا من أمره عجباً فى الدهر . قال : إن جميع العباسيين معتقلون اعتقالا جيلا لا يخرجون ولا يظهرون ولهم المرتبات القائمة بهم .

وجاء الظاهر بعد أبيه الناصر يحسن إلى الرعية كل الإحسان ويحيى سنة العمرين ويبطل عدة مظالم ويسقط المكوس والضرائب ، ومن ذلك أنه كان بخزانة الخليفة صنجة زائدة يقبضون بها المال ويعطون بالصنجة التى يتعامل بها الناس ، وكانت زيادة الصنجة فى كل دينار حبة فخرج توقيع الظاهر بإبطال ذلك وأوله : « ويل للمطففين الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون وإذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون » : وعمل صنجة المخزن قبل صنجة المسلمين وكانت العادة فى زمن أبيه أن يكتب الحراس بأخبار الناس فلما أتته مطالعتهم قال : أى غرض لنا فى معرفة أحوال الناس فى بيوتهم فلا يكتب أحد إلينا إلا ما يتعلق بمصالح دولتنا فقيل له أن العامة تفسد بذلك ويعظم شرها فقال : نحن ندعو الله أن يصلحهم . ولما توفى وجد فى بيت داره ألوف رقاع كلها مختومة لم يفتحها فقيل له ليفتحها فقال : لا حاجة لنا بها فإن فيها كان كلها سعايات . وجاء بعد الظاهر ولده الأكبر المستنصر صاحب المدرسة المستنصرية والآثار الجليلة فى العمران وقالوا : إن أيامه كانت طيبة والدنيا فى زمانه ساكنة والخيرات فى داره والأعمال عامرة . ثم خلفه المستعصم وهو سابع ثلاثينهم وآخرهم وهو الذى قتله التتر فانقرضت به الخلافة العباسية من بغداد سنة ٦٥٦

إدارة دول الشرق والغرب

لما وافى عبد الرحمن الداخل الأندلس ألفاها « ثغرا قاصيا غفلا من حلية الملك[1] » فأرهف أهلها « بالطاعة السلطانية وحنكهم بالسيرة الملوكية » ، بدأ بتدوين الدواوين وفرض الأعطيات ، وجند الأجناد ، وعقد الألوية ،

(١) نفح الطيب للمقرى .

وأصل أوضاع الدولة ، وأقام للملك آلته ، على النحو الذى رآه فى دار آبائه فى الشام ، « وأخذ يقعد للعامة ويسمع منهم ، وينظر بنفسه فيما بينهم ، ويتوصل إليه من أراده من الناس ، فيصل الضعيف منهم إلى رفع ظلامته إليه دون مشقة » . وعظمت دولة الأندلس فكبرت الهمم ، ورتبت الأحوال والقواعد ، وظهرت الهيبة ، وكان من شأن الأمويين مراعاة الشرع فى كل الأمور ، وتعظيم العلماء والعمل بأقوالهم ، واحضارهم فى مجالسهم .

كانت الوزارة بالأندلس مشتركة فى جماعة يعينهم صاحب الدولة للإعانة والمشاورة ويخصهم بالمجالسة ، ويختار منهم شخصاً لمكان النائب المسمى بالوزير فيسميه الحاجب . وكانت هذه المراتب لضبطها عندهم كالمتوارثة فى البيوت المعلومة بذلك ، ثم صار اسم الوزارة عاماً لكل من يجالس الملوك ويختص بهم ، وصار الوزير الذى ينوب عن الملك يعرف بذى الوزارتين أى وزارة السيف والقلم وأكثر ما يكون فاضلا فى علم الأدب ، . ويدلون بالحجابة على حجابة السلطان عن العامة والخاصة .

ويقولون ابن خلدون : إن دولة بنى أمية بالأندلس نفوا اسم الوزير فى مدلوله أول الدولة ، ثم قسموا خطته أصنافاً وأفردوا لكل صنف وزيراً فجعلوا لحسبان المال وزيراً ، وللترسل وزيراً ، وللنظر فى حوائج المتظلمين وزيراً ، وللنظر فى أحوال أهل الثغور وزيراً ، وأفردوا للتردد بينهم وبين الخليفة واحداً منهم ارتفع عنهم بمباشرة السلطان فى كل وقت ، فارتفع مجلسه من مجلسهم ، وخصوه باسم الحاجب ، فارتفعت خطة الحاجب ومرتبته على سائر الرتب حتى صار ملوك الطوائف ينتحلون لقبها ، ثم كان من دولة الموحدين اتباع دولة الأمويين فقلدوها فى مذاهب السلطان واختاروا اسم الوزير لمن يحجب السلطان فى مجلسه . وأرجعوا الدواوين عندهم إلى صنفين من الكتاب : كاتب الرسائل وكاتب الزمام ، أى كاتب الجهبذه أو كاتب الأشغال الخراجية ، وتراقب السلطة العليا ما يصدر من أعمالهم ؟

ويفيدنا تصفح تراجم رجال الأندلس ، وتاريخ الرجال تاريخ السياسة ، أن القائمين بالحكم من الوزراء والقواد والعظماء والعمال فى هذه الديار كانوا أقرب إلى التعفف عن أموال الناس من رجال العباسيين وكثير من الدول التى قامت فى المشرق . وكانت دولة الأندلس إذا تأثلت حال الكاتب فيها نكب وصودر ، لأن هذه الزيادة التى حصلت له « إما أن يكون قد أخذها بحق أوظلم ، فإن كان أخذها بحق كان متبرعاً بها لا يستحق لها زيادة على المسمى فى جاريه ، وإن كان ظلماً وجب ردها على من ظلم بها ، وكان عدواناً من العامل يؤخذ بجريرته » .

سار الأمويون فى بدء أمرهم فى الأندلس بسيرة بعض خلفائهم ، وقضوا أن لا يكون كاتب الزمام فى مملكتهم نصرانياً ولا يهودياً . ثم دخل النصارى بعد حين فى أعمال الدولة يتولون حتى العظام منها ، وبنو أمية فى إدارتهم بعيدون عن الجمود ، يسيرون بما يستلزمه الزمان والمكان ، وتهمهم المصالح والمنافع ولا يتحرجون من الأخذ بجديد ، لما خصوا به من عمائق الفطن ، وقرائح العقول ،وجملة الأمر أن الأمويين ما كانوا بالمبخلين ولا بالمسرفين ، ولا بالضعاف الضعف الذى تضيع معه الحقوق وتفسد الأمور ، ولا بالأشداء الشدة المفرطة التى تبغضهم إلى من يعملون معهم من الناس من وزراء وأصحاب ولايات .

جعلوا القضاء فى الأندلس أعظم الخطط المتعلقة بأمور الدين ، ويكون القاضى فى المدينة الجليلة ، ومسدد الخاصة فى المدن الصغيرة ، ويقال لقاضى القضاة قاضى الجماعة ، وعمال الإدارة غير القضاة . ويتحتم أن يكونوا كلهم عارفين بالشرع ، وأصول الحكومة وتراتيبها . وكانت خطة الاحتساب أو الحسبة أشبه بخطة القضاء ، وهى تتناول أمور المدن والبياعات والعمائر وكل ما يضر إهماله بالمجتمع ، وما ينفع أتباعه فيه . والحسبة أشبه بأعمال المجالس البلدية والشرطة والصحة بمصطلح هذه الأيام . وكان لهم فى أوضاع الاحتساب قوانين يتداولونها ويتدارسونها كما تتدارس أحكام الفقه . وخطة

القضاء وسيطة بين خطة القضاء[1] والمظالم ، تجمع بين نظر شرعى وزجر سلطانى ، وكان خلفاء الصدر الأول يباشرونها بأنفسهم لعموم مصلحتها ، ويتولى النظر فى الحسبة فقيه فى الدين ، قائم مع الحق ، نزيه النفس ، عالى الهمة ، معلوم العدالة ، ذو أناة وحلم ، وتيقظ وفهم ، عارف بجزئيات الأمور ، وسياسات الجمهور ، لا يستفزه طمع ، ولا تلحقه هوادة ، ولا تأخذه فى الله لومة لائم ، مع مهابة تمنع من الإدلال عليه ، وترهب الجانى لديه .

وقد يكون لخطة صاحب الشرطة النظر فى الجرائم وإقامة الحدود . وإذا كان صاحبها عظيم القدر عند السلطان يكون له القتل لمن وجب عليه ، دون استئذان السلطان ، ولكنه يحد على الزنا وشرب الخمر ، وكثير من الأمور الشرعية راجع إليه . ويعرف صاحب الشرطة عندهم بصاحب المدينة أو صاحب الليل . وهناك خطة أخرى أشبه بخطة الشرطة وهى الطواف بالليل . ويقال لأربابها أصحاب أرباع فى المشرق ، ويعرفون فى الأندلس بالدرابين .

هذا إجمال أوضاع الأندلس ومصطلحها ، والأيدى التى كانت تديرها وتنفذها صالحة فى الجملة ، لصلاح ملوكهم ومعرفتهم الواسعة بمن يصلح لكل عمل . فقد كان هشام بن عبد الرحمن متحرياً للعدل يعود المرضى ويشهد الجنائز ويتصدق بالصدقات الكثيرة . « ويبعث بقوم من ثقاته إلى الكور يسألون الناس عن سير عماله ، ويخبرونه بحقائقها ، فإذا انتهى إليه حيف من أحدهم أوقع به وأسقطه ، وأنصف منه ولم يستعمله بعد » . ورأينا الاعتداءات والمصادرات تقل فى الأندلس مدة ملك بنى أمية فيها ، لأن التضامن كان على أتمه بين الملك وحاجبه أى وزيره ، يختاره من أشرف الطبقات العربية ، وهذا يختار العمال الصالحين والكتاب والحاسبين. وللقضاة إجلال دونه كل إجلال ، وقل أن جاء من أصحاب القضاء الساقط فى مروءته ، الجائر فى أحكامه ، المصانع على قضاته . وكان من ملوكهم كالحكم من

(١) آداب الحسبة للسقطى المالقى .

يباشر الأمور بنفسه أويسترشد بآراء الفقهاء والعلماء كمن سلف من أجداده . وله عيون يطالعونه بأحوال الناس وقد شبهوه بالمنصور العباسى . والحكم أول من جند الأجناد ، واتخذ العدة والسلاح . واستكثر من المماليك فصارله منهم خمسة آلاف . وكانوا يسمونهم الخرس لعجمة ألسنتهم ، وقد جعلوا أفواجاً على باب قصره وجعلهم فى المرتزقة واستكثر من الحشم والحواشى وارتبط الخيول على بابه .

والحكم هو الذى ضرب سكان الربض ربض قرطبة لما تآمروا عليه ضربة قاضية ، وأجلى منهم ستين ألفاً هاموا على وجوههم فى شمال إفريقية ومصر ثم فى جزيرة إقريطش(١) . وعبد الرحمن الثالث هو الذى أصبحت الأندلس فى أيامه أكثر بلاد العالم تمديناً(٢) وضع على الأسبان جالية(٣) يؤدونها وكان فيما شرط(٤) عليهم اثنى عشر ألف صانع يصنعون له فى مدينة الزهراء وكان له اثنا عشر ألف من الخدم بمناطق الذهب والسيوف المحلاة يركبون لركوبه وينزلون لنزوله . وكان يقسم الجباية أثلاثاً . ثلث للجند وثلث للبناء ، وثلث مدخر ، وقيل إنه خلف فى بيوت الأموال خمسة آلاف ألف ألف (ثلاث مرات متكررة(٥)) وكانت جباية الأندلس يومئذ من الكور والقرى ترى على ستة آلاف ألف أما أخماس الغنائم فلا يحصيها ديوان .

---

(١) تم فتح جزيرة إقريطش «كريت» على أيدى العرب فى القرن الثانى وكانوا بدأوا بفتحها على عهد معاوية بن أبى سفيان وآخر من نزلها من جلوا من الأندلس على عهد الحكم ابن هشام الأموى عقب وقعة الربض (١٩٨ هـ) وكانوا نزلوا الإسكندرية فأجلاهم منها عبد الله ابن طاهر العباسى على مال أداه إليهم ، ونقلهم إلى جزيرة إقريطش فعمروها وملكوا عليها رجلا منهم ، وغزوا ما حولها من جزائر القسطنطينية وما زال صاحب الروم يمكر بهم حتى كانت سنة خمسين وثلثمائة فملكها من المسلمين ثم حمل بعضهم إلى القسطنطينية وأدخلهم فى النصرانية بالقوة ، ولما عادوا إلى الجزيرة منعوا من الدخول إلى بيوتهم ، قيل أنتم نصارى وهؤلاء مسلمون فإن دخلوا فى دين الملك اجتمعتم وإن أبوا ملكناهم ، فتنصر الباقون فى يوم واحد ثم مات الآباء وبقى الأولاد على أشد ما يكون فى دين النصرانية والبغض فى المسلمين . فى نهاية الأرب قاله النويرى .

(٢) معلمة الإسلام . عبد الرحمن الثالث .

(٣) الجالية ج الجوالى ما يؤخذ من أهل الذمة من الجزية المقررة على رقابهم كل سنة .

(٤) أخبار ملوك الأندلس للنويرى .

(٥) مقدمة ابن خلدون .

وتعددت الدواوين فى الأندلس منذ أواسط عهد الأمويين فيها ومن جملتها ديوان الشعراء لكثرة غرامهم بالأدب والشعر واستحسانهم له . ولما ضعف الوازع السياسى فى الأمويين ضعفت إدارتهم بضعف القائمين بها وظل لتراتيبهم شىء من النظام اقتدى به واتخذه إماماً كل من دولة المرابطين ثم الموحــدين ثم دولة بنى نصر من بنى الأحمر وكذلك ملوك الطوائف الذين تقاسموا تلك الدولة فى أدوارها . واستقل كل متغلب أو أمير أو قاض بولاية أو ولايتين بسط عليهما سلطانه .

يقول ابن خلدون : إن يوسف بن تاشفين صاحب المغرب والأندلس لم ير فى بلد من بلاده على طول أيامه رسم مكس ولا خراج ، لا فى حاضرة ولا فى بادية إلا ما أمر الله به وأوجبه حكم الكتاب والسنة من الزكوات والأعشار وجزيات أهل الذمة وأخماس الغنائم . وقد جبى فى ذلك من الأموال على وجهها ما لم يجبه أحد قبله . وقد رد أحكام البلاد إلى القضاة وأسقط ما دون الأحكام الشرعية. وذكر المؤرخون أنه طلب من أهل البلاد المغربية والأندلسية المعونة بشىء من المال على ما هو فى صدده من الجهاد فامتنعوا ، وأباحها له بعض الفقهاء والقضاة ، وأفتوه أن عمر بن الخطاب كان أضاق ففرض مالا فى زمانه وأجابه أهل الرأى إن عمر ما اقتضاها حتى دخل مسجد الرسول وحضر من كان معه الصحابة ، وحلف أنه ليس عنده فى بيت مال المسلمين درهم واحد ينفقه عليهم ، فإذا فعل ابن تاشفين وحلف أنه ليس فى بيت مال المسلمين درهم وجبت معونته .

ووقف على بن يوسف بن تاشفين أيضاً مع الشريعة ، وآثر أهل الفقه والدين ، وكان لا يقطع أمراً فى جميع مملكته دون مشاورة الفقهاء ، فكان إذا ولى أحداً من قضاته كان فيما يعهد إليه أن لا يقطع أمراً ، ولا يبت فى حكومته فى صغير من الأمور ولا كبير إلا بمحضر أربعة من الفقهاء ، فعظم

أمر الفقهاء فى الأندلس ، وانصرفت وجوه الناس إليهم ، فكثرت لذلك أموالهم واتسعت مكاسبهم[١] . ومنذ عهد الأمويين فى القرن الثالث كان فى الأندلس مجلس شورى الفقهاء يعرضون عليه ما حزبهم من الأمور الشرعية وأشكل عليهم من الأحكام ، فينظر فيها نظراً بليغاً . وهذا المجلس لم يعهد له نظير فى دولة بنى العباس ولا فى غيرها .

ولما استولى جهور بن محمد على الدولة العامرية جعل[٢] ما يرفع من الأموال السلطانية بأيدى رجال رتبهم لذلك وهو المشرف عليهم ، وصير أهل الأسواق جنداً وجعل أرزاقهم رؤوس أموال تكون بأيديهم يأخذون ربحها خاصة ، ورؤوس الأموال باقية ، يأخذون ويراعون فى الوقت بعد الوقت كيف حفظهم لها ، وفرق السلاح عليهم وأمرهم أن يجعلوه فى الدكاكين والبيوت حتى إذا دهم أمر ليلا أو نهاراً ، كان سلاح كل واحد معه ، وكانت أيامه فى قرطبة على أحسن نظام وأكمل اتساق . وطريقة ابن جهور هذه من الإبداع فى الإسراع بتعبئة الجيش ، هى أيضاً من إيجاد الأندلس وما تفردت به من الأوضاع .

واختلفت طرق الانفاق على الجند فى الأندلس فجرت أولا على إقطاع[٣] الأرض للأجناد فكانوا يستغلونها ويرفقون بالفلاحين فعمرت البلاد وتوفرت الأموال وتوافرت الأجناد والكراع والسلاح ، ولما رد ابن عامر عطايا الجند مشاهرة وقدم على الأرض جباة يجبونها أكلوا الرعايا واجتاحوا أموالهم واستضعفوهم ، فتهارب الفلاحون وضعفوا عن العمارة ، فقلت الجبايات وضعف الأجناد . ولما فتح الملثمون[٤] الأندلس ردوا الاقطاعات كما كانت .

---

(١) المعجب للمراكشى .
(٢) إخبار ملوك الأندلس للنويرى .
(٣) سراج الملوك للطرطوشى .
(٤) يقال للمرابطين الملثمون قيل لأنهم كانوا يتلثمون على عادة العرب فلما ملكوا ضيقوا لثامهم ليتميزوا به وقيل إن قبيلة لمتونة خرجوا مغيرين على عدو لهم وألبسوا نساءهم لبس الرجال ولثموهن ، فقصد بعض أعدائهم بيوتهم فرأوا النساء ملثمات فظنوهن رجالا فلم يقدروا عليهن ، واتفق وصول رجالهم فى ذلك التاريخ فأوقعوا بهم فتبركوا باللثام وجعلوه سنة من ذلك التاريخ فقيل لهم الملثمون (أبو الفداء) .

واقتبست الغرب الأقصى أوضاع حكومتها على الغالب من جارتها الأندلس ، وإذ استولت دولة المغرب فى عهد المرابطين وعهد الموحدين على البلاد الأندلسية ، تشابهت الإدارة فى المملكتين إلى حد غير قليل . قال ابن خلدون : لما جاءت دولة الموحدين لم تتمكن فيها الحضارة الداعية إلى انتحال الألقاب وتمييز الخطط وتعيينها بالأسماء إلا آخرا ، فلم يكن عندهم من الرتب إلا رتبة الوزير فكانوا أولا يخصون بهذا الاسم الكاتب المتصرف المشارك للسلطان فى خاصّ أمره ، وله مع ذلك النظر فى الحساب والأشغال المالية ، ثم صار بعد ذلك اسم الوزير لأهل نسب الدولة من الموحدين ، وكان أهل المغرب يسمون صاحب ديوان الانشاء صاحب « القلم الأعلى » . وذكر المراكشى[1] أن يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن كان فى جميع أيامه وسيره مؤثراً للعدل متحرياً له ، بحسب طاقته وما يقتضيه إقليمه والأمة التى هو فيها ، كان فى أول أمره أراد الجرى على سنن الخلفاء الأول ، فمن ذلك أنه كان يتولى الإمامة بنفسه فى الصلوت الخمس ، وكان يقعد للناس عامة لا يحجبه أحد من صغير أوكبير . يقعد فى أيام مخصوصة لمسائل مخصوصة لا ينفذها غيره ولما ولى ابن بقى كان فيما اشترطه عليه أن يكون قعوده بحيث يسمع حكمه فى جميع القضايا . فكان يقعد فى موضع بينه وبين أمير المؤمنين ستر من ألواح ، وكان قد أمر أن يدخل عليه أمناء الأسواق وأشياخ الحضر فى كل شهر ، يسألهم عن أسواقهم وأسعارهم وحكامهم . وكان إذا وفد عليه أهل بلد فأول ما يسألهم عنه عمالهم وقضاتهم وولاتهم فإذا أثنوا خيراً قال : اعلموا أنكم مسئولون عن هذه الشهادة يوم القيامة فلا يقولن أحد منكم إلا حقاً وربما تلا فى بعض المجالس : « يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين » .

وفى أيامه أمر أن يتميز اليهود فى المغرب بلباس يختصون به دون غيرهم لشكه فى إسلامهم ، وكان يقول لو صح عندى إسلامهم لتركتهم يختلطون بالمسلمين

(١) المعجب للمراكشى .

فى أنكحتهم وسائر أمورهم ، ولو صح عندى كفرهم لقتلت رجالهم وسبيت ذراريهم وجعلت أموالهم فيئاً للمسلمين ، ولم تنعقد ذمة ليهودى ولا نصرانى منذ قام أمر المصامدة ، ولا عمرت فى جميع بلاد المسلمين بالمغرب بيعة ولا كنيسة ، واليهود يظهرون الإسلام ويصلون فى المساجد ويقرئون أولادهم القرآن . وكان ذلك فى الربع الأول من القرن السابع .

كسر(١) عبد المؤمن سنة ٥٥٥ بلاد إفريقية والمغرب من برقة من جهة الشرق إلى السوس الأقصى فى المغرب بأنواع الفراسخ والأميال طولا وعرضاً ثم أسقط من التكسير الثلث فى الجبال والغياض والأنهار والسباخ والحزون والطرق . وما بقى قسط عليه الخراج وألزم كل قبيلة قسطها من الزرع فهو أول من أحدث ذلك بالمغرب . وكان حسبان العطاء والخراج مجموعاً لواحد فى دولة بنى مرين وصاحب هذه الرتبة هو الذى يصحح الحسبانات كلها ويرجع إلى ديوانه ونظره معقب بنظر السلطان أو الوزير ، وخطه معتبر فى صحة الحسبان فى الخراج والعطاء .

وكان للأشياخ الكبار من الجند على عهد بنى مرين فى مراكش الاقطاعات الجارية عليهم لكل واحد منهم فى كل سنة عشرون ألف مثقال من الذهب ، يأخذها من قبائل وقرى وضياع وقلاع ، ويحصل له من القمح والشعير والحبوب من تلك البلاد نحو عشرين ألف وسق ولكل واحد من الإقطاع والإحسان فى رأس كل سنة حصان بسرجه ولجامه ، وسيف ورمح محليان ، وبقجة قماش وجوخ ، وربما زيد الأكابر على ذلك . وللأشياخ الصغار من الإقطاع والإحسان نصف ما للأشياخ الكبار ، ويكون لكل واحد من المقربين إلى السلطان من أشياخ الجند ستون مثقالا من الذهب فى كل شهر . ومن دون ذلك يكون له فى الشهر ثلاثون مثقالا ، ثم ما دونها إلى أن يتناهى إلى أقل الطبقات وهى ستة مثاقيل فى كل شهر ، وليس لأحد منهم بلد

(١) الاستقصا للسلاوى .

ولا مزدرع . ولقاضى القضاة كل يوم مثقال من الذهب ، وله أراض يسيرة يزرع بها ما تجيء بمؤونته وعليق دوابه ، ولكاتب السر فى كل يوم مثقالان من الذهب ، وله قريتان يحصل له منهما محصول جيد مع رسوم كثيرة له على البلاد منافع وإرفاقات[١] . وجرت العادة أن يركب السلطان بعد العصر فى عسكره ويخرج إلى مكان فسيح ، فيقف على نَشْزٍ من الأرض وتتطارد الخيل قدامه ، وتتطاعن الفرسان وتتداعى الأقران ، وتمثل الحرب لديه وتقام صنوفها ، على سبيل التمرين ، حتى كأنها يوم حرب حقيقيه . وقيل إن عسكره ١٤٠ ألفاً وقيل ٤٠ ألف فارس غير حفطة المدن والسواحل . ويمكنه إذا استجاش لحرب أن يخرج فى جموع كثيرة لا تكاد تنحصر .

وأكثر ما كانت الإدارة منتظمة فى إفريقية أى تونس على عهد الأغالبة ثم العبيديين ثم ملوك صنهاجة ثم ملوك الحفصيين . وكان إبراهيم بن الأغلب أول من اتخذ العبيد لحمل سلاحه واستكثر من طبقاتهم ، واستغنى عن استعمال الرعية فى شيء من أموره . وقلد العبيديون فى إفريقية والقيروان الدولتين[٢] قبلهم فى الخطط الوزارية وغيرها . وكانت الرياسة فى دولة بنى أبى حفص أولا والتقديم لوزير الرأى والمشورة وكان يخص باسم شيخ الموحدين ، وكان له النظر فى الولايات والعزل وقود العساكر والحروب ، واختص الحسبان والديوان برتبة أخرى ، ويسمى متوليها بصاحب الأشغال ينظر فيها النظر المطلق فى الدخل والخرج ويحاسب ويستخلص الأموال ويعاقب على التفريط . وكانت دولة الحفصيين[٣] على أسلوب العرب ، وعدتهم الرماح والسيوف والنبال ، ولم تكن المكاحل أى المدافع ظهرت فى مبتدأ أمرهم وإنما ظهرت فى مؤخر أيامهم أيام الفونس الأحول صاحب قشتالة ، وكانت عساكرهم تدعى بالموحدين سماهم بذلك محمد بن تومرت لأنه وضع لهم توحيداً بلسان البربر ، زعم أنه هو كلمة التوحيد ، وكان لهذه الدولة

(١) صبح الأعشى للقلقشندى . (٢) مقدمة ابن خلدون .
(٣) المؤنس لابن أبى دينار .

عز[1] وسلطان واتساع ملك ، إلا أن الغالب عليها سوء الإدارة لتغلب الفكر البربرى على رجالها ، فلم يكن فى القائمين بها الاستعداد الكافى للإبداع ، لبعدها عن الصبغة العربية والحضارة الشرقية ، وكان ملوكها يُجِلّون العلماء ويحافظون على الشرع . وكان بتونس أربعة من القضاة قاضى الجماعة وقاضى الأنكحة وقاضى المعاملات وقاضى الأهلة ، وقاضى الجماعة عبارة عن قاضى القضاة بالمشرق ، وكان بنو أبى حفص يجعلون يوم الخميس لاجتماع القاضى والعلماء فى مجالسهم ، وتنفذ بين أيديهم الأحكام الشرعية ، وتلقى عليهم المسائل المعضلة ، تتصرف بين يدى السلطان فلا يقع بين يديه من الأحكام إلا ما هو مشهور . وكانت إدارة إفريقية منذ الفتح بأيدى ولاة ينصبهم الخلفاء والولاة يشرفون على أمهات الدواوين ، وهم ديوان الجند وديوان الخراج وديوان الرسائل . ولكل واحد منها فروع يقوم بها كتاب ومحاسبون . ولما ولى الأغلب بن إبراهيم أحسن إلى الجند وأجرى الأرزاق الواسعة على عماله فقبض أيديهم عن الناس .

وبينا كان بعض الصنهاجيين يحرصون على تكثير سواد المسلمين أسوة بسائر الدول الإسلامية ، حتى أن الحسن بن على الصنهاجى[2] لما فتح تونس « عرض الإسلام على من بها من الكفار فمن أسلم سلم وإلا قتل » — كان بعض الملثمين مثل إدريس بن يعقوب أول من أدخل النصارى إلى مراكش واستنصر بهم ، ودخل معهم إثنا عشر ألف نصرانى (٦٣٠ هـ) على نحو ما فعل محمد بن سعد المعروف بابن مردنيش المتغلب على الأندلس قبل نحو قرن بأن جعل جيشه من الإفرنج[3] اتخذهم أجناداً له وأنصاراً ، وذلك حين أحس اختلاف القواد عليه وتنكر أكثر الرعية له ، فقتل بعض قواده وأقطع الأجناد والقواد الجدد ما كان أولئك القواد يملكونه ، وأخرج كثيراً

(١) تاريخ تونس لعبد الوهاب . (٢) الخلاصة النقية للباجى .

(٣) المعجب للمراكشى .

من أهل مرسية وأسكن النصارى دورهم . ثم بلغت العلاقات بين ملوك المغاربة والإفرنج إن كان أمراء تونس ومراكش يجندون فى جيوشهم أبناء الإفرنج ويأذنون لهم بإقامة شعائر دينهم علناً فى الثكن التى ينزلونها : وعقدت معاهدات تضمن للفرنج دماءهم وأموالهم وتبيح لهم أن يتحاكموا عند قناصلهم وأن يقيموا شعائر دينهم جهراً ، وكان ملوك الإسلام هم الذين يعطونهم عرصات الأرض اللازمة لبناء الكنائس والمقابر ، وهذا كان فى القرن الثانى عشر والثالث عشر للميلاد (قاله بونبه مورى) . وحدث أن رمضان باى أمير تونس (١١٠٨) بنى لأمه الإيطالية النصرانية كنيسة فى تونس[١] الخضراء لما هلكت فأحدث الأمير المسلم أول معهد دينى نصرانى فى تلك الديار .

قلنا إن الرياسة فى دولة بنى أبى حفص كانت أولا والتقديم لوزير الرأى والمشورة ، وكان يخص باسم شيخ الموحدين ، وقد اختص القلم عندهم أيضاً بمن يجيد الترسل ويؤتمن على الأسرار . وللسلطان قهرمان خاص بداره وفى أحوال يجريها على قدرها وترتيبها من رزق وعطاء وكسوة ونفقة فى المطابخ والاصطبلات وغيرها وخص باسم الحاجب . وكان السلطان فى إفريقية إذا جلس للمظالم جلس حوله ثلاثة للرأى والمشورة وجلس معهم وزير الجند إن كان كبيراً وإن لم يكن كبيراً وقف بإزاء أولئك الثلاثة جلس دونهم عشرة من أكابر أشياخه . وقد يكون هؤلاء الثلاثة من العشرة المذكورين بعد هؤلاء وهم خمسون نفراً فإذا أمر السلطان بأمر بلغه وزير الجند لآخر واقف وراءه وبلغه الآخر إلى أن يسمع الأمر السلطانى من خارج الباب بنقل أناس عن أناس وتقف جماعة تسمى بالوقافين بأيديهم السيوف حوله وهم دون الخمسين المذكورين فى الرتبة .

هذا ما نقله ابن فضل الله العمرى فى مسالك الأبصار على عهد دولة الحفصين وذكر أن الجند هم من الموحدين والأندلسيين ومن قبائل العرب

(١) شهيرات النساء لعبد الوهاب .

وقليل ممن هرب وأقام عندهم من مصر. والفرنجة هم خاصة السلطان يقال لهم العلوج لا يطمئن إلا إليهم . ثم ذكر أرزاقهم وطبقاتهم والإحسانات عليهم والمرتبات والرتب وإحصاء الجيوش ، وكان لهذا السلطان ثلاثة وزراء : وزير الجند وهو بمثابة الحاجب بمصر ، ووزير المال وهو صاحب الأشغال . ووزير الفصل وهو كاتب السر . ومهما تجدّد عند كل واحد منهم أمر يطالبه بالمكاتبة فيما يتعلق بشغله المنوط به ويجاوبهم بما يراه . قال ابن سعيد والذى يتولى إبلاغ قصص الظلامات إلى هذا السلطان يسمى صاحب الرقاعات يأخذ براءات المتظلمين أى قصصهم ويعرضها ويخرج بجوابها .

منذ بدأت الخلافة العباسية بالضعف أصبح التاريخ على الجملة تاريخ ملوك الأطراف أو ملوك الطوائف أو الأمراء الخاضعين أو المشاكسين ، ويستمد كل ملك أو أمير قواعده فى إدارة الملك من حاجته ومحيطه وينسج فى ظواهرها على ما أخذه عن بغداد ، وقلما يتعدى فى الجباية الحد المقرر فى الشريعة ولا يختلف الخروج عنها إلا بقدر قوة السلطان وحاجته وطمعه .

كان ديوان الإنشاء بمصر على مثال ديوان الإنشاء فى بغداد(١) ، أحدثه أحمد بن طولون لما تولى أمر مصر وعظم ملكها . ولم يكن لمصر ديوان إنشاء من قبله فاتخذ المنشئين وتوالت دواوين الإنشاء بذلك وكان ابن طولون يقعد للمظالم كما يقعد الخلفاء ، وفى كتابة وجدت على البردى ظهر أن الطولونيين فتشوا مصر تفتيشاً عاماً من سنة ٢٥٨ إلى سنة ٢٦١ ، وفى عهد الطولونيين عومل النصارى واليهود معاملة حسنة . واستخدم كثير من الموظفين من أبناء مصر ، وبالغ بنو طولون فى عمارة مصر فاستفادوا مالا ووفروا الرزق للمصريين ، وكانت عدّة(٢) العساكر المصرية فى أيام أحمد بن طولون اثنى عشر ألف مملوك وسبعة آلاف حر مرتزق وأربعين ألف أسود . وكانت عادة الديوان بمصر فى أيام بنى أمية وبنى العباس أربعين ألف فارس .

---

(١) معلمة الإسلام . الطولونيون .

(٢) التيسير والاعتبار للأسدى .

كان عمل الطولونيين صالحاً من كل وجه خلافاً لبنى بويه بالشرق فى القرن التالى مثلا . فقد خبط معز الدولة بن بويه فى المشرق الناس ، واستخرج الأموال من غير وجوهها[١] ، فأقطع قواده وخواصه وأتراكه الضياع فصار إليهم أكثر سواد العراق ؛ وزالت أيدى العمال عنه ، وبطلت الدواوين وبطلت أزمتها ؛ وجمعت الأعمال كلها فى ديوان واحد فنقص الارتفاع وبطلت العمارة ، وسامح الوزراء المقطعين وقبلوا منهم الرشا وأخذوا المصانعات فى بعض وقبلوا الشفاعات فى آخر ؛ فحصلت لهم الإقطاعات بعبر متفاوتة ؛ وأتت الجوائح على التناء[٢] ورقت أحوالهم ؛ فمن بين هارب جال ، وبين صابر لا ينصف ، وبين مستريح إلى تسليم ضيعته إلى المقطَع ليأمن شره ، فبطلت العمارات ، وأغلقت الدواوين ، وامَّحى أثر الكتابة والعمالة ، ومات من كان يحسنها ؛ ونشأ قوم لا يعرفونها ، ثم تضاعفت النفقات فزادت على الدخل .

وما خلا مع هذا عصر من علماء ينكرون على الملوك ظلمهم الرعية ، والظالم لا يردَّه على الأكثر وعظ واعظ ولا نصح ناصح ، وقلما يلين إلا إذا ألانته قوة كأن يخشى ثورة تنشب ، أو عدواً من بلاده يقرب . لما خرج الظاهر بيبرس البندقدارى رأس دولة المماليك إلى قتال التتر بالشام ، أخذ فتاوى العلماء بأنه يجوز له أخذ مال من الرعية ليستنصر به على قتال العدو ؛ فكتب له فقهاء الشام بذلك ، فقال : هل بقى أحد . فقيل نعم الشيخ محيى الدين النووى ، فطلبه فحضر ، فقال : أكتب خطك مع الفقهاء فامتنع ، فقال : ما سبب امتناعك ؛ فقال : أنا أعرف أنك كنت فى الرق للأمير بندقدار وليس لك مال ؛ ثم من الله عليك وجعلك ملكاً ، وسمعت أن عندك ألف مملوك كل مملوك له حياصة من ذهب ، وعندك مائتا جارية

---

(١) تجارب الأمم لمسكويه .
(٢) التناء : جمع تانىء وهو القاطن والساكن من تنأ بالبلد تنوءاً إذا قطنه .

لكل جارية حُق من الحلى . فإذا أنفقت ذلك كله وبقيت المماليك بالبنود الصوف بدلا من الحوائص ، وبقيت الجوارى بثيابهن دون الحلى ، أفتيك بأخذ المال من الرعية ، فغضب الظاهر من كلامه وقال : أخرج من بلدى ، يعنى دمشق . وأنكر فخر الدين بن عساكر على الملك المعظم تضمين المكوس والخمور فعاقبه بأن انتزع منه المدرسة التقوية والصلاحية بدمشق ، وأنكر العلماء على العزيز ابن صلاح الدين إعادة المكوس التى كان أبطلها أبوه وزيادته فى شناعتها ، ومجاهرته بالمعاصى والمنكرات وإباحة أرباب الأمر والنهى الخمر والحشيش وإقامة الضرائب عليها حتى اضطربت الديار المصرية من قلة العدل وكثرة المعاصى والفسوق ، والعزيز هذا منع فى دمشق استخدام أهل الذمة فى شىء من الخدم السلطانية ، وألزموا لبس الغيار[1] . وأين إدارة العزيز من إدارة صلاح الدين بتسامحها ومتانتها فقد ذكر المؤرخون أنه لما عقد الصلح بين الإفرنج والمسلمين دخل خلق عظيم من الإفرنج إلى القدس للزيارة فأكرمهم السلطان وقدم لهم الأطعمة وباسطهم .

وبعد فلم يكن يحول بين الملوك وما يشتهون من الاسترسال فى طلب المال من الناس إلا خشية فتاوى أمثال النووى وابن عساكر ممن يعتقد الشعب صدقهم وصحة يقينهم ويسير إذا دعاه الداعى على رغائبهم . وإذا كان الممتنع عن مماشاة السلطان أو الملك يقصد بما يقول الآخرة أو وجه الله تقف موعظته عند حد الوعظ لا تتعدى الأقوال ، وإذا كان ممن يهتم بالأمور السياسية ويعرف كيف يصيب الغرض ويبلغ المحز يثير على السلطان وأصحاب السلطان غارة شعواء ، ربما كان فيها زوال أمره وجرأة خصومه عليه ، ولايخلو زمن من حزب مخالف يرى فى السياسة المتبعة بعض الحيف أو الخروج عن مقاصد الشرع ، وزعماء هؤلاء المخالفين إما أن يقاوموا السلطان ويجاهروه بالعداء وينقدوه لاتأخذهم رهبة ولا رغبة ، وإما أن يثيروا من يهوى هواهم يحملونهم

---

(١) الغيار كالزنار هو لبس الذميين فى القرون الوسطى .

على النقد أو الطعن فى سياسة الملك ، ومنهم من يستعمل الشعراء فى الدعوة إلى ما يتطاولون إليـه من تنبيه الأفكار ، يضعون أبياتاً أو أغانى يتناشدها الناس والنساء والأولاد ، وفيها صراحة أو شبه صراحة بما يجرى فى البلاد من الظلم ، ومنهم من يكتب إلى السلطان رقاعاً يبسطون له فيها سوء الحال ويحذرونه قبح المآل عليه وعلى دولته . والسلطان أو الأمير يقابل هذه القوة بمثلها فيستكثر من رجال الدين يتخذهم بوق دعاية له ، ويحتال بكل حيلة لتحقيق الآمال واستتباع الرجال ، فإما أن يغدق المال على من يحاذر مخالفتهم فيعمى أبصارهم وبصائرهم ، أو أن يطمعهم فى منصب ما كانوا يحلمون بتوليه يشترى به سكوتهم ، أو أن يصانعهم على ما يوافق هواهم فيكون متديناً مع المتدينين ، حراً مع الأحرار يبسم لهذا ويحترم هذا ويرفع مقامه فيشايعه ويرتضيه ، ويحمل من وراءه من قومه على مشايعته بدون إعمال فكر ولا نظر ، ومن الملوك من كانوا يعمدون فى الوصول إلى مآربهم إلى الطرق المشروعة ولا يطلبون من أمتهم غير المطالب المعقولة التى يقرها جمهور العقلاء .

لما ضاق المسلمون بوطأة الصليبيين عليهم فى دمياط كتب الملك المعظم إلى سبط ابن الجوزى الواعظ المشهور : أريد أن تحرض الناس على الجهاد وتعرفهم ما يجرى على إخوانهم أهل دمياط ، وإنى كشفت ضياع الشام فوجدتها ألفى قرية منها ألف وستمائة أملاك لأهلها وأربعمائة سلطانية ، وأريد أن تخرج الدماشقة ليذبوا عن أملاكهم ، الأصاغر منهم والأكابر ، فأجابوا بالسمع والطاعة ثم تخلفوا فأخـذ الثمن والخمس من أموالهم لتقاعسهم ، فما اعترض معترض ولا نقد ناقد عاقل ، لأن مطلب السلطان كان ظاهر الفائدة ، خالياً من الشوائب ، يقصد من حمل الناس على الحرب غيرته على البلاد وأهلها ، ويعرف قومه أنه بعيد عن الإسراف فى أموال الرعية لا يجبى مالا وفى قصره ألوف وألوف من الجواهر والحلى والذهب على نحو ما فعل الظاهر بيبرس وشق عليه مجاهرة النووى له بالحق . على أن عمل الظاهر

فى أخذ فتاوى العلماء دليل على أنه لايخرج عن الشرع ويحاول تطبيق أعماله عليه . لايسير سير المستبدين ولو بمراعاة الظواهر قال ابن إياس إن الظاهر كان سخياً على الرعية باسط اليد . يفرق الغنائم التى تحصل من فتوحاته على الرعية حتى يرغبهم فى القتال وقت الحرب ، وكان محباً للمال كثير المصادرات للرعية لأجل الغزوات والتجاريد . وينفق ذلك على العسكر . ولما وردت الأخبار فى سنة سبعمائة بعودة التتر إلى الشام . صدر أمر سلطان مصر من المماليك باستخراج ثلث أموال غالب الأغنياء بمصر والشام لاستخدام المقاتلة وبرز إلى محاربتهم بنفسه فكان فى ذلك النصر . ودفع عادية الأعداء عن البلاد .

كان الإخشيد أول من عمل الرواتب فى مصر وعمل له تقدير يحتز فيه المرتب عن الارتفاع ، فأريد على أن يحط من الجرايات والأرزاق ، فرأى أصحاب الرواتب الضعفاء وفيهم المستورون وأبناء النعم فأخذ هذا العجز من كاتبه . أما الخلفاء فاقتنعوا فى عصور الضعف أن تضمن الولايات من ديوانهم بمال يحمل إليهم وكانوا يضيقون فتنفجر الثورات وأكثر ما يثور الجند لانقطاع أرزاقهم ورواتبهم ، وكان الدافع إلى كثير من الثورات الأهلية ظلم العمال وجوع النساء والأطفال ، والناس فى مثل هذه الأحوال يلبون دعوة من يتقدم أمامهم ليتبعوه ، والوزراء والكبراء ينهبون الرعايا من جهة ويطعمونهم من جهة أخرى .

كان الوزير ابن الفرات من أكبر رجال السياسة والإدارة فى العباسيين يسلب ما يسلب بطرق له يعرفها ، ومنها أخذ مئات الألوف من الدنانير من ديوان الخاصة أى أموال الخليفة يدبر لاقتنائها طرقاً ملتوية ، ومع هذا يجرى على خمسة آلاف إنسان ما بين مائة دينار فى الشهر إلى خمسة دراهم ، وبنى داره بثلثمائة وخمسين ألف دينار ، وكان المحسن ابنه وخليفته على عماله وهو على ديوان المصادرات ، من الجور والعيث ، ما جمع به فى آخر وزارة أبيه الثالثة بضعة ملايين دينار ، وكان راتب الوزير فى هذا العهد خمسة آلاف دينار فى الشهر .

ولولاة الأقاليم وأمرائها وملوكها طريقة فى أخذ الأموال فيها غرائب فإن سيف الدولة بن حمدان صاحب الموصل وميافارقين وحلب أراد أن يستصفى غوطة دمشق لنفسه ، وكانت لألوف من الناس ، فخاف أهل دمشق على غوطتهم وكتبوا إلى كافور الإخشيدى صاحب مصر فجاء واستولى على دمشق وأعمالها . وكان سيف الدولة هذا يجوز أخذ ما فى أيدى الناس ويجور ولا يبالى . وأفحش قاضيه أبو الحصين[1] فى الظلم ، فكان إذا مات إنسان أخذ تركته لسيف الدولة وقال : «كل من هلك فلسيف الدولة ما ترك» وصادر له تجاراً فى بالس (مسكنة) على ألف ألف دينار ، وأشتد ظلم سيف الدولة وظلم آل بيته على بنى حبيب وهم بنو عم بنى حمدان ، وكانت منازلهم فى نصيبين تضمن منذ أول الإسلام بمائة ألف دينار حتى اضطروا أن يهاجروا إلى الروم وكانوا اثنى[2] عشر ألف فارس فتنصروا بأجمعهم وعادوا إلى بلاد الإسلام ، بعد أن قويت نفوسهم بملك الروم يغزون ويفسدون .

كان سيف الدولة يأتى هذا الظلم ويفضل من جهة على الشعراء فضلا قلما يسمع بمثله . وقد ضرب دنانير للصلاة فى كل دينار منها عشرة مثاقيل وعليه صورته ورسمه . وأعطى أبا فراس الحمدانى لما ارتجل له أبياتا ضيعة بمنبج تغل ألف دينار . ووصل المتنبى[3] بخمسة وثلاثين ألف دينار فى مدة أربع سنين ، وكان سيف الدولة لا يملك نفسه ، كان يأتيه علوى من بعض جبال خراسان كل سنة فيعطيه رسماً له جارياً على التأييد ، فأتاه وهو فى بعض الثغور فقال للخازن : أطلق له ما فى الخزانة فبلغ أربعين ألف دينار ، فشاطره الخازن وقبض عشرين ألف دينار ، إشفاقاً من خلل يقع فى عسكره وهو فى الحرب .

وكانت حضرة سيف الدولة فى مملكته الصغيرة أعظم من حضرة بنى العباس . يتبارى الشعراء فى مدحه وهو لا يستحى أن ينكب قرية أو قرى

---

(١) القديم والحديث للمؤلف .

(٢) المسالك والممالك لابن حوقل .

(٣) خزانة الأدب للبغدادى .

ليجيز شاعراً ، ويخرب إقليما أو يبطل تجارة جسيمة ليعمر قصراً وتتم له رفاهيته وبذخه . وقدخرب الرّقة والرافقة من ديار مضر بما حملهما من الكلف والنوائب ، وبمصادرة أهلها[1] مرة بعد أخرى . وكان إذا أكل الطعام يحضر على مائدته أربعة وعشرين طبيباً ، وينشئ من القصور ما يعجز عنه الخوالف من بنى العباس . قال الأزدى[2] : إن سيف الدولة كان معجباً برأيه ، محباً للفخر والبذخ ، مفرطاً فى السخاء والكرم ؛ شديد الاحتمال لمناظريه والعجب بآرائه ، سعيداً مظفراً بحروبه ، جائراً على رعيته اشتد بكاء الناس عليه ومنه . بكوا عليه لدفاعه عن أرض الإسلام وتوليه غزو الروم ، وبكوا منه لظلمه وسوء إدارته .

وبينما كان سيف الدولة يعمل هذا لاستدرار الأموال والإفضال على من يحب ، كان كافور صاحب مصر وهو خصى أسود يضن بالدانق إلا على مصالح الدولة ، ويضمن على الشاعر المتنبى نفسه فلا يقلده ولاية من ولاياته ويقول إن من ادّعى النبوة مع محمد ألا يدّعى الملك مع كافور ؟ وكان رسمه أن يستقبل العيد بيوم « تعدّ فيه الخلع والحملانات وأنواع المبار لرابطة جنده وراتبة جيشه » وقد تقدم إلى سائر دواوينه أن لا يعطى دينار ولا درهم إلا بتوقيع يعقوب بن كلس فوقع فى كل شىء ، ويعقوب هذا منظم المالية فى الدولتين الكافورية والفاطمية ، وقامت الدولة الفاطمية فى إفريقية ومصر لأول أمرها على إدارة وترتيب . ووضع المعز والعزيز من الفاطميين نظاماً دقيقاً فى المالية والإدارة[3] وكان لهما من ابن كلس وزير على ضعفه يفيد الدولة بنصائحه الثمينة . عهد المعز إلى يعقوب بن كلس ، وكان يهودياً فأسلم ، وإلى عسلوج بن الحسن بوضع نظام جديد للضرائب بدل النظام القديم فوضعا قانوناً لتقدير الأملاك وتحديد الضرائب ، ومنع الجباة من الاستطالة والظلم فزاد ريع القطر : قلدهما المعز الخراج والحسبة والسواحل والعشور والجوالى والأحباس والمواريث والشرطتين .

---

(١) المسالك والممالك لابن حوقل .

(٢) أخبار الدول المنقطعة للأزدى (مخطوط) .

(٣) معلمة الإسلام .

لما فتح جوهر الصقلى مصر باسم مولاه المعز تعهد لأهلها فى الكتاب الذى دفعه إليهم بإسقاط الرسوم الجائرة ، وأن يجريهم فى المواريث على كتاب الله وسنة نبيه ، وأن يضع ما كان يؤخذ من تركات موتاهم لبيت المال من غير وصية من المتوفى بها . وقل فى الفاطميين العادل العف عن الأموال من الوزراء فقد ولى الوزارة الحسن بن على اليازورى بالاكراه ، وكان غنياً ولا يستبد[1] برأيه ولا يأنف من مشاورة ثقاته وأصفيائه ، ومع هذا كان نصيبه القتل (٤٥٠) بوشاية الواشين . ولم[2] يكن بعده من يعادله فى كفاءته من الوزراء الفاطميين . فكثرت الدسائس فى الجيش والقصر حتى تعاقب على الوزارة أربعون وزيرا فى تسع سنوات .

وزاد هذه الحالة سوءاً ذلك النزاع الذى قام بين عناصر الجيش من الأتراك والسودانيين . واستكثر المعز من الجند بمصر فكانوا ما بين كتامة وروم وصقالبة وبربر ومغاربة لا يحصون كثرة حتى قيل لم يطأ الأرض بعد جيوش الإسكندر بن فيلبس الرومى الكبير أكثر من جيوش المعز الفاطمى ؛ واستكثر[3] العزيز من المماليك الديالمة والمصامدة والأتراك المغول . وعُنى الفاطميون بالأسطول وكان له ديوان خاص حافظ عليه صلاح الدين لما أخذ الملك منهم . وكان عمال الدولة الفاطمية وولاتها موسعاً عليهم فى الرزق ثم كثر صرف أكثر الوزراء والولاة والقضاة أوائل النصف الثانى من القرن الخامس[4] لكثرة مخالطة الرعاع للخليفة وتقدم الأرازق ، بحيث كان يصل إليه فى كل يوم ثمانمائة رقعة فيها المراجعات والسعايات فاشتبهت عليه الأمور وتناقضت الأحوال ، ووقع الاختلاف بين عبيد الدولة ، وضعفت قوى الوزراء عن التدبير لقصر مدة كل منهم ، وخربت الأعمال لقلة ارتفاعها ، وتغلب الرجال على معظمها ، مع كثرة النفقات والاستخفاف بالأمور وطغيان الأكابر ، وما كان الفاطميون يرون أنجع لاتقاء شر الولاة من المسارعة إلى تبديلهم مخافة أن يشقوا عصا الطاعة ، ومن ارتضوا سيرته

(١) الإشارة إلى من نال الوزارة الصيرفى .

(٢) تاريخ العصور الوسطى لحسن إبراهيم حسن وأحمد صادق الطنطاوى .

(٣) تاريخ مصر لابن إياس . (٤) الخطط للمقريزى .

كابن عمار فى طرابلس أنشأ له دولة صغيرة ، والغالب أن ما دعاهم لإغماض العين عنه : والتساهل معه فى إساغته أموالها ، إرادتهم فى أن يجعلوا من بلده مركزاً من الدعوة إلى التشيع فى الشام . ومن خلفائهم من كانوا على تدين وتصون ، ومنهم من كانوا مستهترين مشغوفين باللهو كالظاهر (٤٢٧) فتأنق الناس فى أيامه بمصر ، واتخذوا المغنيات والرقاصات ، وبلغوا من ذلك مبلغاً عظيما .

ومع أن من مقتضى مذهب الفاطميين البعد عن أهل الذمة لم يتلكأ بعض خلفائهم من الاعتماد عليهم فى إدارة مصر والشام . فقد وسد العزيز الفاطمى الأمر لرجل من الأقباط اسمه نسطورس ، وقلد أموال الشام ليهودى اسمه منشا ، يجمعان الأموال ويوليان أبناء نحلتهما الأعمال ، ويعدلان عن الكتاب والمتصرفين من المسلمين . فغضب الناس فى مصر والشام ، وعمد بعضهم فى القاهرة إلى مبخرة من حديد ، وألبسها ثياب النساء وزينها بإزار وشعرية ، وجعل فى يدها قصة على جريدة وكتب فيها رقعة ليراها العزيز عند مروره وهى (بالذى أعز جميع النصارى بنسطورس وأعز جميع اليهود بمنشا وأذل جميع المسلمين بك إلا ما رحمتهم وأزلت عنهم هذه المظالم) فتوسطت ست الملك ابنة العزيز لنسطورس فعفا عنه ، بعد أن حمل إلى الخزانة ثلثمائة ألف دينار ، وأعاده العزيز إلى ما كان ناظراً فيه ، وشرط عليه استخدام المسلمين فى دواوينه وأعماله ، وأما منشا فقتل ولم يشفع له أحد .

وكانت جبايات الفاطميين فاحشة والفتن متصلة وعمالهم يبالغون فى ارتكاب المظالم ، فخربت البلاد وجلا عنها أهلها وتعطلت الزراعة . ومع أن الرواتب والإقطاعات كانت كثيرة بل فاحشة المقدار فى الدولة الفاطمية ، كانت الرشوة وضياع الحقوق من الأمور المألوفة . كان راتب الوزير الفاطمى فى كل شهر خمسة آلاف دينار(١) ومن يليه من ولد أو أخ من ثلثمائة دينار إلى مائتى دينار وربما خمسمائة دينار ثم لحواشيه خمسمائة دينار إلى أربعمائة

(١) مسالك الأبصار لابن فضل الله العمرى .

دينار إلى ثلثمائة خارجاً عن الإقطاعات . ولأكبر أرباب الأقلام فى الشهر مائتان وخمسون ديناراً حبشية ، ومن الرواتب والغلة ما إذا بسط وثمن كان نظير ذلك ، ثم دون ذلك ودون دونه ، ولأعيانهم الرواتب الجارية من اللحم والخبز والعليق والشمع والسكر والكسوة ونحو ذلك مما هو جار على العلماء وأهل الصلاح من الرواتب والأرضين المؤبدة وما يجرى مجراها ، يتوارثه الخلف عن السلف ، ولا يوجد بمملكة من الممالك ولا مصر من الأمصار . ويبلغ إقطاع الواحد من أكابر الأمراء مائتى ألف دينار حبشية وربما زاد على ذلك .

وإقطاع الأمراء فى مصر أفحش مما هو فى الشام . وكان رزق أحمد ابن خيران الملقب بولى الدولة صاحب ديوان الإنشاء ثلاثة آلاف دينار فى كل سنة ، وله عن كل ما يكتبه من السجلات والعقود وكتب التقليدات رسوم يستوفيها من كل شىء بحسبه . وقد خلف الأفضل وزير المستنصر والمستعلى والآمر (١٥٥١) من العين ستمائة ألف ألف دينار ومن الفضة مائتين وخمسين أردباً وسبعين ألف ثوب ديباج أطلس إلى آخر ما خلف . وخلف جوهر القائد من الذهب العين ستمائة ألف ألف دينار ومن الدراهم أربعة آلاف ألف درهم ومن اللؤلؤ الكبار واليواقيت أربعة صناديق إلى آخر ما خلف . وإذا كان وزير من وزرائهم يجمع هذا القدر العظيم من النعمة فما يكون فى أيدى غيره وأيدى خلفائهم ، فقد وقع صلاح الدين لما أخذ مصر منهم على كنوز عظيمة فى قصورهم لا يستطيع قلم أن يدونها ، وهذا كله ما جمع من طرق مشروعة ، والفلاح كان فى شدة بالطبيعة .

وكثر فى آخر أمر الفاطميين « القبض والمصادرات واصطفاء الأموال والنقى » وكانوا إذا صرفوا وزيراً لا يعيدونه إلى العمل ، وكان الوزير ابن البطائحى[١] أول من عمل احصاء سكان البلاد وتدوينها فى قوائم خاصة سماها ابن ميسر أوراق « التصقيع » ووضع أوراق السفر للداخل إلى البلاد والخارج منها ، ووضع الجواسيس ومنهن النساء يتسقطن أخبار الناس لما ينفع الدولة .

(١) الإشارة لابن الصيرفى .

وفى أواخر أيامهم كان الوزير يجلس للمظالم بنفسه ومعه قاضى القضاة وصاحب ديوان المال ، وإذا خلت مصر من وزير صاحب سيف يجلس للنظر فى المظالم صاحب الباب ، وكان القضاة منذ استولى الفواطم على مصر يقضون بالمذهب الإسماعيلى ، وبطل العمل مدة حكمهم بالمذهب الشافعى وغيره ، أى أن المذهب الإسماعيلى كان مذهب الدولة القائمة . وعنوا عناية خاصة ، بالدعوة إلى مذهبهم ، وكان له دعاة ودعاة دعاة ، ولهم ديوان خاص تنفق عليه الدولة نفقات كبيرة ، كما تعنى بديوان الإنشاء واختيار بلغاء الكتاب له ما بين مسلم وذمى(١) .

وكان حملة الأقلام أو كتاب الدواوين يتولون الجباية والنفقات على اختلاف فروعها . وهم عبارة(٢) عن ثمانية عشر صنفاً وهم ناظر ومتولى ديوان ومستوف ومعين وناسخ ومشارف وعامل وكاتب وجهبذ وشاهد ونائب وأمين وماسح ودليل وحائز وخازن وحاشر وضامن . ولكل منهم أمر يتوجه عليه الخطاب فيه ، وتتبدل الأسماء بتبدل الدول والمسميات واحدة . وابتليت الدولة الفاطمية بالجود بالألقاب العجيبة على وزرائها وعمالها ، يسمون أحدهم « الوزير الأجل الأسعد المكين الحفيظ الأمجد الأمين عميد الخلافة جلال الوزراء تاج المملكة وزر الإمامة شرف الملة كفيل الدين » إلخ ويطلقون على آخر « سيد الوزراء ظهير الأمة عماد الخلصاء فخر الأمة » وعلى آخر « الوزير الأجل الأوحد جلال الإسلام ظهير الإمام قاضى القضاة وداعى الدعاة شرف المجد خليل أمير المؤمنين وخالصته ، ثقة الدولة وسناؤها » إلى غير ذلك من المبالغات الأعجمية التى لا تسمن ولا تغنى .

هذه تراتيب الفاطميين ولا يشفع فى هذه الإدارة بسطهم الأيدى فى إعطاء الألوف للشعراء والفقهاء والدعاة . وكانت حالة الدولتين الصلاحية والنورية على عكس ذلك . كان طغتكين صاحب دمشق ومن عظماء أمراء السلاجقة (٥٢٢) مثالا من صاحب الإدارة الحسنة أعاد إلى الرعية كثيراً من أملاكهم التى اغتصبها منهم ولاة الجور ، وجرت عليها أحكام المقاسمة ، وأرجعها إلى خراجها القديم ، وأحيا الأرض المعطلة ، وباع منها ما كان

(١) ابن فضل الله العمرى . (٢) قوانين الدواوين لابن مماتى .

شاغراً للناس يعمرونه ، وعمرت البلاد بجميل سياسته وحسن تدبيره ، وانبسطت الرعية فى عمارة الأملاك .

وكان نور الدين زنكى كوالده ينهى أصحابه عن اقتناء الأملاك ، لأن الإقطاعات تغنى عنها . قال ومتى صارت الأملاك لأصحاب السلطان ظلموا الرعية وغصبوهم أملاكهم . وكان إذا(١) توفى أحد الأجناد وخلف ولداً أقر الإقطاع عليه فإن كان الوالد كبيراً استبد بنفسه وإن كان صغيراً رتب معه رجلا يثق به فيتولى أمره إلى أن يكبر ، فكان الأجناد يقولون هذه أملاكنا يرثها الولد عن الوالد فنحن نقاتل عليها . قالوا وكان ذلك سبباً عظيما من الأسباب الموجبة للصبر فى المشاهد والحروب ، وكان أيضاً يثبت أسماء أجناد كل أمير فى ديوانه وسلاحهم خوفاً من حرص بعض الأمراء وشحه أن يحمله على أن يقتصر على بعض ما هو مقرر عليه من العدد ويقول نحن كل وقت فى النفير فإذا لم يكن أجناد الأمراء كافة كاملى العدد والعدد دخل الوهن على الإسلام .

وكان نظام الملك وزير السلجوقين أول من فرق الاقطاعات على الجند فعمرت البلاد وكثرت الغلات واقتدى به من جاء من بعده من الملوك . وكانت عادة الخلفاء(٢) من بنى أمية وبنى العباس والفاطميين من لدن عمر بن الخطاب أن تجبى أموال الخراج ثم تفرق من الديوان فى الأمراء والعمال والأجناد ويقال لذلك فى صدر الإسلام العطاء وغيّر العجم هذه الرسوم . وأصبح من الأرض ما يوغره أصحابه أى يدفعون عنه قدراً من المال مرة واحدة فيعفى من الخراج ، أو يلجئونها ، والإلجاء أن يلجأ صاحب الأرض إلى بعض الكبراء فيسجل ضيعته باسمه تعززا به من عمال الخراج ، حتى لا يجوروا عليه فتصبح الضيعة ملكاً لذاك الكبير . وفى دولة السلاجقة كان يسمى صاحب ديوان الإنشاء أو كاتب السر الطغراوية . والطغراء هى الطرة بالفارسية ، وكذلك الحال فى بعض دول الشرق .

(١) كتاب الروضتين لأبى شامة . (٢) الخطط للمقريزى .

استفتى نور الدين الفقهاء فى أخذ ما يحل له من المال ، فأخذ ما أفتوه بحله ولم يتعده إلى غيره ، وأسقط كل ما يدخل فى شبهة الحرام فما أبقى سوى الجزية والخراج وما يحصل من قسمة الغلات ، وكتب أكثر من منشور بذلك ، وأسقط من دواوينه عن المسافرين الضرائب والمكوس وحرمها على كل متطاول ؛ وأقطع أمراء العرب لئلا يتعرضوا للحاج ، وجدد قنى السبل ووقف الكتب الكثيرة ؛ وأجرى على العلماء والقراء ، وكان لا يأكل ولا يلبس ولا يتصرف فيما يخصه إلا من ملك كان له قد اشتراه من سهمه من الغنيمة ، ومن الأموال المرصدة لمصالح المسلمين . وكان يبعث مما يصل إليه من الهدايا وغيرها إلى القاضى يبيعه ويعمر به المساجد المهجورة ولا يتناول منه شيئاً ، ووقف الوقوف الكثيرة بعشرات الألوف من الدنانير على المدارس والجوامع وعمارة الطرق والجسور ودور المرضى والبائسين والخانات وإقامة الأبراج والقلاع ومكاتب الأيتام .

هذه زبدة ما قاله ابن الأثير فى سيرة نور الدين ومما قال : قد طالعت تواريخ الملوك المتقدمين قبل الإسلام وفيه إلى يومنا هذا — أى فى القرن السادس — فلم أر بعد الخلفاء الراشدين وعمر بن عبد العزيز أحسن سيرة من الملك العادل نور الدين ولا أكثر تحرياً للعدل والإنصاف منه . وكان نور الدين أول من بنى دار العدل بدمشق ثم بنى مثلها فى مصر ، وجلس فيها الملوك منذ عهد صلاح الدين .

أما صلاح الدين فقد سار بسيرة نور الدين ، سامح بمئات الألوف من الدنانير وأعطى عطاء من لا يخاف الفقر ، وأجرى كل سنة مبلغاً لا يقل عن مائتى ألف دينار على أرباب العمائم فى دولته ، وكان يضن كل الضنانة برجاله . أسر قاضيه الهكارى فافتداه بمبلغ جسيم ، وكان يصل كاتبه ووزيره ومشاوره القاضى الفاضل بالألوف ، ويضن على أهله وأولاده . والقاضى الفاضل فى الحروب الصليبية يشبه بدهائه وإخلاصه وعلمه أكبر ساسة الغرب فى عهد

نهضته الأخيرة . وهو الذى منع صلاح الدين عن الحج لما أراده وقال له : إن رفع المظالم من البلاد ، والقعود للإفرنج بالمرصاد ، على حين تقطر السيوف دماً ، أفضل من حجك فأطاعه .

كان صلاح الدين يجلس فى كل يوم اثنين وخميس فى مجلس عام يحضره الفقهاء والقضاة والعلماء ، ويفتح الباب للمتحاكمين حتى يصل إليه كل أحد من كبير أو صغير وعجوز وهرمة وشيخ كبير ، وكان يفعل ذلك سفراً وحضراً ، على أنه كان فى جميع زمانه قابلا لما يعرض عليه من القصص وفى كل يوم يفتح باب العدل ، وكان يجلس مع الكاتب ساعة إما فى الليل وإما فى النهار ويوقع على كل قصة ، ولم يرد قاصداً أبداً ، وما استغاث إليه أحد إلا وقف وسمع قصته وكشف ظلامته . واقتصر فى جباياته على الخراج والعشور على الزراع مما أباحه الشرع ، هكذا فعل فى مصر لما قضى على دولة الفاطميين ، وكانت المكوس فيها فاحشة فأسقطها ، وأنواعها كثيرة جداً فألغاها ، ورجع إلى الزكوات المشروعة والخراج عن الأرض ، وكان قبل الفاطميين أيضاً مكوس وضعها أمراء السوء فأبطلت كلها فى الدولة الصلاحية ، ثم كانت بعض تلك الرسوم والمكوس تعاد إلى سابق حالها ، ومنها الشائن كالمكس على المغنيات والفاحشات ، وتصدر بالبواقى مساميح أيام العقلاء من الملوك فى الدول المختلفة .

هذه بعض سيرة صلاح الدين فى مصر وفى الشام وكذلك كان أخوه أبو بكر بن أيوب سار على طريقته وأبطل كثيراً من المظالم والمكوس ، وطهر بلاده من الفواحش والخمور والقمار بيد أنه حدث فى عهد بعض أولاد صلاح الدين ما أوجب نقد المؤرخين لهم . قال المقريزى[1] : وفى أيام الملك العزيز عدمت فى مصر الأرزاق من جانب الديوان وتعذرت وجوه المال حتى عم المرتزقة الحرمان ، واستبيح ما كان محظوراً من فتح أبواب التأويلات ، وأخذ ما بأيدى الناس بالمصادرات ، وصار الإنفاق فى السماط

(١) السلوك للمقريزى .

السلطانى من هذه الوجوه قال : وضمن العنب يعصر الخمور وحمل من ضمانه شىء إلى العزيز فصنع به آلات الشرب ، ووقف الحال فيما ينفق فى السلطان ، وفيما يصرف إلى عياله وفيما يقتات به أولاده ، وأفضى الأمر إلى أن يؤخذ من الأسواق ما لا يوزن له ثمن وما يغصب من أربابه ، وأفضى هذا إلى غلاء أسعار المأكولات ، فإن المتعيشين أرباب الدكاكين يزيدون فى الأسعار العامة بقدر ما يؤخذ منهم للسلطان ، فاقتضى ذلك النظر فى المكاسب الخبيثة وضمن المزر والخمر باثنى عشر ألف دينار ، وفسح فى إظهاره وبيعه فى القاعات والحوانيت ولم يقدر أحد على إنكار ذلك ، وصار ما يؤخذ من هذا السحت ينفق فى طعام السلطان وما يحتاج إليه ، وصار مال الثغور والحوالى إلى من لا يبالى من أين أخذ المال .

وما كان مثل هذا الإسفاف يقع فى عهد صلاح الدين الذى ملأ بلاده بأعمال الخير فى مصر والشام ، وأغدق هباته على الطُرَّاء والتناء[1] ، وأدر الأرزاق والمشاهرات على المدرسين والدارسين ، وعلى الفقراء والصالحين وعلى الحجاج والمجاورين ، وما كان يطعم إلا المال الحلال ، ولا يجوز غير ما جوزه الشرع من الأموال . قال السيوطى[2] فلقد كان إماماً عادلا وسلطاناً كاملا ، لم يل مصر بعد الصحابة مثله لا قبله ولا بعده ، وقال ابن خلكان[3] : « ولقد فكرت فى نفسى فى أمور هذا الرجل (صلاح الدين) وقلت إنه سعيد فى الدنيا والآخرة ، فإنه فعل فى هذه الدنيا هذه الأفعال المشهورة من الفتوحات الكثيرة وغيرها ورتب هذه الأوقاف العظيمة ، وليس له فيها شى منسوب إليه فى الظاهر » . قال صلاح الدين لأحد خاصته وقد استعداه على جمال : ما عسى أن أصنع لك وللمسلمين قاض يحكم بينهم ، والحق الشرعى مبسوط للخاصة والعامة ، وأوامره ونواهيه ممتثلة ، وإنما أنا عبد الشرع وشحنته ، فالحق يقضى لك أو عليك[4] .

(١) رحلة ابن جبير . (٢) حسن المحاضرة للسيوطى .
(٣) وفيات الأعيان لابن خلكان . (٤) رحلة ابن جبير .

رأى نور الدين وصلاح الدين أن بلادهما كادت تخلو من علماء ممتازين فأخذا يستدعيان العلماء من البلاد الإسلامية الأخرى ، وكلما سمعا بعالم كبير زينا له نزول بلادهما ، وعمرا له المدارس ، وحققا له جميع رغائبه ومطالبه : وهما يريان فى ذلك منة له عليهما ، ولذلك كثر العلماء والشعراء فى عهديهما وكان منهم المجود والفهامة . وكان نور الدين متبحراً فى الشرع وألف كتاباً فى الجهاد ، وصلاح الدين لكثرة ما خالط العلماء وأخذ عنهم كان فى مجالسه وحديثه كأنه من كبار الفقهاء ، يضرب فى كل علم من علوم الدين بالسهم الصائب ، وهو متفرد فى معرفة وقائع الأمم وسير الليالى .

إدارة المماليك

انتظمت دولة المماليك فى بعض أدوار العظماء من ملوكها فى مصر والشام وكان أكثرهم مع الشرع لا يقطع أمراً بغير رأى الفقهاء ، فالظاهر بيبرس أولهم لم يرض أن يأخذ مالا غير المقرر من بلاده ليحارب التتر إلا لما أخذ خطوط العلماء جميعهم . وأراد أن يقرر القطيعة[1] على البساتين بدمشق واحتاط عليها وعلى الأملاك والقرى فنهاه القاضى قائلا هـذا ما يحل[2] ولا يجوز لأحد أن يتحدث فيه وقام مغضباً ، ولما جاء السلطان مصر أحضر العلماء وأخرج فتاوى الحنفية باستحقاقها بحكم أن دمشق فتحها عمر بن الخطاب عنوة ، ثم قال من كان معه كتاب عتيق أجريناه عليه وإلا فنحن فتحنا هذه البلاد بسيوفنا ، ثم قرر عليهم ما أراد وما سامح به وتوسع الظاهر فى كل شىء ، فى البناء والنفقة والجيش . قالوا وكانت العساكر فى الديار المصرية فى أيام غيره عشرة آلاف فارس فضاعفها أربعة أضعاف . وكانت الملوك قبله مقتصدين فى النفقات والعدد وعسكره بالضد من ذلك ؛ وكانت كلف المطبخ الصالحى النجمى ألف رطل لحم بالمصرى كل يوم فضاعفها عشر مرات .

كان جند[3] المماليك مختلطاً من الأتراك والشركس والروم والأكراد

(١) اقطعه قطيعة أى طائفة من أرض الخراج . (٢) فوات الوفيات لصلاح الكتبى .
(٣) خطط المقريزى .

والتركمان وغالبهم من المماليك المبتاعين ، ولا يقل الفرسان منهم فى مصر وحدها عن خمسين ألفاً ، ولهم الاقطاعات الكثيرة والجرايات الدارة . والجيوش على قسمين منهم من هو بحضرة السلطان ، ومنهم من هو فى أقطار المملكة وبلادها وسكان بادية كالعرب والتركمان ، والمماليك طبقتان(١) المماليك السلطانية ، وهم أعظم الأجناد شأناً ومنهم يؤمر الأمراء رتبة بعد رتبة ، وهم فى العدة بحسب ما يؤثره السلطان من الكثرة والقلة ، والطبقة الثانية أجناد الحلقة ، وهم عدد جم وخلق كثير . وأجناد الحلقة هم القائمون أبداً بسلاحهم يشبهون الحامية ، ولكاتب الجيش جريدة بأسماء الأجناد واقطاعاتهم وخيولهم ، ولهم نقباء يعرفون أحوال الأجناد من الحياة والموت والغيبة والحضور .

وفتح أحد ملوكهم باب قبول البدل فى الاقطاعات والوظائف وجعل لذلك ديواناً ، وذلك لأنه كان متطلعاً إلى جمع المال ، والزم ديوان الجيش الفلاحين بالفلاحة فى الاقطاعات ، ومن نزح من دون ثلاث سنين يعاد إلى قريته قهراً فخربت البلاد وكثرت المظالم والمغارم . وكان من ملوكهم من يستكثر لضعفه من الأنصار . ويتسلط على عقول السذج من العربان وأرباب الدعارة ، والمماليك يتفننون فى أخذ أموال الناس وهتك حرمهم ، وحدث بعد الناصر قلاوون بين أجناد الحلقة نزول الواحد منهم عن اقطاعه لآخر بمال أو مقايضة الإقطاعات بغيرها ، فكثر الدخيل فى الأجناد بذلك ، واشترت السوقة والأراذل الإقطاعات حتى صار أكثر أجناد الحلقة أصحاب حرف وصناعات وحربت بهم أرض إقطاعاتهم .

كان الرسم فى دولتى المماليك أن تقبل الأرض بين يدى الملك ، كأن يحاول الملك الذى كان مملوكاً أن يملك الأحرار ، باذلال الكبير والصغير من رعيته . ويرى الباحث فى عهد المماليك ألواناً من الأحكام والقانون وعمرانا من جهة ، وخراباً من أخرى ، وقل أن جاء منهم رجل لم يطلق المال لإقامة

---

(١) صبح الأعشى للقلقشندى .

المصانع والمعاهد فى بلاده ، وإذا رأيناهم من جهة يأخذون من الناس أموالا فى الشدائد ، فقد رأينا منهم ملوكاً يبطلون كثيراً من المكوس والمظالم ينادون فى الجوامع برفعها ، وينقشون المرسوم العالى فى رخام أو على سوارى المساجد ، ويلعنون فيها من يعود إلى تجديدها .

ولقد أصبحت أحكام مجالس المظالم فى دولتهم أحكاماً سياسية ، أى أنها لا تتقيد بالشريعة فقط . فالأحكام عندهم على قسمين حكم الشرع وحكم السياسة ، وحكم الشرع معلوم ، وحكم السياسة القانون الموضوع لرعاية الآداب والمصالح وانتظام الأحوال ، ويرى المقريزى أنها قواعد ورثوها عما سنه جنكيز خان ، وكان هذا لا يدين بدين ويحكم العقل فى دولته ، ففوضوا لقاضى القضاة كل ما يتعلق بالأمور الشرعية ، ورجعوا إلى عادات جنكيز خان والاقتداء بقانونه . فنصبوا الحاجب ليقضى بينهم فيما اختلفوا فيه من عقائدهم ، وجعلوا إليه النظر فى قضايا الدواوين السلطانية ، وكانت من أجل القواعد وأفضلها حتى تحكم القبط فى الأموال وخراج الأرضين ، فشرعوا فى الديوان ما صار لهم به سبيل إلى أكل الأموال بغير حقها .

قال « هذا وستر الحياء يومئذ مسدل ، وظل العدل ضاف ، وجناب الشريعة محترم ، وناموس الحشمة مهيب ، فلا يكاد أحد يزيغ عن الحق ، ولا يخرج عن قضية الحياء ، إن لم يكن له وازع من دين كان له ناه من عقل ، ثم تقلص ظل العدل وسفرت أوجه الفجور ، وكشر الجور عن أنيابه ، وقلت المبالاة ، وذهب الحياء والحشمة من الناس ، حتى فعل من شاء ما يشاء ، وتعددت — منذ عهد المحن التى كانت فى سنة ست وثمانمائة — الحجاب وهتكوا الحرمة وتحكموا بالجور تحكماً خفى فيه نور الهدى وتسلطوا على الناس . . . »

كانت وظيفة الوزارة أجل رتب أرباب الأقلام لأن متوليها تالى السلطان . وقدم المماليك رتبة النيابة على الوزارة . وولى الوزارة أناس من أرباب السيوف وأناس من أرباب الأقلام ، فصار الوزير إذا كان من أرباب الأقلام يطلق عليه اسم الصاحب ، ويقال لوزير الدولة ناظر النظار أو ناظر المال ، وتلى

رتبته رتبة الوزارة ، والوزير ينظر فى المكوس وبعض الدواوين ومصارف المطبخ السلطانى والسواقى ، وإليه يرجع ناظر الدولة وشادّ الدواوين وناظر بيت المال وناظر الأهراء ومستوفى الدولة وناظر الجهات . وموضوع شد الدواوين أن يكون صاحبها رفيقاً للوزير ، متحدثاً فى استخلاص الأموال وأهم جميع هذه الوظائف « النيابة » ويعبر عن صاحبها بالنائب الكافل ، وكافل الممالك الإسلامية ، وصاحبها يحكم فى كل ما يحكم فيه السلطان ويعلّم فى التقاليد والتواقيع والمناشير ، وسائر النواب لا يعلم الرجل منهم إلا على ما يتعلق بخاصة نيابته . والنائب يستخدم الجند من غير مشاورة السلطان ، ويعين أرباب الوظائف الجليلة كالوزارة وكتابة السر ، وهو سلطان مختصر بل هو السلطان الثانى . وهناك وظيفة نائب الغيبة وهو الذى يتولى الأمر إذا غاب السلطان والنائب الكافل . وأحدثوا فى عهد محمد بن قلاوون وظيفة ناظر الخاص ولم تكن تعرف[1] أولا وهى أشبه بناظر الخاصة يتولى خصوصات الملك ويدبر أموره . وفى أيام قلاوون أحدثت وظيفة كتابة السر وكانت هذه الوظيفة قديماً فى ضمن الوزارة ، والوزير هو المتصرف فى الديوان وتحت يده جماعة من الكتاب ، وفيهم رجل كبير يسمى صاحب ديوان الإنشاء وصاحب ديوان الرسائل . وذكر ابن خلدون أن أهل هذه الرتبة العالية أى الوزارة استنكفوا فى دولة الترك بمصر عن اسم الوزارة وصار صاحب الأحكام والنظر فى الجند يسمى عندهم بالنائب وبقى اسم الحاجب على مدلوله واختص اسم الوزير عندهم بالنظر فى الجباية .

والولاة هم أصحاب الشرطة ، وكان والى مصر أو ملكها منذ عهد ابن طولون يجلس للنظر فى المظالم ، وإذا ضعفت قوة الدولة يجرى نقل الولاة والنواب فى الأقاليم بسرعة حتى قال ابن الوردى منكرا هذه الطريقة فى التبديل وناعياً على الدولة أثرها فى إضعاف البلاد .

هذى أمور عظـام ... من بعضها القلب ذائب
ما بال قطر يليه ... فى كل شهرين نائب

(١) فوات الوفيات للكتبى .

كان أرباب الوظائف من الأمراء بعد النيابة والوزارة أمير السلاح والدوادار والحجبة وأمير جاندار والاستادار والمهمندار ونقيب جيوش الولاة . وأمير السلاح(١) هو المتولى أرباب السلاح وحمل سلاح السلطان فى المجامع العامة ، والدوادار مبلغ الرسائل عن السلطان والقصص المقدمة إليه ، وربما أخرج المراسيم السلطانية بغير مشاورة كما يخرج نائب السلطنة ، ورتبة الحجبة قد تكون جليلة فى بعض الأدوار ، وكانت تلى رتبة نيابة السلطنة . ويقال لأكبر الحجبة حاجب الحجاب . وموضوع الحجبة أن متوليها ينصف من الأمراء والجند تارة بنفسه وتارة بمشاورة السلطان وطورا بمشاورة النائب ، وكان إليه تقديم من يعرض ومن يرد وعرض الجند ، فإن لم يكن نائب السلطنة فإنه هو المشار إليه فى الباب ، والقائم مقام النواب فى كثير من الأمور ، ولا يتعدى حكمه النظر فى مخاصمات الأجناد واختلافهم فى أمور الإقطاعات ونحو ذلك . وأمير جاندار يتسلم باب السلطان ويقدم البريد مع الدوادار وكاتب السر . والاستادار إليه أمر البيوت السلطانية والمطابخ والشراب خانات والحاشية والغلمان . والمهمندار هو الذى يتلقى الواردين وأمراء العربان وغيرهم ممن يرد من أهل المملكة وغيرها . يخاطب نقيب الجيوش إذا طلب السلطان أو النائب أو حاجب الحجاب أميرا أو جندياً فيرسل إليه ، ثم انحطت رتبته فصار محصورا فى ترويع الخلق وأخذ أموالهم ، وأصبح من أدوات الشر فى البلاد .

طرأت فى آخر دولتهم تغيرات على نظام الدولة وأوضاعها ، وأصبحت عدة مباشرى(٢) الدولة نيفاً وثلاثمائة مباشر ولها مقدم وتحت يده رسل وأعوان كانت نفقتهم فى أيام برقوق خمسين ألف دينار . وكان معلوم الوزير فى الشهر مائتين وخمسين دينارا حبشية مع أرزاق من مأكول وعلوفة تبلغ نظير المعلوم ، ثم ما دون ذلك من المعلوم لمن عدا الوزير وما دون دونه ، وكان معلوم القضاة والعلماء أكثر من خمسين دينارا فى كل شهر مضافاً إلى ما بأيديهم

(١) صبح الأعشى للقلقشندى والخطط للمقريزى .

(٢) زبدة كشف الممالك للظاهرى .

من المدارس التى يستدرون أوقافها . وبرز المرسوم[1] العالى فى بعض سنين بأن كل من انقطع عن وظيفته من الفقهاء والمدرسين والمؤذنين وأرباب وظائف الدين وغمز عليه يستأهل ما يجرى عليه ، أى أن وظائف الدين كانت فعلية قلما يسوغ أوقافها إلا من يقوم بالفعل بعمله . وأصبحت المدارس والجوامع الموقوف عليها فى أواخر عهدهم متعددة الوجوه وتتألف من ريعها موازنة كبيرة تعتاش بها خلائق ، بل هى قوة من قوى الدولة تستخدمها على الأكثر فيما ينفع الناس ، ويربط بها السلطان أو الأمير العلماء بنفسه حتى لايشاكسوه فيما يراه مصلحة لدولته ، فإذا جسروا على مخالفته عاقبهم بحرمانهم إداراتها .

وكثرت الدواوين آخر دولة المماليك وكان أهمها ديوان الإنشاء ويقال لناظر الإنشاء كاتم السر ، ومن الدواوين ديوان الجيوش وديوان الخزانة الشريفة وديوان المستأجرات والحمايات وديوان الأحباس (الأوقاف) وديوان الأشراف وديوان الذخيرة وديوان المرتجع وديوان الاستيفاء وديوان الزكاة وديوان العمائر ، وله علاقة بالمهندسين وأرباب العمائر ويتكلم صاحبها فى العمائر السلطانية مما يختار السلطان إحداثه وتجديده من القصور والمنازل والأسوار . ولكل ديوان ناظر ومباشرون .

ويطول المقال إذا أحببنا أن نعرض لتراتيب كل قطر من الأقطار الإسلامية على عهد المماليك فقد كان من مصطلح الدولة اليمانية مثلا أن يكون لها نائب ووزير وحاجب وكاتب سر وكاتب جيش وديوان مال ووظائف الشاد والولاية يتشبهون بالديار المصرية فى أكثر أحوالهم[2] . وكتاب الإنشاء لا يجمعهم رئيس يرأسهم يقرأ ما يرد على السلطان ويجاوب عنه ويتلقى المراسم وينفذها ، وإنما السلطان إذا دعت حاجته إلى كتابة كتب بعث إلى كل منهم ما يكتبه فإذا كتب السلطان ما رسم له به بعثه على يد أحد الخصيان فقدمه إليه فيعلّم فيه وينفذه . وصاحب اليمن قليل التصدى لإقامة رسوم المواكب والخدمة

(١) تاريخ أبى الفداء . (٢) صبح الأعشى للقلقشندى .

والاجتماع بولاة الأمور ، ببابه ، فإذا احتاج أحد من أمرائه وجنده إلى مراجعته فى أمر كتب إليه قصة يستأمره فيها فيكتب عليها بخطه ما يراه ، وكذلك إذا رفعت إليه قصص المظالم هو الذى يكتب عليها بخطه بما فيه إنصاف المظلوم . وكان شعار سلطان اليمن وردة حمراء فى أرض بيضاء أو أبيض فيه وردات حمر كثيرة .

وصف ابن فضل الله(١) إمام الزيدية فى اليمن فى زمانه فقال : وهذا الإمام وكل ما كان قبله على طريقة ما عَدَوْها ، وهى إمارة أعرابية لا كبر فى صدورها ولا شمم فى عرانينها ، وهم على مسكة من التقوى وترد بشعار الزهد ، يجلس فى ندىّ قومه كواحد منهم ، ويتحدث فيهم ويحكم بينهم سواء عنده المشروف والشريف والقوى والضعيف ، وربما اشترى سلعته بيده ، ومشى بها فى أسواق بلده ، لا يغلظ الحجاب ولا يكل الأمور إلى الوزراء والحجاب ، يأخذ من بيت المال قدر بلغته من غير توسع ولا تكثر غير مشبع ، هكذا هو وكل من سلف قبله مع عدل شامل وفضل كامل ا هـ . وقال أيضاً فيهم : وأئمتهم لا يحجبون ولا يحتجبون ولا يرون التفخيم والتعظيم ، والإمام كواحد من شيعته فى مأكله ومشربه وملبسه وقيامه وقعوده وركوبه ونزوله وعامة أموره ، ويجلس ويجالس ، ويعود المرضى ويصلى بالناس وعلى الجنائز ويشيع الموتى ويحضر دفن بعضهم . قالوا وهذا الإمام يعتقد فى نفسه ويعتقد أشياعه فيه أنه إمام معصوم مفترض الطاعة .

هذه دولة الزيدية فى الجبال أما دولة اليمن فى تهامة كالدولة الرسولية مثلا فقد وصفها القلقشندى فقال إن أوقات ملوكها مقصورة على لذاتهم ، والخلوة مع حظاياهم وخاصتهم من الندماء والمطربين ، فلا يكاد السلطان يرى ولا يسمع أحد من أهل اليمن خبرا على حقيقته ، وأهل خاصته المقربون الخصيان ، وله أرباب وظائف للوقوف على أموره وهو ينحو فى أموره منحى صاحب مصر بتسمع أخباره ، ويحاول اقتفاء آثاره فى أحواله وأوضاع دولته .

(١) التعريف بالمصطلح الشريف لابن فضل الله العمرى .

إدارة الترك للعثمانيين

لما لم يعهد عثمان الأول مؤسس السلطنة العثمانية بولاية العهد لابنه البكر علاء الدين ، وعهد بها إلى ابنه الثانى أورخان ، تولى الأخ الأكبر أمور الدولة ، وكان أول صدر أعظم فيها ولقب بلقب « باشا » ومن عادة الأتراك أن يطلقوا على بكر الأولاد « أغابك[1] » وأطلقوا على علاء الدين « باش أغا » أى رئيس الأخوة ، وتفرغ[2] هذا الصدر الجديد لوضع أنظمة وقوانين للحكومة ، فكان واضع أساس إدارتها ، فخدم الدولة بأوضاعه خدمة حسنة ، وكان والده[3] كلما استفاضت فتوحاته يقسم البلاد المفتتحه إلى أقضية وألوية ، فيتولى القضاء قاض ويتولى اللواء عامل يدعى أمير اللواء ، ويقسم الأرضين قسمين ، قسما يجعلها أقطاعاً للجند وقسما يسميه الخاص ، يستثمره أبناء الملك والوزراء والأمراء والرجال العظام ، وما بقى من الأرض يدعونه الخاص الملكى يدفع ريعه لخزانة الدولة

وقف الأتراك العثمانيون فى حكومتهم مع حدود الشرع الإسلامى ، واتخذوا قضاة يحكمون بين الناس ؛ وأخذوا يعدلون ما وضعوا من قوانين

---

(١) معنى الأغا بالتركية العظيم أو الآمر أو الرئيس وهو عنوان شرف جعل بأخرة لقباً للرجل الأمى الذى لا يكتب ولا يقرأ ، وخصوا كلمة « أفندى » وهى رومية الأصل بمن يقرأون ويكتبون ويطلقونها على العلماء وأرباب الأقلام ، ومعنى الأفندى الصاحب والمالك والمولى والسيد والمتعلم . ومعنى « بك » العظيم أو الرئيس أو المقدم ، و« بكلر بك » هو رئيس البكوات وهى رتبة ملكية تكون بين رتبة الوزارة ورتبة أمير الأمراء . وأصل لقب « باشا » « باش أغا » أى رئيس الرؤساء تطلق على أرباب الأقلام والسيف فى مراتب معينة فى القوانين الجندية والملكية ولما أصلحت الأمور العسكرية والملكية والعلمية فى زمن أورخان ومن خلفه من السلاطين أحدثت بعض رتب خاصه بالمناصب لا يتجاوز عددها الأربعة ولا يتجاوز أربابها السبعين أو الثمانين . وكانت رتبة الوزارة توجه إلى الصدر الأعظم وعلى صاحب الخاتم وناظر المالية ، وكان لقب « صاحب السعادة » « سعادتلو » خاصا بالسلطان إلى عهد سليمان القانونى ويخاطب الصدور العظام رجال الدولة بلقب « صاحب العزة » « عزتلو » ولا تمنح الرتب إلا مقابل خدمة . . . وفى سنة ١٢٤٨ هـ . أدخل بعض التغيير فى الرتب والألقاب ثم كثرت الرتب والأوسمة حتى أصبحت أشبه بالهزل على عهد عبد الحميد الثانى وألغى الدستور هذه السخافات .

(٢) قاموس الأعلام لشمس الدين سامى . (٣) عثمانلى تاريخى . أحمد راسم .

الإدارة بحسب الزمن . ولما كان السلطان مصدر كل تقنين كسائر الحكومات الإسلامية السالفة ، كان الوزير يعرض رأيه على الملك فإما أن يقبله وإما أن ينفيه .

وكان للسلطان وزير واحد فى أول الأمر ، ثم صار للدولة رئيس وزراء ثم وزيران وثلاثة وأربعة وخمسة . والصدر أو رئيس الوزراء هو نائب السلطان ينظر فى أمور الدولة ، وهناك طبقات « الأغوات » وهم قواد الجيوش . ومدار الدولة على أقطاب أربعة : الصدر الأعظم وقاضى العسكر « والدفتردار » أى صاحب السجل وهو وزير المال « والنشانجى » أى رئيس الرماة وهو وزير الحربية . ويجتمع وزراء السلطنة فى الديوان السلطانى تحت قبة لهم ولذلك دعوا بوزراء القبة . والصدر الأعظم ينظر فى المصالح فى داره ويطلقون عليه « باب الباشا » أو « باب الوزير » ثم أطلق عليه « الباب العالى » وبعد زمن أخذوا يطلقون اسم « الباب العالى » على مجموعة دواوين الدولة أو الوزارات . وفى عهد الفاتح أنشأوا يطلقون على المتصرف اسم « بك اللواء » وعلى الوالى « بك البكوات » « بكلر بكى » وأصبح أهل الزعامة والمقاطعات تحت إدارة المتصرفين والولاة . وقسم الروم إيلى على عهد الفاتح إلى ٣٦ لواء والأناضول مثله[1] وكانت واردات الدولة مئة وعشرين مليون دوكا ذهبا . قال ابن بطوطة[2] وقد زار آسيا الصغرى على عهد أورخان . إن هذا السلطان أكبر ملوك التركمان وأكثرهم مالا وبلاداً وعسكراً وله من الحصون ما يقارب مئة حصن وهو فى أكثر أوقاته لايزال يطوف عليها ويقيم بكل حصن منها أياماً لإصلاح شئونه وتفقد حاله ويقال إنه لم يقم شهراً كاملا ببلد ويقاتل الكفار ويحاصرهم .

---

(١) الأناضول « محرفة عن أناطولى » وكان الروم يطلقونها على شبه جزيرة « آسيا الصغرى » ومعنى الأناطولى بلسانهم البلاد الشرقية لأن آسيا الصغرى تقع إلى شرقى بلادهم . و « روم إيلى » كلمة أطلقها العثمانيون على القسم الذى فتحوه فى أوربا من الممالك وكانت حدود الروم إيلى تختلف بتقدم الفتوح وتراجعها ، وأغلب الجغرافيين على أن الروم هى ما يعرف اليوم بشبه جزيرة البلقان .

(٢) تحفة النظار لابن بطوطة .

عاشت إمارة بنى عثمان إلى مابعد أورخان ثانى ملوكها فى حالة أشبه بالبداوة، لا يأوى سادتها إلى غير المضارب والخيام[١]، ولما فتح ثالث ملوكهم مدينة أدرنة ونقل إليها عاصمته من بروسا، أى انتقل من آسيا إلى أوربا ظلت الأخلاق البدوية مستحكمة فى أخلاق الأتراك، وتكاد تكون أوضاع حكومتهم على حالة ابتدائية، وكان رابعهم يبلديرم بايزيد يجلس بكرة النهار[٢] فى براح متسع، ويقف الناس على البعد منه وهو يراهم، فينظر فى ظلاماتهم، ويقضى بينهم فيما هم فيه مختلفون فى الحال، وما كان يمكن أحداً من التعرض لمال أحد من الرعية حياً ولا ميتاً، وإن مات ولا وارث له يودع ماله عند القاضى، وكل من غزا معه لا يعرض لشىء مما يحصل بيده. وكان الأمن فاشياً فى بلاده حتى ليمر الرجل بالحمل مطروحاً بالبضاعة فلايتعرض له أحد، وينام الناس[٣] مفتحة أبوابهم لايسطو عليهم لص، ولايريد أحد بأحد سوءا. قال المقريزى «وكان يشترط على كل من يخدم بايزيد أن لا يكذب ولايخون، ولكنه يصنع من الشهوات ما أراد، وكان الزنا واللواط وشرب الخمر والحشيش فاشيا فى بلادهم يتظاهرون به» وفى أيام بايزيد وضع الخراج على الأرضين والعقارات.

كان جيش السلطان العثمانى مؤلفاً من مماليك يشبه جند مصر والشام على عهد دولتى المماليك البرجية والبحرية. فأبدع قرة خليل جندارلى[٤] وزير السلطان أورخان تاليف جيش الانكشارية وسنت للدولة نظام اللقطاء «دوشرمة» القاضى بأن يؤخذ بعض أولاد النصارى ويعنى بتربيتهم وتهذيبهم تهذيباً إسلامياً، حتى إذا بلغوا سن التجنيد يرسلون إلى الثكنات العسكرية فى العاصمة. فكان تأليف هذا الجيش وضعاً حديثاً عظم به سلطان الدولة العثمانية، وبه تهيأت فتوحها. وذلك لأن الجيش الانكشارى كان جيشاً مدرباً تحت الطلب، ليس

---

(١) صبح الأعشى للقلقشندى. (٢) الخطط للمقريزى.
(٣) قاموس الأعلام لشمس الدين سامى. (٤) خطط الشام للمؤلف م ٤.

لدولة من الدول جيش مثله . وكان عدده بادئ بدء ستة آلاف وقيل ألف جندى ثم كثر فبلغ مائة ألف وهو يقسم إلى كتائب ، ويدرب أفراده فى الولايات على الكر والفر ، ويعيشون عيش الجند والغزاة ، ويستخدم بعضهم فى خدمة الولاة ، أو فى مزارع أرباب الاقطاعات ، وفى حوانيت أرباب الصناعات . ويعيش الفرد منهم بمياومات ضئيلة وهى « أقجة[1] » واحدة فى اليوم ، تزاد لمن ثبتت كفاءته فى الحرب ، وتصرف لهم مرة فى كل ثلاثة أشهر بأبهة وطنطنة . وتوزع الاقطاعات على المبرزين من ضباطهم وقوادهم يعيشون بها زمن السلم . وإذا أعلنت الحرب يجهزون أنفسهم على نفقتهم الخاصة . وأغلب الانكشارية فى الولايات فرسان وفى العاصمة مشاة . وبلغ هذا الجيش أوج ارتقائه على عهد سليمان القانونى ، وكان من سياسته أن يشغله أبداً بالحرب لتعذر إطلاق رزقه[2] وعطائه أيام السلم باطراد . وما زال جيش الانكشارية نافعاً فى الفتوح حتى دخل فيه على عهد مراد الثالث الرقاصون والمصارعون . وقيل إنه فسد بدخول المسلمين واليهود والنور (الغجر) فأنشأوا يعصون أوامر قوادهم ويعيشون بالنهب والسرقة .

كانت واردات السلطنة تجبى من الجزية والخراج والأملاك السلطانية ودخل الجمارك والملاحات وأموال الغنائم ، أو التكاليف الشرعية والتكاليف العرفية وهى كثيرة جداً ، والأتاوات أو خراج المماليك نصف المستقلة . ووضع محمد[3] الثانى أساس النظام المالى وتعاوره التنظيم والإصلاح على عهد سليم الأول وسليمان الأول وأحمد الأول ، فكانت حالة المالية حسنة فى الجملة وقد وصفها أحد قناصل البندقية فى الاستانة سنة ١٥٧٣ م فقال : إن لوزارة المالية نظاماً منظماً فى الحسبانات ، تضع فى آخر كل سنة ميزاناً للنفقات

(١) الأقجة نقد صغير تساوى كل ثلاث قطع منه بارة وكل أربعين بارة قرشاً كان أول من ابتدعه بايزيد الأول (٧٩٢ هـ) . (٢) معلمة الإسلام . مادة سليمان القانونى .

(٣) باكورة تاريخية وفنية فى الديون العمومية لأديب الرومانى .

A. Rsumani : Essai historique et technique sur la dettè publique ottomane.

والارتفاقات ، وبعد قرن من الزمن قال سياسى آخر : إن النظام فى وضع المالية قد حسن وضعه وصنعه فى تركيا ، من حيث سجلاته وانتظامه حتى لتجد فيه كل دولة ما تتعلمه ، وذلك بقطع النظر عن شىء من سوء الاستعمال يتسرب إليه . وكانت سلطة الدفتردار فوق سلطة الوزير الأعظم فقد يرد ما أمر به هذا إن كان أمره غير قانونى . وفى مبتدأ النصف الأول من القرن الثامن عشر بدأ تغير عظيم فى إدارة المالية وذلك بدخول طريقة الإقطاعات فبطلت « المركزية » وقسمت إدارة المال إلى قسمين الأناضول والروم إيلى ، وأصبحت كل دائرة تدير شئون إدارتها على ما تريد ، فانقسمت الأغراض وتجزأت السلطة المالية ، وأخذ الانكشارية يدبرون أعظم مناصب المالية ويتولون الولايات ، ويحولون الجزء المهم من أموال الدولة إلى ضامنهم . وكثر العجز فى موازنة الدولة أوائل القرن التاسع عشر . ويروى أن مجلس الوزراء كان مرة منعقداً فى إصلاح المالية فقال الصدر لوزير المالية إن إصلاح مالية الدولة العثمانية لا يتم إلا بإلقاء نفط على وزارتكم العالية لتحرق بموظفيها وسجلاتها وبناياتها ، وبالطبع يكون حضرة وزير المالية خارجها ، ثم نعود فنبدأ بوضع جديد فى المالية ، وهذا كان فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر .

قلنا إن التكاليف العرفية كانت كثيرة جداً وقد أتى زمن بلغت فيه سبعاً وتسعين ضريبة ورسما ، حتى إن سليم الأول لما فتح الشام وضع مكوساً على الأحكام الشرعية فتعطلت الحدود ، وضرب على المواخير والحانات والمومسات[1] رسوماً يخجل من ذكرها . وصادر تجار حلب وسمى ما أخذه منهم مال الأمان . والأنكى أنه ما كان يحمل إلى خزانة الدولة إلا بعض هذه المغارم ، والقسم الآخر يستسيغه الظلمة من العمال . وقد يضيق السلطان فيطالب الرعية بعوارض سنتين أو ثلاث مقدماً . والمصادرات والغرامات والأتاوات على الغرباء وخمس الغنائم هى جماع أموال السلطان . وجاء يوم والسلطان العثمانى أغنى ملك فى عصره ، على ما كان أقوى ملك بجيشه وجنده ، وقدر دخله السنوى

(١) أعيان المئة العاشرة لنجم الغزى (مخطوط) .

باثنى عشر مليون دوكا[١] ، وكان دخل شارلكان أعظم ملوك الغرب لذاك العهد ستة ملايين دوكا . وبعد المئة العاشرة من الهجرة أصبح من الموارد المهمة للدولة ما يصادر من أموال الوزراء والأمراء وغيرهم .

وقلت الموارد من الغنائم فى العصور الأخيرة وكثرت الحروب . ولما نضب ما فى خزائن الدولة وجيوب الرعايا حاولت الدولة منذ سنة ١٨٠٨ م أن تقترض مالا من أوربا ، وفاوضت الماليين والسياسيين فلم توفق إلى تحقيق أمنيتها إلا فى حرب القرم أى فى سنة ١٨٥٤ م ، وقد أدخلت الدولة فى عداد الدول الأوروبية ، فأخذت تقترض بالفائدة الفاحشة . ولما أعلنت الدولة إفلاسها بعجزها عن تأدية النجوم المستحقة من رأس المال ورباه ، ترك أرباب الديوان لها خمسة وثمانين مليون ليرة عثمانية . وسرعان ما نسيت الدولة معرة إفلاسها فعادت إلى ما كانت عليه من الإسراف ، وعلى ملوكها تحمل أكبر تبعة ؛ وكان عبد الحميد الثانى يمزج حاجاته الخاصة باحتياجات المملكة ويبالغ فى الإنفاق ؛ إلا أنه يحاول أن لا يستدين من الغرب ما أمكن .

والواقع أن الإسراف بعد محمد الفاتح أصبح محسوساً فى جميع الطبقات التركية ، واستلزمت الحياة الجديدة التى دخل الأتراك فى طورها إنفاقاً وبذخاً . وكثر التشبه بالكبراء وأرباب النعم والرفاهية . فبدأت الرشوة تفشو حتى أصبحت مما لا يكاد ينكر على من يأخذها فى العصور المقبلة ، يُسفّ إليها الصدور العظام كما يتناولها أصغر موظف فى الدولة . وكثرت المصادرات لأقل سبب ، فأنشأ من يملكون النقدين الذهب والفضة يدفنون فى بطون الأرض ومخابئ الأبنية ما يخشون عليه المصادرة ويخفون أمره حتى عن عيالهم . وقلما كان يظهر أحد بمظهر نعمة وسعة إلا وتختلق الأسباب لمصادرته ، سواء أكان تاجراً أم مزارعاً ، وكان أكثر ما يصاب بالمصادرات الأروام واليهود لاشتغالهم بالصرافة والربا ، أما مصادرة الوزراء وغيرهم فكانت العلاج الوحيد لهم ، إن كان ينجع فى الفاسد علاج . فقد صودر أحد أغوات البنات

(١) الدوكا : نقد ذهبى أسبانى قيمته نحو عشرة إلى اثنى عشرة فرنكاً ذهبياً .

« قبزلر أغاسى » فى سراى عثمان الثانى على مليونين ونصف مليون ليرة عثمانية وخلف « جنجى خوجه » خمسين مليون قرش ذهباً ، كان جمعها فى خمس سنين من الرشاوى والهدايا والانعامات . وأمثال هذين الرجلين عشرات فى كل دور من أدوار السلطنة العثمانية « فأشبه الأتراك[1] الرومان فى الإكثار من المصادرات ، وكان الرومان يقتلون الناس لهذا الغرض وكثر القتل فى بعض أدوارهم ففقدت الثروة فى رومية ، وكذلك فعل رجل الدولة العثمانية قديماً ، كانوا يهلكون الناس ليصادروهم ، وكان ذلك من الدواعى إلى الاستكثار من الوقوف والأحباس لتخوف الكبراء على ثروتهم . وربما عد ذلك من العوامل فى فقر البلاد العثمانية » .

يقول جودت[2] إن أسلاف السلاطين العثمانيين العظام كانوا يخرجون مع عساكرهم زمن الحرب إلى أكثر الغزوات ، فإذا عادوا إلى مقر السلطنة لا يمكثون فيه مدة طويلة ، فينصبون أحد الوزراء قائم مقام على الاستانة ويحيلون وظيفة ضبط البلدة إلى ناظر « الضبطية » وهو أغا الانكشارية الثانى ، ثم ينقلبون مع رجال الدولة والعلماء والوزراء ومستشارى السلطنة وبطانتها إلى أرجاء أدرنه وينيشهر يتجولون فيها ، ويقضون أوقاتهم تارة فى الصيد والقنص ، وهما من التمارين الحربية ، ويتوفرون آونة على معاناة الأعمال العسكرية كرمى الأهداف بالرصاص والسهام . فكان أركان السلطنة وسائر أعمالها بمثابة قوة سيارة خفيفة المؤونة فى أيام السلم ، يشبهون القبائل الرحالة لا أرب لهم فى الرفاهية ودواعيها ، والرفاهية تستدعى النفقات الطائلة ، فلذلك كانت إدراراتهم تزيد على نفقاتهم .

قال : ومما يروى أن أحمد باشا صهر رستم باشا تقلد منصب الوزير الرابع فى حرب سكتوار ثم أسندت إليه الصدارة العظمى ، ولما تقلد الوزارة أول مرة لم يكن يملك من ألبسة الأبهة غير فروتين يتجمل بإحداهما فى الديوان ويلبس الثانية فى بيته ، مع أنه كان يملك خمسمائة مملوك بالعدة الكاملة . وكان جماع

---

(١) مقدرات تاريخية حلاك دورى . (٢) تاريخ جودت .

الوزراء على هذا المنوال ، وفى ضياع كل واحد منهم مائة قطار من البغال ومائة من الجمال . فإذا سار أحدهم إلى وجه يستغنى عن شراء حمل أو حصان، وتتيسر له أسباب الرحلة فى ثلاثة أيام ، ثم انتقلت الدولة من البداوة إلى الحضارة ، وأصبح الملوك يقيمون فى دار الخلافة حتى اطمأنوا إلى الراحة ، واقتدى بهم فى هذا الشأن رجال الدولة ، فعمروا القصور الشامخة والمبانى العظيمة فى الآستانة ، وجملوها بأنواع الزينة والزخارف والأثاث الثمين ، فسرى داء التقليد إلى العامة ، وزادت نفقات أرباب المناصب والعمال زيادة فاحشة عن مشاهراتهم ، فاضطروا إلى تناول الرشوة ، وغدا أرباب الإقطاعات والزعامات يلزّمون أرضهم بأجور باهظة ، ويتقاضى الملتزمون الفقراء من الناس ما لا طاقة لهم بتحمله من المظالم والمغارم ، ليتأثلوا ما يسد نهمتهم وتربح به تجارتهم ، مما أهاب بمعظم الأهلين إلى الهجرة من أوطانهم، وارتحل الرعايا وأهل الذمة منهم إلى الديار الأجنبية ، ونزل كثير من الناس عاصمة الملك واستوطنوها وتكاثروا فيها حتى غصت بهم وضاقت على اتساعها ، وكثر انتشار الحريق ، وفسد الهواء بكثرة الزحام وانتشرت الأمراض والعلل الوافدة ، وعزت المؤن والغلات ، فأكرت الحكومة على ابتياعها واشتط الباعة فى أسعارها ، فكان ذلك داعياً إلى خراب البلاد اهـ .

ومهما قيل فى وضع أنظمة الدولة فى فجر حياتها فإن قوانينها كانت على حالة ابتدائية ساذجة مستوحاة من حياة أشبه ببدوية ساذجة ، وهذه القوانين كثرت بعد ذلك ثم تعقدت بطول الزمن ، وضع محمد الفاتح قانوناً للروم لما قضى على آخر سلاطينهم فى القسطنطينية رأوا فيه[1] فرقاً كبيراً بين ما كانوا يعاملون به ، وما أحسن به معاملتهم ، فارتاحوا من مشاكلهم واختلافاتهم القديمة ، وغض أخلافه من السلاطين الطرف عن بطريرك الروم ، فكان مما خوله من الحقوق أشبه بحكومة وسط حكومة ، وظل وجماعته ممتعين بخير حال نحو خمسمائة سنة ، وهم مستقلون بالفعل ولايتقاضاهم

(١) التاريخ العام للافيس و . مبو .

استقلالهم جنداً[١] ولا مالا . كل هذا أصابهم من فضل الفاتح وتسامحه وتسامح أبنائه وأحفاده ، وفى عهده بدأت الجبايات والمكوس والجمارك تعطى بصورة تلزيم مقابل مبلغ معين ، كان الالتزام لسنة واحدة أولا ثم صار الالتزام مدى الحياة ، يستأجر المسلمون الأرض وغيرها ، والنصارى تحت أيديهم يعملون فيربحون ثمراتها .

لما فتح العثمانيون بلاد العرب وألقوا بمقاليد إدارتها إلى أيدى المتغلبين من أهلها مقابل إتاوة تؤدى كل عام فى دار الملك ، تركوا الإدارة فى مصر والشام للمماليك أو المتغلبة من أمراء البر ، فنهجوا بها النهج الذى نهجته الدولة قبلهم : تقطع الدولة الأقاليم الواسعة بمال تستوفيه كل سنة من المتغلبين وأرباب العصبيات ، أو تضع الولايات فى المزاد فيقلدها من رسا عليهم ضمان الولاية ، وتعهد بمال أكثر من غيره ، واكتفت الدولة بإرسال وال إلى الشام وآخر إلى مصر لمدة سنة على الأكثر ، ولا يتولى ولاية مصر أهم ولايات السلطنة[٢] إلا « باشاوات » يؤدون إلى رجال الدولة إتاوة كبيرة من المال تختلف بين أربعمائة إلى خمسمائة ألف ريال ؛ وتتجدد ولايته سنة أخرى بإرسال هدايا إلى العاصمة تربى على مائة ألف ريال مشفوعة بالخراج السنوى وقدره ستمائة ألف ريال ، وهدايا من السكر والبن والأرز والشراب والحلواء والغلال مما لا تقل قيمته عن ستمائة ألف ريال ، وهذا عدا نفقات قافلة الحج المصرى ونفقات الجنود فى مصر . وفى مقابل هذه النفقات يتصرف الوالى فى الدخل ، ويحصل منه كل سنة بعد وفاء نفقات الجند أكثر من عشرين مليون فرنك ، وإليه تؤول تركات المتوفين بلا عقب ، ويكثر دخله من هذه الناحية إذا وقع وباء فى البلاد ، قال ماييه[٣] : وقد يبلغ دخل الوالى فى يوم واحد من أيام الوباء من مائتى ألف إلى ثلثمائة ألف ريال ، لهلاك من يمتلكون القرى ؛ ذلك لأن قوانين الحكومة تقضى برجوع ملكية المزارع إلى الخليفة بعد وفاة

---

(١) معلمة الإسلام . محمد الثانى .

(٢) تاريخ الحركة القومية للرافعى .

(٣) مالية مصر لعمر طوسون .

أصحابها ، وفى تقرير لأحد قناصل البندقية أن منصب الوالى عند العثمانيين كان يكلف فى الاستانة من ٨٠ إلى ١٠٠ ألف دوكا ومنصب الدفتر دار يباع من ٤٠ إلى ١٥٠ ألف دوكا ، ومنصب القاضى يساوى أقل من هذه القيمة .

كانت إدارة الحكومة المدنية والمالية فى مصر بيد المماليك ، وإليهم توزيع الأعطيات والأرزاق على الجنود، فأصبح هؤلاء تبعاً لهم بحكم الروابط المدنية ، ثم صار رؤساء « الوجاقات »[1] وأغلب ضباطها من المماليك فانحصرت السلطة العسكرية والمدنية فى أيديهم ، واتصل ضباط الوجاقات وأفرادها بالمماليك بأواصر المصاهرة ولحمة القربى ، فأصبحوا من حزبهم وأهلهم وعشيرتهم وأتباعهم ، بعد أن كانوا مستعدين لحربهم وإخضاعهم ، فاضمحلت سلطة الولاة العثمانيين ، وعظم نفوذ البكوات المماليك واسترجعوا على الزمن سلطة الحكم التى كانت للسلاطين البحرية والشراكسة ، والأمة فى ذلك طعمة للملتزمين والغاشمين من الموظفين ، فانصرفت عن الزراعة وتعطلت الأعمال ، وهبطت قيمة الأرض فقلت الجباية ، وخولت طريقة التلزيم للملتزمين سلطة على الفلاحين ، يفرضون على أملاكهم ما شاءوا وشاءت أهواؤهم من الضرائب والإتاوات ، والملتزم حر بنقل الفلاح ونزع يده عن الأرض . ونظام الالتزام يشبه نظام الإقطاعات التى رزحت أوربا تحته قروناً ، وكانت أموال الرعايا وأعراضهم وأرواحهم مباحة لصاحب المقاطعة ، وإذا زاد نفوذه ينزع إلى الثروة ، فيبدأ بمنع الخراج عن الدولة وتضطر إلى إرسال حملة عليه ، ويبقى السكان بين نارين ، نار الثائر ونار القائمين بكبح جماحه . وكم من فتنة أوقدها العمال ليشغلوا الناس والدولة ، وتبقى لهم الحكومة يستمتعون بها مدة مديدة .

والقاعدة فى إدارة العثمانيين أن يكذب الوالى على من نصبه على الأكثر ويكذب على من يحتفون به ، ويلقى التفرقة بين أرباب النفوذ والمتغلبين ، وبين أبناء العناصر والأديان ، ويتفنن فى طلب المال لتسديد حسابه مع

(١) تاريخ الحركة القومية للرافعى . (٢) طبقات العسكر .

الاستانة . ولا يتولى الولاية إلا من تروق الاستانة شروطه من بين من دخل من الطالبين لها فى سوق المزايدة ، ويسارع إلى تبديل العمال حتى يتم لرجال العاصمة ما يطمعون فيه من المال ، ومن يوقن أنه مهدد كل حين بالعزل ، وعليه إتاوة يجب عليه دفعها وهدايا ورشاوى لا بد من تقديمها ، لا يتوفر فى الغالب على غير نهب الرعية وسرقة أموال الدولة . يقول جودت[1] فى حوادث سنة ١٢٠٠ هـ « إن ظيفة جابى المـال فى حلب كانت منذ أربعين سنة مطمح أنظار الموظفين فى الدولة ، لأنها تعود عليهم بثروات طائلة ، إذا حملوها إلى الآستانة ينالون بها رتبة الوزارة ورتبة ميرمران . جرى ذلك لأحمد باشا (الجزار) فأخذ العلم والطوخ[2] واشتهر شهرة عظيمة . وما برحت هذه الوظيفة تباع وتشترى بالمزاد . وكثيراً ما كانت الدولة ترسل مفتشين يشاركون فى المغنم هؤلاء المرتشين من الجباة[3] » .

وأعظم سبب فى شيوع الرشوة أن الموظفين والعمال يعفون على الغالب من العقوبات مهما أجرموا ، لا يعاقبون بأكثر من أن ينتقلوا من ولاية إلى أخرى فيمثلون فى الثانية ما مثلوه فى الأولى ، وما قامت ثورة أهلية فى السلطنة إلا كان العمال السبب فيها . ومن تكتب له حظوة عند الناس من العمال لحصافته وشرف نفسه قد يكون من المبعدين ، وتختار الدولة المتوسطين فى إدارتهم ومعلوماتهم على الأكثر أو من يتباهلون وينافقون ، وتحاذر وزراءها فى دار الملك فتقصيهم إلى الولايات عند أقل شبهة ، أو لمجرد شهوة السلطان أو لوشاية

(١) تاريخ جودت .

(٢) الطوخ ذنب الحصان يعلق من أسفله فى رأس عصا طولها نحو ثلاثة أذرع وشعره مسدول عليها ، تعطى الدولة واليها ثلاثة أطواخ إذا ارتحل ، فيرسل الطوخ الواحد قبل سفره بيوم إلى محل نزوله ، ليستعد الناس لاستقباله ، ويهيأ له ما يلزمه من المآكل والعلف والدواب بلا ثمن ، أما الطوخان الباقيان فيحملان أمام الوزير فى السفر »

(٣) كاتب هذا القول كان من وزراء عبد الحميد الثانى الذين تطوعوا لتنفيذ إرادته بالحق والباطل وهو من أعظم المرتشين اللصوص على نحو ما كان عشرات مثله فى العصر الحميدى ومنهم من جمع ملايين من الجنيهات العثمانية الذهبية فى سنين قليلة .

الواشين وتصادرهم وتعذبهم . ومن يعرفون أن مصيرهم إلى مثل هذه الحال لا يتذممون من شقاء الناس ولا يرحمونهم ، ويتناسون أن الحكم أمانة فى عنق صاحب الشرف .

ومن القواعد التى لا تتخلف كثيراً فى دار الملك أن كل رجل تحدث له بعض قوة ، وتنطوى نفسه على شىء من حب المغامرة ، يستجيش له أناسا من الغوغاء ، ويؤلف له حزباً يستغويه بالوعود الخلابة ، فلا يلبث أن يستولى على الأمر ، ويشرد سلفه أو يقتله وبعض كبار حاشيته ؛ تشتد شكيمة القوى مدة فيحكم ويتبسط سلطانه ، حتى يقوم أقوى منه فيسقطه ويتبوأ مكانه ، ويخرب ما عمله سلفه من أعمال ، وينهج غير نهجه فى الإدارة ، ولا شأن له غير ابتزاز الأموال وإسكات الناس عن الخوض فى أمور الدولة ومن جرؤ على أمر بمعروف ونهى عن منكر يشرد ويضطهد ، ويتهم بعظائم ما دارت له فى خلد ، وقد تكون دعوته لإزالة شر أو لبث فكرة يكون من أثرها إصلاح سلطانهم ، فيتهمونه بالجنون أو المروق من الدين أو بدعوى النبوة أو الألوهية أو أنه يدعو إلى أن يكون النساء مشتركات بين الناس ، ويحلل ما حرم الله إلى غير ذلك من الأكاذيب ، ليصرفوا أذهان العامة والخاصة عن حقيقته ، حتى لا يأسف الخلق عليه ، ولا ينصروه إن أمكنهم نصره .

قالوا إن سليمان القانونى أصلح إدارة المملكة ووضع قواعد لإدارة الدولة فى داخليتها ، وكان[1] أجداده وضعوا أساس هذه الأصول فكملت فى عهده ، ووضع قوانين لتنظيم إقطاعات الجند وملكية الأرضين ونظام الشرطة وقانون العقوبات ، وقوانين للانتفاع من العناصر غير المسلمة فى الدولة كقانون اللقطاء وبه أصبحت الوظائف السامية فى الدولة تسند إلى من دانوا بالإسلام حديثاً ، وفى أيامه نبغ محمد الصوقللى وخير الدين بربروس والعالم ابن كمال والمهندس سنان وأن كل واحد منهم عمل فى محيطه الخاص ، ولكنهم لم يوحدوا جهودهم

(١) معلمة الإسلام : مادة سليمان .

وما وجهوها إلى هدف واحد . قالوا هذا وما نخال أنه ظهر أثر محسوس فى الولايات العربية بإصلاحه . وكأن من حكموا هذه الأحكام خدعتهم قوانين جميلة سطرت على الورق فقط .

تقدم معنا أن جيش الانكشارية بدأ انحطاطه من عهد مراد الثالث وقد رأيناه فى عهده الأخير أعظم عابث فى الولايات بحياة الرعية ، يقتل بعضه بعضاً ويقتتل مع الطبقات العسكرية التى أنشئت بعد مثل السكبان والقبوقولى والدالاتية . وكم من فتنة حدثت بين هذه الطبقات من الحاميات . وكان معظم ضرره أيام السلم يتناول أبناء الأمة ويسلب قراها ويبتز أموالها ويسطو على النساء والولدان فزاد بجبروته فى شقاء البلاد . ويضاف إلى ذلك أن معظم الموظفين والضباط لا يقبضون رواتبهم كل شهر ، وإذا قبضوها لا تقوم بحاجتهم ، فيرجعون أبداً على جيوب ضعاف السكان يسددون منها العجز ، وليس للدولة موازنة ثابتة تعرف بها دخلها من خرجها ، إن جاءتها أموال ومغانم فى بعض السنين أسرفت فيها ، فإذا أحست الضائقة تمسك عن دفع مشاهرات عمالها والإنفاق على جندها فينهالون على الخلق ، ويكاد يكون معظم أموال الجباية خاصاً بحاشية السلطان وقصره يحمل منها إلى خزانته ما يحب ويهوى .

شعر كثير من المنورين فى دار الملك بسوء حال الدولة ، وأيقنوا أنها إذا لم تصلح إدارتها يتداعى هذا الملك العظيم ، وكان معظم من يهتمون لذلك من طبقات العمال والموظفين وما برحوا يقلدون ويعملون حتى نشرت الدولة فى سنة (١٢٥٥ هـ ١٨٣٩ م) خط « كلخانة » فى الإصلاحات . حمل السلطان عليها رجال الدولة وقيل جاءهم الإيعاز بها من بعض الدول الحريصة على بقائها ، وهذا الخط عبارة عن إعلان[1] من السلطان يذكر فيه أنه وطد العزم على إنقاذ أعراض عامة رعاياه وأموالهم ، وأن يبطل تلزيم الجباية ، وأن يكون التجنيد فى الجيش على طريقة منظمة ، وأن يحاكم المجرمون جهرة فى محاكم

(١) معلمة الإسلام : مادة تنظيمات .

معينة ، وأن يكون جميع الرعية « أهل الإسلام والملل الأخرى » . أحراراً أمام القانون ، من غير استثناء ، وقد ورد في أوله أن سبب نجاح الدولة العثمانية في القديم هو رعايتها أحكام القرآن ، وجاء في آخره أنه يراد من هذا القانون القضاء على العادات القديمة .

نشأت صعوبات جمة من تطبيق القانون الجديد المنقول عن القوانين الفرنسية ، والمقصود منه أولا إرضاء الدول الأوربية التي اشتد تدخلها في خصوصيات السلطنة بحق وبلا حق . ذلك لأن قانون أمة وهو زبدة تاريخها ومحيطها وعاداتها ومصطلحاتها ، يصعب تطبيقه على أمة أخرى ليس لها مثل نزعاتها ومدنيتها ، ورب قانون لأمة راقية يتعذر إنفاذه في أمة منحطة ويضر في كيانها أكثر مما ينفعه ، وخاصة إذا كانت منوعة الشعوب والمدنيات واللغات والأجواء كالعثمانيين . فلقد حاذر غير المسلمين مساواتهم في هذا القانون الجديد لئلا يفقدوا جانبا مما كانوا يتمتعون به من الحقوق منذ عهد الفاتح ، ومنها إعفاؤهم من الخدمة العسكرية ، وإمتاع كنائسهم بحق الاشتراع لطوائفهم ، وإطلاق حريتهم في تنظيم شئونهم الملية ، فكثر الاعتراض من كل جانب . وكان النصارى بعد عهد الاصلاحات يتمتعون بكل ما فيها من مرافق ويبعدون عما فيها من متاعب لأن الدول عاونتهم على مطالبهم وقالت للدولة أنت وشأنك مع المسلمين . قال ريشاروود : « أما اعتراض المعترض بأن المساواة بين الطوائف غير كاملة ما دام النصارى لم يشتركوا في الجندية العثمانية فجوابنا عنه أن الذنب في ذلك على النصارى أنفسهم لا على الباب العالي ، إذ النصارى مع حرصهم على نيل كل الحقوق لم يقبلوا أن يدخلوا تحت ما يقابلها من الواجبات » .

كان للأجانب من قانون الامتيازات الأجنبية أعظم وسيلة لتدخل وكلاء الدول في أمور الدولة بحجة النظر في حقوق رعاياهم ، وقد دعا إلى تمتع الغرباء في بلاد السلطنة العثمانية بهذه الامتيازات اعتياد الحكومات[1] الإسلامية منذ

---

(١) نظام القضاء والإدارة لأحمد قمحة .

القديم التساهل مع النصارى فى بلادها ، فأجازت لها عدم اتباع الأحكام المرعية ، وتركتهم يتقاضون فى أحوال مخصوصة بحسب قواعد دينهم والمعمول به من قوانينهم ، فأصبحت هذه العادة قانوناً نافذاً مع الزمن ، وبكثرة الاختلاط وتمكن العلائق أضحى هذا التسامح حقاً لهم لا يحتمل النزاع ، ومن هذه الامتيازات ما بنى على معاهدة كمعاهدة صلاح الدين مع جمهورية بيزا (٥٦٩ — ١١٧٢) وبها منحت عدة امتيازات خاصة بالتقاضى ، ومعاهدة قايتباى (١٤٨٨ م) مع الفلورنتيين الطليان . وقد جاء فيها أنه إذا حدث خلاف بين الفلورنتية أنفسهم فليس لقضاة المسلمين وحكامهم أن ينظروا فى مسائلهم ، والحكم فى ذلك لقنصل الفلورنتيين ، يحكم فى هذه الحالة بما يناسب القوانين الفلورنتية . وجرى التوسع فى العمل بهذه المعاهدات ، حتى عمت جميع رعايا الدول النصرانية ثم أهمل العمل بها مدة . فلما جاءت الدولة العثمانية عقدت معاهدة تجارية بين سليمان الأول وفرنسوا الأول ملك فرنسا فى سنة ١٥٣٥ لضمان أرواح الفرنسيس وتجارتهم وكان البنادقة عقدوا مثل هـــذه المعاهدة فأصبحت لهم امتيازات وحقوق مكتسبة . وعقدت معاهدة بين محمود الأول ولويس الخامس عشر ملك فرنسا فى سنة ١٧٤٠ م وبها غدت فرنسا صاحبة الشأن الأول فى حماية رعاياها وجميع من يلتجئون إليها من الأجانب . وجرت الدول على سياسة فرنسا فى عقد مثل هذه المعاهدات ولا سيما روسيا . وأخذت الامتيازات تزداد شيئاً فشيئاً بمساعى الدول من جهة ، وبإهمال الحكومات الشرقية من جهة أخرى ، وبإقرارها بعض عادات كانت خارجة عن نصوص المعاهدات .

وعلى هذا عاق قانون الامتيازات الأجنبية تطبيق الاصلاحات التى أزمع رجال الدولة القيام بها ، لمكان الغرباء ممتعين بامتيازات دون غيرهم ، ولأن النصارى من أهل البلاد يريدون أن لا يسرى عليهم من أحكام القانون الجديد إلا ما يروقهم ويتفق وراحتهم . وهذا مما ينافى وجهة نظر الاصلاح المطلوب

منه حصر كل سلطة بالدولة[1] . ونتجت من قانون « التنظيمات الخيرية » أعظم المشاكل المعقدة ، فأنشأت الدول تتدخل فى أمور السلطنة ومن جملتهن المقام البابوى فى رومية ، يريد إمتاع المدارس الكاثوليكية ورهبانها بامتيازات تحميهم وتهيئ لهم أسباب التبشير بدينه .

كان من الإصلاحات التى قام بها الوزير رشيد بعد سنة ١٢٥٥ ﻫ ، وضع أصول جديدة لإدارة الولايات على قاعدة المركزية . ثم توسعت بعد حين وجرى تعديلها والعمل بها إلى آخر أيام السلطنة . وأنشئت القوانين العدلية (الحقانية) ومنها قانون التجارة ، وأسست المحاكم ومنها المحاكم المختلطة ، للاختلال المشهود فى المحاكم الأهلية ، ونقل قانون الجزاء إلى التركية ، ووضعت مجلة الأحكام العدلية مأخوذة من كتب المذهب الحنفى مذهب الدولة ، ثم أنشئت وزارة المعارف والجامعة (١٨٤٥) ثم المدارس المنوعة المقاصد فى دار الملك ، ولم تثمر هذه الاصلاحات إلا فى أواخر القرن التاسع عشر وجنى من ثمرتها الأتراك أكثر من العنصر العربى .

وبهذه القوانين والاصلاحات وإن لم تنفذ كلها دخلت السلطنة فى عداد الأمم الممدينة ، وزاد توغل الأجانب فى البلاد وإشرافهم على سير الحكومة فيها ، وتيسر لهم نيل امتيازات لشركات من رعاياهم استولت على اقتصاديات البلاد وطرق مواصلاتها . وأنشأوا يبشرون فيها بالنصرانية ويحببون إلى المتعلمين لغاتهم فزاد بذلك التباين بين المسلمين وغيرهم ، وكثر بعض العناصر غير المسلمة للعناصر المسلمة ، وكان من هذا التعليم بلاء على الأرمن خاصة ، وكان الروم والبلغار والصرب والرومان باكروا الاستقلال فى ولاياتهم ، وكان تعليم أفراد منهم من العوامل المفيدة فى تحقيق أمانيهم القومية . ومهما قيل فى الداعى لتسلل أصابع الدول الغربية إلى المسائل العثمانية وفى اشتطاطها عليها فى الأحايين ، فإنه مما لا جدال فيه أن الإدارة العثمانية كانت فى معظم أدوارها مختلة على ما اعترف بذلك علماء الاجتماع والتاريخ والسياسة من الترك أنفسهم ، وظهر فى القرن الماضى الفرق بين إدارة بلاد الغرب وإدارة

---

(١) معلمة الإسلام . تنظيمات .

العثمانيين ، وكانت مساحة بلاد الدولة لا تقل عن نصف أوربا بعد القرنين السادس عشر والسابع عشر ، وتجلى البون الشاسع بين أمة جامدة أو مجموعة شعوب جامدة مشتتة أهواؤهم ، لاوازع يضم شملهم ، وبين أمم متوحدة بتحرك وتتكلم وتعاود نُظُمها بالحذف والإثبات ، وتسير مع العقل فى إقامة بنيان ممالكها .

كان منشأ كل وهن دخل فى جسم السلطنة وعبث بكيان سكانها من تبلبل الإدارة فى ولاياتها ، وكانت البلاد ولا سيما مصر والشام فى عهد المماليك البحرية والبرجية أرقى مما صارت إليه فى عهد العثمانيين ، لأن البلاد كانت مجموعة الشمل فى الجملة ، وكان التركى يعيش ببقايا مدنيات الدول السالفة فأكل من ثمراتها حتى نفدت ، وهلك لما أتى على الأخضر واليابس ، وما حدثته نفسه أن يحدث غرساً ، ولا أن يطرح زواناً وعوسجاً . والدولة ما فكرت فى غير الاحتفاظ بحقوق سيادتها ، وما خطر لها أن تحنو على رعاياها فتعطيهم بعض ما تأخذه منهم ، وبدخول الأتراك العثمانيين فى بلاد العرب نامت هذه نومة غير هادئة ، واستشرى فيها الفساد وكثرت المغارم ، واشتط سلطان المتغلبين وعبث البادية ، فزادت مساحة القفار من البلاد زيادة فاحشة ، وخلت القرى من سكانها ، وهام مئات الألوف على وجوههم فى أقطار الأرض ، يطلبون الرزق ويفرون من الظلم . وكانت الدولة إذا غضبت على أحد أرباب المقاطعات ترسل عليه حملة يكون أول عمل لها فى التأديب قطع أشجار المقاطعة وتخريب بيوت سكانها ، فزادت البلاد بهذا التدبير للتدمير خراباً فوق خرابها . فقد كان مثلا فى أعمال حلب ثلاثة آلاف ومائتا قرية تدفع الخراج قبل استيلاء العثمانيين فنزل عددها إلى أربعمائة فى عهدهم . وكان فى غوطة دمشق[1] أواخر عهد المماليك ثلثمائة وخمسون قرية لا تزال أكثر دمنها ظاهرة وبعض أسمائها متعارفة ، ولما غادر الترك البلاد كان فى الغوطة نحو ستين قرية فقط وهكذا يقال فى عامة الأقطار .

---

(١) زبدة كشف الممالك للظاهرى .

أدرك عظماء السلطنة عاقبة هذه الأمراض على الدولة ، وكانوا يزعمون كلما تذرعوا بالإصلاح أن الصدمات تأتيهم من الداخل والخارج ، والحقيقة أنهم كانوا عاجزين عجزاً مطلقاً ، وكسالى لا يحبون التعب . عرف رجال الدولة فى العهد الأخير أمثال رشيد وعالى وفؤاد ومدحت وكامل وسعيد مواطن الداء ولكنهم ما وفقوا قط إلى وصف الدواء الناجع . وكان الوزير رشيد كثيراً ما يردد قوله إن المملكة العثمانية إما أن تصلح نفسها وإما أن تنقرض . وكيف لا نقول بعجزها ، والقضاء كان كالسلع يوضع فى السوق ، فمن دفع الثمن الأعلى تولاه ، ولو كان فيه جميع العيوب الشرعية . أسسوا منذ سنة ١٢٧٢ هـ فى العاصمة مدرسة للنواب أى القضاة ولكنهم ظلوا إلى آخر أيامهم يوسدون القضاء إلى الأميين والساقطين ، وكيف يقيم العدل بين الناس من دفع ثمن قضائه ، والقضاء إلى عهد قريب كان مرجع كل شىء .

والظاهر أن العقلاء من رجال العثمانيين فى كل عصر أمثال جاندارلى وأوره نوس وميخال أوغلى ثم صوقوللى وكوپرلى ونظرائهم حتى الذين أدركناهم من الوزراء ، كان همهم الأعظم موجهاً فى الأعم الأغلب إلى سياسة الدولة ودفع صائل الغربى عنها أيام الضعف ، والتوسع فى فتح بلاد جديدة أيام القوة ، وقلما كانوا يهتمون بتطهير المملكة من أهل الفساد ، ولا ينفذون من ناموس الإدارة ما يخففون به فقر البلاد وبؤسها ، فتركوا الأهلين يعماون ما شاءوا إذا أدوا ما عليهم لخزانتها . وليس من شك أن مصر والشام وسائر بلاد العرب كانت فى الفتح العثمانى قد ضعفت تجارتها لاستئثار البرتغاليين بتجارة الهند[1] فأصبحت هذه البلاد بمعزل عن حركة الأسواق وقل سكانها ، وكان فتح سليم الأول نافعاً لها كما قالت معلمة الإسلام من الوجهتين الدينية والسياسية ، لأنه أنشأ دولة سنية قوية أمام دولة الفرس الشيعية ، فتراجع التشيع أمام التسنن ، ونحن نقول إن البلاد شاركت فى حظ مملكة لا تبطل

---

(١) معلمة الإسلام سليم الأول .

حروبها وفتنها ، وولاتها لا يعرفون ما يصلحها فتراجعت تراجعها ، وانحلت أوضاعها علاوة على ما كانت مُنيت به من الانحلال .

مثال من عجز الدولة وأن نسبة الإخفاق إلى معاكسات الأجانب غير صحيحة دائماً ، إنها كانت إذا أعلنت حرباً أو أرادت إطفاء فتنة داخلية ، يموت من جندها ورعاياها بالأمراض والإهمال أكثر ممن يموت بالسيف والنار ، وذلك لأنها كانت ترسل ابن البلاد الباردة إلى البلاد الحارة والعكس بالعكس فيهلك الخلائق بالألوف ، يهلكون بقلة التدبير والبصيرة . والمملكة لا طرق لها ، وليس للجند مآكل مغذية كافية ولا ألبسة دافئة ، ولا شيء من أسباب الصحة مما تحفظ به حياة الآدميين . شوهد ذلك فى معظم أدوار السلطنة ، وما استطاع قائد ولا صدر ولا وال أن يدخل الإصلاح المطلوب على هذا الخلل الممكن تلافيه ، وأنت ترى أنه يحتاج إلى عقل يميز ويقدر ، وأيد تحب أن تعمل أكثر من احتياجه إلى المال . وندر جداً من عمال السلطنة من كان ينظر لمصلحتها الحقيقية ، كما عز من لم يكن هدفه من عمله غير جمع المال يعمر به على الأقل قصراً فى أرباض العاصمة ، ويترك لأسرته ثروة .

كان الفلاحون إذا ضاقت بهم الحال فى قريتهم ، واشتط عليهم المتغلبون وأرباب المقاطعات ، يهجرونها إلى قرية بعيدة فى إقليم آخر ، ففقد الاستقرار ، وقد تتعطل الزراعات سنة وربما سنين ، ولا يداوى أرباب القرى ما يقعون فيه إلا باستعمال السياط وضبط الفرش والماعون ، وأحياناً ضبط النساء والأولاد . وجاء زمان والفلاحون ينزلون برضاهم عن أرضهم إلى الكبراء ، لأنهم لا يستغلون منها ما يفى بالضرائب الموضوعة عليها . بل أتى دهر وأرباب النفوذ إذا غضبوا على إنسان يأتون بشاهدين يشهدان عليه أنه عبدهم فيسترقونه . وجاء زمن وأعراب البادية يتقاضون حتى من المدن «خوة» أو مالا سنوياً ، ولهم على كل قرية مبلغ أو إتاوة سنوية وإلا رعوا الزروع وقطعوا الأشجار وخربوا المساكن وقتلوا الأنفس .

أما ظلم الولاة فهو القاعدة المطردة فى الغالب ، ومنهم من كانوا يقتلون المارة يتصيدونهم فى الطرق ، كما كان يتصيد الانكشارية الأبرياء من الناس ليجربوا بنادقهم . وقد وقع لوالى حلب أنه كان يغتال كل يوم فى الشوارع بضعة رجال من أبناء السبيل ، ولما سئل عن الداعى إلى القتل قال : إنه يجب إلقاء الرهبة فى النفوس ، ويريد بعمله أن يجعل للحكومة هيبة ووقاراً ! وظلم الملوك قد يصل إلى أبلغ من هذا ، فقد قتل السلطان سليم أهل الرملة رملة فلسطين بأجمعهم ، وأصدر ابنه سليمان أمره بقتل أهل حلب عن آخرهم . فحال الصدر الأعظم دون إنفاذ هذه الإرادة الخرقاء ، واكتفوا بقتل من غضب عليهم السلطان . وعجيب مع هذه الإدارة الحمقاء أن يبقى إنسان فى الأرض العثمانية يزرع ويصنع ويتجر .

أما مصر قبل أن يستقل بها محمد على فكانت حالتها الإدارية مختلة ، ومن أحب أن يتعرف حقيقتها كما هى ، فعنده قدر كاف فى تاريخ الجبرتى[٢] يرى فيه صورة بشعة من بلاد هى على الدوام عرضة لفرق الصناجق والأغوات والبلوكات وجميع الوجاقات ، والفتن بين الفقارية والقاسمية يقتل فيها الناس وتحرق دورهم وتصادر أموالهم حتى أصبح دم الإنسان كفاء دم كلب أو هر. وعمت « الرشا والتحيل على مصادرة بعض الأغنياء فى أموالهم » « حتى صارت سنة مقررة وطريقة مسلوكة ليست منكرة ، وكذلك المصالحة على تركات الأغنياء التى لها وارث » ويقبضون « على كثير من مساتير الناس والتجار والمتسببين » يحبسونهم ويصادرونهم ويسلبون ما بأيديهم ، وتتواتر المصادرات والمظالم من الأمراء ، وانتشار أتباعهم فى النواحى لجبي الأموال من القرى والبلدان وإحداث أنواع المظالم ويسمونها مال الجهات ودفع المظالم والفردة حتى أهلكوا الفلاحين وضاق ذرعهم واشتد كربهم « وطفشوا » من بلادهم فحولوا الطلب على الملتزمين ، وبعثوا لهم المعينين إلى بيوتهم ، فاحتاج مساتير الناس لبيع أمتعتهم ودورهم ومواشيهم بسبب ذلك ؛ مع ما هم فيه من

(١) زبدة كشف الممالك للظاهرى . (٢) عجائب الآثار فى التراجم والأخبار .

المصادرات الخارجة عن ذلك،وتتبع من يشم فيه رائحة الغنى ، فيؤخذ ويحبس ويكلف أضعاف ما يقدر عليه ، وتوالى طلب السلف من تجار البن والبهار مع المكوسات المستقبلة ولما تحقق التجار عدم الرد عوضوا خساراتهم من زيادة الأسعار ، ثم مدوا أيديهم إلى المواريث ، فإذا مات الميت أحاطوا بموجوده سواء كان له وارث أولا ، وصار بيت المال من جملة المناصب التى يتولاها شرار الناس بجملة من المال يقوم بدفعه كل شهر ، ولا يعارض فيما يفعل فى الجزئيات ، وأما الكليات فيختص بها الأمير ، فحل بالناس ما لا يوصف من أنواع البلاء إلا من تداركه الله برحمته واختلس شيئاً من حقه فإن اشتهروا عليه عوقب على استخراجه ، وفسدت النيات ، وتغيرت القلوب ، ونفرت الطباع ، وكثر الحسد والحقد فى الناس بعضهم لبعض ، فيتتبع الشخص عورة أخيه ، ويدلى بها إلى الظالم ، حتى خرب الإقليم ، وانقطعت الطرق ، وعربدت أولاد الحرام ، وفقد الأمن ، ومنعت السبل إلا بالخفارة ، وركوب الغرر ، وجلت الفلاحون من بلادهم من الشر والظلم ، وانتشروا فى المدينة بنسائهم وأولادهم يصيحون من الجوع ، ويأكلون ما يتساقط فى الطرقات من قشور البطيخ وغيره فلا يجد الزبال شيئاً يكنسه من ذلك .

قال هذا الجبرتى فى حوادث سنة ثمان وتسعين ومائة وألف وختمه بقوله: « وضاع الناس بين صلحهم وغبنهم ، وخروج طائفة ورجوع الأخرى ، ومن خرج إلى جهة قبض أموالها وغلالها ، وإذا سئل المستقر فى شىء تعلل بما ذكر ، ومحصل هذه الأفاعيل بحسب الظن الغالب ، إنها حيل على سلب الأموال والبلاد » . وقال فى حوادث سنة سبع ومائتين وألف : « استهل المحرم بيوم الخميس والأمر فى شدة من الغلاء وتتابع المظالم وخراب البلاد وشتات أهلها وانتشارهم بالمدينة حتى ملأوا الأسواق والأزقة رجالا ونساء وأطفالا يبكون ويصيحون ليلا ونهاراً من الجوع ويموت من الناس فى كل يوم جملة كثيرة من الجوع » . وقال فى حوادث سنة تسع ومائتين وألف :

لم يقع بها شيء من الحوادث الخارجية سوى حور الأمراء وتتابع مصالحهم واتخذ مراد بك أمير الانكشارية الجيزة سكناً وراد فى عمارته واستولى على غالب بلاد الجيزة ، بعضها بالثمن القليل ، وبعضها غصباً ، وبعضها معاوضة » .
وقال فى حوادث سنة عشر ومائتين وألف : « لم يقع بها شيء من الحوادث التى يعتنى بتقييدها سوى مثل ما تقدم من جور الأمراء والمظالم » . وكانت الفتن بين الإنكشارية فى الريف والعاصمة متصلة وقد تستولى طائفة على الوجه البحرى وأخرى على الوجه القبلى فتتحاربان وينضم الهوارة والعربان إلى أحد الفريقين والناس بينهما فى أمر مريج : « من الظلم والفجور والفسق بأهل الريف والعسف بهم وتكليفهم الكلف الشاقة » .

وإذا شئت الوقوف على حالة القضاء فاقرأ الصفحة التالية من تاريخ الجبرتى بالنص الذى كتبه فى ماجريات سنة ١٢٣١ هـ . قال : « حصلت جمعية ببيت البكرى وحضر المشايخ وخلافهم وذلك بأمر باطنى من صاحب الدولة (محمد على) وتذاكروا ما يفعله قاضى العسكر من الجور والطمع فى أخذ أموال الناس والمحاصيل ، وذلك أن القضاة الذين يأتون من باب السلطنة كانت لهم عوائد وقوانين قديمة لا يتعدونها فى أيام الأمراء المصريين ، فلما استولت هؤلاء الأروام (الترك) على الممالك ، والقاضى منهم ، فحش أمرهم وزاد طمعهم ، وابتدعوا بدعاً وابتكروا حيلا لسلب أموال الناس والأيتام والأرامل ، وكلما ورد قاض ورأى ما ابتكره الذى كان قبله أحدث هو الآخر أشياء يمتاز بها عن سلفه ، حتى فحش الأمر وتعدى ذلك لقضايا أكابر الدولة وكتخدا بك بل الباشا ، وصارت ذريعة وأمراً محتماً ، لا يحتشمون منه ولا يراعون خليلا ولا كبيراً ولا جليلا . وكان المعتاد القديم أنه إذا ورد القاضى فى أول السنة التوتية التزم بالقسمة بين المميزين من رجال المحكمة بقدر معلوم يقوم بدفعه للقاضى ، وكذلك تقرير الوظائف كانت بالفراغ أو المحلول وله شهريات على باقى المحاكم الخارجة كالصالحية وباب سعادة والخرق وباب الشعرية وباب زويلة وباب الفتوح وصليون وقناطر السباع وبولاق ومصر

القديمة ونحو ذلك ، وله عوائد وإطلاقات وغلال من الميرى ، وليس له غير ذلك إلا معلوم الإمضاء ، وهو خمسة أنصاف فضة ، فإذا احتاج الناس فى قضاياهم ومواريثهم أحضروا شاهدا من المحكمة القريبة منهم ، فيقضى فيها بما يقضيه ويعطونه أجرته ، وهو يكتب التوثيق أو حجة المبايعة أو التوريث . ويجمع العدة من الأوراق فى كل جمعة أو شهر ، ثم يمضيها من القاضى ، ويدفع له معلوم القضاء لا غير ، وأما القضايا لمثل العلماء والأمراء فبالمسامحة والإكرام . وكان القضاة يخشون صولة الفقهاء ، وقت كونهم يصدعون بالحق ولا يداهنون فيه ، فلما تغيرت الأحوال وتحكمت الأتراك وقضاتها ، ابتدعوا بدعاً شتى ، منها إبطال نواب المحاكم ، وإبطال القضاة الثلاثة بخلاف مذهب الحنفى ، وأن تكون جميع الدعاوى بين يديه ويدى نائبه ، وبعد الانفصال يأمرهم بالذهاب إلى كتخداه لدفع المحصول ، فيطلب منه المقادير الخارجة عن المعقول ، وذلك خلاف الرشوات الخفية ، والمصالحات السرية ، وأصناف التقرير والقسمة لنفسه ، ولا يلتزم بها أحد من الشهود كما كان فى السابق ، وإذا دعى بعض الشهود لكتابة توثيق أو مبايعة أو تركة فلا يذهب إلا بعد أن يأذن له القاضى ويصحبه « بجوقة دار » ليباشر القضية وله نصيب أيضاً . . وزاد طمع هؤلاء « الجخدارية » حتى لا يرضون بالقليل كما كانوا فى أول الأمر ، وتخلف منهم أشخاص بمصر عن مخدوميهم ، وصاروا عند المتولى لما انفتح لهم هذا الباب . وإذا ضبط تركة من التركات وبلغت مقدارا ، أخرجوا للقاضى العشر من ذلك ومعلوم الكاتب والجوخدار والرسول ثم التجهيز والتكفين والمصرف والديوان ، وما بقى بعد ذلك يقسم بين الورثة ، فيتفق أن الوارث واليتيم لا يبقى له شىء ويأخذ من أرباب الديون عشر ديونهم أيضاً ، ويأخذ من محاليل وظائف التقارير معلوم سنتين أو ثلاث ، وقد كان يصالح عليهم بأدنى شىء وإلا إكراماً . وابتدع بعضهم الفحص عن وظائف القبانية والموازين وطلب تقاريرهم القديمة ، ومن أين تلقوها ، وتعلل عليهم بعدم صلاحية المقرر ، وفيها من هو باسم النساء ولسن

أهلا لذلك ، وجمع من هذا النوع مقدارا عظيما من المال ، ثم محاسبات نظار الأوقاف ، والعزل والتولية فيهم والمصالحات على ذلك ، وقرر على نصارى الأقباط والأروام قدرا عظيما فى كل سنة بحجة المحاسبة على الديور والكنائس ، ومما هو زائد الشناعة أيضاً أنه إذا ادعى مبطل على إنسان دعوى لا أصل لها بأن قال ادّعى عليه بكذا وكذا من المال وغيره كتب المقيد ذلك القول ، حقاً كان أو باطلا ، معقولا أو غير معقول ، ثم يظهر بطلان الدعوى أو صحة بعضها ، فيطالب الخصم بمحصول القدر الذى ادعاه المدعى ، أو سطره الكاتب ، يدفعه المدعى عليه للقاضى على دور النصف الواحد ، أو يحبس حتى يوفيه ، وذلك خلاف ما يؤخذ من الخصم الآخر . وحصل نظيرها لبعض من هو ملتجئ لكتخدا بك فحبس على المحصول ، فأرسل الكتخدا يترجى فى إطلاقه والمصالحة عن بعضه فأبى ، فعند ذلك حنق الكتخدا وأرسل من أعوانه من استخرجه من الحبس . ومن الزيادات فى نغمة الطنبور كتابة الاعلامات ، وهو أنه إذا حضر عند القاضى دعوى بقاصد من عند الكتخدا أو الباشا يرجع به مع القاصد تقييدا أو إثباتاً ، فعند ذلك لا يكتب له ذلك الإعلام إلا بما عسى لا يرضيه ، إلا أن يسلخ من جلده طاقاً أو طاقين ، وقد حكمت عليه الصورة وتابع الباشا أو الكتخدا ملازم له يستعجله ، ويساعد كتخدا القاضى عليه ، ويسليه على ذلك الظفر والنصرة على الخصم ، مع أن الفرنسيين الذين كانوا لا يتدينون بدين لما قلدوا الشيخ أحمد العريشى القضاء بين المسلمين بالمحكمة حدّدوا له حدا فى أخذ المحاصيل لا يتعداه ، بأن يأخذ على المائة اثنين فقط ، له منها جزء وللكاتب جزء . فلما زاد الحال وتعدى إلى أهل الدولة رتبوا هذه الجمعية ، فلما تكاملوا بمجلس بيت البكرى ، كتبوا عرض محضر ، ذكروا فيه بعض هذه الأحداث والتمسوا من ولى الأمر رفعها ورجوا من المراحم أن يجرى القاضى ويسلك فى الناس طريقاً من إحدى الطرق الثلاث : إما الطريقة التى كان عليها القضاة فى زمن الأمراء المصريين ، وإما الطريقة التى كانت فى زمن الفرنسيين ، أو الطريقة التى كانت أيام مجىء

الوزير ، وهى الأقرب والأوفق . وقد اخترناها ورضيناها بالنسبة لما هم عليه الآن من الجور . وتمموا العرض محضراً ، وأطلعوا عليه الباشا ، فأرسله إلى القاضى ، فامتثل الأمر ، وسجل بالسجل على مضض منه ، ولم تسعه المخالفة . اهـ »

ونحن إذا اضطررنا إلى ذكر هذه الحوادث فلكى ندل بها على تلك الإدارة . ولا تفهم سوء حالتها إلا بما تحيف البلاد من شرور القائمين عليها . وإذا ذكرنا الأشخاص فلنستدل على أعمالهم ، فقد ذكر التاريخ أن الوزير سنانا فاتح اليمن وتونس ووالى الشام ومصر وقد تولى الصدارة غير مرة خلف ثروة أقل ما يقال فيها إنها مجموعة ثروة قسم عظيم من الولايات العربية[1] إذا وجد بعضها فى أحد متاحف الغرب عدّ غنياً بما فى تركته من غرائب .

---

(١) ورد فى كتاب (الباشات والقضاة لمقار) ما يأتى :

إن تركة الوزير سنان كان فيها مائة وستون مصحفاً مرصعاً بالدر والجواهر وثلاثون طستاً وإبريقاً من الذهب مرصعة بالدر والياقوت وخمسة صناديق زبرجد عليها خمسة أقفال من الذهب مرصعاً بالجوهر وفى داخل كل صندوق منها مائتا مثقال من الإكسير كل مثقال منها على ألف قنطار من الحديد يستحيل ذهباً خالصاً وشطرنج بيادقة البيض ماس وبيادقة السود لعل ومائتا مرآة مرصعة بالدر والياقوت ، واثنان وثلاثون زوجاً من الركابات ذهباً مرصعة بالدر والياقوت ، وستون « رختاً » من الذهب مرصعة بالجوهر ومثلها سلاسل ذهبية ، وأربعمائة رخت فضة مطلية بالذهب ، ومائة وستون رشمة ذهب وأربعمائة رشمة فضة ومائة وستون سرجاً مرصعاً بالدر والياقوت ومائة وستون عباءة مكللة باللؤلؤ الرطب ، ومائة وستون سكيناً ذهباً مرصعات بالدر واليواقيت ، وثلثمائة وأربعون تاجاً مرصعة بالجواهر ، ومائتان وستون « حمايليا » مرصعة بالدر والجواهر ، ومائة وستون خنجراً ذهباً مرصعة بالماس ، ومائتان وثلاثون زناراً من الجوهر ، ومائتان وستون « بازوند » مرصعة بالجواهر ، وخمسة وثلاثون صندوق كتب مرصعة باليواقيت والمعدن ، وسفرة صحون وثلاث صوان من ذهب وجميعها مرصعة ، وعشر طاسات بأغطية وتحتها صوانيها ، وعشر مباخر وعشرة قماقم ذهب مرصعة بالدر والجوهر ، وخمسة وستون خاتماً من الماس ، ومائة وأربعة وأربعون خاتماً من الياقوت الأحمر ، ومائتا خاتم من لعل ، ومثلها من الياقوت الأصفر والأزرق والزمرد الخالص ، وسبعون وسادة كل واحدة بمائتى دينار ، ومائتان وستون وسادة مرصعة بالجواهر ، وستون قفلا ومفتاحاً مرصعات بقطع ماس فى كل قفل منها نحو ألف دينار ، وقبضة ماس مقدار كف الإنسان لا نظير لها ، وأربعة شماعدين من ذهب وتحتها سفرها مرصعة بالجواهر قوموها بمائة ألف دينار ، ومائة وخمسون خلعة صر اصر كل واحده منها تساوى مائة دينار ، وسبعون خلعة مرصعة بالجواهر قيمة كل واحدة ألف دينار ، وثلاث صور عجاب قيمتها ثلاثة آلاف دينار ، وثلثمائة فروة سمور قيمة كل واحدة منها خمسائة دينار ، وأربعمائة فروة وشق قيمة كل واحدة ثلثمائة دينار وأربعمائة —

وهذا الفاتح هو الذى أمر بقتل أمراء اليمن ومشايخها وكانوا جاءوه من بعيد للسلام عليه ، فغرس الأحقاد فى صدور اليمانيين على الترك قروناً . وهكذا يقال فى أحمد الجزار والى الشام وعكا فإنه لم يبق على ثروة ولم يعف عن إنسان . ولو شئنا أن نعدد أمثالها لما ضن التاريخ العثمانى علينا بمئات سودوا صحيفته . وأكثرهم يقف الوقوف على الجوامع والمدارس فقد قيل إن سنانا قام بأعمال خيرية قُدّر المنفق عليها بمليونى جنيه ذهب بسكة زماننا منها جامع بدمشق ، والجزار عمر جامعاً بديعاً فى عكا .

قال ريشاروود(1) : كان الولاة لعجزهم وضعف قوتهم يضطرون إلى الاتفاق مع أعيان البلد على تنفيذ أغراضهم ويشاركونهم فى دسائسهم وجرائمهم وسرقاتهم ، ولم يكن بين موظفى الحكومة أحد يحق له أن يكاتب الحكومة المركزية إلا هؤلاء الولاة ، وبديهى أنهم لا ينبئون الباب العالى بحقيقة الحالة الإدارية ولذلك كانت الحكومة المركزية تجهل أحوال الولايات كل الجهل . وقال إنه سادت المحاكم حالات رديئة مثل استماع شهادة الزور وتناول الرشوة وعمت الفوضى كل مصالح الحكومة حتى صارت واردات الدولة مأكلا للمختلسين .

— فروة ناقة وغيرها قومت كل واحدة بسبعين ديناراً ، وثمانية أباريق كبيرة من نحاس أصفر فى جوف كل إبريق منها مائة ألف دينار ، وستة وسبعون كيساً فى كل كيس ثلاثة آلاف دينار وثلاثة وثلاثون كيساً فى كل كيس منها اثنا عشر ألف دينار وثلاثمائة شمامة من العنبر إلى غير ذلك من الأمتعة والعود الخالص المختوم وثمانية آلاف جمل وألف بغل وتسعمائة فرس وحصان لركوبه خاصة بسرج حرير وما عدا الصينى والنحاس والبندق الجوهر والدروع والقامات والسناجق المذهبة وعدة « الشكار » مع طاساتها الذهب وأشياء كثيرة لا يمكن حصرها .

وأمثال سنان كثير ممن جمعوا الأموال من دماء الأمة ومنهم الوزير رستم الذى ولى الصدارة خمس عشرة مرة وكان من وزراء سليمان القانونى قال فيه مؤرخو الترك إنه زاد فى أموال الدولة وما قصر أن يقتنى أيضاً فكان يملك ٨١٥ مزرعة و ٤٧٦ طاحوناً و ١٧٠٠ مملوك ، و ٢٩٠٠ حصان و ١١٠٦ جمال ومن الحلى والجواهر ما لا يقدر بمال وبعضه مما قدر بأحد عشر مليوناً وربع مليون دوكاً ذهب ومن النقد مليونى دوكاً ذهب عدا ما صرفه على الأعمال الخيرية من جوامع ومدارس عمرها فى ف وق وروسجق وحماة .

(1) الإسلام والإصلاح تقرير لريشاروود .

وما كانت إدارة بقية بلاد العرب بأحسن مما كانت فى الشام ومصر ولا أكثرها من القوانين والتراتيب الإدارية . فالحجاز يحكمه أشراف مكة مع وال للدولة يتقاسمان المغانم فيئن الناس من الظلم ، واليمن تتنازعها سلطتان سلطة بنى عثمان فى تهامة وسلطة أئمة الزيدية فى الجبال ، والأتراك أبداً هناك فى حالة حرب واحتلال موقت . والدولة تنفى إلى اليمن كما تنفى إلى طرابلس الغرب من تغضب عليهم ، وبالنظر لبعدها ما كان يرضى بالتوظف فيها إلا من ضاقت سبل الأعمال أمامه . فكان اليمانيون من هاتين الطبقتين فى مصيبة والبلاد تحكم بقواعد العشائر وعاداتهم ليس فيها طرق و لا مدارس ولا مصانع كسائر الولايات ، وأخرب البلاد ما يشب فيها من حروب وغوائل دامت إلى أن عقدت الدولة مع إمام الزيدية فى سنة ١٣٢٩ هـ . معاهدة اعترفت به وبمذهبه وسلطته اعترافاً رسمياً . وسواحل اليمن كانت أبداً فى فوضى ولم ينتشر الأمن فى ربوعها إلا لما ارتبطت بحكومة الهند الانجليزية فأصبح لكل إمارة وناحية إدارة خاصة بها . ونجد لا شأن لقبائلها البدوية إلا أن تتقاتل وكان الأمن مفقوداً فيها كسائر البوادى ، وأقر آل سعود وبعدهم آل الرشيد الأمن فى ربوعها لما حكموها . وكان العراق بأيدى الولاة فى الظاهر وأيدى متزعمة القبائل فى الحقيقة ، حتى أصبح بعد عمرانه القديم بادية إلا قليلا ، لولا بقع من مجموعات سكان تنزل أرجاء بغداد والبصرة والحلة والموصل وغيرها . وسلطة الدولة لا تكاد تتعدى الحواضر شأنها فى كثير من الولايات العربية ، والقاصية بأيدى أرباب الزعامات والاقطاعات . وأخذت بعض الولايات التى تولاها عظماء من رجال السلطنة فى العهد الأخير تؤسس فيها قواعد الإدارة وتكثر فيها مراكز الحكومة من أقضية وألوية فقد أسسوا لواءين فى جنوب الشام وشرقها « لواء الكرك » و « لواء دير الزور » فدخل عرب البادية فى حياة الزراعة وخف اعتداؤهم بعضهم على بعض وبطل الغزو أو كاد لاستلاب المواشى . ولما أنشئت السكة الحجازية بين دمشق والمدينة بدأ الأمن يستتب والبادية تحس طعم السكنى وعمرت على بعض جانبى الخط قرى ومزارع .

وفى الحق أن الدولة أنشأت، بعد تنظيم الولايات، ترسل ولاة ومتصرفين لا بأس باقتدارهم، ومنهم من كانوا يحاولون الإصلاح ما أمكنهم ويقرون العدل بعض الشيء ويؤمنون السبل بالقليل من القوات التى كانت لهم من الجند والدرك والشرطة، ومنهم من أنشأ مدارس وطرقاً كما فعل الوزير مدحت فى العراق والشام. وقد كتب من دمشق فى إصلاح الإدارة إلى الآستانة يقول: إن الأوامر التى تصدر من الآستانة إلى الشام محصورة فى طلب المال والجند فقط، وبذلك بطل العمل بالقانون والأصول المتبعة وفتحت أبواب سوء الاستعمال، وما عدا بعض رجال من الموظفين أصبح كبار العمال وصغارهم لا يلتفتون إلى غير مصالحهم فطرأ على المعاملات خلل، وبسوء تأثير ذلك فسدت أخلاق الناس، وكثر القتل والنهب والغارة على الأموال والعروض فى كل مكان. واختل الأمن كل الاختلال، قال وإذا ألقينا نظرة على واردات الدولة رأينا الخراج والأموال قد نزل ارتفاعها إلى النصف وخربت مسائل الأعشار البلاد وقل البدل العسكرى (الجزية). كتب هذا قبل نحو ستين سنة والدولة آخذة فى تقليد الغربيين فى إدارة بلادها.

أما سائر الولايات والألوية المستقلة كبرقة وطرابلس وتونس وما إليها فقد كان سلطان الترك فيها اسمياً وكانت تقنع منها بخراج معين، وتقيم بها حامية، وتوسد أمهات الوظائف الكبرى إلى الأتراك شأنها فى كل ولاية. ومنذ استولت على طرابلس بعد سنة ٩٧٢هـ وقعت فى أيدى جيشها الانكشارى[١] فاختل نظامها واستبدوا بالحكم وملوا أيديهم إلى ما فى أيدى الناس وفرضوا على الأهالى ضرائب مما لا قبل لهم به، وكثر طغيانهم حتى اضطر كثير من رؤساء القبائل إلى الثورة عليهم فى أزمان متتالية تخلصاً من حكمهم الجائر. وكان القضاة إذا مات الميت أرسلوا للوارث وطالبوه بدفع سدس ماله وسموا ذلك «فريضة». وربما أفحش المقدر للأموال الموروثة فقدرها بأكثر مما تساوى فيخرج بذلك الوارث من إرثه. وقد يمهل الوالى المعوزين من الفلاحين

(١) التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار لابن غلبون.

فى أداء ما عليهم من الأتاوات حتى إذا أدوا ما عليهم باعهم من قائد آخر وسلطه عليهم ، ويزيدون فى العشور حتى ليجعلون الكيلة توازى ثلاثاً من الكيلات المقررة لقسمة الحبوب ، وهكذا فى خرص الزيتون والنخيل ، ومن نقص من شجره شيء ولو النصف لا تسمع شكواه ويلزم بأداء ما كان يدفع على شجره قديماً ، وقد يجعلون خراج الأرض على الجماجم ، ومنذ سقطت تونس (٩٣٥ ﻫ) فى أيدى العثمانيين أخذ العمال يتوارثونها وظلت كأنها مستقلة تنجد الدولة فى بعض أيام حروبها العظيمة بشيء من المراكب والجند وفى تواريخ تونس أنه كان من هؤلاء العمال ثم من أمرائها الحاليين من يعنون قليلا بتحسين الإدارة والجباية ويعمرون ما تشتد الحاجة إليه من المعالم . ونبغ فيها أواخر القرن الماضى الوزير خير الدين فأحيا مصانعها وزارعتها ، ونشر محمد باى الثانى (١٢٧٦ ﻫ) قانوناً دعاه عهد الأمان(١) أطلق عليه حرية التدين للسكان على اختلاف مذاهبهم ، وساوى بينهم فى الحقوق العامة ، وكفل للتونسيين حرياتهم وأموالهم وأعراضهم .

وكان الأغا فى تونس على عهد الحكم التركى المباشر يجلس فى الديوان ويقوم أكبر الشواش(٢) بين يديه والترجمان بإزاء الأغا ، فإذا أخذوا مراتبهم قام خطيبهم فدعا للسلطان والعسكر وقرئت الفاتحة ثم يخرج مناديهم عند الباب يقول من له دعوى فليدخل ، فإذا دخل قابله الترجمان وتعرض القضية فإن كانت من الأمور الشرعية ردوها إلى الشرع ، وإن كانت قانونية فعلوا بآرائهم وبما جرت العادة به بينهم ولما ظهرت رتبة المفتى فى المائة التاسعة أصبحت أرفع من درجة القاضى ، وإذا أشكل أمر على القاضى بعث إلى المفتى يسأله . والقضاة أتراك يجيئونها من بلاد الترك والغالب عليهم العجمة . فاحتاجوا إلى نائب يكون بين يدى القاضى ، يكون بمثابة قاضى الخصومات ، والقاضى التركى مقام قاضى الجماعة .

هذا ما قاله صاحب المؤنس وهذه العجمة الغالبة على قضاة الترك التى

(١) تاريخ تونس لحسن حسنى عبد الوهاب .
(٢) المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس .

أشار إليها كانت سبباً عظيما من أسباب سوء الإدارة وسوء التفاهم بين الحاكم والمحكوم منذ زمن الأطول . وكيف يفهم القاضي أو الوالي أقوال المتقاضين والشاكين إذا كان أعجمياً ، بل كيف يفهم مع عجمته الحكم الشرعي من كتب العرب ، والشريعة عربية . وهل للوالي أو الشاويش أن يؤثر في نفوس من يتولى أمرهم إذا لم يستطع التفاهم معهم ، بل أن يخطبهم إذا دعت الحال . وأنى لابن العرب أن يفهم كلام التركي في زمن ضعفت فيه أيضاً ملكته في لغته ! ولذلك خرجت الدولة العثمانية من بلاد العرب ، ومنها ما حكمته ثلاثة قرون ومنها ما حكمته أربعة ، وهي لا تعرف روح البلاد ولا روح أهلها .

وفي معلمة الإسلام[1] أنه كان من فتح الترك شمالي إفريقية وضع حد لتوسع دول النصارى فيها وإنقاذ المسلمين في أرجائها من توسع الإسبان في استيلائهم على بعض بلدانها (١٦١٥ م) فأسس الترك مملكة تناولت بلاد الغرب الأوسط وتولاها « بكلر بك » من قبل الدولة العثمانية ولم يبق غير مدينة وهران بيد الإسبان ، ولم تتناول سلطة الأتراك الفعلية في الجزائر غير محيط من الأرض لا تتجاوز مساحته خمسة وسبعين ألف كيلو متر مربع أو سدس بلاد الجزائر ، وظل الباقي في أيدي أناس من المتغلبة ، ومن القبائل المستقلة ومنها ما يدفع خراجاً للسلطان فلم يبق أمام الترك غير اتباع سياسة « فرق تسد » بين القبائل والمتزعمين والبيوت المتغلبة وكذلك كانت سياستهم مع الخاضعين لسلطانهم مباشرة . دام الحال على ذلك نحو ثلاثة قرون ، والقتل يفشو في البادية والحاضرة ، على مثال سائر الولايات العثمانية ، ومن الولاة من كانوا يعينون من الآستانة إلى ثلاثين سنة ، تعضد سلطانهم خمسة آلاف جندي انكشاري ثم تغلب بعض أغواتهم على الحكم فلم يبق للوالي المعين من دار السلطنة غير سلطة اسمية وكان عهد الأغوات عهد اضطراب وفتن ويلقى عامة هؤلاء الأغوات حتفهم بأيدي جند الانكشارية ، ولما ضايقت الدول البحرية الأوربية الجزائر لحملها على منع قرصان البحر من الاتجار بالرقيق ،

(١) معلمة الإسلام . مادة الجزائر .

وكانت تجارته من أعظم أسباب غنى الجزائريين مدة ثلاثة قرون ، بل من أهم موارد الحكومة فى هذه الولاية ، عاد الولاة يظلمون الرعايا فى اقتضاء الجباية ، أو يلقون أنفسهم فى أحضان اليهود يقترضون منهم الأموال ليصرفوها فى إدارة البلاد . وكثيراً ما كانت الفتن تنتشر بين السكان لكثرة المغارم والمظالم ، ومن سنة ١٦٧٢ إلى سنة ١٨٣٠ قتل بيد الجند العثمانى من الدايات أو الولاة فى الجزائر ثمانية عشر والياً ، وكان الجند هم الذين يختارون الوالى فى العهد الأخير ، ويتمتع بسلطة واسعة ويعينه مجلس أو ديوان مؤلف من خمسة وزراء يتولون مسائل المال والجندية والبحرية وأملاك الدولة وغير ذلك ، ودام هذا التخبط حتى جاء الفرنسيس واستولوا على الجزائر فى سنة ١٨٣٠ وجعلوها مستعمرة لهم . وهكذا بقى الفرق محسوساً بين الأرياف وقواعد البلاد وبين الأرجاء التى حكمتها الدولة بعض الشيء والأصقاع التى نجت من سيطرة عمالها ، كأن القرى والدساكر من غير هذا العالم ، ومن قرن لا يعد فى هذه القرون . —

وبعد ، فمهما قيل فى فساد الإدارة العثمانية منذ القرن العاشر إلى الثالث عشر من الهجرة فإن فجر القرن الرابع عشر انبلج عن إجماع الحاكم والمحكوم على قبح هذه الإدارة وإرادة الإفاقة من كابوسها صيانة للبلاد . ورأينا الدولة فى آخر أيامها ترسل مفتشين لكشف أحوال عمالها فى المالية والداخلية والقضاء والحربية وغيرها ، ورأينا منهم طبقة صالحة فى الجملة إذا بحثوا سقطوا لا محالة على الخلل المتسرب إلى الأوضاع الحكومية ، وكانوا يضعون التقارير النافعة لما شاهدوا وحققوا ، لكن التنفيذ كان قليلا ، وندر أن يؤخذ عامل مجرم بما يقرر فيه ، وغاية ما يناله من عقوبة أن ينقل إلى ناحية أخرى أو يترك مدة بلا عمل ويلقى الستار على جنايته أو جريمته . وكان من الصعب إذا كان للموظف حام يحميه إنزال العقوبة به ولو كان قاتلا . أما سرقة مال الدولة وتعريق لحم الملة فهذا مما لا يؤبه له كثيراً . وعلى هذا كان الناس فى هذه الإمبراطورية العظمى بين مظلوم وظالم ، ينفذ فيها القانون على فقراء الرعية غالباً ، وقد يستثنى من أحكامه من كان له شافع من ثروة وجاه وقرابة ونسب

قال لاموش : لئن كان فى تنظيم الإدارة فى المملكة العثمانية عيب فاحش الظهور لهو فى صور التنفيذ لا فى الأصول ، ومنشأ النقص هو السلطة المطلقة الذاتية التى يتمتع بها الحكام فمن بعدهم ، وبيع المناصب وجباية الضرائب ، وشيوع الاختلاس فى أموال الدولة ، وفشو الرشوة . وإذا قيست إدارة العثمانيين بإدارة معظم الممالك الأوروبية فى ذلك العهد رؤى فى الإدارة العثمانية ترتيب وسلطة ثانية هى أتم مما كان من نوعها ، عند غيرهم ، وبهذه المركزية وبالإدارة المطردة كتب للملكة العثمانية ، على ما كان لها من المشاكل الخارجية ، أن تبلغ درجة عالية من القوة ، وأن تحتفظ بها إلى آخر القرن التاسع عشر ، وما منع الإسلام سلاطين العثمانيين من رعاية النصارى فى المملكة ، لما عرف من أن فتحهم الروم إيلى والآستانة ثم فتح بلاد المجر قد زاد فى عديد رعاياهم من النصارى ، ومنهم العنصر المنتج العامل فى الزراعة والتجارة والمال ، ومنهم يجبى قسم عظيم من ارتفاع الدولة . وقال أيضاً من سوء طالع تركيا أن جزءاً عظيما من القوانين الجديدة ، لما عاقت العوائق عن تطبيقها ، ظلت مكتوبة فى الورق ، فقيل بعد ذلك إنه كان لتركيا قوانين جيدة ولديها من ضروبها شىء كثير ، ولكن يعوزها التطبيق فقط . وقال جلال نورى[٢] : إنا لنرى والأسف ملء قلوبنا أن جنسنا التركى ليس على استعداد كبير للإدارة ، فقد وضعت أسس ترتيبات مهمة فى عهد أورخان ومراد خداوندكار فحالت قلة أهليتنا لها دون الاحتفاظ بها ، وكان عجزنا فى الإدارة محققاً ، ولنا أن نقول إن المسألة الشرقية بمعناها الحقيقى هى مسألة إدارة ، أو بتعبير أصح مسألة قلة إدارة ، ولولا فساد الإدارة ما وجدت روسيا ومن لهن علاقة بالشرق من الدول سبيلا إلى الدولة العثمانية ينفذن منه إلى إثارة العناصر المختلفة فى السلطنة . وكل ما أصابنا ناشئ من خلل الإدارة ، وباختلال إدارتنا قامت فى العهد الأخير بعض العناصر العثمانية فنزعت إلى الاستقلال ، ودفعت إلى تأليف إدارات مستقلة وإنشاء حكومات قامت على السلطان القومى . وما احتفظت أمة قط بوحدتها إلا بحسن إدارتها .

(١) تاريخ تركيا للاموش (بالفرنسية) .

(٢) تاريخ تدنيات عثمانية لجلال نورى (بالتركية) .

السياسة فى الإسلام

سياسة الرسول :

كان أول الناس إسلاماً زوج الرسول خديجة بنت خويلد وأبو بكر الصديق وابن عمه على بن أبى طالب وهو طفل ومولاه زيد بن حارثة . وقضى نحو ثلاث سنين منذ نبوءته وهو يعمل مستخفياً يجتمع إليه أصحابه فى دار الأرقم بن أبى الأرقم سابع سبعة فى الإسلام . ودعيت هذه الدار دار الإسلام[١] لأن فيها دعا الرسول إلى التوحيد ، ومنها خرج المسلمون لما أسلم عمر بن الخطاب وكبروا وطافوا بالبيت ظاهرين .

وأخذ الرسول ينذر عشيرته الأقربين من بنى هاشم وبنى المطلب قائلا : ما أعلم إنساناً فى العرب جاءكم بأفضل مما جئتكم بخير الدنيا والآخرة[٢] ، فأيكم يؤازرنى على هذا الأمر ، على أن يكون أخى ووصيتى وخليفتى فيكم ، فأحجم القوم . وقام بالأبطح من ضواحى مكة فقال : إنى رسول الله أدعوكم إلى عبادة الله وحده وترك عبادة الأصنام التى لا تنفع ولا تضر ولا تخلق ولا ترزق ولا تحيي ولا تميت ، فاستهزأت به قريش ، وقالوا لأبى طالب إن ابن أخيك قد عاب آلهتنا ، وسفه أحلامنا ، وضلل أسلافنا ، فليمسك عن ذلك ، وليحكم فى أموالنا ما يشاء : فقال الرسول : إن الله لم يبعثنى لجمع الدنيا والرغبة فيها ، وإنما بعثنى لأبلغ عنه وأدل عليه . وقال لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أدع هذا الذى جئت به ما تركته .

وأخذ يوافى الموسم كل عام[٣] ويتبع الحجاج فى منازلهم فى المواسم ، بعكاز ومجنة وذى المجاز من أسواق مكة وضواحيها ، يدعون إلى أن يمنعوه حتى يبلغ رسالات ربه ولهم الجنة ، فلا يجد أحداً ينصره ولا يجيبه . وإنه

(١) طبقات ابن سعد . (٢) تاريخ أبى الفداء .
(٣) طبقات ابن سعد .

ليسأل عن القبائل ومنازلها قبيلة قبيلة ويقول : أيها الناس قولوا لا إله إلا الله تفلحوا ، وتملكوا بها العرب ، وتذل لكم العجم . وقال[١] بعثت إلى الناس كافة ، فإن لم يستجيبوا لى فإلى العرب ، فإن لم يستجيبوا لى فإلى قريش ، فإن لم يستجيبوا لى فإلى بنى هاشم ، فإن لم يستجيبوا لى فإلى وحدى .

كان أبو طالب عم الرسول يرعاه ويحميه من أذى قريش ، وعمه أبو لهب يضطهده ويؤذيه ويؤلب قريشا عليه . وهلك أبو طالب ثم زوج الرسول خديجة ، فذهب النصير والعشير ، وعظمت عليه المصيبة بموتهما ، ووصلت قريش من أذاه إلى ما لم يكونوا يصلون إليه فى حياة عمه : يهزأون بدعوته ويكذبونه ، ويضعون الشوك فى طريقه ، ويحثون التراب على رأسه ، ومنهم من يطرح عليه أو فى برمته[٢] رحم شاة ، فيقف على بابه ثم يقول : يا بنى عبد مناف ، أى جوار هذا .

أغرت قريش سفهاءها به ومن قبل النبوة كانت تدعوه الأمين لما رأت من أمانته ومروءته ، وصدق حديثه وحسن جوابه . ولطالما حكمته قبل مبعثه فى معضلاتها فحكم بالحق ، وقد شهد حلف الفضول على التآسى بين قريش وعدم التظالم ، واشترك فى حرب الفجار ، ورضى العشائر بحكمه يوم اختلفوا فيمن يرفع الحجر الأسود إلى محله فى الحرم ، حتى قال قائل ممن حضر من قريش — وقريش كلها حضور — متعجباً من فعلهم وانقيادهم[٣] إلى أصغرهم سناً و أقلهم مالا ، فجعلوه عليهم رئيساً وحاكماً : أما واللات والعزى ليفوتنهم سبقاً ، وليقسمن بينهم حظوظاً وحدوداً ، وليكونن له بعد هذا اليوم شأن ونبأ عظيم .

شق على قريش أن يقوم من بنيها من يزحزحها عن مألوفها من العبادات والعادات ، لا يحفل بما تواطأت على تعظيمه ، ويأتى على نظامهم الاجتماعى الذى كان لا يفيد إلا المتمولين والملأ[٤] ، وكان يقهر الصعاليك والضعفاء ،

(١) طبقات ابن سعد . (٢) بضم الباء القدر .
(٣) مروج الذهب للمسعودى . (٤) رجل ملء غنى مقتدر .

وكانت مكة فى الجاهلية لا تدين[١] لملك من الملوك ، ولم يؤد أهلها إتاوة ، ولا ملكهم ملك قط ، تحج إلى مكة ملوك حمير وكندة وغسان ولخم فيدينون للحمس من قريش ، ويرون تعظيمهم والاقتداء بآثارهم مفروضاً ، وكان أهلها آمنين يَغزون ولا يُغزون ، ويسبون ولا يسبون ، وأهلها حلفاء متآلفون ، ومتمسكون بكثير من شريعة إبراهيم ، وهى توحيد[٢] الخالق ، وملة الإسلام هى ملة إبراهيم نزل القرآن بتوكيدها . وجاء الإسلام ليأتى على الشرك ، ويخرج العرب من عبادة اللات والعزى ومناة وغيرها من أصنامهم إلى توحيد الخالق تعالى .

ضاقت مكة بمن أجابوا الدعوة من المسلمين ، ومنهم من ليس له عشيرة تحميه ، فأمر الرسول بعض أصحابه بالهجرة إلى الحبشة فهاجر إليها نحو ثمانين رجلا وثمانى عشرة امرأة سوى الأبناء . وسافر إلى الطائف يلتمس من ثقيف النصرة ، فعاد وقومه أشد مما كانوا عليه من خلافه وفراق دينه إلا قليلا مستضعفين[٣] ممن آمن به . ورجع أصحابه إلى مكة من الهجرة الأولى فاشتد عليهم قومهم[٤] ، وسطت بهم عشائرهم . ولقوهم أذى شديداً ، فأذن لهم الرسول فى الخروج إلى أرض الحبشة مرة ثانية ، فكانت خرجتهم الأولى أعظمها مشقة ، ولقوا من قريش تعنيفاً شديداً ، وكبر عليهم ما بلغهم عن النجاشى من حسن جواره ، وغضبوا على الرسول وأصحابه ، وأجمعوا على قتله ، وكتبوا كتاباً على بنى هاشم ألا يناكحوهم ولا يبايعوهم ولا يخالطوهم وعلقوا الصحيفة فى جوف الكعبة ثم حصروا بنى هاشم فى شعب أبى طالب وانحاز بنو المطلب بن عبد مناف إلى أبى طالب فى شعبه مع بنى هاشم ، وخرج أبو لهب إلى قريش فظاهرهم على بنى هاشم وبنى المطلب ، وقطعوا عنهم الميرة والمادة ، فكانوا لا يخرجون إلا من موسم إلى موسم ، حتى بلغهم الجهد ، وسمعت أصوات صبيانهم من وراء الشعب . فمن قريش من سره ذلك ، ومنهم من ساءه . ومكث الرسول فى الشعب سنتين وقيل أكثر .

(١) معجم البلدان لياقوت . (٢) تفسير البيضاوى .
(٣) تاريخ الطبرى . (٤) طبقات ابن سعد .

وكان من ضروب الأذى الذى تُلحقه قريش بالمستضعفين من المؤمنين ، أن يلبسوا بعضهم أدراع الحديد ، ثم يصهرونهم فى الشمس ، أو يلصقون ظهورهم بالرَّضَف[1] حتى يذهب لهم متنهم ، ويجيعونهم ويعطشونهم حتى ما يقدر أحدهم أن يستوى جالساً من شدة الضر الذى نزل به ، ويقولون له آللات والعزى إلهك من دون الله ؟ فيقول : نعم ، حتى اضطر الرسول أن يحث المؤمنين ألا ينزلوا إلا مع المسلمين ، لما كان يلحقهم من أذى المشركين إذا جاوروهم لأنهم لا عهد لهم .

كل هذا والرسول لا يفتأ يعرض نفسه على القبائل فى مواسم الحج ، ويقف بمنى على منازل القبائل من العرب[2] فيقول : يا بنى فلان إنى رسول الله إليكم يأمركم أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً ، وأن تخلعوا ما تعبدون من دونه من هذه الأوثان ، وأن تؤمنوا بى وتصدقونى ، وما كان يسمع بقادم يقدم من العرب له اسم وشرف إلا تصدى له أو عرض عليه ما عنده .

واهتدى به فى بعض السنين ستة من الخزرج من أهل مدينة يثرب — وأهلها قبيلتان الأوس والخزرج يجمعهم أب واحد وهم يمانيون — وبين القبيلتين حروب ، وهم حلف قبيلتين من اليهود يقال لها قريظة والنضير . فذهبوا إلى قومهم يدعونهم إلى الإسلام حتى فشا فيهم . وجاءه من قابل اثنا عشر رجلا من أهل يثرب أيضاً ، فأسلموا وبايعهم بيعة النساء ، وبيعة النساء ألاّ يشركوا بالله شيئاً ، ولا يزنوا ، ولا يقتلوا أولادهم . فعادوا إلى المدينة ينشرون الدعوة المحمدية .

وما برح المؤمنون بالرسالة يكثرون سنة فسنة ، حتى رأى الرسول فى السنة الثالثة عشرة من مبعثه أن يهاجر إلى يثرب ليكون والمؤمنين به بمأمن من الأذى ، وينفسح أمامه المجال لنشر دعوته ، وما أن علمت قريش أنه صار له أنصار وأصحاب من غيرهم بغير بلدهم ، وأن أصحابه بمكة لحقوا به ونزلوا

(١) الرضف الحجارة المحماة . (٢) تاريخ الطبرى .

يثرب وأصابوا ممن آمن منعة ، ورأوا « ظهور الرسول وعلو حقه » حتى اجتمعوا فى دار قصى بن كلاب ، وهى دار ندوتهم[١] فأجمعوا رأيهم على أن « يأخذوا من كل قبيلة رجلا يضربونه بسيوفهم ضربة رجل واحد ليضيع دمه فى القبائل » .

وجاء مدينة يثرب فآخى بين المهاجرين والأنصار[٢] ، آخى بينهم على الحق والمؤاساة يتوارثون بعد الممات دون ذوى الأرحام . وكانوا تسعين وقيل مئة ، نصفهم من المهاجرين ونصفهم من الأنصار ، وظلوا على هذه المؤاخاة حتى نزلت فى وقعة بدر آية ، « وأولو الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله » فنسخت هذه الآية ماكان قبلها ، وانقطعت المؤاخاة فى الميراث ، ورجع كل إنسان إلى نسبه وورثه ذوو رحمه .

وكتب الرسول كتاباً فى يثرب — وكانت أرض يثرب لليهود — بين المهاجرين والأنصار وبين اليهود ، أقر فيه اليهود على دينهم وأموالهم ، وعاهدهم ووادعهم ، واشترط عليهم وشرط لهم . جاء فيه : أن المؤمنين لا يتركون مفرحاً[٣] بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فداء وعقل ، ولا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه . وأن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيسة ظلم أو إثم أو عدوان

(١) بنى هذه الدار قصى بن كلاب ، وهى أول دار بنيت بمكة من دون قريش يجتمعون إليها فتقضى فيها الأمور ، ثم كانت تجتمع فيها فتتشاور فى حروبها وأمورها وتعقد الألوية وتزوج من أراد التزويج .

(٢) المهاجرون هم أول من عبد الله فى الأرض ، خصوا بتصديق الرسول والإيمان به ، والصبر معه على الشدة من قومه ، وإذلالهم وتكذيبهم إياه ، وكل الناس مخالف لهم زار فلم يستوحشوا قلة عددهم وإزراء الناس بهم . والأنصار هم الذين نصروا الرسول فى ساعة العسرة ، وهم الأوس والخزرج قال الآمدى فى كتاب الأحكام : اختلفوا فى مسمى الصحابى فذهب أكثر أصحابنا وأحمد بن حنبل إلى أن الصحابى من رأى النبى وإن لم يختص به اختصاص المصحوب ولا روى عنه ولا طالت صحبته . وذهب آخرون إلى أن الصحابى إنما يطلق على من رأى النبى واختص به اختصاص المصحوب وطالت مدة صحبته وإن لم يرو عنه . وذهب عمر بن يحيى إلى أن هذا الاسم إنما سمى به من طالت صحبته للنبى وأخذ عنه العلم . ورجح الآمدى الرأى الأول . وسمى المهاجرون مهاجرين لأنهم تركوا دارهم ومساكنهم ولحقوا بدار ليس لهم بها أهل ولا مال ، حين هاجروا من مكة إلى المدينة . وذو الهجرتين من الصحابة من هاجر إلى الحبشة وإلى المدينة . والتابعون واحدهم تابعى وتابع قيل هو من صحب صحابياً وقيل من لقيه وهو الأظهر .

(٣) المفرح المثقل بالدين .

أو فساد بين المؤمنين ، وأن أيديهم عليه جميعاً ، ولو كان ولد أحدهم ، ولا يقتل مؤمن مؤمناً فى كافر ولا ينصر كافر على مؤمن ، وأن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم ، وأن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس ، وأن من اتبع المسلمين من يهود ، فإن له النصرة والأسوة غير مظلومين ولا متناصر عليهم ، وأن سلم المؤمنين واحدة ، لا يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم ، وأن كل غازية غزت مع المسلمين يعقب بعضها بعضاً ، وأن المؤمنين يبيء[1] بعضهم بعضاً بما نال دماءهم فى سبيل الله ، وأن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه ، وأنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفساً ، ولا يحول دونه على مؤمن ، وأن من اعتبط[2] مؤمناً قتلا عن بينة فإنه قود به إلى أن يرضى ولى المقتول ، وأن المؤمنين عليه كافة ، لا يحل لهم إلا قيام عليه ، وأن اليهود يتفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين ، وأن لليهود دينهم وللمسلمين دينهم مواليهم وأنفسهم ، إلا من ظلم وأثم ، فإنه لا يوتغ[3] إلا نفسه وأهل بيته ، وأن بطانة يهود كأنفسهم وأنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد وأن الجار كالنفس غير مضار ولا آثم ، وأن بينهم النصر على من دهّم يثرب . وإذا دُعوا إلى صلح يصالحونه إلا من حارب فى الدين ، على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم ، وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظلم أو آثم ، وأنه من خرج آمن ، ومن قعد بالمدينة آمن إلا من ظلم أو أثم .

وبهذا العهد مع أهل يثرب أمن المؤمنين على أنفسهم ، واستعدوا لما يخبئه المستقبل فى صدره من الحوادث والكوارث . وكان الرسول فى مكة بالأمس داعياً إلى دينه ؛ يتلطف بنشره بين المشركين ، ويتحمل العنت والأذى ، فلما غادر دار أهله وهى دار الشرك إلى بلد بعيد وهى دار النصرة ، قلب لمن

---

(١) يبيىء من البوء أى المساواة .

(٢) اعتبط قتل بلا جناية كانت ولا جريرة توجب قتله ، فإن القاتل يقاد به ويقتل ، وكل من مات بغير علة فقد اعتبط ، ومات فلان عبطة أى شاباً صحيحاً ، وعبطت الناقة واعتبطتها إذا ذبحتها من غير مرض . (٣) لا يوتغ : لا يهلك .

طال عداؤهم له ظهر المجن وكان المكيون وهو بين أظهرهم يحاربونه بأقوالهم ، وأفعالهم ، وهو يسالمهم لا يريد منهم إلا القول بالتوحيد ونزع أوضار الشرك . فأصبح بعد الجلاء عنهم إلى دار هجرته ، قويا بنفسه وبمن معه ، وأخذ يحاربهم بأقواله وأفعاله .

* * *

وكثرت هجرة المؤمنين إلى مدينة يثرب ، وقوى المكيون المهاجرون بالأنصار المدنيين وكان « أول[1] من بعث الله نبيه بالدعوة بعثه بغير قتال ولا جزية فأقام على ذلك عشر سنين بمكة بعد نبوته يؤمر بالكف عنهم ثم أنزل الله عليه : « أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا » . الآية . وأمره بقتال من قاتله والكف عمن لم يقاتله . وقال الله عز وجل : فإن اعتزلوكم فلم يقاتلوكم وألقوا إليكم السلم فما جعل الله لكم عليهم سبيلا » ثم نزلت براءة لثمانى سنين من الهجرة فأمره بقتال جميع من لم يسلم من العرب ، من قتاله أو كف عنه ، إلا من عاهده ولم ينتقض من عهده شيئاً فقال : « فإذا انسلخ الأشهر الحرم فاقتلوا المشركين حيث وجدتموهم وخذوهم واحصروهم واقعدوا لهم كل مرصد فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فخلوا سبيلهم إن الله غفور رحيم » .

« كانت[2] الكفار بعد الهجرة مع النبي على ثلاثة أقسام : قسم وادعهم على ألا يحاربوه ولا يؤلبوا عليه عدوه وهم طوائف اليهود الثلاثة قريظة والنضير وبنى قينقاع ، وقسم حاربوه ونصبوا له العداوة كقريش ، وقسم تاركوه وانتظروا ما يؤول إليه أمره كطوائف من العرب ، فمنهم من يحب ظهوره في الباطن كخزاعة ، وبالعكس كبنى بكر ، ومنهم من كان معه ظاهراً ومع عدوه باطناً وهم المنافقون » . وهو يوادع ويتطلف وسياسته التى علمه إياها ربه : « فبما رحمة من الله لنت لهم ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك فاعف عنهم واستغفر لهم ، وشاورهم فى الأمر » .

(١) أقضية رسول الله للقرطبى .

(٢) المواهب اللدنية للقسطلانى .

وشرع الرسول فى غزواته وسراياه ، وأول غزواته غزوة ودّان وهى غزوة الأبواء ، وتواترت غزواته حتى بلغت إلى حين وفاته سبعاً وعشرين غزوة وسراياه وبعوثه ثمانى وثلاثين على أرجح الأقوال ، ومن غزواته أو سراياه ما كان يضرب فيه المكيين فى تجارتهم بين الحجاز والشام ، يتسقط عير قريش إذا اجتازت بأرض المدينة ، ذاهبة جائية بين دمشق ومكة . وقد وفق فى أكثر سراياه وغزواته ، لأنه كان يعمل برأى من نجذتهم الحروب من أصحابه ، وعرفوا بالشجاعة وحسن التدبير ، وقد يعمل بما يذهب إليه أصحابه من رأى سديد ، ولا يتمسك بما يراه إذا ظهر له صواب ما اعترض عليه به ، ويقول « الحرب خدعة » أى أن آخر مكايد الحرب القتال بالسيف إذ كان بدؤها خدعة . وقد يحضر بعض الغزوات بنفسه ، واشترك فى بضع منها ووصل العدو إليه مرة وأصابته حجارتهم حتى وقع وأصيبت رباعيته ، وشج وجهه ، وكلمت شفته ، وانهزم المسلمون يوم حنين وكانوا أعجبوا بعديدهم فجاء التنزيل : « لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين » . وكان الرسول يفادى بالأسرى ، ويرفق بهم ، وإذا جاءه أهلهم ونساؤهم أو شفع فيهم أحد أصحابه يخفف عنهم أو يطلق سراحهم ولو كان لقى منهم شراً . وفادى بأسارى بدر على قدر أموالهم ، وكان أهل مكة[1] يكتبون وأهل المدينة لا يكتبون ، فمن لم يكن له فداء دفع إليه عشرة غلمان من غلمان المدينة فعلمهم فإذا حذقوا فهو فداؤه .

قال الرسول يوم الحديبية وقد قيل له إن قريشاً قد سمعوا بمسيرك فخرجوا ومعهم العوذ المطافيل[2] ، قد لبسوا جلود النمور[3] يحلفون بالله لا تدخلها

(١) طبقات ابن سعد .

(٢) يريد بالعوذ المطافيل النساء والصبيان ، والعوذ جمع عائذ وهى الناقة إذا وضعت وبعد أيام من وضعها يقوى ولدها ، والمطفل الناقة القريبة العهد بالنتاج معها طفلها يقال أطفلت فهى مطفل ومطفلة والجمع مطافل ومطافيل بالإشباع يريد أنهم جاءوا بأجمعهم كبارهم وصغارهم (غريب الحديث لابن الأثير) .

(٣) لبسوا جلود النمور كناية عن شدة الحقد والغضب تشبيهاً بأخلاق النمر وشراسته

عليهم أبداً أى مكة : ياويح[1] قريش قد أكلتهم الحرب ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب ، فإن هم أصابونى كان الذى أرادوا ، وإن أظهرنى الله عليهم دخلوا الإسلام وافرين، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة . فما تظن قريش ؟ فوالله لا أزال أجاهدهم على الذى بعثنى الله به حتى يُظهره الله أو تنفرد هذه السالفة[2] .

وفى هذه الغزوة صدته قريش عن زيارة البيت الحرام فأرسل عثمان ابن عفان لمفاوضة قريش فى مكة وبلغه أنه قتل فقال : لا نبرح حتى نناجز القوم ، فدعا إلى البيعة بيعة الرضوان فبايعه أصحابه تحت الشجرة ، وهم ألف وخمسمائة وخمسة وعشرون رجلا ، بايعوه على الموت ، وقيل بايعهم على ألا يفروا من الزحف ، ولم يتخلف عن بيعته أحد من المسلمين[3]. وعادت هذه البيعة على الإسلام بالنصر المؤزر ، وكتب للمسلمين بعدها كل قوة فى الأرض العربية ، وكان الرسول شعر بالضعف قبل حين ، وهمّ بمصالحة الأحزاب على ثلث تمر المدينة .

وما كانت غزوات الرسول وسراياه إلا عن دواع اضطرته إلى حرب المشركين . فسبب وقعة الخندق أن قريشاً كانت تبعث إلى اليهود وسائر القبائل يحرضونهم على قتال الرسول ، والسبب فى وقعة حنين وتسمى غزوة هوازن ما بلغ الرسول بعد أن فتح مكة وأسلم عامة أهلها أن هوازن وثقيف جمعت فيها جمعاً كثيراً ، وقصدوا محاربة المسلمين ، فخرج إليهم الرسول من مكة فى اثنى عشر ألفاً منهم الثلثان من أهل مكة وهم الطلقاء الذين خلى عنهم يوم فتح مكة وأطلقهم فلم يسترقهم . والسبب فى غزوة غَطَفَان إلى نجد أنه بلغ الرسول أن جمعاً من بنى ثعلبة ومحارب بذى الكنف أمرٌ قد تجمعوا يريدون أن يصيبوا من أطرافه . والداعى إلى سرية أبى سلمة بن عبد الأسد إلى قطن ما بلغ النبى من أن طُلَيحة وسلمة ومن أطاعهما يدعونهم

(١) طبقات ابن سعد .

(٢) السالفة صفحة العنق وهى السالفتان من جانبيه ، وكنى بانفرادها عن الموت لأنها لا تنفرد عما يليها إلا بالموت وقيل أراد حتى يفرق بين رأسى وجسدى .

(٣) سيرة ابن هشام .

إلى حربه . وسرية المنذر بن عمرو إلى بئر معونة كان فيها سبعون وقيل أربعون رجلا من المسلمين فيهم أشهر القراء والحفاظ أرسلهم مع عامر أبي براء ملاعب الأسنة الكلابي ليدعو أهل نجد إلى الأسلام فخرج عليهم عامر بن الطفيل من بني عامر ورعل وذكوان وعُصَيّة فقتلوا ولم يجد رسول الله على قتلى ما وجد على قتلى بئر معونة . وسبب سرية مرثد بن أبي مرثد أن رهطاً من عضل والقارة سألوا النبي أن يرسل معهم من يعلمهم شرائع الإسلام فلما كانوا بين عُسْفان ومكة غدروا بهم فقتلوهم غير اثنين. ودعا إلى غزوة دومة الجندل ما بلغه من أن فيها جمعاً كثيرا يظلمون من مر بهم ويريدون أن يدنوا من المدينة : وسبب غزوة المريسيع وهي غزوة بني المصطلق ما بلغه من أن فيها جمعاً يريد حرب الرسول بقيادة الحارث بن أبي ضرار ، وسبب غزوة الغابة أن جماعة استاقوا غنمه وقتلوا ابن أبي ذر. وسرية علي بن أبي طالب إلى بني سعد بن بكر بفَدَك ما بلغه من أن لهم جمعاً يريدون أن يُمدّوا يهود خيبر ، وسرية عبد الله بن رواحة إلى أسيد بن زارم اليهودي ما بلغه من أن يجمع اليهود لحرب الرسول . والسبب في غزوة تبوك للطلب بدم جعفر ابن أبي طالب ما بلغه من الأنباط[1] الذين يقدمون بالزيت من الشام إلى المدينة أن الروم تجمعت مع هرقل ، وكانت نصارى العرب كتبت إلى هرقل أن هذا الرجل الذي خرج يدعي النبوة هلك وأصابتهم سنون فهلكت أموالهم . فبعث رجلا من عظمائهم وجهز معه أربعين ألفاً . وسرية زيد بن حارثة أن زيداً هذا خرج في تجارة إلى الشام ومعه بضائع لأصحاب النبي فلما كان بوادي القرى لقيه أناس من فزارة من بني بدر فضربوه وضربوا أصحابه وأخذوا ما كان معهم . وسرية بني الرجيع بعث الرسول ستة من أصحابه فغدروا بهم فكان ذلك سبب غزوة بني لحيان . وكثير من غزواته وسراياه كان الداعي إليها أنه دعا قوماً إلى الإســـلام فشاكسوه وقاوموه وامتهنوا ما دعاهم إليه[2] .

---

(١) المواهب اللدنية للقسطلاني .

(٢) تلقيح فهوم أهل الأثر لابن الجوزي وتاريخ اليعقوبي .

وأخذ أمر المشركين يضعف ويتراجع ، والمسلمون يقوون ويكثرون ، والرسول يطلب من الناس أن يبايعوه على أن لا يشركوا بالله شيئا[١] ولا يسرقوا ولا يزنوا ولا يقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يقتلوا أولادهم ولا يعصوه فى معروف ، والناس يبايعونه على السمع والطاعة فى العسر واليسر ، والمنشط والمكره ، على أن لا ينازعوا الأمر أهله ، وعلى أن يقولوا بالحق أينما كانوا ، لا يخافون فى الله لومة لائم ، وإذا بايعه الناس على السمع والطاعة يقول : فيما استطعتم .

وبعد صلح الحديبية جاءه نساء مهاجرات من الكفار ، فورد التنزيل : « يا أيها النبى إذا جاءك المؤمنات يبايعنك على ألا يشركن بالله شيئاً ولا يسرقن ولا يزنين ولا يقتلن أولادهن ، ولا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ، ولا يعصينك فى معروف فبايعهن واستغفر لهن » فكان يأمر بامتحان النساء بالحلف ، وأنهن ما خرجن إلا رغبة فى الإسلام[٢] لا بغضاً لأزواجهن من الكفار ، ولا عشقاً لرجال من المسلمين . ومعنى لا يأتين ببهتان يفترينه بين أيديهن وأرجلهن ، أى بولد ملقوط ينسبه إلى الزوج ، فإن الأم إذا وضعت الولد سقط بين يديها ورجليها . ومعنى لا يعصينك فى معروف هو ما وافق طاعة الله كترك النياحة وتمزيق الثياب وجز الشعور وشق الجيب وخمش الوجه إلى ما شاكل ذلك من أعمال الجاهلية ، وما جوز الرسول قتل النساء والولدان فى الحرب ولا قتل العفاء ولا الوصفاء[٣] ، وأغضى عن المنافقين وأجرى عليهم[٤] حكم الظاهر حتى قويت بهم الشوكة وكثر العدد ، وأغضى عن القاعدين عن الحرب ، وهو أشد ما يكون حاجة إلى تكثير سواد من يقاتل معه .

وصالح الرسول قريشاً على وضع الحرب عن الناس عشر سنين ، ثم انتقض هذا الصلح بعد مدة لأن خزاعة كانت فى عهد الرسول وكنانة فى عهد قريش ، فأعانت قريش كنانة فأرسلوا مواليهم فوثبوا على خزاعة فقتلوا

---

(١) تيسير الوصول لابن الديبع . (٢) تفسير الجلالين .
(٣) العفاء المستخدمون والوصفاء والمماليك . (٤) الأحكام السلطانية للماوردى .

فيهم فشكت خزاعة إليه . فصحّت نيته عندئذ على فتح مكة متحللا من المعاهدة التى بينه وبينهم ، وخف يدوخها فى عشرة آلاف من المؤمنين ، فيهم الأنصار والمهاجرون وطوائف من العرب ، فسقط[١] فى أيدى المشركين وخافوا إذا ظهر عليهم أن يفنيهم على بكرة أبيهم ، فما رأوا منه وهو فى موقف الغالب إلا العطف ، وكل ما يحبب الإسلام إلى قلوبهم ، وشمل أعاظم قريش بإحسانه ، وكفّ عن الأذى عند ما أعطوا[٢] بأيديهم وقال : ألا كل دم ومال ومأثرة فى الجاهلية فإنه موضوع تحت قدمى هاتين ، إلا سدانة الكعبة وسقاية الحاج فإنهما مردودان إلى أهلهما ، ألا وإن مكة محرمة بحرمة الله ، لم تحلّ لأحد قبلى ولا تحلّ لأحد من بعدى ، وإنما حلت لى ساعة ثم أغلقت ، فهى محرمة إلى يوم القيامة ، لا يختلى خلاها ، ولا يُعضد شجرها[٣] ، ولا ينفر صيدها ، ولا تحل لقطتها إلا لمنشد . ومن قتل له قتيل فهو بخير[٤] النظرين ، إما أن يعقل ، وإما أن يقاد أهل القتيل ، وقال من كان فى بيته صنم فليكسره ، ودعا بالنساء فبايعنه وأخذ عليهن العهد والميثاق ، فإذا أقررن بألسنتهن قال : بايعتكن ، ولا يمس أيديهن . فجعل من النساء أدوات صالحة لنشر الإسلام ، وكان بعضهن فى الجاهلية يصبغن ثيابهن بدم القتيل ويأكلن كبده وقلبه .

قال ابن قيم الجوزية : لما خرج رسول الله من حصر العدو دخل فى حصر النصر فعبثت أيدى سراياه بالنصر فى الأطراف فطار ذكره فى الآفاق . فصار الخلق معه ثلاثة أقسام : مؤمن به ومسالم له وخائف منه . دخل مكة دخولا ما دخله أحد قبله ولا بعده ، حوله المهاجرون والأنصار لا يبين منهم إلا الحدق ، دخل وذقنه تمس قربوس سرجه خضوعاً وذلا لمن ألبسه ثوب هذا العز الذى رفعت إليه فيه الخليقة رؤوسها ، ومدت إليه الملوك أعناقها ، فدخل مكة

---

(١) سقط فى يده وأسقط وسقط على المبنى للفاعل ندم . وهو مسقوط فى يده وساقط فى يده نادم (أساس البلاغة) .

(٢) يقال أعطى بيد إذا انقاد . (٣) يعضد يقطع والخلا العشب واختلاؤه قطعه . (٤) يعنى القصاص والدية أيهما اختار كان له وكل هذه معان لا صور (غريب الحديث لابن الأثير) .

مالكاً مؤيداً منصوراً وعلا كعب بلال فوق الكعبة بعد أن كان يجر فى الرمضاء على جمر الفتنة فنشر بزا طوى على التوم من يوم قوله « أحد أحد » ورفع صوته بالأذان فأجابته القبائل من كل ناحية فأقبلوا يؤمنون الصوت فدخلوا فى دين الله أفواجاً وكانوا قبل ذلك يأتون آحاداً . فلما جلس الرسول على منبر العز . وما نزل عنه قط ، مدت الملوك أعناقها بالخضوع إليه ، فنهم من سلم إليه مفاتيح البلاد ومنهم من سأله الموادعة والصلح ، ومنهم من أقر بالجزية والصغار ، ومنهم من أخذ فى الجمع والتأهب للحرب .

بعث الرسول فى سنة سبع كتبه ورسله إلى الملوك والأمراء من العرب والعجم يدعوهم إلى الإسلام ، وذلك لما تمت له الغلبة على قريش ، ولم يبال سلطانهم ، ولا استخذى[1] فى سبيل دعوته ، وكان كل كتاب أرسله يختلف بألفاظه ومعناه واحد . فمن الملوك من تلطف وهاداه ووالاه ، ومنهم من أكبر هذه الجرأة منه ككسرى فإنه مزق كتابه وأمر أحد عماله فى اليمن أن يأتى الحجاز ويستتيب الرسول أو يبعث إليه برأسه .

وهذا والناس يدخلون فى الدين أفواجاً ، والقبائل تنزل على حكم الرسول وأصحابه ، والوفود تفد عليه من أقطار بلاد العرب ، يدخل أهلها فى طاعته ، وتتخلى عن الشرك وتدين بالتوحيد ، وتؤدى الصدقات والأموال ، ومنهم من ينضم إلى جيشه ومنهم من يبقى فى أرضه ، وأهل الكتاب يؤدون الجزى والعشور ، ويسالمون الرسول لا يرجون غير رضاه . وفى كتبه إلى من رأى دعوتهم إلى دينه من الملوك والأقيال والزعماء مثال من سياسته واستبطانه أحوال كل قطر ومصر ، وهو أبداً فى شغل شاغل من تأمير الأمراء ، يوصيهم بتقوى الله[2] وبمن معهم من المسلمين ثم يقول : اغزوا على اسم الله فى سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، اغزوا ولا تغلوا ، ولا تغدروا ، ولا تمثلوا ، ولا تقتلوا وليداً . وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال ، فأيتهن أجابوك إليها فاقبل منهم وكف عنهم ، ادعهم إلى الإسلام ، فإن أجابوك

---

(١) يقال استخذى له إذا خضع . (٢) صحيح مسلم .

فاقبل منهم ، ثم ادعهم إلى التحول عن دارهم إلى دار المهاجرين ، فإن أبوا فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين ، ولا يكون لهم فى الغنيمة والفىء شىء ، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين ، فإن أبوا فاسألهم الجزية ، فإن أجابوك فاقبل منهم ، فإن أبوا فاستعن بالله تعالى وقاتلهم . وإذا حصرت أهل حصن فأرادوك على أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تفعل ، ولكن اجعل لهم ذمتك فإنكم أن تخفروا ذممكم ، أهون من أن تخفروا ذمة الله ، وإذا أرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تفعل بل على حكمك ، فإنك لا تدرى أتصيب فيهم حكم الله أم لا » .

ومن سياسة الرسول أن كان القريب والبعيد ، والقوى والضعيف ، فى الحق سواء ، ما هاب ملكاً لملكه ، ولا ذا سلطان لسلطانه ، ولا صانع ذا مال لماله ، يؤلف بين قلوب أهل الشرف ، ويؤلف أصحابه ولا ينفرهم ، ويكرم كريم قومه ، وهو أحلم الناس ، يحب العفو والستر ويأمر بهما ، يخوض مع أصحابه إذا تحدثوا . فيذكرون الدنيا[1] فيذكرها معهم ، ويذكرون الآخرة فيذكرها معهم ، ولا يجزى بالسيئة السيئة ، ولا ضرب امرأة ولا خادماً قط ، كان يبشر ولا ينفر ؛ وييسر ولا يعسر ، يعدل فى الغضب والرضا ، ويعفو عمن ظلمه ، ويصل من قطعه ويأمر أمراءه أى عماله أن يأذنوا للفقير قبل الغنى ، وللوضيع قبل الشريف ، وللمرأة قبل الرجل .

أشعر القلوب معنى المساواة والحرية وإلغاء الطبقات التى كان من نظامها أن يستعبد الشريف المشروف والغالب المغلوب ، استعباداً دونه الرق . سرقت امرأة من بنى مخزوم[2] فأهم قريشاً شأنها ، فقالوا من يكلم فيها رسول الله فقالوا : ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حبه ، فكلمه أسامة فقال : أتشفع فى حد من حدود الله تعالى ، ثم قام فاختطب[3] ثم قال : إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحد ، وايم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها .

(١) تاريخ أبى الفداء . (٢) تيسير الوصول لابن الديبع .
(٣) بالغ فى خطبته أو أظهرها .

ومن خطبه أيام التشريق[١] ألا لا تظالموا ثلاثاً ، ألا إنه لا يحل مال امرئ مسلم إلا بطيب نفس منه ، ألا إن كل دم ومال ومأثرة كانت فى أيام الجاهلية تحت قدمى هذه ، ألا وإن أول دم وضع دم ربيعة بن الحرث بن عبد المطلب ، كان مسترضعاً فى بنى ليث فقتلته هذيل ، ألا وإن كل ربا كان فى الجاهلية موضوع ، ألا وإن الله تعالى قضى أن أول ربا يوضع ربا عمى العباس (وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون) .

وأوصى الرسول آخر أمره بالأنصار وأهل الذمة وبالنساء وأذن فى الناس فى السنة التاسعة أنه لا يحج بعد ذاك العام مشرك ، ولا يطوف بالبيت عريان[٢] ، ومن كان له عند رسول الله عهد فهو له إلى مدته ، ولا عهد لمشرك ولا ذمة بعد أربعة أشهر ، ولم تمض سنة حتى دخلت العرب فى الإسلام وكانوا أكثر من مئة ألف وتعايروا بالشرك بينهم والمقام عليه[٣] .

* * *

صورنا فى الصفحة الماضية صورة من دعوة الرسول إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ، ومثلنا ما بلغ قومه من إيذائه وإيذاء أصحابه إلى ما لم تكد نفس بشرية تتحمله ، وها نحن أولاء نرسم صورة أخرى تكذب أيضاً من يقولوا عليه واتهموه بأنه ظلم من قاتلهم ، ولطالما رماه بذلك المتنطعون ليقولوا إن الإسلام ما قام إلا بالسيف . فقد رأينا عطف الرسول على نصارى نجران ،

(١) التشريق ثلاثة أيام بعد يوم النحر . (٢) مروج الذهب للمسعودى .

(٣) يقول درمنغهام فى كتابه حياة محمد أن فولتير صحح بعض ما ورد فى روايته المشهورة من الأحكام على محمد ، وأن مونتسكيو بعد مالبرانش ارتكب خطيئات فظيعة فى حكمه على الإسلام ، وكثيراً ما كان على صواب فى حكمه على المسلمين . أما الكونت دى بولنفليه وسكول وبلسكال وكوسان دى برسفال ودوزى وسبرنجر وبارتلمى سانهيلر ودى كاستري وكارلايل وغيرهم من المؤلفين فإنهم فى العادة يعطفون على الإسلام وعلى رسوله ويمتدحونهما فى الأحايين . وما زال كثيرون إلى اليوم يتحمسون فى التشنيع عليهما اهـ .

لما جاءه وفد منهم فيه عاقبهم وثمالهم وأسقفهم وصاحب مدارسهم في[١] ستين راكباً فناقشوه وناقشهم ثم ارتضوا بأداء الجزية فداموا بخير ما حافظوا على عهدهم. وكذلك كان حال أهل دومة الجندل[٢] وأذرح وهجر والبحرين وأيلة من بلاد النصارى فإنها كانت من أرض الصلح وأدت إلى الرسول الجزية وعاشت مع المسلمين بسلام. ولم يقاتل بنى قيس بن ثعلبة وكانوا نصارى وتركهم يلحقون باليمامة حتى أسلم الناس فمنهم من أسلم ومنهم من أقام على نصرانيته. وقال الرسول من ظلم معاهداً أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته، أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفسه فأنا حجيجه. وقال من قتل قتيلا من أهل الذمة لم يرح رائحة الجنة، وقال من قتل نفساً معاهدة بغير حلها حرم الله عليه الجنة أن يشمها، وجعل دية المعاهد كدية المسلم ألف[٣] دينار.

وعطف المسلمون على الروم لما غلبهم الفرس في أرض الجزيرة حتى فرح المشركون وشمتوا بالمسلمين[٤]. وقالوا أنتم والنصارى أهل كتاب، ونحن وفارس أميون، فقد ظهر اخوإننا المجوس على إخوانكم فلنظهرن عليكم. فنزل قوله تعالى: «الم، غلبت الروم في أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين»، ثم ظهرت الروم على فارس. والتقى الجيشان في السنة السابعة من الالتقاء الأول، وغلب الروم الفرس فسر المسلمون وصدق التنزيل[٥].

وفي السنة الأولى من الهجرة كانت وقعة ذى قار بين بكر بن وائل وبين الجيش الذى بعثه إليهم الملك خسرو ابرويز؛ فهزمت العجم ومن كان معها من

(١) المدارس البيت الذى يدرس فيه، والثمال الغياث الذى يقوم بأمر قومه ويكون صاحب رحلهم، والعاقب الذى يخلف السيد وهو ثانية في المرتبة ومنه جاء السيد والعاقب.

(٢) معجم ما استعجم للبكرى. (٣) الديات الشيبانى.

(٤) تفسير البيضاوى. (٥) يقول الجاحظ في الرد على النصارى إنما عطف قلوب دهماء العرب على النصارى الملك الذى كان فيهم والقرابة التى كانت لهم ولم تكن النصرانية فاشية في مضر مع أنها غلبت على ملوك العرب وقبائلهم من لخم وغسان والحرث بن كعب بنجران وقضاعة وطى وربيعة وتغلب وعبد القديس وافناء بكر ثم آل ذى الجدين وهم نصارى مغمورون مع نبذ يسير في القبائل.

تغلب وطى وضبة وتميم والنمر وبهراء وتنوخ وغيرهم من متنصرة العرب ، ولما أتى بعض بكر بن وائل الموسم وقف عليهم النبي وهو يعرض نفسه على القبائل فوعدوه إن نصرهم الله على الأعاجم أن يؤمنوا به فدعا لهم بالنصر ، ولما حمى وطيس الحرب بينهم وبين جيوش كسرى قالوا عليكم بشعار التهامى فنادوا يا محمد يا محمد فهزموا عدوهم ، فلما بلغه ظهورهم على الأعاجم قال : هذا أول يوم انتصفت فيه العرب من العجم[١] .

هكذا كانت عاطفة الرسول والمسلمين نحو النصارى ، ومثل ذلك كانت عاطفته نحو اليهود[٢] ، ولولا ذلك ما عاهدهم ولا هاجر من بلده إلى بلدهم معتصما بالأوس والخزرج خلفائهم ، وبعد أن عاهدوه وشرطوا عليه واشترط عليهم خانوه وألبوا عليه الأحزاب أى قبائل العرب ، وقالوا إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله . فبنو قريظة نقضوا عهده وأعانوا عليه فى غزوة الخندق ، وهى غزوة الأحزاب ، فحاصرهم حتى نزلوا على حكمه ، فأمر بقتل المقاتلين منهم وسبي ذراريهم واستفاءة[٣] أموالهم لمظاهرتهم المشركين على المسلمين . وبنو النضير امتنعوا منه بحصونهم فقطع نخلهم وشجرهم وأضرم النار عليهم فصالحوه على أن يحقن لهم دماءهم ويسيرهم إلى أذرعات الشام ، وجعل لكل ثلاثة منهم بعيراً وسقاه على أن لهم ما أقلت الإبل ما عدا الحلقة[٤] . ويهود خيبر طاولوه وماكسوه[٥] ، ثم صالحوه على حقن دمائهم وترك الذرية على أن يجلوا ويخلوا بين المسلمين وبين الأرض والصفراء والبيضاء والبزة إلا ما كان منها على الأجساد ؛ ثم قالوا له : إن لنا بالعمارة والقيام على النخل علما فأقرنا فأقرهم ، وساقاهم على النصف من ثمارهم . وبنو قينقاع نزلوا

---

(١) تفسير البيضاوى . (٢) يقول الجاحظ : ليست اليهودية بغالبة على قبيلة إلا ما كان من ناس ونبذ يسير من جميع إياد وربيعة ، ومعظم اليهودية إنما كانت بيثرب وخيبر وتيماء ووادى القرى فى ولد هارون دون العرب . ويقول البلاذرى ، إن بختنصر لما هدم بيت المقدس وأجلى من أجلى وسبى من سبى من بنى إسرائيل لحق قوم منهم بناحية الحجاز فنزلوا وادى القرى وتيماء ويثرب .

(٣) استفاء المال : أخذه فيئاً . والفىء . الغنيمة . (٤) الحلقة : السلاح .

(٤) ماكسوه : شاكسوه . والمماكسة : المشاحنة وطلب الحط من الثمن .

على حكمه فغنم أموالهم وأخذ الخمس وهو أول خمس خمسه[١] وفرق أربعة الأخماس على أصحابه . وبنو المصطلق كان حكمهم حكم غيرهم . وفتح وادى القرى وأخذ المسلمون أرضهم لامتناعهم عن قبول الإسلام وقتالهم له . فما كان الرسول هو الظالم لليهود بل هم الذين ظلموا أنفسهم ومن اليهود من ألقى صخرة على الرسول يريد قتله ومن كان معه من أصحابه . وفى غزوة خيبر أدخلت عليه السم فى الطعام زينب بنت الحرث اليهودية . ومنهم من آذاه وآذى المسلمين ككعب بن الأشرف الشاعر اليهودى هجاه وشبب بنساء المسلمين وحرض عليهم وآذاهم فقتله . وعصماء بنت مروان الشاعرة اليهودية كانت تعيب الإسلام وتؤذى النبى وتحرض عليه وتهجوه ، وأبو عفك اليهودى يحرض على المسلمين ويقول الشعر على الرسول . ولم يترك اليهود حيلة لالقاء الشقاق بين المسلمين ، وبين المسلمين والمشركين إلا أتوها ، وغاظهم تألف[٢] الأوس والخزوج فذكروهم يوم بعاث ، وكان الظفر فيه للأوس فى الجاهلية . فتنازع القوم وتفاخروا وتغاضبوا وتداعوا إلى السلاح ولولا أن وعظهم الرسول وأبان لهم أن ذلك كيد من عدوهم لأفنى بعضهم بعضاً . وفى هذه المؤامرة نزلت آية : « يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقاً من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين » .

وبدأ بدومة الجندل فكانت أول غزواته للروم فيها وغزا تبوك ثم أغزى بعض خاصته موتة من أرض الشام ذلك لما بلغه أن الروم تجمع جموعها تريد أن تغزو بلاد العرب بمن عندها من متنصرة العرب وغيرهم . وكان شرحبيل ابن عمرو الغسانى من عمال الروم عرض للحرث بن نمير الأسدى رسول الرسول إلى أمير بصرى يحمل كتاباً فقتله ، ولم يقتل للنبى رسول غيره فوجد عليه وجدا كثيراً .

فلم يعمد الرسول إلى السيف إلا لما رأى الخطر يتحيفه من كل وجه ، وما قاله بالقوة إلا لما استنفد عامة طرق الدعاية إلى دينه . وما غزا غزوة إلا عن سبب قوى دعاه إليها . ومن المتعذر أن يحمى حمى الدين بغير حماية

(١) التنبيه والإشراف المسعودى . (٢) تفسير البيضاوى .

القائمين به ، ولا يأمن المضعوف شر القوى إلا إذا قوى مثله ، ولن تكون الحجاز بمأمن من جيوش الروم وفارس ، إذا لم تكن العرب ذات سطوة يخشى بأسها ، ولا يكون محمد والمؤمنون به بمنجاة من مجاوريهم إذا لم يكونوا أبداً على استعداد لمقابلتهم بمثل سلاحهم .

قويت كلمة الإسلام وزاد كلب أعدائه فأمر الرسول بقتال المشركين والكفار والمنافقين[1] وجاءت عدة آيات فى قتالهم منها : « يا أيها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم ومأواهم جهنم وبئس المصير . وقاتلوا المشركين كافة واعلموا أن الله مع المتقين . قاتلوهم يعذبهم الله بأيديهم ويخزهم وينصركم ويشف صدور قوم مؤمنين ، فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله . واقتلوهم حيث ثقفتموهم وأخرجوهم من حيث أخرجوكم ، انفروا خفافاً وثقالا وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله . يا أيها النبي حرض المؤمنين على القتال إن يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وإن يكن منكم مائة يغلبوا ألفاً من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون . قاتلوا الذين لا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر ولا يحرمون ما حرم الله ورسوله ولا يدينون دين الحق من الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يدوهم صاغرون » .

وكان من حرب الرسول للعرب فوائد أخرى . منها الضرب على أيدى من استنزفوا ثروة الجزيرة ، توزع أموالهم على العاملين من الناس ويعوض من مال من قاوموا الإسلام على المهاجرين الذين فقدوا بهجرتهم ما كانوا يملكونه فى مكة من عروض التجارة والعقار والأرض ، ويعتاض الأنصار

---

(١) فى شرح المقاصد للسعد التفتازانى أن الكافر اسم لمن لا إيمان له ، فإن أظهر الإيمان خص باسم المنافق ، وإن طرأ كفر بعد إسلام خص باسم المرتد ، لرجوعه عن الإسلام ، فإن قال بالمين أو أكثر خص باسم مشرك لإثباته الشركة فى الألوهية ، وإن كان متديناً ببعض الأديان والكتب المنسوخة خص باسم الكتابى كاليهودى والنصرانى ، وإن كان يقول بقدم الدهر وإسناد الحوادث إليه خص باسم الدهرى ، وإن كان لا يثبت البارى سبحانه خص باسم المعطل ، وإن كان مع اعترافه بنبوة النبى وإظهار عقائد الإسلام يبطن عقائد هى كفر بالاتفاق خص باسم الزنديق .

عما أنفقوه فى إكرام إخوانهم المهاجرين إلى المدينة فأعانت الحروب الأولى أهل الإسلام على المضى فى دعوتهم ليتفرغوا بما تصل إليه أيديهم من المغانم والصدقات ، فيقووا على حرب من أفسدوا كيان الجزيرة بما استحلوا من ظلم أهلها . ومنهم من كانوا يكرهون إماءهم على الزنا ويضربون عليهم الضرائب فنزل قوله تعالى : « ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أراد تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا » .

ثم إن العرب ذلوا زمناً طويلا لفارس والروم ، وآن لهم بعد أن اعتزو بالإسلام أن خرجوا من صحاريهم داعين لما تلقوه من آداب الدين ، آخذين بحظ من الدنيا ، ومن قبل كانت تجارتهم مسارقة ومغامرة ، تشتد حاجتهم إلى جيرانهم ، وهؤلاء قلما يحتاجون إليهم ، ويتطلبون رضا من ينزلون عليهم ، وهؤلاء لا يعبأون بهم كثيراً ، وكيف السبيل إلى الاستمتاع بالكرامة والأمنة إذا فقدت القوة المادية ، وكيف تؤمن الطرق إلى انتشار الدين إن لم تكن وراءها قوة تحميها ، وعلم يرفرف على دعاتها .

ولأحمد شوقى مخاطباً الرسول فى جهاده :

قالوا غزوت ورسل الله ما بعثوا لقتل نفس ولا جاءوا اسفك دم
جهل وتضليل أحلام وسفسطة فتحت بالسيف بعد الفتح بالقلم
لما أتى لك عفواً كل ذى حسب تكفل السيف بالجهال والعمم(١)
والشر إن تلقه بالخير ضقت به ذرعاً وإن تلقه بالشر ينحسم
سل المسيحية الغراء كم شربت بالصاب من شهوات الظالم الغلم(٢)
طريدة الشرك يؤذيها ويوسعها فى كل حين قتالا ساطع الحدم(٣)
لولا حماة لها هبوا لنصرتها بالسيف ما انتفعت بالرفق والرحم(٤)

(١) العم اسم جامع للعامة . (٢) الغلم الهائج الثائر .
(٣) الحدم شدة احتراق النار . (٤) الرحم الرقة والمغفرة والتعطف .

سياسة الخلفاء الراشدين

سياسة أبى بكر الصديق .

لحق الرسول بربه بعد أن دعا إليه ثلاث عشرة سنة فى مكة وعشر سنين فى المدينة ، فعرت الصحابة دهشة عظيمة لوفاته ، حتى أن عمر نفسه قال يوم ارتحال النبى ، ما مات محمد رسول الله وليبعثنه الله تعالى فقال أبو بكر : ألا من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت ، وتلا قوله تعالى : « إنك ميت وإنهم ميتون . وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين » . فنفخ الصديق فى قلوب أصحابه روح الصبر ، وأنقذهم بما ذكرهم به من الجزع ، وأرشدهم إلى ما كانوا غفلوا عنه ، من أن دعوتهم إلى الله وشرعه وتوحيده ، وأن صاحب هذا الشرع كان بشيراً ونذيراً وبشراً رسولا ، إذا قضى فإن شرعه لن يموت ، وأن الواجب أن يعملوا كلهم جميعاً لإتمام مقصده الأعلى .

وكان لزاماً بعد وفاة الشارع أن يبايع لأعظم رجل من أصحابه ، يتولى من أمر الأمة ما تولاه رسولها منه ، لتظل الدعوة مستحكمة ، والألفة بين المؤمنين شائعة ، ويكمل هذا الصرح الدينى الذى أسسه صاحبه العظيم لسلامة الخلق ، وليس أفضل من أبى بكر لإتمام هذا الغرض ، وهو شيخ قريش بسنه وفضله وحسن بلائه ، وهو أعرف الصحابة بمقاصد صاحب الرسالة لطول ملابسته له ، ولأن الرسول لما مرض مرضته التى توفى بها قال لمن حضر غير مرة : مروا أبا بكر فليصل بالناس ، وإن تفضيله له على غيره دليل ثقته به .

اجتمع الناس غداة ارتحال الرسول فى سقيفة بنى ساعدة برياسة سيد الخزرج سعد بن عبادة فأذعنت الأنصار لبيعته ، وقال المهاجرون[1] الأئمة من قريش، وطال الحوار فقال الأنصار : منا أمير ومنكم أمير . وقال المهاجرون نحن الأمراء وأنتم الوزراء . وكان شاهد هذه المحاورة أبو بكر وعمر ، وكان عمر هيأ كلاماً يريد أن يقوله فانقطع ، وتقدم أبو بكر فخطب وقال : « نحن المهاجرون أول الناس إسلاماً والناس لنا تبع ، ونحن عشيرة رسول الله ، ونحن مع ذلك أوسط العرب أنساباً ، ليست قبيلة من قبائل العرب إلا ولقريش فيها ولادة ، وأنتم والله الذين آووا ونصروا ، وأنتم وزراؤنا فى الدين ووزراء رسول الله ، وأنتم إخواننا فى كتاب الله تعالى . وشركاؤنا فى دين الله عز وجل وفيما كنا فيه من سراء وضراء ، والله ما كنا فى خير قط إلا كنتم معنا فيه » . ودعاهم إلى مبايعة أبى عبيدة بن الجراح أو عمر بن الخطاب . فقال عمر وأبو عبيدة ما ينبغى لأحد من الناس أن يكون فوقك يا أبا بكر ، أنت صاحب الغار ثانى اثنين ، وأمرك رسول الله بالصلاة ، فأنت أحق بهذا الأمر . وطالت مرادات المؤتمرين من زعماء الأنصار والمهاجرين ، ثم قال أبو بكر يدعوهم إلى الجماعة وينهاهم عن الفرقة ، وقال إنى ناصح لكم فى أحد هذين الرجلين أبى عبيدة وعمر ، فبايعوا من شئتم منهما . فقال عمر : معاذ الله أن يكون ذلك وأنت بين أظهرنا ، أنت أقدمنا صحبة لرسول الله ، وأنت أفضل المهاجرين وثانى اثنين ، وخليفته على الصلاة ، والصلاة أفضل دين الإسلام ، فمن ذا ينبغى أن يتقدمك ، ويتولى الأمر عليك ، أبسط يدك أبايعك فبايعوه ، ومن الغد بويع مبايعة عامة فى المسجد ، ولم يتخلف عن بيعته سوى على ابن أبى طالب ، والعباس بن عبد المطلب ، وسعد بن عبادة . وقعد على والعباس والزبير فى بيت فاطمة حتى بعث إليهم أبو بكر عمر بن الخطاب ليخرجهم من بيتها وقال له : إن أبوا فقاتلهم فأقبل بقبس من نار على أن يضرم عليهم

(١) الفرق بين الفرق للبغدادى والإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة والعقد الفريد لابن عبد ربه والملل والنحل لابن حزم .

النار ، فلقيته فاطمة فقالت : يا ابن الخطاب جئت لتحرق دارنا قال : نعم أو تدخلوا فيما دخلت فيه الأمة . وحرص عمر كل الحرص على أخذ البيعة من على لأبى بكر لأن علياً أحد العشرة المبشرة . وما عبأ كثيرا بتخلف سعد عن البيعة . وبايع بنو هاشم بأجمعهم .

وأقام أبو بكر بعد البيعة ثلاثة أيام يقبل الناس ويستقبلهم ويقول : قد أقلتكم فى بيعتى هذه ، هل من كاره ، هل من مبغض ؟ . وخطب القوم ومما قال : وأيم الله ماحرصت عليها — أى الخلافة — ليلا ولا نهاراً ، ولا سألتها الله قط فى سر ولا علانية ، ولقد قلدت أمرا عظيما مالى به طاقة ولا يد ، ووددت أنى وجدت أقوى الناس عليه مكانى فأطيعونى ما أطعت الله ، فإذا عصيت فلا طاعة لى عليكم .

وأنكرت فاطمة ابنة الرسول وزوج على بن أبى طالب حرمان زوجها الخلافة ، ومنزلتها ومنزلة زوجها منزلتهما ، فاستأذن أبو بكر وعمر عليهما فلم تأذن[1] ؛ فأدخلهما علىٌّ عليها فقالت : تركتم رسول الله جنازة بين أيدينا وقطعتم أمركم بينكم ، لم تستأمروا ولم تردوا لنا حقاً . فحاوراها فما زادت إلا غضبـــاً وقالت : لئن لقيت النبى لأشكونكما إليه . وقالت لأبى بكر : لأدعون الله عليك فى كل صلاة أصليها . فخرج أبو بكر باكياً فاجتمع إليه الناس فقال لهم : يبيت كل رجل منكم معانقاً حليلته مسروراً بأهله ، وتركتمونى وما أنا فيه ، لا حاجة لى فى بيعتكم ، أقيلونى بيعتى . قالوا : « ياخليفة رسول الله ، إن هذا الأمر لا يستقيم ، وأنت أعلمنا بذلك ، إنه إن كان هذا لم يقم لله دين . فقال : والله لولا ذلك ، وما أخافه من رخاوة هذه العروة ، ما بت ليلة ولى فى عنق مسلم بيعة بعد ما سمعت[2] ورأيت من فاطمة .

---

(١) الملل والنحل لابن حزم .

(٢) يقول ابن تيمية من المعلوم المتواتر عند الخاصة والعامة اللى لم يختلف فيه أهل العلم بالمنقولات والسير أن أبا بكر لم يطلب الخلافة لا برغبة ولا برهبة ولا بذل فيها ما يرغب الناس به ولا شهر عليهم سيفاً يرهبهم به ، ولا كانت له قبيلة ولا أموال تنصره وتقيمه فى ذلك كما جرى من عادة الملوك أن أقاربهم ومواليهم يعاونونهم ولا طلبها أيضاً بلسانه ، ولا قال بايعونى بل أمر بمبايعة عمر أو أبى عبيدة ومن تخلف عن بيعته كسعد بن عبادة لم يؤذه ، ولا أكرهه =

وقال أبو بكر لعلى[١] : «والله لقد سألت رسول الله عن هذا الأمر فقال لى : يا أبا بكر هو لمن يرغب عنه لا لمن يجاحش[٢] عليه ، ولمن يتضاءل عنه لا لمن يشمخ إليه ، وهو لمن يقال له هو لك ، لا لمن يقول هو لى ، والله لقد شاورنى رسول الله فى الصهر ، فذكر فتياناً من قريش فقلت له : أين أنت من على فقال : إنى لأكره لفاطمة ميعة[٣] شبابه وحداثة سنه ، فقلت له : متى كنفته يدك ، ورعته عينك ، بهما البركة ، وسبغت عليهما النعمة ، مع كلام كثير خاطبته رغبة فيك ، وما كنت عرفت منك حوجاء ولا لوجاء[٤] . فقلت ما قلت ، وأنا أرى مكان غيرك ، وأجد رائحة سواك ، وكنت لك إذ ذاك خير منك الآن لى ، ولئن عرض بك رسول الله فى هذا هذا الأمر ، فلم يكن معرضاً عن غيرك ، وإن قال فيك فما سكت عن سواك » .

وسواء أصحت هذه الرواية أم لم تصح ، وليس ثمة ما يمنع من صحتها ، لأن معناها تدل عليه الظواهر والوقائع ، فقد ثبت أن علياً كان له وجه عند

على المبايعة ولا منعه حقاً له ولا حرك عليه ساكناً ، وهذه غاية فى عدم إكراه الناس على المبايعة . ثم إن المسلمين بايعوه ودخلوا فى طاعته والذين بايعوه هم الذين بايعوا رسول الله تحت الشجرة وهم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه ، وهم أهل الإيمان والهجرة والجهاد ولم يتخلف عن بيعته إلا سعد بن عبادة وأما على وسائر بنى هاشم فلا خلاف بين الناس أنهم بايعوه لكن تخلفه لأنه كان يريد الأمر لنفسه رضى الله عنهم أجمعين ثم إنه فى مدة ولايته قاتل بهم المرتدين والمشركين ولم يقاتل المسلمين بل أعاد الأمر إلى ما كان عليه قبل الردة ، وأخذ يزيد الإسلام فتوحاً ، وشرع فى قتال فارس والروم ومات والمسلمون محاصرون دمشق وخرج منها أزهد مما دخل فيها لم يستأثر دونهم بشىء ولا أمر له قرابة ، ثم ولى عليهم عمر بن الخطاب ففتح الأمصار وقهر الكفار وأعز أهل الإيمان وأذل أهل النفاق والعدوان ونشر الدين وبسط العدل فى العالمين ووضع ديوان الخراج والعطاء لأهل الدين ومصر الأمصار للمسلمين وخرج منها أزهد مما دخل فيها لم يتلوث لهم بمال ولا ولى أحداً من أقاربه ولاية .

(١) رسالة أبى بكر الصديق إلى على بن أبى طالب فى شرح نهج البلاغة ونهاية الأرب للنويرى .

(٢) جاحش حامى ودافع ، يقال « جاحش عن خيط رقبته » أى نفسه وهو مثل .

(٣) ميعة الشباب أوله .

(٤) الحوجاء الحاجة ومنه وما كان فى نفسه حوجاء ولا لوجاء ولا حويجا ولا لويجاء أى حاجة .

الناس حياة فاطمة[١] ، فلما ماتت لخمس وسبعين ليلة من وفاة أبيها، انصرفت وجوه الناس عنه ، فعندها ضرع زوجها إلى مصالحة أبي بكر ، وقال له : ما نفسنا عليك ما ساقه الله إليك من فضل وخير ، ولكنا نرى أن لنا فى هذا الأمر شيئاً ، فاستبددت به دوننا وما ننكر فضلك ، وقالوا إن مما قاله أبوعبيدة لعلى : يابن عم[٢] إنك حدث السن ، وهؤلاء مشيخة قومك ، وليس لك مثل تجربتهم ومعرفتهم بالأمور ، ولا أرى أبا بكر إلا أقوى على هذا الأمر منك ، وأشد احتمالا واضطلاعاً فسلم لأبى بكر ، فإنك إن تعش ويطل بك بقاء ، فأنت بهذا الأمر خليق وحقيق ، فى فضلك ودينك وعلمك وسابقتك ونسبك وصهرك .

وبديهى أن الصحابة بأسرهم كانوا يحرصون على الجماعة كما كانوا كلمة واحدة فى نصرة الدين ، ومثل علىّ بعقله وعلمه وتقواه لاتحدثه نفسه أن يسير على غير الجادة ، بعد أن شاهد الإجماع على مبايعة أبى بكر ، فراعى الأمر الواقع ، ورأى الخير فيما تم ، والسياسة مصلحة ، وأكفأ الصحابة لها أبو بكر . وبهذا الإجماع من أهل الحل والعقد وعِلْيَة الصحابة ، ممن مات رسول الله وهو عنهم راض ، وكانوا السابقين الأولين إلى هدايته ، ثبت أن الرسول لم يوص لأحد بعده ، وليس فى القرآن إشارة إلى استحقاق الخلافة بالإرث ، بل ولا للخلافة بالمعنى الذى عرفه الناس بعد ، ولو كان هناك شىء لما وسع الصحابة ، على منزلة الصديق منهم ، أن يبايعوه ، ويغفلوا عن على ، ويتركوا وصية الرسول جانباً ، وهناك أمور أدركها الصحابة بالبداهة ، منها تقديم أبى بكر للصلاة ، لأنه حِبُّ الرسول وصاحبه الأكبر ، وعطفه عليه ظاهر ، وثقته به لا تدفع ، وأدركوا أن الخلافة لعامة قريش[٣] ، وأن الرسول لم يخص بها أهل بيته ولا بنى هاشم ، حتى لا يتخيل الناس أنه ملك متوارث . « وإذا كان[٤] جعفر أفضل بنى هاشم بعد على فى حياته ، ثم مع هذا أمّر النبى زيد بن حارثة وهو من بنى كلب عليه ، علم أن التقدم

(١) تيسير الوصول لابن الديبع . (٢) الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة .
(٣) النزاع والتخاصم للمقريزى . (٤) منهاج السنة لابن تيمية .

بفضيلة الإيمان والتقوى ، وبحسب أمور أخرى ، وبحسب المصلحة لا النسب ، ولهذا قدم النبي أبا بكر وعمر على أقاربه لأنه رسول الله ، يأمر بأمر الله ، وليس من الملوك الذين يقدمون بأهوائهم لأقاربهم ومواليهم وأصدقائهم ، وكذلك كان أبو بكر وعمر ، حتى قال عمر : من أمر رجلا لقرابة أو صداقة بينهما وهو يجد فى المسلمين خيرا منه ، فقد خان الله ورسوله وخان المؤمنين »

قال زيد بن على : إن الخلافة فوضت إلى أبى بكر لمصلحة رأوها ، وقاعدة دينية راعوها ، من تسكين ثائرة الفتنة ، وتطييب قلوب العامة ، فإن عهد الحروب التى جرت فى أيام النبوة كان قريباً ، وسيف أمير المؤمنين عليه السلام من دماء المشركين من قريش لم يجف بعد ، والضغائن فى صدور القوم من طلب الثأر كما هى ، فما كانت القلوب تميل إليه كل الميل ، ولا الرقاب تنقاد له كل الانقياد ، وكانت المصلحة أن يكون القيام بهذا الشأن لمن عرفوه باللين والتودد والتقدم بالسن والسبق فى الإسلام والقرب من رسول الله .

وقال أبو بكر للعباس : إن الرسول خلى على الناس أمرهم ليختاروا لأنفسهم فى مصلحتهم متفقين لا مختلفين ، فاختارونى عليهم والياً ، ولأمورهم راعياً . وخرج أبو بكر إلى المسجد فأقبل على الناس فقام على فعظم حق أبى بكر وذكر فضيلته وسابقته ثم مضى فبايعه فأقبل الناس على على فقالوا : أصبت يا أبا الحسن وأحسنت . يقول المسعودى[1] إنه تنوزع فى بيعة على ابن أبى طالب أبا بكر فنهم من قال بعد موت فاطمة بعشرة أيام وذلك بعد وفاة رسول الله بنيف وسبعين يوماً ، وقيل بثلاثة أشهر وقيل ستة وقيل غير ذلك .

أما سعد بن عبادة الذى بايعه قومه أو كادوا بالخلافة فى سقيفة بنى ساعدة قبل أن يشهدها أبو بكر وعمر وأبو عبيدة ، فقد بطلت بيعته بإجماع الناس على

(١) مروج الذهب للمسعودى .

أبى بكر ، وقال : لا أبايع حتى أراميكم بما فى كنانتى[1] ، وأقاتلكم بمن تبعنى من قومى وعشيرتى ، فترك وشأنه لم يعرض له أحد بسوء . وكان سعد يدعو « اللهم هب لى حمداً ، وهب لى مجداً » وكان من أجواد الناس وأصحاب الجاه العريض والوفر المأثور . سمع عمر بعضهم يقول إن بيعة أبى بكر فلتة فتمت فغضب عمر وخطب فيما جرى يوم السقيفة فقال : خشينا[2] إن فارقنا القوم ولم تكن بيعة ، أن يبايعوا رجلا منهم بعدنا ، فإما بايعناهم على ما لا نرضى ، وإما أن نخالفهم فيكون فساد ، فمن بايع رجلا على غير مشورة من المسلمين فلا يتابع هو ولا الذى بايعه تغرّة أن يقتلا[3] .

والحق أن الخير كل الخير كان فى الإسراع ببيعة أبى بكر ، وفى حرص أبى بكر وعمر على أن تكون بيعة عامة لا يفلت منها من كان له مكانة فى الصحابة ، وذلك لأن عقلاء القوم كانوا يتخوفون العرب ، والجزيرة لم تصف كلها بالإسلام صفاء يركن إليه ، وارتد أكثر العرب عقبى وفاة الرسول[4] إلا أهل المدينة ومكة والطائف ، وحاول بعض أهل مكة أن يرتدوا ، فقام سهيل بن عمرو على باب الكعبة وصاح بقريش وغيرهم فاجتمعوا إليه فقال : يا أهل مكة كنتم آخر من أسلم ، فلا تكونوا أول من ارتد ، والله ليتمن هذا الأمر كما قال رسول الله ، فامتنع أهل مكة من الردة . وسهيل بن عمرو هذا هو أخو عامر بن لؤى الذى تولى عقد الصلح عن قريش عشر سنين ، وأبى على الرسول أن يكتب فى العهد « هذا ما صالح عليه محمد رسول الله » فقال سهيل : لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك ، اكتب اسمك واسم أبيك . فقبل الرسول هذا التحكم على مضض ممن كان شاهد ذلك من الصحابة .

بعد استخلاف أبى بكر بعشرة[5] أيام ، امتنعت بعض قبائل العرب من أداء الزكاة فمنعت شاتها وبعيرها وارتضوا بالصلاة ، ولما كانت الزكاة من دعائم

(١) طبقات ابن سعد . (٢) تيسير الوصول لابن الديبع .
(٣) أى خوف تغرة أن يقتلا أى خوف إيقاعها فى القتل . والتغرة مصدر أغررته إذا ألقيته فى الغرر وهى من التغرير .
(٤) تاريخ أبى الفداء . (٥) مروج الذهب للمسعودى .

الإسلام ، رأى أبو بكر أن الممتنع عن أدائها مرتد ، ومن أنكر بعضاً قد يبلغ به الحال أن ينكر أكثر من ذلك . واستشار أبو بكر الصحابة فأجمع رأيهم[1] كلهم أن يلزم أبو بكر بيته ومسجده ، إذ لا طاقة له بقتال العرب فقال أبو بكر : أإن أكثر أعداؤكم وقل عددكم ركب الشيطان منكم هذا المركب ، والله ليظهرن الله هذا الدين على الأديان كلها ، ولو كره المشركون قوله الحق ووعده الصدق ، بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق[2] . وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين . والله أيها الناس لو أفردت من جميعكم لجاهدتهم فى الله حق جهاده ، حتى أبلى بنفسى عذراً أو أقتل قتلا ، والله أيها الناس لو منعونى عقالا لجاهدتهم عليه ، واستعنت الله وهو خير معين ، وعلى هذا جاهد حتى أذعنت العرب بالحق .

استبد الصديق برأيه فى دفع هذه الغائلة ، وأبى إلا قتال المرتدين والمتنبئين فكان رأيه مسدداً دون سائر إخوانه ، وأثبت للملإ أنه خير من يجمع كلمة المسلمين ، بما أوتى من نفس قوية وصبر ، وعلم محكم بأفضل التجارب ، فلم يترك بشدته على أهل الردة ، والكذبة من متنبئة العرب ، مجالا لتسرب الضعف إلى نفوس المسلمين ، وذهب ، وهو رجل الحرب والسلم ، بهذه المفخرة من قتال النازين على الدولة الفتية والدين الجديد ، فعد رجل البأس والدهاء السياسى ، كما هو رجل الرحمة واللين ، لم يتلكأ عن مباغتة المرتدين ومناجزتهم قبل أن يأخذوا عدتهم ، وينشروا بين الناس دعوتهم ، فكان عمله كله الحكمة وبها قام الإسلام .

كتب أبو بكر لأمرائه الذين وجههم لقتال أهل الردة ما نسخته : هذا عهد من أبى بكر خليفة رسول الله لفلان ، بعثه فيمن بعثه لقتال من رجع عن الإسلام ، عهد إليه أن يتقى الله ما استطاع فى أمره كله سره وجهره ،

---

(١) الكامل المبرد .

(٢) الزاهق والهالك والزهوق ذهاب الروح ، ونقذف نغلب ، بتشديد اللام ، فيدمغه فيمحقه ، والدمغ كسر الدماغ بحيث يشق غشاؤه المؤدى إلى زهوق الروح .

وأمره بالجد فى أمر الله ، ومجاهدة من تولى عنه ، ورجع عن الإسلام إلى أمانى الشيطان ، بعد أن يعذر[1] إليهم فيدعوهم بدعاية الإسلام ، فإن أجابوه أمسك عنهم ، وإن لم يجيبوه شن غارته عليهم حتى يقروا لهم ، ثم ينبئهم بالذى عليهم والذى لهم ، فيأخذ ما عليهم ويعطيهم الذى لهم ، ولا ينظرهم ، ولا يرد المسلمين عن قتال عدوهم ، فمن أجاب إلى أمر الله عز وجل وأقر له ، قبل ذلك منه وأعانه عليه بالمعروف ، وإنما يقاتل من كفر ، بالله على الإقرار بما جاء من عند الله ، فإذا أجاب الدعوة لم يكن عليه سبيل ، وكان الله حسيبه بعد فيما استسر به ، ومن لم يجب إلى داعية الله قتل وقوتل ، حيث كان وحيث بلغ مراغمه[2] ، لا يقبل من أحد شيئاً أعطاه إلا الإسلام ، فمن أجابه وأقر به قبل منه وعلمه ، ومن أبى قاتله فإن أظهره الله عليه قتل فيه كل قتلة بالسلاح والنيران ، ثم قسم ما أفاء الله الا الخمس فإنه مبلغناه ، وأن يمنع أصحابه العجلة والفساد ، وألا يدخل فيهم حشوا حتى يعرفهم ويعلم ما هم لئلا يكونوا عيوناً ، ولئلا يؤتى المسلمون من قبلهم ، وأن يقتصد بالمسلمين ، ويرفق بهم فى السير والمنزل ، وبتفقدهم ولا يعجل بعضهم عن بعض ويستوصى بالمسلمين فى حسن الصحبة ولين القول اﻫ .

ومن وصايا الصديق ليزيد بن أبى سفيان لما أرسله إلى الشام « إذا دخلت بلاد العدو فكن بعيداً من الحملة فإنى لا آمن عليك الجولة ، واستظهر بالزاد وسر بالأدلاء ولا تقاتل بمجروح فإن بعضه ليس منه ، واحترس من البيات فإن فى العرب غرة[3] ، وأقل الكلام فإن لك ما وعى عنك ، وإذا أتاك كتابى فأنفذه فإنما أعمل على حسب إنفاذه ، وإذا قدمت عليك وفود العجم فأنزلهم معظم عسكرك واسبغ عليهم النفقة ، وامنع الناس عن محادثتهم ليخرجوا جاهلين كما دخلوا جاهلين . ولا تلحن فى عقوبة فإن أدناها وجع ، ولا تسرعن

---

(١) أعذر : قدم إليه عذراً . (٢) المراغم : المذهب والمهرب والمضطرب .
(٣) بيت العدو : أوقع بهم ليلا من دون أن يعلموا . والغرة : الغفلة .

إليها وأنت تكتفى بغيرها ، وأقبل من الناس علانيتهم ، وكلهم إلى الله فى سرائرهم ، ولا تجسس عسكرك فتفضحه ، ولا تهمله فتفسده . وفى رواية أنه قال ذلك لخالد بن الوليد حين وجهه لقتال أهل الردة .

مثال من منهاج الصديق فى محاربة الناشزين على دينه ، وهو لم يخرج فى مدته القصيرة التى ولى فيها الخلافة عن الخطة التى رسمها الرسول . قضى على المرتدين والمتنبئين ، وما سها عن التوسع فى الفتوح ، وبسط سلطان الإسلام . وكانت حروب الردة من أول ما علم العرب أن الانشقاق الداخلى مما يقوض دعائم الممالك ، ويفصم عرا الوحدة فى الأمم ، وقُدّر أن كانت هذه الغزوات بمثابة تمرين لرجال الإسلام على الحروب الكبرى ، وفيها ظهرت لهم كفاءات غريبة ساعدتهم على الفتوح بعد حين ، فدكوا عروش أمم تسلسل فيها الملك قروناً ، وعرفوا كيف يأخذون بمخنق الشعوب والقبائل .

أخذت العرب بعد ذلك تضيف إلى ما تعلمته من صاحب النبوة ، ماهدتها إليه فطرتها السليمة ، ولقنها إياه المحيط والبيئة ، وأى سياسة أحكم مما قاله أبو بكر وهو يشيع يزيد بن أبى سفيان لفتح الشام يوصيه بما يجب عمله : وإذا قدم عليك رسل عدوك فأكرم مثواهم ، فإنه أول خيرك إليهم وأقلل حبسهم حتى يخرجوا وهم جاهلون بما عندك ، وامنع من قبلك من محادثتهم ، وكن أنت الذى تلى كلامهم ، وإذا بلغتك عن عدوك عورة فاكتمها حتى توافيها ، واستر فى عسكرك الأخبار وأذك الحراس . وقال : إنك ستجد قوماً حبسوا أنفسهم لله فذرهم وما حبسوا أنفسهم له يعنى الرهبان . ثم قال إنى موصيك بعشر : لا تغدر ولا تمثل ، ولا تقتل هرماً ولا امرأة ولا وليدا ، ولا تعقرن شاة ولا بعيراً إلا ما أكلتم ، ولا تحرقن نخلا ولاتخربن عامراً ، ولا تغل ولا تجبن .

ومن خطب أبى بكر « إنكم اليوم على خلافة نبوة ومفرق محجة ، وسترون بعدى مُلكاً[1] عضوضاً ، وأمة شعاعاً ، ودماً مفاحاً ، فإن كانت

---

(١) ملك عضوض ، فيه استبداد وعنف ، وأمة شعاع متفرقة ، ودم مفاح مسفوح .

للباطل نزوة ، ولأهل الحق جولة ، يعفو لها الأثر وتموت السنن ، فالزموا المساجد ، واستشيروا القرآن ، والزموا الجماعة ، وليكن الإبرام بعد التشاور والصفقة بعد طول التناظر » . كأن أبا بكر كان يستشعر ببصيرته على نحو ما يكشف السياسي المحنك ، حجب الغيب أو يكاد ، أن الخلافة تنقلب إلى ملك عضوض لما يرى مما يجرى فى الخفاء ، ولما يبيت بعضهم من نيات تُراد الدنيا فى تحقيقها أكثر من الأخرى .

وخطب يوماً أهل المدينة فى يوم جمعة ، وكان يبلغه عن قوم من أهلها أنهم ينالون من أصحاب الرسول ، ويوافقهم آخرون على ذلك ، فأمر أهل البيوتات ووجوه الناس أن يقربوا من المنبر فلما فرغ من خطبة الجمعة كان مما قال : « ويحكم أنى لست أتاوياً[1] أعلم ، ولا بدوياً أفهم ، قد حلبتكم أشطراً وقلبتكم أبطناً وأظهراً ، فعرفت أنحاءكم وأهواءكم ، وعلمت أن قوماً أظهروا الإسلام بألسنتهم ، وأسروا الكفر فى قلوبهم ، فضربوا بعض أصحاب رسول الله ببعض ، وولدوا الروايات فيهم ، وضربوا الأمثال ، ووجدوا على ذلك من أهل الجهل من أبنائهم أعواناً يأذنون لهم ويصغون إليهم » .

ضبط أبو بكر الأمور بيد من حديد ، ولم يترك فى خلافته سبيلا إلى الشهوات وخصوصاً ما أدى منها إلى الفرقة ، وكان لا ينعم بشىء من مناعم الملك ، بل هو فى الزهد والتواضع والنسك على مثال صاحبه . رؤى[2] يوماً فى سوق من أسواق المدينة على كتفه جلد شاة ، ففزعت عشيرته لذلك ، وقالوا قد فضحتنا بين المهاجرين والأنصار والعرب قال : « أفأردتم منى أن أكون ملكاً جباراً فى الجاهلية جباراً فى الإسلام ، لا والله لا تكون طاعة العرب إلا بالتواضع لله ، والزهد فى هذه الدنيا » . وتواضعت الملوك ومن ورد عليه من الوفود بعد التكبر ، وقدم إليه زعماء العرب وأشرافها وملوك اليمن ، وعليهم الحلل والحِبَر والبرد والوشى المثقل بالذهب والتيجان ، فلما شاهدوا ما هو فيه من اللباس والزهد ، وما هو عليه من الوقار والهيبة ، ذهبوا

(١) الأتاوى الغريب عن القوم .
(٢) مروج الذهب للمسعود .

مذهبه ونزعوا ما كان عليهم ، وكان ممن وفد عليه من ملوك اليمن ذو الكلاع ملك حمير ومعه ألف عبد ، دون من كان من عشيرته ، وعليه التاج والبرود المغشاة بالذهب ، فلما شاهد أبا بكر ألقى ما كان عليه وتزيا بزيه .

كان الصديق موضع إجلال ، بكل ما فى الإجلال من المعانى ، ما خرج إنسان عن رضاه ، وما جسر أحد أن يجهر بذات نفسه ، وأى عاقل يجرؤ على الخلاف لمن كان جمهور المسلمين يعجبون بسيرته . وكان كل هذا من العوامل الفعالة فى تطبيق مفاصل سياسته ، وسر تغلبها أنه لم يكن له مأرب فى شيء من أمر الدنيا ، ولا أحب جلب النفع إلى ولده وأهله ومواليه وعشيرته دون سائر الناس . وعرفت منزلة الصديق من نفوس قومه يوم قُبض ، فارتجفت المدينة بالبكاء كيوم قبض النبي ، وجاء علىّ باكياً مسترجعاً وهو يقول : اليوم انقطعت خلافه النبوة ، حتّى وقف على باب البيت الذى فيه أبو بكر مسجى فقال : يرحمك[1] الله أبا بكر ، كنت إلف رسول الله وأنيسه ، ومستراحه وثقته ، وموضع سره ومشاورته ، كنت أول القوم إسلاماً ، وأخلصهم إيماناً وأشدهم يقيناً ، وأخوفهم لله ، وأعظمهم غناء فى دين الله ، وأحوطهم على رسوله ، وأحدبهم على الإسلام ، وآمنهم على أصحابه ، وأحسنهم صحبة ، وأكثرهم مناقب ، وأفضلهم سوابق ، وأرفعهم درجة وأقربهم وسيلة ، وأشبههم برسوله هدياً وسمتاً ، ورحمة وفضلا ، وأشرفهم منزلة ، وأكرمهم عليه وأوثقهم عنده ، فجزاك الله عن الإسلام وعن رسوله خيراً ، كنت عنده بمنزلة السمع والبصر[2] ، وصدقت رسول الله حين كذبه الناس ، فسماك الله فى تنزيله صديقاً ، والذى جاء بالصدق — محمد — وصدق به — أبو بكر — وآسيته حين تخلوا عنه ، وقمت بالأمر ما لم يقم به خليفة نبى .

---

(١) الموافقة بين أهل البيت والصحابة لابن زنجوية باختصار الزمخشرى (مخطوط) وإعجاز القرآن للباقلانى .

(٢) فى الصحاح أن الرسول قال : لقد هممت أن أبعث رجالا يدعونهم إلى الإسلام ، ويرغبونهم فى الدين فأبعث أبى بن كعب وسالم مولى أبى حذيفة ومعاذ بن جبل كما فعل عيسى ابن مريم فقالوا يا رسول الله : أفلا تبعث أبا بكر وعمر فقال : لا بد لى منهما ، هما منى بمنزلة السمع والبصر .

نهضت حين وهن أصحابه ، وبرزت حين استكانوا ، وقويت حين ضعفوا ، لزمت منهاج رسول الله وقمت بالأمر حين فشلوا ، ونطقت إذ تتعتعوا ، مضيت بنور إذ وقفوا ، كنت والله للدين يعسوباً [1] ، أولا حين نفر عنه الناس ، وآخراً حين أقبلوا ، فكنت للمؤمنين أباً رحيما حين صاروا عليك عيالا ، فحملت أثقال ما ضعفوا عنه ، ورعيت ما أهملوا ، وحفظت ما أضاعوا وكنت كما قال رسول الله آمن عليه فى صحبتك ، وذات يدك ، وكنت كما قال ضعيفاً فى بدنك ، قوياً فى أمر دينك ، متواضعاً فى نفسك . عظيما عند الله ، جليلا فى أعين المؤمنين ، كبيرا فى أنفسهم ، لم يكن لأحد فيك مغمز ، ولا لقائل فيك ملمز ، ولا لأحد فيك مطمع ، ولا لمخلوق عندك هواه ، الضعيف الذليل عندك قوى عزيز حتى تأخذ له بحقه ، والقوى العزيز عندك ضعيف ذليل حتى تأخذ منه الحق ، الغريب والبعيد عندك فى ذلك سواء ... فوالله لن يصاب المسلمون بعد رسول الله بمثلك أبداً ، فألحقك الله بنبيه ولا حرمنا أجرك ، ولا أضلنا بعدك : وسكت الناس حتى انقضى كلامه ثم بكوا حتى علت أصواتهم وقالوا : صدقت يا ختن رسول الله .

---

(١) اليعسوب : أمير النحل وذكرها والرئيس الكبير والسيد المقدم .

سياسة عمر بن الخطاب :

عقد أبو بكر عقد الخلافة من بعده لعمر بن الخطاب ، وقد شاور فيه أصحابه من كبار رجال السياسة ، وممن شاورهم عبد الرحمن بن عوف فقال له : هو والله أفضل من رأيك فيه[١] ، ولكن فيه غلظة ، فقال أبو بكر : ذلك لأنه يرانى رقيقاً ، ولو أفضى الأمر إليه لترك كثيراً مما هو عليه ، ويا أبا محمد قد رمقته[٢] فرأيتنى إذا غضبت على الرجل فى الشىء أرانى الرضا عنه ، وإذا لنت له أرانى الشدة عليه . واشتد المرض بالصديق فأشرف على الناس وهو يقول : أترضون بمن استخلف عليكم ، فإنى والله ما ألوت من جهد الرأى ، ولا وليت ذا قرابة ، وإنى قد استخلفت عمر بن الخطاب فاسمعوا له وأطيعوا . فقالوا : سمعنا وأطعنا . وكتب إليه كتاباً هذا نصه : « هذا ما عهد به أبو بكر خليفة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عند آخر عهده بالدنيا وأول عهده بالآخرة ، وفى الحال التى يؤمن فيها الكافر ، ويتقى فيها الفاجر ، إنى استخلفت عليكم بعدى عمر بن الخطاب ، فإن بر وعدل ، فذلك ظنى به وعلمى فيه ، وإن جار وبدل ، فلا علم لى بالغيب ، والخير أردت ، ولكل امرىء ما اكتسب : « وسيعلم الذين ظلموا أى منقلب ينقلبون » .

ودعا أبو بكر عمر[٣] فأوصاه بما أوصاه به ، ثم خرج فرفع أبو بكر يديه ثم قال : اللهم إنى لم أرد بذلك إلا صلاحهم ، وخفت عليهم الفتنة ، فعملت فيهم بما أنت أعلم به ، فوليت عليهم خيرهم وأقواهم عليهم ، وأحرصهم على ما أرشدهم . وقد حضرنى من أمرك ماحضرنى فاخلفنى فيهم فهم عبادك ، ونواصيهم فى يدك ، وأصلح لهم وإليهم ، واجعله من خلفائك الراشدين ، يتبع هدى نبى الرحمة ، وأصلح له رعيته .

ولم يحل استخلاف الصدّيق عمر من حديث بين من كانت أنفسهم تحدثهم بالخلافة بعده ، قال أبو بكر لعبد الرحمن بن عوف : « إنى[٤] وليت أمركم

---

(١) تاريخ الطبرى . (٢) رمقته أطلت النظر إليه .
(٣) تهذيب الأسماء للنووى . (٤) الكامل للمبرد .

خيركم فى نفسى ، فكلكم ورم[1] أنفه من ذلك، يريد أن يكون الأمر له دونه ، ورأيتم الدنيا أقبلت ولما تقبل وهى مقبلة ، حتى تتخذوا ستور الحرير ونضائد[2] الديباج ، وتألموا الاضطجاع على الصوف الأذربى[3] ، كما لم يألم أحدكم أن ينام على حسك السعدان[4] » . بيد أن ما ظهر من غناء أبى بكر وحسن بلائه ، ألجم الألسن فما استطاعت أن تلغط ؛ وكبح من جماح النفوس ، فما استرسلت فى تطلب ما تطال إليه . وكأن بنى هاشم يئسوا من أن يستخلف سيدهم ، بعد الذى كان من أبى بكر وعهده لابن الخطاب ، وهم يعرفون منزلة الثانى من نفوس من تجردوا عن الغايات ، ولا مصلحة لهم غير قيام أمر المسلمين ، والسير فى الطريق التى اختطها صاحب هذا الشرع ، ورأى الصديق أن عمر أقوى عليها ، ولو كانت — كما قال على بن أبى طالب — محاباة لآثر بها ولده ، واستشار المسلمين فى عمر ، فنهم من رضى ومنهم من كره ، ومن كره أولا رضى آخراً .

كان أول منطق نطق به ابن الخطاب حين استخلف : « إنما العرب مثل جمل أنِـف اتباع قائده ، فلينظر قائده حيث يقود ، وأما أنا فورب الكعبة لأحملنهم على الطريق » . ولما فرغ عمر من دفن أبى بكر نفض يده عن تراب قبره ثم قام خطيباً مكانه فقال : إن الله ابتلاكم بى وابتلانى بكم ، وأبقانى فيكم بعد صاحبى ، فوالله لا يحضرنى شىء من أمركم فيليه أحد دونى ، ولا يتغيب عنى فآلو فيه عن الجزاء والأمانة ، ولئن أحسنوا لأحسننَّ إليهم ، ولئن أساءوا لأنكلن بهم ، قالوا فوالله ما زاد على ذلك حتى فارق الدنيا . وقال : اللهم إنى شديد فليّنى ، وإنى ضعيف فقونى ، وإنى بخيل فسخنى .

فتح عمر « الفتوح العظام فى كل بلد » ومن فتوحه مصر والشام والعراق

(١) ورم أنفه : امتلأ غضباً . (٢) النضائد : الوسائد واحدتها نضيد .
(٣) الأذربى نسبة إلى أذربيجان ويقال أيضاً الأذرى (٤) السعدان : بوزن مرجان نبت وهو من أفضل مرعى الإبل وفى المثل مرعى ولا كالسعدان .

والجزيرة وإرمينية وفارس وخوزستان وأذربيجان والجبال وطرابلس مما لم يفتح مثله على أحد قبله ولا بعده ، وما طاش له سهم ، ولا التوى له علم ، يحرص على حياة المسلمين ويولى جيوشه رجالا من أهل الفقه والعلم ، كتب إلى النعمان بن مقرن فى نهاوند : « أما بعد فإنه قد بلغنى أن جموعاً من الأعاجم كثيرة قد جمعوا لكم بمدينة نهاوند ، فإذا أتاك كتابى هذا فسر بأمر الله وبعون الله وبنصر الله ، وبمن معك من المسلمين ، ولا توطئهم وعراً فتؤذيهم ولا تمنعهم حقهم فتنفرهم ، ولا تدخلنهم غيضة ، فإن رجلا من المسلمين أحب إلى من مائة ألف دينار » وكان إذا أتاه نعى أحد قواده وأصحابه بكى ، ولو كان جاءته الأخبار مع قتلهم بفتح بلاد عظيمة .

وهدى عمر هدى صاحبيه ، ولسانه لسانهما ، قال لسلمة الأشجعى لما أرسله إلى الأكراد : « سر[1] باسم الله ، قاتل فى سبيل الله ، من كفر بالله ، فإذا لقيتم عدوكم من المشركين ، فادعوهم إلى ثلاث خصال : ادعوهم إلى الإسلام ، فإن أسلموا فاختاروا دارهم فعليهم فى أموالهم الزكاة ، وليس لهم فى فىء المسلمين نصيب ، وإن اختاروا أن يكونوا معكم ، فلهم مثل الذى لكم ، وعليهم مثل الذى عليكم ، فإن أبوا فادعوهم إلى الخراج ، ولا تكلفوهم فوق طاقتهم ، فإن أبوا فقاتلوهم ، فإن الله ناصركم عليهم ، فإن تحصنو منكم فى حصن ، فسألوكم أن تنزلوا على حكم الله وحكم رسوله ، فلا تنزلوهم على حكم الله ، فإنكم لا تدرون ما حكم الله ورسوله فيهم ، وإن سألوكم أن ينزلوا على ذمة الله وذمة رسوله ، فلا تعطوهم ذمة الله وذمة رسوله ، واعطوهم ذمم أنفسكم ، فإن قاتلوكم فلا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليداً ا هـ » .

ارتضى بعمر أهل الحل والعقد من الصحابة ومنهم علىّ ، لما كان من أعماله التى ابتهجت بها النفوس ، وهو القائل ما أبالى إذا ما اختصم إلى رجلان لأيهما كان الحق . وهو القائل مضى لى صاحبان ، عملا عملا وسلكا طريقاً ، وإنى إن عملت بغير عملهما ، سلك بى طريق غير طريقهما . وهو الذى قال

---

(١) طبقات ابن سعد .

فيه الرسول : لوكان بعدى نبي لكان عمر . وقال : إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه . وقال أشد أمتى فى أمر الله عمر . وقال فيه بعض واصفيه : إنه كان جواداً بالحق بخيلا بالباطل .

كانت كلمة عمر عالية فى سياسته الخارجية والداخلية ، مزق فى شمل المملكتين المجاورتين لبلاده ، وعقدت فى ظبات[1] سيوفه آيات النصر المبين ، وسر هذا التوفيق العظيم ، بُعد نظره وقوة نفسه ، والأخذ بمشورة أهل الرأى ، وحسن اختياره العمال والرجال ، والعمل بكل نافع ، والانتفاع من كل قوة . وما طمعت نفسه فى شىء من حطام الدنيا فكان كصاحبيه يؤثر الخشونة[2] ويبتعد عن كل ترف ، ويريد عماله أن يتبعوه فى سائر أفعاله وشيمه وأخلاقه . يلبس الجبة الصوف المرقعة بالأديم وغيره ، ويشتمل بالعباءة ، ويحمل القربة على كتفه ، مع هيبة رزقها ، وكذلك كان عماله مع ما فتح الله عليه من البلاد وأوسعهم من الأموال ، كان عمر يلتف فى كسائه[3] وينام فى ناحية المسجد فلما وُرِد بالهرمزان صاحب تستّر جعلوا يسألون عنه فيقال مر ههنا آنفاً ، فيصغر فى قلب الهرمزان إذ رآه كبعض السوقة حتى انتهى إليه وهو نائم فى ناحية المسجد ، فقال الهرمزان : هذا والله الملك الهنىء يقول لا يحتاج إلى حراس وعدد ، فلما جلس عمر امتلأ قلب العلج[4] منه هيبة ، لما رأى عنده من الجد والاجتهاد وألبس من هيبة التقوى .

ولقد كان على بن أبى طالب من جملة مجلس شورى عمر ، شاوره مرة فى غزو الروم بنفسه فقال له : إنك متى تسر إلى هذا العدو بنفسك فتلقهم فتنكب لا تكن للمسلمين كانفة[5] دون أقصى بلادهم ، ليس بعدك مرجع يرجعون إليه ، فابعث رجلا محرباً[6] ، واحفز معه أهل البلاء والنصيحة ، فإن أظهره

(١) الظبة بالتخفيف حد السيف والجمع ظبات . (٢) مروج الذهب للمسعودى .
(٣) الكامل للمبرد . (٤) العلج : الرجل من كفار والعجم والقوى والضخم منهم علوج وأعلاج . (٥) كنفه حاطه وصانه وبابه نصر وكانفة واقية .
(٦) المحرب صاحب الحروب .

الله فذاك ما تحب ، وإن كانت الأخرى كنت ردءاً للناس ومثابة للمسلمين(١). واستشار علياً أيضاً فى الشخوص لقتال الفرس بنفسه(٢) فقال له : إن هذا الأمر لم يكن نصره ولا خذلته بكثرة ولا بقلة ، ومكان القيم بالأمر مكان النظام من الخرز يجمعه ويضمه ، فإذا انقطع النظام تفرق الخرز وذهب ، ثم لم يجتمع بحذافيره أبداً ، والعرب وإن كانوا قليلا فهم كثيرون بالإسلام ، عزيزون بالاجتماع ، فكن قطبا واستدر الرحى بالعرب ، وأصلهم دونك نار الحرب ، فإنك إن شخصت من هذه الأرض ، انتفضت عليك العرب من أطرافها وأقطارها ، حتى يكون ما تدع وراءك من العورات أهم إليك مما بين يديك ، إن الأعاجم إن ينظروا إليك غداً يقولوا هذا أصل العرب ، فإذا اقتطعتموه استرحتم ، فيكون ذلك أشد لكلبهم عليك وطمعهم فيك . فأما ما ذكرت من مسير القوم إلى قتال المسلمين ، فإن الله سبحانه هو أكره لمسيرهم منك ، وهو أقدر على تغيير ما يكره . اهـ . وهكذا كان عمر لم يحارب بنفسه فى حروب الفتح وهو خليفة ؛ وقل أن اشترك فى الغزوات فى زمن الرسول .

سمع عمر مرة شيئاً فى بيعة الصديق وهو فى مكة ، وأراد أن يخطب الناس ، فقال له عبد الرحمن بن عوف : يا أمير المؤمنين لا تفعل فإن الموسم يجمع رعاع الناس وغوغاءهم ، وإنهم هم الذين يغلبون على قربك حتى تقوم فى الناس ، وأنا أخشى أن تقوم فتقـول مقالة يُطيرها أولئك عنك كل مطير(٣) ، وأن لا يعوها ، وأن لا يضعوها على مواضعها ، فأمهل حتى تقدم المدينة فإنها دار الهجرة والسنة ، فتخلص(٤) بأهل الفقه وأشراف الناس ، فتقول ما قلت متمكناً ، فيعى أهل العلم مقالتك ، ويضعونها على مواضعها . وكذلك فعل وعمل بنصيحة قارون هذه الأمة عبد الرحمن بن عوف كما عمل بنصيحة على بن أبى طالب .

---

(١) نهج البلاغة للرضى .

(٢) يقول البلاذرى فى فتوح البلدان إن الذى أشار على عمر بن الخطاب بالعدول عن قتال الفرس بنفسه هو العباس بن عبد المطلب وجماعة من أصحاب رسول الله وأشار عليه على ابن أبى طالب بالسير وعرض عمر على على الشخوص إلى فارس فأباه .

(٣) أى ينقلونها عنك إلى كل أحد من غير أن يعرفوا معناها .

(٤) تتصل .

كان عمر لا يأخذه هوى فى اختيار الأصلح لخدمة الدولة ، وهو جد عارف بما فى نفوس الناس ، يضع الأشياء مواضعها ويقدرها بقدرها ، قام فى المسجد ذات يوم يدعو الناس إلى الجهاد ويحضهم عليه وقال : إنكم قد أصبحتم فى غير دار مقام بالحجاز ، وقد فتح الله عليكم بلاد كسرى وقيصر ، فسيروا إلى أرض فارس . فقام أبو عبيد بن مسعود فقال يا أمير المؤمنين أنا أول من انتدبت من الناس ، فلما انتدب أبو عبيد انتدب الناس ، وقيل لعمر أمّر على الناس رجلا من المهاجرين والأنصار . فقال لا أأمر عليهم إلا أول من انتدب . وكان عمر أبداً على يقين من الخفى والجلى مما يدور فى القاصية والدانية ، ملء القلب وملء السمع ، وما شئت من دهاء واستماتة فى إحكام عرا المسلمين . أطلق عليه لقب أمير المؤمنين وكان أول من لقب به ، وكان يقال لأبى بكر « خليفة رسول الله » فلما ولى عمر أصبح من المتعذر أن يقال يا خليفة خليفة رسول الله ، فاكتفى بلفظ الخليفة أو أمير المؤمنين .

لما طعن عمر بيد أبى لؤلؤة وكان قتله نتيجة مؤامرة[1] دبرها له الهرمزان لما كان يكنه من الحقد على العرب بعد أن ثلوا عرش فارس — كانت الخلافة أول ما فكر فيه عمر ، ودمه يسيل ، فاستدعى عبد الرحمن بن عوف[2] فقال له : إنى أريد أن أعهد إليك فقال : يا أمير المؤمنين ، نعم إن أشرت على قبلت منك . قال : وما تريد . قال : أنشدك الله أتشير على بذلك . قال : اللهم لا ، قال : والله لا أدخل فيه أبداً . قال : فهب لى صمتاً حتى أعهد إلى النفر الذين توفى رسول الله وهو عنهم راض . أدع لى علياً وعثمان والزبير وسعداً . قال : وانتظروا أخاكم طلحة ثلاثاً — وكان متغيباً عن المدينة — فإن جاء وإلا فاقضوا أمركم بينكم . وقال لعلى : أنشدك الله يا على إن وليت من أمور الناس شيئاً

(١) السيادة العربية لفان فلوتن تعريب حسن إبراهيم ومحمد زكى إبراهيم .

(٢) تاريخ الطبرى .

أن تحمل بنى هاشم على رقاب الناس ، أنشدك الله يا عثمان إن وليت من أمور الناس شيئاً أن تحمل بنى أبي معيط على رقاب الناس، أنشدك الله يا سعد إن وليت من أمور الناس شيئاً أن تحمل أقاربك على رقاب الناس ، قوموا فتشاوروا ثم اقضوا أمركم. وليصل بالناس صهيب . ثم دعا أبا طلحة الأنصارى قبل أن يفارق الحياة بساعة فقال : قم على بابهم فى خمسين رجلا من الأنصار فلا تدع أحداً يدخل إليهم حتى يختاروا رجلا منهم . وقال أوصى الخليفة من بعدى بالعرب فإنها مادة الإسلام . أن يؤخذ من صدقاتها حقها فتوضع فى فقرائهم ، وأوصى الخليفة من بعدى بذمة رسول الله أن يوفى لهم بعهدهم، اللهم هل بلغت ، تركت الخليفة من بعدى على أنقى من الراحة .

وقيل لعمر لما طعن يا أمير المؤمنين لو استخلفت ، قال : من استخلف لو كان أبو عبيدة بن الجراح حياً استخلفته ، فإن سألنى ربى قلت : سمعت نبيك يقول إنه أمين هذه الأمة ، لو كان سالم مولى أبي حذيفة حياً استخلفته ، فإن سألنى ربى قلت سمعت نبيك يقول إن سالماً شديد الحب لله . فقال له رجل : أدلك على عبد الله بن عمر . فقال : قاتلك الله ، والله ما أردت بهذا خيراً ، ويحك كيف استخلف رجلا عجز عن طلاق امرأته ، لا أرب لنا فى أموركم ، وما حمدتها فأرغب فيها لأحد من أهل بيتى ، إن كان خيراً فقد أصبنا منه ، وإن كان شراً فقد صرف عنا ، بحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد ويسأل عن أمر أمة محمد ، أما لقد جهدت نفسى وحرمت أهلى، وأن نجوت كفافاً لاوزر ولا أجر إنى لسعيد . أنظر فإن استخلفت فقد استخلف من هو خير منى ، وإن اترك فقد ترك من هو خير منى ، ولن يضيع الله دينه .

ترك عمر الأمر شورى بين ستة من كبار الصحابة ، مات الرسول وهو عنهم راض ، وسمى على بن أبي طالب وعثمان بن عفان ابنى عبد مناف ، والزبير بن العوام حوارىّ رسول الله وابن عمته ، وسعد بن أبي وقاص وعبد الرحمن بن عوف وطلحة بن عبيد الله ، ليختاروا منهم رجلا ، وقال

لهم إذا ولوا واليا أن يحسنوا موازرته ويعينوه إن ائتمن أحداً منهم يؤدى إليه أمانته . وبدأت الشورى ثلاثة أيام وأراد أهلها أن لا يأتين اليوم الرابع إلا وعليهم أمير منهم . وقال عمر للمقداد بن الأسود ، قم على رؤوسهم فإن اجتمع خمسة ورضوا رجلا وأبى واحد فاشدخ رأسه ، أو اضرب رأسه بالسيف وإن اتفق أربعة فرضوا رجلا منهم وأبى اثنان فاضرب رؤوسهما ، فإن رضى ثلاثة رجلا منهم وثلاثة رجلا منهم ، فحكموا عبد الله بن عمر ، فإن لم يرضوا بحكم عبد الله بن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف ، واقتلوا الباقين أن يرغبوا عما اجتمع عليه الناس .

صورة غريبة من انتخاب الخليفة وضعها عمر على غير مثال ، مثل كثير من أعماله فى السياسة وفيها ابداع وعبقرية ، أوحتها إليه معرفته بمرامى كل واحد من هؤلاء العظماء ، وهو يتخوف انحلال أمر الأمة إذا دب دبيب الحسد إلى الصدور ، وتحركت الضغائن والسخائم[1] ، وهو القائل : إن هذا الأمر لا يصلح إلا بالشدة التى لا جبرية فيها ، واللين الذى لا وهن فيه . ويعرف أن غير الشدة لا تميد فى هذه المواقف الخطيرة ، قدموا للبيعة[2] أكثرهم فضلا وأكملهم شروطاً فسارع الناس إلى طاعته ، وأمنت غوائل الفتنة ، على نحو ما كان سارع عمر إلى مبايعة أبى بكر يوم السقيفة ، وأكره من تجافوا عن بيعته من الصحابة على البيعة باللين أولا والشدة آخرا ، وكان عمل عمر هذا من أحكم ما عمل ، لم يلق الحبل على الغارب ، واجتهد فى خير الأمة حياً ، وما أراد أن يدعها فوضى بعد مماته .

وعرفنا بما تم من استخلاف أبى بكر ثم عمر ثم عثمان أن الخلافة عن الرسول ليست من معالم[3] الدين ولا هى جارية مجرى العبادات الشرعية كالصلاة والصوم ، بل أجروها مجرى الأمور الدنيوية مثل تأمير الأمراء وتدبير الحرب وسياسة الرعية وأن الخلافة عن الرسول قد وسدت إلى واحد بعهد أو شبه

(١) الأحقاد واحدتها سخيمة . (٢) تاريخ الطبرى .
(٣) شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد .

عهد ، ووسدت إلى آخر بعهد صريح وإلى آخر بالشورى بين أهل الحل والعقد . فجمع الإسلام النظام الجمهورى المقيد ، والنظام الملكى المقيد ، على ما تقضى به حالة الزمن ومصلحة الأمة ؛ وكان فى هذه السلطة الروحية الزمنية معاً لأول الأمر شىء من الاستبداد المعقول الذى ينظم أمر الجماعة ، ويحمل الناس على الطاعة ، وهى الطاعة لأولى الأمر ، أى الأئمة المتأمرين على الناس ، المقصود بقوله تعالى : « يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم »

عن ابن عباس قال : وضع عمر بن الخطاب على سريره فتكنفه[1] الناس يدعون ويصلون قبل أن يرفع وأنا فيهم ، فلم يرعنى إلا ورجل قد أخذ بمنكبى من ورائى ، فالتفت فإذا هو على بن أبى طالب فترحم على عمر وقال : ما خلفت أحدا أحب إلى أن ألقى الله بمثل عمله منك ، وأيم الله إن كنت لأظن ليجعلك الله معهما أى صاحبيك ، ذلك أنى كنت كثيراً أسمع من رسول الله يقول : فذهبت أنا وأبو بكر[2] وعمر ، ودخلت أنا وأبو بكر وعمر ، وخرجت أنا وأبو بكر وعمر ، فإن كنت لأظن أن يجعلك الله معهما ، وقال على[3] : « ألا أخبركم بخير هذه الأمة بعد نبيها أبو بكر ثم خيرها بعد أبى بكر عمر ثم يجعل الله الخير حيث أحب » .

---

(١) تكنفوه واكتنفوه وكنفوه تكنيفاً أحاطوا به
(٢) سيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزى .
(٣) مسند أحمد .

سياسة عثمان بن عفان.

انتخب مجلس شورى الخلافة عثمان بن عفان خليفة فى مسجد الرسول وعلى منبره، على الطريقة التى رسم عمر واستأمر بعض أهل الشورى أرباب الرأى من الرؤساء سرا فأشاروا بعثمان إلا قليلا، وجعل الناس يبايعون الخليفة الجديد بعد أن بايع كبار الصحابة. وتلكأ على عن البيعة فقال عبد الرحمن بن عوف: «ومن نكث فإنما ينكث على نفسه، ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيما». فرجع على يشق الناس حتى بايع وهو يقول: «خدعة وأيُّما خدعة». وسار الخليفة الثالث بسيرة أبى بكر وعمر ست سنين، كان الناس خلالها راضين عنه، والفتوح كما كانت على عهد عمر متصلة، والأموال على المدينة دارة. ويده بالعطاء مبسوطة، يولى الولايات من يراهم أصلح الناس للعمل، ولما توسع بتوسيد العمالات إلى أهله من بنى أمية، انطلقت الألسن فيه، وتحقق خوف عمر لما نصح له ولعلى أن لا يحملا أقاربهما(1) على رقاب الناس، إذا كان لهما من الأمر شىء، فوقع كلاهما فى هذا الحرج فثارت النفوس، ووجد الطاعنون من عملهما بابا يلجونه إلى اللغط

(١) يقول ابن تيمية فى المنهاج أن عثمان ولى أقاربه من بنى أمية، وعلياً ولى أقاربه من قبل أبيه وأمه، كعبد الله وعبيد الله ابنى العباس، فولى عبد الله بن العباس على البصرة وعبيد الله ابن العباس على اليمن، وولى على مكة والطائف قثم بن العباس، وقيل أنه ولى على المدينة تمامة ابن العباس وعلى مصر ربيبه محمد بن أبى بكر الذى رباه فى حجره، وولى خراسان جعدة ابن هبيرة وهو ابن أخته أم هانىء بنت أبى طالب وقال إن نواب عثمان كانوا أطوع من نواب على وأبعد عن الشر، وأن بنى أمية كان رسول الله يستعملهم فى حياته، واستعملهم بعده من لا يتهم بقرابة فيهم أبو بكر الصديق وعمر، ولا نعرف قبيلة من قبائل قريش فيها عمال لرسول الله أكثر من من بنى عبد شمس، لأنهم كانوا كثيرين، وكان فيهم شرف وسؤدد، فاستعمل النبى فى عزة الإسلام على أفضل الارض مكة عتاب بن أسيد بن أبى العاص بن أمية، واستعمل أيضاً على نجران أبا سفيان بن حرب بن أمية، واستعمل أيضاً خالد بن سعيد بن العاص على صدقات بنى مذحج وعلى صنعاء اليمن، واستعمل عثمان بن سعيد بن العاص على السرايا ثم استعمله على البحرين، واستعمل الوليد بن عقبة بن أبى معيط، فاستعمل عثمان من استعملهم النبى ومن جنسهم ومن قبيلتهم اه. ومعلوم إن أبا بكر وعمر لم يعهدا لأحد من أقاربهما بالولاية حتى أن عبد الرحمن ابن أبى بكر وعبد الله بن عمر وهما هما بالفضل والصحبة لم ير الخليفتان الأولان أن يعهد إليهما بشىء من أمر الأمة.

والشغب ، وعثمان بنى[1] على أمر قد استقر قبله بسكينة وحلم وهدى ورحمة وكرم ، ولم يكن فيه قوة عمر ولا سياسته ، ولا فيه كمال عدله وزهده ، فطمع فيه بعض الطمع ، ودخل بسبب أقاربه فى الولايات والأموال أمور أنكرت عليه فتولد من رغبة الناس فى الدنيا ، وضعف خوفهم من الله ، ومنه ومن ضعفه هو ، وما حصل من أقاربه فى الولاية والمال ما أوجب الفتنة .

بدأت الفتنة من مصر بانتزاء محمد بن أبى حذيفة ابن خال معاوية بن أبى سفيان على عثمان ، وكان عثمان كفله لما مات أبو حذيفة ، وسار إلى مصر فصار من أشد الناس تأليباً على عثمان . والسبب فى ذلك على ما يظهر أن عبد الله ابن أبى سرح أخا عثمان من الرضاعة ، كان أمير مصر ولاية عثمان كلها وكان محموداً فى ولايته[2] ، موفقاً فى غزواته ، فتح إفريقية فبلغ سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار وسهم الرجل ألف دينار ، فماذا كان نصيب الأمير من هذا المال ؟ لاجرم أنه شق الأمر على محمد بن أبى حذيفة وجماعة آخرين أن لم يكن لهم سهم كبير من هذه المغانم . وأنشأ ابن حذيفة هنا يكتب الكتب على ألسنة أزواج النبى ويقرؤها فى المسجد ، ويقوم القارئ بالكتاب فيقول : إنا لنشكو إلى الله وإليكم ما عُمل فى الإسلام ، وما صنع فى الإسلام ، فيحرك ساكن النفوس بهذا ، حتى أرسل المصريون بضع مئات من الجند إلى المدينة يشتركون فى إحراج عثمان ، وكذلك فعل أهل الكوفة والبصرة .

وقيل إن بعض الصحابة[3] كتب بعضهم إلى بعض أن يقدموا المدينة إن كانوا يريدون الجهاد ، وكثر الناس على الخليفة ، ونالوا منه أقبح ما نيل من أحد « وأصحاب رسول الله يرون ويسمعون ليس فيهم أحد ينهى ولا يذب » ما خلا نفراً قليلا . وكان عبد الله بن سبأ من اليهود أسلم زمن عثمان وأخذ يتنقل فى بلدان المسلمين الحجاز ثم البصرة ثم الكوفة ثم الشام ثم مصر ، وهو يقول بالرجعة ويزعم أن محمداً يعود كعيسى إلى الأرض ، وقال إن علياً هو وصى محمد ، وقال من أظلم ممن لم ينجز وصية رسول الله ، ووثب على وصى

(١) منهاج السنة لابن تيمية . (٢) الولاة والقضاة للكندى .
(٣) تاريخ الطبرى .

رسول الله وتناول أمر الأمة ، وادعى أن عثمان أخذها بغير حق ؛ وأراد الناس على النهوض فى هذا الأمر ، وقال ابدأوا بالطعن على أمرائكم ، وأظهروا الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر تستميلوا الناس ، وادعوهم إلى هذا الأمر ، فبث دعاته ، وكاتب من كان استفسد فى الأمصار وكاتبوه ، ودعوا فى السر إلى ما عليه رأيهم ، فانتقم هذا اليهودى لقومه عما أصابهم فى الحجاز فى بدء الدعوة الإسلامية

لما اشتدت الحال بعثمان ، وأخذت الجموع تسير إلى المدينة كتب إلى الأمصار « رفع إلىّ أهل المدينة أن أقواماً يُشتمون وآخرين يضربون ، فيامن ضرب سراً وشتم سراً ، من ادعى شيئاً من ذلك فليواف الموسم ، فلنأخذ بحقه حيث كان ، منى أو من عمالى ، أو تصدقوا أن الله يجزى المتصدقين » وتآمر عثمان وبعض الصحابة على ماكان من الناقمين ، فناقشوه وناقشهم . ومما قال له عمرو بن العاص ، إنك لنت لهم وتراخيت عنهم ، وزدتهم على ماكان يصنع عمر ، فأرى أن تلزم طريقة صاحبك ، فتشتد فى موضع الشدة وتلين فى موضع اللين ، إن الشدة لا تنبغى لمن لا يألو الناس شراً ، واللين لمن يخلف الناس بالنصح . ولما عاتبوه على بسط المال لآل بيته قال : إن صاحبىَّ اللذين كانا قبلى ظلما أنفسهما ، ومن كانا منهما بسبيل احتساباً ؛ وأن رسول الله كان يعطى قرابته ، وأنا فى رهط أهل عيلة[١] وقلة معاش ، فبسطت يدى فى شىء من ذلك المال ، لمكان ما أقوم به فيه ، ورأيت أن ذلك لى ، فإن رأيتم ذلك خطأ فردوه ، فأمرى لأمركم تبع » وقال فى مجلس آخر : « إنى أحب أهل بيتى وأعطيهم ، فأما حبى فإنى لم أمل معهم على جور بل أحمل الحقوق عليهم ، وأما إعطاؤهم فإن ما أعطيهم من مالى ، ولا أستحلُّ أموال المسلمين لنفسى ، ولا لأحد من الناس ، ولقد كنت أعطى العطية الكبيرة الرغيبة[٢] من صلب مالى ، أزمان رسول الله وأبى بكر وعمر ، وأنا

(١) العيلة : بالكسر الفقر . (٢) الرغيبة : العطاء الكثير والجمع الرغائب .

يومئذ شحيح حريص ، أفحين أتيت على أسنان أهل بيتى ، وفنى عمرى ، وودعت الذى لى فى أهلى ، قال الملحدون ما قالوا ، وإنى والله ما حملت على مصر من الأمصار فضلا ، فيجوزَ ذلك لمن قاله » .

ورد عليهم فى كونه حمى حمى المدينة فقال : والله ماحميت إلا حمى قبلى على عهد عمر لإبل الصدقة ، فلما وليت زادت إبل الصدقة فزدت فى الحمى ، ومالى من بعير غير راحلتين ومالى ثاغية ولا راغية[1] ، وإنى قد وليت وإنى أكثر العرب بعيراً وشاءً » . ورد على من قال إنه رد الحَكَم وهو طريد رسول الله فقال : « إن رسول الله سير الحكم وهو مكى من مكة إلى الطائف ثم رده ، فرسولُ الله سيره ورسول الله رده » . ورد على من قال إنه استعمل الأحداث فى الولايات ، فقال : إنه لم يستعمل إلا محتملا مرضياً ، وعليهم أن يسألوا أهل عملهم عنهم ، ولقد ولى من قبله أحدث منهم ، وقيل فى ذلك لرسول الله أشدُّ مما قيل له فى استعماله أسامة .

ثم استمد عثمان أهل الأمصار وكتب إليهم يقول : وأدخلت فى الشورى على ملإ منهم ومن الناس ، على غير طلب منى ومحبة ، فعملت فيهم ما يعرفون ولا ينكرون تابعاً غير مستبع ، متبعاً غير مبتدع ، مقتدياً غير متكلف ، فلما انتهت الأمور وانتكث[2] الشر بأهله ، بدت ضغائن وأهواء على غير إجرام ولا تِرَة فيما مضى إلا إمضاء الكتاب ، فطلبوا أمراً وأعلنوا غيره ، بغير حجة ولا عذر فعابوا علىَّ أشياء مما كانوا يرضون ، وأشياء عن ملإ من أهل المدينة لا يصلح غيرها اﻫ

ثم خطب وتاب مما فعل على المنبر ، فحصبوه فأغمى عليه وحمل إلى داره لا يعى وتقاذفته العوامل ، فمروان بن الحكم المتسلط عليه يؤنب الناس ويشتد عليهم ويقول لجيوش الأمصار : « جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا من أيدينا ! اخرجوا عنا ، أما والله لئن رمتمونا ليمرن عليكم منا أمر لا يسركم ، ولا تحمدوا غب[3] رأيكم ، ارجعوا إلى منازلكم ، فإنا والله ما نحن بمغلوبين على ما فى

(١) الثاغية : الشاة والراغية البعير . (٢) نكث وانتكث : انتقض .
(٣) غب ومغبة : عاقبة .

أيدينا » . ونائلة امرأة عثمان تتدخل فى الأمر ، وعلى ينصح لعثمان فلا يسمع له حتى نفض يده منه .

والواقع أن بسط عثمان الأموال لذوى قرباه أو إرجاعه الحكم طريد الرسول ، أو تعديه حمى المدينة ، أو استعماله الأحداث من آله ، كل هذا لا يتألف منه جرم ، يستوجب هذا التأليب عليه ، أو يبرر إطالة الأيدى بأذاه ، ولكن الكتاب الذى وجده محمد بن أبى بكر فى رحل عبد من عبيد عثمان على مقربة من المدينة وفيه خاتم عثمان إلى عبد الله بن أبى سرح والى مصر ، هو الذى كان العامل الأكبر والحجة القاطعة فى الانحراف عنه . وفى هذا الكتاب « إذا جاءك محمد بن أبى بكر ومن معه بأنك معزول فلا تقبل واحتل له بقتلهم ، وأبطل كتابهم وقر فى عملك » فرجع محمد بن أبى بكر وأصحابه وجمعوا الصحابة ووقفوهم على الكتاب ، وسألوا عثمان عن ذلك فاعترف بالختم وخط كاتبه ، وحلف بالله أنه لم يأمر بذلك ، فطلبوا منه مروان ليسلمه إليهم فامتنع ، فازداد حنق الناس ، حتى قتل شهيداً مظلوماً ، وفتق بمقتله على المسلمين « فتق لا يرتقه جبل » ودافع عنه على ابن أبى طالب وأقام ابنه الحسن لذلك حتى خرج هذا مصبغاً بالدم ، وأقام الزبير ابنه عبد الله ، وطلحة ابنه محمداً يذبان عنه ، فلم يغنوا عنه شيئاً مع الألوف الهائجة التى جاءت من مصر والكوفة والبصرة إلى المدينة وانضموا إلى الثائرين من أهلها و« كانوا[1] يداً واحدة فى الشر ، وكان حثالة من الناس قد ضووا إليهم ، وقد مرجت عهودهم وأماناتهم وكان أصحاب النبى الذين خذلوه كرهو الفتنة ، وظنوا أن الأمر لا يبلغ قتله ، فندموا على ما صنعوا فى أمره ، ولعمرى لو قاموا أو قام بعضهم فحثا فى وجوههم التراب لانصرفوا خاسرين » :

كانت هذه الفاجعة مبعث كل فتنة فى الأمة ، أدى إليها حب الولايات والشغف بالأموال التى كثرت فى أيام عثمان ، فكان يفيض منها على من

---

(١) طبقات ابن سعد .

يستحقها ، وقد لاموه على استعمال ابن خاله عبد الله بن عامر فاتح خراسان وأطراف فارس وسجستان وكرمان وزابلستان ، وآخذوه على استعمال أخيه من الرضاع عبد الله بن أبي سرح فاتح طرابلس وإفريقية الذى قضى على جيش الروم وقتل الملك جرجير . وفى أيام عثمان فتحت أذربيجان وأرجان واصطخر وأصبهان وطبرستان وخراسان والجوزجان ونيسابور وطوس وسرخس ومرو وهراة وفرياب وبلخ وخوارزم والجبال ، وقتل بخراسان يزدجرد آخر ملوك الأكاسرة . وفى أيامه فتحت جزيرة قبرص وغيرها من جزر البحر الرومى واستصفيت بعض الحبشة إلى غير ذلك من فتوحاته التى استعمل فيها رجالا عظاماً وضع ثقته بهم . وكانوا عند حسن ظنه بما أبلوه من خدمة الإسلام والمسلمين .

ومن أهم المسائل التى صرفت الوجوه عنه وألبت المغيظين المحنقين عليه ، أمره بضرب عمار بن ياسر ، أحد كبار الصحابة لما جاءه يحمل إليه كتاباً من بعض أصحاب النبى[1] . ذكروا فيه ما خالف فيه عثمان سنة الرسول من تطاوله فى البنيان ، وإفشائه العمل والولايات فى أهله وبنى عمه من بنى أمية ، وما كان من الوليد بن عقبة أمير الكوفة الذى صلى بالمسلمين وهو سكران (جلده ثمانين على شرب الخمر) ، وما كان من تركه المهاجرين والأنصار لا يستعملهم على شىء ولا يستشيرهم : وما كان من إدراره القطائع والأرزاق والأعطيات على قوم بالمدينة ، ليست لهم صحبة من النبى ثم لا يغزون ولا يذبون ، وما كان من مجاوزته الخيرزان إلى السوط ، وأنه أول من ضرب بالسياط ظهور الناس ، وإنما كان ضرب الخليفتين قبله بالدرة والخيرزان . وعمار لا يضرب حتى لا يفتق بطنه ويغشى عليه ويطرح على باب الدار ، فيغضب لما حل به بنو المغيرة وكان حليفهم ، بل يغضب السواد الأعظم من الصحابة لما حل به ، وكان من النقباء فى مجلس الرسول ومناقبه كثيرة فى الإسلام ، فكان بما جرى عليه من أعظم من ألب على عثمان ، وخدم عليا ضروب الخدم ، حتى قتل فى صفين .

---

(١) الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة .

سياسة على بن أبى طالب :

بويع على بالخلافة بعد مقتل عثمان ، قيل جاءه طلحة والزبير وسألاه البيعة له فقال : لا حاجة لى فى أمركم ، من اخترتم رضيت به ، فقالوا : ما نختار غيرك وترددوا إليه مراراً وقالوا : إنا لا نعلم أحداً أحق بالأمر منك ، ولا أقدم منك سابقة ، ولا أقرب من رسول الله ، فقال[1] : دعونى والتمسوا غيرى فإنا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان ، لا تقوم له القلوب ، ولا تثبت عليه العقول ، وإن الآفاق قد غامت[2] ، والمحجة قد تنكرت ، واعلموا أنى إن أجبتكم ركبت بكم ما أعلم ، ولم أصغ إلى قول القائل وعتب العاتب ، وإن تركتمونى فأنا كأحدكم ، ولعلى أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم ، وأنا لكم وزيراً خيراً لكم منى أميراً . وبعد هذا التمنع قصدوه فى المسجد فبايعوه وبايعته الأنصار ، إلا حسان[3] بن ثابت وكعب بن مالك ومسلمة بن مخلد وأبا سعيد الخدرى والنعمان بن بشير ومحمد بن مسلمة وفضالة بن عبيد وزيد ابن ثابت. قيل إن عثمان كان ولاهم على الصدقات وغيرها . وكذلك لم يبايع علياً سعيد بن زيد وعبد الله بن سلام وصهيب بن سنان وأسامة بن زيد وقدامة بن مطعون والمغيرة بن شعبة . وسمى هؤلاء المعتزلة لاعتزالهم بيعة على ، وسار النعمان بن بشير إلى الشام بقميص عثمان الملطخ بالدم فأخذ معاوية ابن أبى سفيان أمير الشام يعلقه على المنبر ، يحرض أهل الشام على المطالبة بدم عثمان ، ثم على قتال على لأنه لم يقتل قتلة عثمان .

وطلب على من معاوية البيعة له فأبى إلا أن يسلم إليه قتلة عثمان أولا ، وكتب إلى على يقول : « لو بايعك القوم الذين بايعوك ، وأنت برىء من دم عثمان كنت كأبى بكر وعمر وعثمان رحمة الله عليهم ، ولكنك أغريت بعثمان المهاجرين وخذلت عنه الأنصار ، فأطاعك الجاهل وقوى بك الضعيف ، وقد أبى أهل

(١) نهج البلاغة للرضى .
(٢) غامت السماء وأغامت وتغيمت كله بمعنى أى تلبدت بالغيم أى السحاب .
(٣) تاريخ أبى الفداء وتاريخ الطبرى.

الشام إلا قتالك ، حتى تدفع إليهم قتلة عثمان ، فإن فعلت كانت شورى بين المسلمين » . فأجابه علي : « لعمري ما كنت إلا رجلا من المهاجرين ، أوردت كما أوردوا ، وأصدرت كما أصدروا ، وما كان الله ليجمعهم على ضلال ولا ليضربهم بالعمى » . على أن معاوية ما كان بالذى[1] ينكر فضل عليّ واستحقاقه الخلافة ، لكن اجتهاده أداه إلى أن رأى تقديم أخذ القَوَد من قتلة عثمان على البيعة أولا ، ورأى نفسه أحق بطلب دم عثمان ، والكلام فيه عن ولد عثمان دون الحكم بن أبي العاص لسنه وقوته على الطلب بذلك ، ولمكان قرابته من عثمان ، فهو المطالب ضمناً بالأخذ بثأره .

بعث معاوية بكتاب مع أبي مسلم الخولانى[2] إلى على بن أبي طالب جاء فيه : وأخرى أنت بها ظنين إيواؤك قتلته — قتلة عثمان — فهم عضدك ويدك وأنصارك وبطانتك » فلما وقع الكتاب إليه أراده على أن يجيئه من الغد ، فدخل عليه أبو مسلم وهو فى المسجد ، فإذا بزهاء عشرة آلاف رجل قد لبسوا السلاح ، وهم ينادون كلنا قتلة عثمان ، فقال أبو مسلم لعلى إنى لأرى قوماً مالك معهم أمر ، وأحسب أنه بلغهم الذى قدمت له ففعلوا ذلك خوفاً من أن تدفعهم إلى .

والواقع أن قتلة عثمان كانوا من أكثر القبائل ، اختلطوا بعشائرهم وعشائرهم أكثر أتباع على ، وما خالف على[3] فى البراءة من قتلة عثمان ، ولكنهم كانوا عدداً ضخماً لا طاقة له عليهم ، ومن المتعذر عليه أن يسلمهم أو بعضهم وهم عضده ولو كان يعرفهم بأعيانهم ، ومسألة وقعت على غير رضاه ، ليس من مصلحته أيضاً أن يستهدف لغضب عشائر كثيرة تقوم بنصرته اليوم . أما هو فكما روى عنه أنه قال : والله[4] لو شاءت بنو أمية لأتيتهم بخمسين غلاماً من بنى هاشم يحلفون بالله ما قتلت عثمان ولا مالأت عليه .

---

(١) الملل والنحل لابن حزم . (٢) الأخبار الطوال للدينورى .
(٣) الملل والنحل لابن حزم . (٤) الموافقة بين الصحابة وآل البيت لابن زنجويه .

كان فى نفس عائشة أم المؤمنين شىء من علىّ لما جرى حديث رميها بالإفك فى حياة الرسول ، وبرأها القرآن مما قذفت به فى عدة آيات ، ولما كان ما كان من مقتل عثمان كانت فى مقدمة من حنق لمقتله ، وقامت لسد الفتق الحادث فى الإسلام تطالب بدم الشهيد العظيم ، وهى تعرف منزلته من الرسول ، وبلاءه فى خدمة الأمة ، وتعرف المتآمرين على قتله ، ومن غضوا الطرف عنهم طوعاً أو كرها ، ورأت ومن معها من الصحابة ومنهم طلحة والزبير ورهط من بنى أمية أهل عصبية عثمان ، أن يقصدوا إلى البصرة فى الجموع العظيمة التى تبعتهم يطالبون بدم عثمان ، وقالوا معاوية بالشام يكفينا أمرها ، وجمع علىٌّ أربعة آلاف مقاتل، فيهم جلة من الصحابة ، ومنهم أربعمائة ممن بايع تحت الشجرة وثمانمائة من الأنصار . فالتقى الجيشان وعائشة فى هودج على جمل ، فتمت الهزيمة على أصحاب الجمل ، وقتل طلحة والزبير ، فكانت عدة القتلى من الفريقين نحو عشرة آلاف . وهذه أول مرة التقى فيها المسلم بالمسلم بالسلاح : مقدمة مشئومة استفتحت بها خلافة على .

فرغ علىّ من حرب الجمل ، فانتظم له أمر العراق ومصر واليمن والبحرين وعمان واليمامة وفارس والجبل وخراسان والحرمين ، ولكن معاوية فى الشام والجزيرة وثغورهما لم يبايع ولم يشايع ، بل يطالب بدم عثمان بكل مالديه من حيلة ، وأهل الشام بايعوه على المطالبة بذلك ، يقاتلون معه حيث أراد من أراد . واتفق معاوية مع عمرو بن العاص على أن يسيرا يداً واحدة فى المطالبة بدم عثمان وكتبا بينهما كتابا ببيت المقدس على التناصر والتخالص والتناصح فى أمر الله والإسلام ، لا يخذل أحدهما صاحبه بشىء ولا يتخذ من دونه وليجة[1] . ولا يحول بينهما ولد ولا والد أبداً ما حيًّا ، فإذا فتحت مصر فإن عمراً على أرضها ، ومعاوية أمير على عمرو فى الناس وفى عامة الأمر ، حتى يجمع الله الأمة ، فإذا اجتمعت فإنهما يدخلان فى أحسن أمرها ، على أحسن الذى بينهما فى أمر الله .

---

(١) وليجة الرجل خاصته وبطانته .

سار على من العراق بجيشه يريد الشام لقتال معاوية ، وسار معاوية من الشام للقاء جيش على فى العراق ، والتقى الجيشان بصفين على الفرات ، واقتتلوا قتالا شديداً لم يقتتل المسلمون مثله ، وخاض على المعارك بنفسه . فقتل سبعون ألفا من الفريقين على أصح الروايات ، منهم مئات من الصحابة ، وفيهم القراء والعلماء ، فكانت مصيبة الإسلام بهم عظيمة ، « وما كف القتال أيام صفين إلا لما أمر معاوية جماعته[1] أن ينادوا فى سواد الليل نداء معه صراخ واستغاثة ، يقولون : يا أبا الحسن من لذرارينا من الروم إن قتلتنا ، الله الله فى البقية الباقية ، كتاب الله بيننا وبينكم » . وغدا جماعة معاوية وقد رفعوا المصاحف على الرماح ، وقلدوها أعناق الخيل ، والناس على راياتهم قد أصبحوا للقتال .

وجرت المهادنة بين الجيشين على أن يكون لعلى العراق ولمعاوية الشام ، لا يدخل أحدهما على صاحبه فى عمله بجيش ولا غارة ولا غزو ، على أن يحكم الفريقان بينهما حكمين ، حكماً من جهة على وحكماً من جهة معاوية ، فحكّم على أبا موسى الأشعرى ، وحكّم معاوية عمرو بن العاص ، ويكون الخليفة من يتفق الحكمان على توليته ، « وكتبوا بينهم كتاباً[2] أن يوافوا رأس الحول بأذرح[3] ، فينظروا فى أمر هذه الأمة ، فافترق الناس فرجع معاوية بالألفة من أهل الشام ، وانصرف على إلى الكوفة بالاختلاف والدّغل ، فخرجت عليه الخوارج من أصحابه ومن كان معه ، وقالوا : « لا حكم إلا الله » وعسكروا بحروراء[4] فبذلك سموا الحرورية ... وساروا إلى النهروان فعرضوا للسبل وقتلوا عبد الرحمن بن خبّاب بن الأرت ، فسار إليهم علىّ فقتلهم وقتل منهم ذا الثّدية [5] ، وذلك فى سنة ثمان وثلاثين ، ثم انصرف علىّ إلى الكوفة ، فلم يزل بها يخافون عليه الخوارج من يومئذ إلى أن قتل رحمه الله ، واجتمع الناس بأذرح فى شعبان سنة ثمان وثلاثين ، وحضر سعد بن أبى وقاص وابن

---

(١) الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة . (٢) طبقات ابن سعد .

(٣) أذرح : بلدة فى أطراف الشام من أعمال الشراة مجاورة لعمان وهى ...

(٤) حروراء قرية بظاهر الكوفة وقيل موضع على ميلين منها (ياقوت) .

(٥) ذو الثدية لقب عمرو بن ود العامرى ، كان فارس قريش يوم الخندق ، وقتل وهو ابن مائة وأربعين سنة (التاج للزبيدى) .

عمر وغيرهما من أصحاب رسول الله فقدم عمرو أبا موسى فتكلم فخلع علياً وتكلم عمرو فأقرّ معاوية وبايع له فتفرق الناس على هذا » .

وأخذ على بالعراق يقنت فى الصلاة ويدعو على معاوية وعلى عمرو بن العاص وعلى الضحاك وعلى الوليد بن عقبة وعلى الأعور السلمى ، ومعاوية يقنت فى الصلاة ويدعو على علىّ وعلى الحسن وعلى الحسين وعلى عبد الله بن جعفر .

وكان سعد بن أبى وقاص من الصحابة الذين اعتزلوا الاشتراك بصفين ، وقال إذا كان غزو الكفار قاتلنا ، فأما قتال الفتنة والبغى ، فلا نقاتل أهل القبلة[1] أما عبد الله بن عمر فكان يقول لا أقاتل فى الفتنة وأصلى وراء من غلب[2] . وقال : إنما كان مثلنا فى هذه الفتنة كمثل قوم كانوا يسيرون على جادة يعرفونها فبينما هم كذلك إذ غشيتهم سحابة وظلمة ، فأخذ بعضنا يميناً وبعضنا شمالا ، فأخطأنا الطريق ، وأقمنا حيث أدركنا حتى تجلى عنا ذلك ، فأبصرنا الطريق الأول فعرفناه فأخذنا فيه ، إنما هؤلاء فتيان قريش يتقاتلون على هذا السلطان ، وعلى هذه الدنيا ، والله ما أبالى ألا يكون لى ما يقتل فيه بعضهم بعضاً بنعلى .

ومن مكملات هذه الفتنة ، فتنة الخلافة بين على ومعاوية ، قيام الخوارج على علىّ ، وكانوا من أصحابه وأنصاره يوم الجمل وصفين ، وهم يزيدون على اثنى عشر ألفا ، ساءهم رضا علىّ بالتحكيم ، وقالوا لا حكم إلا لله ، فإن الله يقول : إن الحكم إلا لله[3] » وكفروا علياً بفعله واعتزلوه ، فعاتبهم على فلم يفد فيهم ، ثم قاتلهم وظهر عليهم ، وقتل منهم نحو أربعة آلاف ، ولم تطفأ ثائرتهم ، وظلت سيوف فلولهم مصلتة قروناً بعده : ونشأ من ذلك مذهب جديد قام على التشنيع على علىّ . كما نشأ مذهب الشيعة الذى قام على التشيع له . والأصل فى هذه المذاهب والمتاعب مقتل عثمان وتعذر قصاص قاتليه على علىّ ، وحرص هذا على الخلافة .

---

(١) تاريخ الإسلام للذهبى . (٢) طبقات ابن سعد .
(٣) أخبار الخوارج مفصلة فى الكامل للمبرد وفى شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد

* * *

كان المأمول بعد أن اهتدى العرب بالرسول ، أن يحتكموا إلى كتابه في كل ما شجر بينهم ، لا أن يجعلوا فصل الخطاب للسيف في دق أمورهم وجلها ، على ما كانوا في الجاهلية . وأن تعتدل طبيعة العرب المأخوذة بحب الحرب والتناغي بالسيادة ، لا ترى تحقيقها إلا من طريق العصبية القبلية ، ولا تنام عن الثأر تطلب به ، وعادت نغمة العصبيات التي جاء الإسلام يمحوها تتغلب على نفوسهم مع ما غلب على أمزجة سوادهم الأعظم من المزاجين العصبي والصفراوي ، وكان الخطب بالعصبيات عند العرب كالخطب بالأحزاب عند الأمم الحديثة أو أدهى وأمر .

نعم ما ارتاحت العرب زمناً طويلا في الإسلام من أحداث وفتن يتقاتلون فيها ، فيفني بعضهم بعضاً ، على نحو ما كان أجدادهم ، كأن الدين لم يصقل من نفوسهم إلا ظواهرها ، على حين دل ما بدا منهم من نصرة الشارع الأعظم ثم من نصرة صاحبيه من بعده ، على أن الإسلام هذب كثيراً من حواشيهم ، ثم بدأ هذا التهذيب يضعف بجرأة العامة على الخاصة ، وأي جرأة أعظم من قتل أمير المؤمنين عثمان ، وقديماً كان قتل الملوك من أشأم ما يحدث في الأمم وقلما أتى بخير ، فكيف بمقتل هذا العظيم .

كان للعرب في الجاهلية بعض العذر في شن غاراتهم ، وأرضهم مجدبة ، وعيشهم ضنك ، وأمرهم شتات ، وأي معذرة لهم في الإسلام ، وقد أذكى الدين عقولهم ، ولقنهم الرحمة ، ودمث من أخلاقهم ، وقضى أو كاد على العادات الضارة فيهم ، وفتح عليهم أبواب النعمة في الأقطار التي دخلوها فاتحين ، ووضعوا أساس الملك العتيد ، فدرت لهم أخلاف البركات ، في كل بلد نزلوه واستثمروه .

دل اقتتال المسلمين يوم الجمل وصفين والنهروان ، واغتيال الثالث والرابع من الخلفاء بأيدي جماعة من المسلمين ، على استسهال العرب سفك

الدماء ، وأنهم أبوا إلا أن يتحاكموا إلى السيف ، ويعمدوا إلى التقاتل ، وأن القوانين مهما سمت لا تغير كثيراً من روح من يأخذون أنفسهم بها ، وقد يخالفونها عند أقل بادرة . ولكم أضاع العرب من قوتهم ، ولما يمض جيل واحد على تكونهم . وإذا عرفنا أن المسلمين كانوا على ما روى الشافعى[١] ستين ألفاً لما قبض الرسول : ثلاثون ألفاً بالمدينة وثلاثون ألفاً فى قبائل العرب وغير ذلك ، وأنه هلك منهم ألوف فى حرب الردة وحروب الشام والجزيرة وإرمينية وإفريقية والعراق وفارس على عهد أبى بكر وعمر وعثمان ، أدركنا عظم هذه النازلة بهذا القدر من الرجال الذين قتلوا فى حروب على .

كانت وقعة صفين المشئومة مما عاق الإسلام عن الانتشار ، ووقف بالفتوح العربية عند حد كاد يطمع الأمم المجاورة برده على أعقابه إلى أقصى الأرض العربية ، ولولاها لكتب لمعاوية أن يفتح القسطنطينية ، وكان أعد لذلك فى أرض الشام وبحره القوتين البرية والبحرية . فلما ظهرت مسألة على اضطر معاويه أن يصانع الروم لشغله بعلى[٢] ، وأن يرجع عن عزمه ، أو يؤخر إنفاذه إلى أجل غير معلوم . ولو فتحت القسطنطينية لسرى الإسلام إلى الغرب على أيسر حالة . وكان فى الإمكان توقى هذه الحرب الحاصدة، لو لجأ المتخاصمان لأول الأمر إلى التحكيم ، ولو قدر كل واحد منهما حالة الأمة وما يتربص لها أعداؤها ، ما امتشق أحدهما حساماً فى سبيل غرضه مهما كان شريفاً ، لأن هناك ما هو أشرف منه ، وهو بث الدعوة وحماية البيضة . ولو سمع علىّ نصح بعض عقلاء الصحابة ما تسرع فى عزل عمال عثمان وفى مقدمتهم معاوية ، لما أهرقت هذه الدماء المحرمة ، ولكن علياً أصيب بكرامته ولما أبى معاوية مبايعته ، أو يسلم إليه القتلة فى جيشه ، ومن أخلاق على أن لا يسكت ساعة عمن يكون غير راض عنهم ويعد مصانعتهم خروجاً على قواعد الصدق والإخلاص .

---

(١) قواعد الحديث لابن الصلاح . (٢) مروج الذهب للمسعودى .

أشار المغيرة بن شعبة[1] ، وهو المعروف بدهائه وبعد نظره ، على عليّ أن يقر معاوية على الشام تسمح له طاعته . قال : فإن أهل الشام قد ذاقوه فاستعذبوه ووليهم عشرين سنة ، لم يعتبوا عليه ولم يعتبوه[2] فى عرض ولامال . فقال على : « والله لو سألنى قرية ما وليته إياها » . قال المغيرة : « أراه سيلى أرضين وقريات » وكان الأمر كما تنبأ المغيرة ، وما قدر علىّ ، على ثقوب ذهنه وكثرة علمه ، أن يقدر قوة خصمه فاحتقره ، ورأى أن دينه يمنعه من أن يقره . وهو يعتقد فى إقراره الضر له وللجماعة .

أدرك على بعد الدخول فى العمل ، أن جنده مشتت الأهواء تغلب عليه الفوضى ، على ما عرف من بعض شيعته من الاستماتة فى سبيل دعوته ؛ ولطالما تمنى لو يقايض عشرة من جنده بواحد من جند معاوية[3]. ومن خطبه لما بلغه مقتل محمد بن أبى بكر أمير مصر وتملك عمرو بن العاص لها باسم معاوية : « أو ليس عجيباً أن معاوية يدعو الجفاة الطغام فيتبعونه بغير عطاء ، ويجيبونه فى السنة المرتين والثلاث إلى أى وجه شاء ، وأنا أدعوكم وأنتم أولو النهى وبقيه الناس على معاوية ، وطائفة منكم على العطاء ، فتتفرقون عنى وتعصوننى وتختلفون على » .

وَرِيت زناد معاوية بأهل الشام ، لأنه طالما أحسن إليهم ، فكان فى أطوع جند ، وجنده يعتقد أن صاحبه على الحق . وروى عنه أنه قال[4] : أعنت على علىّ بن أبى طالب بأربع خصال : فقد كان ظُهَرة عُلَنة لايكتم سراً ، وكنت كتوماً لسرى ، وكان لايسعى حتى يفاجئه الأمر ، وكنت أبادر إلى ذلك ، وكان فى أخبث جند وأشدهم خلافاً ، وكنت فى أطوع جند وأقلهم خلافاً ، وكنت أحب إلى قريش منه ، فنلت ما شئت . فلله من جامع إلىّ ومفرق عنه :

قال علىّ بعد وقعة صفين ، وقد آله ما أهرق من دماء المسلمين ، وما جرّت

(١) روضة العقلاء لابن حبان البستى . (٢) أعتبه : سره بعد ما ساءه .
(٣) نهج البلاغة للرضى . (٤) المحاسن والأضداد للجاحظ .

عليه الخلافة من المتاعب ، رحم الله عمى العباس كأنما كان يطلع على الغيب من وراء ستر رقيق ، وصدق الله ما نلت من هذا الأمر شيئاً إلا بعد شر لا خير معه . وكان العباس أشار عليه لما اشتد مرض رسول الله أن يسأله إن كان الأمر فى بنى هاشم يعطوه ، وإن كان فى غيرهم يوصى بهم : فقال علىّ : إن مُنعناه لم يعطناه أحد .

فلما قُبض الرسول دعى علىّ للبيعة فقال : فى جهاز رسول الله شغل ، ولن يفوت الأمر . فبويع فى السقيفة لغيره . ولما طعن عمر أشار عليه العباس أن لا يدخل فى الشورى ، لأنه إذا اعتزلهم قدّموه ، وإن ساواهم لم يقدّموه . ولما أخذ عثمان فى الأمور قال له العباس ، وقد وقع فى نفسه أن عثمان سيقتل : والله لئن كان ذلك وأنت حاضر بالمدينة ليرمينك الناس بدمه ، وإن فعلوا لا تنال من هذا الأمر شيئاً إلا شراً لا خير معه .

يقول ابن حزم(١) فى معرض الكلام على أن علياً كان أسوس الصحابة ، بعد أن ذكر ما قام به أبو بكر من حروب الردة حتى ثبت الإسلام ، وما قام به عمر وعثمان من حروب انتهت بظهور الدين فى الأقطار : « ثم قد رأى الناس خلاف ذلك كله ، وافتراق كلمة المؤمنين ، وضرب المسلمين بعضهم وجوه بعض بالسيوف وشك بعضهم قلوب بعض بالرماح ، وقتل بعضهم من بعض عشرات الألوف ، وشغلهم بذلك عن أن يفتح من بلاد الكفر قرية ، أو يذعر لهم سرب(٢) ، أو يجاهد منهم أحد ، حتى ارتجع أهل الكفر كثيراً مما صار بأيدى المسلمين من بلادهم ، فلم يجتمع المسلمون إلى يوم القيامة ، فأين سياسة من سياسة » ؟

ويقول ابن تيمية(٣) : « تولى على والفتنة قائمة ، وهو عند كثير منهم ملطخ بدم عثمان ، والله يعلم براءته مما نسبه إليه الغالون فيه ،

(١) الملل والنحل لابن حزم .

(٢) السرب بكسر السين : النفس والسرب : الجماعة من النساء والبقر والشاء والقطا والوحش .

(٣) منهاج السنة لابن تيمية .

والمبغضون لغيره من الصحابة ، فإن علياً لم يعن على قتل عثمان ولا رضى به ، كما ثبت عنه وهو الصادق أنه قال ذلك ، فلم تصف له قلوب كثير منهم ، ولا أمكنه هو قهرهم حتى يطيعوه ، ولا اقتضى رأيه أن يكف عن القتال ، وظن أن به تحصل الطاعة والجماعة ، فما زاد الأمر إلا شدة ، وجانبه إلا ضعفاً وجانب من حاربه إلا قوة ، والأمة إلا افتراقاً ، حتى كان فى آخر أمره يطلب هو أن يكف عنه من قاتله ، كما كان فى الأول يُطلب منه الكف ، وضعفت الخلافة ضعفاً أوجبت أن تصير ملكاً ، فأقامها معاوية ملكاً برحمة وحلم ، ولم يتول أحد من الملوك خيراً من معاوية ، فهو خير ملوك الأسلام ، وسيرته خير من سيرة الملوك بعده » .

وقال أيضاً : « إن معاوية بقى فى الشام عشرين سنة أميراً وعشرين سنة خليفة ، ورعيته من أشد الناس محبة وموافقة له ، وهو من أعظم الناس إحساناً إليهم وتأليفاً لقلوبهم ، حتى قاتلوا على بن أبى طالب ؛ وصابروا عسكره إلى أن قاوموهم وغلبوهم ، قاتلوا مع معاوية لظنهم أن عسكر علىّ فيهم ظلمة معتدون عليهم كما اعتدوا على عثمان ، وأنهم يقاتلونهم دفعاً لصيالهم ، وقتال الصائل جائز ، ولهذا لم يبدأوهم بقتال حتى بدأهم أولئك . ولهذا قال الأشتر النخعى إنهم ينصرون علينا لأننا نحن بدأناهم بالقتال . وعلىٌ كان عاجزاً عن قهر الظلمة من العسكرية ، ولم تكن أعوانه يوافقونه على ما يأمر به ، وأعوان معاوية يوافقونه » اه .

لا جرم أن علياً اضطرته الحال إلى الوقوع فيما وقع فيه من قتال المسلمين ، وعمل ما عمل وهو كاره ، ولم يواته الحظ فى خلافته ، وكاد أن لا يفكر فى غير رد المطالبين بدم عثمان ، والناشزين على خلافته من الخوارج وأهل الشام وغيرهم ، ورأى انفراج قلوب الأمة بمقتل عثمان ، وأحس أكثر من غيره بما وقع من تشتت فى الأهواء ، وتأصل فى الأحقاد التى انتقلت من الأجداد إلى الأحفاد ، وما كان له مفزع غير السيف ، والسيف لا تؤمن غائلته على

الغالب والمغلوب ، وهو شر لا بد منه . ولقد قالوا « إن فى القرآن أربعة[1] سيوف ، سيف على المشركين حتى يسلموا أو يؤسروا (فإما منًّا بعد وإما فداء) . وسيف على المنافقين وهو سيف الزنادقة ، وقد أمر الله بجهادهم والإغلاظ عليهم فى سورة براءة وسورة التحريم وآخر سورة الأحزب . وسيف على أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية ، وسيف على أهل البغى وهو المذكور فى سورة الحجرات . ولم يسلّ الرسول هـذا السيف فى حياته ، وإنما سله علىّ فى خلافته وكان يقول : أنا الذى علمت الناس قتال أهل القبلة . وله صلى الله عليه وسلم سيوف أخر منها سيفه على أهل الرّدة ، وهو الذى قال فيه من بدّل دينه فاقتلوه ، وقد سله أبو بكر من بعده فى خلافته على من ارتد من قبائل العرب . ومنها سيف على المارقين ، وهم أهل البدع كالخوارج . وروى عن علىّ أن النبى أمر بقتال المارقين والناكثين والقاسطين . وقد حرق علىّ طائفة من الزنادقة فصوب ابن عباس قتلهم ، وأنكر عليه تحريقهم بالنار ، فقال علىّ : ويح ابن عباس لبحّاث عن الهنات » .

وبعد فإن الخلفاء الراشدين قاموا بخلافة النبوة على أكمل وجه أمكن ، وإذا لاحظنا اليوم أنه وقع من بعضهم شىء فهو منهم محض اجتهاد ، والمجتهد يصيب ويخطئ ، والسياسة صعبة المراس على كل الناس ، وما كان للبشر أن تجئ أعمالهم تامة من كل وجه ، ومن المؤلم أن يستل هذه الحوادث المرمضة فى سبيل الخلافة أناس عز عليهم أن يقوض العرب بالإسلام عرش ملوكهم وهم الفرس ، فينلسون فى الغمار ويتخذون من آل البيت تكأة ، ويزعمون لعلى أنه بغى عليه منذ أول يوم ، ويدعون له العصمة على نحو ما كان أجدادهم يدعونها لملوكهم من المجوس ، وأن يكون من عبد الله بن سبأ وأمثاله ممن تظاهروا بالإسلام وهو لم يمس شغاف قلوبهم ، ما كان من الدعاية لتأليب الناس على عثمان ، وكان من أثر دعايتهم تمزيق الأمة طرائق وحزائق .

---

(١) الحكم الجديرة بالإذاعة لابن رجب .

هذا وعليّ حرق من غلوا فيه وأنكر ابنه محمد بن الحنفية على شيعته دعواهم فيه أنه يعلم المغيبات وأن علمه لدنىء ، ومن بعده زاد الغلو فسكت آل البيت عما ينسبه أنصارهم إليهم ووضعوهم فى غير مواضعهم[1] « لأنهم افترضوا على أنفسهم طاعتهم ووظفوا عليهم شرائع دينهم ونحلوهم علم ما هو كائن » .

عن سويد بن غفلة[2] ، وكان من كبار التابعين صحب أبا بكر وعمر وعثمان وعلياً ، واختص بعلى وقاتل معه ، قال : مررت بقوم يذكرون أبا بكر وعمر وينتقصونهما ، فأتيت علياً فذكرت ذلك له ، فقلت : إنى مررت بقوم من الشيعة يذكرون أبا بكر وعمر وينتقصونهما ، ولولا أنهم يعلمون أنك تضمر ما هما عليه لم يجسروا على ذلك ، قال : أعوذ بالله أن أضمر لهما إلا الحسن الجميل ، لعن الله من أضمر لهما إلا الحسن الجميل : أخوا رسول الله ووزيراه ، ثم نهض دامع العين يبكى قابضاً على لحيته ينظر فيها وهى بيضاء ، وقد اجتمع الناس ، فقام فخطب خطبة موجزة بليغة ومما قال : ما بال أقوام يذكرون سيدى قريش وأبوى المسلمين بما أنا عنه متنزه ، ومما يقولون برىء ، وعلى ما يقولون معاقب ؛ فوالذى فلق الحبة وبرأ النسمة ، لا يحبهما إلا مؤمن تقى ، ولا يبغضهما إلا فاجر ردىء : صحبا رسول الله بالصدق والوفاء ، يأمران وينهيان ، ويعاقبان فما يجاوزان فيما يقضيان . وبعد أن امتدح أبا بكر وعمله فى أهل الردة قال إنه سار بسيرة رسول الله حتى قبض ثم ولى الأمر من بعده عمر بن الخطاب ، واستأمر فى ذلك الناس ، فمنهم من رضى ومنهم من كره ، وكنت ممن رضى ، فوالله ما فارق عمر الدنيا حتى رضى من كان له كارهاً ، فأقام الأمر على منهاج النبى وصاحبه يتبع آثارهما ، كما يتبع الفصيل أثر أمه . إلى أن قال : فمن أحبهما فقد أحبنى ومن أبغضهما فقد أبغضنى وأنا منه برىء ، ولو كنت تقدمت فى أمرهما لعاقبت أشد العقوبة ، فمن أتيت به بعد مقامى هذا فعليه ما على المفترى .

(١) تاريخ الطبرى .

(٢) الموافقة بين الصحابة وأهل البيت لابن زنجويه وتلبيس إبليس لابن الجوزى .

وجيء على برجل وهو بالكوفة يتنقص أبا بكر وعمر فقال : ياقنبر اضرب عنقه . قال : يا أمير المؤمنين علام تضرب عنقى وإنما غضبت لك . قال : وما ذاك ويلك . قال : إنى رجل غريب ما صحبت رسول الله ، ولا علمت مكان هذين الرجلين منه ولا منك ، وإنما سمعت من بعض من يغشاك يفضلك عليهما ، ويذكر أنهما ظلماك حقاً ، وتقدماك فى أمرك . قال على : أو تعرف القوم . قال : لا إلا بأعيانهم عند نظرى إليهم . قال : أما والله ما تقدمانى إلا بأمر الله وبأمر رسوله . وما ظلمانى ما يزن ذرة(١) ، ولولا أنك أقررت بغربتك ، وقلة معرفتك بشيخى المسلمين ، لضربت عنقك . ثم قال يا قنبر ناد فى الناس الصلاة جامعة . فاجتمع الناس له ظهراً فصلى بهم ثم صعد المنبر فقال : يا أيها الناس إن الله بعث محمداً وقد اخلولق الإسلام ، وذهب صفاء

---

(١) هذا الكلام ، رواية معتزلى يرى الكذب كبيرة بل من أعظم الكبائر التى تكاد تخرج من الدين ، لاينطبق على ما نسبه الرضى إلى على فى نهج البلاغة وسماه الخطبة الشقشقية وفيها زعم أن علياً قال : والله لقد تقمصها ابن أبى قحافة وإنه يعلم أن محلى منها محل القطب من الرحى ، فصبرت وفى العين قذى ، وفى الحلق شجا ، أرى تراثى نهباً ، حتى مضى الأول لسبيله ، فأدلى بها إلى ابن الخطاب بعده . فياعجباً بينما هو يستقيلها فى حياته ، إذ عقدها لآخر بعد وفاته . إلى أن قال : حتى إذا مضى لسبيله جعلها فى جماعة زعم أنى أحدهم ، فيالله وياللشورى ، متى اعترض الريب فى مع الأول منهم حتى صرت أقرن إلى هذه النظائر ! . وأغرب من هذا أن يأتى الرضى فى هذه الخطبة بكلام فى الخليفة الثالث نعوذ أمير المؤمنين عليه السلام أن يقوله أوما يشبهه. ومعنى هذا الكلام أن هم عثمان كان الأكل والرجيع الخ . ومن حاول أن يخدم الخليفة الرابع بأمثال هذه الخطب ، فينحله ما لم يقله، يسيء إليه أكثر ممن خرجوا عليه فى سلطانه . وبعد هذا ألا تسقط دعوى من يعزون كل ما فى نهج البلاغة لعلى بن أبى طالب ، وإن قال ابن أبى الحديد شارح النهج ، فى معرض الدفاع عن هذا الكتاب ليرد قول من قال إنه كلام محدث صنعه قوم من فصحاء الشيعة : « إنك إذا تأملت نهج البلاغة وجدته كلاماً واحداً ونفساً واحداً ، وأسلوباً واحداً ، وان المحدثين كلهم أو جلهم والمؤرخين نقلوا كثيراً منه وليسوا من الشيعة لينسبوا إلى غرض فى ذلك » . وقوله إن نهج البلاغة نسق واحد ، كلام لا يوافق عليه العارفون بأساليب البلاغة لأن فيه ألفاظاً لم تعرفها العرب إلا بعد القرن الثانى للهجرة . أما احتجاجه بأن بعض المحدثين أو جلهم أو بعض المؤرخين نقلوا هذا الكلام فلا يقوم حجة يعتد بها على صحته. فما كل من نقل حرر وصحح السند ، ولا كل من اقتبس كلاماً اعتقد صحته ، وإن من وضعوا على الرسول أحاديث ملفقة يستحلون أن ينحلوا غيره كلاماً لم يتكلم به لتأييد دعوتهم وسياستهم. يقول ابن الجوزى فى تلبيس إبليس إن من غلوا فى حب على وضعوا أحاديث فى فضائله أكثرها تشينه وتؤذيه .

الدين وظهر الظلام بالكفر ، والناس فى عَمْيَّة جاهلية جهلاء ، يعبدون الأصنام ، ويعظمون الأوثان ، ويكفرون بالرحمن فقال : أيها الناس قولوا لا إله إلا الله ، فقالوا بأجمعهم : كذبت (أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشىء عجاب) فقال أبو بكر : صدقت ، وأنا إذ ذاك طفل صغير لا أغنى عن نفسى شيئاً فى حجر رسول الله وفى بيته ، فلم يزل أبو بكر الصديق معه على تلك الحال ، يضرب الناس ويضربونه ، ويغلبهم ويغلبونه ، ويقاتلهم ويقاتلونه ، ويخافهم ولا يخافونه ، يظهر دينه ولا يكتم إيمانه ، حتى قالت قريش إن ابن أبى قحافة مجنون ، فلم يكن أحد أولى بالإسلام منه ، ولا أكرم على الله فى هذه الأمة بعد نبيها منه ، ولا خيراً منه ، ولا أفضل فى الدنيا والآخرة ، وإن أقواماً يفضلونى عليهما فى قلوبهم بقية النفاق ، يريدون فرقة أهل الإسلام واختلاف الأمة . . . وفى هذا مقنع لمن « جودوا الجنون فى الغلو » .

سياسة الأمويين :

بويع بالخلافة للحسن بن على بعد مقتل أبيه ، فحاول أن يحارب معاوية . وهو أيضاً خليفة مبايع ، ورأى من تخلف القوم عن نصرته أنهم لا يتوقفون عن خذلانه عند الحاجة ، كما خذلوا أباه من قبل . واستُنْفر الأحنف بن قيس من جماعة أبيه فقال : قد بلونا الحسن وآل الحسن ، فلم تكن عندهم إيالة الملك ، ولا صيانة المال ، ولا مكيدة الحرب . واتفق أن أحد شيعته طعنه ذات يوم فى جنبه فصرعه عن فرسه ، فكان ذلك أحد أسباب مصالحته معاوية . فنزل عن الخلافة بعد أن خطب له بها نحو ستة أشهر فى العراقين العربى والعجمى وخراسان وجزيرة العرب ، مشترطاً أن يكون ولى عهد معاوية من بعده[1] ، وأن لا يأخذ معاوية أحداً من آل الحسن بإحنة[2] ، وأن يؤمن الأسود والأحمر ، ويجعل له خراج الأهواز مسلماً فى كل عام ، ويحمل إلى أخيه الحسين بن على كل سنة ألفى ألف درهم ، ويفضل بنى هاشم فى العطاء والصلات على بنى عبد شمس ، فبذل معاوية له العهود المؤكدة على ذلك ، وأعطاه كل ما طلب ، إلا ما كان من لعن أبيه على المنابر . ودخل الحسن فى طاعته ، فحقن بذلك الدماء ، وحمد فعلته العقلاء ، وأكبرت شيعة الحسن أمر هذا الصلح ، ولم يسعها إلا أن تحمله على محمل الخير ، لاعتقادهم بعصمة آل البيت فى كل ما يصدر من أقوالهم وأفعالهم ، لا يسألون عما يبدر منهم .

وكان أهل الشام بايعوا[3] معاوية بالخلافة فى سنة ٣٧ حين تفرق الحكمان ، كما بايعوه على الطلب بدم عثمان ، فلما تنازل الحسن عن الخلافة بويع له بايلياء سنة ٤٠ مبايعة عامة أخرى ، وسمى هذا العام عام الجماعة لاجتماع الأمة على إمام واحد . وكان معاوية يدعى بالشام الأمير فلما قتل على دعى أمير المؤمنين[4] ، وغدا يسوس بلاد الإسلام كلها بسلطانه مباشرة ،

---

(١) دول الإسلام للذهبى . (٢) الأخبار الطوال للدينورى .
(٣ ، ٤) تاريخ الطبرى .

وكان بالأمس يسوس بعضها تحت سلطان أعظم من سلطانه .

أحسن معاوية تأليف القلوب ، واستخدام العصبيات لما فيه مصلحة الدولة ، وكان كلما زاد قوة انقطعت آمال الطامعين فى الخلافة ، المشاغبين على السلطان ، فاستخدم الشعراء فى تأييد دعوته كما يستخدم رجال السياسة اليوم أرباب الصحف والإذعات لمثل هذا الغرض ، ويرسل الوعاظ إلى الآفاق ليحولوا القلوب عن علىّ ، عدا ما كان يخطب به وعماله فى علىّ على المنابر ينفر القلوب منه ، وكانت العراق أضعف جزء فى ملك معاوية فرمى أهلها بأخيه زياد ، وكان هذا من عمال على فانضم بعد موته لأخيه ، فجاء زياد والعراق تغلى مراجله بالفتن ، يوقد نارها أرباب الشغب ، فسل الأحقاد وداوى الأدواء ، وتولى العراق بعد زياد ابنه عبيد الله فاشتد على الخوارج فقتل منهم صبراً جماعة كثيرة ، وحاربهم حتى كاد يفنيهم . وكانوا قاموا لأول خلافة معاوية فعفا عن بعضهم ، ثم ثار آخرون فقتلهم . وسكنت نأمة الشيعة وأصبحت دعوتهم سرية .

وأهم ما عاناه معاوية من مسائله الخارجية غزو الروم، وكان اعتاد غزوهم منذ كان أميراً ، ووصلت جيوشه إلى القسطنطينية وإلى بحر هيجاى (إيجه) وإلى سواحل بحر الروم ومنها جزيرة صقلية ، وكان ألح على عمر فى خلافته بغزو البحر ، فما جاء دور عثمان حتى كان للشام أسطول عظيم ، فصير عثمان إلى معاوية غزو الروم ، على أن يوجه من رأى على الصائفة[1] . وفتح قبرص ورودس وأرواد وغيرها من الجزر . وفتح السودان وصالح الروم فى سنة ٤١ على مائة ألف دينار وكانوا جمعوا جموعاً كثيرة فخاف أن يشغلوه عن تدبير بلاده وإحكام أمره ، وهو أول من صالح الروم ، فلما استقام له الأمر أغزى أمراء الشام على الصوائف ، فسبوا فى بلاد الروم سنة بعد سنة ، حتى طلب صاحب الروم الصلح على أن يضعف المال فلم يجبه ، واستولى الروم على جبل لبنان

(١) تاريخ الطبرى .

فى السنة السابعة عشرة من خلافته بمعاونة الجراجمة[1] فاضطر لعقد معاهدة مع الروم (سنة ٥٧) صعبة الشروط عليه وذلك ليدفع غائلة أسطولهم عن بلاده .

رأى معاوية فى سنة ٥٦ أن يجعل ولاية العهد لابنه يزيد من بعده ، فكان هذا الوضع الجديد فى أساس الملك مما استفظعه بعضهم ، لأنه كان فى الصحابة أفراد يليقون للخلافة أكثر من يزيد . وعير معاويةَ خصومه أنه جعل الخلافة كسروية وقيصرية أى جعلها وراثية وما كانت بها ، أو كما قال مروان بن الحكم : جئتم بها هرقلية تبايعون لأبنائكم . بيد أن معاوية كان يرى هذا التدبير على ما فيه من غمط حقوق الكفاة للخلافة ، أضمن لسلامة الدولة وتتقى به شرور قد تستطير بين الناس كلما مات لهم خليفة ، أو قوى أعداؤه فأرادوا استلاب الخلافة منه ، ويخشى إذا ظل المسلمون على تناحرهم ، أن يجمع أعداؤهم شملهم ، ويعيدوا الكرة عليهم فى صميم جزيرة العرب ، والله أعلم ما تكون النتيجة على الإسلام والمسلمين .

بوضع قانون ولاية العهد فى الإسلام بعض الحيطة التى تنجى من انقسام الكلمة ، وقد يخطىء رأس الملة فى توليته من يريد ، وربما قل فى رجال

---

(١) الجرجمة أهل مدينة كانت على جبل اللكام بالثغر الشامى قرب أنطاكية يقال لها الجرجومة (بضم الجيمين) صولحوا أول الفتح على أن يكونوا أعواناً للمسلمين وعيوناً ومسالح فى جبال اللكام ، وأن لا يؤخذوا بالجزية وأن ينفلوا أسلاب من يقتلونه من أعداء المسلمين ، إذا حضروا معهم حرباً . فكانوا يستقيمون للولاة مرة أخرى ويعوجون أخرى ، فيكاتبون الروم ويمالئونهم على المسلمين . ولما شغل عبد الملك بن مروان بمحاربة مصعب بن الزبير خرج قوم منهم إلى الشام مع ملك الروم فتفرقوا فى نواحى الشام ، وقد استعان المسلمون بالجرجمة فى مواطن كثيرة أيام بنى أمية وبنى العباس ، وأجروا عليهم الجرايات وعرفوا منهم المناصحة . هذه خلاصة ما قاله ياقوت فى معجم البلدان أخذاً من البلاذرى . ويقول ابن عساكر فى تاريخ دمشق أن طاغية الروم لما رأى ما صنع الله للمسلمين من منعة مدائن الساحل ، كاتب أنباط (الأنباط هم السريانيون) جبل لبنان واللكام فخرج الجراجمة وعسكروا بالجبل . فغلبت الجراجمة على جبال الشام كلها من لبنان وسنير وجبل الثلج (حرمون) وجبال الجولان ، وسمى الجراجمة بالمردة أى العصاة لعصيانهم أمر ملك الروم فى عدم التعرض للعرب .

الخليفة أو من اصطنعهم لخدمته من يسعهم الانكار عليه ، أو إرجاعه إلى الصواب إن أخطأ . والعهد للأبناء أو الإخوة أو أبناء العم على شرط الكفاية فى الجملة ، أقرب إلى سلامة الدولة من فتنة تنشب بين الأحزاب أو أصحاب العصبيات ، وكل حزب يرشح خليفته بالحق والباطل ، حتى لا يكاد يجد الصالح من المستخلفين ، أدنى مما يجد الطالح من المعونة والمظاهرة ، ولو كان مرجع هذه الولاية أرباب الرأى فى الأمة فقط ، أى أهل الحل والعقد كما اشترط فى توسيد الخلافة لكان فى ذلك الخير كله .

ثم إن حصر السلطات الدينية والمدنية فى يد الخليفة أو الملك يخرج الأمر مهما تلون اسمه بالأسماء المختلفة عن أحكام الشورى ويعيده استبداداً ، والشورى ، حياة الممالك والشعوب ، ومن النادر ظهور رجل سلمت نفسه من العيوب واستجمع شروط الخلافة ، فما توخى غير مصلحة الناس والدولة كأبى بكر وعمر ، وفى الحكومة الملكية عيوب ، وفى الحكومة المقيدة عيوب وفى الحكم « الأتوقراطى » الدينى عيوب ، وفى الحكم « الديموقراطى » الشعبى أو الجمهورى عيوب ، ولقد كثرت أخطاء الجمهوريات فى آثينة وروميـة فى العهد القديم ، وفى جمهوريات الدول الحديثة المقيدة بالأنظمة الدستورية ، فنسب الخير والشر إلى من تضامنوا من أهل شوراها على القيام بأمر الأمة ، أى أنه يخطئ فى الحكم الجمهورى أو النيابى مجموع مختار فى الجملة من أبناء البلاد ، ولا يكون الخطأ خطأ فرد بمحض إرادته كما هو الشأن فى الحكومات المطلقة الاستبدادية .

قلنا إن خصوم معاوية نالوا منه بعهده لابنه يزيد ، وفى الأمة بقايا رجال من الصحابة أعظم مكانة وسابقة منه ، وكان من المتعذر توسيد الخلافة إليهم لأنهم ضعاف فى عصبيتهم ، بالقياس إلى أرباب العصبيات الكبرى كعصبية الأمويين فى ذاك العهد . ويخشى إذا استخلفوا أن يشغلوا بالدفع عن أنفسهم فتضيع المصلحة العامة ، كما جرى فى عهد الخليفة الرابع . ولما تم الأمر ليزيد أخذ بعض الطامعين فى الخلافة وأتباعهم ، وقد رأوا حرص معاوية على حمل

بعض الصحابة والتابعين على مبايعة ابنه بعده يتقولون على يزيد ويرمونه بالكبائر ، ويستمطون منزلته ويصغرون شأنه ، وما كان يزيد كما قال ابن تيمية «مظهرا للفواحش كما يحكى خصومه ، ولا كان من الصحابة ، ولا من المشهورين بالدين والصلاح ؛ وكان من شبان المسلمين ، ولا كان كافراً ولا زنديقاً ، وتولى بعد أبيه العهد على كراهية من بعض المسلمين ، ورضا من بعضهم ، وكان فيه شجاعة وكرم » وكان أبوه يشركه فى مشورته ، ويأخذ برأيه أحياناً فى تدبير الملك وسياسته ، وقد أغزاه الروم فبلغ أسوار القسطنطينية ، وكثيراً ما بعث همته على العمل وعلمه وثقفه ، وغاية ما ثبت عنه أنه كان به رسلة يحب الراحة ويدرب كلاباً للصيد .

كان يرجى بعد استقرار الخلافة أن يطوى حديثها ، خصوصاً وقد رضى السبطان بحظهما من الدنيا ، ولكن أهل الكوفة بعد أن خذلوا علياً وابنه الحسن ، عادوا يزينون للحسين بن على الرحيل إليهم ليعاونوه على إخراج الأمر من يزيد فاغتر بهم ، فلما بلغ كربلاء غدروا به ، وصاروا مع عبيد الله بن زياد عامل يزيد ، حتى قتل الحسين وأكثر آله بكربلاء ، فأكبرت الأمة هذه المصيبة وراحت شيعته وقد خذلته فى حياته ، تستغل مقتله بعد مماته . وعظم حظ يزيد من اللعن والطعن مع أنه لم يأمر بقتل الحسين[١] ، ولا أظهر الفرح بهلاكه ، ولكن أمر بدفعه عن الأمر ولو بقتاله . ولما سمع يزيد ما تم على الحسين دمعت عينه[٢] وقال : ويحكم قد كنت أرضى من طاعتكم بدون قتل الحسين ، لعن الله ابن مرجانة ، أما والله لو كنت صاحبه لعفوت عنه . وكان بلغ معاوية فى حياته أن الحسين فى آخر أيامه كان يتهيأ لشق عصا الطاعة فكتب إليه : « أما بعد فقد انتهت إلى أمور عنك لست بها حرياً ، لأن من أعطى صفقة يمينه جدير بالوفاء ، فاعلم رحمك الله أنى متى أنكرك تستنكرنى ومتى تكدنى أكدك ، فلا يستفزنك السفهاء الذين يحبون الفتنة » والحسين ما تحلل فى الحقيقة من مبايعة معاوية إلا بموته حتى إذا خلفه ابنه خالف عليه .

---

(١) الوصية الكبرى لابن تيمية . (٢) الأخبار الطوال للدينورى .

وصح ما تنبأ به معاوية فيما قاله لابنه يزيد قبيل موته ، قال : إنى لست أخاف عليك إلا أربعة رجال الحسين بن على ، وعبد الله بن عمر ، وعبد الرحمن ابن أبى بكر ، وعبد الله بن الزبير . فأما الحسين بن على فأحسب أن أهل العراق غير تاركيه حتى يخرجوه ، فإن فعل فظفرت به فاصفح عنه . وأما عبد الله بن عمر فإنه رجل قد وقذته العبادة ، وليس بطالب للخلافة ، إلا أن تأتيه عفواً . وأما عبد الرحمن بن أبى بكر فإنه ليس فى نفسه من النباهة والذكر عند الناس ما يمكنه من طلبها، ومحاولة التماسها، إلا أن تأتيه عفواً . وأما الذى يجثم لك جثوم الأسد ويراوغك روغان الثعلب ، فإن مكنته فرصة وثب ، فذلك عبد الله بن الزبير ، فإن فعل وظفرت به فقطعه إربا إرباً ، إلا أن يلتمس منك صلحاً ، فإن فعل فاقبل منه ، واحقن دماء قومك بجهدك ، وكف عاديتهم بنوالك ، وتغمدهم بحلمك .

وكان أن امتنع عبد الله بن الزبير فى الحجاز من بيعة يزيد بن معاوية ، ووافقه كثير من أهل المدينة ، وفيهم بعض المهاجرين والأنصار ، على خلع طاعة يزيد ، وأخرجوا نوابه وأهله من المدينة ، فأرسل يزيد عليهم جيشاً ، وأمر قائده إن لم يطيعوه بعد ثلاث ، أن يدخلها بالسيف ويبيحها ثلاثاً . ووقعت الحرب وأبيحت المدينة فى هذه الوقعة التى سميت بوقعة الحَرّة نسبة لحرة المدينة ، وقتل من قريش والأنصار والمهاجرين ووجوه الناس ألف وسبعمائة ، ومن سائر الناس عشرة آلاف سوى النساء والصبيان ؛ وكان معاوية أوصى ابنه يزيد عند موته بقوله : أنظر أهل الحجاز فهم عصابتك وعترتك ، فمن أتاك منهم فأكرمه ، ومن قعد عنك فتعاهده ؛ وانظر أهل العراق فإن سألوك عزل عامل كل يوم فاعزله عنهم ، فإن عزل عامل واحد أهون عليك من سل مائة ألف سيف ، ثم لا تدرى علام أنت عليه منهم ، ثم انظر أهل الشام فاجعلهم الشعار دون الدثار ، فإن رابك من عدو ريب فارمهم به ، فإن أظفرك الله فاردد أهل الشام إلى بلادهم ، لا يقيموا فى غير بلادهم فيتأدبوا بغير آدابهم .

واعتصم عبد الله بن الزبير بمكة ، ومات على الأثر يزيد ، فاستخلف ابنه معاوية فلبث شهرين لا يخرج للناس ، ثم خطبهم فقال : إنى نظرت فيما صار إلى من أمركم ، وقلدته من ولايتكم ، فوجدت ذلك لا يسعنى فيما بينى وبين ربى أن أتقدم على قوم وفيهم من هو خير منى وأحقهم بذلك ، وأقوى على ما قلدته ، فاختارا منى إحدى خصلتين ، إما أن أخرج منها واستخلف عليكم من أراه لكم رضا ومقنعاً ، ولكم الله علىّ لا آلوكم نصحاً فى الدين والدنيا ، أو أن تختاروا لأنفسكم وتخرجونى منها . وقال : قد ضعفت عن أمركم ولم أجد لكم مثل عمر بن الخطاب لأستخلفه ولا مثل أهل الشــورى ، فأنتم أولى بأمركم فاختاروا من أحببتم . وطُعن معاوية الصغير بعد أيام ، فخاف بنو أميــة أن يخرج الأمر عنهم ، وعبد الله بن الزبير يقوى سلطانه فى الحجاز وتنتشر دعوته فى الشام سراً ، فدخلوا عليه فقالوا له استخلف على الناس من تراه لهم منا فقال لهم : عند الموت تريدون ذلك ، لا والله لا أتزودها ، ما سعدت بحلاوتها ، فكيف أشقى بمرارتها ، ثم جاءوا إلى خالد بن يزيد بن معاوية فتورع أن يستخلف على صغر سنه .

وكان الناس لما مات يزيد بايعوا بمكة ابن الزبير بالخلافة وبايع له أهل العراق والحجاز واليمن ومصر ، وبايع(١) له سراً بالشام الضحاك بن قيس ، وبايع له بحمص النعمان بن بشير ، وبايع له بقنسرين زفر بن الحارث الكلابى . وكان مروان بن الحكم بعد رحيله من الحجاز أيام ابن الزبير أقام بالشام واجتمعت إليه بنو أمية ، وصار الناس بالشام فرقتين اليمانية مع مروان ، والقيسية مع الضحاك بن قيس ، وهم مع ابن الزبير ، فاجتمع بنو أمية على عقد الأمر لمروان ، وهو « شيخ مجرب بقية بنى أمية فى وقته » . فضرب مروان القيسية بمن كان مع الأمويين من اليمانية بمرج راهط من أرض دمشق فغلبهم ، ودخل الفيحاء فقعد مقعد الخلافة . قال المسعودى وكانت وقعة مرج راهط سبب ملك بنى أمية ، وقد كان زال عنهم إلى بنى أسد بن عبد العزّى

تاريخ أبى الفداء . (٢) الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة .

ولذلك رأى قوم أن مروان أول من أخذ الخلافة بالسيف. وعُزى إلى عبد الملك بن مروان قوله:

إنى أرى فتنة تغلى مراجلها والملك بعد أبى ليــلى لمن غلبا

وأبو ليلى هو معاوية بن يزيد بن معاوية. وجعل الأمر بعد مروان لخالد بن يزيد بن معاوية ولعمرو بن سعيد الأشدق، وبذلك انتقلت الخلافة إلى بنى مروان، وخرجت عن آل أبى سفيان. وكلهم أمويون، وكلهم بنو عبد شمس، تولاها من تأهل لها من هذا البيت. وظل عبد الله بن الزبير خليفة يخطب له فى الحجاز واليمن والعراق ومصر وفارس. وأول ما اتجهت له همة مروان الاستيلاء على مصر من ابن الزبير. وامتدت حدود البلاد الإسلامية فى أيام مروان إلى نهر كور أكبر أنهار القوقاز ودخلت بعد حين بلاد الكرج وطاغستان وشركستان فى حظيرة الملك الأموى. ولما هلك مروان اجتمع الناس على ابنه عبد الملك فقال لهم: إنى أخاف أن يكون فى أنفسكم منى شىء فقام جماعة من شيعة مروان فقالوا: والله لتقومن إلى المنبر أو لنضربن عنقك. فصعد المنبر فبايعوه، ولم يختلف عليه أحد من قريش لما عرفوا من صدقه وعلمه. ولما وصل عبد الملك إلى العراق لإرجاعها إلى الأمويين وثب بدمشق عمرو بن سعيد الأشدق، وكان من أحب الناس إلى أهل الشام يسمعون له ويطيعون، فدعا إلى نفسه بالخلافة واستولى على دمشق، فرجع إليه عبد الملك ولاطفه وراسله، وحلف له أن يكون الخليفة من بعده وأن لا يقطع شيئاً دونه ولا ينفذ أمراً إلا بمحضره ثم قتله. وكان مصعب بن الزبير الذى قاتل الجيوش الأموية فى العراق فقتله عبد الملك، من أحب الناس إلى عبد الملك وأشدهم له إلفاً ومودة، وقال فى الاعتذار عن قتله «ولكن الملك عقيم[1]» وقام المختار بن أبى عبيد الثقفى يدعى الطلب بثأر الحسين فقتل عبد الله بن زياد وتمزق أكثر جند الشام وكانوا أربعين ألفاً،

(١) الملك عقيم: أى لا ينفع فيه نسب لأنه يقتل فى طلبه الأب والولد والأخ والعم، سمى به لقطع صلة الرحم بالتزاحم عليه.

فغلب المختار على الكوفة وأباد قتلة الحسين ، وبعد حين قتل مصعب بن الزبير المختار وجميع رجاله وكانوا سبعة آلاف . وقضى الحجاج فى ولايته العراق على ابن الأشعث وكان ادعى الخلافة ، وذلك بالقرب من دير الجماجم فى ثمانين وقعة تواقعاها ، وابن الأشعث فى جيش أعظم من جيش الحجاج ، ولكن ليس له عقل الحجاج ولا حزمه ، وانهزم ابن الأشعث وأنصاره من أهل العراق . ولم يكن[1] بعد وقائع صفين أعظم من هذه الحروب .

لما أمن الخليفة جانب العراق وبايعه أهلها بالخلافة ، رمى الحجاز بالحجاج ليقضى على ابن الزبير وخلافته . فكان ذلك بعد حروب أهرقت فيها الدماء ، وبمقتل ابن الزبير صفت الحجاز واليمن وفارس للخليفة الأموى فصفت بها بلاد الإسلام ، وقضى عبد الملك على الأزارقة من الخوارج فى فارس ، وعلى الروم والبربر فى إفريقية وعاهد الروم ثم نقضوا عهده[2] ، وظلو على عدائهم طول أيامه ، وعلى كثرة ما قتل من المسلمين فى غزوات الروم فى أرجاء إرمينية وآسيا الصغرى كان الروم يخافون المسلمين لتهديدهم بلادهم ، والمسلمون يخافون الروم لأنهم كانوا حتى فى حال الضعف لا تؤمن غوائلهم على بلاد المسلمين ، وظلت هذه الحروب محتدمة إلى أيام ابنه الوليد وردد أقصى الغرب النصرانى صداها . يقول سترستن إن غدر عبد الملك بعمرو بن سعيد الأشدق وقسوته عليه ، يلقى شيئاً على شخصية عبد الملك ، والظاهر أن عمله كان شاذاً وأن هناك أسباباً قاهرة حملته فى مثل هذا الموقف على ما أتاه ، ليقضى على الفتوق التى كانت ظاهرة فى كل مكان . قال ومن الثابت أنه ليس فى خلفاء بنى أمية من يدانيه فى الاضطلاع بأساليب الحكم . وكان يحرص[3] على أن يكون ولاته ممن ينفذون أمره ، ولا يفكرون إلا فى إرضاء الخليفة والفناء فيه ، على طريقة الحجاج والمهلب فى سياسة الدولة لا ينظرون إلا إلى مصلحة

(١) التنبيه والإشراف للمسعودى . (٢) معلمة الإسلام . عبد الملك .
(٣) معلمة الإسلام . الأمويون .

الملك . والمهلب بانضمامه إلى عبد الملك بعد أن كان مع ابن الزبير كزياد بانضمامه إلى معاوية بعد أن كان مع علي . وما كان عبد الملك يطاق الحرية لغير أخيه عبد العزيز والى مصر وكانت له طعمة . ومصر كانت تتمتع منذ عهد عمرو بن العاص بشيء من الاستقلال ، ويرعاها الأمويون رعاية خاصة ، لأنها طريقهم إلى شمال إفريقية وإلى ما وراءها ، ولكونها برأسها مملكة عظيمة غنية .

غزا عبد الملك الروم مراراً براً وبحراً ، وصالحهم مرة لاضطراب البلدان عليه ، وحمل إليهم أموالا كثيرة حتى انصرفوا عن المصيصة على أن تكون الهدنة عشر سنين ، ويخرج الروم الذين كانوا في جبل لبنان من آخر أيام معاوية فيؤدي عبد الملك إليهم في كل يوم ألف دينار وفرساً ومملوكاً على أن يكون خراج قبرص وإرمينية مشتركاً بين الروم والعرب . ثم أخذ ملك الروم اثني عشر ألف مقاتل من المردة أو الجراجمة في جبال الشام إرضاء لعبد الملك . وكان صالح الروم (٧٠ هـ) لأول خلافته على أن يؤدي إليهم في كل جمعة ألف دينار ، وكانوا طمعوا في الشام ، وهو موزع الفكر بمسائل عمر بن سعيد ومصعب بن الزبير وعبد الله بن الزبير ، وليس من الحزم أن يحارب حربين داخلية وخارجية في وقت واحد ، وفي أيامه وصل من الروم موريق وموريقان (٧٥ هـ) وحملا بجيشهما على دير القديس مارون في جهات حماة من الديار الشامية ، وقتلا خمسمائة راهب ثم تحولا إلى قنسرين والعواصم فقتلا الأهلين ونهبا وخربا المساكن ، ولم يعفيا عن أحد من الموارنة ، وخضعت لهم بلاد الكورة في لبنان ، ثم قوي الجبليون على عساكر الروم وقتلوا أكثرهم وانهزم الباقون .

وصف الجاحظ عبد الملك فقال فيه « كان عبد الملك بن مروان سنان قريش وسيفها رأيا وحزماً ، وعابدها قبل أن يستخلف ورعا وزهداً » ويعد في العلماء العاملين كما هو من أكبر الساسة . ويشبه عبد الملك معاوية بحزمه وسياسته ، وما كان يدهش لما يحل به من المفظعات[1] . وكان من جملة وصيته لأولاده أن

(١) الأمور الشديدة الشانعة .

يعطف الكبير منهم على الصغير وأن يعرف الصغير حق الكبير ، وحذرهم البغى والتحاسد وأوصاهم بأخيهم مسلمة ، وأن يصدروا عن رأيه ، وأن يكرموا الحجاج فإنه هو الذى وطأ لهم هذا الأمر . وعمل زياد بن أبى سفيان وخالد القسرى وقتيبة بن مسلم وأمثالهم من رجال بنى أمية ، لا يقل عن أعمال الحجاج فى سياسة الدولة وكانوا كلهم « قطب[١] الملك الذى عليه مدار السياسة ومعادن التدبير ، وينابيع البلاغة ، وجوامع البيان ، هم راضوا الصعاب حتى لانت مقاودها ، وخزموا الأنوف حتى سكنت شواردها ، ومارسوا الأمور ، وجربوا الدهور ، فاحتملوا أعباءها ، واستفتحوا مغالقها ، حتى استقرت قواعد الملك ، وانتظمت قلائد الحكم ؛ ونفذت عزائم السلطان » .

وأريد عبد الملك على أن يعهد لابنيه الوليد وسليمان فأبى لأن البيعة كانت لأخيه عبد العزيز ، وكان عبد الملك لا يفضل عبد العزيز فى شىء إلا باسم الخلافة ، وهو نظير عبد الملك فى الحزم والعقل . ومات عبد العزيز فعهد عبد الملك إلى ولديه الوليد ثم سليمان بالخلافة ، وكانت أيام الوليد خالية من المشاغل الداخلية فى الجملة والعمران يعظم ، والفتوح سائرة على ساق وقدم ، فتح بلاداً فى أرض الترك والروم والهند وأعظم ما فتح الأندلس ، وجاء فاتحها موسى بن نصير إلى دمشق فى طائفة من أبناء ملوك البربر والجزائر والروم والأسبان والإفرنج يلبسون تيجانهم وهم فى حالة الأسر . وسئل فاتح الأندلس فى حضرة الخليفة سليمان عن حال تلك الأمم التى افتتح بلادها فقال : إن الروم أسود[٢] فى حصونهم ، عقبان على خيولهم ، نساء فى مواكبهم ؛ إن رأوا فرصة افترصوها ، وإن خافوا غلبة فأوعال ترقل[٣] فى أجبال ؛ لا يرون عاراً فى هزيمة تكون لهم منجاة . وقال عن البربر : إنهم أشبه العجم

(١) العقد الفريد لابن عبد ربه . (٢) الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة .

(٣) أرقلت الناقة إرقالا أسرعت فى سيرها . والوعل بكسر العين الأروى وجمعه وعول وأوعال والأروية بالضم والكسر الأنثى من الوعول وثلاث أراوى على أفاعيل فإذا كثرت فهى الأروى على افعل بغير قياس .

بالعرب لقاء ونجدة وصبراً ، وفروسية وسماحة وبادية غير أنهم غُدُرٌ . وقال عن الأسبان ، إنهم ملوك مترفون ، وفرسان لا يجبنون . ووصف الإفرنج : بأن هناك العدد والعدّة ، والجلد والشدة، وبين ذلك أمم كثيرة ومنهم العزيز ومنهم الذليل ، وكل قد لقيت بشكله فمنهم المصالح ومنهم المحارب . وما عامل الخليفة سليمان بن عبد الملك موسى بن نصير ولا قتيبة بن مسلم بما يستحقان لما قدما من خدمة الدولة ، فقد قتل قتيبة بن مسلم فاتح خوارزم وسمرقند وبخارى وضارب الجزية على ملك الصين لأنه أظهر الخلاف وأثار الجيش على الخليفة فيما قيل ، وقتل عبد العزيز بن موسى بن نصير توهما منه أنه يستقل بالأندلس . وبعث سليمان إلى الروم بأخيه مسلمة بن عبد الملك وعمر بن هبيرة فلقيا جهداً وفتحا بعض مدن الروم ، وكان أول من ضرب بسيفه باب القسطنطينية وأذن فى بلاد الروم أحد بنى عامر بن صعصعة وكان مع مسامة فأراد قيصر قتله فقال : والله لئن قتلتنى لاتبقى بيعة فى بلاد الإسلام إلا هدمت[1]

ومن أهم ماعمله سليمان عهده لابن عمه عمر بن عبد العزيز بالخلافة ومن بعده لأخيه يزيد ، ولذلك باشارة وزيره رجاء بن حيوة ، فدل على بعد نظر وحب الخير للأمة ، فدعى مفتاح الخير . ولم يكد عمر بن عبد العزيز يقبض على زمام الخلافة حتى استدعى من الروم جيش المسلمين لما لقوا من الجهد . وطلب إلى عامله على الأندلس أن يرسم له مصورها لأن المسلمين هناك محاطون بالأعداء ، بعيدون عن مقر الخلافة ، وكان من رأيه أن يجليهم عن أرضها . وكتب إلى عامله فى بلاد ما وراء النهر باقفال المسلمين بذراريهم إلى البلاد التى أظلها سلطان العرب منذ سنين ، قائلا : حسب المسلمين الذى فتح الله عليهم . ذلك لأن عمر بن عبد العزيز كان يضن بدماء قومه ولا يحب التوسع فى الفتوح ويحرص على إصلاح البلاد وأهلها . وفى أيامه سكنت الخوارج فلم يثوروا وكان ناقشهم وأفحمهم . وعطف على الطالبيين ووسع عليهم ، فكانوا عنه

(١) المعارف لابن قتيبة .

راضين . وأبطل لعن أبي تراب على بن أبي طالب من منابر الإسلام . وكان بنو أمية يسبون علياً من سنة إحدى وأربعين وهى السنة التى خلع فيها الحسن نفسه من الخلافة .

وكانت علاقة عمر مع الروم سلمية . ولما بلغ صاحب القسطنطينية نعيه نزل عن سريره وبكى وذكر من مآثرعمر أمام وفد من العرب – كان ذهب للفداء بين العرب والروم – ما أبكى المقل ومما قال : لقد بلغنى من بره وفضله وصدقه ما لوكان أحد بعد عيسى يحيي الموتى لظننت أنه يحيي الموتى ولقد كانت تأتينى أخباره باطناً وظاهراً فلا أجد أمره مع ربه إلا واحدا ، بل باطنه أشد حين خلواته بطاعة مولاه . ولم أعجب لهذا الراهب الذى قد ترك الدنيا وعبد ربه على رأس صومعة ، ولكنى عجبت لهذا الراهب الذى صارت الدنيا تحت قدميه فزهد فيها ، حتى صار مثل الراهب[1] .

أعاد عمر للخلافة جمالها وجلالها ، على ما كانت عليه أيام جده لأمه عمر ابن الخطاب ، ولكن ابن عبد العزيز عمل فى زمان غير زمان ابن الخطاب ، وبرجال غير رجاله . وكان دأبه أن يذكر الناس بالآخرة ، ويخوفهم من العذاب ، ودأب جنده ، أن يذكرهم العمل للدنيا ، مع شدة التمسك بحقوق الأخرى . فسياسة عمر بن الخطاب ملائمة لزمانه ، وسيرة سبطه كذلك . هذا والناس فى آخر القرن الأول قد فسدوا أو بدأوا بالفساد . عمل عمر أعمالا عظيمة فى خلافته القصيرة وهى سنتان وخمسة أشهر ، وهذا من أعجب ما يدون فى تاريخ عظماء الأرض . ولو لم يتقيد بعهد سلفه سليمان بن عبد الملك ليزيد بن عبد الملك ، لعهد إلى القاسم بن محمد بن أبي بكر أو إلى اسماعيل ابن عمرو بن سعيد الأشدق ، لما كان يعرف من غنائهما ، ولكن حاذر إن أقدم على ذلك أن يغضب بنى أمية ، وكان بعضهم يبطن له الكراهة ، وإذا حول الأمر عن المروانيين تقع التفرقة لا محالة .

---

(١) مروج الذهب للمسعودى .

وكان عمر بن عبد العزيز يشعر أن يزيد بن عبد الملك لا يسير بعده بسيرته ، بل يسير بسيرة أخيه على طريقة الملكية المطلقة ، يجمع الأموال ويبددها ، ويقتل ولو على الشبهة لما يعتقد أن فيه سلامة الدولة ، فلما بويع ليزيد أعاد سب على على المنابر ، وأرجع الأوضاع إلى ما كانت عليه قبل سلفه ، وكتب إلى مصر بمنع الزيادة التى كان عمر بن عبد العزيز أمر لأهل الديوان بها فنعوها[1] . وأتاه[2] قوم من قريش وخيار بنى أمية ، وكانت قلوبهم قد سكنت إلى هدى عمر واطمأنت إلى عدله ، فاتهم منهم نفرا بالخلع والخروج فأسكنهم السجن عشرين شهراً ، ثم دس لهم السم فماتوا جميعاً ، وأقصى من سائر قريش ثلاثين رجلا ، بعد أن صادرهم وعذبهم ، وصلب من الناس جملة ممن ألف هؤلاء القوم واتهم بمصانعتهم ومصاحبتهم وقيل إن يزيد بن عبد الملك[3] لما ولى الخلافة قال : « سيروا بسيرة عمر بن عبد العزيز فأتوه بأربعين شيخاً فشهدوا عنده أن الخلفاء لا حساب عليهم ولا عذاب ، وكان طائفة من الجهال الشاميين يعتقدون هذا » .

كان يزيد بن عبد الملك على غير طريقة إخوته ، قرَّب القيسين وأقصى اليمانيين ، خلافاً لما جرى عليه أخوه سليمان ، وبذلك استهدف لغضب اليمانيين ، وهم الكثرة الغامرة فى جيوش الشام ، وفى أيامه وثب بالبصرة يزيد بن المهلب وتسمى بالقحطانى ونصب رايات سوداء وقال أدعوا إلى سيرة عمر بن عبد العريز فقتله أمير العراقين مسلمة بن عبد الملك . وكانت أيضاً ملحمة كبرى عند باب[4] الأبواب التى الجرّاح الحكمى هو والترك فانكسروا بعد قتال عظيم . وكان[5] يزيد جعل ولاية العهد من بعده لهشام ، ثم بدا له أن يبايع بولاية العهد لابنه الوليد ؛ فأقنعه خالد بن عبد الله القسرى

(١) الولاة والقضاة للكندى . (٢) الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة .

(٣) دول الإسلام للذهبى . (٤) باب الأبواب على بحر طبرستان ، وهو بحر الخزر أحد الثغور الجليلة العظيمة لأنها كثيرة الأعداء الذين حفوا بها من أمم شتى وألسنة مختلفة وعدد كثير .

(٥) تاريخ اليعقوبى .

بالعدول عن ذلك لئلا تقع العداوة والشر بينهم ، ويجد الناس السبيل إلى الطعن فيهم والاختلاق عليهم ، وصير الوليد ولى العهد بعد أخيه هشام .

وجاء هشام بن عبد الملك يتولى الخلافة ، وهو آخر من تولاها من ولد عبد الملك ، تولاها هو ويزيد وسليمان والوليد فلقب هؤلاء الإخوة الأربعة بالأكبش الأربعة ، ولقب والدهم عبد الملك بأبى الأملاك لتولى الخلافة أربعة من أولاده . تولى هشام فلم يخرج[1] عليه خارج ولم يقم عليه قائم ، اللهم إلا زيد بن على فى بعض نواحى الكوفة فقتله ابن هبيرة فعظم قتله على هشام ، وأقصى ابن هبيرة وصادره ، وقال الخليفة إن ابن هبيرة لم يزل مبغضاً لأهل البيت من آل هاشم وآل عبد المطلب وإنى ما زلت محباً لهم حتى أموت ، كانت سياسته رشيدة وكتب له التوفيق فى فتوحه . وسارت طريقة الجباية سيراً أحسن من سيرها فى أيامه وكان النظام فى الأخذ والعطاء على أتمه . وزعم مؤرخو النصارى[2] أن هشاماً أتى على ثروة الذميين والمسلمين ، فثارت ثورات من تطبيق قوانين الجباية عليهم ، وعم البلاد الشقاء والفاقة ، وفى أيامه دخل الخوارج إلى الشام وأعقب ذلك خلل فى الجيش . وحاول فان فلوتن[3] أن يثبت أن الجباية كانت فاحشة فى عهد الأمويين وأن من الثورات ما نشب بتأثير تلك المظالم والضرائب ، لكن لم يأت ببراهين مقنعة بل استنتج استنتاجاً ضعيفاً واستقرى استقراء ناقصاً . ويقول الطبرى إنه كان لايدخل بيت مال هشام مال حتى يشهد أربعون قسامة أنه أخذ من حقه وأعطى لكل ذى حق حقه . ومن كان هذا شأنه فى أخذ ما حل له كيف يستحل أخذ أموال الذميين والمليين بالباطل ، ولكن من الرعية من لا يرضيهم شىء حتى ولو أعفوا من كل ضريبة . قال أرباب السير من العرب إن السواس ثلاثة فى بنى أمية ، وهم معاوية وعبد الملك وهشام ، وبه ختمت السياسة وحسن السيرة ، وأجمعوا على أنه لم يكن فى بنى أمية ملك أعظم من هشام : أخذ الجزية

(١) الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة . (٢) معلمة الإسلام . هشام .

(٣) السيادة العربية لفان فلوتن تعريب حسن إبراهيم حسن ومحمد زكى إبراهيم .

من الروم والفرس والترك والفرنج والزنج والسند والهند ، ولم يجترئ أحد معه على ظلامة . وهو « رجل محشو عقلا » وغزا هشام الروم عدة غزوات موفقة وكان الأسطول يشترك مع الجيش البرى من اليابسة ، وذلك بقيادة ابنيه معاوية وسليمان وأسر قسطنطين ملك الروم[١] وتقدمت جيوشه فى الشرق فغزا الترك وفتح الفتوح العظام .

وأتت نوبة الوليد بن يزيد لتولى الخلافة ، فعقد لابنيه الحكم وعثمان بولاية العهد من بعده ، وأساء السيرة وانتحى على أهله وجماعة من قريش . وأخذت الأحداث العظيمة وسفك الدماء ، وقتل خالدا القسرى فأغضب اليمانية ، واشتد على بنى هشام وأضر بهم وضرب سليمان بن هشام مائة سوط وحلق رأسه ولحيته وغربه إلى عمان ، وحبس يزيد بن هشام ، فرماه بنو هشام وبنو الوليد . وكان أشدهم قولا فيه ابن عمه يزيد بن الوليد بن عبد الملك . وكان الناس إلى قوله أميل لأنه كان يظهر التنسك[٢] فألحت عليه القدرية ، وكان قدرياً يرى رأى غيلان ، وقالوا له لا يحل لك إهمال أمر الأمة .وأجابته اليمن بأسرها ، وقاتل الوليد بمن كان معه من المضرية ، وأثخنت اليمانية القتل فى مضر ، إلى أن أحاطوا بالوليد بحصن البخراء من أرض تدمر ، وذبحوه وحملوا رأسه على رمح فطيف به فى دمشق . وبايع المضريون ليزيد بن الوليد طوعاً أو كرهاً ، فاضطربت عليه البلدان ، وسمى الناقص لأنه نقص من عطاء الناس ، ومما خطب به القوم يستميلهم « فإن وفيت لكم بما قلت ، فعليكم بالسمع والطاعة وحسن المؤازرة ، وإن لم أف فلكم أن تخلعونى إلا أن أتوب . وإن كنتم تعلمون أن أحداً ممن يعرف بالصلاح يعطيكم من نفسه ما قد بذلت لكم ، وأردتم أن تبايعوه ، فأنا أول من يبايعه معكم » وفى أيامه خرج يحيى ابن زيد من آل البيت بأرض الجوزجان فوجه نصر بن سيار صاحب خراسان أحد رجاله فقتل زيد فى المعركة . ولما قتل الوليد خرج أهل حمص وأغلقوا

---

(١) تاريخ محبوب بن قسطنطين المنبجى . (٢) العقد الفريد لابن عبد ربه .

أبواب المدينة ، وأقاموا النوائح والبواكى عليه ، وطلبوا بدمه ، قالوا[١] :
« إن المضرية تلاومت فيما كان من غلبة اليمانية عليها ، وقتلهم الخليفة ابن يزيد ، فدب بعضهم إلى بعض ، واجتمعوا من أقطار الأرض ، وساروا حتى مدينة حمص ، وبها مروان بن محمد بن مروان بن الحكم ، وكان يومئذ شيخ بنى أمية وكبيرهم ، وكان ذا أدب كامل ورأى فاضل ، فاستخرجوه من داره وبايعوه وقالوا له : أنت شيخ قومك وسيدهم فاطلب بثأر ابن عمك الوليد بن يزيد ، فاستعد مروان بجنوده فى تميم وقيس وكنانة وسائر قبائل مضر وسار نحو مدينة دمشق فاقتتل جيشه مع جيش يزيد بن الوليد فى ثنية العقاب وانهزم الحمصيون ، واستولى يزيد على حمص ، ووثب أهل فلسطين وأحضروا يزيد بن سليمان بن عبد الملك فجعلوه عليهم ، فدعا الناس إلى قتال يزيد الناقص فأجابوه إلى ذلك ؛ وبلغ يزيد ذلك فأرسل إليهم جيشاً مع سليمان بن هشام بن عبد الملك ، ووعد كبراء فلسطين ومناهم ، فتخاذلوا عن صاحبهم وأخذ سليمان البيعة من أهل طبرية والرملة ليزيد بن الوليد ».

ومات يزيد بن الوليد بعد ستة أشهر من خلافته ، فخلفه أخوه وولى عهده إبراهيم بن الوليد ، وقيل إن أخاه لم يعهد إليه ولكنه استولى بغير عهد وقيل لم يتم له الأمر ، فكان قوم يسلمون عليه بالخلافة ، وقوم يسلمون عليه بالإمرة ، وأبى قوم أن يبايعوا له ، وأقبل مروان بن محمد من إرمينية داعياً إلى نفسه فى جيش من أهل الجزيرة . وكان القوم بايعوا لإبراهيم بن الوليد ولعبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك من بعده ، ودخل مروان دمشق فخلع إبراهيم نفسه وهرب وتوارى حتى أمنه مروان ودخل فى طاعته ، وكان أهل حمص لم يبايعوا إبراهيم ، وكان مروان أخاه لأمه . ثم قتل مروان بعد أخذ البيعة له إبراهيم بن الوليد وعبد العزيز بن الحجاج ، ونبش عسكره قبر يزيد بن الوليد وصلبوه على باب الجابية بدمشق . وسمى مروان بالجعدى

(١) الأخبار الطوال للدينورى .

نسبة للجعد بن درهم الذى لقنه مذهبه فى القدر والقول بخلق[١] القرآن . وأخذ مروان بحزمه يقضي على النازين على الخلافة كقضائه على فتنة ثابت ابن نعيم الجذامى لما خرج عليه ببلاد طبرية والأردن . ودخلت خوارج اليمن مكة والمدينة يدعون لعبد الله بن يحيى الكندى الأباضى فجهز مروان جيشاً وقاتل هؤلاء الخوارج فى الحجاز ثم فى اليمن وقتل فى ذلك خلق كثير . ودخل داعية عبد الله بن يحيى طالب الحق إلى مصر فبايع له ناس من تجيب وغيرهم فاستخرجهم عامل مروان فقتلهم . وقاتل مروان الضحاك بن قيس الشيبانى الحرورى وكان قوى أمره فى أرجاء الكوفة حتى بلغ جيشه فيما قيل مائة وعشرين ألفاً . فأرسل إليه ابنه عبد الله وما زال يحاربه حتى قتله ثم قتل من خالفوه من الحرورية . وكان ممن لحق بالضحاك بن قيس هذا سليمان ابن هشام بن عبد الملك وبايعه بعد أن اختلفت به الأحوال منذ خرج من سجن الوليد فى عمان وثار فأخذ ما كان بها من الأموال ، وأتى دمشق فلحق أولا بيزيد بن الوليد فولاه بعض حروبه[٢] إلى أن كسره مروان بن محمد بعين الجرّ . فهرب ثم استأمن إلى مروان وبايعه ثم خلعه ، واجتمع عليه نحو سبعين ألفاً وطمع فى الخلافة ، فبعث إليه مروان عسكر افندم سليمان على ما كان منه ومضى إلى حمص فتحصن بها ، ثم التحق بالضحاك ثم بقحطبة[٣] ابن شبيب أحد قواد العباسيين الذى تولى حرب ابن عمه مروان بن محمد فأحسن البلاء . فحسن موقع سليمان من أبى العباس السفاح العباسى ، ثم شعر سليمان أن السفاح يريد قتله فخرج ولحق بالجزيرة . وكتب إلى مواليه وصنائعه فاجتمع إليه منهم خلق كثير . فبعث إليه أبو العباس بعثاً ليقاتله فانهزم ثم بعث إليه بعثاً آخر فهزمه أيضاً ، ثم بعث إليه بعثاً آخر فأسره وصلب على دار الإمارة بالكوفة .

رأينا كيف تلونت أحوال السياسة فى عهدها الأخير ، وكانت فى الأيام

(١) تاريخ أبى الفداء . (٢) تاريخ دمشق لابن عساكر .
(٣) الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة .

الحالية متسقة مطردة ، وبهذا التناحر بين أبناء العم على الخلافة ، دب الفشل فى جيش الأمويين ، وقلت هيبتهم فى النفوس بهذا الانشقاق البادى بينهم ، وكيف يستقيم لهم الأمر كما كان فى زمن هشام مثلا ، وفى سنين قليلة خرج على الخليفة الوقت من أهله بشر بن الوليد بقنسرين وعمر بن الوليد بالأردن ويزيد بن سليمان بفلسطين وسليمان بن هشام بحمص وقنسرين ، وبايعه أهل حمص بالخلافة ، وخلعوا مروان بن محمد بعد أن قتل من عسكر سليمان ابن هشام ثلاثون ألفاً وكان فى سبعين ألفاً .

ولما انهزم مروان بن محمد الجعدى فى الزاب الصغير قرب الموصل أمام جيش بنى العباس لم ينفعه تعصبه[1] مع النزارية شيئاً بل غدروا به وخذلوه ، ولما اجتاز ببلاد قنسرين وخناصرة أوقعت تنوخ بساقته وجاز حمص فناوشه أهلها القتال ، وكان قاتلهم غير مرة وقتل من رجالهم ومثل بهم . ووثب به فى دمشق الحارث بن عبد الرحمن الحرشى ، فما آوته دمشق عاصمة آبائه ، ورحل بجيشه إلى الأردن فوثب بها هاشم بن عمر العنسى والمذحجيون أى اليمانيون جميعاً ، ثم مر بفلسطين فوثب به الحكم بن ضبعان لما رأوا من إدبار الأمر عنه .

وكان مروان لما وسدت الخلافة ودخل دمشق ترك لأهل كل جند من أجناد الشام أن يختاروا عمالهم ، فوقع اختيارهم على هؤلاء العمال الذين ثاروا بهم بعدُ على مروان ، وخذلوه أى خذلان . وجعل مروان يستقرى[2] مدن الشام فيستنهض أهلها فيروغون عنه ويهابون الحرب فلم يسر معه منهم إلا قليل . بل لقد انقلب عليه من كان موالياً لدولته ، وقتل أهل مصر واليهم ، وقتل أهل حمص واليهم ، واكتفى أهل المدينة بإخراج عاملهم ، وخرج عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن أبى طالب بالكوفة فانهزم ومضى إلى فارس فغلب عليها وعلى أصبهان . والفتنة انتشرت فى أنحاء البلاد كلها حتى انهزم مروان وهبط مصر فلحق به الجيش العباسى فقتل فى بيعة فى بوصير من أرض الصعيد وبه انحل ملك الأمويين فى الشرق .

(١) مروج الذهب للمسعودى . (٢) الأخبار الطوال للدينورى .

* * *

أهم الأسباب التى عجلت القضاء على ملك بنى أمية تحكّم أهواء المتأخرين من الخلفاء فى قوادهم العظام ، فابتعد العارفون الصادقون عن الخدمة ، ودخل الأغمار الأغرار ، أبعدوا أولياءهم ، كما قال أبو مسلم الخرسانى ، ثقة بهم ، وأدنوا أعداءهم تألفاً لهم ، فلم يصر العدو بالدنو صديقاً ، وصار الصديق بالبعاد عدواً ، ومنها القاء بذور الخلاف بين النزارية والمضرية ، وقيس ويمن ، واعتصام خليفة بهذا ، وآخر بذاك ، فروان بن محمد اصطفى قيس عيلان وانحرف عن اليمن ، وبادأها بالعداوة فصارت[1] عليه إلباً ، وله حرباً ، وما عطف بنو أمية على العراق وخراسان العطف المطلوب فظاهروا غيرهم ، وكان تنازع رؤساء العرب فى خراسان على الولاية ، وانقسام الجيش إلى مضرى ويمانى من العوامل أيضاً فى ظهور أعداء الأمويين عليهم . ثم إن الأمويين توسعوا فى الفتوح ، حتى اتسعت دائرة ملكهم إلى ما لم تبلغه دولة الرومان ، فقد استطاعوا أن يقضوا على الطالبين الذين نازعوهم سلطانهم فى الأقطار القريبة من دار ملكهم ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يقضوا على رجل من الخوارج الصفرية اسمه ميسرة لما قدمه البربر فى شمالى إفريقية سنة ١٢٢ وبايعوه بالخلافة وخوطب فى طنجة وما إليها بأمير المؤمنين . هذا والأمويون كانوا فى أوج سلطانهم .

كانت الدولة الأموية عربية صرفة برجالها وبكثير من أوضاعها ، لم يتول القيادات والنيابات فيها إلا جماعة من أبنائهم ، ومن أهل البيوتات العربية المعتمد عليها عندهم ، وجيوشهم كلها من أصول عربية لم يمازجها غير قليل من البربر فى شمال إفريقية والأندلس « وكان أمر بنى أمية نافذاً فى جميع العرب بعصبية بنى عبد مناف حتى لقد أمر سليمان بن عبد الملك من دمشق بقتل عبد العزيز بن موسى بن نصير بقرطبة فقتل ، ولم يرد أمره ثم اضمحلت

(١) التنبيه والإشراف للمسعودى .

عصبية بنى أمية بما أصابهم من الترف فانقرضوا[١] » . وكان الأمويون على الأكثر أصحاب ثقافة عربية راقية فيهم المرونة السياسية والإدارية ، تمرنوا على قيادة الجيوش وحكم الناس منذ عهد الرسول ، وكان أكثر عماله منهم[٢] ، ولم يكن فى عماله ولا فى عمال أبى بكر وعمر أحد من بنى هاشم . وأثبت الأمويون كفاءتهم الحربية والسياسية منذ قاتلوا الروم يوم اليرموك فى الشام . فكان نساؤهم وبناتهم يقاتلن مع الرجال . وما فتحت[٣] من كور الشام مدينة إلا وجد عندها رجل منهم ميتاً . فكان من الطبيعى أن يحبهم الشاميون ويستميتوا فى نصرتهم لأول أمرهم . ومن الطبيعى أن تكون الشام لهم ولأعقابهم دار ملك ، ومبعث عزة وسلطان ، ومن الطبيعى أن يمتد ظلهم هذا الامتداد العظيم فى المشرق والمغرب .

امتد ملكهم من سواحل الأطلنطى إلى بلاد الصين ، ومن جبال القوقاز وما وراءها[٤] إلى خط الاستواء وما وراءه ، ودخلت فى الإسلام فى عهدهم أمم كثيرة من السلالة السامية (العرب والسريان والكلدان) ومن السلالة الحامية (المصريون والنوبيون والبربر والسودان) ومن السلالة الآرية (الفرس واليونان والأسبان والأهاند) ومن السلالة التورانية (الترك والتتار) . وأمست تتلى آى القرآن فى سمرقند كما تتلى فى قرطبة[٥] ، ويتلاقى الهندى مع السودانى فى مكة للحج ، وكلاهما يدين لبنى أمية ، وأخذت الجزية من النوبة كما قررها عمر بن الخطاب ومن الهند والصين على ما قدرها قتيبة ، وأصبحت دمشق فى نظر المسلمين كرومية فى نظر أهل النصرانية .

وصعب فى عهد خلفائهم قيام دولة شيعية ، على أن الشيعة كانت تعمل منذ طمعت نفس آل أبى طالب فى الخلافة ، محتجين بأن الرسول أوصى

(١) مقدمة ابن خلدون .
(٢) النزاع والتخاصم للمقريزى .
(٣) النزاع والتخاصم للمقريزى .
(٤) الحضارة الإسلامية لأحمد زكى .
(٥) خاة الإسلام لمصطفى نجيب .

بالخلافة لعلى يوم الغدير بالنص ، وأنه وآله معصومون ، وأنه مصيب فى كل أحواله ، وأنه ضل كل من لم يبايعه من الصحابة ، ولم تجد هذه الدعوى أنصاراً كثاراً لها من المسلمين وكانت الغلبة للجماعة ، والأمم تحكم فى كل عصر بسوادها الأعظم ، وبصفات خاصة فى الفاتحين والمتغلبين . وهذه الصفات كانت متوفرة فيمن تولوا بعد الراشدين . واستمات الشيعة فى تحقيق أمنيتهم فى الخلافة ، فزق بهذا السبب شمل العرب والإسلام أوكاد . وجرت حروب أبيحت بسببها الأموال والدماء ، وتشعبت منها آراء ومذاهب ، وسرى الاعتقاد بالمهدى المنتظر عند الشيعة إلى أهل السنة ، وباسمه قامت أو حاولت أن تقوم دول فى المغرب فى القرون اللاحقة[1] .

وما فتئ الفريقان المتخاصمان يلبسان خلافاتهم على الخلافة ثوباً دينياً ، وما وجد الفريق المقهور حرجاً فى الاختلاق على خصمه وتجسيم غلطاته ، وكان هذا يتطلب رضاه بكل حيلة ، ويعرف له مكانته وقرابته حتى اضطر الأمويون بعد حين أن يعاملوا خصومهم بالشدة ، والخصمان فى نظر التاريخ من البشر يعشقان الدنيا ويقاتلان عليها المنافس ، ولا ينظر فى التنظير بين الفريقين ، إلا إلى الأثر الذى أثره كل منهما فى كيان الأمة . وخرج أعداء الأمويين فى التشنيع على أعدائهم ، عن حد الاعتدال ، فراحوا يخرجونهم عن

---

(١) مقدمة ابن خلدون .

(٢) عالج ابن خلدون فى فصل ضاف عقده فى مقدمته حل مسألة المهدى وقال فيه بعد إيراد أقوال المحدثين : فهذه جملة الأحاديث التى أخرجها الأئمة فى شأن المهدى وخروجه آخر الزمان وهى كما رأيت لم يخلص منها من النقد إلا القليل أو الأقل منه قال إن الإسماعيلية من الشيعة جاءوا يدعون ألوهية الأمام بنوع من الحلول ، وآخرون يدعون رجعة من مات من الأئمة بنوع من التناسخ ، وآخرون منتظرون مجىء من يقطع بموته منهم ، وآخرون منتظرون عود الأمر فى أهل البيت مستدلين بأحاديث المهدى . وأن هذه المعتقدات انبعثت من قول الإمامية والرافضة من الشيعة فى تفضيل على والقول بإمامته وادعاء الوصية له بذلك من النبى والتبرؤ من الشيخين ، ثم القول بالإمام المعصوم . قال : وحمل بعض المتصوفة حديث « لا مهدى إلا عيسى » أن لا يكون مهدى إلا المهدى الذى نسبته إلى الشريعة المحمدية نسبة عيسى إلى الشريعة الموسوية فى الاتباع وعدم النسخ ، إلى كلام من أمثال هذا يعينون فيه الوقت والرجل والمكان ، بأدلة واهية ، وتحكمات مختلفة ، فينقضى الزمان ولا أثر لشىء من ذلك ، فيرجعون إلى تجديد رأى آخر منتحل ، كما تراه من مفهومات لغوية ، وأشياء تخييلية ، وأحكام نجومية ، فى هذا انقضت أعمار الأول منهم والآخر .

الملة وهم مساهموهم فى خدمة الدين ، بل لقد بذوهم فى نشره ، وبسط سلطان أهله على العالمين ، وما أورثت هذه الخصومات الدنيوية غير تأريث الأحقاد وفصم عرا الوحدة ، والسير فى طريق رَدْب(٥) ، ما انتهت بغير الإحن والمحن ، على طول الزمن ، سالت الدماء كالأنهار ، وقتل ولاة الأمر فى الدولة جماعة الشيعة والخوارج بدون توقف . والأمويون كغيرهم من أرباب الدول ، لا يرون سلامتهم إلا فى قتل من يناصبهم العـداء ، ولا يتهاملون فى القضاء على من يخرج على خلفائهم .

وعجيب فى مثل هذه الدولة وبنيانها قائم على العـدل واللين ممزوجاً بشدة ، وقد توفرت لها عامة أسباب البقاء وعملت للأمة أعمالا لم توفق إليها دولة إسلامية بعدها ، أن لا يطول عمرها كثيراً ، وقضى عليها على أيسر سبب ، وهى فى معظم قوتها ، وقد علل أسباب انقراضها باحثان فى تاريخها ربما كانا على صـواب فيما ارتأياه قال(٢) : إن وفاة هشام زعزعت أركان الدولة الأموية ، فثارت ثورات أوقد نارها تحريض الشيع المخالفة ودعاتهم ، وكان من مظالم الولاة وتنازع الأمويين بينهم ما عجل سقوطهم . ومن أسباب الضعف أن يتعاقب على الخلافة فى سنة واحدة ثلاثة خلفاء ، الوليد الثانى ويزيد الثالث وإبراهيم ، وكان حظ محمد والخلفاء الأول كحظ مملكة الكارولنجيين ، توسعت فتوحها فى العالم القديم ، وانتهت بأن تزرعه بالأنقاض المنتثرة منه ، والعوامل فى انحلالها كالعوامل فى تلك المملكة : فتن داخلية من أجل الملك ميل الرؤساء إلى خلع ربقة الطاعة ، نقمة العناصر والجنسيات ودعاة القوميات .

وقال ليفى ديلافيدا : لا يكفى فساد الوليد الثانى لسقوط الدولة الأموية بيد أن الوليد هيأ انحلال الدولة بعهده إلى ولديه ، وما استطاع الوليد ولا يزيد

---

(١) الردب الطريق الذى لا ينفذ .
(٢) التاريخ العام للافيس ورامبو .
(٣) معلمة الإسلام . الأمويون .

الثالث ولا أخوه إبراهيم وضع حـــد للفوضى ، وضعف الإشراف على القاصية واستولى الخارجى الضحاك بن قيس الشيبانى على الكوفة ، وقام مروان بن محمد القيام المحمود فى السنين الثلاث الأولى ، بجيش دربه أيام ولايته إرمينية وظهر به على الروم ، فذكر بعمله أعمال جده وسميه ، وأعمال عبد الملك بعده ببلائه الحسن فى توحيد المملكة إلا أن حاله لم تكن تشبه حالهما ، وكان عمله شاقاً ، ذلك لأن البيت الأموى كان قد دخله الوهن ، وجفت فيه مادة النشاط أوكادت . وأيقن أعداؤه بنجاح الدعوة الجديدة ، وماكان مروان أمام جيوش مرتجلة ، كما كان الشأن فى جند ابن الزبير ، والعصابات المستبسلة من العلويين ، بل كان أمام جيش منظم اعتاد حرب الترك . كان أمام جيش فارسى دربه أبو مسلم الخراسانى . هذا وما استطاع الأمويون أن يجعلوا المملكة جسما واحداً متماثلا ، وكذلك قصرباع العباسيين بعدهم فى هذه السبيل ، وكانت مسألة استخلاف الخلفاء فى العهدين الأموى والعباسى من المشاكل الصعبة الحل ، تتجدد غوائلها كلما مات خليفة .

سياسة العباسيين :

لما سلم الحسن بن على الأمر إلى معاوية بن أبى سفيان ، قامت الشيعة من أهل المدينة[١] وأهل مكة والكوفة والبصرة واليمن وخراسان ، فاجتمعوا إلى محمد بن الحنفية فبايعوه على طلب الخلافة ، وعرضوا عليه قبض زكاتهم ، فولى على شيعة كل بلد رجلا منهم ، وأمره باستدعاء قَبِلَه فى ستر ، على أن لا يبوحوا بمكنونهم إلا لمن يوثق به حتى يرى للقيام موضعاً ، فقام ابن الحنفية إمام الشيعة حتى مات ، وولّى عبد الله ابنه من بعده ، وأمره بطلب الخلافة ، إن وجد إلى ذلك سبيلا ، وعلم به الخليفة سليمان بن عبد الملك ، ولما اجتمع إليه أنكر ما عزى إليه من المبايعة له بالخلافة ، إذ كان «[٢] من الجائز للإمام فى حال التقية[٣] أن يقول إنه ليس بإمام » فقيل إن سليمان بن عبد الملك دس على عبد الله من سمه فى الطريق ، وقيل إنه مرض فأتى الُحمَيْمة من أرض الشام ، وبها جماعة آل العباس ، فعهد قبل موته إلى محمد بن على بن عبد الله بن عباس ، أن يطالب بالخلافة بعده ، وولاه واشهد له من الشيعة رجالا ، فأقام محمد بن على هـذا إماماً ، ودعوة الشيعة له حتى مات . فلما حضرته الوفاة ولى الأمر إبراهيم بن محمد المدعو بالإمام ، فانتبه مروان ابن محمد آخر خلفاء الأمويين لما كان منه فقتله ، وقيل إن إبراهيم بن محمد عهد بالخلافة بعده إلى أخيه عبد الله بن محمد بن عبد الله بن العباس عم الرسول .

---

(١) الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة . (٢) مقالات الإسلاميين للأشعرى .

(٣) التقية مشتقة من اتقاه أى خافه وهى ضد العلانية جائزة باتفاق العلماء إذا خشى المرء على نفسه التلف : وكانت شائعة فى جدة الإسلام قبل استحكام الدين وقوة المسلمين ؛ ولذلك أجمع رأى الصحابة على عهد عمر بن الخطاب لما أرادوا التاريخ أن يبدأوا من سنة الهجرة لأنه الوقت الذى حكم فيه الرسول على غير تقية . وعمد إلى التقية كثير من فرق الخوارج والشيعة فنجوا من أيدى أعدائهم ، واتق كثير من آل البيت فتابعوا من لم يشايعوهم على آرائهم . ومن الخوارج كالصفرية والزيادية من يقولون إن التقية جائزة فى القول والعمل . والردى عند الخوارج هو الذى يعلم الحق من قولهم ويكتمه « مبحث فى التقية للمؤلف بمجلة المقتبس م ٢ » .

اختار محمد بن على يوم قام يحاول انتزاع الملك من الأمويين بلاد خراسان ميداناً لإظهار دعوته ، لأن أهل الشام والجزيرة والحجاز لم يكن هواهم مع آل العباس ، وهم يعلنون ولاءهم للأمويين سراً وجهراً ، ولأن فى أهل خراسان العدد الكثير[1] والجلد الظاهر ، وهناك صــدور سليمة ، وقلوب فارغة ، لم تتقسمها الأهواء ، ولم تتوزعها النحل ، وليس فيهم التحزب للقبيلة والعصبية للعشيرة[2] ، وهم المظلومين يؤملون الدول ، ولم يكونوا على العهد الأموى محل الرعاية ، بل أقصوهم عن الحكومة ، وجلبوا إليهم العمال من الأحزاب العربية ، وكان أهل خراسان فى أكثر ملك العجم لَقاحاً ، لا يؤدون إلى أحد إتاوة ولا خراجاً ، فلما جاء الإسلام صالحوا على بلادهم ، فلم تسفك بينهم الدماء وخف خراجهم . ومن مرو الشاهجان ظهرت دولة بنى العباس (١٢٧ هـ) وصُبغ أول سواد لبسته المسوّدة . وقلما سمع أهل بلد بجيش خراسان إلا سودوا قبل أن يوافيهم ، أى لبسوا السواد شعار بنى العباس ونزعوا شعار المبيضين أى الأمويين .

قالوا لما جاء الوقت الذى أعد[3] فيه أبو مسلم مستجيبيه خرجوا جميعاً فى يوم واحد من كور خراسان ، وانجفل الناس من هراة وبوشنج ومرو الروذ والطالقان ومرو ونسا وأبيورد وطوس ونيسابور وسرخس وبلخ والصغانيان والطخارستان وختَّلان وكش ونَسف فتوافوا جميعاً مسودى الثياب ، وقد سودوا أيضاً أنصاف الخشب التى كانت معهم ، وسموها « كافركوبات » وأقبلوا فرساناً وحمارة ورجالة يسوقون حميرهم ويزجرونها « هَرَّ مروان » يسمونها مروان ترغيما لمروان بن محمد وكانوا زهاة مائة ألف رجل .

لما وجد إبراهيم الإمام أبا مسلم الخراسانى إلى دعاته بخراسان أعطاه لواء يدعى الظل وراية تدعى السحاب ، فعقدهما على رمحين ، ومعنى

---

(١) معجم البلدان لياقوت . (٢) عيون الأخبار لابن قتيبة .
(٣) الأخبار الطوال للدينورى .

الظل والسحاب أن السحاب يطبق على الأرض فلا تخلو من الظل ، كما لا تخلو الأرض من خليفة عباسى آخر الدهر ، وجعلت الراية سوداء حزناً على شهدائهم من بنى هاشم ، ونعيا على بنى أمية فى قتلهم[١] . وكان الحارث ابن سريج لما ثار على بنى أمية (سنة ١١٦ هـ) وكذلك بهلول الخارجى (سنة ١١٩ هـ) وأبوحمزة الخارجى (سنة ١٢٨ هـ) اتخذوا اللواء الأسواد شعاراً ، وما كان أحد منهم فى حداد على أحد من آل البيت[٢] .

وكان إبراهيم الإمام أوصى أبا مسلم باليمانيين وأن يقتل من يشك فيه من مضر ، وإن استطاع ألا يدع بخراسان من يتكلم بالعربية فليفعل ، وأى غلام بلغ خمسة أشبار يتهمه فليقتله ، فأنفذ أبو مسلم ما أمر به ، وقتل أبناء المهاجرين والأنصار فى خراسان ، واستشمر[٣] ما كان من الشنآن بين النزارية واليمانية ، وتحزب الناس بالمثالب وثارت بينهم فى البدو والحضر ، فغلب على خراسان ، بضعف الأمويين آخر أيامهم عن إنجاد واليهم عليها ، وتخطت عسكره إلى العراق ، وما وضع مقاليد الخلافة فى أيدى بنى العباس بالكوفة حتى كان قتل فيما قبل ستمائة ألف إنسان .

كان آل العباس وآل أبى طالب[٤] شرعا فى المطالبة بالخلافة ، ولذلك سموا شيعة آل محمد ، ولم يكن إذ ذاك بين بنى على وبنى العباس افتراق فى رأى ولا مذهب ، فلما ملك بنو العباس نفر عنهم فرقة من الشيعة مالت إلى بنى على ، واعتقدت أنهم أحق بالأمر ، فصار المتشيع هو الذى يعتقد إمامة أئمة الأمامية من بنى على لا الموالى لبنى على والعباس كما كان من قبل ، وكان المنصور أول[٥] ملك أوقع الفرقة بين ولد العباس وولد على بن أبى طالب ، وإذا قدر أن يستأثر بالملك آل العباس دون الطالبين ، أصبح هؤلاء بحكم الطبيعة من المخالفين ، ونقم الطالبيون على العباسيين وخرجوا عليهم فى كل عصر .

(١) مقدمة ابن خلدون . (٢) السيادة العربية لفان فلوتن تعريب حسن إبراهيم حسن ومحمد زكى إبراهيم . (٣) خطط الشام للمؤلف .
(٤) أخبار البيوتات العلوية لابن زهرة . (٥) السلوك للمقريزى .

أيقن إبراهيم الإمام بأنه مقتول لا محالة بأيدى الأمويين فنعى نفسه إلى أهل بيته ، وأمرهم بالمسير إلى الكوفة مع أخيه عبد الله،وأوصى إليه بالخلافة ، فسار بأهل بيته وفيهم أخوه أبو جعفر ، فأقام بالكوفة شهراً وهو مستخف ، ثم ظهر وسلموا عليه بالخلافة . وهو عبد الله بن محمد بن على بن عبد الله بن العباس الهاشمى ، ولقب بالسفاح لأنه سفح دماء بنى أمية ، وقال فى أول خطبة خطبها « أنا السفاح المبيح والثائر المتيح » . وفى هذه الخطبة يقول رداً على الشامية أى بنى أمية فى قولهم إنهم أحق بالرياسة والسياسة والخلافة من غيرهم : إن الله لما قبض الرسول إليه قام بالأمر من بعده أصحابه وأمرهم شورى بينهم « وحووا مواريث الأمم فعدلوا فيها ، ووضعوها مواضعها ، وأعطوها أهلها ، وخرجوا خماصاً منها ، ثم وثب بنو حرب وبنو مروان ، فانتبذوها وتداولوها ، فجاروا فيها واسأثروا ... وقام عمه داود بن على فقال : أيها الناس إنا والله ما خرجنا فى طلب هذا الأمر لتكثر لجينا ولا عقيانا ، ولا نحفر نهراً ولا نبنى قصراً ، وإنما أخرجتنا الأنَفة من ابتزازهم حقنا ، والغضب لبنى عمنا ، وما كرهنا من أموركم .

وفرق السفاح الولايات على رجال من آل بيته ، وعهد إليهم أن يستأصلوا الأمويين وكل من يمتُ إليهم بسبب ، ولم تأخذ العباسيين رأفة بأطفال الأمويين ونسائهم وشيوخهم ، فقتلوا حتى من استأمن منهم ، وبحثوا عنهم فى كل صوب وحدب ، واجتثوا أصولهم وفروعهم ، وأخذوا ثاراتهم من أحيائهم بالقتل ومن أمواتهم بنبش قبورهم ، وصلب أشلائهم وإحراق عظامهم ، وتذريتها فى الريح ، أو بصب اللعنات عليهم ، وتسويد صحائفهم ، ثم كتب السفاح كتاباً عاماً إلى البلاد يعطى فيه الأمان للأمويين ، وما كان أمانة إلا مدرجة لظهورهم ، حتى إذا برزوا للناس قتلوا كل قتلة بلا حكم ولا مسوغ .

وأهم ما وقع بموت السفاح قيام عبد الله بن على عم السفاح يدعو بالشام والجزيرة إلى نفسه ، زاعماً أن السفاح جعله ولى عهده من بعده ، فجهز المنصور

لحربه أبا مسلم الخراسانى فاشتدّ القتال بينهما فى نصيبين ، ثم انهزم عبد الله والتحق بأخيه فى البصرة ، واستولى أبو مسلم على جميع ماكان أخذه عبد الله من نعمة بنى أمية فى الشام .

ولقد كان المنصور كالسفاح ممن لا تأخذهم هوادة فى سبيل الملك ، وربما كان فى شدته على العلويين ، أكثر من شدته على الأمويين ، فقد كان فى العلويين بقية من قوة يخشى شرها ، أما رجال بنى أمية فقد قتلوا ولم يبق منهم إلا عبد الرحمن بن معاوية الذى أفلت من مجازر العباسيين ، وذهب إلى الأندلس وأقام فيها ملكاً ، جمع حوله فيه كل شريد وطريد من آله وأنصارهم ، فأرسل المنصور عليه جيشاً بقيادة العلاء بن مغيث اليحصبى ، فنزل باجة داعياً إلى المنصور واجتمع إليه خلق فسار إليه عبد الرحمن ولقيه بنواحى إشبيلية ، فقتل القائد العباسى وجيشه كله ، وكان سبعة آلاف ، وقع هذا بعد سنة ١٣٩ هـ فقال المنصور فى عبد الرحمن الداخل : ما هذا إلا شيطان فالحمد لله الذى جعل بيننا وبينه البحر ، أو كلاماً هذا معناه ، ولقبه بصقر قريش .

ولما قتل المنصور أبا مسلم الخراسانى خرج[1] رجل اسمه سنباذ بخراسان يطلب بثأره ، ولما التقى هو وعسكر المنصور ، كان سنباذ قد أخذ معه عدة من النساء المسلمات اللواتى قد سباهنّ ، وهنّ على جمال ، فأمر سنباذ بإخراج النساء المسبيات قدام عسكره ، فخرج النساء حواسر على الجمال ، وصحن صيحة واحدة : وامحمداه . ففرت الجمال ، وكرت راجعة على عسكر سنباذ ففرقتهم ، فتبعها عسكر المنصور ودخلوا خلف الجمال ، فوضعوا فيهم السيوف وأبادوهم قتلا ، وكان عدد القتلى ستين ألفاً .

وظهر محمد بن عبد الله العلوى (١٤٥هـ) فى المدينة ودعا إلى نفسه فبايعه أهلها بالخلافة وقال إنه خرج[2] غضباً لله ، واستولى على مكة واليمن فندب

(١) الفخرى لابن الطقطقى .
(٢) دول الإسلام للذهبى .

المنصور لقتاله ولىّ العهد عيسى بن موسى وقال : لا أبالى أيهما قتل الآخر، يعنى إن قتل هذا الخارج فبها ونعمت ، وإن قتل عيسى استراح منه ليولى مكانه ابنه المهدى ، فحارب محمد حتى قتل . ثم خرج أخوه إبراهيم بن عبد الله بالبصرة فغلب عليها وعلى الأهواز وعلى فارس وأكثر السواد ، وشخص عن البصرة فى المعتزلة وغيرهم من الزيدية ، فبعث إليه أبو جعفر عيسى بن موسى فحارب إبراهيم حتى قتل وقتلت المعتزلة بين يديه[1] ، ويقول أرباب التواريخ إن المنصور لما بلغه خروج إبراهيم بن عبد الله خاف واشتد قلقه ، وتحوّل فنزل بالكوفة ليأمن غائلة الشيعة ، وألزم الناس حينئذ بلبس السواد حتى العوام ، وجعل يقتل كل من يتهمه أو يسجنه ، والشيعة يغلون ويتبايعون سراً لإبراهيم حتى اتسع الخرق ، وبقى المنصور لا يقر ولا ينام وحار فى نفسه ، وحوله بالكوفة مائة ألف سيف كامنة مضمرة للشرّ قال الذهبى لولا السعادة لزال ملكه بدون ذلك . وقيل إن عسكر إبراهيم ابن عبد الله بلغوا مائة ألف ، فلو هجم على الكوفة لاستولى على الأمر وظفر بالمنصور . وخشى إن هجمها أن يستباح الصغار والكبار ، وكان جنده يختلفون عليه وكل واحد يشير برأى ، إلى أن كانت الوقعة بباخمرا على يومين من الكوفة ، وقتل إبراهيم وأفلت ابن أخيه إدريس بن عبد الله فأتى مصر وحمله صاحب البريد إلى المغرب ، فانتهى إلى أرض طنجة ونودى به إماماً سنة ١٧٢ ، ثم خرج الحسين بن على بن الحسن بن الحسن بن الحسن بن على بن أبى طالب بفخ على سته أميال من مكة . فخرج إليه عيسى بن موسى فقتل الحسين وأكثر من معه .

وخرجت الجيوش الخراسانية عن الطاعة (١٥٠ هـ) فاشتد الأمر على المنصور ، وجهز جيشاً عظيماً ، وكذلك كان من الأمير الذى عصا عليه فجرت بين الفريقين وقعة يقال إنه قتل فيها سبعون ألفاً ، وضرب الجيش العباسى أعناق الأسرى ، وكانوا أربعة عشر ألفاً . وغلب الخوارج الأباضية على

(١) مقالات الإسلاميين للأشعرى .

إفريقية (سنة ١٥٣ هـ) وبايعوا أباقرة أحد رؤسائهم بالخلافة . وجهز المنصور خمسين ألف فارس وأنفق عليهم ثلاثة وستين ألف ألف درهم ، وكانت إحدى شيع الخوارج النكرية هى التى قامت بهذه الثورات على الخلافة، ثم استعاد المنصور إفريقية من الخوارج وقتل عامله كبارهم .

وغزا الروم فى أيام المنصور ملطية وقاليقلا وهدموا سور ملطية ، وعفوا عن المقاتلة والذرية ، فأرسل المنصور (سنة ١٤٠ هـ) فعمرها فى ستة شهور ثم سار ملك الروم إليها فى سبعين ألفاً ، فلما بلغه كثرة المسلمين رجع عنهم ، وفى أيام المنصور أيضاً احتل الروم طرابلس الشام . وظهر فى لبنان رجل من أهل المنيطرة[1] (سنة ١٤٢ — ١٤٣ هـ) وسمى نفسه ملكاً ، ولبس التاج وأظهر الصليب ، واجتمع عليه أنباط جبل لبنان وغيرهم ، واستفحل أمرهم فظهر الجيش العباسى عليهم . وكانت علائق المنصور مع ملك فرنسا (ببين القصير) حسنة ؛ أسرع[2] هذا إلى عقد صلات مع خليفة بغداد ، وأرسل فى سنة ٧٦٥ م رسلا لبثوا ثلاث سنين حتى رجعوا إلى فرنسا ، ومعهم رسل الخليفة ثم عادوا إلى بغداد ومعهم الهدايا إلى الخليفة ، ويقال إن المنصور[3] حرض ببين على قتال عبد الرحمن الأموى فى الأندلس . وكان خلفاء الشرق يحاسنون ملوك الفرنسيين ويتبادلون وإياهم الهدايا والألطاف ، وببين هذا لا يزال يغرى بعضهم بالإيقاع ببعض ، وملوك قرطبة يراسلون قياصرة القسطنطينية الذين كانوا فى حرب مع مسلمى الشام وفارس ومصر . وظهر المنصور على من بيضوا فى الشام ، أى لبسوا شعار الأمويين ، وكان عرب الشام[4] ندموا على ما أتوا من خذلان بنى أمية ، حتى تسلط العجم من أبناء خراسان عليهم ، فهاجت لذلك واضطربت ، وامتنعوا من البيعة لبنى العباس ، وقاوموهم بجموعهم ، وحاربوهم بمن بقى من أحباب الأمويين ، ومنهم من ادعى الخلافة ، ومنهم من ادعى أنه السفيانى نسبة لأحد أبناء أبى سفيان

(١) تاريخ دمشق لابن عساكر . (٢) تاريخ غزوات العرب فى فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط لشكيب أرسلان .

(٣) تاريخ العصور الوسطى فى المشرق والغرب لحسن إبراهيم حسن وأحمد صادق الطنطاوى . (٤) خطط الشام للمؤلف .

المبشرين بإعادة ملك بنى أمية ، فالتف الناس حولهم . وكان المقصود من دعوى السفيانى تقوية الآمال برجوع دولة بنى أمية . ومسألة السفيانى عند الأمويين كدعوى المهدى عند العلويين ، اختلقوا لها أحاديث وجلبت ويلات على الضعفاء ، وقتل المشايعون لها تقتيلا بأيدى الأقوياء . عن مسلمة بن عبد العزيز قال سمعت العزرمى يقول سمعت محمد بن على يقول : النبي ما زال منا والمهدى من بنى عبد شمس ، ولا نعلمه إلا عمر بن عبد العزيز . وكان الناس يرون موسى بن طلحة بن عبيد الله فى زمانه هو المهدى .

كان اليمانيون يذهبون إلى أنه سيظهر فيهم القحطانى المنتظر ، والمضريون يعتقدون بالتميمى حتى أن عبد الرحمن بن الأشعث ادعى أنه القحطانى[1] . وكان الحارث بن سريج الذى قام على الأمويين يدعى أنه المهدى وأن الله أرسله لأنقاذ الأمة من الظلم وإقامة حكومة يرضى عنها السواد الأعظم ؛ وبالطبع تكون من آل البيت .

والمنصور[2] أول خليفة استعمل مواليه وغلمانه فى أعماله ، وقدمهم على العرب ، فاقتدى به من بعده من الخلفاء ، حتى سقطت قيادات العرب وزالت رياستها وذهبت مراتبها ، واستعمل كثيرين من أهل بيته فى القيادات الكبرى واختار من استخلصه من غيرهم للأعمال الصغيرة ، واستوزر أبا أيوب المورياني الخوزى وهو فارسى ، كما استعمل ابن عطية الباهلى وهو من صميم العرب . فهو الخليفة الذى بدأ بخلط العناصر الإسلامية ، وما تشدد فى أصول من يستعملهم فى شئون الدولة .

وخلع المنصور من ولاية عهده عيسى بن موسى (سنة ١٤٧ هـ) وعهد لابنه المهدى ؛ وجعل لعيسى بن موسى ولاية العهد بعد المهدى. ووجه المهدى فى خلافته رسلا إلى ملوك الشرق يدعوهم إلى الطاعة فدخل أكثرهم فى طاعته ، فكان منهم ملوك كابل وطبرستان والسغد وطخارستان وباميان وفرغانة وأشروسنة والخرلخية وسجستان والترك والتبت والسند والصين والهند والتغرغز . وغزت جيوشه الروم والهند ، وخرج عليه فى خراسان يوسف ابن ابراهيم فقضى عليه .

---

(١) التنبيه والإشراف للمسعودى . (٢) السلوك للمقريزى .

وحمل المهدى عيسى بن موسى على خلع نفسه من ولاية العهد ، وبايع لابن المهدى موسى بن محمد الذى لقب بالهادى . وكان المهدى فى أخر أيامه يود لو تنحى ابنه الهادى من ولاية العهد ، ويقدم عليه ابنه الآخر هرون ، لما رأى من كفاءة هذا . وفى أيام المهدى خرج نائبه دحية بن مصعب بن الإصبغ بن عبد العزيز بن مروان بصعيد مصر ، ومنع الأموال ودعا إلى نفسه بالخلافة ، وملك عامة الصعيد ، وقاتل العباسيين مدة فأعجزهم .

كانت الخيزران أم الهادى تتدخل فى أمور السلطان لقضاء حوائج الناس فنعها ابنها من ذلك وكانت تفتات عليه فى أموره ، وتسلك به مسلك أبيه من قبله ، فى الاستبداد بالأمر والنهى فأرسل إليها ، ألا تخرج من خفر الكفاية إلى بذاذة التبذل ، فإنه ليس من قدر النساء الاعتراض فى أمر الملك ، وعليها بصلاتها وتسبيحها وقبلتها ، ولها بعد هذا طاعة مثلها فيا يجب لها . وحرضها ألا تفتح فاها فى حاجة لملىّ ولا ذمىّ ، وحلف أن يضرب عنق كل من يقف على بابها من قواده وخاصته وخدمه .

* * *

بويع للرشيد عند موت أخيه الهادى وكان أبوهما عقد لهما بولاية العهد معاً . وكانت حدثت الهادى[1] نفسه بخلع الرشيد وجمع الناس على تقليد ابنه العهد بعده فأجابوه ، وأحضر هرثمة بن أعين فقالوا له : تبايع يا هرثمة فقال: يا أمير المؤمنين يمينى مشغولة ببيعتك ، ويسارى مشغولة ببيعة أخيك ، فبأى يد أبايع ، والله يا أمير المؤمنين ما أكدت فى الرقاب من بيعة ابنك أكثر مما أكده أبوك لأخيك فى بيعته ، ومن حنث فى الأولى حنث فى الأخرى ، ولولا تأول هذه الجماعة بأنها مكرهة ، وإسرارها فيك خلاف ما أظهرت ، لأمسكت عن هذا . فقال لجماعة من حضر : شاهت وجوهكم والله لقد صدقنى مولاى وكذبتمونى ، ونصحنى فغششتمونى ،وسلم إلى الرشيد ما قدّره الهادى فيه .

(١) المكافأة لأحمد بن يوسف الكاتب .

ومن الغريب أن سلّم على الرشيد بالخلافة ، وهو فى الثانية والعشرين من عمره ، كل من عمه سليمان بن المنصور ، وعم أبيه المهدى وهو العباس ابن محمد ، وعم جدّه المنصور وهو عبد الصمد بن على ، وبويع له بإجماع الأمة ما عدا جزيرة الأندلس[١] . وكانت سياسة الرشيد رشيدة فى شؤونه الداخلية والخارجية ، غزا الروم حتى وصل إلى اسكدار من ضواحى القسطنطينية أيام ولايته العهد ، وتغلغل مرة ثانية فى بلادهم وغزاهم فى خلافته بضع غزوات وأخذ منهم هرقلية ، وبعث ملكهم إليه بالجزية عن رعيته وعن رأسه ورأس ولده وبطارقته ، واشترط عليه الرشيد أن لا يعمر هرقلية ، وأن يكون الحمل فى السنة ثلاث مائة ألف دينار . وكان نقفور صاحب الروم نقض العهد الذى كان قد أعطاه ، قال معاوية بن عمرو[٢] : وقد رأينا من اجتهاد أمير المؤمنين هرون فى الغزو ، ونفاذ بصيرته فى الجهاد، أمراً عظيما ، وأقام من الصناعة (الأسطول) ما لم يقم قبله ، وقسم الأموال فى الثغور والسواحل ؛ وأشجى الروم وقمعهم . وسمى الرشـيد جبار[٣] بنى العباس لأنه أغزى ابنه القاسم الروم فقتل منهم خمسين ألفاً ، وأخذ خمسة آلاف دابه بسروج الفضة ولجمها ، وأغزى على بن عيسى بن ماهان بلاد الترك فقتل منهم أربعين ألفاً وسبى عشرة آلاف وأسر ملكين منهم ، ثم غزا الرشيد نفسه الروم وافتتح هرقلية وأخذ الجزية من ملك الروم .

يقول أرباب التواريخ[٤] من الإفرنج إن الرشيد كان بينه وبين شارلمان ملك فرنسا وجرمانيا وإيطاليا فى عصره صلات سياسية ، وأنهما تبادلا السفراء ، وأن الرشيد أرسل هدايا إلى شارلمان ، وبعث إليه بمفاتيح القبر المقدس ، وأن نصارى الشام نُفّس من خناقهم عقبى هذه العلائق بين ملكى الإسلام والنصرانية . ولا أثر لهذه الرواية فى تواريخ العرب. ويقول[٥] رينو

(١) المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس لابن أبى دينار . (٢) فتوح البلدان للبلاذرى
(٣) المضاف والمنسوب للثعالبى . (٤) معجم لاروس الجديد . ومعلمة الإسلام . مادة هارون الرشيد . (٥) تاريخ غزوات العرب لشكيب أرسلان .

إن هرون الرشيد بعث وفداً إلى شارلمان ، وكان شارلمان قبل ذلك قد أرسل رسولا يهودياً اسمه إسحق مصحوباً باثنين من الفرنسيس للسلام على الخليفة . فعاد الوفد من الشرق إلى الغرب يحمل إلى شارلمان هذا شيئاً من المنسوجات وفيلا وطيوبا ومعطرات ، ومن جملة الهدية شمعدان من نحاس أصفر عظيم الحجم ، وساعة من نحاس أصفر أيضاً تتحرك بالماء وتدق اثنتى عشرة مرة بعدد ساعات النهار ، وأبلغ الوفد شارلمان ما قاله له الرشيد من أنه يضع مودته فوق مودة جميع الملوك .

وفى أيام الرشيد خرج الوليد بن طريف الحرورى من رؤوس الخوارج (سنة ١٧٩ هـ) فقتل بعد أن استفحل شأنه . وخرج فى الديلم يحيى ابن عبد الله العلوى وبايعه الشيعة وكثرت جموعه ، فبعث إليه الرشيد جيشاً فقتله وأنصاره . وخرج بتاهرت السفلى محمد بن جعفر فغلب عليها وصارت فى أيدى مناصريه وخرج الخزر (سنة ١٨٣ هـ) من باب الأبواب فقتلوا وسبوا . قيل إنهم سبوا مائة ألف ، فطردتهم عساكر الخليفة ، ثم سدوا الباب الذى خرجوا منه . وأمر الرشيد بإخراج الطالبيين من دار السلام إلى المدينة .

ومن رأى سترستين[1] أن انحطاط دولة بنى العباس بدأ بالرشيد ، ونحن نرى أن عهد الرشيد وابنه المأمون أرقى عصور بنى العباس قوة وعظمة وثقافة ، وهو العصر الذهبى ، بما لا يقبل الجدال ، ودور الانحطاط إنما بدأ بعد عصر المعتصم باستيلاء الأعاجم على مقاليد الدولة ، فخرجت عن عظمتها ، وعلق الضعف يدب فيها ، والفساد يعبث بكيانها . ولعل سترستين يعد من انحطاط هذه الدولة أن يتعهد الرشيد لابن الأغلب عامله على إفريقية (تونس) بأن يؤدى عنها كل سنة أربعين ألف دينار وينزل عن المعونة التى كان سلفه يأخذها من مال مصر . . وقدرها مائة ألف دينار ، وجعل الإمارة لعقبه من بنى الأغلب يتوارثونها . والواقع أنه قلما عهد من الخلفاء توسيد العمالات للبنين بعد الآباء . وإن إفريقية بهذا الصنيع أصبحت مستقلة فى داخليتها ؛ مرتبطة

---

(١) معلمة الإسلام . هرون الرشيد .

بالخلافة العباسية فى أمورها المهمة فقط . فصغرت رقعة الدولة العباسية بالإمارة الأغلبية فى أفريقية ، ومن ورائها الدولة الرستمية فى تاهرت ؛ ودولة إدريس فى طنجة ، ودولة بنى أمية فى الأندلس : فانسلخت ممالك من جسم دولة بنى العباس فى الظاهر ، واكتفوا بتوسعهم فى أملاكهم فى الشرق ، وحصروا وكدهم فى البلاد الباقية ، وفيها ما يستغرق جميع قوى الدولة .

وربما كان مما دعا الرشيد إلى إعطاء هذا الاستقلال كون جمهرة جيوش العباسيين من خراسان وما وراء النهر وغيرها من أرض الترك ، والأعاجم كغيرهم تهوى أفئدتهم أبدا إلى بلادهم ، وهم أعرف بمداخل بلادهم ومخارجها ، وطباعهم أقرب إلى التلاؤم مع هواء المشرق . ولئن كانت جيوش الرشيد مستعدة على الدوام للوثبة على الأعداء ، لكن أى الحملات يضمن لها النجاح كل حين ، إذا قضى عليها أن تسير عند الاقتضاء من ضفاف الفرات ودجلة إلى المغرب الأقصى ، أو من مصر إلى الغرب الأقصى ، مع هذه المساوف الطويلة فى البر ، وهى لا تقل عن بضعة أشهر بسير الجيش .

إذا نظرنا إلى توسيد إمارة إفريقية إلى ابن الأغلب من وجهها الحسن ، نقول إن الرشيد أراد أن يجعل من إفريقية سداً بينه وبين أعدائه من الأمويين ، ويترك لبنى الأغلب أن يعالجوا شؤون الغرب الأقصى والأدنى ؛ وما يقوم فيه النُّزاع إلى الثورة والخارجون على السلطان ، ليتفرغ لشؤون مملكته التى أربت بسعتها على مملكة الرومان فى أوج عظمتها . أما إذا نظرنا إلى ما جرى من وجهه القبيح ، فنقول إن العباسيين بدأوا على عهد الرشيد ينزلون عن أجزاء مهمة من ممالكهم ، لعجزهم عن سياستها وإملاء إرادتهم عليها ، والانتفاع بها من كل ناحية . بيد أن الرشيد لم يعهد لابن الأغلب بولاية إفريقية إلا لما استشار أولياءه[1] . وفى مقدمتهم أعظم قواده هرثمة بن أعين ، وكان ولى إفريقية وخبر أحوالها . وتولى الأغالبة قتال الأباضية وبنى إدريس بن عبد الله الظاهر ملكهم يومئذ بالمغرب ، وفتحوا صقلية ومالطة وجزائر البحر ، ووسعوا

(١) الخلاصة النقية فى أمراء إفريقية للباجى .

بما فتحوا ملك الإسلام تحت علم الخلافة العباسية ، وعمرت إفريقية وغيرها من الأقطار والجزائر التى فتحوها عمراناً لا نظير له من كل وجه .

وعهد الرشيد فى سنة ١٧٥ هـ إلى ولده محمد الأمين ، ومحمد ابن خمس سنين ، قال اليعقوبى أخرجه إلى القواد فوقف على وسادة ، فحمد الله وصلى على نبيه . فقام عبد الصمد بن على فقال : أيها الناس لا يغرنكم صغر السن ، فإنها الشجرة المباركة أصلها ثابت وفرعها فى السماء . ولقد اضطر الرشيد إلى هذه البيعة لتطاول أعناق كثير من بنى العباس للخلافة ولكن ما عزى من الكلام إلى عبد الصمد بن على فيه نظر لأنه أشبه بالهزل[1] منه بالجد ، على أن الرشيد أخذ البيعة للمأمون بعد الأمين فى سنة ١٨٣ ، وأودع العهد الذى كتبه بينهما فى الكعبة ، وقال فيه إن الغادر منهما خارج عن الأمر ، أيهما غدر بصاحبه فالخلافة للمغدور[2] به . وكان الأمين البادئ بهذا الغدر بنزعه ولاية العهد من أخيه المأمون وتفويضها إلى ابنه الطفل . وكان الرشيد جعل للمأمون خراسان وسجستان وجرجان وطبرستان والرى وما إليها خمس سنين على أن يكون له جميع ما فى جيشه وفى البلاد من العتاد والعدّة ، فكانت هذه المهمات من العوامل النافعة فى تغلبه على أخيه ، ولم تصف له الخلافة حتى أهرقت دماء كثيرة ، ولما جرى بين الأمين والمأمون ما جرى ، وقتل الأمين ، وأعطى أهل خراسان الطاعة للمأمون ، وبايعوه بالخلافة خطبهم فقال : أيها الناس ؛ إنى جعلت لله على نفسى إن استرعانى أموركم أن أطيعه فيكم ، ولا أسفك دماً عمداً لا تحله حدوده وتسفكه فرائضه ، ولا آخذ لأحد مالا ولا أثاثاً

(١) كان اليعقوبى والمسعودى وابن الطقطقى وحمزة الأصفهانى ، على مكانتهم فى العلم ، من المؤرخين الذين تجلى فيما دونوا مبلغ هواهم مع الطالبيين ، فهم منحرفون عن بنى أمية وبنى العباس يسجلون لهم العيوب والهنات التى تسقطهم فى أنظار أرباب المدارك ، خلافاً للطبرى والدينورى وابن قتيبة وابن الأثير وابن عساكر وابن كثير والذهبى وابن خلدون وابن الخطيب والمقريزى وأضرابهم ممن دونوا الوقائع على علاتها وغلبت عليهم الأمانة والصدق ، إذ لم تكن لهم دعوة خاصة يدعون إليها ، فوجب من أجل هذا أن تؤخذ روايات مؤرخى الشيعة باحتياط تام .

(٢) مروج الذهب للمسعودى .

ولا نحلة تحرم على ، ولا أحكم بهواى فى غضبى ولا رضاى ، جعلت ذلك كله لله عهداً مؤكداً ، وميثاقاً مشدداً ، فإن غيرت أو بدلت كنت للعبر مستأهلا ، وللنكال متعرضاً . وكان منه أن وفى بشروطه .

وحاول المأمون أن يريح الأمة من متاعب الخلافة ، بعد أن رأى عبث أخيه الأمين وعبث المهدى والهادى ، فارتأى أن يوسد ولاية العهد لأحد أبناء على . فرأى وهو فى خراسان قبل أن يعود إلى دار ملكه ، أن يعهد إلى على ابن موسى الرضا ، رجل زمانه من آل البيت علما وصلاحاً ، وزوجه ابنته أم حبيب ، وزوج محمد بن على بن موسى ابنته أم الفضل(١) ، وضرب اسم ولى عهده على الدينار والدرهم ، وأزال السواد شعار بنى العباس من اللباس والأعلام ، فأكبر آل العباس هذا ، ورأوا فيه مسا بحقوق بيتهم ، وكانوا ثلاثة وثلاثين ألفاً ، فبايعوا بالخلافة فى بغداد لعم المأمون إبراهيم ابن المهدى ، ولما رأى هذا قوة ابن أخيه اختفى مدة ، فعفا المأمون عنه ، وكان المأمون شاور فيه أصحابه فكل أشار بقتله فقال لهم : « إن قتلته كنت متبعاً للملوك قبلى فيما فعلته بمن ناوأها ونازعها ، وإن عفوت كنت أمة وحدى » كذلك كان أمة وحده . قالوا : وكان المأمون يقصد من جعل حصة للعلويين فى الخلافة ، والاستعاضة عن سواد بنى العباس بخضرة آل على ، أن يحمل هؤلاء على الظهور لأن القوم كادوا يعدونهم من غير الطينة البشرية . وارتأى أنهم متى ظهروا من استتارهم للناس رأوهم مثل غيرهم ، وفيهم الفاجر والطاهر فتنتهى المطالبة أو تخف وتحقن الدماء . وأخرى أن المأمون كان يرى فى الخلافة رأى المعتزلة ، وهو أن توسد إلى الأصلح لها فى المسلمين ولو كان من غير قريش ، وبذلك ترجع الأمة مجموعة الشمل ، لا فرقة فى صفوفها ، ولا خلل فى بنيانها ، وتكون الخلافة للصالح لها ، يعيدها سيرتها الأولى على عهد أبى بكر وعمر ، بعهد من الخليفة للأصلح ، أو شورى يختاره لها جماعة من الأخيار .

(١) تاريخ الطبرى .

وأما قول من قال إن المأمون عهد لعلى بن موسى الرضا لأنه كان يتشيع ، فإن تشيع المأمون هذا كان مقبولا معتدلا ، وهو أقرب إلى الاعتزال ، والمأمون يريد أن ينصب خليفة للمسلمين كافة ، لا للسنة ولا للشيعة ولا للمعتزلة ولا للخوارج .

كانت الخلافة أوائل العهد الأموى قد انقلبت ملكاً عضوضاً ، يقوم على الغلب والعصبية ، ويورث ويتنازل عنه ، فإن جاء فى الخلفاء من انطوى على حزم وكياسة ، استقرت أمور الدولة ،وسارت شؤونها على الصراط السوى ، وإلا أصبحت فى بحر مائج من الفضائح والفظائع ، وندر فى البيوت تسلسل الفضائل والذكاء فى بطون كثيرة مدداً متطاولة ، مهما عنى الأسلاف بتأديب الأخلاف لا بد من حدوث عوارض كالمرض أو الشيخوخة ، تطرأ على البيوت كما تطرأ على الأوطان والإنسان . وهذا فى الجملة ما دعا إلى تقلقل الدول الإسلامية بتقلقل القائمين بالأمر فيها ، لأن الأيدى التى تعاورتها كانت تتفاوت قوة وضعفاً .

أراد المأمون أن يغير نهج العباسيين فى الخلافة ، وقد رأى آله أخذوا بنظرية الحق الإلهى[1] الحكم وصبغوها بصبغة إسلامية . فجعلوا الخلافة ميراثاً عن النبى يتوارثونها ، وساروا على قواعد الفرس فى نظام البلاط ، وفى هذا النظام من فتح المجال للدسائس ما فيه ، فقد ذهب المهدى والهادى ضحية مكايد دبرت لهما فى البلاط ، وما أغنى عنهما الاستبداد ، وكان من يحكم فى ظل هذا النظام ، إذا كان قوياً يستبد ويطغى ، وإن كان ضعيفاً فهناك الفتن والاضطرابات والدسائس . فقد كان المنصور والمهدى والرشيد والمتوكل جبابرة مستبدين فى أحكامهم ، لأنهم على قوة فى ذاتهم . أما الضعاف من خلفائهم فكانوا ألاعيب فى أيدى أهل البلاط ونساء القصر ، يصرفونهم على الهوى ، ويرأمون للمذلة ، فيكون اسم الخلافة لهم ، والفعل للنافذين من أهل سلطانهم . اهـ .

---

(١) هرون الرشيد لعبد الحميد العبادى (ملحق جريدة السياسة) .

وآية كل ذلك أن الخليفة إذا استجمع ما تقتضيه الخلافة من علم وعدل وكفاية ، أراح الأمة والدولة فى حياته وبعد مماته، وإذا كان على عكس ذلك، ومثله من كثر ظهورهم فى القرن الثالث من الخلفاء ، فهنالك البلاء والشقاء .

وفى أيام المأمون خرج فى مكة محمد بن جعفر الصادق وكان يلقب بديباجة لحسن وجهه ، وبويع له بالخلافة وسموه أمير المؤمنين ، فأرسل المأمون إليه جيشاً فكانت الغلبة له ، وظفر به المأمون وعفا عنه ثم أخرجه معه من بغداد فمات بجرجان ، وفى سنة مائتين ظهر فى اليمن إبراهيم بن موسى الكاظم ولم يتم أمره وكان يعرف بالجزار لسفكه[1] الدم . وكان داعية لمحمد ابن اسماعيل صاحب أبى السرايا فوجه إليه المأمون جيشاً فهزمه وصار إلى العراق فأمنه المأمون . وخرج بالكوفة فى أيام المأمون محمد بن إبراهيم من آل البيت ودعا إليه أبو السرايا ، والمأمون بخراسان ، وأنفذ زيد بن موسى داعية له ثم مات بعد أربعة أشهر من خروجه ، فخرج بعده مع أبى السرايا محمد بن محمد بن زيد العلوى فأخذ بطريق خراسان فقتله أبوالسرايا، وأظهر بعد ذلك موت محمد . ويقال إنه حمل إلى المأمون وهو بمرو فمات هنالك[2] . وفى أيامه خرج زيد بن موسى بالبصرة على المأمون وفتك بأهل البصرة فأرسل إليه المأمون أخاه على بن موسى الرضا فجاءه وقال له : ويلك يا زيد : فعلت بالمسلمين بالبصرة ما فعلت ، وتزعم أنك ابن فاطمة بنت رسول الله ، والله لأشد الناس عليك رسول الله ، يا زيد ينبغى لمن أخذ برسول الله أن يعطى به . فبلغ كلامه المأمون فبكى وقال : هكذا ينبغى أن يكون أهل بيت رسول الله . وفى سنة سبع ومائتين خرج عبد الله[3] بن أحمد ابن عبد الله بن محمد بن عمر بن على بن أبى طالب ببلاد علك من اليمن يدعو إلى الرضى من آل محمد ، فوجه إليه المأمون دينار بن عبد الله فى عسكر

---

(١) اليمن وسكانها للمؤلف (مجلة المقتبس م ٧) .

(٢) رأينا اختلافاً فى اسم هذا العلوى فمنهم من يقول إنه أبو جعفر إبرادم بن موسى والطبرى يقول عبد الرحمن بن أحمد ألخ .

(٣) مقالات الإسلاميين للأشعرى .

كثيف وكتب معه بأمانة فقبل ذلك ووضع يده فى يد دينار فخرج به إلى المأمون ، فمنع المأمون عند ذلك الطالبيين من الدخول عليه ، وأمر بأخذهم بلبس السواد . وعلى ما رأى المأمون من تهجم الطالبيين على خلافته أوصى أخاه المعتصم أن يحسن صحبة بنى عمه من ولد أمير المؤمنين على بن أبى طالب ، ويتجاوز عن مسيئهم ويقبل من محسنهم ، وأن لا يغفل صلاتهم فى كل سنة عند محلها ، فإن حقوقهم تجب من وجوه شتى[١] .

وكان المأمون يكتب إلى عماله على خراسان فى غزو من لم يكن على الطاعة والإسلام من أهل ما وراء النهر ، ويوجه رسله فيفرضون لمن يرغب فى الديوان وأراد الفريضة لأهل تلك النواحى وأبناء ملوكهم ، ويستميلهم بالرغبة فإذا وردوا بابه شرّفهم وأسنى صلاتهم وأرزاقهم ، ثم استخلف المعتصم فكان على مثل ذلك حتى صار جل شهود عسكره من أهل ما وراء النهر ، من السغد والفراغنة والأشروسنة وأهل الشاش وغيرهم ، وحضر ملوكهم بابه وغلب الإسلام على من هناك ، وصار أهل تلك البلاد يغزون من وراءهم من الترك . والترك[٢] أجناس مختلفة ولكل جنس مملكة منفردة يحارب بعضهم بعضاً .

ولم يغفل المأمون عن قتال الروم ، غزاهم غير مرة وفتح مدناً من بلادهم ، وفى أيام أبيه جرى الفداء بين الروم والمسلمين حتى لم يبق فى أرض الروم من أهل الإسلام أحد . وكأن الروم كانوا عارفين بأن مملكتهم لا تنجو من أيدى المسلمين إلا إذا غزوهم ، كلما استطاعوا إلى غزوهم سبيلا ، وكذلك المسلمون كانوا موقنين بأن غزو الروم فريضة عليهم ، وإلا جاء الروم ، إذا آنسوا ضعفاً ، يستولون على ما قدروا عليه من البلاد ، فتعادل بهذا التوازن بين الأمتين ، ورجحت كفة المسلمين ، ولا سيما فى عهد الرشيد والمأمون والمعتصم[٣] .

(١) تاريخ الطبرى . (٣) فتوح البلدان للبلاذرى .
(٢) كتاب البلدان لليعقوبى .

وأرسل المأمون وفداً من قبله إلى ملك فرنسا مؤلفاً من رجلين مسلمين وآخر نصرانى ، حملوا إلى إمبراطورها من قبل الخليفة العباسى فيها منسوجات فاخرة ، وأفاويه عطرة ، وكانت العلائق بين العباسيين وملوك فرنسا حسنة .

* * *

دب الضعف فى الخلافة العباسية بعد المعتصم بفتحه للأتراك باب السيطرة على الأمة ، واعتماده عليهم فى تدبير ملكه وإدارة ولاياته ، فكان ناقض الحجر الأول من أساس دولته[1] ، ولم يتجل الانحلال فى أيامه كثيراً ، وبعد زمنه أخذ الأتراك يسيطرون على الخلفاء بل يقتلونهم ويسملون عيونهم ، ويستبدلون بهم غيرهم ، ويبعدون عن الخلافة من يصلح لها . فقد بدأوا بقتل المتوكل بن المعتصم ، وأنشأوا يقتلون من شاءوا ويبقون على من شاءوا . استضعفوا الخلفاء فكان الخليفة[2] فى أيديهم كالأسير . وفى أيام المعتصم خرج محمد بن القاسم من ولد الحسين بن على بالطالقان من بلاد خراسان

(١) قال إسحاق بن إبراهيم المصعبى ، دعانى المعتصم يوماً فدخلت عليه فقال : أحببت أن أضرب معك بالصوالجة ، فلعبنا بها ساعة ، ثم نزل وأخذ بيدى نمشى ، إلى أن صار إلى حجرة الحمام فقال : خذ ثيابى فأخذتها ، ثم أمرنى بنزع ثيابى ففعلت ، ودخلت وليس معنا غلام ، فقمت إليه فخدمته ودلكته ، وتولى المعتصم منى مثل ذلك فاستعفيته ، فأبى على . ثم خرجنا ومشى وأنا معه حتى صار إلى مجلسه فنام ، وأمرنى فنمت حذاءه بعد الامتناع . ثم قال لى : إن فى قلبى أمراً أنا مفكر فيه منذ مدة طويلة ، وإنما بسطتك فى هذا الوقت لأفشيه إليك . فقلت : يا أمير المؤمنين فإنى عبدك وابن عبدك . قال : نظرت إلى أخى المأمون وقد اصطنع أربعة فأفلحوا ، واصطنعت أربعة فلم يفلح أحد منهم . قلت : ومن الذين اصطنعهم المأمون . قال : طاهر بن الحسين : فقد رأيت وسمعت ، وابنه عبد الله بن طاهر ، فهو الرجل الذى لم ير مثله ، وأنت ما أنت والله الرجل الذى لا يعتاض السلطان عنك أبداً ، وأخوك محمد بن إبراهيم ، وأين مثل محمد ، وأنا اصطنعت « الافشين » فقد رأيت ما صار إليه أمره ، و « اشناس » ففشل و « إيتاخ » فلا شىء و « وصيف » فلا معنى فيه . فقلت : أجيب على أمان من غضبك . قال : نعم . قلت ، يا أمير المؤمنين نظر أخوك إلى الأصول فاستعملها فأنجبت ، واستعمل أمير المؤمنين فروعاً فلم تنجب ، إذ لا أصول لها . فقال يا أبا إسحاق : لمقاساة ما مر بى طول هذه المدة أيسر على من هذا الجواب . اهـ .

وحوى هذا الجواب معانى كثيرة وأهمها أن الخليفة لم يصطنع العرب بل اصطنع العجم . فقد كان طاهر بن الحسين وابنه من خزاعة وكذلك المصعبى وأخوه كانا من أصول عربية .

(٢) الفخرى لابن الطقطقى .

فحاربه عبد الله بن طاهر وهو على خراسان فانهزم محمد ، ثم قدر عليه فحمل إلى المعتصم فحبسه معه فى قصره ، فاختلف الناس فى أمره فمن قائل يقول هرب ، ومن قائل يقول مات ، ومن الزيدية من يزعم أنه حى وأنه[1] سيخرج . وفى أيامه خرج محمد من آل البيت فقتله بنو مرة بن عامر ، وظهر بابك الخرمى المجوسى سنة إحدى ومائتين وتبعه خلق كثير واستفحل أمرهم فاستولوا على جبال طبرستان ، ومكث بابك عشرين سنة فقتل فى حروبه عشرات الألوف من الخلائق ، وانهزم أمامه الجيش العباسى ، حتى بعث المعتصم أفشينا فحاربه (٢٢٣ هـ) . وسمى أصحاب بابك المحمرة لأنهم صبغوا ثيابهم بالحمرة فى أيامه[2] . وكان العراك شديداً فى أيام المتوكل بينه وبين القواد الأتراك ، حتى عزم أن ينقل عاصمة الخلافة إلى دمشق ، ونقل إليها الدواوين بالفعل ، وجاءها بنفسه ثم عدل عن رأيه . وكان شديداً على العلويين : عفى قبر الحسين بن على . وبقدر ما كان من شدّة المتوكل فى هذا المعنى ، كان الواثق يكرم العلويين ويحسن إليهم ، « وما أحسن أحد إلى آل أبى طالب من خلفاء بنى العباس ما أحسن إليهم الواثق ، ما مات وفيهم فقير » وردّ أيضاً على بعض بنى أمية أموالهم . وكان القادر أيضاً باراً بالطالبيين وبأهله . وفى أيام المتوكل غزا الروم دمياط وقتلوا وسبوا من المسلمين والأقباط فأمر المتوكل بهدم جميع البيع المحدثة فى الإسلام[3] فى مملكته ، وأن لا يستعان بأحد من أهل الذمة فى شىء من عمل السلطان ، ومنع[4] النصارى من العمارة ، وأفردهم بلباس خاص ، وكتب بذلك إلى الآفاق .

عقد الواثق لبنيه الثلاثة وقسم الدنيا بينهم وكتب بذلك كتاباً على نحو ما أجرى جده الرشيد مع أولاده ، فأعطى ابنه الأكبر المنتصر من عريش مصر إلى أفريقية المغرب كله حيث بلغ سلطانه ، وأضاف إليه جند قنسرين

---

(١) مقالات الإسلاميين للأشعرى . (٢) تلبيس إبليس لابن الجوزى .
(٣) تاريخ بغداد لابن الخطيب . (٤) مروج الذهب للمسعودى .

والعواصم والثغور الشامية والجزرية وديار بكر وربيعة والموصل والفرات وهيت وعانه والخابور ودجلة والحرمين واليمن واليمامة وحضرموت والبحرين والسند وكرمان وكور الأهواز وماسبذان ومهرجان وشهرزور وقم وقاشان وقزوين والجبال ، وأعطى ابنه المعتز خراسان وطبرستان وما وراء النهر والشرق كله وأعطى ابنه المؤيد إرمينيه وأذربيجان وجند دمشق والأردن وفلسطين وهذا التقسيم فى المملكة لم يقع لأحد ، ولم يخرج الملك مع هذا عن القواعد التى وضعها القدامى من الخلفاء .

وخلع المعتز والمؤيد أنفسهما ، وأظهر المنتصر خلعهما (٢٤٨ هـ) وفى أيام المستعين خرج بطبرستان الحسن بن زيد من آل على بن أبى طالب فغلب عليها وعلى جرجان بعد حروب كثيرة ، ثم خلف من بعده محمد بن زيد أخوه ، ثم قتل بعد حرب كانت بينه وبين محمد بن هرون ، وخرج بقزوين الكوكبى ، وهو من ولد الأرقط واسمه الحسن بن أحمد من ولد الحسين بن على فغلب عليها ، ثم هزمه بعض الأتراك . وخرج بالكوفة أيام المستعين يحيى بن عمر فقتل . وخرج فى أيامه أيضاً الحسين بن محمد من ولد الحسين ابن على فظفر به وأخذ وحبس إلى أن أطلقه المعتمد . وخرج بسواد الكوفة أيام فتنة المستعين بن الأفطس وكان داعية لمحمد بن إبراهيم بالمدينة فلما مات هذا دعا إلى نفسه . وفى سنة خمسين ومائتين خرج بسواد المدينة إسمعيل ابن يوسف من ولد الحسين بن على فغلب عليها وتوفى بعد سنتين وخلفه أخوه بعده محمد بن يوسف ، وما زال على أمره إلى أن خرج أبو الساج إلى مكة والمدينة فقتل خلقاً كثيراً من أصحابه وهرب محمد فمات فى هربه[1] وخلع المستعين (٢٥١هـ) نفسه وبايع للمعتز .

وخاف الوزيران الحسن[2] بن الفرات والعباس بن الحسن أن يتولى الخلافة عبد الله بن المعتز وهو أكفأ الرجال لمنصبه وبايعا لصبى ، فأدخلا

(١) مقالات الإسلاميين للأشعرى .

(٢) لما سأل العباس بن الحسن من وزراء العباسيين الوزير الحسن بن الفرات فيمن يصلح للخلافة ، وقد مات المكتفى بالله والناس يميلون إلى بيعة عبد الله بن المعتز قال له : وأى شيء تعمل برجل فاضل ، متأدب ، قد تحنك وتدرب ، وعرف الأعمال ومعادلات السواد ، ومواقع =

سوس الفساد في الدولة . بايعا للمقتدر وهو ابن ثلاث عشرة سنة ، ولم يل أمر الأمة صبي قبله ، وضعف دست الخلافة في أيامه ، وأصبحت والدة المقتدر تأمر وتنهى ، وترسل قهرماناتها تنظر في القصص والمظالم بحضرة القضاة ، ورزق المقتدر ولداً صغيراً فولاه على إمرة الديار المصرية وله أربع سنين ، فأصبحت الخلافة خلافة نسوان وصبيان ، كل هذا بفعل وزيرين خافا زوال نعمتهما ، إذا جاء الكفوء إلى الخلافة يتولاها ، فقضيا على نعمة الأمة بتولية الأطفال خلافة المسلمين وإمرة بلادهم ، كان ابن الفرات يريد الخليفة ممن لا يعرف أسعار الخبز واللحم حتى يأمن الوزراء على نفوسهم ، وما جمعوه من أموال الناس والدولة . يريد خليفة يقضي أوقاته في شهواته وصيوده ونزهاته

ــ الرعية في الأموال ، وخبر المكاييل والأوزان وأسعار المأكولات والمستعملات ، ومجارى الأمور والمتصرفات ، وحاسب وكلاءه على ماتولوه ، وضايقهم وناقشهم وعرف من خياناتهم وإقطاعاتهم أسباب الخيانة والاقتطاع التي يدخل فيها غيرهم ، فكيف يتم لنا معه أمر ، إن حل كبيراً على صغير ، وقاس جليلا على دقيق ، هذا لو كان ما بيننا وبينه عامرا ، وكان صدره علينا من الغيظ خالياً ، فكيف وأنت تعرف رأيه . قال العباس : وأي شيء في نفسه علينا ؟ قال : أنسيت أنه منذ ثلاثين سنة يكاتبك في حوائجه فلا تقضيها ، ويسألك في معاملاته فلا تمضيها وعمالك يصفعون وكلاءه فلا تنكر ، ويتوسل إلى الوصول إليك ليلا فلا تأذن ، وكم رقعة جاءتك بنظم ونثر فلم تعبأ بها ، ولا أجبته إلى مراده فيها ، وكم جاءني منه ما هذه سبيله ، فلم أراع فيه وصولا إلى ما يريد إيصاله إلى . وهل كان له شغل مدة مقامه في منزله وخلوته بنفسه ، إلا معرفة أحوالنا ، والمسألة عن ضياعنا وارتفاعنا ، وحسدنا على نعمتنا ، هذا وهو يعتقد أن الأمر كان له ولأبيه وجده ، وأنه مظلوم مهضوم مضغوط منذ قتل أبوه ، فكيف يجوز أن نسلم إليه نفوسنا فنحترس فضلا عن أموالنا . فقال العباس : صدقت والله يا أبا الحسن ، فمن يقلد وليس ههنا أحد . قال : نقلد جعفر بن المعتضد ، فإنه صبي لا يدرى أين هو ، وعامة سروره أن ينصرف من المكتب ، فكيف أن يحمل خليفة ، ويملك الأعمال والأموال ، وتدبير النواحي والرجال ، ويكون خليفة بالاسم وأنت هو على الحقيقة ، وإلى أن يكبر تكون قد انغرست محبتك في صدره ، وحصلت محصل المعتضد في نفسه . قال : فكيف يجوز أن يبايع الناس صبياً أو يقيموه إماماً . فقال له : أما الجواز فيّ اعتقدت أنت أو نحن إمامة البالغين من هؤلاء القوم (يعني بني العباس) ، وأما إجابة الناس فتى فعل السلطان شيئاً فعورض فيه ، أو أراد أمراً فوقف . وأكثر من ترى من صنائع المعتضد ، وإذا أظهرت أنك اعتمدت في ذلك مراعاة حقه ، وإقرار الأمر في ولده ، وفرقت المال وأطلقت البيعة ، وقع الرضا وسقط الخلاف وطريق ما تريده أن تواقف بعض أكابر القواد وعقلاء الخدم على المضى إلى دار ابن طاهر وحمله إلى دار الخلافة . وأن تستر الأمر إلى أن يتم التدبير ، وإن اعتاص معتاص مد بالعطاء والإحسان . فقال العباس : هذا هو الرأي (تاريخ الوزراء للصابي) .

مسجوناً فى السجن المزوّق وهو قصر الخلافة ، والوزير يملى إرادته على نحو ما قال الشاعر فى أحد هؤلاء الخلفاء :

خليفة فى قفص بين وصيف وبغا
يقول ما قالا له كما تقول الببغا

حاولوا إبعاد مثل ابن المعتز عن الخلافة ، لأنه لا يطلق أيدى الأغمار الاغرار فى مطالبتهم الناس ، ويعرف الدقيق والجليل من أحوالهم . ولا عجب بعد هذا أن تكثر الفتوق فى الدولة ، ويقتل مثل صاحب الزنج الذى استولى على قسم من العراق خمس عشرة سنة ، ألف ألف وخمسمائة ألف رجل ، وقيل إنه قتل فى يوم واحد بالبصرة ثلثمائة ألف ، وكان له منبر يسب عليه عثمان وعلياً ومعاوية وطلحةوالزبير وعائشة ، وهذا رأى الخوارج الأزارقة . ويروى الطبرى أن صاحب الزنج كان علوياً واسمه على بن محمد بن عبد الرحيم . سمى بصاحب الزنج لأنه جمع إليه الزنج الذين كانوا يكسحون السباخ بالبصرة سنة سبع وخمسين وقتل سنة سبعين ومائتين قتله أبو أحمد الموفق بالله بن المتوكل على الله . وعلى ذلك تكون دعوى أنه من الخوارج فيها نظر . وخرج بأرض الشام من آل البيت المقتول على الدكة ، فظفر به المكتفى بعد حروب ووقائع كانت . وفى رواية أن الذى ظهر فى أعمال دمشق سنة ثلثمائة هو ابن الرضى محسن بن جعفر بن محمد على بن موسى بن جعفر بن محمد فكانت له مع أحمد بن كيلغ عامل الشام وقعة قتل فيها صبراً . وقام القرامطة فاستولوا أيضاً على أقسام من العراق والشام والحجاز وعلى البحرين وهجر أواخر المئة الثالثة . استولوا عليها وقتلوا عشرات الألوف من الناس وكان لصاحبهم اتصال بالفاطمى صاحب مصر وكان صاحبهم يكتب إلى عماله : « من عبد الله المهدى ، المنصور بالله ، الناصر لدين الله ، القائم بدين الله الحاكم بحكم الله ، الذاب عن حرم الله ، المختار من ولد رسول الله ، أمير المؤمنين وإمام المسلمين » ودعوته من الدعوات الباطنية المتسترة بالأنتساب إلى آل البيت

العلوى . وقالوا إن القرامطة من الرافضة يزعمون أن النبى نص على علىّ بن أبى طالب وأن علياً نص على إمامة ابنه الحسن وأن هذا نص على إمامة أخيه الحسين وزعموا أن محمد بن إسماعيل حى لم يمت ولا يموت حتى يملك الأرض وأنه هو المهدى الذى تقدمت البشارة به .

وأصبحت الخلافة فى هذا الدور ولا شأن فيها لأذكياء الوزراء فى الدولة إلا أن يجمعوا الأموال ، وأمست الدولة دولة الأتراك والديالمة والخصيان والنسوان ، وما كان للخليفة إلا إرضاء الأمراء وأرباب الصولة . روى صاحب تاريخ بغداد[1] أن جماعة (٢٩٦هـ) من الكتاب والقواد سعى بعضهم إلى بعض عازمين على خلع المقتدر والبيعة لعبد الله بن المعتز فناظروه فى ذلك فأجابهم على أن لا يسفك دم ولا تكون حرب فأخبروه أن الأمر لا يسلم عفواً ، وأن جميع من وراءهم قد رضوا به فبايعوه بالخلافة . وكان أحد رجال الدولة ممن يختلف إلى دار أبى جعفر الطبرى المؤرخ ، دخل عليه فسأله ما الخبر وكيف تركت الناس ، أو نحو هذا من القول فقال له : قد بويع عبد الله ابن المعتز . قال : فمن رشح للوزارة . قال : محمد بن داود بن الجراح . قال فمن ذكر للقضاء . فقال : الحسن بن المثنى . قال فأطرق الطبرى ، قليلا ثم قال : هذا الأمر لا يتم ولا ينتظم . قال : فقلت له وكيف . فقال : كل واحد من هؤلاء الذين سميت متقدم فى معناه ، عالى الرتبة فى أبناء جنسه ، والزمان مدبر والدنيا مولية ، وما أرى هذا إلا إلى اضمحلال وانتقاص ، ولا يكون لمدته طول . فكان الأمر كما قال : ولم يل ابن المعتز الخلافة إلا يوماً ، وقتل من الغد بقوة أشياع الخليفة قبله .

واستولى بنو بويه على بغداد ، وروى[2] أن الوزير ابن مقلة قال : إننى أزلت دولة بنى العباس وأسلمتها إلى الديلم لأنى كاتبت الديلم وقت إنفاذى

(١) تاريخ بغداد لابن الخطيب . (٢) السلوك للمقريزى .

إلى أصبهان ، وأطمعتهم فى سرير الملك ببغداد ، فإن اجتنيت ثمرة ذلك فى حياتى ، وإلا فهى تجتنى بعد موتى . فكان كما قال .

وأمر الطائع (٣٦٩ هـ) خلفاءه على الصلاة فى جوامع مدينة دار السلام بأن يقيموا لعضد الدولة بن بويه الدعوة تالية لإقامتها له على منابرها ، ونفذت به الكتب إليهم ، ورسم أن يضرب على بابه بالدبادب فى أوقات الصلوات ، قال ابن مسكويه[1] وهـذان الأمران من الأمور التى بلغها عضد الدولة ، واختص بها دون من مضى من الملوك على قديم الأيام وحديثها . والخلفاء فى هذا الدور يلقون إلى المتغلبين عليهم بمقاليد السلطة إلا ما لا بال له[2] ، ويخلع الخليفة على الملك الخلع السبع والعمامة السوداء ويسوّد بطوق . وكان أبداً يخطب للملك أو الأمير المتغلب مقروناً إلى اسم الخليفة .

* * *

والحاصل أن الخلافة انتقلت منذ أواخر القرن الثالث من دور الحكم ، إلى طور أصبحت فيه محكومة ، كانت لها القوة ، فأصبحت لا حول لها ولا قوة ، وكثر فى هذا القرن خروج الروم إلى بلاد الإسلام ، فغدوا يبلغون آمد ونصيبين وأنطاكية وحلب ، وكان العباسيون ، فى القرن الذى قبله يفتحون من بلادهم أنقرة وعمورية وهرقلية . وكان بعض خلفائهم شعروا فى هـذه الحقبة بأن الخلافة مهددة بالزوال إذا لم يتولها الأطايب من أبناء هذا البيت ، فخلع المعتمد ابنه جعفر المفوض من ولاية العهد وجعل المعتضد ابن أخيه ولى العهد من بعده ، وهذا عمل مجيد يغبط عليه فاعله مهما كانت الدواعى إليه ، فالمعتضد ثبت قواعد الخلافة العباسية بعقله وكفايته ، وكان « المعتمد مستضعفاً[3] . وكان أخوه الموفق طلحة الناصر هو الغالب على أموره ، وكانت دولة المعتمد دولة عجيبة الوضع كان هو وأخوه الموفق كالشريكين .

---

(١) تجارب الأمم لابن مسكويه . (٢) معلمة الإسلام : « المقتدر »

(٣) تاريخ ابن الأثير .

فى الخلافة ، للمعتمد الخطبة والسكة والتسمى بإمرة المؤمنين ، ولأخيه كلمة الأمر والنهى وقود العساكر ، ومحاربة الأعداء ، ومرابطة الثغور ، وترتيب الوزراء والأمراء » . وفى أيام المعتمد قطع ابن طولون المتولى على مصر خطبة الموفق ، وأسقط اسمه من الطراز ؛ فأمر المعتمد بلعن ابن طولون على المنابر. وقيل إن ابن طولون ادعى الخلافة لنفسه بمصر وبايعته الجند والموالى وسائر الناس ، على أن يعادوا من عاداه ويوالوا من والاه ، ويحاربوا من حاربه من الناس جميعاً ، وقيل إنه أمر بكتاب فيه خلع الموفق من ولاية العهد لمخالفته المعتمد فقط .

قلنا إن المعتضد ثبت أركان الخلافة ، وكانت تريد أن تنفضّ جملة . وهو الذى رد مصر إلى حظيرة الخلافة بعد أن كاد يذهب بها أحمد بن طولون وأولاده ، وكتب إلى ابنه خمارويه بولايته عليها هو وولده ثلاثين سنة ، وذلك من الفرات إلى برقة ، وجعل إليه الصلاة والخراج والقضاء وجميع الأعمال ، على أن يحمل فى كل عام من المال[1] مائتى ألف دينار مما مضى ، وثلثمائة ألف عن كل عام للمستقبل . ولعل ما ساقه أيضاً إلى هذا التسامح بقطعة عظيمة من الملك العباسى ، ما تناصرت الأخبار عليه من أن الدولة العبيدية الفاطمية ظهرت أعلامها فى المغرب ؛ فأحب أن يضع الطولونيين بينه وبينها . وطلب المعتضد إلى ابن طولون أن يزوجه ابنة ابنه خمارويه وقال : ما قصدت بهذا الزواج إلا إفقار ابن طولون لأنه يضطر أن يجهزها بجهاز لم تجهز به عروس من قبل ، وجرى الأمر كما قال ، فإنها جهزت بما استفرغ خزائن مصر والشام . وكثر هذا الضرب من الزواج السياسى فى القرنين التاليين بين أمراء المسلمين وبما أتاه المعتضد من الأعمال لحفظ كيان الدولة صح ما قيل[2] بعض الصحة من أن بنى العباس قوم منصورون ، تعتل دولتهم مرة وتصح مراراً ، لأن أصلها ثابت وبنيانها راسخ .

وانحل[3] فى الربع الأول من القرن الخامس أمر الخلافة والسلطنة فى

(١) الولاة والقضاة للكندى . (٢) تجارب الأمم لابن مسكويه .
(٣) تاريخ ابن الأثير .

بغداد ، حتى خرج بعض الجند ونهب شيئاً من ثمرة[1] قراح الخليفة القائم بأمر الله فعظم عليه ؛ واشتد أذى العيارين ، واختل الأمن فى كل جهة ، فتقدم الخليفة إلى القضاة بترك القضاء والامتناع عنه ، وإلى الشهود بترك الشهادة ، وإلى الفقهاء بترك الفتوى. وفى أيام القائم انتهى البساسيرى للثائر إلى المستنصر الفاطمى صاحب مصر ، فأمده بالأموال حتى أخذ بغداد ، وقطع منها دعوة بنى العباس وخطب للمستنصر بها نحوسنة والقائم محبوس ، ثم قدم طغرلبك السلجوقى وأعاد القائم إلى الخلافة وقتل البساسيرى.

وفى أيام الراضى زادت وطأة الأتراك على الخلافة وقال الخليفة يوماً : وكأنى بالناس يقولون كيف رضى هذا الخليفة بأن يدبر أمره عبد تركى (بجكم) حتى يتحكم فى المال وينفرد بالتدبير ، ولا يدرون أن هذا الأمر أفسد مثلى ، وأدخلنى فيه قوم بغير شهوتى ، فسلمت إلى ساجية وحجرية يتسحبون على ويجلسون فى اليوم مرات ، ويقصدوننى ليلا ، ويريد كل واحد منهم أن أخصه دون صاحبه ، وأن يكون له بيت مال . وكنت أتوقى الدماء فى ترك الحبل عليهم إلى أن كفانى الله أمرهم ؛ ثم دبر الأمر ابن رائق فدبره أشد تسحباً فى باب المال منهم ، وانفرد بشربه ولهوه . قال ويتعدى الواحد منهم أو من أصحابهم على بعض الرعية بل على أسبابى ، وآمر فيه بأمر فلا يمتثل ولا ينفذ ولا يستعمل . إلى أن قال : فرضيت ضرورة به ، وكان أوفق لى وأحب إلى ممن قبله . وكان الأجود أن يكون الأمر كله لى ، كما كان لمن مضى قبلى ؛ ولكن لم يجر القضاء بهذا لى . اهـ . وهذا كلام الرجل الضعيف النفس والعزيمة والسياسة . وفى أيامه (٣٢٦ هـ) جاء كتاب الروم من رومانس وقسطنين من عظماء ملوك الروم يطلبون الصلح قالوا فيه . لما بلغنا ما رزقته أيها الأخ الشريف من وفور العقل وتمام الأدب واجتماع الفضائل أكثر ممن تقدمك من الخلفاء حمدنا الله ، ثم طلبوا الهدنة والفداء[2]

---

(١) القراح بالفتح : المزرعة التى ليس عليها بناء ولا فيها شجر والجمع أقرحة .
(٢) تجارب الامم لابن مسكويه .

وفى سنة ٣٣٢ هـ خرج عسكر الروس إلى أذربيجان وقصدوا بردعة وملكوها ، وفى أيام الراضى وثب فى كل قطر من الأقطار قائم أو أمير تغلب على إقليمه ، وانطلق فى أحكامه يفعل ما يشاء ، كأنه المالك الحقيق للقطر أو الأقطار التى أصبح له السلطان الأعظم عليها ، والخطبة لبنى العباس ما عدا الغرب وإفريقية والأندلس ، وفارس فى يد على بن بويه ، والرى وأصفهان فى يد أخيه الحسن بن بويه ، والموصل وديار بكر وديار ربيعة فى أيدى بنى حمدان ، ومصر والشام فى يد محمد بن طغج ثم فى أيدى الفاطميين ، وخراسان والبلاد الشرقية فى يد بنى سامان .

وكان من العادة فى أيام تراجع الخلافة واستيلاء المتغلبين على بعض أقطارها أن يكتفى بعض الخلفاء بلعن من خالف عليهم ، يأمرون بلعنه على المنابر حتى يكل اللاعنون ويملوا ، والخارج يقوى ويستعلى ، وربما قابلهم هو بالمثل ، فيكون اللعن شفاء لصدر المقهور ، وتقاصر[٢] اسم الخلافة فى هذه الأزمان ، وقنع الخلفاء من خلافتهم بالدعاء على المنابر ، وضرب اسمهم على الدنانير والدراهم ، فكان المتقى والمستكفى والمطيع[٤] كالمولَّى عليهم لا أمر ينفذ لهم . أما ما نأى عنهم من البلدان فتغلب على أكثرها المتغلبون واستظهروا بكثرة الرجال والأموال ، واقتصروا على مكاتبتهم بإمرة المؤمنين والدعاء لهم . وأما بالحضرة فتفرد بالأمور غيرهم فصاروا مقهورين خائفين ، قنعوا باسم الخلافة ورضوا بالسلامة ، وازداد فى أيام المطيع أمر الخلافة إدباراً ، حتى لم يبق له من الأمر شىء قل أو جل ، ولم يبق فى يد الخليفة غير ما أقطعه إياه معز الدولة بن بويه مما يقوم ببعض حاجته .

بعث بختيار (٣٦١ هـ) على مطالبة المطيع بما يوهمه[٥] أنه يحتاج إلى إخراجه فى طريق الغزو فأجابه المطيع : إن الغزو يلزمنى إذا كانت الدنيا فى يدى ،

(١) صبح الأعشى للقلقشندى . (٢) التنبيه والإشراف للمسعودى .
(٣) تجارب الأمم لابن مسكويه .

وإلىّ تدبير الأموال والرجال ، وأما الآن وليس لى منها إلا القوت القاصر عن كفايتى ، وهى فى أيديكم وأيدى أصحاب الأطراف فما يلزمنى غزو ولا حج ، ولا شىء مما تنظر الأئمة فيه ، وإنما لكم منى هذا الاسم الذى يخطب به على منابركم تسكنون به رعاياكم ، فإن أحببتم أن أعتزل اعتزلت من هذا المقدار أيضاً ، وتركتكم والأمر كله .

وكانت هذه الطبقة من الخلفاء منحطة لا تصلح للخلافة ولا لشىء غيرها من مهام الملك . قال ابن البهلول : كنا إذا كلمنا المستكفى وجدنا كلامه كلام العيارين . وكان الغالب على دولته امرأة يقال لها علم الشيرازية ؛ وكانت قهرمانة داره ، وهى التى سعت فى خلافته عند « توزون » حتى تمت . فعوتب على إطلاق يدها وتحكمها فى الدولة فقال : خفضوا عليكم ، فإنما وجدتها فى الشدة ووجدتكم فى الرخاء ، وهذه الدنيا التى بيدى هى التى سعت لى فيها حتى حصلت ، أفأبخل عليها ببعضها ؟

ولم يغن[1] عن المقتدر ما بذل من المال للجند لما شغبوا حتى ضربوه بالسيف ، وذلك بسبب جرأة الأعداء وطمعهم فيما لم تكن أنفسهم تحدثهم به من الغلبة على الحضرة ، وانخرقت الهيبة ، وضعف أمر الخلافة وتفاقم .

(١) يقول الشعرانى إن الأمين بن الرشيد قتل صبراً وقطعوا رأسه ، ومات المتوكل مقتولا ؛ وقتلوا المستعين بالله وقطعوا رأسه بعد أن خلعوه وحبسوه ، وقتلوا المعتز بالله فى الحمام غطسوه فى الماء الحميم حتى مات بعد أن ضربوه على رأسه ووجهه بالدبابيس وأوقفوه فى الشمس أياما وقتلوا المهتدى لأنه منع حاشيته من المظالم ، وقتلوا ابن المعتز بعد أن حبسوه أياماً وخنقوه وقاسى من الأهوال ما لا يعبر عنه . وقتلوا المقتدر بالله بمواطأة وزيره فضربوه على رأسه بسيف وشالوا رأسه على رمح وسلبوا ما عليه من الثياب . وقتلوا القادر بالله فكحلوا عينيه بمرود من نار . فلم يزل كذلك إلى أن مات ، وسملوا عينى المتقى بالله وأحلوه الحبس فلم يزل كذلك إلى أن مات فى الحبس بعد أربع وعشرين سنة . وهجموا على الخليفة المستكفى بالله وهو على سريره فجروه على الأرض برجله ثم سملوا عينيه حتى مات ، فعل ذلك به الديلم . وقتلوا الخليفة المسترشد بالله دخل عليه سبعة عشر رجلا من الباطنية فضربوه بالسكاكين حتى مزقوا جسده وقطعوا أنفه وأذنيه ثم أحرقوه . وقتلوا الراشد بالله بعد أن عاقبوه فى الحبس إلى أن مات وولده وقتلوا المستعصم بالله آخر خلفاء بغداد بموالسة وزيره ووضعوه وولده فى تليس وصاروا يرفسونهما إلى أن ماتا . اهـ .

قال الطبرى[١] : وحار الناس فى أمر دولة المقتدر وطول أيامها على وهى أصلها وضعف ابتنائها ، ولم ير الناس ولم يسمعوا بمثل سيرته وأيامه وطول خلافته ، وكان جيد العقل صحيح الرأى ، ولكنه كان مؤثراً للشهوات . قال التنوخى[٢] : « ولقد سمعت أبا الحسن على بن عيسى الوزير يقول ، وقد جرى ذكر المقتدر بحضرته فى خلوة : ما هو إلا أن يترك هذا الرجل النبيذ خمسة أيام متتابعة حتى يصح ذهنه ، فأخاطب منه رجلا ما خاطبت أفضل منه ، ولا أبصر بالرأى ، وأعرف بالأمور ، وأسد فى التدبير ، ولو قلت إنه إذا ترك النبيذ هذه المدة يكون فى أصالة الرأى ، وصحة العقل ، كالمعتضد والمأمون ، ومن أشبههما من الخلفاء ، ما حسبت أن أقع بعيداً ، وما يفسده غير متابعة الشرب ولا يخبله سواها » .

وفى أيام القادر[٣] عاد إلى الدولة العباسية وقارُها ونما رونقها وأخذت أمورها فى القوة وكان من أفضل خلفائهم . قال ابن الأثير : إن خلافته إحدى وأربعون سنة وقد جدد ناموس الخلافة ومن قبل كان طمع فيها الديلم والترك ، وأطاعه الناس أحسن إطاعة ، لأنه كان على صفات حسنة من الخير ، وراح المقتدى وجاء المستظهر ثم المسترشد وهو المتمم للثلاثين من خلفاء بنى العباس . والمسترشد والراشد أخوان ، كما كان السفاح والمنصور أخوين ، والهادى والرشيد أخوين ، والواثق والمتوكل أخوين . أما الثلاثة الأخوة الأمين والمأمون والمعتصم إخوة أولاد الرشيد ، والمكتفى والمقتدى والقاهر إخوة أولاد المعتضد ، والراضى والمتقى والمطيع إخوة أولاد المقتدر . ويقول أرباب السير إن المكتفى (٥٥٠ هـ) كان حسن السيرة وهو أول من استبد بالعراق منفرداً عن سلطان يكون معه وأن حرمته كانت وافرة ، بخلاف الخلفاء قبله[٤] وأظهر الظاهر (٦٢٣ هـ) من العدل والإحسان ما أحيا به سنة العمرين[٥] . ومع هؤلاء النابهين من الخلفاء أصبحت الخلافة العباسية أوائل القرن السابع شبحاً

(١) تاريخ الطبرى .
(٢) نشوار المحاضرة للتنوخى .
(٣) الفخرى لابن الطقطقى .
(٤) دول الإسلام للذهبى .
(٥) تاريخ ابن الأثير .

من الأشباح ، وكان الضعف سرى إليها منذ انتقل الملك والدولة فى آخر[1] أيام المتقى وأول أيام المستكفى إلى بنى بويه الديلم . ولما عزل المستكفى وبويع للمطيع ودخل معز الدولة إلى بغداد خلقت ديباجة الخلافة وكادوا يبايعون للعلويين . قال المقريزى فلم يبق فى يد بنى العباس من الخلافة إلا اسمها فقط من غير تصرف فى ملك ، بحيث صار الخليفة منهم فى مدة الدولة البويهية ثم فى الدولة السلجوقية إنما هو كأنه رئيس الإسلام ، لا أنه ملك ولا حاكم ، تحكم فيه الديلم ثم السلجوقية كتحكم المالك فى مملوكه . وما زالوا تحت الحكم منذ سنة ٣٣٤ هـ إلى أن قتـــلوا عن آخرهم ، وسبى حريمهم ، وهدمت قصورهم ، وهلكت رعاياهم على يد هولاكو ، وكانوا هم السبب فى ذلك . قال والعوامل فى انقضاء الدولة العباسية التى دامت نيفاً على خمسمائة وعشرين سنة أنها صارت إليهم بعد ما ضعف أمر الدين وتخلخلت أركانه ، وتداول الناس أمر الأمة بالغلبة ، فأخذ حينئذ بنو العباس بأيدى العجم أهل خراسان ، ونالوها بالقوة ، ومناهضة الدول ، ومساورة الملوك ، حتى أزالوا بعجم خراسان دوالة بنى أمية . وتناولوا العز كيف كان ، فما وصل أمر الأمة إلى أهل العدالة والطهارة ، ولا وليهم ذوو الزهادة والعبادة ، ولا ساسهم أهل الورع والأمانة ، بل استحالت الخلافة كسروية وقيصرية . اهـ . وقال أيضاً فى دولة[2] بنى العباس إن فيها افترقت كلمة الإسلام ، وسقط اسم العرب من الديوان ، وأدخل الأتراك فيه ، واستولت الديلم ثم الأتراك ، وصارت لهم دول عظيمة جداً ، وانقسمت ممالك الأرض عدة أقسام ، وصار بكل قطر قائم ، يأخذ الناس بالعسف ويملكهم بالقهر .

ولقد تجلى التفريط والإفراط فى العهد العباسى الأخير والأوسط ، وما كانت تأثيرات النكبات ظاهرة كل الظهور ، لمكان القوة فى جسم الأمة ، وكان كلما ضعف سلطان الخلافة ضعفت الأمة على نسبتها . وربما كان من

(١) التنازع والتخاصم للمقريزى . (٢) السلوك للمقريزى .

العوامل فى ضعف سلطان العباسين اتساع رقة مملكتهم وترامى أطرافها ، فصعب معه القضاء على دعوة كل من ينزع فى القاصية إلى الاستقلال بجيشهم من الخراسانيين ثم من غيرهم من العناصر غير العربية ، ولأن من الخلفاء من ربما أعطوا الألوف لمن يجب ولمن لا يجب وضنوا بالمئات على الجنود والقواد ، ومنهم من شغل بشهواته ورفاهيته ، وبلغ فى ذلك مبلغاً عظيماً ، وخرجوا جملة عن هوى الراشدين وخالفوا سيرة أعاظم الأمويين والعباسيين ، وراحوا يتمتعون بالفتوح التى تمت لبنى أمية فى الخافقين ، ووضع هؤلاء أساسها فما بنى أخلافهم كما بنوا ، ولا احتفظوا بهذا التراث العظيم الاحتفاظ الواجب . ولئن نقموا من الأمويين تغاليهم فى رد الطالبيين وآل العباس عن الأمر ، فما كان العباسيون أرفق بالطالبيين والأمويين والخوارج وكل من نازعهم السلطة يوم كان الأمر أمرهم .

ولما كثر الأعاجم فى دولتهم ، وهجم عليهم الروح الفارسى من كل جانب أضعفوا بأيديهم عصبيتهم العربية ، وجعلوا من الفرس والترك عصبية محدثة لهم ، صار اسم العرب فى أكثر أيام هذه الدولة كأنه تاريخ أمة بائدة ، يقرأ للتسلية والاطلاع ، لا للقدوة والاتباع ، ولو لم تكن العربية لسان الدولة لما قال القائل فى وصف الدولة العباسية ، إلا أنها دولة الفرس دخلها تعديل بالإسلام . على أن الدولة يتعذر عليها أن تسير على غير هذه الطريقة ما دام الجيش وهو أول عامل فى قيام الدولة من الأعاجم ، وما دام سلطان الدولة يمتد على مملكة تسعة أعشارها من غير العرب .

ولولا أن نبغ فى صدر هذه الدولة بضعة خلفاء عظماء ، كالمنصور والرشيد والمأمون من بين سبعة وثلاثين خليفة ، لصح أن يقال إن الدولة العباسية الفارسية كانت دون الدولة الأموية العربية بمراحل ، وأى ضعف أعظم من أن يقتل الخليفة بأيدى المتغلبين ، أو يبقى آلة فى أيديهم وهو ساكت لا يتحرك ، راض بما قسم له من حظ ، خصوصاً لما انتقل الملك إلى آل بويه[1] . وأصبح

(١) الآثار الباقية للبيرونى .

ما كان بقي فى أيدى العباسين أمراً دينياً اعتقادياً لا ملكاً دنياويا ، فكان القائم بالدولة منذ فجر القرن الرابع إنما هو رئيس الإسلام لا ملك يستجمع صفات الملك والخلافة . وإذا دون المؤرخون شيئاً من أخبار القوة فهو صادر عن ملوك الطوائف الذين اتخذوا شعار العباسين اسما وعملوا تحته كالبويهين والسلجوقين والسامانين والغزنويين والطولونيين والإخشيديين والحمدانيين والأغالبة . وهذا مما لم يعهد مثله فى دولة بنى أمية فى دمشق وقرطبة ، هؤلاء كان فيهم شمم العرب وعز الملك والسلطان ، والتشبع بروح الدين ، وكان لخلفائهم صبغة خاصة يهتمون بملكهم قبل كل شيء .

أفسد العباسيون دمهم العربى بما أدخلوه عليه من الدم الغريب ، وأفسدوا عصبيتهم بما كان من زهدهم فى عنصرهم ، والاستنامة إلى غيره لقيام دولتهم ، فغدا الدخيل بعد حين أصلا ؛ وسقطت الأصول وقامت بدلها الفروع ، وآض المصطنع سيداً مسوداً ، ورجع العظيم يتعثر فى أذيال الذل . أصبح العباسيون إلا قليلا خلاسين وهجناء لا بالعرب ولا بالعجم ، وتركتهم الشعوب للتبرك بهم لشرفهم . ولا تزيد مكانتهم عن بلاط السلاطين الذين انتزعوا أقطاراً من الأرض العباسية وحكموها بالجبرية حكماً دينياً ومدنياً .

ومن أهم العوامل فى ضعف بنى العباس عدم العناية بتربية أولياء العهد تربية حرة عملية ، وكان من عادة أكثر الخلفاء أن يحبسوا أولادهم وأقاربهم ، وبذلك جرت سنتهم إلى آخر أيام المستنصر . فلما ولى المستعصم آخر خلفائهم ببغداد أطلق أولاده الثلاثة ولم يحبسهم ، وبحبس أولاد الخلفاء ضعفت ملكاتهم وربما انصرف أكثرهم فى دور احتباسهم إلى اللهو والشهوات ، فإذا جاءوا يتربعون فى دست الخلافة عجزوا عن سياستها ، لأنهم عاجزون عن سياسة أنفسهم . ولقد كان الرسم فى عهد الخلفاء الأول من آل العباس أن يراقب الوالد ابنه والإبن أباه والأخ أخاه على طريقة مكتومة عن الأنظار ، وتوسد إلى أبناء الخلفاء وإخوتهم قيادة الجيوش وإدارة الولايات يشتركون فى السلطان وتؤخذ آراؤهم فى النوازل ، ويدخلون فى مجالس المشورة ، فيكون لهم بذلك

شيء من الوقوف يدركون به أنهم شركاء فى الملك ، وعليهم أن يستعدوا لتولى زمامه . وبحجب أبناء الخلفاء فى عصر الانحطاط أمسى بعضهم كالمغفلين لعدم اختلاطهم بأحد ، يدرسون سياسة الملك فى الكتب ، وربما لا يرخص لهم أن ينظروا فى كل الكتب ، ويهيئهم المؤدبون تهيئة نظرية ، ولا يعلمون شيئاً كثيراً يصح أن يكون مادة لحياتهم وحياة الخلافة ، إذ أتت نوبتهم لتولى هذا المنصب الجليل .

ثم قد يترفع الخليفة عن المجتمع حتى يجهل حقيقة أحوال الناس ، وما يدور فى بلاده من المسائل المهمة ، اللهم إلا ما يكتب به إليه أصحاب الأخبار. وعد من مزايا الظاهر (٦٢٢ هـ) ، ولم يل الخلافة العباسية أتقى منه بعد عمر ابن عبدالعزيز الأموى ، أنه ظهر للناس وكان الخلفاء قبله لايظهرون إلا نادراً[١] ولم ينظر فى الرقاع التى تكتب إلى الخليفة فى العادة فى موضوع أخبار الناس ، إلا أن أيامه لم تطل ، ولم يدم الملك العباسى بعده كثيراً .

وأهم مسألة فى انهيار بنيان الدولة هذا الجيش الغريب . فقد كان الجيش لأول أمره من أبناء خراسان ، واشترى المنصور المماليك واستخدمهم وتابعه من خلفوه ، وما جاء المعتصم حتى وضع من العرب[٢] وأخرجهم من الديوان ، وأسقط أسماءهم ، ومنعهم العطاء من العاصمة والولايات ، وأصبح جند[٣] الخلافة على عهده خمسة أقسام الخراسانى والتركى والمولى والعربى والبنوى[٤] . وهذه الجيوش التى سلبت قرار الحضرة أى العاصمة ، كانت تثور فى أيام العظماء من ملوكهم وتتطلب عطاء السنة والسنتين ، ولها هيجة كلما راح خليفة وجاء خليفة ، إذا لم يكن المال مهيئاً لإرضائهم ولوا وجوههم عنه ، ويا ويل من يولى الجيش عنه وجهه .

---

(١) مختصر تاريخ الخلفاء لابن الساعى . (٢) خطط المقريزى .
(٣) مناقب الترك وعامة جند الخلافة للجاحظ .
(٤) الأبناء قوم من العجم سكنوا اليمن والنسبة إليهم أبناوى وبنوى .

ولقد أنكر الجند(١) والقواد على المقتدر استيلاء النساء والخدم على الأمور وكثرة ما أخذوا من الأموال والضياع ، فقتلوه فانخرقت الهيبة ، وضعف أمر الخلافه منذ ذلك العهد ، وطمع أصحاب الأطراف والنواب وخرجوا عن الطاعة . يقول حمزة الأصفهانى(٢) : إن الملك تنقل من بنى العباس فى ثمانية عشر نفراً ، والمقتدر ثامن عشرهم وكان فى مدة مائة وسبع وسبعين سنة على جملة من الاستقامة ، إذ كانت العوارض التى تعرض فى سلطانهم قصيرة المدة سريعة الزوال ، فانساق ملكهم على هذا المنهاج إلى أن مضى من ملك المقتدر ثلاث عشرة سنة إلا أياماً ، ذلك فى آخر سنة ثمان وثلاثمائة ، فعندها بدأت الأحداث والفتن فى دار ملكهم ، فأزالت عن الجند والرعية هيبتهم ، وأخلت من الأموال خزائنهم .

وإذا استثنينا عهد المعتضد لم نشاهد بعد المأمون من كان ذا عبقرية فى إدارة الملك . وقد لا ينتظم الأمر حتى بوجود الوزراء المحنكين لأن للرئيس تأثيره ما دام مرجع الأعمال إلى الخليفة ، فإن كان هذا على اتزان تخفى العيوب فى الجملة ، فى هذه السلطنة الاستبدادية الطويلة العريضة ، وإلا فالملك فى تزلزل . وهناك خليفة يدبره أخوه ، وآخر تدبره أمه وقهرماناتها وقهرمانته وغيره يدبره وزيره ، وفى كثير منهم كانت سلطة النساء بادية فى الخلافة ، وقل خليفة كالمأمون والمعتضـــد من يصدر عن رأى نضيج ، ويعنى بملكه كما يعنى بنفسه .

يقول صاحب النشوار(٣) : «كان أول ما انحل من نظام سياسة الملك أيام بنى العباس القضاء ، فإن ابن الفرات وضع منه وأدخل فيه قوماً بالزمانات(٤) لا علم لهم ولا أبوّة ، فما مضت إلا سنوات حتى ابتدأت الوزارة تتضع ، ويتقلدها كل من ليس لها بأهل ، حتى بلغت فى سنة نيف وثلاثين وثلثمائة إلى أن تقلد وزارة المتقى ابن العباس الأصفهانى الكاتب ، وكان غاية فى سقوط

(١) صلة تاريخ الطبرى لعريب .
(٢) تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء لحمزة الأصفهانى .
(٣) نشوار المحاضرة للتنوخى . (٤) الضمانات .

المروءة والرقاعة ، وتلا سقوط الوزارة اتضاع الخلافة وبلغ صيورها إلى ما نشاهد ، فانحلت دولة بنى العباس بانحلال القضاء . اهـ » .

ولما ولى معز الدولة بن بويه القاضى عبد الله بن أبى الشوارب (سنة ٣٥٠هـ) قضاء القضاء ، شرط على نفسه أن يحمل فى السنة إلى خزانة ابن بويه مائتى ألف دينار ، فتألم المطيع لله وامتنع من تقليده . وبلغ من سقوط منصب الوزارة أن بعضهم كان يستعمل ضروب الرشى ويرتكب كل صَغار ليصل إليها . ومنهم من أنفق فى هذه السبيل ضروب الرشى ويرتكب كل صغار ليصل إليها ، ومنهم من أنفق فى هذه السبيل فقط خمسمائة ألف دينار ، ومنهم من رشا المنجمين حتى يشيعوا أخباراً يجعلها سلماً إلى أغراضه » .

ما انقضت الدولة العباسية[1] حتى كانت مصر والشام فى أيدى المماليك ، واليمن بأيدى الزيدية والدولة الرسولية ، والحجاز لبنى حسن ، ومراكش لبنى مرين ، وإفريقية للحفصيين ، والأندلس لبنى الأحمر وملكهم غرباً من جزائر بنى مزغنان (الجزائر اليوم) إلى عقبة برقة ، والتكرور لرجل ينتسب إلى عمر بن الخطاب ، وصاحب البرنو وصاحب الكانم من بيت قديم فى الإسلام ، وماردين لبنى أرتق ، وحصن كيفا بيد رجل من بقايا الأيوبيين وصاحب أرزن من ملوك آل سلجوق ، وصاحب بدليس شرف الدين : وهراة غياث الدين ، والأكراد يتأمر عليهم صاحب جولمرك وصاحب عقرشوش ، وأمراء الترك فى بلاد الروم أو بلاد الدروب ، أى البلاد المنحصرة بين بحرى القرم والخليج القسطنطينى ، ومملكة إيران بأيدى بيت هولاكو ويدخل فيها الهياطلة وهى بلاد مازندران وما يليها إلى آخر كيلان ، وتوران مملكة الخاقانية بيد افراسياب ملك الترك ، وبقية ديار بكر بيد إبراهيم شاه ، ومملكة أذربيجان بيد سليمان شاه من أولاد جوبان ، وخراسان بيد الخاقان طغتمر ، ومملكة توران منقسمة ثلاثة أقسام منها سلطانان مسلمان وأكبر الثلاثة القان الكبير هو صاحب الصين والخطأ ، وقد دان دين الإسلام ،

---

(١) مختصر تاريخ الخلفاء لابن الساعى . (٢) التاريخ العام للافيس ورامبو

والملكان الآخران صاحب السراى وخوارزم والقرم ودست القبجاق ، والثانى صاحب غزنة وبخارى وسمرقند وعامة ما وراء النهر ، وهناك أمراء البادية من العرب وهم بديار مصر وبرقة واليمن والحجاز والشام والعراق والبحرين .

* * *

علل بعض مؤرخى الإفرنج لسقوط المملكة العباسية بأن الثورة التى عجلت بسقوط الأمويين وأدالت منهم للعباسية ، كانت عمل حزب دينى ثار علنا ودعا سراً مدة قرن كامل ، وكانت أيضاً حركة قومية ومقاومة من الشرق وأثراً من آثار نقمة الفرس على الفتح العربى ، وأن بعد عظماء ملوكهم كالسفاح والمنصور والمهدى والرشيدوالمأمون والمعتصم أسرع الانحطاط إلى العباسيين ، وتقسم البلاد ملوك وأمراء ، وتعاقبت عليها دول حربية أو وطنية استأثروا بجزء من المملكة وراحوا بها يؤسسون ملكاً ويقيمون حكومات ، وأن الوحدة السياسية فقدت فى المملكة العربية عقب انحلال دولة بنى أمية فى دمشق . قال وبينا كان يظهر فى الفاطميين والأمويين فى الأندلس زعماء وفاتحون ، لم يكن يظهر فى العباسيين الكسالى غير أناس أمسوا ألعوبة فى أيدى مستخدميهم من الجنود ورجال البلاط . ومع ذلك عاشت دولتهم بعد تينك الدولتين . قال إن العصر الذهبى لخلافة بغداد كان فى أواخر القرن الثامن ومبدإ القرن التاسع ، ثبتت قواعد تلك المملكة فى الشرق ، وقمعت الثورات التى قام بها أبناء علىّ ، وسكنت نغمة الخزر فى تخوم إرمينية والروم فى آسيا الصغرى ، ومنهم من كبح جماحه ومنهم من رد على أعقابه ، وعقد العباسيون مع الإمبراطورة إيرين ثم مع خليفتها نتفور الأول معاهدات حملت فى مطاويها ذلا للإمبراطورية . وكانت بلاد الخلافة عبارة عن ثمانى وعشرين ولاية تمتد من نهر الأندوس إلى الأطلنطى ، ومن جبال القوقاز إلى الصحراء . أما أقصى حدود المملكة من الغرب أى إسبانيا والمغرب ، فقد نزعت طاعة الخلافة العباسية عنها ، وظلت سائر البلاد مجموعة الشمل متماسكة الأجزاء .

وكانت عوامل الاضمحلال واحدة فى الخلافات الثلاث (العباسية والفاطمية والأموية والأندلسية) ذلك لأن السلطات كلها كانت مجموعة فى أيدى الخليفة، ولكى يقوم بعمله يجب أن يكون عظيما فى ذاته ، أو يحسن اختيار وزراء عارفين يحسنون خدمته ولا يتسلطون عليه . وقد أثبت الخلفاء الأولون من العباسيين ، ومؤسسو الدولة الفاطمية ، وكثير من الأمويين فى الأندلس ، ومنهم عبد الرحمن الثالث أنهم من الطراز الأول من الرجال . بيد أن عيش القصور والحرم ، على ما كان عليه فى قرطبة والقاهرة وبغداد ، لا ينشأ منه غير فساد الذرية مهما كان من قوتها ، ولذلك لم تلبث هذه الممالك أن تولاها أمراء جهلاء ليسوا على شيء من النبوغ ولا الأخلاق . وعلى قدر الملك يكون قدر الحكومة ، والاستقرار يكون عادة فى الممالك المطلقة ، ولئن أصبحت الوراثة فى تولى الملك عادة متبعة ، فما عين القانون لانتقال الملك بالإرث خطة مقررة ، وحاول بعض أرباب المدارك من رجال الأمر أن يصلحوا هذا الخلل فما وفقوا .

كان العباسيون ينصبون ولى العهد مقدماً ، وهو يقسم الإيمان كما يقسم الملك المتولى ، وفى الأندلس عمد الحكم الثانى إلى عظماء المملكة ودعاهم إلى التوقيع على ما يشبه البراءة لتقليد ابنه الخلافة وأرسلت نسخة منها إلى الولايات ، وكان الأعيان وأرباب الطبقات الدنيا يوقعون عليها ، ولم تنجح كلتا الطريقتين . وفى بغداد لم يهدأ بال المنصور إلا بخلع ابن عمه عيسى من ولاية العهد لينصب ابنه مكانه . وفى قرطبة لم يكد الحكم الثانى يلقى حتفه حتى دبرت فى القصر مكيدة ، جعل بها بدل هشام أموى آخر اسمه المغيرة . إلا أن الوزير المصحفى وابن أبى عامر تقدما بقتل هذا الدعى . ومن حظ هشام أن أطماع هذين الرجلين وقفت عند حد إعادة الحق إلى صاحبه . وعلى هذا رأينا نظام ولاية العهد عرضة للأخطار ؛ وكانت شهوة كل من كانوا على صلة بالعرش ، أن يتولوا الأمر إذا كانوا من الأمراء ؛ وأن ينصبوا الملك الذى يختارونه ، إذا كانوا من الوزراء أو من رجال الدولة وقواد الجيش . وهناك الدسائس

والأحزاب والمنافسات والفتن . والسلطة العليا تضعف إذا كانت مختلة باضطرابات دائمة ، والدولة أبداً قلقة بأطماع الوزراء ، ومكايد الموالى والعبيد ونفوذ الأمراء .

إن سادة العرب بفتحهم الشرق والغرب ، لم يتخلوا عن طبيعتهم الجامحة التى تقضى على النظام ، وكان من غرائزهم المتأصلة فى جوانحهم ألا ترضى بإقامة حكومة منظمة ، وكان من القوة للخلفاء أن يختاروا عمالهم وجندهم من فريق آخر ، يؤثرون الاعتصام بالعرب أو الركون إلى غيرهم ، أى من العناصر الوطنية من فرس وبربر وقبط وإسبان . وما خلت هذه السياسة من أخطار ، وما عرف مدى ضرر هذه الرعاية للغريب . ذلك لأنها كانت مدعاة لتيقظ الفكرة الوطنية فى البلاد المغلوبة على أمرها ، ومن شأن القوميين أن يعادوا وحدة المملكة ، بل هم لا يرون قيامها بحال .

يدين العباسيون فى الشرق بخلافاتهم للنقمة الفارسية ؛ وهم أنفسهم أدنى إلى أن يكونوا فرساً منهم إلى أن يكونوا عرباً ، ومتى ضعفت الخلافة وثار القواد فى أصقاع الولايات ، وجعل رؤساء العصابات ملوكاً ، يقوم هؤلاء الغاصبون ويهيجون النعرة القومية ، ويوهمون الناس أنهم على حق بما يمتون إليه من أصولهم القديمة ، وبحرصهم على إعادة ذكرى ما كان لهم من ذلك قبل الإسلام . فقد ادعى السامانيون ، وهم من عنصر ترى ، أنهم من نسل الملك بهرام بن جوبين الفارسى ، وزعم البويهيون من الديلم أنهم من نسل الساسانيين ملوك فارس . وهكذا الحال فى إفريقية وفيها أنشأ الفاطميون مملكتهم بأيدى البربر ، كما أنشئت خلافة بغداد بأيدى الفرس .

كان الأمويون فى الأندلس عرضة للانحلال منذ القرن العاشر لأنهم كانوا على خطر من الممالك النصرانية من الشمال ، وانتقاض رعاياهم من الأسبان المهتدين أو النصارى ، لولا أن حال دون ذلك نبوغ عبد الرحمن الثالث

ولما لم يستطع الخلفاء أن يعتمدوا على مواطنيهم من العرب ، أو على رعاياهم من أهل البلاد ، حاولوا أن يقيموا سلطانهم بعناصر أخرى ، فأنشأوا لهم جنداً مهما يتفانى فى خدمتهم ، فوقع اعتمادهم على جند غريب وسلموا حامياتهم للعبيد وللمماليك ، فكان للعباسيين حامية تركية ، وللفاطميين حامية من البربر والزنوج والأتراك ، واتخذ الأمويون فى الأندلس الصقالبة والبربر والقشتاليين ، فغلط الخلفاء فى تقديرهم هذا ، لأن أدوات الحكم خرجت عنهم أو انقلبت عليهم ، وعملت المكايد فى هؤلاء الصعاليك ، وتقرب منهم أرباب الأحزاب ، وعصفت فيهم الأطماع ، وعبثت بهم الأهواء ، فما لبثوا أن دخلوا فى العراك ينصبون الخلفاء ويخفضونهم ، ويعسفونهم ويذلونهم ، ويوقعون بهم ويقتلونهم : إن مصير خلافة الأمويين فى قرطبة مصيرها فى العباسيين والفاطميين : انحلت بالفوضى العسكرية . اهـ .

وقال لبون : إن أول ما نشأ من فساد الأسلوب السياسى عند العرب تمزيق مملكتهم . فقد كان الخلفاء ينيبون عنهم نواباً فى الولايات يجمعون مثلهم بين السلطة الحربية والدينية والمدنية ، فلا يعتمون أن يحاولوا حكم البلد لحسابهم الخاص . ولما كان من المتعذر كبح جماحهم ، أصبح من الميسور عليهم أن يملكوا البلاد وكان من نجاح بعض الحكام فى التغلب على الولاية التى انتدبوا لإدارتها ، داع إلى حمل غيرهم على احتذاء مثالهم . وبلغت الحال أن أصبحت الولايات القاصية فى المملكة ممالك مستقلة . ونتجت من هذا التمزيق نتائج مضرة ونافعة ،.والضرر فى كون التقسيم يضعف السلطة العسكرية فى العرب ، والنفع فى كون هذه التجزئة تسهل ارتقاء المدنية ، وما كان لمصر ولا لإسبانيا أن تبلغا هذه الدرجة من النجاح الذى كتب لهما لو لم تنفصلا عن الحضرة . اهـ .

وفى الحق أن الأندلس ومصر ما كان يتم فيهما ما تم من الحضارة لو ظلتا مقطورتين مع الدولة العباسية إلى آخر أيامها . وكيف تبقيان لها والعباسيون بعد القرن الثالث عجزوا عن إدارة العراق دع القاصية ، وقد كانت الأندلس

حتى فى العهد الأموى الأول ميداناً للفوضى لبعدها عن مقر الخلافة . وكانت مصر فى هذا المعنى أحسن حالا لقربها من دار الملك فى الجملة . فمن سعادة الأندلس أن عاد أبناء الأمويين فحكموها ، ومن سعادة مصر أن تولاها ابن طولون عن العباسيين فاستقل بها ، ومن سعادة تونس أن تولاها الأغالبة زمناً . وكان هذا البعد الباعد بين الممالك الثلاث وبين دار الخلافة العباسية من العوامل الكبيرة فى استقلالها .

ويرى لبون أيضاً أن من جملة العوامل فى انحطاط دولة العرب اختلاف العناصر الخاضعة لهم ، وقد ظهر تأثير هذا العامل الأخير من طريقتين مختلفتين كلاهما ضار ، ونشأ من اختلاط عناصر مختلفة تمازج ثم تنافس بين شعوب متباينة كل التباين . وكان من جهة أخرى اختلاط كثير فى الدم لم يلبث أنه كان منه تغير دم الفاتحين . ولطالما كان هذا التمازج بين شعوب مختلفة فى مملكة واحدة من عوامل الانحلال الفعالة . ويعلمنا التاريخ أن من المتعذر استبقاء عناصر مختلفة فى يد واحدة إلا إذا روعى فى ذلك شرطان أساسيان : أحدهما أن تكون سلطة الفاتح قوية إلى الغاية بحيث يوقن كل إنسان أن كل مقاومة باطلة ، والثانى أن لا يختلط الغالب بالمغلوب ولا يفنى فيه . وهذا الشرط الثانى لم يحققه العرب بتاتاً وكذلك شأن الرومان . . . ومن المتعذر حياة شعوب منوعة الأصول بقانون واحد ، إذا تباينوا فى المصالح والأجناس ، وقد لا يتأتى إسلاس قيادهم إلا بضغط شديد . وما قامت العرب بمثل هذا الضغط مع شتى العناصر التى خضعت لهم ، لأن الشعوب المغلوبة قبلت الدين والأوضاع التى حملها العرب على غاية من السهولة وهكذا كان قانون القرآن ، وما أراد الفاتحون أن يناقضوه . فألف الغالبون والمغلوبون لأول الأمر شعباً واحداً ، كانت معتقداته وعواطفه ومصالحه مشتركة ، وما دام سلطان العرب من القوة بحيث يحترم فى كل مكان ، كان الاتفاق تاماً فى جميع أجزاء الدولة ولئن سكنت المنافسات بين هذه الشعوب المختلفة فما خمدت كل الخمود .

وبدت تظهر عادات الاختلاف المتأصلة فى العرب ، وعادة فكرة الأحزاب فى جميع البلاد الإسلامية فأخذت تتناحر وتتقاتل .

وقال أيضاً : قد ينبعث النجاح من الأخلاق والذكاء فى زمن ، ويكونان أداة للإخفاق فى زمن آخر . عرفنا كيف كان ميل العرب للحرب والشقاق بادئ بدء ، وكيف كان هذا الخلق من دواعى ارتقائهم فى عصر فتوحهم ، وقد أصبح مضراً لهم لما تم الفتح ، ولم يبق أمامهم عدو يكتسحونه . وعاد فتجلى طول اعتيادهم الانقسام ، وكان منه تمزيق ملكهم وانتهى بسقوطه . أضاعوا باختلافاتهم الداخلية إسبانيا وصقلية ، وكان من تنافسهم الدائم أن قوى النصارى على طردهم ، وقد يكون من أوضاعهم السياسية الاجتماعية عوامل فى نجاحهم السريع ، ودوافع إلى انحطاطهم المريع ، وما استطاع العرب أن يفتحوا العالم إلا يوم خضعوا لقانون مقرر ثقفوه من الدين الجديد الذى جاءهم به محمد . قال : وعرف المسلمون فى عصور الخلفاء الزاهرة فى بغداد وقرطبة أن يوفقوا بين الشريعة وحاجة الشعوب التى دانت بها . وصعب إدخال تعديل فى الأوضاع السياسية فى الإسلام . ومن أحكامه أن يكون على رأس المملكة ملك يجمع فى يديه جميع السلطات العسكرية والدينية والمدنية . وبهذا فقط تيسر قيام دولة عظمى . وربما كان من هذه الأوضاع عامل من عوامل خراب المملكة . فقد تكون الدول الملكية الكبرى التى تجمع عامة السلطات فى يد واحدة من التماسك بحيث لا تقاوم فى فتوحها ، وقل أن يكتب لها النجاح إلا إذا كان على رأسها أبداً رجال ممتازون ، فإذا خلت البلاد منهم يتداعى كل شىء فيها . اهـ .

السياسة فى الشرق والغرب

دول الشرق :

ما نزع نازع أيام الأمويين إلى دعوى الخلافة أو الملك إلا ضرب ضربة قاسية ردته أدراجه ، فكانت رقعة ممالكهم مصونة وتزيد اتساعاً على الزمن . وقلما قام قائم على العباسيين إلا وتم له ما أراد من اقتطاع جانب من الملك . وكانت دولة العباسيين أبداً سائرة إلا الاضمحلال منذ القرن الثالث .

وقد يحتال النازع إلى اقتطاع جزء من الملك العباسى ، لأخذ تولية من الخليفه بالبلاد التى طمع فيها ، وربما كتب له الخليفة من تلقاء نفسه عهداً يربطه به ربطاً صورياً ، قانعاً منه بهدية سنوية أو بأتاوة يجبى الخارج من كورة صغيرة من الكور التى استصفاها أكثر منها . وعلى هذا كان العباسيون أيام ضعفهم يرضون من المتغلب بالمحافظة على الظواهر ، ويعدونها طاعة لمن يبعث لهم هدية ويخطب باسمهم ويجبى الخراج لنفسه . وكان الاعتقاد السائد يومئذ أن الخارج على الخلافة إذا لم يبايعه الخليفة لا يجوز أن يطلق عليه لفظ سلطان « وقد[١] أفتى بعض الأئمة أن من أقام نفسه سلطاناً قهراً بالسيف من غير مبايعة من الخليفة يكون خارجياً ، ولا يجوز توليته النواب والقضاة ، وإن فعل شيئاً من ذلك كان جميع حكمه باطلا ، وعقد الأنكحة باطلا » . وكان العباسيون يحرصون بالطبع على هذه القاعدة لأن بها بقاء القليل من سلطانهم .

تعد حكومة عمان من أول الحكومات التى حاولت الانسلاخ عن العباسيين ، وكان أهلها من الخوارج فى القرن الثانى ولإمامهم[٢] وزراء ورأباب دولة ولهم

---

(١) زبدة كشف الممالك لظاهر . (٢) تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان للسالمى .

خليفة ، ثم دعوا أمراءهم بالملوك . ويقول البلاذرى[١] : إنه كان للخوارج سلطان فى عمان منذ عهد الرشيد ، وأن عامله عيسى بن جعفر حارب الشراة[٢] فقتلوه ، لما خرج إليها بأهل البصرة ، وجعلوا يفجرون بالنساء ويظهرون المعازف ويسلبون الناس ، فامتنع الخوارج على الخليفة فلم يعطوه طاعة دولتهم ، وولوا أمرهم رجلا منهم . وكانوا يسمون سلطان العباسيين الجور . وظلت عمان مستقلة بأهلها حتى فتحها المعتضد العباسى ، وأقام بها الخطبة له ، وانحاز الشراة إلى ناحية لهم تعرف بنزوة وكان فيها إمامهم وبقية مالهم وجماعتهم[٣] من ذاك العهد .

روى المقدسى[٤] أن ولايات بلاد العرب كانت فى القرن الرابع متقطعة . أما الحجاز فهو أبداً لصاحب مصر لأجل الميرة . واليمن لآل زياد ، ولابن طرف عثر ؛ وعلى صنعاء أمير ، غير أن ابن زياد يحمل إليه أموالا ليخطب له ، وربما أخرجت عدن من أيديهم ، وآل قحطان فى الجبال ، وهم أقدم ملوك اليمن ، والعلوية على صعدة يخطبون لآل زياد وهم أعدل الناس ، وعمان للديلم ، وهجر للقرامطة ، وعلى الأحقاف أمير منهم .

أول من استقل بملك مصر أحمد بن طولون وأولاده ، ساعده على استقلاله جيش كان جنده بأمر الخليفة لقتال أحد الخوارج بالشام ، فلما استؤصلت الفتنة وأمنت الغائلة ، لم يسرح الجيش ، فكان به استيلاؤه على مصر والشام وما وراءهما . وأطاع الناس ابن طولون لأنه كان أعدل من كثير من الخلفاء فى عهده ، يعمر بلاده ويتفقد رعاياه « وكان[٥] مع ذلك طائش السيف .

---

(١) فتوح البلدان للبلاذرى .

(٢) الشراه لقب من ألقاب الخوارج ويقال لهم الحرورية والمحكمة . قال الأشعرى : والسبب الذى سموا له الخوارج خروجهم على على بن أبى طالب ، والذى سموا له المحكمة إنكارهم الحكمين وقولهم « لا حكم إلا الله » والذى سموا له حرورية نزولهم بحروراء فى أول أمرهم ، والذى سموا له شراة قولهم شرينا أنفسنا فى طاعة الله أى بعناها بالجنة .

(٣) مسالك الممالك للإصطخرى والمسالك والممالك لابن حوقل .

(٤) أحسن التقاسيم للمقدسى . (٥) الدول المنقطعة للأزدى (مخطوط) »

قال القضاعي : يقال إنه أحصى من قتله ابن طولون صبراً أو مات فى حبسه، فكان عددهم ثمانية عشر ألفاً وخلف عشرة آلاف ألف دينار »،وعد استيلاء ابن طولون على الأمر فى مصر خروجاً على الخلافة العباسية ، وإن كان يخطب لها بادئ بدء ، ويبعث إليها ما تيسر من الخراج . ولم يتأت الخلاص من دولته إلا لما قوى العباسيون سنة ٢٩٢ ﻫ فقتلوا جميع آل طولون ، وخلفتهم الدولة الإخشيدية ، وهى كالدولة الطولونية ، دولة أعجمية ، ولم يطل أمرها كثيراً حتى حكم مصر عبد زنجى اسمه كافور ، إلى أن سقطت فى أيدى الفاطميين .

وكثرت الدول فى المشرق، وكلها خرجت عن طاعة الدولة العباسية بالفعل ، كدولة الحسين بن زيد العلوى بطبرستان (٢٤٠ ﻫ) . ومن الدول ما أبقى للعباسيين السكة والخطبة والطاعة الظاهرة كدولة بنى زياد فى اليمن ، وكان مؤسسها محمد بن زياد عاملا من عمال المأمون أرسله للقضاء على الأعراب فأطفأ ثائرتهم ، واستقرت قدمه وقدم أعقابه فى ذاك القطر إلى سنة ٤٠٧ ﻫ فالزياديون استولوا على اليمن أجمع ، ودخلت فى طاعتهم حضرموت والشجر وديار كندة ، وصار ابن زياد فى مرتبة التبابعة . وكان فى صنعاء بنو جعفر من حمير بقية الملوك التبابعة مستبدين بها ، مقيمين بالدعوة العباسية ، ولما بلغ عاملها أبا الجيش إسحاق بن إبراهيم قتل المتوكل وخلع المستعين ، واستبداد الموالى على الخلفاء ، ركب بالمظلة شأن سلاطين العرب المستبدين، وفى أيامه خرج فى اليمن يحيى بن الحسين بن القاسم الرسى إبراهيم بن طباطبا ، بدعوة الزيدية وقد جاء بها من السند ، وكان جده القاسم قد فر إليها بعد خروج أخيه محمد مع أبى السرايا فلحق القاسم بالسند وأعقب بها الحسين ؛ ثم ابنه يحيى باليمن سنة ٢٨٨ ﻫ ، ونزل صعدة،وكان شيعته يسمونه بالإمام . ولقب يحيى هذا بالهادى إلى الحق . والزيدية ما زالوا إلى اليوم أصحاب اليمن على كثرة ما تعاورها من الدول ، وكانوا إذا قوى أعداؤهم عليهم اعتصموا فى

معاقلهم وجبالهم ، فإذا نفس خناقهم امتدّ سلطانهم إلى السهول والساحل ، ويلقب سلطانهم بأمير المؤمنين وبالإمام .

ومن غريب ما وقع فى هذا القطر أن ملوك زبيد كانوا يخطبون للعباسيين والصليحيين يخطبون للعبديين إلى أواخر المائة الخامسة ؛ وبقى أمر اليمن فى تقلقل : الجبال لرجل والسهول لآخر ، وعدن لغيرهما ، حتى جاء عبد النبى ابن مهدى الخارجى من زبيد واستولى على اليمن ، وبها يومئذ خمس وعشرون دولة ، اكتسحها كلها . وأظهر الصيلحيون الدعوة العبيدية أو الفاطمية وملكوا اليمن كله ، ونزل الصليحى مؤسس دولتهم صنعاء وأسكن عنده ملوك اليمن الذين غلب عليهم ، وهزم بنى مطرف ملوك عثر وتهامة ، ثم استولى بنو أبى البركات على بنى المظفر . ودخل شمس الدولة تورانشاه بن أيوب أخو صلاح الدين سنة ٥٦٦ هـ . واستولى على الدولة التى كانت باليمن ونزل زبيد واتخذها كرسياً لمملكته ثم انتقل إلى تعز . وكانت عاصمة الصليحى حصن ذى جبلة منذ سنة ٤٥٨هـ . ونزلها وبقيت كرسياً لملكه وبنيه ومواليهم بنى رسول . وكان السبب فى فتح صلاح الدين اليمن أنه كان[1] « أهله خائفين من نور الدين فاتفق رأيهم على تحصيل مملكة غير مصر ، بحيث إن قصدهم نور الدين قاتلوه فإن هزمهم التجئوا إلى تلك المملكة » .

والدولة الرسولية هى دولة عمر بن على بن رسول وكان والده على بن رسول استادار الملك المسعود بن السلطان الملك الكامل ، استقر أولا نائباً لبنى أيوب فما إن هلك حتى استولى ابنه عمر على ما كان عليه أبوه ، ولقب بالملك المنصور ، ودام الملك فى بنيه مدة طويلة ، على اختلاف كان بين أهل هذا البيت على الملك . واليمن بطبيعة أرضها مستعدة لقيام الدول وإذا قامت فيها يدوم أمرها . فقد سمت للخلافة نفس أحمد بن الزبير الغسانى — المعروف بالرشيد[2] الأسوانى من أهل صعيد مصر ، وكان قاضى أيمن للفاطميين ويعدُّ من كبار العلماء — فأجابه قوم إليها ونقشت له السكة (٥٦٣هـ) ،

(١) تاريخ أبى الفداء .   (٢) طبقات النحويين للسيوطى .

وأعظم من هذا أن معز الدين بن سيف الإسلام طغتكين ملك اليمن (٥٩٤هـ) ادعى الألوهية نصف نهار ، ثم رجع عن ذلك وادعى الخلافة ودعا لنفسه وقطع الدعاء من الخطبة لبنى العباس ، وأكره من كان فى مملكته من أهل الذمة على الإسلام .

وكانت الحجاز تتقلب فى أيدى بيوت يدعون الشرف ويدينون بالطاعة لصاحب القوة من العباسين أو الفاطميين . ومنهم بنو[1] الحسن ومنهم محمد ابن سليمان خلع طاعة العباسيين وخطب لنفسه بالإمامة فى سنة إحدى وثلثمائة ، ثم اعترضه القرامطة فخطبوا لعبيد الله المهدى صاحب إفريقية وقلعوا الحجر الأسود وباب الكعبة وحملوها إلى الأحساء ، ثم صولحوا وأعيدت خطبة العباسيين ، ثم خطب لبنى بويه مع الخليفة العباسى ثم أعيدت الخطبة للفاطميين متقطعة . فكان الأمراء إذا قطعوا خطبتهم قطعوا عن الحرمين الميرة فيعودون إلى الخطبة باسمهم ، ثم خطب للسلجوقيين وتولى الإمارة الحجازية بنو قتادة وغيرهم ، والحالة لا تسر صديقاً فى أكثر الأدوار .

وقامت الدولة السامانية فى بخارى وما إليها من سنة ٢٦١هـ إلى سنة ٣٨٩هـ ، واشتهرت فى معظم أدوارها بالعدل وحسن السياسة ، ثم خلفتها دولة محمود بن سبكتكين فى خراسان وخوارزم من سنة ٣٦٦هـ ؛ إلى أن انقرضت سنة ٥٧٨هـ . واتخذت غزنة عاصمتها . وكانت من الدول التى لا بأس بسياستها تتصل مع العباسيين بالسكة والخطبة ، ويعترف خليفة بنى العباس بسلطانها . وكان فى المنصورة من بلاد السند فى القرن الرابع سلطان من قريش يخطب للعباسى ، والملتان قرب غزنة يخطبون للفاطمى . ولا يحلون ولا يعقدون إلا بأمره ، وأبدا رسلهم وهداياهم كانت تذهب إلى مصر . وكان الخليفة من الخوارج يسكن بناحية وردان مما يلى سجستان ومكران ، وهى[2] بلدهم ودارهم فى القرن الرابع . ومع أن أهلها من المنحرفين عن على بن أبى طالب ، ويظهرون

(١) صبح الأعشى للقلقشندى . (٢) معجم البلدان لياقوت .

مذهبهم ولا يتحاشون منه ويفتخرون به عند المعاملة ، وليس فى الدنيا سوقه أصح منهم معاملة ولا أقل منهم مخاتلة » ومع أن علياً لعن على منابر الشرق والغرب لم يلعن على منبرها إلا مرة واحدة ، ومن الغريب أنهم امتنعوا على بنى أمية حتى زادوا فى عهدهم وألا يلعن على منبرهم أحد .

ومن أهم الدول التى استولت على القسم المهم من بلاد الخلافة العباسية دولة بنى بويه من الديلم ، وكانوا شيعة أراد مؤسس دولتهم أن يتبسط فى نشر التشيع فى بغداد والولايات فخوفوه العاقبة فأحجم ، وقد امتد حكم البويهين من بلاد فارس إلى العراق من سنة ٣٢١ إلى ٤٤٨ هـ وكان فيهم رجال من أجل الملوك علما وسياسة . وجاء بعدهم السلجوقيون الأتراك وهم من أهل السنة ، فاستولوا بعد بنى بويه على خراسان وامتد حكمهم إلى العراق والشام من سنة ٤٣١ هـ ، وخطب لملكهم العظيم ملكشاه (٤٨٥هـ) من حدود الصين إلى آخر الشام . ومن أقاصى بلاد الإسلام فى الشمال إلى آخر بلاد اليمن » وخطب لسنجر بن ملكشاه بن ألب أرسلان بالعراقين وأذربيجان وأران وإرمينية والشام والموصل وديار بكر وربيعة والحرمين . ومؤسس هذه الدولة ألب أرسلان أسر أرمانيوس طاغية الروم (٤٦٣هـ) وكان فى مائتى ألف من الروم والفرنج والعرب المتنصرة والروس والكرج فى أرجاء خلاط بأرمينية ففدى نفسه بألف ألف وخمسمائة ألف دينار وأن يطلق كل أسير فى مملكته ، وهادنه ألب أرسلان خمسين سنة . وكان ملكشاه يأخذ إتاوة من ملك الروم فى القسطنطينية ، وامتد حكم بيته إلى أرض الروم أى آسيا الصغرى ، وكانت دولتهم عادلة تنفذ شرع الإسلام .

والسلجوقيون هم الذين تلقوا بصدورهم الصدمة الأولى للحروب الصليبية ، وكانت الشام والجزيرة وآسيا الصغرى موزعة بين أمراء منهم ، فأخذوا يطاولون الأعداء ويصاولونهم ، حتى فتح الأتابك زنكى بعض بلاد الشام . وكان من سياسته أن « يراسل فرنج الشام ويحذرهم ملك الروم ويعلمهم أنه

إن ملك بالشام حصناً واحداً ، أخذ البلاد التى بأيديهم منهم ، وكان يراسل ملك الروم ويتهددة ويوهمه أن الفرنج معه ، فاستشعر كل واحد من الفرنج والروم من صاحبه » .

وجاء ابنه محمود بن زنكى فجمع شمل البلاد الشامية والجزرية ثم ضم إليها مصر ، وكان الملوك(١) قبله جاهلية حتى جاءت دولته فوقف عند أوامر الشرع ونواهيه . وكانت سيرته أشرف سيرة ، وسياسته أنجع سياسة . ثم قامت دولة صلاح الدين يوسف بن أيوب تتولى من دفع عادية الصليبيين ما تولته الدولة النورية ودولة الترك السلجوقيين من قبل ، ثم دولة الترك المماليك من بعد . وقد بنت الدولة الصلاحية على أساس الدولة النورية وعملت برجالها .

كان من المعقول أن تعاون بلاد المسلمين كلها من أقصى آسيا إلى أقصى إفريقية لدفع صائل الصليبيين عن بلاد المسلمين ، لكن الأمراء والملوك لم يكونوا يهتمون بغير شهواتهم وراحتهم فى ملكهم . فقدر لهذه الدول الصغيرة برقعة ممالكها ، الكبيرة بعقول القائمين بسياستها ، أن تتولى سياسة الإسلام الخارجية ، وتقضى على خطط واسعة وضعها البابا فى رومية ، وقد جند جيوشاً جرارة من كل شعوب أوربا(٢) ، ما خلا الأسبانيين والبرتقاليين لشغلهم بحرب المسلمين فى الأندلس ، وما خلا الروس لأنهم ليسوا على مذهب البابا فلا سلطان له عليهم .

ولعل ملوك الإسلام لم يكونوا يومئذ يقدرون مدى مضار الحروب الصليبية على الإسلام إذا ظفر المهاجمون من الغربيين . ولقد كتب التبريز فى السياسة

(١) كتاب الروضتين لأبى شامة .

(٢) من كتاب القاضى الفاضل عن لسان صلاح الدين إلى ديوان الخليفة ببغداد وصف أجناس الصليبيين جاء فيه : « واجتمع فى هذه الجموع من الجيوش الغربية والأندلسية الأعجمية من لا يحصر معدوده ، ولا يتصور فى الدنيا وجوده ، فما أحقهم بقول أبى الطيب :

تجمع فيه كل لسن وأمة فما يفهم الحداث إلا التراجم

حتى إذا أسر الأسير ، واستأمن المستأمن ، احتيج فى فهم لغته إلى عدة تراجم ينقل واحد عن آخر ، ويقول ثان ما يقول أول ، وثالث ما يقول ثان » .

والحرب للدولة السلجوقية ، وفى مقدمتها دولة نور الدين ، ثم دولة بنى أيوب : صلاح الدين والعادل والكامل والظاهر والأشرف وأمثالهم . فقامت كل واحدة خير قيام بواجب دولة كبيرة على قلة النصير وضعف المادة .

وبطلت مدة قرنين كاملين غزوات المسلمين على الروم وبالعكس ، وانحصرت جهود مصر والشام والجزيرة وإرمينية وآسيا الصغرى فى معالجة مشكلة دولية كانت أعظم المشاكل الخارجية التى أصيب بها الإسلام ، منذ انبعث من جزيرة العرب . وكان ملوك الصليبيين يرهبون ملوك المسلمين ، ويدهشون لأعمالهم فى السلم والحرب . ذلك لأن الملوك القائمين برد العدو فى تلك الأمصار كان رأيهم فى الملك يخالف رأى الملوك الآخرين ممن لا شأن لهم إلا أن يقبعوا فى أرضهم فقط .

هذه جملة حال الممالك التى نبعت من أرض المملكة العباسية ، وبذلك تضاءلت خلافتهم فى القاصية والدانية ، فلم يبق أمام خلفائها إلا خلع الخلع على الملوك المحدثين ، واختراع الألقاب لهم يلقبونهم بها . لقبوا محمود بن سبكتكين الغزنوى بيمين الدولة وأمين الملة[1] ، ولقب المقتـــدى ملك المرابطين فى الغرب الأقصى بأمير المسلمين ، وأخذ نور الدين عمر مؤسس الدولة الرسولية فى اليمن لقب سلطان ، ومثله كان ملوك من دهلى ، وكانوا ينقشون على الدنانير أسماء العباسيين وظلوا ينقشونها بعد ثلاثين سنة من ملك المستعصم آخر خلفاء بنى العباس فى بغداد[2] .

كان عمل هذه الدول داخلياً محلياً ، وقل أن كانت تتصل بدول غير دول الإسلام ، اللهم إلا إذا استثنينا الدولة الحمدانية فى الشام والجزيرة ، وكانت تحتك بالروم على الدوام ، والدولتين النورية والصلاحية ومن بعدها وقبلها من الدولة التى خفق لها علم على أرجاء البلاد المتاخمة كالسلجوقيين ، فإن علاقات هذه الدول بالإفرنج كانت وافرة ، وكل دولة تقف موقف الخائف المترقب من جارتها .

---

(١) تاريخ العتبى . (٢) معلمة الإسلام : الخلافة .

كانت علائق الدول الإسلامية بالدول النصرانية موفقة إذا كان القائم بالأمر رجلا فى الجملة ، يعمل لملكه لا لشىء آخر من ضروب هواه . فقد رأينا نور الدين وصلاح الدين ومن جاء بعدهما يأسرون ملوكاً وأمراء من الصليبيين ويفتدونهم بأموال عظيمة يستعينون بها على الجهاد أو على أمر شريف آخر من أنواع القربات . أسر الملك الأوحد (٦٠٧ هـ) ابن أخى صلاح الدين ملك الكرج ففدى نفسه بمائة ألف دينار واشترط عليه أن يطلق أسرى المسلمين ، وأن يلزم الصلح ثلاثين سنة ، وأن يزوجه ابنته بشرط أن لا تفارق دينها .

قلنا إن الدولة الحمدانية كانت من جملة الدول التى تم لها احتكاك شديد بالروم — وكانت هذه الدول على صغرها بحيث لم تكن تملك غير القسم الشمالى من بلاد الشام والثغور الشامية والجزرية وديار بكر وديار مضر — من الدول التى يحسب الغريب حسابها ويدين رأسها سيف الدولة الشيعى (٣٥٦هـ) بالطاعة للعباسيين ، غزا الروم أربعين غزوة له وعليه ، وجاء الروم فى أيامه ففتحوا بلاداً من بلاده وخربوا عامرها ، وكان أخلافه أضعف منه نفساً فهادنوا الروم ، وأدوا إليهم الجزية مدة ، ومنهم من استنجد بهم وذل أمامهم ذلا ليس بعده ذل . ودام هذا التخبط حتى بيض السلجوقيون وجه الإسلام بأعمالهم الحربية ، وقد دامت دولة سيف الدولة أو الدولة الحمدانية سبعين سنة .

على هذا المنهج كانت تسير الدولة العباسية ، وهكذا حال الدول التى اقتطعت من الجسم العباسى ، والعباسيون راضون بهذا الذل ، حتى جاء هولاكو التترى واستولى على بغداد وقتل الخليفة ، فانقرضت الخلافة العباسية ، وأقامت الدنيا ثلاث سنين ونصف سنة بلا خليفة[1] . وفى سنة ٦٥٩هـ حضر إلى مصر أبو القاسم أحمد بن أمير المؤمنين الظاهر بالله العباسى وهو عم الخليفة وأخو المستنصر ، وكان معتقلا ثم أطلق ، فخرج الملك الظاهر بيبرس البندقدارى

(١) حسن المحاضرة للسيوطى وتاريخ مصر لابن إياس .

للقائه ، وخرج الوزراء والعلماء ، واليهود بتوراتهم والنصارى بإنجيلهم ، وأريد العباسى على إثبات نسبه فأثبته ، وبايعه الظاهر بيبرس وخطب له على المنابر ، وضرب اسمه على السكة ، وكتبت بيعته إلى الآفاق ، وبعد أيام ركب الخليفة والسلطان والقاضى والوزير والأمراء إلى خيمة عظيمة ، فألبس الخليفة السلطان بيده خلعة سوداء وعمامة سوداء ، وجعل له فى عنقه طوق من ذهب ، وقيد من ذهب فى رجليه ، وفوض الأمور إليه « فى البلاد الإسلامية وما سيفتحه من بلاد الكفر والبلاد الشامية والديار البكرية والحجازية واليمنية والفراتية وما يتجدد من الفتوحات » فأحيا بيبرس الخلافة العباسية بعد موتها . على أن لا يكون للخليفة عمل غير المراسم ، لا ينصب ولا يعزل ، ولا يعقد الصلح ولا يعلن الحرب : ولا يجبى مالا ، ولا يصرفه فى وجوهه ، ولا يعمل شيئاً يدل على سلطانه .

وكأن الظاهر بيبرس بإرجاعه الخلافة العباسية حاول أن يصلح ما ارتكبه من القضاء على آخر فرد من أبناء صلاح الدين ، وظلت الشام ومصر والحرمان بعد هذا العهد فى أيدى المماليك يتعاورون الحكم عليها ، زهاء قرنين ونصف قرن . وفى أيام محمد بن قلاوون امتد حكم المماليك من مصر والشام إلى إفريقية وخطب لهم فى تونس وطرابلس وبرقة ودام حكمهم حتى جاءت الدولة العثمانية فاستولت على الشام ومصر وبلاد العرب (٩٢٢ — ٩٢٣ هـ) .

ودولة المماليك البرجية والبحرية ، كالدولة الفاطمية قبلها ، كان فى ملوكها الصالح والطالح ، وربما كان الصالح فيها أكثر من أمثالهم فى دولة العبيديين الفاطمية . وقد عمرت البلاد فى أيامهم عمراناً يستغرب تحقيق مثله على خلل بيّن يطرأ عليها فى الفترات ، بتبدل الولاة ونشوب الفتن الأهلية من أجل الملك ، لكن نوابغ من ملوكهم كانوا يتولون الأمر أحياناً فيسدون كل خلل ، ويأخذون بأيدى أهل البلاد إلى الترقى ، ويلقون الهيبة فى صدور المجاورين من الشرقيين والغربيين من الإفرنج .

دول الغرب :

من أعظم ما فت فى عضد الخلافة العباسية قيام دولة الأمويين فى الأندلس ثم إعلانهم الخلافة . وكان عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان الأموى لما انتهى به المطاف إلى شمالى إفريقية ، وأعانه اليمانيون ففتح الأندلس وأنشأ بعد ذهاب ملك آبائه فى الشرق (١٣٩ هـ) ملكاً ضخماً جعل قرطبة عاصمته ، أقام دون السنة بعد فتح قرطبة[١] يدعو لأبى جعفر المنصور إلى أن أفرد نفسه بالدعاء ، ولم يتعد التلقب بالأمير. وكذلك سلك الأمراء من ولده سنته فى ذلك . وتسمى عبد الرحمن بن محمد الناصر بالخلافة بعد سبع وعشرين سنة من سلطانه بالخليفة ، ودعى بأمير المؤمنين ، وذلك لما استفحل أمره ، واستبان له ضعف ولد العباس ، وانتشار سلطانه بالمشرق وكتب إلى العمال كتاباً جاء فيه : « وقد رأينا أن تكون الدعوة لنا بأمير المؤمنين ، وخروج الكتب عنا وورودها علينا بذلك ، إذ كل مدعو بهذا الاسم غيرنا منتحل له ودخيل فيه ، ومتسم بما لا يستحق ، وعلمنا أن التمادى فى ترك الواجب لنا من ذلك حق أضعناه واسم ثابت أسقطناه » وعبد الرحمن الثالث هذا هو الذى لم يتردد لسلامة ملكه فى قتل ابنه عبد الله لاتهامه بمؤامرة على الملك .

ومما مكن لعبد الرحمن الناصر كونه وضع حداً للحروب[٢] الأهلية بين العرب والأسبان والبربر ، وأمن الحدود ، وجعل قوة من أسطوله استولى بها على شمالى إفريقية ، وعبد الرحمن الثانى هو الذى أقام أبهة الملك ورتب الرسوم ، وكان يشبه الوليد بن عبد الملك فى أبهته . قال ابن عذارى : وهو أول من جرى على سنن الخلفاء فى الزينة والشكل وترتيب الخدمة ، وكسا الخلافة أبهة الجلالة ، فشيد القصور وجلب إليها المياه وبنى الرصيف وعمل

---

(١) نفح الطيب للمقرى .

(٢) معلمة الإسلام : عبد الرحمن .

عليه السقائف ، وبنى المساجد الجوامع بالأندلس ، وعمل السقاية على الرصيف وأحدث الطراز ، واستنبط عملها ، واتخـذ السكة بقرطبة وفخم ملكه .

تعاقب على الأندلس منـذ فتحت أيام الأمويين عشرون والياً كانوا أمراءها وولاة الحرب فيها ، يلونها من قبل بنى أمية فى المشرق ، أو من قبل من يقيمونه بالقيروان أو بمصر . والفتن فيها قائمة لبعد الأندلس عن مقر الخلافة فى دمشق ، حتى إذا فتحها عبد الرحمن الداخل فتحاً ثانياً ، وصفت له ولأولاده من بعده ، ساقوا الإمارة ثم الإمامة أو الخلافة فى أبنائهم على الغالب وترسموا خطا أجدادهم فى المشرق حتى أن عبد الرحمن الأموى عهد بالإمارة إلى ابنه هشام لمـا كان يتوسم فيه من الشهامة والاضطلاع بالأمر ، وترك ابنه الأكبر سليمان . ومن ملوك الأمويين فى الأندلس من عرفوا بالسياسة والدهاء والتحلى بفضائل كبار الخلفاء من آبائهم فى القرن الأول وثلث الثانى .

وما انقرضت دولة الأمويين فى الأندلس[1] إلا لما تواترت الفتن الأهلية وعجزوا عن أن يأخذوا من أعنة جيوشهم المؤلفة من صعاليك مستأجرة . وقدم المنصور أبو عامر رجال البرابرة وزناته فى الأندلس ، وأخر رجال العرب وأسقطهم عن مراتبهم ، فتم له ما أراد من الاستقلال بالملك ، وسمى بالحاجب المنصور ، وأمر بالدعاء له على المنابر عقب الدعاء للخليفة ، ولم يبق لهشام المؤيد من رسوم الخلافة أكثر من الدعاء على المنابر ، وكتب اسمه فى السكة والطراز ، وأغفل ديوانه مما سوى ذلك . وكان العرب الذين نزلوا الأندلس لأول الفتح من قبائل شتى وفيهم اليمانية والقيسية وفيهم بنو كلاب ومحارب وهوازن وغطفان والأزد وعقيل وقشير والجرمش وغيرهم . ومنهم كانت جمهرة الجيش العربى هناك ، فأبدلوا بعد حين بصقالبة وبربر وغيرهم .

---

(١) معلمة الإسلام : الأمويون .

وفى أوائل المئة الخامسة انقرضت خلافة الأمويين فى الأندلس ، فتقاسم ملوك الطوائف الولايات ، وذهب ذاك الوقار الذى يتمتع به فى الأغلب من تسلسل فيهم الملك والإمارة كابرا عن كابر . وما انقطع من الملوك الخالفين مع هذا ظهور رجال تحنكوا بالسياسة وإدارة الملك . قال ابن سعيد مؤرخ الأندلس[1] : وكان الضابط فيما يقال فى شأن أهل الأندلس فى السلطان أنهم إذا وجدوا فارساً يبرع الفرسان ، أو جواداً يبرع الأجواد ، تهافتوا فى نصرته ونصبوه ملكاً من غير تدبر فى عاقبة الأمر . وبعد أن يكون الملك فى مملكته قد تووِرث وتدوولت ، يكون فى تلك المملكة قائد من قوادها ، قد شهرت عنه وقائع فى العدو ، أو ظهر منه كرم نفس للأجناد ومراعاة ، قدموه ملكاً فى حصن من الحصون ، ورفضوا عيالهم وأولادهم إن كان لهم ذلك ، بكرسى الملك ، ولم يزالوا فى جهاد وإتلاف نفس حتى يظفر صاحبهم بطلبه . قال : وأهل المشرق أصوب رأياً من الأندلسيين فى مراعاة نظام الملك ، والمحافظة على نصابه ، لئلا يدخل الخلل الذى يقضى باختلاف القواعد وفساد التربية وحل الأوضاع .

وذكر صاحب المعجب أن المستكفى بالله محمد بن عبد الرحمن من ملوك الطوائف « كان فى غاية السخف وركاكة العقل وسوء التدبير ، وزر له رجل حائك يعرف بأحمد بن خالد ، وكان هو المدبر لأمره والمدير لدولته فقل فى دولة يديرها حائك » . وتفرق أهل الأندلس فرقاً[2] وتغلب فى كل جهة متغلب للسبب الذى علل له ابن سعيد ، وتقسموا ألقاب الخلافة ، فنهم من تسمى بالمعتضد ، وبعضهم بالمأمون ، وآخر بالمستعين والمقتدر والمعتصم والمعتمد والموفق والمتوكل وفى ذلك يقول ابن رشيق :

مما يزهدنى فى أرض أندلس ألقاب مقتدر فيها ومعتضد
ألقاب مملكة فى غير موضعها كالهر يحكى انتفاخاً صولة الأسد

---

(١) نفح الطيب للمقرى . (٢) المعجب للمراكشى .

لما ولى على بن حمود الناصر بالأندلس تسمى بالخلافة (سنة ٤٠٨ هـ) وبويع لإدريس بن على بالخلافة فى مالقة (٤٣١ هـ) . ولما هلك لم يتسم ابنه بالخلافة ، ثم بويع للحسن بن يحيى بالخلافة ولقب بالمستنصر . وهكذا صار خليفة لمالقة وسبتة وطنجة . ثم حدث فى الأندلس من دعوى الملك شىء لا يكاد يسبق له نظير ، وهو أن رجلا من العامة ، لا عصبية له ولا سابقة ، ادعى أنه من نسل بنى أمية بعد انقراض دولتهم فى الأندلس ، وخطب له على المنابر عشرين سنة ، وهو كاذب فى دعواه . قال ابن حزم[1] : أخلوقة لم يقع فى الدهر مثلها ، فإنه ظهر رجل يقال له خلف الحصرى ، بعد عشرين سنة من موت هشام بن عبد الملك المنعوت بالمؤيد ، وادعى أنه هشام فبويع وخطب له على جميع منابر الأندلس فى أوقات شتى ، وسفك الدماء ، وتصادمت الجيوش فى أمره ، وأقام المدعى أنه هشام نيفا وعشرين سنة ، والقاضى محمد بن إسماعيل فى رتبة الوزير بين يديه والأمر إليه ، ولم يزل الأمر كذلك إلى أن توفى المدعو هشاماً ، فاستبد القاضى محمد بالأمر بعده . وكان من أهل العلم والأدب والمعرفة التامة بتدبير الدول ، ولم يزل ملكاً مستقلا إلى أن توفى سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة . اهـ .

ذاك ما تم فى الأندلس من تغلب خلف الحصرى وقاضيه ، تمَّ لهما الملك بالغلبة وبعصبية ملفقة ، وليس الملك كما قال ابن خلدون[2] لكل عصبية ، وإنما الملك على التحقيق لمن يستعبد الرعية ويجبى الأموال ، ويبعث البعوث ، ويحمى الثغور ، ولا تكون فوق يده يد قاهرة ، ومن قصرت به عصبيته عن بعضها مثل حماية الثغور ، أو جباية الأموال ، أو بعث البعوث ، فهو ملك ناقص لم تتم حقيقته ، كما وقع لكثير من ملوك البربر فى دولة الأغالبة فى القيروان ، ولملوك العجم صدر الدولة العباسية . ومن قصرت عصبيته أيضاً عن الاستعلاء على جميع العصبيات ، والضرب على سائر الأيدى ، وكان

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان . (٢) مقدمة ابن خلدون .

فوقه حكم غيره ، فهو أيضاً ملك ناقص لم تتم حقيقته . وهؤلاء مثل أمراء النواحي ورؤساء الجهات الذين تجمعهم دولة واحدة ، وكثيراً ما يوجد هذه فى الدولة المتسعة النطاق مثل صنهاجة مع العبيديين ، وزناتة مع الأمويين تارة ، والعبيديين أخرى ، ومثل ملوك العجم فى دولة بنى العباس .

وقول ابن خلدون لا يكاد يتخلف ، ومسألة خلف الحصرى وقاضيه من الشواذ ، وكان هذا من هزل الدهر فى الأندلس ، أيام كان أهل كل إقليم يحاولون أن تكون لهم الغلبة بقاض لهم آثروه ، أو قائد أحبوه ؛ أو دعى عاونوه ولقد قال ابن حزم : فضيحة لم يقع فى الدهر مثلها : أربعة رجال فى مسافة ثلاثة أيام فى مثلها ، يسمى كل واحد منها بأمير المؤمنين ، ويخطب لهم فى زمن واحد : أحدهم فى إشبيلية ، والثانى بالجزيرة الخضراء ، والثالث بمالقة ، والرابع بسبتة . حتى إذا ضاقت الأرض بما رحبت على الأندلسيين ؛ جاءهم من بر العدوة يوسف بن تاشفين اللمتونى ملك المرابطين ، فكان أول من دعا للخلافة العباسية على منابر الأندلس والمغرب ، وتسمى بأمير المسلمين تأدباً مع الخليفة ، وانتهى ملكه إلى مدينة أفراغه من ناحية شرق الأندلس ، وإلى مدينة أشبونة على البحر المحيط من الغرب ، وملك بعدوة المغرب من جزائر بنى مزغنان إلى طنجة إلى آخر السوس الأقصى إلى جبال الذهب من بلاد السودان .

واختل ملك بنى تاشفين بعد الخمسمائة لإهمال السلطان ، واشتغاله بالعبادة[1] ، ولاستيلاء النساء على الأمور « فصارت كل امرأة من أكابر لمتونة ونفوسة مشتملة على كل مفسد وشرير ، وقاطع سبيل ، وصاحب خمر وماخور » وانقطعت الدعوة للعباسيين من منابر الأندلس والمغرب بقيام ابن تومرت مع المصامدة فى بلاد السوس . وفتح الموحدون بقيادة ملكهم عبد المؤمن بن على الكومى البربرى إفريقية سنة ٥٢٨ هـ . ثم فتحوا الأندلس ، وهو أول من تسمى فى المغرب بأمير المؤمنين بعد عصر الأمويين . ونادى

(١) المعجب للمراكشى .

« فى البلاد[١] التى ملكها بإخراج النصارى منها ، وشرط لمن أسلم منهم بموضعه على أسباب ارتزاقه ما للمسلمين وعليه ما عليهم ، ومن بقى على رأى أهل ملته ، فإما أن يخرج قبل الأجل الذى أجله ، وإما أن يكون بعد الأجل فى حكم السلطان ، مستهلك النفس والمال » .

ومؤسس دولة الموحدين هو ابن تومرت ، سمى نفسه المهدى وادّعى أنه هو المهدى المنتظر وكثر أتباعه ، ورأى من بعض جموعه قوماً خافهم ، فادّعى أن الله أعطاه نوراً يعرف به أهل الجنة من أهل النار . وجمع الناس إلى رأس جبل ، وجعل يقول لكل من يخافه : هذا من أهل النار فيلقى من رأس الشاهق ميتاً ، وكل من لا يخافه من أهل الجنة ، ويجعله عن يمينه ، حتى قتل خلقاً كثيراً ، واستقام أمره وأمن على نفسه . وقيل إن عدة الذين قتلهم سبعون ألفاً . وسمى عامة أصحابه الداخلين فى طاعته « الموحدين » ، ودامت هذه الدولة ثمانين سنة (٤٦٢ — ٥٤٢ هـ) . وكان ملوك الموحدين كملوك المرابطين يخاطبون بأمير المؤمنين ويحرصون على هذه التسمية ، حتى أن صلاح الدين يوسف صاحب مصر والشام لما أرسل إلى أبى يعقوب المنصور سلطان المغرب لعهده من[٢] الموحدين وخاطبه بسيدنا ، نقم عليه المنصور لتجافيه عن خطابه بأمير المؤمنين ، وأسرها فى نفسه ولم يجبه إلى حاجته . وكانت حاجته طلب مدد أساطيله لتتجول فى البحر بين أساطيل الافرنج ، وتحول دون مرامهم بإمداد جيوش النصرانية فى ثغور الشام .

دامت دولة الموحدين فى الأندلس إلى أن قام بنو الأحمر واستولوا على غرناطة ، وبالقضاء على دولتهم انقضى ملك المسلمين من تلك الديار ، أواخر القرن التاسع من الهجرة . وأول من استولى من بنى الأحمر أو ملوك بنى نصر أمير المسلمين أبو عبد الله محمد بن يوسف الخزرجى الأنصارى[٣] . تظاهر

(١) طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة . (٢) مقدمة ابن خلدون .

(٣) اللمحة البدرية فى الدولة النصرية لابن الخطيب .

لأول أمره بطاعة الملوك بالعُدوة وإفريقية فخطب لهم زمناً يسيراً ، ودعا للمستنصر العباسي ببغداد ، حاذياً حذو سميه ابن هود ، للهج العامة في وقته بتقلد تلك الدعوة إلى أن نزع عن ذلك كله .

وكان في تلمسان وإفريقية وفاس ملوك مختلفون في تلك الحقبة . واعتاد المغرب منذ القرن الثاني أن يخلع الطاعة فيه للخلافة العباسية ، قائد من القواد ويؤسس ملكاً ، وأول ما كان من ذلك دولة الخوارج الأباضية في أيام المنصور العباسي ، وتغلبها على مملكة إفريقية . وكان يسلم بالخلافة على ميمون بن عبد الرحمن بن رسم من فرس العراق[1] ورأس الصفرية والواصلية . وتعاقبت مملكة تاهرت بنو ميمون وإخوته ثم بعث إليهم عبد الله بن ابراهيم بن الأغلب صاحب إفريقية أخاه الأغلب فقتل من الرستمية عدداً كثيراً ، وملك بنو رستم تاهرت مائة وثلاثين سنة ، ودامت دولتهم إلى سنة ٢٠٢ هـ . وامتدت دولة إدريس بن عبد الله من السوس الأقصى إلى تلمسان ، وكان من جملة قواعد مملكته فاس ، وانقرضت سنة ٣٠٧ هـ . وكانت قامت سنة ١٧٢ هـ .

وفي النصف الأول من القرن الثالث عند ما كانت تاهرت وما إليها في أيدي ميمون الرستمي[2] كان وادي الرمل ووادي الزيتون وقصر الأسود ابن الهيثم إلى طرابلس وما وراء ذلك في يد ابن صغير البربري المصمودي ، وكانت إيزرج مما يلي تاهرت في يدي إبراهيم بن محمد البربري المعتزلي ، وطنجة وفاس في أيدي ولد إدريس بن إدريس بن إدريس ، ولا يسلم عليه بالخلافة . وإنما يقال : « السلام عليك يا ابن رسول الله » وكان يسلم على الأموي صاحب الأندلس « السلام عليك يا ابن الخلائف » وذلك أنهم لا يرون اسم الخلافة إلا لمن ملك الحرمين .

---

(١) معجم البلدان لياقوت . ويقول ابن خرداذبة إنه ميمون بن عبد الوهاب بن عبد الواحد بن رستم .

(٢) المسالك والممالك لابن خرداذبة .

وكان بنو الأغلب عمالا للعباسيين فى إفريقية فمنحهم الرشيد شبه استقلال فى داخليتهم ، فأنشأوا لهم دولة فى تلك الأصقاع زالت بغلطة سياسية ارتكبها إبراهيم الثانى من بنى الأغلب ، ذلك لإبعاده كثيراً من الجيوش العربية الداخلة فى إفريقية عند افتتاحها ومعظمهم [1] من قيس وتميم وفهر وجرير فتطاولت رقاب كتامة من البربر فسقطت الدولة العربية . ودامت دولة الأغالبة مائة واثنتى عشرة سنة كما دامت دولة بنى مدرار فى سلجماسة مائتين وستين سنة .

وأعاد إدريس من ولد محمد بن القاسم الإمامة إلى بيته ، بعد أن كانت فيه مدة ثم تراجعت وذلك بعد الأربعين وثلثمائة . وقامت عدة دول فى شمالى إفريقية لم يطل أمرها كثيراً كما قام فى الأندلس ، مثل دولة بنى عبد الواد ويعرفون ببنى زياد ، قامت بالمغرب الأوسط أى فى بلاد الجزائر أو جزائر بنى مزغنان ، وذلك عند ضعف دولة الموحدين ، وجعلوا قاعدتها تلمسان ودامت من سنة ٦٣٣ إلى ٩٢٣هـ . ومثل دولة بنى مرين فى المغرب الأقصى من سنة ٦١٣ — ٨٢٣هـ . وهم من البربر كزناته وبنى عبد الواد وقد تلقب ملوكهم بأمير المؤمنين ، وخلفتهم الدولة الوطاسية فى المغرب . ولما ذاع صيت المستنصر[1] أحد أمراء الحفصيين بنى أبى حفص فى الآفاق أرسل إليه أمير مكة وأهل الأندلس بيعتهم بالخلافة سنة ٦٥٧هـ . ولقب من يومئذ بأمير المؤمنين . وكان ملك الحفصيين فى تونس يدعى الخلافة ويلقب بألقاب الخلفاء ، ويخاطب بأمير المؤمنين . والحفصيون نسبة إلى أبى حفص أحد العشرة أصحاب ابن تومرت ، وهم بقايا الموحدين .

وأهم الدول التى ظهرت فى المغرب وانتشر سلطانها فى المشرق وأغصت الدولة العباسية بريقها الدولة الفاطمية . وقد هيأ لها العباسيون دعاية ممتدة النطاق للطعن فى نسب مؤسسها ، ومن المؤرخين كابن خلدون والمقريزى من

تاريخ تونس لحسن حسنى عبد الوهاب .

صححه ، ومنهم وهم الأكثر من زيفوه . والغالب أن أصل ملوكهم من شيعة الإسماعيلية فى سَلَمْيَة فى الشام هبوا لتأسيس ملك ، فما زالوا يتنقلون فى ربوع إفريقية حتى قام أبو عبيد الله المهدى سنة ٢٩٧هـ . وتسمى بأمير المؤمنين وقتل أبا عبد الله الشيعى داعية ملكه ، على نحو ما فعل المنصور العباسى فقتل أبا مسلم الخراسانى مؤسس دولته .

وسميت هذه الدولة بالفاطمية نسبة لفاطمة بنت الرسول ، ومن المؤرخين من يطلق عليها اسم العبيديين نسبة لأبى عبيد الله مؤسسها . وادعت الخلافة ، ولقب ملوكها بأمراء المؤمنين واستولوا على القسم الأعظم من شمالى إفريقية . وبنى عبيد الله أول ملوكهم فى إفريقية « القصور ورتب السياسة وأحكم التدبير » وأمر أن يدعى له فى المنابر وخطب الأعياد بمرسوم ، يقال فيه بعد الصلاة على النبى وعلى أمير المؤمنين على وفاطمة الزهراء والحسن والحسين وعلى الأئمة من أولادهم : « اللهم صل على عبدك ووليك وخليفتك القائم بأمر عبادك فى بلادك أبى محمد عبيد الله الإمام المهدى بالله أمير المؤمنين ، كما صليت على آبائه خلفائك الراشدين المهديين ؛ الذين قضوا بالحق وكانوا به يعدلون ، اللهم وكما اصطفيته لولايتك واخترته لخلافتك ، وجعلته لدينك عصمة وعماداً ، ولبريتك موئلا وملاذاً ، فانصره على أعدائه المارقين ، وافتح له مشارق الأرض ومغاربها كما وعدته ، وأيده على العصاة الضالين ، إنك أنت الحق المبين » . وكانت أوامر المعز « تنفذ من أقصى الشام والحجاز إلى السوس الأقصى » . ويقول ابن الخطيب[1] إن المعز لدين الله[2] كان أعظم ملوكهم خطراً ، وكان بعيد الصيت ؛ عظيم الجبروت ، وقوراً كثير التأنى ، ذهب بنفسه كل مذهب ، حتى زعموا أنه أمر المؤذن أن يقول : أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن معداً رسول الله . وأن مما يشهد لذلك قول شاعره أبى القاسم محمد بن هانئ الأندلسى فى القصيدة الشهيرة التى أولها :

أتظن راحاً فى الشمال شمولا   أتظنها سكرى تجر ذيولا

---

(١) أعمال الأعلام لسان الدين بن الخطيب . (٢) يقول ابن حزم فى طوق الحمامة إن منصور بن نزار الذى ولى الملك بعد أبيه نزار بن معد صاحب مصر ادعى الألوهية .

ويقول من أبيات غير متوالية :

أمديرها من حيث دار لطالما زاحمت تحت لوائه جبريلا
أورثته البرهان والتبيان والـ فرقان والتوراة والإنجيلا
وعلمت من مكنون علم الله ما لم يؤت فى الملكوت ميكائيلا
لو كنت آونة مبشر أمة(١) نشرت لمبعثك القرون الأولى
لو كنت نوحاً منذراً فى قومه ما زادهم بدعائه تضليلا
لله فيك خفية لو اعلمت أحيا بذكرك قاتل مقتـــولا
لو كان آتى الخلق ما أوتيته لم يخلق التشـــبيه والتمثيلا
والكتب لولا أنها لك شهد ما فصلت آياتهـــا تفصيلا
لولا حجاب دون علمك حاجز وجدوا إلى علم الغيوب سبيلا
لو لم تعرفنا بذات نفوســـنا كانت لدينا عالمـــاً مجهولا

وإذا أحسنا الظن بالمعز — وهو فى قوم أكثرهم على خلاف مذهبه يضمرون له ولدولته السوء — نقول إن هذه مبالغة شاعر كان الأولى بالملك الفاطمى ألا يقره عليها ، لأن إشاعتها مما يضر بسياسته . وإذا أسأنا الظن نقول إنه أوعز بعمل هذه الأبيات أو كان على الأقل لا يرضيه غير هذا اللسان ، وهذا الإغراق فى مدحه . والمعز هو الذى صحت عزيمته على فتح مصر بعد أن غزتها جيوش دولته غير مرة ، وكان فتحها على يد مولاه القائد جوهر الصقلى الذى قطع خطبة بنى العباس عن منابر الديار المصرية ، ونزع اسمهم من السكة ، وعوض عن ذلك باسم مولاه ، وأزال الشعار الأسود وألبس الخطباء الثياب البيض ، وأمر بالزيادة عقيب الخطبة « اللهم صل على محمد المصطفى ، وعلى على المرتضى ، وعلى فاطمة البتول ، وعلى الحسن والحسين سبطى الرسول الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً وصل على الأئمة الطاهرين آباء المؤمنين » وأذن بحىّ على خير العمل ، صيغة الأذان الشيعى .

(١) فى ديوانه بدل « مبشر أمة » نبياً مرسلا .

ولما دخل المعز إلى مصر أمر بأن ينقش على الجدران فى مصر القديمة « خير الناس بعد رسول الله أمير المؤمنين على بن أبى طالب[١] » .

قيل إن الجيش الفاطمى لما دخل مصر كان مائة ألف ، وقيل مئة وأربعين ألف مقاتل ، معه ألف وخمسمائة جمل تحمل الذهب فقط ، ذكروا أنه كان ثلاثة وعشرين ألف ألف دينار ، وهو مبلغ عظيم يدل على اشتطاط الفاطميين فى سلب من حكموهم من الأفارقة مدة ليفتحوا بما جبوا مصر ويمتدوا منها إلى الحرمين ، ثم يضعون أيديهم على الملك العباسى . واستكثر الفاطميون من العساكر بمصر فكانوا بين كتامة وبربر ومغاربة وروم وصقالبة عدداً عظيما ، قل لدولة أن جمعت مثله و « تمتاز الدولة العبيدية على من تقدمها فى الأمر بكونها تأسست بدعوة الدين والقائمين بنصرتها هم البربر من قبائل إفريقية » وأقبل العبيديون فى آخر أمرهم على شراء المماليك لاتخاذهم عبيداً وحراساً وبطانة ، وأصبح جيشهم مؤلفاً من العبيد السود والأمراء المصريين والعربان والأرمن وغيرهم ، وكثر النصارى واليهود فى خدمة الفاطميين على صورة مستغربة ، ثم اضطهد النصارى على عهد الحاكم بأمر الله وخربت كنائسهم ، ثم أعيدت إلى ما كانت . وأبقى الفاطميون أهل السنة فى أعمالهم فى البلاد المصرية والشامية والحجازية ، ثم راحوا يستعيضون عنهم ولاسيما عن كبرائهم بأناس من أهل عصبيتهم الإسماعيلية . فضجت البلاد من مظالمهم ، ومن فرضهم مذهبهم على أهل السنة فرضاً . ومن العمال من تظاهروا بالتشيع لتسلم لهم مناصبهم ، ومنهم من أبوا فنحوا عن أعمالهم .

مهد الفاطميون لخلافتهم بالبذل الكثير للشعراء وأرباب الدعاية وأكثروا من الألقاب الغريبة ، يعطونها لمن يرجون الخير منه لسلطانهم . وكان الوزراء فى بعض أدوار هذه الدولة[٢] يلقبون كألقاب الخلفاء فيهم ، وكان ابن مماتى

---

(١) اتعاظ الحنفا للمقريزى .

(٢) تاريخ مصر لابن إياس .

فى الأدوار الأخيرة كالمستولى[١] على الديار المصرية ليس على يده يد ، والمسمون بالخلافة من الفواطم محجوبون ليس لهم غير السكة والخطبة . ومن أظهر الظواهر السياسية فى مؤخرات أيام الفاطميين أنهم كانوا يواترون نقل العمال والولاة والوزراء . مخافة أن يتأصل شأنهم فى البلاد ، وكانوا إذا جاء فيهم مثل المعز على جانب من الثقافة العالية لا تأخذه رحمة بمن يلاحظ أنهم يخالفوه فى رأيه . فقد حرق كثيراً من أعيان مصر وأدبائها[٢] بالنار — إذا جاء فيهم مثل هذا فقد كان فيهم أضعف الضعاف الفاسدين .

ولقد بالغ بعضهم فى عمل الفاطميين ، وتابعهم من يأخذون الأمور على ظواهرها ، ولو أنصفوا التاريخ لما تحرجوا من التصريح بأن ظلم الفاطميين فى شمالى إفريقية أخرجها من أيديهم على أقل سبب ، واشتداد عمالهم فى إيذاء الناس فى صقلية منع من امتداد سلطان المسلمين فى جنوبى أوربا ، حتى قال أحد المفكرين فى هذا العصر[٣] إنه لم يجن على الإسلام ما جناه هؤلاء العبيديون الفاطميون ، ومما ذكر من مساويهم أنه فى عهد أبى عبيد المهدى نصب على ولاية أوربا أى صقلية خليل بن اسحق الطاغية ، فقضى فى الحكم أربعة أعوام ، ارتكب فيها من الجور والفساد ما لم يسمع بمثله ، ومن ظلمه أخذ المسلمون يفرون أفواجاً إلى البلاد النصرانية ويتنصرون . ولما عاد سنة ٣٢٩هـ إلى إفريقية كان يفتخر بمظالمه ، وحضر مجلساً فيه وجوه الدولة العبيدية فى قصر الإمارة ، فقال إنه قتل فى إمارته ألف ألف نسمة . فرد عليه أبو عبد الله المؤدب ، وكان من عقلاء الرجال فى الدولة الشيعية : « لك يا أبا العباس فى قتل نفس واحدة ما يكفيك » .

وخطب للفاطميين فى الحرمين (٣٦٢هـ) . وفى سنة ٣٩٦ خطب بالحرمين للحاكم بأمر الله ، وأمر الناس عند ذكره بالقيام وأن يسجدوا له . وكان الرسم أن يلقى الناس الخليفة الفاطمى بتقبيل الأرض ، عادة لهم أخذوها من

(١) معجم البلدان لياقوت . (٢) تاريخ جوهر الصقلى لعلى إبراهيم حسن .
(١) بحث لعبد العزيز الثعالبى فى كتاب تاريخ غزوات العرب لأرسلان .

الفرس والإسلام لا يقرها ، وخطب أمير بنى عقيل للحاكم الفاطمى بأعماله كلها وهى الموصل والأنبار والمدائن والكوفة (٤٠١ هـ) وغيرها ، وكان ابتداء الخطبة بالموصل « الحمد لله الذى انجلت بنوره غمرات الغضب ، وانهدمت بعظمته أركان النصب » . وخطب البساسيرى (٤٥٠ هـ) بجامع المنصور ببغداد للمستنصر بالله العلوى خليفة مصر ، وأمر المؤذن فأذن بحىّ على خير العمل ، ودامت الخطبة له سنة .

امتد ملك الفاطميين منذ قاموا بسجلماسة سنة ٢٩٦ هـ إلى أن توفى العاضد سنة ٥٦٧ هـ مائتين وثنتين وسبعين سنة وظلت المنابر تخطب بأسماء خلفائهم فى إفريقية إلى سنة ٤٢٥ هـ . وفيها نبذت دعوتهم عقبى ثورة الإفريقيين على الشيعة فى شمالى إفريقية ، وخطب لبنى العباس فيها منذ سـنة ٤٣٩ هـ ، واعترف خليفة بغداد بالاستقلال للمعز الذى خلف دولة الفاطميين بإفريقية . وفى أيام الفاطميين قتل الدوقس عظيم الروم على حصن فامية من بلاد الشام (٣٣٢هـ) . وقتل من عسكره ألوف وأسر منهم خلق كثير . وكان يعقوب بن كلس أحد كبار وزرائهم أوصى خليفته المعز عند وفاته بأن يسالم الروم ماسالموه ، وأن يقنع من الحمدانية بالدعوة والسكة ، وأن لا يبقى على مفرج بن دغفل ابن جراح إن عرضت له فيه فرصة[١] . وكان المعز نصح لنائبه يوسف بن زيرى لما أزمع الرحيل إلى الشرق ، بعد أن فتحت مصر باسمه فقال : إن نسيت شيئاً مما أوصيتك به ، فلا تنس ثلاثة أشياء : لاترفع الجباية عن أهل البادية ، ولا ترفع السيف عن البربر ، ولا تول أحداً من أهل بيتك ، فإنهم يرون أنهم أحق بهذا الأمر منك ، واستوص بالحضر خيراً . وكانت أبداً سياسة الفاطميين مع غير الدول الإسلامية لينة . ويقال إن من رجالهم المتأخرين من فاوضوا الصليبيين ليسلموا لهم ملكهم الذى كان فى بعض الأدوار بأيدى النساء والمتغلبين من الرؤساء . وكان يؤتى ببعضهم وهم أطفال يجلسون على سرير الملك . وفى سيرة بعضهم من القبح ما لو قسم على عدة ملوك لكان

(١) وفيات الأعيان لابن خلكان .

فظيعاً ، وإن مجد فيهم عمارة اليمنى بشعره لكثرة ما أغدقوا[١] عليه من الأموال والعطايا . قال ابن ظافر جامع أخبار الدولة العلوية بإفريقية ومصر والشام : إن هذه الدولة عظم خطب الاختلاف فى أحوال أربابها ، وقويت الشناعة بإبطال ما ادعته من انتمائها إلى العترة النبوية . قال وهم أصل القرامطة الذين كان هلاك الدين على أيديهم ، وظهر خروجهم على أهل ملة الإسلام وتعدّيهم. كلام فيه حق وغيره .

* * *

لم تخل الأندلس وشمالى إفريقية أو الغرب الأقصى والأوسط والأدنى ، ومصر واليمن وما إليهما ، من ثائر على الخلافة العباسية أو من أمير سموه خليفة ، أو من خلفاء لهم بالفعل ، كانوا على جانب من القوة واستجماع أدوات الملك أمثال الأمويين فى الأندلس ، والفاطميين فى إفريقية ثم فى مصر ، وأمثال رجال دول المرابطين والموحدين والأداسة وبنى مرين والحفصيين . وجاء فى بعض العصور عدة خلفاء فى الأرض ، ومنها خلافة سنية ، وأخرى شيعية ، وثالثة خارجية ، ورابعة زيدية ، والقوة فى مجموعها كانت للخوالف من أهل السنة .

كانت دول العرب الأولى إلى أواسط المئة الثامنة على صورتها الاستبدادية تجمع شمل الأمة فى الجملة ، والخير يأتيها متقطعاً على أيدى الملوك العادلين وإن لم تكن صفات العدل الحزم والعلم كل حين على مقياس واحد فى كل فرد تولى الخلافة أو الملك . والنوابغ قليل عددهم فى كل صناعة ، فكيف بأصعب الصناعات صناعة الملك . وكان الصالح فى القرون الأولى أكثر من الطالح فى الملوك والزعماء ، وفى القرن الرابع كثر عدد من لا يصلح للملك ولا لإدارة البلاد ، وقوى الدخلاء فاستأثروا بالحكم ، وبقى القول الفصل لهم فى الحياة العامة ، ولا حول ولا طول للخلفاء من العرب .

---

(١) النكت العصرية لعمارة اليمنى .

هذا وعمر الخليفة أو الملك قصير وندر أن يعمل بسيرته من يخلفه ، حتى ابنه الذى رباه وأورثه ملكه ، وقلما يكمل الخلف ما بدأ به السلف من عمل ، أوجرى عليه من سياسة وتدبير . وفى النادر أن يحافظ الثانى على أوضاع الأول إلا فيما لا غنية عنه ، وربما نفع من طالت أيامهم من الملوك على استبداد فيهم ، لاســتقرار الأمر فى حياتهم ، أكثر من ملوك استوفوا شروط الحكم ، وما امتد أجل أحكامهم غير أعوام قليلة .

لو علت سن عمر بن عبد العزيز لدخلت خلافة الأمويين ، بل الإسلام والمسلمون ، فى طور جديد من كل وجه ، ولو طال عمر المأمون لم يعلم أحد ما كان يكون من حكمته وحنكته فى دولة بنى العباس ، وما أعاد القادر بالله (٤٢٢ هـ) جلة الخلافة العباسية وجدد ناموسها ، وكان قد طمع فيها الديلم والترك ، إلا لأن خلافته أربت على إحدى وأربعين سنة ، وما أصبح الخليفة الناصر العباسى مرهوب الجانب فى الهند ومصر والشام والعراق وخطب له بلاد الأندلس وبلاد الصين ، ودانت له السلاطين ، إلا أنه طالت أيامه سبعاً وأربعين سنة (٦٢٢ هـ) . وهكذا يقال فى الناصر الأموى الذى كانت خلافته فى الأندلس خمسين سنة (٣٠٠ — ٣٥٠ هـ) . وقل مثل هذا فى المستنصر العبيدى من الفاطميين ، وسنجر بن ملكشاه من السلجوقيين ، وقلاوون وابنه محمد من المماليك[1] .

قد ينطوى الخليفة أو الملك الذى تدوم خلافته على عيوب تحتمل فى جانب الاستقرار الذى تنتفع به الأمة ، ومن النادر أن تطول أيام الملك ولا يختلف نظر الناس فى الحكم عليه ، وتبدو لهم مقاتله وتظهر عيوبه ، وإذا كان من نسل عظماء موقرين فى الصدور ، تنشأ له هيبة فيضم شمل الجماعة ، كما كان من الناصر العباسى الذى دعوه أسد بنى العباس[2] لإحيائه الخلافة ، وكانت قد ماتت بموت المعتصم ثم ماتت بموته .

(١) مختصر تاريخ الخلفاء لابن الساعى . (٢) دول الإسلام للذهبى .

ذكروا أن العباسيين الأولين صرفوا الملك فى وجوه الحق ومذاهبه ما استطاعوا ، حتى جاء بنو الرشيد فكان منهم الصالح والطالح ، ثم أفضى الأمر إلى بنيهم فأعطوا الملك حقه ، وانغمسوا فى الدنيا وباطلها ، ونبذوا الدين وراء ظهورهم ، فتأذن الله بحربهم ، وانتزع الأمر من أيدى العرب جملة وأمكن سواهم منهم ، وهذا الرأى لا يصح على إطلاقه فى كل الدول التى قامت ثم انقرضت .

تم الملك لبنى العباس بجيش خراسان الفارسى ، واضمحلت خلافتهم بالجيش التركى . كان الجند الفارسى قوة الخلافة العباسية لأول أمرهم ، ومن العنصر التركى بعد ذلك ضعفهم . وفى القرن الرابع كان الجيش العباسى مؤلفاً من المماليك[1] الناصرية والبغائية والمسرورية والبكجورية واليانسية والمفلحية والأزكوتكينية والكيغلغية والكنداجية ، نسبة لقواد لهم ووزراء من الأعاجم ، كانت لهم القوة فى الدولة العباسية ؛ فأصبحت الخلافة بتدخل الفرس أولا وتدخل الترك وغيرهم آخراً ، ألعوبة فى أيدى كل من تم له القوة والغلبة على غيره من الأمراء والخوارج ، ولم يكن إلا قليل حتى أصبح سلطان الخلافة الفعلى لا يتعدى بغداد وما جاورها ، بل أمسوا وليس لهم حتى فى بغداد ولا فى قصورهم وشئونهم الخاصة شىء من الاستقلال . يودّ كل عنصر من عناصر الجيش أن يستأثر بالسلطة دون منافسه من الأجناس الأخرى ، وربما لم يكن جميع الترك والفرس ممن تمثلوا الإسلام ظاهراً وباطناً : فقد وقعت فتنة بين الأتراك والهاشميين فى سنة ٣٨١ فرفع الهاشميون المصاحف على الرماح ، فرفع الأتراك الصلبان على الرماح ؛

فسدت العصبية العربية فى القرن الخامس فساداً ظاهراً ، وفنى الجنس العربى فى الأجناس الغريبة الأخرى ، حتىّ لا يكاد العربى يُرى فى المقامات العالية ، وأضعف بنو بويه الديلم ، وبنو سلجوق الترك ، عصبية الدولة العباسية العربية الفارسية . وانقرضت الدولة الأموية العربية من الأندلس ،

---

(١) تاريخ الوزراء الصابى .

ولم يبق غير أقيال من العرب فى المغرب بعد ذهاب الفاطميين من شمالى إفريقية ونزولهم مصر . وأخذ الصليبيون فى العشر الأخير من هذا القرن يغزون بلاد المسلمين ، فكان هذا العصر عصر تراجع السياسة العربية فى كل مكان . وبمقتل العربى مسلم بن قريش صاحب الموصل (سنة ٤٧٨ هـ) على يد سليمان ابن قتلمش التركى — وكانت لمسلم طاعة حلب ورياستها شورى فى مشيختها — انقرض الحكم العربى من الشام ، أول قطر استصفاه العرب الفاتحون .

ثم دخلت البلاد فى دور سياسى آخر ، وأصبح الناس يعاونون كل متغلب على الملك ، إذا أخلص النية فى قتال الصليبيين ، فحكم البلاد التركى والكردى والشركسى ، وما عاد يخطر فى البال إرجاع ملك العرب ، فنسيت معانى القومية العربية ، وماتت أو كادت روح العضبية المعروفة للقدماء ، ولم يعد الملوك يعتمدون على قيس ويمن أو على إحداهما فى قهر أعدائهم وتأييد سلطانهم ، وأصبحت الجيوش المقاتلة والقواد والملوك من عناصر مختلفة لا تجمعها إلا كلمة الإسلام .

قرض صلاح الدين الكردى باسم نور الدين التركى دولة الفاطميين العربية فى مصر فحكمها نور الدين باسم الإسلام ، وحكمها بعده صلاح الدين وآله باسم الإسلام ، وقامت بعد فى مصر والشام دولة المماليك البحرية ودامت ١٣٠ سنة ، ودولة المماليك البرجية وطال عمرها ١٣٥ سنة ، وكلتاهما حكم بأسم الإسلام لا باسم عناصرهما المنوّعة . وجاء من هذه الدول عظماء من الرجال كنور الدين وصلاح الدين ولم يطل عمر دولتيهما كثيراً على ما كان فيهما من الخير العظيم . وذلك لأن ولاية العهد لم تكن مقررة على قاعدة ثابتة ، فنور الدين مثلا خلف ولداً صغيرا ارتضى به خواصُّ أبيه ملكاً ، ولكن من الصعب أن يدبر طفل أمر البلاد فى أحرج حالاتها السياسية ، فأتى صلاح الدين نائب نور الدين فى مصر وتولى الأمر فى الشام بحكم الطبيعة ، ولما هلك تفرق ملكه فى أولاده ، فاختلفوا واشتد خلافهم ، لأنه لم يعهد إلى الكفء منهم بولاية العهد . ولئن كان فيهم رجال على جانب من الكفاءة ، فإن اختلافهم فتح السبيل لعمهم العادل لتولى الملك .

لما مات العزيز بن صلاح الدين ملك مصر خلف ابنا عمره تسع سنين وأوصى له أبوه بالملك بعده ، وسموه الملك المنصور ، وتقرر أن يجعل له من يدبر أمره فجعلوا عمه الملك العادل أتابكه إلى أن يتأهل(١) للاستقلال بأمور المملكة فقال الملك العادل : إنه قبيح بى أن أكون « أتابك » صبى مع الشيخوخة والتقدم ، والملك ليس هو بالإرث ، وإنما هو لمن غلب ؛ وإنه كان يجب أن أكون بعد أخى الملك الناصر صلاح الدين ، غير أنى تركت ذلك إكراماً لأخى ، ورعاية لحقه . قال فلما كان من الاختلاف ما قد علمتم خفت أن يخرج الملك عن يدى ويد أولاد أخى فسست الأمر إلى آخره ، فما رأيت الحال ينصلح إلا بقيامى فيه ، ونهوضى بأعبائه ، فلما ملكت هذه البلاد ، وطنت نفسى على أتابكية هذا حتى يبلغ أشده ، فرأيت العصبيات باقية ، والفتن غير زائلة ، فلم آمن أن يطرأ على ما طرأ على الملك الأفضل ، ولا آمن أن يجتمع جماعة ويطلبوا إقامة إنسان آخر ، وما يعلم ما يكون عاقبة ذلك . والرأى أن يمضى هذا الصبى إلى الكتاب ، وأقيم له من يؤدبه ويعلمه ، فإذا تأهل وبلغ أشده ، نظرت فى أمره وقمت بمصالحه . فوافقوه على رأيه وحلفوا له ، وخلفوا المنصور الطفل وخطبوا للعادل .

كان المعقول ما تم من بيعة العادل ، مستشار أخيه صلاح الدين ومؤتمنه ، لبعد غوره فى سياسة الدولة . أما هو فقد قسم مملكته فى أربعة من أولاده ، ووقعت مصر للكامل فتولاها نائباً وملكاً أربعين سنة ، وجرى على سنة أبيه وعمه فى جهاد الأعداء وأبان عن كفاءة ظاهرة ، وكان يخطب له بمكة (مالك مكة وعبيدها ، واليمن وزبيدها ، ومصر وصعيدها ، والشام وصناديدها ، والجزيرة ، ووليدها ، سلطان القبلتين ، ورب العلامتين ، خادم الحرمين الشريفين ، الملك الكامل أبو المعالى ، ناصر الدين محمد خليل أمير المؤمنين) وكان أولاد(٢) العادل كالنفس الواحدة باتفاقهم . قال ابن الأثير فيهم « فلاجرم

(١) السلوك للمقريزى . (٢) تاريخ الكامل لابن الأثير .

زاد ملكهم ، ورأوا من نفاذ الأمر والحكم ما لم يره أبوهم ، ولعمرى إنهم نعم الملوك ، فيهم الحلم والجهاد والذب عن الإسلام » .

وكان ملوك دولتى المماليك أشبه برؤساء عصابات متغلبة ، وقد جاء منهم من كانوا يحسنون السياسة ، ومنهم من حملوا على رقاب الناس الخصيان والنسوان والصبيان . « ولم[1] يكن نظام الوراثة مألوفاً عند المماليك فقد كانوا يعتقدون أنه لا فضل لأحد على الآخر إلا بالمهارة الحربية ؛ وكثرة الأتباع والحذق فى تدبير المؤامرات » وما كانت مع هذه دولة المماليك أقل غناء من كثير من دول الأحرار وأدعياء الشرف .

ولم يسمع بعد عصر المماليك بظهور قائم من العرب ، حتى قام فخر الدين المعنى الثانى فى القرن الحادى عشر فاستولى على لبنان وأكثر الساحل الشامى ، يرضى العثمانيين بما أمكن من إتاوة ، ويعطى السلطان طاعته ، فقتلته الدولة . وقام فى القرن التالى فى جزيرة العرب عبد الله ابن سعود فاستولى على نجد والحرمين ثم أخذه العثمانيون أيضاً وقتلوه (١٢٣٣ — ١٨١٨ م) ومزقوا ملكه . وما سمع بعد ذلك صوت لعربى تحدثه نفسه بالحكم فى العراق والشام والجزيرة ومصر وغيرها ، وصفت كلها للترك العثمانيين بدون منازع .

---

(١) تاريخ العصور الوسطى لحسن إبراهيم حسن وأحمد صادق الطنطاوى .

سياسة الترك العثمانيين :

عشيرة من عشائر الترك جلت من تركستان على عهد جنكيزخان ، وضربت فى الأرض معرجة على بلاد فارس ، آخذة إلى سمت الغرب ، تنتقل من إقليم إلى إقليم ، حتى ألقت رحالها فى صميم آسيا الصغرى ، وأنشأ رئيسها عثمان بن أرطغرل سنة ٦٩٩هـ ، إمارة صغيرة فى أرض الدولة السلجوقية وكان أنشئ على أنقاضها فى الأناضول ثلاث عشرة دولة كانت إمارته إحداها ، كبرت مع الأيام حتى غدت سلطنة عظيمة ، تملك أجمل الأقطار فى آسيا وأوروبا وإفريقية ، هذا تعريف الدولة العثمانية التى كان رأس مالها يوم نشأتها شجاعة رئيسها وآله ، وطاعة مرؤوسيها ونجدتهم . وضع العثمانيون أى المنسوبون لعثمان أساس مملكتهم فى جوار « سكود » و « اينه كول » أولا ثم استولوا على « ينيشهر » « فبورسا » واتخذوا هذه قاعدة بلادهم . ولما رأى إمبراطور القسطنطينية « يان كنتا كوزن » قوة هذه الإمارة الإسلامية فى جواره ، وأن أورخان ثانى ملوكهم فتح « بولاير » و « كليبولى » و « تكفور طاغى » من غرب بلاده ، عقد معه صلحاً وزوجه من ابنته تيودورا ، وجاء السلطان العثمانى إلى « اسكدار » على شاطئ الآسياوى من فروق ، وهناك زفت إليه ، وكان أول ملك عثمانى تزوج من غريبة عن دمه ، مخالفة له فى عادها ودينها . وظهر من مجرى الحوادث أن العثمانيين كانوا على اتصال وثيق بالروم ، ولهم مع زعمائهم وقوادهم[1] صلات كانت تزيد على الأيام استحكاماً ، بدأت منذ استولى آل عثمان على بروسا . ولما ضموا إلى إمارتهم إمارة « قره سى » على عهد أورخان أنشأوا بحرية تفوق أساطيل الإمارات الأناضولية الأخرى ، كما كان لهم جيش بدئ بتنظيمه على عهد أورخان أيضاً .

كان على العثمانيين أن يستولوا على عشر إمارات تركية صغيرة قامت فى آسيا الصغرى فى جوارهم ، ولكنهم وجهوا وجهتهم إلى غاية أخرى ،

---

(١) معلمة الإسلام . ترك .

وجهوها إلى أرض أوربا ، وبعد الاستيلاء على مفاتح الدردنيل بفتح كليبولى وما إليها فتح ثالث ملوكهم فيلبه وأدرنة ونقل إلى هذه عاصمته ، يريد بانتقاله من بروسا أن يؤسس دولة شرقية فى أرض الغرب . وساعد السلطان مراد الأول على انتصاره فى قارة أوربا ما كان من التنافس المتبادل[1] بين دول البلقان أى بيزنطية ومملكتى البلغار والصرب ، وما كان من التطاحن بين حكومتى البندقية وجنوة على التفوق فى الشرق ، وما كان من غيرة البابوات لإرجاع الكنيسة اليونانية إلى حجر كنيسة رومية . فكان للعثمانيين أنصار فى معسكرات النصارى نفسها . ولما[2] رأت دول أوربا توسع مراد الأول (٧٩١هـ) فى فتوحه عقدت بينها تحالفاً على العثمانيين ، ودخل فى هذا الحلف ملوك الصرب والبجناكية (البشناق) والبلغار والأفلاق والبغدان والمجر والبولونيين والتشكيين ، وهاجموا العثمانيين فى مئتى ألف جندى فى صحراء قوصوة[3] فارتدوا خاسرين ، وقتل ملك الصرب وغيره من أمرائهم فى المعركة وصفت تلك البلاد لبنى عثمان . واتفق بعد قليل من الزمن أن قام تيمورلنك حليف صاحب القسطنطينية . وكانت حكومات النصرانية تحاول منذ قام العثمانيون بفتوحهم الأوروبية أن يكون لهن حلفاء من ملوك آسيا ، لصد غارات بنى عثمان ، فداهم تيمورلنك بلاد آسيا الصغرى ، وقاتل ييلديرم بايزيد رابع ملوكهم وأسره فمات فى أسره بعد أشهر قليلة ، وتمزقت مملكة العثمانيين ، وكان يخشى أن تندرج مع الدول البائدة لولا قيام محمد الأول لضم شتاتها ، فعدّ بعمله العظيم المؤسس الثانى للدولة العثمانية . وما كان بايزيد أسير تيمورلنك بالملك الذى يستهان بقوة شكيمته ، لُقب بالصاعقة (ييلديرم) لمبادرته إلى الزحف وتسرعه فى أعماله . فقد فتح بلاد اليونان وحاصر القسطنطينية عشر سنين وضرب الجزية على إمبراطورها ، مشترطاً عليه أن يخص المسلمين بحى

---

(١) معلمة الإسلام . مراد الأول .   (٢) قاموس الأعلام لشمس الدين سامى .

(٣) اشتهرت هذه الصحراء بوقعتين عظيمتين كانت الأولى سنة ٧٩١ هـ . وفيها قضى مراد الأول الملقب بخداوندكار على مملكة الصرب ، والثانية جرت فى سنة ٨٥٦ هـ . وفيها قضى مراد الثانى على جيوش المجريين والنمساويين والرومانيين وكانوا بقيادة هونياد صاحب المجر .

من أحياء القسطنطينية ، ويسهل لهم السبل لإنشاء جامع وإقامة قاض يحكم بينهم ، فلما زحف تيمور على بلاده أبطل صاحب الروم ما كان تعهد به لبايزيد . وكان خف سجسموند ملك المجر فى جيش من المجريين والألمانيين والفرنسيين لرفع الحصار عن القسطنطينية فانقض عليهم بايزيد انقضاض الصاعقة وهزمهم شر هزيمة فى نيكبولى على نهر الطونة (الدانوب) .

وسار مراد الثانى على قدم أجداده فتوسعت فتوحه فى آسيا الصغرى ، وأسر فى أولوباد إمبراطور الروم وحمله إلى أدرنة فصلبه فيها ، ولم يبرح يغادى القسطنطينية القتال ويراوحها ، ويحاصرها فيضيق حصارها . ثم اعتزل الملك وبويع لابنه محمد بالسلطنة، وكانت الدولة أمام مشاكل خطيرة فخاف رجالها أن يضعف السلطان الفتى عن صد هجمات الأعداء ، لصغر سنه وقلة تجاربه ، فاتفقوا معه على أن يرجع والده إلى السلطنة فعاد من عزلته بعد الإلحاح ، وقاتل جيوش التحالف المجرى الألمانى البجناكى الأفلاقى البغدانى فشتت شمله فى صحراء قوصوة . ثم عادت جيوش النصرانية فجيشت على العثمانيين جيشاً مؤلفاً من المجريين والبولونيين والتشيكيين وغيرهم ، قدر بمائة وخمسين ألف جندى ، فهزمهم شر هزيمة وقتل كثيراً من ملوكهم وحكامهم .
ولما جاء سابع ملوكهم محمد الثانى يتولى زمام السلطنة كان أجداده قد فتحوا أمامه السبل للاستيلاء على القسطنطينية بما فتحوه فى أطرافها من البلاد ، فحاصرها براً وبحراً ، وساعدته المدافع التى كان جيشه مجهزاً بها ؛ وكان اختراعها حديث العهد ، وبعد معارك دامية قتل فيها قسطنطين دراكاكيس آخر إمبراطرتها ، فتح الترك القسطنطينية (٨٥٧ — ١٤٥٣ م) ولقب محمد الثانى بالفاتح ، وغدت هذه العاصمة الجميلة عاصمة العثمانيين إلى آخر أيامهم ، بعد أن كانت عاصمة الروم نحو ألف سنة . وعد فتحها مبدأ عهد سياسى جديد أرخ به المؤرخون، ذلك لأنه قضى على المملكة البزنطية الشرقية التى طالما صاولت المسلمين منذ عهد الراشدين والأمويين والعباسيين ،

وبفتح القسطنطينية أصبحت الدولة مرهوبة الجانب موقَّرة السلطان ، وتوقع الغرب منها أحداثاً جديدة تنبعث من الشرق الجنوبى فى أوربا ، على نحو ما كان من دولة العرب الأندلسية فى الجنوب الغربى من تلك القارة . وحسب فتح القسطنطينية[1] من أعظم حوادث التاريخ فى العالم ، وأثر فى حالة أوربا السياسية ، وبه كتب التفوق للأتراك فى الشرق قروناً ، وكان منه على اليونان مصيبة كبيرة دامت تأثيراتها إلى عهد الثورة التى قاموا بها فى النصف الأول من القرن الماضى ، وأوشك هذا الحدث العظيم أن يبدل مجرى التاريخ ، واصطلح العلماء على أن جعلوا من أيام شهرى نيسان وأيار (أبريل ومايو ١٤٥٣) تاريخاً عظيما ختمت به القرون الوسطى وبدأت العصور الحديثة .

وتوسع الفاتح فى فتوحه على البحر الأسود ، ففتح مملكة طربزون الرومية فى سنة ١٤٦١ ، واحتل عدة جزر من جزائر البحر المتوسط ، وكان يرمى إلى فتح جميع شبه جزيرة البلقان . وخلفه ابنه بايزيد الثانى فما حاد عن خطة التوسع فاستولى على البانيا وغيرها ، وخرج عليه أخوه « جم » والتجأ إلى قايتباى ملك مصر والشام فاستاء بايزيد مما عومل به أخوه فى بلاد العرب واتخذ من إيواء مصر أخاه حجة على قتال المماليك فى أرجاء أذنة وشمالى الشام ، كانت الغلبة فى عدة وقائع للمماليك فاستخلصوا من الترك عدة حصون ، وأسروا جماعة من كبار قوادهم . وسبب هزيمة الترك أن الدولة العثمانية كانت منذ عهد محمد الأول إلى أيام بايزيد الثانى تصرف قوتها فى قتال أوربا .

ثم قام تاسع سلاطينهم سليم الأول واستجاش على الشاه الصفوى صاحب العجم ، فتغلب عليه فى وقعة جالديران ، وفتح تبريز وهمدان وأذربيجان والقوقاز ، وانقلب فجأة نحو بلاد العرب ففتح فى طريقه ديار بكر وما إليها وقضى على مملكة ذى القدرية فى أنحاء مرعش والبستان ، وتقدم إلى الشام فالتقى بالغورى ملك مصر فى مرج دابق من عمل حلب ، والتحم بينهما القتال

---

(١) تاريخ تركيا للاموش Lamouche : Histoire de la Turquie.

فكانت الغلبة للسلطان العثمانى ، وقتل الغورى فى المعركة واختفى أثره . ودخل سليم الشهباء فلقبه الخطيب فى خطبة الجمعة مالك الحرمين الشريفين ، فقام السلطان من محله ، وتقدم إلى الخطيب بقوله أنا أقل من أن أملك الحرمين الشريفين ، ومفخرتى أن أكون لهما خادماً .

وبهذه الوقعة الفاصلة فتحت الشام ومنها سار الفاتح إلى مصر براً فاستولى عليها ، وأمن ملكها طومان باى آخر ملوك المماليك ثم قتله . وأرسل إليه شريف مكة يبذل له الطاعة ، فدخلت الحجاز أيضاً فى ملكه . وأضحت مملكته بهذه الأقطار التى افتتحت توازى بمساحتها ضعفى المملكة التى فتحها أجداده الثمانية . وفى عهد ابنه سليمان القانونى عاشر ملوكهم فتحت اليمن والحبشة والعراق وطرابلس وبرقة وتونس والجزائر والصحراء الكبرى والسودان ، وبفتح العراق أصبح السلطان العثمانى بحق « سلطان البرين والبحرين » وحاول سليمان الاستيلاء[1] على الغرب الأقصى وأرسل إلى سلطانها اثنى عشر فاتكاً من فتاكه سنة ٩٦٤ فاغتالوه إلا أن سلطان الأتراك لم ينبسط على تلك البلاد ، وغاية ما فى الباب أن شريف مراكش اعترف بسلطان العثمانيين[2] (١٥٨٠ م) . وعلى هذا ضمت البلاد العربية فى آسيا وإفريقية إلى السلطنة العثمانية كما كان دخل فيها بلاد الروم والأفلاق والبغدان والبلغار والبجناكية والمجر والصرب والأرناؤد والقفجاق والقرم واللاز والكرد فتم دور الفتوح .

أعان العثمانيين على فتوحهم البحرية بعض من تطوعوا فى خدمتهم من قرصان البحر[3] ، وما كتب قط للدولة تفوق عظيم بأساطيلها ، وسارت البحرية[4] العثمانية بشجاعة ربابينها أكثر من سيرها بعددها ونظامها ، على أن السلطان سليما بذل جهوداً كثيرة لترقيتها ، وجرى ابنه سليمان على خطته ، فارتقت ارتقاء عظيما على عهد سليمان بكثرة مراكبها ومدفعيتها وعدد بحارتها ،

---

(١) الاستقصا للسلاوى . (٢) معلمة الإسلام . مادة ترك .
(٣) تحفة الكبار فى أسفار البحار لكاتب جلبى . (٤) تاريخ تركيا للاموش .

ولكن الإخفاق كان حليفها أكثر من النجاح ، بخلاف الجيش فإن نجاحه كان باهراً ، والتوفيق حليفه فى معظم ما خاض غماره من حروب . وفى موقعة لبانتو (اينه بختى) ، وفيها حاربت الدولة أساطيل إسبانيا والبندقية وجنوة بإيعاز البابا (١٥٧١م) ؛ وفى الحروب البحرية فى البحر الأسود مع روسيا ، برهان على هذا الضعف البحرى ، ولولا أن الدولة تقدمت وفتحت قطعة صالحة من مملكة بيزنطية من غربى الآستانة وفتحت مملكة طربزون على البحر الأسود ، لصعب عليها استبقاء هذه العاصمة وأوربا لم تفتأ تتابع إرسال أساطيلها عليها لإنقاذ بيزنطية ، بل لإنقاذ النصرانية من غارات العثمانيين ، ولذلك كانت الدولة أبداً ترعى جمهورية البندقية اتقاء أسطولها ، وأصبحت فى آخر أيام سليمان الأول بين جارتين عظيمتين يخشى بأسهما : مملكة النمسا فى أوربا ، والدولة الصفوية فى آسيا . ولكن الدولة العثمانية أصبحت مؤلفة من ثلاثين مملكة تمتد من جون البنادقة إلى خليج فارس ومن جبال الكاربات إلى النيل .

كان القصد من ظهور سليم الأول بمظهر جديد لم يظهر فيه أجداده ، ونعنى به فتح بلاد العرب الذى أكمله ابنه سليمان ، جمع شمل المسلمين تحت علم واحد ، وإنقاذ الخلافة الإسلامية[١] ، وكانت أصبحت ولا راعى لها ، ولو ساعده الأجل لغدت معظم ممالك آسيا وإفريقية فى سلطانه ، ولغدت الهند وفارس وتركستان من جملة بلاده ، ولاستطاع أن ينفذ أمنيته فى جعل اللغة العربية لغة الدولة العثمانية الرسمية ، يرضى بذلك جميع العناصر المسلمة ويؤسس مملكة إسلامية لانظير لها . وينقذ الدولة من غوائل التطاحن مع أوربا على الدوام ، من أجل استبقاء بلاد نصرانية لا رابطة بينها وبين العثمانيين فى الدين ، ولا فى العنصر ولا فى المدينة . وكأن الترك بعد أن شبعوا من مغانم البلاد التى افتتحوها فى أوربا سمت بهم هممهم أن يتعرفوا إلى عالم آخر يعيشون بغنائمه مدة .

---

(١) قاموس الإسلام لشمس الدين سامى .

يقول جايار[١] : «كان الإسلام صريحاً فى المؤاخاة بين الناس ، واسع المدى فى فهم معنى الحياة ، بدأ به عهد جديد كان فيه للعرب وكثير من شعوب الشرق نحو عشرة قرون ، مبعث نهضة ودور فلاح وعظمة وغنى ، وبعد أن بلغت المدنية العربية قمة مجدها بتأثير الإسلام السعيد ، وبما فى تعاليمه من الفضائل ، نشأت إمارة صغيرة لعثمان (عثمانجق) تألف منها فى أقل من قرنين أعظم مملكة وأوسعها حولا . امتد سلطانها فى أوربا وآسيا وإفريقية وبفضل «إده بالى» وچاندارلى» واجتماع الفكر الإسلامى ، وقوة جيش عثمان وبايزيد والفاتح وسليم وسليمان فشل التحالف الذى عقدته عدة ممالك ، وأسست دولة امتدت من نهر الدون وبحر أزوف إلى مدينة فينا ، ومن مراكش إلى أبواب الهند حيث وضع الإسلام قواعده» . وقال كرامر[٢] : إن الفتوح العثمانية السريعة فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر لم تكن تشبه فتوح جماعة من البربر ، بل كانت تحقيقاً لخطة مرسومة فى أذهان عظماء الفاتحين ، أمثال بايزيد الأول ومحمد الثانى وسليمان الأول وبعض رجال دولتهم ، وكان من أثر الفتح فى تلك العصور أن انبعث طراز من المدنية ظهر فى مظهره الأخير فى القرن السادس عشر .

* * *

كان سليم الأول أسر فى وقعة مرج دابق الخليفة المتوكل العباسى الذى رافق الغورى من مصر ، وكانت الخلافة العباسية انتقلت من بغداد إلى القاهرة بعد مقتل آخر ملوك بنى العباس على يد هولاكو ، وأمسى الخليفة العباسى فى مصر ، وليس له من عمل إلا أن يصادق على أعمال الملك ، والملك يجرى عليه ما يعيش به . دام هذا الترتيب مدة استيلاء المماليك على مصر . فحمل السلطان العثمانى هذا الخليفة إلى دار ملكه فى الآستانة ، وكان أحد أجداد هذا الخليفة منح

(١) نهاية عصر أو على عتبة جيل جديد لجايار Gaston Gaillard : La fin d'un temps. Au seuil d'un nouvel âge

(٢) معلمة الإسلام . مادة الترك .

أحد أجداد الملك العثمانى وهو يلديرم بايزيد لقب سلطان . وقيل إن الخليفة العباسى نزل للسلطان العثمانى عن الخلافة فى جامع أياصوفيا ، وقيل إنه لم يعرض له بشيء فى هذا الشأن ، وقيل إن الخليفة العباسى سجن فى « يدى قله[1] » فى ظاهر الآستانة وأنه عاد إلى مصر بعد مهلك السلطان سليم ، ولقب السلطان التركى بلقب الخلافة منذ فتح بلاد العرب وخفقت رايته على الحرمين الشريفين . ويقول أرنولد من علماء المشرقيات الإنجليز[2] إن مراد الأول هو الذى لقب بالخلافة لما فتح أدرنة وفيلبه ، وإن العثمانيين وغيرهم من الملوك كانوا يخاطبون بالخلافة ، وقبل أن ينقل السلطان سليم من مصر الخليفة المتوكل ، كان أجداده اعتادوا منذ قرن ونصف أن يلقبوا بالخلافة ، وبعد قرنين لم يبق فى ملوك الإسلام من يستحق أن يطلق عليه اسم الخلافة غير سلطان العثمانيين وإمبراطور المغول فى الهند ، وذلك لسعة بلادهما ، وامتداد سلطانهما ، وادعى غيرهما هذا اللقب من غير استحقاق ، ولما سقطت دولة المغول فى الهند خلال القرن الثامن عشر أصبح السلطان العثمانى أعظم ملوك المسلمين فى الأرض . وطلبت كاترينا الثانية فى معاهدة « كوجك قينارجة » التى عقدت بين تركيا وروسيا أن يكون لدولة القياصرة الحق فى حماية الروم الأرثوذكس فى بلاد العثمانيين أن يذكر فى شروط الصلح أن للخليفة العثمانى الحق فى حماية التتر المسلمين . قال وقد كثر بعد ذلك التلقب بالخلافة ، والظاهر أن عبد الحميد الثانى أرسل دعاة إلى العالم الإسلامى يوطدون له الدعوة إلى الخلافة »

وبينا كانت الشعوب النصرانية إلى آخر القرون الوسطى لا يفتحون بلادهم إلا لمن انتحلوا النصرانية ، كان العثمانيون يرعون النصارى فى بلادهم ، عملا بطريقة الدول الإسلامية التى تقدمتهم . بيد أن آل عثمان عملوا على نشر الإسلام منذ عهد أورخان ، ليكثروا سواد المسلمين فى بلادهم ولا سيما فى الولايات الأوروبية . فكانوا إذا أسروا أولاد النصارى من البجناكية والروم والصرب

---

(١) تاريخ مصر لابن إياس .

(٢) معلمة الإسلام . الخلافة .

والبلغار والألبان يربونهم تربية إسلامية ثم يجندونهم فى جيش الإنكشارية[1]، ولا يتعرضون لأبناء الروم والأرمن من سكان ساقز ورودس . وانتشر الإسلام فى رومانيا وبلغاريا وألبانيا وصربيا واليونان بقبائل من التتر أنزلتهم الدولة فى معسكرات أنشأتها فى قواعد البلاد الكبرى ، أو فى الحصون المشهورة ، على نحو ما فعل محمد الثانى فأنشأ (سنة ١٤٦٦ م) فى ايلبصان من بلاد الأرناؤود مستعمرة إسلامية كبرى . وانتشر الإسلام فى البلاد الصرب والخروات بعد وقعة قوصوة بإسكان قبائل تركية رحالة فيها ، وبطبقات من الجند المسلم رابطت فى بلغراد .

ولما فتحت ألبانيا هاجر من أهلها إلى صقلية وقلورية والبندقية وجنوة ومرسيلية وإسبانيا بضع مئات الألوف من أهلها ، وما لبث أن أسلم ثلثا الباقى من أهل البلاد ، لما رأوا زعماءهم ومقدميهم يسارعون إلى الإسلام . ولما فتحت البوسنة والهرسك الفتح الأخير على عهد محمد الثانى[٢] دخل نصف أهلها فى الإسلام . وقيل إن الإسلام دخل ألبانيا وتركيا ومقلونية حتى بلغ أوخريدة على يد درويش تترى اسمه « صارى صالتق » من تلاميذ رجل من الصلحاء اسمه حاجى بكتاش . وانتشر الإسلام فى بسارابيا ودوبروبجة وفى المجر . ومنذ القرن السادس من الهجرة[٣] كان فى بلاد المنكر أو هنغاريا أو المجر طوائف من المسلمين أسلموا على أيدى أناس من مسلمى بلغاريا سكنوا بينهم .

لا جرم أن العثمانيين بذلوا جهوداً غير قليلة فى ولاياتهم الأوربية لنشر الإسلام بطرق من الدعاية يجيزها الدين ، ولا تخالف أصلا من أصول حرية الأديان ، فزجوا السكان بجاليات كثيرة من التتر استدعوهم من بلاد الترك فى آسيا ، وسهلوا لهم سبل الهجرة والاستيطان : ودولة حكمت بلاداً بضعة قرون لا بد أن تبقى فيها أثراً من دينها وعاداتها ولغتها ، وكان هذا الأثر ضئيلا فى المجريين والرومانيين والصربيين ، وكثيراً فى الألبانيين والبجناكين

(١) هذه اللفظة محرفة من لفظة (يكى جرى) التركية ومعناها العسكر الجديد .

(٢) قاموس الأعلام لشمس الدين سامى . (٣) معجم البلدان لياقوت .

والبلغاريين . يقول لاموش[١] : إن الأتراك ليسوا متعصبين فى ذاتهم ، إن لم تهجهم أمور خارجية أو يأتهم أمر صادر من مقام سام ، وإذا بدا فى تضاعيف تاريخهم أنهم ارتكبوا فظائع ومذابح ، فهذا كان للاستيلاء على بعض الحصون خلال حروبهم ، أو عند ما كانوا يريدون قمع ثورة ، أو يحاولون انتقاماً عن فظائع يقابلون بها خصومهم بالمثل . ويندر جداً إكراه العثمانيين أحداً من النصارى على انتحال الإسلام . ذلك لأن المسلمين أدركوا أن إخراج غير المسلمين إلى دين الإسلام مخالف لمصلحتهم ، فيقل عديد من يؤدون الجزية فيضمحل العاملون الخاضعون لإرادتهم ، وبدافع نفسي وقع إسلام جماعات كثيرة من أهل البوسنة وألبانيا وإقريطش ، رأوا التمذهب بالإسلام من مصلحتهم . ودان الأشراف وأرباب الأملاك الكبرى ممن أصبحوا « بكوات » فيما بعد ، دين الفاتح ، وجاراهم أتباعهم فى هذا الشأن للاحتفاظ بأملاكهم وامتيازاتهم . وقد أدرك محمد الثانى بما رزق من بعد نظر فى السياسة أن من الواجب رعاية النصارى وإدخالهم فى أعمال الدولة بقدر ما تسمح به الشريعة الإسلامية ولم يبق من جميع أوضاع الإمبراطورية الشرقية الرومية غير أوضاع رجال الدين يتمتعون بمراتبهم وتراتيبهم ، وجعل بطريرك الأستانة مرجعاً للروم فى بلاده . اهـ .

وبعد فلم يخرج العثمانيون فى معاملتهم غير أبناء مذهبهم عن حد ما رسمته الشريعة الإسلامية ، وما كان الحكم التركى الذى امتد ظله إلى المجر ظالما ولا قاسياً كما قال كستلو[٢] فقد كان العثمانيون يرعون أديان الشعوب المحكومة ويحترمون عاداتها وظلت تركيا متمسكة بهذه القاعدة إلى القرن العشرين . وما تعمدت قط أن تتمثل العناصر بل اكتفت بإرادتهم وفرض الضرائب عليهم . قال ورأينا الشعوب التى خضعت لحكم السلطنة أضاعت قوميتها ؛ وكانت مع هذا أيام استعبادها أسعد حالا من العصور المضطربة المحاربة أيام

(١) تاريخ تركيا للاموش (بالفرنسية) .

(٢) قانون التاريخ لجوليفه كستلو Jolivet Castelot : La Loi de l'histoire.

استقلالها ، وربما لم تربح إلى اليوم من هذا التبدل فى الحكم ، وهم على كل حال يتألف منهم خطر دائم على أوربا . وقد خلفت المسألة البلقانية المسألة الشرقية من دون ما فائدة تعود على راحة الغرب . اه .

لم يصل تتريك العناصر التى خضعت لسلطان العثمانيين فى البلاد الأوربية إلى أكثر مما بلغه فى بلاد العرب ، ورأينا أرمن الأناضول تركوا لسانهم وأصبحت التركية لغتهم الوطنية ، فسطت اللغة التركية على الأرمن النازلين فى السهول لامتزاجهم بالترك منذ عهد السلجوقيين ، وسلمت لسكان الجبال فى إرمينية لغتهم بعض السلامة . وتترك[1] الروم العثمانيون كالأرمن ، وتترك أرمن الآستانة فى كل مظاهرهم وعاداتهم ، حتى ما يميزون عن الأتراك ، ولذلك كان غلاة القومية التركية يفضلون الأرمن على العرب المسلمين ، لأن هؤلاء عصوا على التترك .

استفاد الترك من اتخاذ مدينة القسطنطينية عاصمة لملكهم مدنية جديدة ، أخذوا يتقلبون فى أوضاعها ؛ ولكنهم أضاعوا بعض صفاتهم فى التمسك والتقشف ، وكان إليها ينسب أكثر نجاحهم ونجاح كثير من الدول التى قامت فى المشرق . ذلك لأن بيئة فروق وبيئة بالترف ، مذكان الروم سلاطينها ، فهى جنة حفت بالشهوات ، ومن الصعب أن يسلم نازلها من عوامل الافتتان ، وإذا قدر له أن يحتفظ بعاداته ومتانته ، فأولاده أو أحفاده يتخلقون بأخلاق البلد الذى نشأوا فيه لا محالة . وقد تبدلت أخلاق العثمانيين باختلاطهم بعناصر غير شرقية فأصبحت حياتهم تتطلب مطالب جديدة ، واعتبر سلاطين آل عثمان أنفسهم ورثاء إمبراطرة بيزنطية فأخذوا بمصطلحاتهم وبكثير من عاداتهم ، وتجافوا عن بعض ما كان لهم من عادات ، وبخاصة ما كانت تتجلى به أبهة السلطان وبذخه وعزه فى مواكبه وقصوره . يقول «اوهسون» إنه لم يكن يقل عدد من فى القصر السلطانى فى آخر القرن الثامن عشر عن

(١) مقدرات تاريخية ، لجلال نورى .

اثنى عشر ألف رجل ، فيهم الضابط والخصى الأبيض والأسود والغلام والحاجب وغيرهم .

كان مراد الأول ملك عثمانى[١] وقيت فى أيامه المملكة التى وضع عثمان أساسها إلى مستوى أرقى من مستوى إمارة تركمانية ، أى من الطراز الذى كانت عليه تلك الإمارات فى آسيا الصغرى ، وكان على جانب من التدين والعدل . وكذلك كان مراد الثانى (٨٥٥هـ) وقد وصفه مؤرخو[٢] بيزنطية وغيرهم من مؤرخى النصارى بأنه ملك عادل حليم ، جاءه العلماء من العراق وفارس فانضموا إلى جملته ، وأدخلوا فى الآداب التركية روحاً جديداً . وكان أول سلطان عثمانى جعل بلاطه مثابة للشعراء والأدباء والعلماء من المسلمين ، وعلى ذلك جرى خلفاؤه ولا سيما محمد الفاتح ، فإنه فتح أبواب عاصمته للعلماء والأدباء ، يستدعيهم من الأقطار لنشر الثقافة الإسلامية . وكان سليم الأول يحسن عدة لغات ، وينظم الشعر بالتركية والعربية والفارسية ، وكذلك ابنه سليمان أدرك ما بدأ من تباشير النهضة الغربية الحديثة فى إيطاليا وفكر فى الاشتراك بها . ويقول « روبرتسون » إن السلطان سليمان فاق سلاطين الدولة العثمانية بخصاله الحميدة الجليلة ومشروعاته العظيمة وفاقهم أيضاً بنجاحه وظفره بأعدائه . قال : وكفى عصره فخراً أن ظهر فيه أعظم الملوك الذين ظهروا إلى ذلك العهد فى أوربا . ولو كان السلطان سليمان والبابا ليون العاشر والإمبراطور شارلكان والملك فرنسيس الأول والملك هنرى الثامن قد ظهروا فى أعصر مختلفة ، لكانت معارف كل واحد منهم تكفى العصر فخاراً ، فما بالك وقد ظهروا كلهم كالكواكب الساطعة فى القرن السادس عشر فكان لهـذا القرن من الرونق والبهجة ما لم يسبق لغيره من القرون اهـ . وكانت لمعظم السلاطين ثقافة شرقية يشاركون فى مسائل كثيرة ويثقفون فى قصورهم ثقافة دينية وسياسية .

---

(١) معلمة الإسلام . مراد الأول .   (٢) معلمة الاسلام . مراد الثانى .

أخذ الضعف يتسرب إلى الدولة فى النصف الأخير من أيام سليمان القانونى الطويلة . وقال بعضهم إن عهد الانحطاط بدأ فى دور محمد الثالث (١٠١٢ هـ) على كثرة ما وفق إليه من الفتوح ، وعلى ما كان من تعلقه بأحكام الشريعة ومعاقبته على المسكر وتضييقه على الحانات . ومنذ وفاة سليمان القانونى[1] (١٥٦٦م) إلى تولى سليم الثالث (١٧٨٧م) الذى حاول إدخال الإصلاح على الدولة ، لا نحصى من سبعة عشر سلطاناً سوى محمد الثالث ومراد الرابع ومصطفى الثالث كانوا على صفات تؤهلهم للحكومة والسلطنة ، وإن كان من هؤلاء الثلاثة من فطر على قسوة ظاهرة ، فقد قتل مراد الرابع صدرين أعظمين خسرو ورجب وكانا من عظماء رجال الدولة ، بدون سبب معقول . وربما كان هو وبعض آله يقتلون حباً بالقتل ، واتفق أن اعتبط بعض من كان يرجى منهم الخير للمملكة من السلاطين ، وكثير منهم كانوا أطفالا عندما جلسوا فى دست السلطنة . فما كانت سن أحمد الأول وعثمان الثانى أكثر من أربع عشرة سنة ، عندما بويعا بالسلطنة ، وكان عمر مراد يوم مبايعته اثنتى عشرة سنة وكان لمحمد الرابع سبع سنين . دع من كان من هؤلاء السلاطين أغبياء . ومثل هذه الطبقة من الملوك تسهل الحكم للنساء والندماء فتقع الفوضى فى الجيش . وقد تجلى انحطاط الدولة فى القرن الثامن عشر وإن كتب لها أن ظفرت بالروس فى حرب سنة ١٧١١ و ١٧٣٢ م .

ولعله يعد من الأسباب الجوهرية فى الانحطاط تغير الدم السلطانى فى آل عثمان تغيراً كبيراً لكثرة[2] ما اقتنوا من السرارى والجوارى والنصرانيات فكان سليم الثانى نصف روسى لأن أمه روسية . ومحمد الثالث نصف بندقى لأن أمه بندقية ، وعثمان الثانى ومراد الرابع وإبراهيم الأول أنصاف أروام

---

(١) تاريخ تركيا للاموش .

(٢) التاريخ العام للافيس ورامبو .

لأن أمهاتهم روميات ، وكثر عدد من تولوا أعمال السلطنة ممن دانوا بالإسلام من نصارى الروم والألبان والصرب والبلغار . وعلى عهد سليم الثانى كان من ثمانية رجال تولوا الصدارة العظمى ستة من المهتدين إلى الإسلام حديثاً ، فيهم الجنوى والبجناكى واليونانى والروسى . وكان فى المناصب العالية الطليانى والمجرى وغيرهما . أصاب العثمانيين فى العصور الحديثة ما أصاب العباسيين فى العصور الوسطى من تغير الدم العربى فيهم ، لما غلوا فى الاستكثار من اقتناء الجوارى الروميات والفارسيات يستولدونهم أبناء الخلفاء ، وبذلك كثر الهجناء وقل الصرحاء .

ويرى مؤرخو الإفرنج أنه جاء من سلاطين آل عثمان منذ القرن الخامس عشر إلى القرن السادس عشر من كانوا عظماء حقاً ، وأن سليمان القانونى كان من طرازهم ، لكن خلفاءه استرسلوا فى الرذائل والشهوات ، فكان سليم الثانى شريباً خميراً فلقب بسليم السكير ، وكان مراد الثالث قاتل إخوته الذى قتل ثلاثة عشر أخاً له وعشر نساء حاملات من أبيه ، محفوفاً بالندماء والنساء يتأثر بمؤثراتهم . وحاول مراد الرابع وكان نشيطاً حازماً أن يقى المملكة من السقوط السريع فلم يفلح[1] . وكان ضعف السلطنة محسوساً على عهد أحمد الأول ومصطفى الأول وعثمان الثانى .

كان مصطفى الأول المعروف بالأبله مجنوناً . وكان مراد الثالث مظهراً من مظاهر[2] الإفراط فى كل شىء ، ولا سيما فى الاسترسال إلى شهواته وفى إدارة الإقطاعات ، وفى أيامه ثار الانكشارية لأول مرة على الديوان العالى . ويمكن أن يعد عهده عهد الضعف الداخلى فى العثمانيين .وقد أعانته أمه وامرأته صفية على شهواته وخلف ١١٨ ولداً . وكذلك كان السلطان أحمد قتيل الغوانى والكؤوس ، وكذلك إبراهيم الأول الذى أخجل بنى عثمان بتهتكه وسوء سيرته . قيل إنه قتل مئة ألف إنسان ، منهم خمسة وعشرون ألفاً بنفسه وأمام عينه ، وأوقد ثورة فى آسيا الصغرى لأنه أراد أن يغتصب زوجة أحد العظماء

(١) التاريخ العام للافيس ورامبو . (٢) معلمة الإسلام . مراد الثالث .

لجمالها . وكان يبنى كل أسبوع ببكر ، وتقام له الأفراح ثم ضعفت أعصابه فأخذوا يصفون له المقويات . قال أبو الفاروق[1] عند كلامه على السلطان مصطفى وكيف انقطع فى قصره عن العالم : وحصر وكده فى شهواته : لقد تفرد آل عثمان من القديم بغلبة الشهوات عليهم ، وقد وقع لمراد الثالث عارض فأخذ أهل القصر السلطانى يتعلمون أدوية الباه من الشرق والغرب وهو يسىء استعمالها .

وأكد بعض مؤرخى الترك أن ملوكهم المتأخرين بعد الفاتحين العشرة من كانوا على غباء محسوس وإسراف على النفس ، لايحفلون بأمور الدولة والناس ، ومنهم من كانوا يعتقدون بالطالع ويخافون من صرعات الجن ، من كانوا على غباء محسوس وإسراف على النفس لا يحفلون بأمور الدولة ويقربون من يزعم من المشايخ أنهم يتسلطون عليها ويشفون من أمراضها ؛ وكان « جنجى خوجه » يدعى معرفة ذلك ويبيع المناصب العلمية بالرشاوى (١٠٥٨) . على أن بعض المداهنين من المؤرخين ولاسيما المؤرخون الرسميون لم يتحرجوا من أن يطلقوا على بعضهم صفات التمجيد وسكتوا عما وقع أو رأوه فلم يدونوه جبناً ورياء ، وأغمضوا عن مساوئ لمن دونوا أعمالهم مما تعدى ضرره إلى الملك فوهت أركانه ، وسارت البلاد إلى الانحلال بخطا سريعة ، وبقى الشؤم ملازماً لها منذ ظهر أولئك السلاطين الماجنون المتجننون .

وأجمع مؤرخوهم أن بايزيد الثانى كان من السفاهة على جانب عظيم فانتشرت المفاسد والمنكرات فى أيامه فى كل مكان بين الخاص والعام ، ونسوا الشرع وعبثوا بأحكام الدين ، وكانت تحمل إلى قصر بايزيد أجمل الفتيات والفتيان من كل أرض كما تحمل إليه أطيب المسكرات وألطاف المغنين والمغنيات والموسيقيين والموسيقيات والمهرجين والمساخر . ولا شأن للكبراء ، وفى طليعتهم صدره الأعظم ، إلا أن يأتوه بما ترغب فيه نفسه من الجوارى والغلمان .

(١) تاريخ « أبو الفاروق » لمراد الداغستانى .

ومن أهم العوامل فى تراجع أمور السلطنة أن ملوكها بعد أن كانوا ينزلون إلى ساحات الوغى بأنفسهم[١] ، وكثير منهم ماتوا فى الغزو أو فى طريق الغزو أخذوا يعيشون عيش الترف ، وثلاثة فقط من ثمانية ملوك ممن حكموا بعد سليمان القانونى حضروا الحروب بأنفسهم ؛ ولما بويع الأطفال بالسلطنة غدا الوزراء والنساء يدبرون شئون الدولة . وأصبح أولاد السلاطين بعد أن كانوا يقودون الجيوش إلى ميادين الحرب ، ويدبرون الولايات والايالات ، بعيدين عن حياة العمل ومعاناة السياسة . وكان آخر من دعى إلى تولى السلطنة وهو يدير الولايات سليم الثانى ومحمد الثالث . وغدا أولياء العهد بعد ذلك يربون فى حجور الخصيان والنسوان ، منعزلين عن الناس فى قصورهم ، يعيشون فى جو كله نعيم وفتنة وكان من أثر هذه التربية أن لا يظهر أولياء العهد بعد توليهم زمام السلطنة لأحد من الناس ، ولا يقيمون العدل ولا يراقبون وزراءهم وحكامهم ، وطفق بعض أولياء العهد يشق عصا الطاعة على السلطنة ، وعجز السلطان عن مراقبة وزرائه لأنه لم يحسن انتخابهم ، ويكون اختيارهم بتأثيرات الموالى والعبيد والنساء ، والوزير نفسه عبد من نصبوه .

كان الملك على الأكثر يختار عماله من مماليكه وعبيده ، ومنهم البستانى والآذن وحارس الكلاب وسائس الدواب وغلام الحمام ، أومن ندمائه ومداحه وخدامه ؛ يدخلون فى الإسلام فيكون منهم قواده وولاته ووزراؤه . وإذا رجعنا إلى أصول الصدور العظام[٢] نشهد أن اثنى عشر منهم فقط من ثمانية وأربعين صدراً كانوا من أصول إسلامية ، وباقيهم من أصل رومى وبجناكى وألبانى ،ممن رأوا فى انتحال الإسلام مصلحة لهم ، فدخلوا فى الجيش واستأثروا بالإقطاعات . ولقد قال وزير المال يوماً وهو عائد من مجلس الوزراء ، وكانت جمهرته من العبدان والمماليك : « أنا آت من سوق العبيد » وما كان

---

(١) التاريخ العام للافيس ورامبو .

(٢) التاريخ العام للافيس ورامبو .

السلاطين أنفسهم غير أبناء إماء تتلاعب بهم أمهاتهم وزوجاتهم فى كثير من الأمور ، ويعبثن بأمور الدولة والملة . يقتلن من يرين قتله من أولاد السلاطين ، ويبقين على من يشأن ، وينصبن الصدور والوزراء والقواد والولاة والمتصرفين ويستأثرون بأموال الدولة ، وكانت تجبى لإحدى الحظايا جباية الشام كلها لنفقتها وبذخها ، وهى السابعة من نساء إبراهيم الأول الذى ارتأى مرة أن الخزانة نضبت أموالها ، فلا يسد العجز فيها إلا المجوهرات التى أهداها أجداده للحرمين . فقال الصدر الأعظم لما سمع بعزم السلطان : لقد سقطت الدولة إلى هذه الدركة بفيلق من الجوارى الناقصات من بنات الروس والبولونيين والمجريين والفرنسيين ، وإبراهيم الأول هو الذى قرر أن يقتل عامة النصارى فى مملكته ، ولم يقنعه شيخ الإسلام بالعدول عن هذا الرأى إلا لما قال له إن فى قتلهم نقص واردات السلطنة ، وإن الجباية تخف إذا قتل فى العاصمة مائتا ألف إنسان .

* * *

لما حارب سليم الأول شاه العجم قتل فى حدود بلاده أربعين ألف شيعى ، فأصبحت للمسلمين دولتان ، إحداهما سنية والأخرى شيعية ، وكلمة الأولى أنفذ ومكانتها بين الدول أعظم . ذلك لأنها تحكم الأماكن المطهرة ، وهى أوسع مجالا وأكثر رجالا ، ومن أجل هذا كانت الدولة العثمانية أبداً عرضة لضربات الغربيين على بلادها ، لما كانوا يخافون من امتداد سلطانها فى الغرب منذ وطئت أقدام جندها قارة أوربا ، فانتبه الغرب بما أُنذر به من غارات العثمانيين على شعوب البلقان ، وما أحرزوه من النصر فى أكثر وقائعهم ، وأيقنوا أن الأتراك إذا تم لهم الاستقرار فى البلقان وما إليه ، لا يلبثون أن يصلوا إلى غربى أوربا وشمالها . وهناك الطامة العظمى على دول النصرانية ، بل على كنيسة رومية نفسها . ويشتد هذا الخوف من العثمانيين لما رأوهم فتحوا بلاد المجر وحكموها مائة وخمسين سنة وهددوا فينا غير مرة . وكانت وقعة سان جوتار أعظم قتال ظفر فيه النصارى بالترك ، لم يعهد لهم مثله منذ ثلثمائة سنة على رواية هامر .

كان ملوك أوربا ، والباباوات فى مقدمتهم ، يجتمعون شمل الغربيين كلها وهى ، ليقاوموا تقدم التيار التركى ، وما تم لهم التوفيق أو شىء يشبه التوفيق أمام سطوة الدولة لعهد قرنين من تأسيسها ، وما حاد الباباوات فى إهاجة شعوب النصرانية على الإسلام ، عن الخطة التى اختطوها فى المقاومة منذ فتح العرب بلاد الأندلس ، إلى الحروب الصليبية ، إلى ظهور الدولة العثمانية . تساقطت الضربات الصليبية على الإسلام قروناً ، وكان الأتراك آخر من كتب لهم أن يَضربوا ويُضربوا قروناً بعد ذلك كثيرة .

كانت الحروب سجالا بين العثمانيين ومن أرادوا غزوهم ، ولكن الغلبة الأخيرة كانت أبداً إلى جانب العثمانيين . وكان العثمانيون يفشلون فى بعض حروبهم مع أمراء البلقان وغيرهم لبعد المسافات ، لأن من الحروب ما يشهرها قوادهم على الحدود لضرورة حافزة ، دون أن يستعدوا لهـا أو يستعينوا بجيش كبير يأتيهم من أنحاء السلطنة ، فقد فتح قواد الحدود ألبانيا والمورة من دون أمر أتاهم من السلطان ؛ لأنه كان لهم الحق إذا رأوا غرة أن يهاجموا من فى جوارهم ويفتحوا بلادهم بدون أمر السلطان ، أى كان لهم الحق والحرية فى أعمالهم لأن للتأخير آفات والبلاد مترامية الأطراف .

فقد فتح الفاتح مثلا بلاد آل قرمان فى آسيا الصغرى بعد حرب أربع سنين ، وما ضمت تلك الإمارة إلى الملك العثمانى إلا بعد أن حاربها العثمانيون عشر مرات فى مدة مئة وست وستين سنة . وقد صمد العرب فى سواحل الحجاز واليمن لحرب البرتقاليين ، لما جاءوا مستعمرين أواخر عهد المماليك المصريين ، وأوائل حكم العثمانيين ، يقصدون الهند وما إليها . فرد الشريف أبو نمى أمير مكة جيش البرتقاليين عن جدة . ورد غيره من الأمراء والشيوخ غارات كثيرة من مثل هذه على أرضهم الداخلة فى سلطان العثمانيين ، وكانت حروبهم مع البرتقاليين يوماً لهم ويوماً عليهم ، وذلك لبعد الشقة ، ولأن الدولة تكاد تحصر جهودها فى استبقاء أملاكها فى أوربا .

تعذر على دول الغرب أن يقضين على سلطان العثمانيين ، ولكن هؤلاء بُلوا بدولة واحدة تكفى حروبها للقضاء على الدولة العثمانية ، ونعنى بها دولة قياصرة روسيا ، فكانت واقفة لهم بالمرصاد منذ ضرب الجيش الروسى بلاد القرم (سنة ١٥٥٩ م) ، وكان خال القرم من عمال السلطنة وأهل بلاده من عنصر تترى إسلامى . وزادت غزوات الروس على الترك العثمانيين بقيام بطرس الأكبر ، وكان هذا يفكر منذ صغره بعقد تحالف نصرانى[1] لطرد الأتراك من أوربا ، وأوصى دولته أن لا تغفل عن حرب الترك ، لتنزع الآستانة وبيت المقدس من سلطتها . وفى معظم الحروب التى شهرتها روسيا على تركيا كان الظفر حليف الروس ، لأن روسيا كانت منذ عهد مصلحها بطرس الأكبر تنظم جيشها بالنظام الأوربى الحديث ، والعثمانيون ناموا على ما كان لجيشهم من قوة وسمعة ، يغرهم عدده ، ولا يعبأون كثيراً بتنظيمه وعدده ، فقد رأينا بطرس الأكبر يرد بأربعين ألفاً[2] جيشاً من الترك مؤلفاً من مائتى ألف على نهر بروت ، ورأينا روسيا أيضاً فى سنة ١٧٦٨ تقضى بسبعة عشر ألف جندى على جيش تركى لا يقل عن مائة وخمسين ألفاً . والدول إذا أقبلت كثرت العدة وان أقلت العدد ، وإذا أدبرت كثرت العدد وأقلت العدة .

ظهرت منذ القرن الخامس[3] عشر فى عالم السياسة الأوربية مسألة سموها « المسألة الشرقية » ومعناها اتقاء الخطر الذى داهم أوربا من زحف العثمانيين عليها . وتغير وجه هذه المسألة منذ بداية القرن الثامن عشر ، فلم تكن المسألة الشرقية مسألة اتقاء خطر ، بل كانت مسألة الإبقاء على الأتراك العثمانيين ، أو تقسيم بلادهم تبعاً لتفاوت الدول فى المنزلة والمصلحة . ومنذ سنة ١٨١٥ كان هم رجال السياسة الأوربية أبداً معالجة المسألة الشرقية وهى تعرض كل مرة فى شكل غير شكلها . وبعد أن كان النساء فى الغرب إذا أردن تخويف أولادهن قلن لهم « جاء سليمان القانونى » أصبحت أوربا فى القرن التاسع عشر

(١) تاريخ روسيا لمارك شنوف . (٢) تاريخ روسيا لسمنوف .

(٣) تاريخ القرن التاسع عشر لمحمد قاسم وحسن حسنى .

تطلق على المملكة العثمانية كلها وعلى سلطانها اسم « الرجل المريض » وحقيقة أن السلطنة كانت مصابة منذ قرنين بمرض داخلي وخارجي . والسبب فى هذه التسمية أن انجلترا وروسيا عقبي حرب القرم سنة ١٨٥٣ كانتا تطلقان هذا الاسم أثناء المفاوضات السياسية على الدولة ، وروسيا تقترح اتخاذ الأسباب لتقسيم إرث الدولة التركية ؛ وانجلترا تجيب إن الأوفق أن يبذل الجهد فى شفاء هذا الرجل المريض .

أمست الدولة العثمانية بعد ضعفها لا تكفى غائلة دولة من دول الغرب ، إلا إذا استعانت بأخرى عليها ، وهذا قلما وقع ، ولا تنتفع إلا من انقسامات الدول العظمى ، فإذا اتفقت مصلحتها ومصلحة إحداهن ترتاح زمناً من المشاكل والغوائل فى بلادها . ففائدتها كانت إذاً فى تخالف الدول ، وتباين أغراضهن فقط . وكانت أيام شبابها تنال من دول أوربا مجتمعات ومنفردات. ولقد قال بعض الباحثين إن علائق الدولة فى القرن الثامن عشر أصبحت ودية مع دول الغرب ، ولا سيما مع انجلترا وفرنسا وهولانده والسويد والدانيمرك فكن يتوسطن لها فى مسائل الصلح ، وكان لفرنسا من ذلك قسط عظيم ، وذلك بعد أن أخذت من الدولة عهداً بامتيازاتها الأجنبية (١٧٤٠م) وأخذت تحمى الرعايا الكاثوليك فى الأرض العثمانية . وقد تعاقدت الدولة بعد تعاقداً يشبه الامتيازات الأجنبية مع الولايات المتحدة والبلجيك والبرتغال واسبانيا .

ولم تر الدولة فى سياستها الداخلية أسهل من إلقاء الفتنة بين العناصر غير التركية على الدوام . تضرب العربى بالتركى ، والأرمنى بالكردى ، والصربى بالأرناؤدى ، والرومى بالكاثوليكى ، والمسلم بالنصرانى ، والفرق الإسلامية المختلفة بأهل السنة . فكانت حروبها الداخلية أيام ضعفها حروب عناصر وشغب بين أبناء الوطن الواحد ، وحروبها الخارجية مع دول قوية كالنمسا وروسيا والبندقية . وتروج سياسة التفرقة أيام الأزمات السياسية ، ويتجاهر أهل الدولة فى الدعاية إليها ، وتحريك العرق الحساس فى الغوغاء من الناس .

أرادت الدولة يوم ثورة المورة أن تنتقم من الروم فى مملكتها ، لأن أبناء دينهم فى الأرض الأوربية هبوا يطالبون باستقلالهم . فأوعزت إلى والى دمشق أن يقتل المسلمون جميع نصارى الشام من طائفة الروم الأرثوذكس ، فاستشار الوالى أعيان دمشق فأشاروا عليه أن يكتب إلى العاصمة أن ليس فى البلاد خائن ، وأن النصارى عبيد السلطنة يؤدون الجزية ، وبذلك نجا نحو خمسين ألفاً من القتل . ولما أرادت الدولة أن توطد حكمها فى الشام أثارت الدروز على النصارى فى لبنان ، وأهاجت غوغاء المسلمين والدروز على نصارى دمشق وما إليها ، وتدخلت الدول فى الأمر فحكمت المحكمة العسكرية على بضع مئات من المسلمين بالقتل والنفى وغرمت الأهلين غرامات فاحشة ، وما عاقبت الدروز على أعمالهم فى الثورة الأهلية لحماية انجلترا لهم .

كان من تخالف الرعايا فى المذهب ، وتباينهم فى الأخذ بحظ من المدنية ، سلسلة من المصائب لا تنتهى إلى حد . وفى ألفاظ التحقير والملق التى كانت تطلقها الدولة فى بعض رسائلها الرسمية على غير المسلمين ، وفى ألقاب العبودية العجيبة التى تلقب بها موظفيها[1] ، وتطلقها على سفراء الدول حتى القرن

---

(١) صدر عن سليم الثالث كتاب سلطانى بعث به إلى قوجه يوسف باشا لما عينه للصدارة المرة الثانية ، كان غريباً فى معناه قال له فيه : يا يوسف باشا لو حزت رضاى فى وزارتك السابقة ما عزلتك ولكنك حدت عن جادة الاستقامة وظلمت وتعديت ، وتناولت الرشوة ، وجريت على الهوى بما لا يليق صدور مثله من الصدور ، بل ولا من الوزراء ، وربما لا يليق مثله بعوام الناس ، وعاملت رؤساء الجند خلال الحملات بخشونة وعنف وتهديد ، فردوا واستوحشوا ، وتعطلت الأعمال إلى أمثال ذلك مما يخالف رغائبى السلطانية ، ولذلك نحيت عن الصدارة والآن أعدت إلى منصبك والمأمول أن تكون قد رجعت عن أعمالك فإذا بلغت مسامعى السلطانية أنك سرت فى صدارتك الجديدة على ما كنت عليه ، وارتكبت أقل خطأ من خطيئاتك السابقة ، لا أكتفى هذه المرة بعزلك بل لا بد من إهلاكك ، فاعتصم بما يجب عليك من العفة والاستقامة ، وارحم الفقراء واشملهم بشفقتك وارجع عن أغراضك النفسية لا تضمر الشر لأحد ، وتب من الرشوة فى سرك وجهرك ، ووفق أعمالك على ما يجلب لك رضا الحق ورضا سلطانى ، ثم ذكر ما ينبغى له جمعه من أدوات السفر لحرب عينها له ، وأنه سيعود ظافراً من حربه بما أوتيه من حسن حيلة ونافع معرفة .

السابع عشر — فى كل هذا دليل على ذاك الروح الذى تريد الدولة بثه فى الناس ، وهو روح التعصب والتقزز من كل مخالف . ومثل هذه السياسة العوجاء يكتب لها النفاق كثيراً فى بلاد ضمت أرجاؤها عشرين نحلة ومذهباً ، وأهلها متأخرون فى سلم المدنية . وما كان للعقلاء سلطان على أحد ليضع حد لهذا التهور ، مخافة ألا تقع نصائحهم موقع الرضا من نفوس السياسيين . ولولا أن حض الإسلام على حماية أهل الذمة ، ووصى بهم أحسن توصية ، لاضمحل غير المسلمين فى كل بلد كانت كثرته الغامرة منهم ، ورأينا الغرم فى كل فتنة أهلية على السكان ، والغنم للدولة على الأكثر . وفيما عامل به النصارى فى البلقان جمهور المسلمين ، لما كانت تكتب لهم الغلبة على الدولة ، من ضروب الإفناء ، وهتك الأعراض وتدمير العروض ، برهان جلى على ما كانت تكنه صدور النصارى من الأحقاد على المسلمين ، بسبب أولئك العمال الذين كانوا يصدعون بأمر ساسة الآستانة ، لإيقاد جذوة التعصب بين الطوائف وما كانت هذه السياسة بالتى تخفى على رجال السياسة فى أوربا . بيد أن الدولة فى مؤخر أيامها كانت تسكت الدول النصرانية بإرشاء القويات منهن بامتيازات تصان فيها حقوق غير المسلمين أكثر من المسلمين . وهناك رؤساء دين يمتون إلى إحدى الدول العظمى بحق المذهب ، ودالة الحسب والنسبة . فطائفة تنتمى إلى روسيا ، وأخرى إلى إنجلترا ، وغيرها لفرنسا ، والمسلمون من بين عناصر السلطنة ، ولاسيما العرب منهم كانوا أشبه بالمنومين أو المخدرين باسم الدين . كأنه لا جناح على الدولة أن تظلهم لأنهم عبيدها ، وكان علماء بغداد لما وافاها التتر أفتوا أن الدولة الكافرة العادلة خير من الدولة المسلمة الظالمة . كانت الدولة فى أيام عزها إذا أتاها أحد سفراء الأجانب أيا كان يحمل إلى السلطان وإلى وزرائه الهدايا الفاخرة ، فلما تراجع أمرها أخذت هى تلطف لأكثر وكلاء الدول وتهاديهم وتتاحفهم وتتساهل معهم ومع رعاياهم ، حتى لقد اعترف ريشاروود[1] الإنجليزى أن الكنائس كثر عددها جداً فى بلاد السلطنة ،

(١) تقرير الإسلام والإصلاح لريشاروود .

خصوصاً ما كان منها للأجانب ، وبرهن على تساهل الدولة العثمانية بإعفائها كل ما يرد إلى بلادها برسم الكنائس والأديار والمستشفيات وغيرها من الضريبة الجمركية ، سواء كان أثاثاً أو لباساً أو كتباً أو آلات أو طعاماً أو غيرها . قال وهذا الأمر لا نعلم أنه يوجد فى بلاد أخرى . وفى الامتيازات الأجنبية من البلاء وغمط حقوق الوطنيين والإغضاء عن ريع الدولة ما لا ينكره عاقل .

* * *

زاد فى القرن التاسع عشر تدخل الدول العظمى فى أمور السلطنة ، بطرق سياسية خفيفة الملمس فى الظاهر خشنة عند التنفيذ وما أخذ الملوك فيه من عنان استبدادهم وشهواتهم ، ولا حدثتهم أنفسهم أن يدخلوا إصلاحاً حقيقياً على أوضاع السلطنة التى صارت إلى البلى . وكانت تتذرع بالمحافظة على الظواهر الصورية ، أكثر من التشبث بالجد والعمل النافع . مثال ذلك الجيش حامى حمى المملكة فى داخلها وخارجها ، فإنه كان أيضاً صورياً . فبعد أن قضى محمود الثانى على جيش الانكشارية الذى كاد يؤدى بالدولة إلى الاضمحلال ، لم يستطع أن ينظم جيشاً يصلح حقيقة للدفاع والهجوم ، لأن روح الدولة قام بالفوضى فصعب عليها أن تعمد إلى النظام ، وأرادت من جيشها الجديد أن تتبع فيه أيضاً سياسة إرضاء الغربى ، فكان جيشاً غريباً فى تكوينه اسمه النظامى فقط ، وهو الفوضى بعينها فى تركيبه وتدبيره وتهذيبه . ووصفه أحد مدربيه الضابط مولتكه الألمانى بقوله : إنه كان على مثال الجيوش الأوربية ولكن معاطفة[1] روسية ، ونظامه فرنسى ، وبنادقه بلجيكية ، وعمائم أفراده تركية ، وسروجه مجرية ، وسيوفه إنجليزية ، ومعلميه من كل أمة ، وهو مؤلف من جماعة الاحتياط ممن لا حد لخدمتهم ، ورؤساؤه من المجندين آنفاً . ومنهم من كانوا بالأمس أعداء وكأنه مجموعة عناصر ومدنيات .

وهذا الجيش العجيب التركيب هو الذى انهزم المرة بعد المرة أمام جيش محمد على والى مصر ، فتقدم واستولى على الشام وقليقية ووصل إلى كوتاهية

(١) تاريخ الحضارة لسنيوبوس .

فى صميم أرض آسيا الصغرى، وهدد دار الملك ، وأثبت أن قوة الدولة كانت ورماً لا شحماً ، وأن دعوى قوتها خيال أكثر مما هى حقيقة . وأى غضاضة على الدولة أن ينهزم جيشها أمام أحد ولاتها ، حتى اضطرت أن تعقد مع روسيا معاهدة « خنكار اسكله سى » لتدفع عنها بأس أحد عمالها، فنجدها باثنى عشر ألف جندى لتحميها فى عُقر دارها من جيش محمد على وابنه ابراهيم . وأى ضعف أفظع من أن يقوم تركى من ولاة الدولة فى طرابلس الغرب (١١٢٣ هـ) اسمه أحمد قره مانلى ، ويبايع له بإمارة طرابلس على عادة الولاة فيها أيام العثمانيين ، ويسمى بأمير المؤمنين[١] ، ويستقل وآله بطرابلس قرناً وربعاً (١٧١١ إلى ١٨٣٥) بمال دفعه إلى أحمد الثالث[٢] ، ولا ينتهى حكمه فى ذاك القطر إلا بإيعاز انجلترا للدولة سراً أن تتقدم إلى إرجاع سلطتها على تلك الولاية . وكانت انجلترا عقدت مع ذاك المتغلب — الذى أطلق عليه أو أطلق على نفسه لقب أمير المؤمنين فى بلاد أمير المؤمنين — معاهدة من دون أخذ رأى الدولة المنتمى إليها ، لتأمن على أسطولها من غزوات سفنه وقرصانه (١١٦٤ هـ) ، وتضطر سفنها إذا صادفت سفن القرة مانلى فى عرض البحر إلى إظهار جوازها لقائد سفنه .

ومثل هذه المعاهدة عقدتها مع طرابلس فى عهد آل القره مانلى جمهورية البندقية وجمهورية طسقانه ومماكة نابل ومملكة فرنسا وغيرها من أمم الجنوب. وعقدت الولايات المتحدة الأمريكية (١٢٢٠ هـ) معاهدة تقضى بأن ترفع طرابلس الرق عن النصارى . وكان لطرابلس جُعل معين تتقاضاه من دولة السويد . ذلك لأن الدول البحرية كانت تخاف على تجارتها من غزو قرصان البحر فى شمالى إفريقية . وشأن أسطول طرابلس ووقرصانه فى هذا المعنى شأن أسطول تونس والجزائر ومراكش . وكان فخر[٣] الدين المعنى الثانى أمير جبل لبنان وما إليه عقد قبل أكثر من قرن مع كوسموس الثانى كبير

(١) التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار لابن غلبون .
(٢) معلمة الإسلام . مادة قرة مانلى .
(٣) خطط الشام للمؤلف .

دوجات طسقانة ، معاهدة دفاعية هجومية ، وذلك فى غفلة الدولة العثمانية ، واستظهر بأسطول فرديناند الطسقانى فغلب على أكثر سواحل الشام وقهر جيش الدولة (١٠٤٣هـ) ، ومثل ذلك وقع لباى تونس وهو وال عثمانى فى سنة ١٥٧٧ فعقد معاهدة مع فرنسا[1] وبعد سنة ١٧٤١ عقد بايات تونس عدة معاهدات مع الدول النصرانية باسم تونس فقط .

وعلى هذا بدأت دول برأسها تنفصل بطرق مختلفة عن الدول العثمانية ، وإن كان ظاهرها أنها تابعة لها . ولو ظلت الدولة وحدها تصاول روسيا فقط لقضت هذه عليها ، واستولت على المضايق وخرجت إلى البحر المتوسط ولكن ذلك لم يكن من مصلحة انجلترا ، فكانت هذه منذ اتحدت روسيا والنمسا (١٧٨٧) على تقسيم البلاد العثمانية فى أرض أوربا تسعى بما أوتيته من دهاء سياسى لفصم عراكل اتحاد ينتهى بضرب الدولة العثمانية الضربة القاضية . وكانت أوربا فى هذه الحقبة ترى بقاء السلطنة العثمانية ضرورياً للتوازن السياسى . ولما رأت بريطانيا العظمى أن معاهدة « خنكاراسكله سى » بين العثمانيين والروسيين تقضى بجعل السلطنة العثمانية تحت حماية روسيا ، سعت مع الدول الأخرى إلى حل المسألة الشرقية بالطرق السلمية . واتفق الدول ما عدا فرنسا أن لا تتجدد هذه المعاهدة بين العثمانيين والروسيين ، وأن السلطان إذا اقتضت له معاونة لسلامة بلاده تعاونه الدول على أن تبقى المضايق والدردنيل تحت إشرافهن . ولما طلبت روسيا أن تحمى الروم الأرثوذكس فى بلاد السلطنة ، على ما كانت فرنسا منذ القديم حامية الكاثوليك فيها ، نشبت حرب القرم ، وحطمت روسيا أسطول تركيا فى البحر الأسود ، وكادت فيالقها تصل إلى الاستانة ، فأرسل الإنجليز والفرنسيس والطليان أسطولا وجيشاً لمعاونة الدولة العثمانية ، فظفرت هذه بالروس (١٨٥٦) مع الدول المحالفة لها ، ودفعت بريطانيا نفقات الحرب ، وضمنت السلطنة استقلالها .

---

(١) معلمة الإسلام . مادة تونس .

ورأينا مما تقدم أن الدول كانت إذا بدا لهن مأرب يساعدن الدولة ، ويتحببن إليها ، على ما كان من نابليون لما حملها على حرب روسيا قبل أن يغزوها بجيشه في أرضها ، وكما فعل غليوم الألماني في العهد الحديث ، فإنه ما زال يتقرب منها حتى جرها في الحرب العامة إلى القتال في صفوف حلفائه ، ففقدت نصف أملاكها وأقفرت بلادها ، وقتل مئات الألوف من أبنائها ، وما منعت سياسة الدول واختلافاتهن من معاونة اليونانيين والرومانيين والبلغاريين والصربيين على استقلالهن ، وأن يرسل بعضهن لتلك الإمارات رجالا ومالا وعتاداً ، لأن البلقانيين شعوب نصرانية يجب فصلهم عن دولة الخلافة ، وأردن أن يعملن مثل ذلك للأرمن ، لولا أنهم كانوا متفرقين في كثير من الولايات ، لا يؤلفون جمهرة كبيرة في قطر واحد .

بعد أن أخفق العثمانيون في الحرب التي انتهت بصلح أدرنة ، وبه انسلخت رومانيا عن تركيا ، واستقلت الصرب بدفع خراج معين للسلطنة ، واعترفت الدول باستقلال اليونان ، أصبحت هذه الإمارات بحكم مذهبها تحت وصاية روسيا ، وأصبح الحق لدولة القياصرة أن تدخل المضايق والخليج إلى الآستانة ، وعندئذ لقب الإمبراطور نقولا الروسي الدولة العثمانية بالرجل المريض (١٨٢٩) ، ولا تفتأ انجلترا تقول: لا بأس بالعمل على شفاء الرجل المريض ، والواقع أن ثلاثة أرباع مصائب الدولة أتتها على يد روسيا . كأن هذه الدولة جاءت في العصور الحديثة تنتقم من الأتراك عما نالها من مصائب إخوانهم التتر أو المغول ، من غزو بلاد الروس في العصور الوسطى .

وكانت تركيا في كل نازلة سياسية وقعت فيها تتذرع بما لا ينتج من الاحتجاج ، أو تهدد بالجامعة الإسلامية ، وكل احتجاج يعقبه استسلام واستكانة للأمر الواقع . احتجت على احتلال انجلترا مصر (١٨٨٢) وعلى ضم الروم إيلي الشرقي إلى بلغاريا (١٨٨٥) ، وعلى المراقبة الإدارية على مقدونية ، وعلى ضم البوسنة والهرسك إلى النمسا ، وعلى ضم كريت إلى اليونان ، وما أجدى

احتجاجها ولا قلامة ظفر ، والدول ذوات الشأن يعملن ما يصلحهن ، ويتفق مع مصالحهن ، ولما حاربت الدولة العثمانية حكومة اليونان تقدمت الدول فأعلنت أن الغالب لا ينال من المغلوب شيئاً من أرضه فخرجت الدولة ظافرة ، ولم تجن ثمرة انتصارها . أما التهديد بالجامعة الإسلامية فلم يأت الدولة العثمانية بفائدة أيضاً ، وربما عاد بضرر على المسلمين الذين قضى على بلادهم أن تحتلها فرنسا أو انجلترا أو إيطاليا أو هولاندا أو روسيا ، فتشتد الدول المحتلة لبلادهم فى الضغط عليهم ، وإحصاء أنفاسهم عليهم كلما كانت تردد تلك النغمة . على أن المسلمين تختلف أغراضهم فى قطر عن آخر ، والناس أرغب فى السلام مهم فى الخصام ، إذا لم تسقهم يد جبابرة إلى الحرب ، ولم يكن لهم منها مغنم عظيم ، لا يعرضون حياتهم وراحتهم للخطر ليجيبوا داعى الجامعة الإسلامية .

كانت خسارة الدولة فى كل حرب حاربتها فى القرن التاسع عشر كبيرة فى المال والرجال والبلاد ، حتى اضطرت إلى فتح أبواب الاستدانة من أوربا بالفائدة الفاحشة ، ولا تفتأ تحمل ما خسرته من الضرائب والمكوس من ولاياتها المفقودة على ولاياتها الموجودة . بدأت بالاقتراض فى حرب القرم وما مضت أعوام قليلة حتى عجزت عن وفاء ديونها وأعلنت إفلاسها (١٨٧٦ م) فبدأ استعبادها الاقتصادى وظلت على ذلك إلى آخر أيامها . وكيف لا تختل ماليتها والفوضى عامة شاملة فى عامة فروع الإدارة ، والسلطان يأخذ ما يشاء ويترك ما يشاء من مال الدولة بدون حساب . بدد السلطان عبد المجيد أموال السلطنة ، وكان السرارى والجوارى والمقربون فى القصر السلطانى يحكمون فى مقدرات البلاد بدون علم ولا تجربة ولا إخلاص ، ولما زوج هذا السلطان ابنته أنفق على جهازها وعرسها مليونى ليرة فرنسية ذهبية . وآلى عبد العزيز من بعده أن يمسك عن الإسراف لأول سلطنته ، ثم عاد إليه على صورة بشعة[1] ، وتعهد أن يكتفى بزوجة واحدة ، فأصبح فى الحرم بعد مدة تسعمائة امرأة وثلاثة آلاف خادم ووصيفة ، وكانت تمد فى قصره كل يوم خمسمائة مائدة

(١) التاريخ العام للافيس ورامبو .

ويجلس إلى كل واحدة منها اثنا عشر شخصاً ؛ فشقيت الدولة بإدارته ، وأصبح لا ينفذ أمراً للوزراء فتآمروا عليه ، وأخذ هو يفاوض روسيا سراً لتحميه ، ويتذرع بنقل ثروته إلى البلاد الأجنبية ، فتمكن رجال الدولة من خلعه بفتوى من شيخ الإسلام — كما كان رجال الدولة خلعوا إبراهيم الخليع بفتوى أيضاً — أثبتوا عليه العته والجهل بالأمور السياسية ، والإسراف فى أموال الدولة ، بما لا تستطيع تحمله لينفقه فى شهواته ، وأنه أخل بعمله فى أمور الدين والدنيا فساق الملك والدولة إلى الخراب .

وما كان عبد الحميد الثانى أقل إسرافاً فى المال من أبيه وعمه ، فإنه اقتطع ألوفاً من القرى من أيدى مالكيها وجعلها ملكاً خاصاً له تدر عليه مليونى ليرة عثمانية ذهبية كل عام . ومنها كان ينفق كل يوم البدر على جواسيسه ومقربيه والصحف الأجنبية وبعض من يعتقد فيهم له النفع من ساسة الغربيين وسماسرتهم ، وتصرف فى قصره مئات الألوف من الدنانير على البذخ والزينة والأطعمة ، كان جيشه جائعاً وضباطه وعماله وصغار موظفيه لا يقبضون رواتبهم سوى أشهر معدودة فى السنة ، ولما زار الإمبراطور غليوم الثانى بلاد السلطنة العثمانية أهدى عبد الحميد للإمبراطورة تاجاً قوم بنصف مليون جنيه عثمانى فقال الإمبراطور إن الأتراك مجانين ، ولو عقل عبد الحميد لأهدى الإمبراطورة تذكاراً منه فيه خطه أو شارته ، وصرف هذا المبلغ الجسيم على التاج المهدى إلينا فى ابتياع بارجة حربية يصون بها سواحل ملكه ، فعبد الحميد كان والأمر على ما ذكر صورة من أعظم الملوك المستبدين ، وكان من يرضى عنه يغدق عليه من الأموال والرتب والأوسمة ما يعمى به بصره وبصيرته ، وفوق هذا يغضى عنه فى كل ما تطمح إليه نفسه من مال الدولة والملة ، وبلغ من حجره على الأفكار والحرية طوراً مضحكاً مبكياً ، ومن جوده بالرتب والمراتب وشارات التشريف ومظاهر الأبهة ما لم يعهده من قبل ولا من بعد ، فقد يرقى طفلا لأحد مقربيه فى الرتب العسكرية ويصل به إلى رتبة المشيرية ، أرقى مناصب الدولة فى الجندية ، وهو غلام يافع ، ويشرف بأوسمته المومسات والمهرجين والمتجسسين .

كان عبد الحميد تعهد للوزير مدحت لما نصبه سلطاناً أن يؤسس حكومة دستورية نيابية وما لبث أن أحرق فيما قيل دار مدحت، ليحرق فيه سند تعهده، ثم قتله فى الطائف، لأنه خلع عبد العزيز الذى قيل إنه انتحر وقيل إنه نُحر. يقول لاموش[1] إن عبد الحميد كان على دهاء ومكر ونشاط للعمل، ولو قدر له أن يعمل إلى جنبه وزير من مثل مدحت لأعاد إلى السلطنة بهاءها ولكن عبد الحميد كان يكره الرجال العقلاء ولا ثقة له إلا بمن يدلس عليه، وأعدى عدوه من ينصح له شأن كل مستبد جبار، وكان رجال المابين فى عهده من أخبث الرجال.

* * *

كان رجال الدولة على مثل اليقين أن السلطنة إذا لم يدخلها الإصلاح على مثال الدول الغربية يقضى عليها لا محالة. فنهض فى القرن الماضى جماعة من كبار الموظفين فى العاصمة ثم تبعهم بعض علماء[2] الدين يفكرون فى الطرق التى تؤدى إلى إنقاذ الدولة وقبول مدنية الغرب، وانتشرت هذه الأفكار فى الولايات، ولا سيما بين الأتراك فى آسيا الصغرى وعرب الولايات العربية. وأيقن العثمانيون المسلمون أن الحاجة ماسة إلى الإصلاح، لما شاهدوا أن معظم بلاد الإسلام استولى عليها الدخلاء، فانضم جمهور المطالبين من الأتراك إلى جمهور من العرب، وحالت الأحوال ومضت الأعوام، وبعد أن كانت هذه الأفكار تجول فى صدور أفراد أصبح يرددها الخاصة وكثير من العامة، وعلى أثر ذلك نشأت جمعية الاتحاد والترقى مؤلفة من معظم عناصر السلطنة. على أن يكون الأتراك أرباب الكلمة النافذة وحدهم فى المملكة العثمانية. وأثارت الجمعية الجيش فى الروم إيلى فخاف عبد الحميد الثانى وأعاد فى سنة ١٩٠٨ القانون الأساسى الذى كان أبطله أوائل حكمه (١٨٧٦) وأراد أن يعيد حكومته الاستبدادية بعد قليل، فأنشأ جمعية ارتجاعية سماها الجمعية المحمدية قامت بفتنة

(١) تاريخ تركيا للاموش. (٢) معلمة الإسلام، ترك.

فى العاصمة وقتلت أناساً من الأحرار والمنورين ، فانتهى الأمر بخلعه ، وجيء بأخيه رشاد باسم محمد الخامس ، وكان فيه شيء من بله السلاطين ، فأصبح ألعوبة بأيدى الاتحاديين الذين كانوا قبضوا على زمام السلطنة منذ أبعدوا عبد الحميد من الملك . ولما قضى محمد الخامس نحبه جيء بأخيه وحيد الدين باسم محمد السادس ، فارتمى فى أحضان دول الحلفاء أواخر الحرب العالمية ، فأخذت الحمية الوطنية بعض رجال الدولة ، وألفوا فى آسيا الصغرى جيشاً قضوا به على الجيش اليونانى الذى كان احتل بإيعاز من بعض الحلفاء معظم ولايات أدرنة وأزمير وبروسا ، وضربوا اليونان فى وقعة سقارية (١٩٢٢م) ضربة دامية ، ووضعوا السيف فى أروام السلطنة ما خلا الاستانة ، ويومئذ صار لتركيا صوت يسمع فى السياسة ، وكان دول الحلفاء قرروا تقسيم آسيا الصغرى إلى مناطق نفوذ بينهن أو بين انجلترا وفرنسا واليونان . ولما رأى محمد السادس ما ارتكبه من الجرم الفظيع ، غادر عاصمة السلطنة على بارجة انجليزية ونادى المجلس الوطنى التركى بعبد المجيد خليفة ، ولم يلبث غير قليل حتى قرر المجلس الوطنى إسقاط الخلافة العثمانية (١٩٢٣) وطرد جميع آل عثمان من البلاد العثمانية ، ونادى بمصطفى كمال ، صاحب الأعمال الحربية التى حفظت على الأتراك استقلالهم ، رئيساً للجمهورية التركية .

لما نشبت الحرب العالمية الكبرى فى سنة ١٩١٤ انضمت تركيا إلى ألمانيا والنمسا والمجر فخرجت هذه الكتلة من الحرب مغلوبة ، وقيل إنه كان من الحلفاء وفيهن انجلترا وفرنسا أن قطعوا لشريف مكة الحسين بن على عهداً (١٩١٦) تكون به بلاد العرب مستقلة فمشى فى صفوفهم ، والتحق به جماعة من أبناء العرب العثمانيين من جنود وضباط ، فنادى به الحلفاء ملكاً على الحجاز ، وقام بثورته حتى دخل الحلفاء الشام . وكان بعض المنورين من أبناء العرب ، ولا سيما بعض رجال الجندية والإدارة ألفوا فى أواخر العصر الحميدى جمعيات سرية لتطالب الدولة العثمانية بإصلاح حال العرب أو لتنزع يد العرب من طاعة الترك ، وساروا على مثال الأتراك فى التغالى

بحب الجنسية والقومية ، ولم يكن لهذه الفكرة من أثر قبل سنين قليلة فى غير قليل من الرؤوس المفكرة فى العرب . وجاهر الأتراك الاتحاديون بتتريك العناصر منذ قبضوا على زمام الملك ، وهذه الخطة من الخيالات التى لم تتم للأتراك أيام عزتهم ، فصعب تحقيقها وهم فى دور انحطاطهم ، وما أورثت المجاهرة بها غير تمزيق أجزاء القلوب ، وتأريث نار البغضاء بين العناصر ، ولا سيما بين التركى والعربى ، وانتبه العرب إلى ما يراد بهم ، وعلمهم غلاة القومية التركية ما لم يكونوا يختلفون به كثيراً من التناغى بالقومية ، فزاد عدد المبغضين للحكم العثمانى . وكذلك فعل الألبان فى السلطنة فأنشأوا الجمعيات السرية وتناغوا بتعلم لسانهم وتاريخهم على نحو ما كان من الأرمن والصرب والبلغار والرومان واليونان .

خرجت الدولة فى حرب سنة ١٩١٣ مع البلقانيين من أرض الروم إيلى بعد أن حكمته خمسمائة سنة وكانت افتتحته فى خمسين ، فاقتطعت منها ولايات أدرنة وقوصوة وأشقودرة ويانيا ومناستر وسلانيك ، كبرت بها رقعة دول البلقان . وكانت إيطاليا فى السنة التى قبلها (١٩١٢) استخلصت طرابلس وبرقة (ليبيا) من أيدى العثمانيين وضمت إليها الجزائر الاثنتى عشرة (دودكانيز) كما ضمت اليونان جزائر أخرى فى البحر المتوسط ، وضمت انجلترا جزيرة قبرص (سنة ١٢٩٥ هـ [1]) .

---

(١) ولقد كتبنا مقالة فى جريدتنا « المقتبس » صدرت فى دمشق يوم ١٩ شعبان ١٣٣١ و٢٣ يولية ١٩١٤ قبل الحرب العالمية وقلنا فيها ما نصه تحت عنوان « العيد السادس » .

تمت أمس السنة الخامسة لنشر القانون الأساسى فى السلطنة ، واليوم ندخل فى عامنا السادس ، نودع الماضى غير آسفين ، ونستقبل الآتى مؤملين مستبشرين .

ولقد جرت عادتنا على رأس كل عيد أن نقدم للقراء صافى حساب السنة الفائتة ، ومن الأسف العظيم أن العجز قد أربى كثيراً هذا العام على الدخل ، والبأساء قد زادت على النعماء .

فقد انتكبنا خلال الحول الماضى نكبة لم يكد يعهد لها نظير فى تاريخ دولتنا ، فكانت حربنا سجالا مع إيطاليا فى طرابلس وبرقة منذ ثلاثة وعشرين شهراً ، فاستمات الطرابلسيون فى الدفاع عن بلادهم ، وقصرت الحكومة فى إغاثة لهفتهم ورد عادية الأجنبى عنهم ، ولما أعلنت حكومات البلقان الحرب علينا فى الخريف الماضى ، اضطرت حكومتنا إلى أن تعقد مع إيطاليا الصلح على طرابلس وبرقة صلحاً أخرجنا من آخر أملاكنا فى قارة إفريقية . =

— ويـومنا — لعمرو الحق — أن الحكومة التي تساهلت ضمناً في حماية ليبية بحجة اتقاء الهجمات على الروم ايلي قد خانها السعد ففقدت ما لم يهمها وما أهمها أيضاً ، ولم يقصر جندنا المسكين في الدفاع ، ولكن سلاحه ومؤونته وقيادته كانت دون ما عند البلقانيين من مثلها ، وبينا كان الجوع والعرى والخلل سائداً في صفوفنا في أشد شهور الشتاء برداً ، كانت أسباب الراحة موفورة عند أعدائنا المتحالفين علينا بلغاريا وصربيا ويونان والجبل الأسود .

وما راعنا اتفاق هذه الحكومات الصغرى علينا ، وتحالفهم في غفلتنا عنهم ، بقدرما راعنا خذلان الألبانيين لنا ، بعد أن رأيناهم منذ خمسة قرون في طليعة المقاتلين في جيشنا . ورأينا ألبانيا تخرج أعاظم رجال العلم والسياسة الذين أخلصوا في خدمة الدولة العثمانية ونشلوها من سقوطها مرات .

وأعظم من هذا وذاك أن الألبانيين هم الذين أعلنوا القانون الأساسي في الحقيقة . ومن بلادهم انبعث قبس الحرية ، ومع هذا كنا بسوء سياستنا معهم ، وحملتنا عليهم مرتين بدون حق ، وتقتيلنا رجالهم وتخريبنا ديارهم ، وتجريدهم من سلاحهم ، نحن الحاملين لهم على شق عصا طاعتنا ، والخروج عن جماعتنا .

فبدلا من أن يقاتلوا معنا عدونا وعدوهم ، قلبوا لنا ظهر المجن فذكرونا يوم الخطوب بما لقوه من أفاعيلنا ، وتخلوا عن نصرتنا ، بل وجهوا وجوههم نحو غيرنا ، فكان ذلك من أهم الدواعي إلى خروج الروم ايلي عن حكمنا ، فسلمنا في خمسة أسابيع ما تعب أجدادنا في فتحه خمسين سنة .

لما أعلنت الحرية تصافح أهل الأديان المختلفة في السلطنة ، وتآخى المتنافر من العناصر ، وبطل عمل العصابات البلغارية واليونانية والصربية ، وأحسنت أوربا ظنها بنا ، فأخرجت مقدونيا عن المراقبة الدولية ، على أمل أن نستجمع قوانا ونصلح أنفسنا بأنفسنا ، ولكن ظهر بعد بضعة أشهر أن تلك الفئة التي قبضت على قياد الملك لأنها هي الساعية لنيل الحرية ، أخذت تقبل في جملتها الشريف والوضيع ، والصالح والفاسد ، فتراجع أمرها ، والتوت مقاصدها ، وعاد من ذلك الضرر العميم على الأمة والدولة .

بدأ غدر جيراننا بنا بإعلان بلغاريا استقلالها ، وضم الروم إيلي الشرقي إلى أملاكها ، واكتساح النمسا والمجر لولايتي البوسنة والهرسك ، ثم قيام الفتن الداخلية التي أوجدناها قبل إيجادها ومنها فتن الارتجاعيين ، وخلع السلطان عبد الحميد ، وفتن اليمن وعسير وحوران والكرك والعراق ، فقتل في هذه المعارك والحروب من الرعية والجند ما لا يقل عدده عن نصف مليون نسمة في خمس سنين فتعطلت بذلك الزراعة ووقف دولاب التجارة ، وأصيبت الأمة والدولة بأزمة مالية شديدة لم تكد ترى مثلها .

وإذا قضى القانون الأساسي أن يحارب غير المسلمين أعداء الوطن العثماني ، كان من البلغاريين والصربيين واليونانيين من التبعة العثمانية في مقدونية وتركيا أن ساعدوا تلك الحكومات ، وفروا يكثرون صفوفهم . أما البلاد الأخرى فقد زادت هجرة المسلمين وغيرهم منها ، وبعضهم للتخلص من الخدمة العسكرية ، فبارت بعض أصقاع سورية مثلا من قلة اليد العاملة ، وإذا دامت الحال على ذلك ثلاثاً أو أربع سنين تنقص الجباية فلا تستطيع الحكومة أن تتقاضى من الأعشار والأموال والضرائب نصف ما تستوفيه الآن . ولا نغالي إذا قلنا إن مجموع ثروتنا قد نقص كثيراً في —

— السنين الخمس الأخيرة ، فكثرت الحرائق فى العاصمة وبعض مراكز الولايات ، واشتدت الأوبئة فى بعض أصقاعنا ، وأضعنا من عددنا فى بريتنا وبحريتنا ما يقدر بعشرات الملايين من الليرات .

كل هذا والحكومة لم تنظر إلى العلة من أصلها فتنتزعها ، ولم تقم بتدبير يسكن الأفكار ويزيد الثروة ويقلل الفقر ، بل إن المجلس النيابى الأول صرف وقته فى الجدالات الحزبية ، ولما قويت شوكة المعارضين الذين كانوا يعدون الأمة الوعود الكثيرة إذا هم قبضوا على أزمة الحكم ، انحل المجلس الأول وحل محله مجلس انتخب نوابه بسيف القهر والضغط . ثم استولت على الأمر وزارة مخالفة فغضت المجلس أيضاً ، وهكذا لم نستفد من مجلسنا النيابى سوى القيل والقال واحتدام الخصام والجدال ، اللهم إلا بعض قوانين ضئيلة ليس فيها كبير أمر ، ومعظمها يرمى إلى تقييد حرية الصحافة ، وحرية الاجتماع والحرية الشخصية ونظريات كأنها علم جابر يتعذر تحقيقها ولا تأتى الأمة بفائدة .

وكيف نقول إننا تمتعنا بالحرية على أصولها والعاصمة قد عاشت معظم سنى الدستور تحت الأحكام العرفية وكذلك بعض الولايات وذلك من غير داع سوى الوهم وكان من بعض الأغمار أن اتبعوا سياستين غريبتين أضرت إحداهما بالداخل والأخرى بالخارج ، ونعنى بهما سياسة « تتريك العناصر » وسياسة « الجامعة الإسلامية » فالأولى نفرت قلوب شعوب المملكة لأن لغة المرء عزيزة عليه كدينه ، ومن لم يغر على قوميته يستحيل عليه أن يغار على عزيز عليه . والثانية نفرت أوربا منا فتراءى للنمسا وروسيا أن العثمانيين عادوا إلى حماستهم الأولى بإعلان الحرية ، ويوشكون بقوتهم المادية وقوة المسلمين من غير العثمانيين المعنوية ، أن يسترجعوا ما كانت أخذته تانك الدولتان من أملاكنا ، وأن يعود العلم العثمانى فيخفق على بودابست والقارص وباطوم والقريم ، وخشيت انكلترا وفرنسا على مستعمراتها الإسلامية ، وقد بدت مظاهر ذلك من معاضدة الحكومة للحزب الوطنى فى مصر حتى صارت تبدو فى جرائده ، بل وفى صحف الآستانة الموالية للحكومة بوادر ضد انكلترا ، وأصبحت تهدد فى مصر والهند كما تهدد فرنسا فى تونس والجزائر ، وهذا مما دعا إلى رفع ثقة الدول منا وبقينا فى حجر ألمانيا وهى تسقينا الدردى من دنها وتكرع الصافى الزلال ، فربحت من حيث خسرنا ، ولم نستفد من صداقتها شيئاً فى داخليتنا ولا فى خارجيتنا .

ومن المصائب التى جرت وبالا على الدولة تدخل ضباط الجيش فى السياسة فانقسموا شيعاً ، تركوا واجباتهم فى تعليم كتائبهم ، وراحوا يفكرون فيما هو من شأنه الأمة ، فالجيش الذى حرر البلاد من رق السلطان عبد الحميد لم يحسن إليها بقدر ما كان يؤمل منه ، وكذلك كان من حال الأمة فإنها تخالفت فى الأهواء السياسية لا كتخالف الأحزاب فى العالم بل تخالف التعادى ، وأدى الأمر إلى ما لا يرضى عنه عاقل فى الأرض ، ولا ينطبق مع أصل من أصول الحرية السياسية والحرية الشخصية وحرية الوجدان ، فدلت الأمة أنها طفلة فى السياسة لم تبلغ أشدها .

ومن فوائد السنين الماضية أنها كشفت الغطاء عن مخبآت الضمائر ، فافتضح من رجالنا من كان يبالغ فى إجلالهم لمظاهرهم أورتبهم ، وظهر المخادعون ممن اندسوا فى صفوف الأحرار ظلماً ، أنهم على فطرتهم الأولى لا يهمهم خراب البلاد ولا عمرانها ، وأثبتوا خيانتهم لأوطانهم أنهم لم ينصروها بأموالهم حين العسرة على الأقل ، وأن كل ما ادعوه من حبهم الدستور والحرية وأنصارهما تمويه وكذب .

واستولت تركيا فى آخر الحرب العالمية على قارص وأردهان وباطوم وكانت روسيا سلختها عنها منذ سنين ، كما توسعت فى حدودها فى أوربا ـ فاستعادت من اليونان تراكيا الشرقية على نهر المريج ومحطة أدرنة وجزيرتى إمروز وتنيدوس (بوزجه أطه) . أما سائر البلاد العثمانية العربية فكان نصيبها مختلفاً ، انسلخت كلها عن جسم السلطنة ، كأن الصلح الذى ارتضى به الحلفاء كان بأخذهم لها . وكأن تركيا استعادت الأرض التركية من بلاد الدولة العثمانية المنقطعة بحد الحسام ، أو فتحتها فتحاً ثانياً .

كانت مصر تعتبر فى عرف السياسة عثمانية لأنها ظلت إلى أواخر الحرب العالمية تدفع خراجاً مقطوعاً كل سنة للسلطنة العثمانية ، فقطعته انجلترا فى الحرب الكبرى ، وأعلنت حمايتها على مصر ، وبعد الحرب ثار المصريون على المحتلين من الإنجليز فاعترفت انجلترا لمصر باستقلالها ، ثم فصلت عنها السودان وهو الجزء المتمم لها ، وما برح جيش الاحتلال إلى الآن فى القطر المصرى[1] وسلطان انجلترا مازال نافذا فيها ، واليمن استقل بها إمام الزيدية ماعدا السواحل على المحيط الهندى وخليج فارس ، فإن انجلترا كانت احتلتها ، ومنها ما حكمته مباشرة كعدن ومنها ما عاهدت عليه أمراءه وسلاطينه ، وحمتهم ووسعت عليهم

— ونحمد الله على القليل مما أصبنا وأحسنا استعماله من الحرية الصحافية ، بأن ظهر بلسانها فضل الفضلاء وعلم العلماء وكرم الأسخياء الأبرار وغيرة المصلحين الأخيار . فعرفت الأمة خيارها ورذلت شرارها وأيقنت بضعفها وعجزها وأن التبجح بالماضى لا يفيد أمام قوتى العلم والعمل فى هذا العصر ، وأن التمجد بالآباء والأجداد من دون احتذاء مثالهم فى فضائلهم ومضائهم لا يجدى صاحبه فتيلا .

فعسى أن يكون العقد الماضى من هذه السنين قد علمنا معاشر العثمانيين دروسا نافعة وعلم القائمين بالأمر فينا أن الناس بعد الآن لايحكمون إلا بالعدل والإحسان لا بالخشونة والإرهاق ، وأن السيف والمدفع ليس لهما حكمهما فى كل ساعة وإنما القوة الحقيقية فى تأليف القلوب وبث العلم النافع بين طبقات الشعب وحكمهم بالطرق المعقولة وإحسان الإدارة والسياسة ، فقد سئمت النفوس رائحة الدماء المهراقة والدمار المتواصل والبؤس المقيم المقعد ، وهى تريد دور سلام ترتاح فيه الأرواح والأشباح ، ويثوب إلى الأمة رشدها لتضم شملها وتتنى مصائبها وتعرف أن الدستور نعمة كبرى لمن يحسن الانتفاع به ، وأنه لو ديئت أيد تنفذه حق تنفيذه لعم العالمين أثره وطاب فى الواقع خبره ومخبره .

(١) انظر الملحق آخر الكتاب .

فكانوا عمالها مثل لحج والنواحى السبع (الصبيحة والحواشب والقطيب وأبين والضالع واليافع والعلوى) وحضرموت وعمان ومسقط البحرين والكويت ، وكانت الدولة التركية تنازلت لبريطانيا العظمى فى سنة ١٩١٣ عن حقوقها فى مرافئ الكويت وقطر والبحرين ومسقط وعمان على أن تتعهد بريطانيا بإنارة الخليج الفارسى وخفارته .

وقضى عبد العزيز بن سعود على إمارة آل الرشيد فى نجد ، ثم استخلص الحجاز من ملكها الجديد الحسين بن على حليف الإنجليز بالأمس ، وجعل من نجد والحجاز وما إليها مملكة واحدة . وكان الإنجليز جعلوا فيصل ابن الحسين بن ملك الحجاز ملكا على العراق عقبى خروجه من الشام ، وكانوا فيها بايعوه ملكاً فلم يرض الحلفاء عن هذه المبايعة ، وبعد مدة أعلن الإنجليز انتهاء ما سموه بالانتداب على العراق ، وجعلوا من بلاد الرافدين حكومة ذات سيادة محالفة لهم وضامنة لانجلترا أوفى قسط من حقوقها .

وقسمت الشام بين انجلترا وفرنسا ، فانتدبت انجلترا على فلسطين وعبر الأردن ، جعلت من الأولى وطناً قومياً لليهود ، وأنشأت فى الثانية إمارة صغيرة نصبت عليها عبد الله بن الحسين وهو ابن الملك حسين بن على . وأنشأت فرنسا من سائر بلاد الشام خمس دول جعلت تحت انتدابها . وهى سورية الداخلية أو المدن الأربع دمشق وحلب وحماة وحمص، جعلت بأخرة جمهورية ، واستقل لواء الاسكندرونة فى داخليته وإن كان فى ظاهره من أعمال سورية ، بدعوى أنه يكثر فيه العنصر التركى ، وجعل جبل لبنان جمهورية بضم بلاد كثيرة إليه من الشرق والشمال والجنوب ما كانت فى دور من الأدوار تعد من لبنان ، وحكمت فرنسا بلاد العلويين أو النصيرية وجبل دروز حوران حكماً مباشراً . أى أن القطر الشامى بفضل الحلفاء قسم إلى سبع دول استقل كل منها عن الآخر ، والانتداب أو الإشراف أو الحماية لانجلترا وفرنسا . فكانت صفقة الشام بذلك خاسرة . والغريب أن تجتمع بعد الحرب فى بلاد النصرانية فى أوربا جميع البلاد المتشاكلة بعناصرها ، وتتفرق بلاد العرب

العثمانيين المجتمعة هذا التفريق ، والأغرب أن تستقل العراق والحجاز واليمن ونجد وأهلها أقل من الشاميين مدنية وكفاءة ، وتنتدب على الشام دولتان عظيمتان ليعلما أهلها أصول حكم أنفسهم باسم ما سموه الانتداب ، وهو أنفق ما جاءت به سياسة الحرب العظمى لأنه حماية مستترة ، كما قال أحد علماء القانون[1] من الافرنج . وأغرب من هذا وذاك أن يفتح جنوب الشام أو فلسطين لليهود من أمم الأرض ، ينهالون عليهم بعلمهم وأموالهم ، ويكثرون سواد أبناء نحلتهم فى وطنهم القومى الجديد ، ويفتح قلب الشام وجنوبها وشمالها لجاليات كثيرة من الأرمن والشركس والأكراد والأشوريين والسريانيين يزيدون فقر أهل البلاد فقراً ، ومجموعة طوائفها كثافة وأمورها ، السياسية بلبلة .

يقول يونغ[2] « وهكذا احتل الغرب البلاد الإسلامية احتلالا تدريجياً ، وكانت الحروب المتوالية التى شهرت على الدولة العثمانية ، المتولى الخلافة عليها خليفة العثمانيين ، تعتبر لأسباب شتى حروباً دينية . قال وعلى هذا المنوال يؤخرون حدود الإسلام ليسهل استعباد بلاد متجزئة غير مرهوبة الجانب ، والخلاف يعبث بسكانها بدسائس كثيرة ومصالح شخصية . قال وبعد الحرب أجهز الغرب على الشرق » .

* * *

رجع الأتراك أصحاب هذه الامبراطورية الكبرى إلى عشهم الذى كانوا منه درجوا قبل ستمائة سنة وهو آسيا الصغرى . استقلوا بها جمهورية تركية صرفة وأجلوا بقايا الأرمن والروم من بلادهم حتى لا يكاد يرى أحد الآن فى ولايتهم ما خلا مدينة الآستانة ، واستعاضوا عن الروم العثمانيين بأتراك من بلاد اليونان وغيرها من البلاد البلقانية ، بادلوا عليهم حكوماتها وأسكنوهم الأرض التى خلت بجلاء الأرمن والروم ، وتشرد بقايا الأرمن فى أرجاء الأرض ، وأصاب الشام منهم أكبر حصة . وأخذ الأتراك يتركون الأكراد والشركس

(١) خطط الشام للمؤلف ج ٣ (٢) استعباد الإسلام ليونغ .

واللاز المتخلفين من العناصر المسلمة فى أرضهم ، ونقلوا عاصمتهم إلى أنقرة فى أواسط بلادهم . وقلبوا الاستانة ولاية فذهب عزها الذى كان لها قروناً فى العهد البيزنطى والعثمانى ، وبقى الإسلام بدون خليفة ، ولم يتقدم سوى الحسين بن على فتقلدها أشهراً . وبايعته بعض الشام والعراق والحجاز ثم خسر ملكه فى الحجاز ونفى إلى جزيرة قبرص ثم قضى نحبه . وهكذا قر الأتراك فى أرضهم بعد أن اتعبوا العالم ، وأتعبوا الشعوب المحكومة قروناً ، كثرت أيام بؤسها وقلت أيام نعيمها .

وعاد العرب المسلمون فى السلطنة العثمانية ، وقد خابت آمالهم وأحلامهم فى الاستقلال والوحدة العربية ، وكانوا يتوقعون خيراً هذه المرة أيضاً من انجلترا ، ورجوا بعد الحرب العامة أن يحقق الإنجليز وعودهم المعسولة بتأليف مملكة عربية تضم جزيرة العرب والعراق والشام ، ولكن البريطانيين لا يسعهم إلا أن يفوا بما عاهدوا عليه فرنسا معاهدة سرية زمن الحرب ، قسموا بموجبها البلاد العربية بحسب مصلحتهم ، قبل أن يصلوا إليها ، وإنجلترا لا ترضى الآن على ما يظهر عن تأليف دولة عربية ذات سيادة فى طريق هندها . وهذه هى المرة الثالثة التى خاب فيها أمل عرب السلطنة العثمانية بتأسيس مملكة عربية مستقلة ، وفيها كانت انجلترا السبب المباشر على ما يظهر . كانت أول مرة فى عهد عبد الله بن سعود فى القرن الماضى أيام استولى على نجد والحجاز وتقرب من أطراف الشام والعراق ، فهاجت انجلترا الدولة العثمانية عليه حتى أرسلت جيشاً من مصر ضربه ضربة قاضية ، فقضى على العرب بأيدى العرب . والمرة الثانية كانت يوم استيلاء محمد على والى مصر على الشام وما وراءها من أرض قيليقية ، وفى هذه النوبة أيضاً كان الأمل قوياً بإنشاء مملكة عربية بزعامة مصر ، فقاتلت انجلترا بأسطولها جيش محمد على فى الشام وأخرجته منها ، كما كانت أخرجت نابليون من مصر فى سنة ١٨٠٢ وعادت بعد ثمانين سنة (سنة ١٨٨٢ م) فاحتلتها .

ويسأل القارئ بعد إلماعنا إلى حالة الدولة العثمانية فى أدوارها المختلفة عن الأسباب التى أدت إلى ذاك العلو وانتهت بهذا السقوط . وقد أوردنا بعض هذه

العوامل فى الصفحات الماضية ، ونريد أن نقول هنا إن انحطاط الدولة بدأ باسراف الجنود السلطانية فى العصيان ، والعبث بما يعلو عن مستوى عقولهم من شؤون السياسة،وكم من صدر أعظم ومن ملك قتل بمكايدهم ومؤامراتهم ، وما دخل الجند فى الأمور المدنية إلا دخل الفساد . ثم إن العلماء كانوا فى عهد الفتوح والعظمة يسيطرون على ملوك العثمانيين وكان منهم فى العهد الماضى رجال أعلام سلمت نفوسهم من المفاسد ينكرون المنكر ويدعون إلى المعروف ، ومن يرد جماح الملك المستبد إذا لم تكن أمامه قوة يخافها ما دام أعظم عظيم فى الدولة عبده وابن عبده ، وله الحق كل ساعة أن يصدر إشارته بقطع عنقه أو حمله إليه فى قصره يعذبه .

كان سليم الجبار يحاذر أن يقع فى غضب مفتيه « زنبيللى على » وسليم هذا طالما قتل وزراءه من دون سبب ، وكان الأمر بالقتل إلى شفتيه أقرب من الشمال إلى اليمين . ولما أحدث ابنه سليمان الألقاب والرتب العلمية ، وأمال على العلماء الدنيا ، على ما لم يكن لهم به عهد ، أمسوا يتنافسون فى الإملاء للظالمين من السلاطين ، ويقلبون سيئات الملوك حسنات ، لا يأخذون على أيديهم فيما يرتكبون من الكبائر ، ولا يردونهم إلى صراط الحق فى مسائل الدولة . قال ضيا : وسهل على سليمان ومن بعده من السلاطين بهذا العطف الظاهر على العلماء ، أن يستصدروا فتاوى بقتل الأبرياء ممن تغضب عليهم الدولة . ويقول أبو الفاروق[1] : إن هؤلاء العلماء وسماهم « بالمزايدين » على الأحكام الشرعية أصبحوا يفسرون الأحكام للمتغلبين على السلطان على ما يشاءون وتشاء أهواؤهم ، وسماهم الجرارين أيضاً أى طلاب الصدقات فقال إنهم كانوا من جملة الأسباب إلى تداعى أركان السلطنة وهم كتائب من المداح جاء كثير منهم من فارس يستوكفون الأكف فاستأثروا بالزوايا ؛ وانهالت عليهم عطايا السلاطين ،وأعان على هذا الانحطاط أناس من الروم زعموا

---

(١) تاريخ « أبو الفاروق » لمراد الداغستانى .

أنهم انتحلوا الإسلام مثل ميخال وأوره نوس من أمراء الروم وغدوا بما لهم من المكانة فى المقامات العالية يؤثرون فيها بافكارهم ومنازعهم .

ولما رأى بايزيد أن القضاء أمسى ألعوبة فى أيدى تلك الطبقة الفاسدة ممن تسموا باسم العلماء وقد أصبحت مثاراً للفساد والرشوة وضياع الحقوق ، جلب منهم ثمانين قاضياً إلى ينيشهر وأراد قتلهم لولا أن توسط الصدر فى الكف عنهم واستتابهم . قال أبو الفاروق : وما الحيلة فى مملكة وضع أساسها على أسوار بيزنطية ، واتخذت مادتها من فارس ، والمملكتان فى الفساد « كزندين فى وعاء[1] » .

يقول ريشاروود[2] « إن الراسخين فى العلم من المسلمين لا ينكرون أن هذه الفوضى فى المملكة العثمانية ناشئة من تسهيل العلماء على السلاطين المستبدين ما تشاؤه أهواؤهم ، ومن إغضائهم عن أعمالهم مهما كانت » . وكانت المناصب الدينية توجه فى بدء أمر العثمانيين للكفاة من الرجال فى الجملة ، وذلك بالامتحان أو بالقدم ، فغدت تسند بالشفاعات وبالرشاوى إلى الجهلة ، ويصرف رجال القضاء من الخدمة بدون سبب . وبانحطاط القضاء انحطت الدولة ، وغدت المناصب الشرعية تباع وتشرى وتورّث وتوهب . فتولى الحكم بشريعة الرسول الأميون والجهلة والسفلة من طبقات المجتمع .

كانت الدولة متماسكة الأجزاء والتوفيق حليفها لما كانت وحدات قوتها منظومة العقد بجندها وضباطها وأمرائها ، وعتادها يفوق عتاد من تحاربهم ، وسلاطينها ورجال الأمر فيها لا يفكرون فى غير مصلحة الدولة ، ولما كان لها مدافع[3] تستعملها قبل معظم الدول ظفرت فى وقعتى جالديران ومرج دابق

(١) تاريخ « أبو الفاروق » لمراد الداغستانى . (٢) الإسلام والإصلاح لريشاروود .

(٣) يقول مؤرخو الترك إن رجلين من رجال المجر أسديا للدولة العثمانية أعظم الخدم أحدهما « أوربان » المدفعى جاء القسطنطينية فى عهد الفاتح وعلم أرباب السلاح فى الدولة صب المدافع الكبيرة . أما الثانى فهو « إبراهيم متفرقة » المجرى ورد على تركيا أسيراً فأسلم . وألف كتاباً فى الإسلام (١١٠٦ هـ) ثم أسس تحت حماية الصدر الأعظم مطبعة فى فروق جلب لها الحفارين ومن يصب الحروف ويحسن الطبع من فينا فأسست المطبعة العثمانية سنة ١١٤٠ هـ بفتوى من شيخ الإسلام بعد أن لغط العلماء كثيراً بتحريم الطبع ، وكان ذلك بعد اختراع الطباعة فى أوربا بثلاثة قرون .

بالفرس والمماليك فى آسيا ، وبملوك البلقان ودول المغرب المتفقة عليها فى أوربا ، حتى إذا تفسخ جيشها ، وجمدت على طرائقها القديمة فى الحرب ، مجتزئة بما كان عندها من سلاح ، تراجعت عظمتها ، واضمحل سلطانها . ولما انتهى جلب الغنائم من البلاد المفتتحة وضعفت مواردها زاد السلب فى رعاياها فاعتلت أمورها ، وفسد جمهورها .

بهر الدولة اتساع ما انضوى إلى علمها من الأقطار والأمصار ، فما فكرت فى توحيد البلاد ، ولا تعرفت إلى حقيقة ما ينهضها ، ولا ربت رعاياها تربية مشتركة ، ولا سارت فى تعليمهم على سياسة معينة ، تضمن لها ولهم المستقبل . وكان همها مصروفاً إلى الساعة التى هى فيها ، وتكتفى من الناس أن يظهروا الطاعة والمشايعة ، ويؤدوا الضرائب والمغارم ، وكان أعدى عدوها من ينشر فى قومه فكراً جديداً ، ولو كان ظاهره وباطنه الخير لها ولبلادها . ذلك لأنها كانت ترى العلم أداة ضارة بكيانها ، وتذهب إلى أن سلطانها يزول يوم يتعلم رعاياها . وما كان النصارى بما منحوا به من امتيازات منذ عهد الفتح ، وبما كان لهم من حماية الدول النصرانية فى القرون الأخيرة ، يعدمون مبشرين ومعلمين يفتحون لهم فى القاصية والدانية مدارس وكتاتيب ، حتى ارتقى بطول الزمن مستواهم العقلى . ولقنوا معنى الحياة الحرة ، واستعدوا للجلاد فى ميادينها ، فكان من ذلك ضرر غير قليل على مجموع الدولة والسواد الأعظم من أهلها . وبينما كانت الجندية فى العصر الأخير إجبارية على المسلمين دون غيرهم ، كان المسلمون ينقرضون فى حروبها المتوالية ، والنصارى يرتعون فى دعة ينمون ويسعدون ، ولا يطلب منهم غير جزية ضئيلة . تغافلت الدولة عن تقليد الغرب فى مادياته ، فقلما أهمها مشاركته فى نهضته الرائعة ، وكان غنيها يصادر ، وعالمها يضطهد ، وماهنها يمتهن ؛ فقضى على حركة العقول والأيدى . وأنى تقوم لدولة قائمة إذا كانت بلادها فقيرة وشعوبها جاهلة ؟ ولقد كانت الدولة تحس ضعفها عقبى هزائمها ، وسرعان ما كانت تنسى أسباب محنتها ، وكانت إلى أخريات أيامها تحول دون تعلم العرب المسلمين ،

وهم النصف الذى لا يستهان به فى السلطنة . ومن الإنصاف أن يقال إنها لم تعلم الأتراك أيضاً ، اكتفت بتلقينهم قشوراً من العلم يراد منها صوغ عمال وأرباب ولايات ، فأصبحت الطبقة المتعلمة مستهلكة غير مستحصلة ، وما كان لفقير مقيد أن يرتقى نشاطه إلى أكثر من تحصيل قوت يومه .

واعتقد الناس أن لا شرف إلا مما أتى من قبل السلطان ، وأن من لم يشرفه برتبة أو مرتبة أو وسام فلا شأن له فى المجتمع العثمانى ، ففسدت الأخلاق فى سبيل الحصول على هذه المظاهر الخلابة ، وشغل الناس بالتافهات ، وقصارى الدولة أن ترى رعاياها يطلقون الجد . وبعطفها على الدجالين من مشايخ الطرق زاد المسلمون زهداً فى العمل والخنوع لأصحاب السلطان ، فعلموهم أن ما هم فيه هو السعادة فى الدارين ، وأن علم أوربا كفر وهراء وسخرية ، جهل المسلمون حتى أمسوا لا يتوقعون الخير إلا من الحكومة ، وكان معظم عمالها ، وهم أرقى طبقة متعلمة فى الأمة ، على جانب عظيم من الفساد ، يتطلعون أبداً إلى ما بأيدى الناس من دون خشية ولا رحمة .

انتظم علم الترك العثمانيين البلاد التى احتلوها فى الجنوب الشرقى فى أوربا نحو خمسمائة سنة فأثروا فيها تأثيراً قليلا ، وقاوموا جيوشاً غربية ما كان لها من النظام ما كان لهم لأول أمرهم ، وما حملوا إلى أهل الأرض التى دخلوها حضارة أنيقة طريفة ، فكان سلطانهم قائماً على الغلب لا على العلم والصناعات . واستصفى العرب جزيرة الأندلس وصقلية وما إليها فى الجنوب الغربى من أوربا ، وعلى ما فرقهم فى أكثر الأدوار من الخلاف الداخلى ، وما عانوه من حرب أعدائهم فى الشمال يعاونهم على الأكثر جيوش الإفرنج وغيرهم ، فإنهم أثروا فى تلك البلاد أثراً عظيما بعلمهم وصناعاتهم وأخلاقهم وعاداتهم ، أثروا فى الأسبانيين والبرتقاليين والكتلانيين والفرنسيين والنورميين والإيطاليين فى لغتهم وآدابهم وصنائعهم ومضى أربعمائة سنة على خروجهم من الأندلس ، وأثرهم ماثل للعيان فى الأوضاع والمصانع ، على شدة الكراهة التى بدت ممن احتلوا أرضهم ، وعلى محاربتهم بعد كل ما يدل على آثار أعدائهم فى تلك الديار[1] .

(١) راجع مدنية العرب فى الأندلس ومدنية العرب فى جزيرة صقلية فى الجزء الأول .

كان إضعاف قوة العناصر من أعظم العوامل فى تهيئة الأسباب لكل خلل فى الدولة والأمة . وإذا أضفنا إلى ذلك تدخل النساء فى أمور السلطنة فى القصر السلطانى ، ومن يتبعهن من طبقات الحاشية والغاشية ندرك سراً من أسرار هذا الضعف . فقد أفاض التاريخ أن خُرّم (روكسلان) البولونية زوج سليمان القانونى لعبت بأقدار المملكة زمناً ، تعلن الحرب وتعقد الصلح ، وسعت بقتل ابن ضرتها ليكون عرش السلطنة لابنها ، وعصا شقيقه فهرب إلى فارس فدفع السلطان لشاه العجم أربعمائة ألف دينار[1] ليعيد إليه ابنه ، فما إن حمل إليه حتى قتله وخمسة من أولاده . وكانت هذه السلطانة السبب فى إهلاك إبراهيم وأحمد من الصدور العظام[2] أيضاً . ومثلها « كوسم والده » التى لعبت بأقدار المملكة نحو خمسين سنة وما انتهت من تدخلها إلا بقتلها . فالنسوان والغلمان كان لهم مدخل عظيم فى تقويض بنيان السلطنة .

وهل أعظم من أن يقتل الجوارى من أولاد السلاطين من يردن قتله ، وقد يكون فى القتلى من أبناء الملوك الدراكة الحصيف ، على حين لا يكون من يبقون على حياتهم غير أشباه الرجال . والسلاطين منذ عهد الفاتح ، وقبل بايزيد ، رخص لهم بقانون وضعوه لولاية العهد أن يكون لأولاد الفاتح وأحفاده ممن يجلسون على العرش العثمانى الحق أن يقتلوا إخوتهم حباً بإقرار الراحة فى الناس . يقول أبو الفاروق بدأت سيئة قتل الإخوة من عهد بايزيد الأول وسود الفاتح صحيفته بمثل هذا المنكر ، فنشأت من ذلك سلسلة من الفجائع ، ورأى الزمان لهذا النوع من القتل مبرراً ، فوضع فى قالب الحرص على سلامة الأمن العام ، وما رأوا غير هذا التدبير للقضاء على النزاع إلى السلطنة ، وجرت مثل تلك الفظائع فى فارس والحكومات الأوروبية ، غدت هذه السنة السيئة معمولا بها ، وقلما خلا ملك من ارتكاب هذا القتل الفظيع ، ومنهم من اتهم بقتل أبيه ، وأصبح قتل السلطان إخوته وأولاده وأحفاده وبناته والحاملات من نساء السلاطين مما لا يستنكر . وظلت هذه العادة القبيحة من قتل أولاد السلاطين جارياً حكمها إلى عهد محمد الرابع (١٠٩٩ هـ) وكان

(١) تراجم الأعيان للبورينى . (٢) قاموس الأعلام لشمس الدين سامى .

حاول قتل شقيقه فمنعته والدته ، وحاول المفتى الأعظم بينه وبين القتل . أورد له كلام الله وخوفه من عذابه ، وبذلك انقضى دور قتل أبناء الملوك الذى دام أكثر من ثلثمائة سنة ، وأخذ كل سلطان بعد ذلك يراقب أولياء العهد مراقبة شديدة ويقيمهم بمعزل عن الناس لا يختلطون بهم . وكان يتولى العرش السلطانى أكبر أولاد السلاطين إلى عهد أحمد الأول فحاد هذا عن القانون بنصب أخيه مصطفى ، وأصبح من القواعد المعمول بها إلى أواخر أيام العثمانيين أن يتولى العرش أكبر الأسرة المالكة سناً أو أقربهم من الجد الأول . وكان العثمانيون قبل اتساع سلطانهم يولون الأرشد من أبنائهم وإن كان أصغرهم سناً ، ويرجحون من كانت أمه من أسرة نبيلة لا من السرارى والجوارى والإماء[1] .

ما خلت الدولة من أيامها الطويلة من ظهور نوابغ فى السياسة من رجالها ، وكانوا إذا تركوا وشأنهم يديرون دفة السياسة الداخلية والخارجية فى الجملة على غفلة من الملوك المنحطين ، وكثيراً ما كانوا يكتمون أموراً مهمة عن سلطانهم ، لا يطلعونهم عليها إلا بعد أن تتم . فقد كانت الدولة مرة مشغولة بحروب هائلة على عهد عبد الحميد الأول فاحتـل العجم البصرة ، فكتم وزراؤه الأمر عنه أربع[2] سنين حتى تسنى للدولة إخراج أعداء بلاده من أرضه . ولذلك كان مؤرخو الأفرنج على صواب فى قولهم إن ما كتب من التوفيق للدولة ، يعزى إلى عبقرية الصدور العظام والقواد المحنكين ، وإلى الصفات التى تفرد بها الجندى التركى من الصبر والطاعة ، والمران على الحرب والضرب لا إلى السلاطين الذين آثروا حياة القصور المفتونة ، وركبوا إلى الشهوات كل مركب . وكان معظم هؤلاء النوابغ من عناصر أقوى من التركى ، وأوسع حيلة وتوافراً على العمل والدؤوب عليه . ظهروا باللباس التركى . وذمم

(١) تاريخ « أبو الفاروق » لمراد الداغستانى .
(٢) تاريخ بغداد لعثمان بن سند البصرى .

البجناكى والألبانى والكردى والقوقازى وغيرهم يكتمون أنسابهم ، ويخفون عن الشمس والقمر ما يدور فى مغيبات نفوسهم .

ذكر لاموش[١] أن الحالة السياسية فى الدولة العثمانية أواخر القرن الثامن عشر كانت صورة كاملة من حكومة مطلقة يتصرف السلطان فى أرواح أهلها وأموالهم . ولئن كان القرآن وهو القانون السامى فى المملكة يقضى بقبض يد السلطان عن الاسترسال فيما يريد . فقد رأينا غير واحد من ملوك العثمانيين يستعملون الخمر ، بل يفرطون فى تناولها وفى تعاطى الأشربة المخمرة ، مخالفين بذلك صريح آيات القرآن ، وقلما كان السلاطين يعبأون بأوامر الكتاب الكريم ، أو يراعون القواعد الإسلامية ، إذا عن لهم اغتصاب أموال الدولة ، إن كان فى آياته ما يخالف شهواتهم وأهواءهم ومطامعهم . قال ولكم كانت حال أرباب المكانة من رجال الدولة حرجة ، أخذاً من الصدر الأعظم فنازلا . وكل عمل مهما بلغ خطورته لا يجعل صاحبه بمأمن من المحن ، بل لقد كانت مكانة الوزير كثيراً ما تعجل بسقوطه ، ذلك لأن الملك يحسده على ما خوله من سلطة مطلقة ، وقد يحاذر أن تنشأ له حظوة من الأمة ، وكلما قرب المرء من أنظار السلطان بحكم منصبه يستهدف لغضبه وهواه ، والموظفون يجرون على هذا المثال مع موظفيهم ومستخدميهم . فكانت الإدارة الذوقية والعسف والسرقة ، ولاسيما فى الأعوام الآخرة عامة شاملة ، من أعلى درجات المناصب فى إدارة المملكة إلى أدناها . ولهذا السبب تعزى الثورات العديدة التى حدثت أواخر القرن الثامن عشر وأوائل القرن التاسع عشر ، وقد شهدنا لهيبها يندلع فى المسلمين قبل أن يهب فى النصارى .

وقال أيضاً : إن العظمة التى قدرت للمملكة العثمانية أن تأخذ بضبعها إلى أبعد مدى ، كانت تحمل معها جراثيم الانحطاط . والسلطة قد تفقد وحدتها وقوتها فى مملكة واسعة الأطراف منوعة العناصر . وانتشرت عادة الترف

(١) تاريخ تركيا للاموش Lamouche : Histoire de la Turquie

والرشوة بين كبار رجال الدولة ، وأصبحت السياسة تدار بأيدى النساء ، وصعب مراس أصحاب الإقطاعات ، وكثر سواد الجند الانكشارى ، وكانت تتألف منه إلى ذلك العهد نواة صالحة من الجيش العثمانى ، ثم بطلت الطريقة القديمة فى التجنيد من أبناء النصارى وكانوا يؤخذون صغاراً ويربون ، فدخل المتشردون والأفاقون فى هذا الجيش المختار ، بما فتح أمامهم من طرق المغانم . وأصبح الإنكشارية فى حل من أن يتزوجوا ، وأن يدخلوا أولادهم فى الجيش ، وما زالت الحال على ذلك حتى مال هؤلاء الجند إلى الفوضى فى البلاد ، وكانوا على جانب عظيم من الشجاعة فى الحروب ، وغدوا يرون لهم قوة أمام السلطان وراحوا ينصبونه أو يسقطونه . قال وكانوا عقبى تولى كل سلطان جديد يطلبون زيادة رواتبهم فيجابون إلى طلبهم ، وأصبحت هذه القاعدة مطردة يسيرون عليها .

وعزا ميشو(١) انحطاط الدولة العثمانية إلى عدة أسباب أهمها الجهل والجمود والغرور فقال : كان العثمانيون لأول أمرهم الأمة الوحيدة التى كان لها جيش منظم دائم ، وبه أحرزوا التفوق على الأمم التى أرادوا إخضاعها لسلطانهم ، وغدت أوربا فى القرن السادس عشر ولمعظم ممالكها جيوش يدفعن بها هجمات الأعداء . ولشد ما انتشر النظام والتربية العسكرية بين شعوب النصرانية ، وأخذت المدفعية والبحرية تزيدان كل يوم نظاماً ورقياً فى الغرب . هذا والأتراك يزهدون فى التجارب التى وصلت إليها الجيوش البرية والبحرية وهم قلما يستفيدون من العلوم التى انتشرت بين أعدائهم وجيرانهم .

قال ومن الأسباب التى أضعفت قوة الجندية فى الأتراك تلك الحروب التى شهروها على أوربا وفارس ، فقد صدتهم حربهم الفرس عن حملاتهم على النصارى ، وأضر جهادهم فى النصارى بنجاحهم فى حروب آسيا . فبعد أن قاتلوا زمناً مقاتلة ما وراء النهر والقوقاز عجزوا عن قتال أوربا ، فوهنوا

(١) تاريخ الصليبيين لميشو . Michaud : Histoire des croisades

فى حرب الفرس وحرب النصارى من أمم الغرب . ثم إن طريقة الإقطاعات التى أتوا بها من بلادهم الأصلية لم يتركوها وراثية لينشأ إلى جانب السلاطين طبقة من الأشراف على ما هو الحال فى الحكومات الأوربية المطلقة ، وبهذا لم يبق فى المملكة العثمانية سوى سلطة رئيس مطلق إلى جنبها ديمقراطية عسكرية . وربما كان من استئصال الزعامة (الأرستقراطية) الوراثية ما قضى على الأمة العثمانية أن تبقى فى حالة الهمجية . وبطبقة الزعماء فى الأمم تهذب الأخلاق ، وتثقف العادات ، وبالطبقة الوسطى تنتشر المعارف وتستفيض المدنية .

قال وبالنظر إلى زهد الأتراك فى العلوم والآداب ، ظلت أعمال الصناعة والزراعة والملاحة فى أيدى مواليهم ، وهؤلاء كانوا فى الحقيقة أعداءهم . ذلك لأن الأتراك كانوا يشمئزون من كل جديد ، وتنبو نفوسهم عن كل مالم يحملوه معهم من آسيا ، فاضطروا أن يلجأوا إلى الغرباء فى كل ما اخترع ونظم فى أوربا . فأمسوا وليس لديهم نقض ولا إبرام فى مصادر سعادتهم ومنعتهم ، وفى تعزيز جيوشهم وأساطيلهم ، ولما كان الشأن فى حروبهم للفيالق المتحمسة بالتعصب كانت الغلبة لهم ، حتى إذا جاء دور العلوم البشرية ، والانتفاع بما أبرزته العقول من المخترعات والمكشوفات كان العقل المساعد هو الذى أبطل حكم الشجاعة التى اتصفوا بها . وأهم ما أخر الأتراك وقادهم إلى الانحطاط ذكرى مجد سالف ، وإعجاب وطنى ، لا تناسب بينه وبين ثروتهم وقوتهم ، فكانوا إذا حدثت لهم قوة يستهينون بالأخطار التى تهددهم ، فإذا كتب لهم النصر سكروا وقربوا القرابين ، وإذا غلبوا حملوا على رؤسائهم اهـ.

وقال كورنو(١) : كان القرن السابع عشر بلا جدال عصراً عصيباً فى تاريخ الدولة العثمانية ، كان عهد صراعها مع أوربا النصرانية . وما كان التعصب الإسلامى فى زمن من الأزمان أشد تهديداً للنصرانية مما كان عليه

(١) Cournot : Considérations sur la marche des idées et de événements dans les temps modernes نظرات فى سير الأفكار والحوادث فى العهد الحديث لكورنو .

فى القرن السادس عشر على عهد سليم وسليمان . ومما لا مجال للشك فيه أن الحرم كان فى القرن الثامن عشر دخل جسم المملكة التركية ، ولكن وقع لها فى الفترات أى خلال القرن السابع عشر ما يقع نظيره فى عصور الانتقال ، أى ما يدل على إقبال وإدبار معاً . عاد الأتراك يغيرون على الغرب ووقفوا على أبواب فينا ، فانتبهت فكرة البطولة والقيام بحرب صليبية حتى فى رجال دولة فرنسا ، استولى الترك على قندية على ما لقوا من مقاومة أشراف الفرنسيس ، وبعد انسلاخ أعوام قليلة كان من جهد حكومة مشرفة على السقوط (أى فرنسا) ما كفى لنزع المورة من أيدى الأتراك . ومن الواجب أن يلاحظ أن التفوق القطعى فى الحضارة الأوربية على الوحشية التركية لم يكن ذا صلة بتقدم العلوم ولا بارتقاء فنون الحرب . وكان من ذاك الجندى الوحشى الذى لا يعرف النظام ، ومن ذاك الوزير الجاهل ، إذا نشب القتال وضاق الحصار أن يحولا دون توفيق القواد والمهندسين ممن تدربوا أحسن تدريب ، على حين كان يمزق أوربا النصرانية شقاقها الداخلى ، ولم يكن لأحد من ملوك النصارى من السلطان فى الواقع مثل ما كان لصاحب تركيا يومئذ ، فاستلزم ذلك أحياناً أن تتغلب القوة الجسمية والعددية على العلم والدربة . وما مال الميزان إلا بارتقاء النظام والإدارة وتطبيقهما على مسائل الحرب ، وكان من استفاضة الغنى عاملا قوياً من جملة العوامل فى كف عادية العثمانيين ، فأصبح فى وسع كل دولة أوربية أن تجند جيوشاً وتمرنهم وأن تجهز أساطيل وتمدها ، وعجزت الشعوب الآسيوية ، بما كانت عليه من الحالة الاجتماعية ، عن مقاومة الغرب مقاومة فعلية ، إلا ما كان يخدمها من بعد المسافات واختلاف الأجواء ، وبذلك بطلت معاودة الأتراك الغزو والغارة .

هذا رأى مؤرخين غربيين فى الدواعى إلى انحطاط الدولة العثمانية ، واليكم آراء أربعة لمؤرخين من الأتراك ، كتب الأول رأيه فى أول عهد انحطاط الدولة وهو « قوجى » فى رسالته فقال إن مما أدخل الخلل فى الدولة زمن السلطان سليمان القانونى كونه تجافى عن حضور الديوان بنفسه ، فبعد

ما بينه وبين أمراء دولته وقوادها وغدا ينكرهم ولا يعرفهم . وقد عهد بالصدارة العظمى إلى إبراهيم باشا من خواص خدامه من دون سابقة له فى خدمة ، وما نظر إلى القاعدة التى كان يجرى العمل عليها فى توسيد منصب الصدارة ، وأصبح من المألوف أن يرقى كل سلطان إلى هذا المنصب الجليل من ترغب فيه نفسه ، وهو قليل الخبرة ولا يسترشد مع هذا برأى العارفين ، ففسدت أمور الناس واختل نظامهم ، وزوج القانونى ابنته من رستم باشا فنحه من الإقطاعات ما لا يتطاول إلى مثله ملك من ملوك الطوائف . وأخذ ذرارى أولئك المالكين يقفون الاقطاعات فأضاعوا بذلك دينهم ودنياهم ، إذ خالفوا الشرع بإخراب هذه المزارع وهى ملك بيت المال ، وأنشأ رستم يعهد إلى اليهود بادارة إقطاعاته ونزعها من أيدى المسلمين ، فقل ارتفاعها وخرب عمرانها ، وبهر السلطان ما انهال عليه من الأموال فزاد فى الرفاهية والبذخ وتطلب الشهرة والصيت فاقتدى به وزراؤه ، وأمسى الناس لا يفكرون فى غير البذخ والتفخل وعم الاعتداء على الناس فخربت البلاد .

وقال أيضاً على ما رواه راسم فى التاريخ العثمانى : لقد أصبحت المناصب السلطانية بعد سنة ٩٩٠ هـ . تباع بالرشاوى إلى غير ما تأهلوا لها ، وقام أشقياء الجلالى فى سنة ١٠٠٤ وأغاروا على القرى والمزارع فى ولايات كثيرة فى الأناضول وبلاد العرب ، فخربوا العامر وجعلوه قاعاً صفصفاً ، ثم أغاروا على بروسيا وحرقوا كثيراً من أحيائها . وخرج العربان والتركمان عن حظيرة الطاعة وغلوا فى إطالة أيدى ظلمهم وتعديهم على فقراء الرعية ، فخربت قرى كثيرة فى تلك الديار أيضاً . وقام أشقياء القوزاق فى سواحل البحر الأسود واعتدوا على السكان وأسروا الآمنين من المسلمين ، وأتوا على العروض والحدائق والحقول فنسفوها . وبعد أن عدد ما خرج من سلطان الدولة من الأقاليم ، وما لقيه أهلها من العنت والمغارم قال وهكذا شأن سائر المملكة أتى الظالمون منا عليها فألبسوا الرعايا لباس الجوع والخوف ، فأى مصيبة أعظم من هذه المصيبة ، ومن المعلوم أن لا قيام للسلطنة إلا بالجند ولا جند

بلا مال ولا مال إلا ما أتى به الرعايا ، ولا تقوم لرعية قائمة إلا بالعدل :
أما الناس فى هذه الأرض فقد أصبحوا وقد سلب قرارهم وباتوا غير آمنين فى سربهم ، تتحيفهم المظالم ، وتمزق شملهم الغوائل ، فقل بذلك ارتفاع بيت المال ، وآض أرباب السيف إلى هذه الحال ، تنزع البلاد الإسلامية من يد سلطانها ، ولا ترى لهم تدبيراً يدبرونه ولا دواء يصفــونه ، ولا يرجعون عن سفاهتهم ، ولا ينتهون من غفلتهم .

وقال أحمد راسم يوم أن زالت سلطة الاستبداد باسقاط عبد الحميد الثانى :
تغبط أعظم إمبراطوريات العالم الدولة العثمانية على ما كان لها من الملك العظيم ، والسلطان الذى يضم تحت لوائه زهاء ثلثمائة مليون من المسلمين ، ارتبطوا بالخلافة العثمانية برباط معنوى أكيد ، ولكن سوء الإدارة وقلة المعارف وسيئات الحكومة وكسل الأهالى وما أشبه ذلك من المساوىء المادية والمعنوية أفقد الدولة كثيراً من أملاكها وطأمن عزة سلطانها ، وأمست على عهد عبد الحميد الأول بعد أن عقدت معاهدة كوجك قينارجة مع روسيا أشبه بإيالة روسية لا تتحرك إلا بحركة حليفتها ، وأصبحت فى عهد عبد الحميد الثانى تهدد حياتها كل ساعة أصغر الحكومات شأناً ، وهى بلغاريا المعدودة من الإمارات التابعة لها .

وقال جلال نورى[1] فى عهد الحرية العثمانية الأخيرة على عهد الاتحاديين :
يشبه الأتراك الرومان ، فقد كان الرومان أمة حربية لاشأن لها إلا اقتسام الغنائم ، فاضطروا إلى أن يتركوا للأمم حريتها لتتوفر على العمل والإنتاج ، وبدأوا يسلبون الغرباء والبربر ، ثم أخذوا يطيلون أيديهم على أموال الأمم فى آسيا وإفريقية ، ثم أنشأوا ينهبون رومية . وقال[2] : كان الأتراك يعلقون شأناً عظيما على الغنائم فقد دخلوا إلى صميم بلاد النمسا ، وتوغلوا فى أرض الأفرنج حباً فى المغانم ، وما كان لهم متسع من الوقت يصرفونه فى التجارة والصناعة ،

(١) مقدرات تاريخية لجلال نورى .   (٢) تاريخ تدنيات عثمانية لجلال نورى .

.فكانت حالة الترك كحال رومية في هذا المعنى . كانت رومية مقر الدولة الرومانية لا صناعات فيها ولا تجارة . والذريعة الوحيدة لجمع ثروة العظماء ، إعلان الحرب وتقسيم الغنائم . وهكذا كان شأن البلاد العثمانية الأولى : إذكاء نيران الحروب أبدا والتوفر على تقسيم الأسلاب والأنفال . وما وقع في المجتمعات التركية والتربة وقع مثله في المجتمعات الرومانية ، فقد كان لتقسيم المغانم قواعد وأصول ؛ ولما كانت رومية عرضة على الدوام للحروب والغارات والانتقامات امتزج فيها حب النفس بحب الأسرة ، وحب الوطن بالاستعداد الحربي . ومثل ذلك وقع للأتراك ، أصابهم ما أصاب الرومان ا هـ .

وقال رابعهم[1] رضا نور في عهد تركيا الجمهورية : يرجع انقراض دولة العثمانيين إلى عوامل كثيرة أهمها انقطاع البطولة من المسلمين ، وقيام الترك سداً أمام النصرانية جلب عليهم خصومة أوربا جمعاء ، ونسلت القرون ومطارق النصارى تتساقط على رؤوس الأتراك ، وبالتغافل عن حقوق الوطنية التركية ، والرغبة عن جعل التركية أساساً لسياسة الدولة ، صانوا أديان من سقطوا عليهم من العناصر ، وأبقوا على ألسنتهم بل عززوها ونصروها . وبمنح محمد الفاتح الروم امتيازات مذهبية أحدثوا دولة في دولة ، ولم تصبح البلاد متجانسة ، بل أمست كبرج بابل بتبلبل الألسن فيها . ولقد حافظ السلجوقيون لما نزلوا آسيا الصغرى على جميع الأديان والقوميات الغريبة التي كانت فيها ، وجرى العثمانيون على طريقهم ؛ فاحتفظوا بما وجدوه ولم يعرفوا ما هو التمثيل . وكانت هذه العناصر كلما افترصت فرصة استلبت من بناء الدولة حجراً وذهبت به . وهذه الأجناس هي التي فتحت للأجانب سبيل المداخلة في الشئون الداخلية في الدولة ، فكانت العامل في انقراضها . قال : ومن خرق الرأي الإبقاء على صنف من الرعايا يؤدون الخراج للدولة ، وهذا من أساليب العرب وأصولهم . وعد من العوامل المؤخرة تدخل الدين في مصالح الحكومة ، وجهل الملوك واستبدادهم وسفاهتهم ، والعناية بتربية أبناء الصرب والروس

(١) تورك تاريخي لرضا نور .

والأولاح والأرمن والعرب والأرناؤود والكرج والشركس وغيرهم من العناصر ، وتسليم زمام أمور الدولة إليهم ، بدلا من أن يؤخذ بأيدى الأتراك أنفسهم . وكانت هذه العناصر تبذل الجهد للقضاء على التركية وإسدال الحجاب ، دونها . واعتصم ملوك الأتراك بالإسلام ، فزادوا التعصب قوة . وكانت روسيا تنتقم لمملكة بيزنطية فتحارب العثمانيين على الدوام . قال : وكان على الترك أن يضموا العنصر التركى بأجمعه تحت علم واحد . ومن أخطائهم أن توسعوا فى إفريقية ، وأن نطحوا برءوسهم قلاع فينا فى أوربا ، ثم وقفوا وأدمغتهم دامية . وزعم أن من دواعى الأسف فتحهم السبيل لرواج اللسانين العربى والفارسى ، فداس هـذان العنصران لسانهم الخاص أى التركية ، وعبث بالأمة الفقر ، وعصف بها عاصف الجهل

هذا رأى الغريب عن الترك والقريب منهم فى انحطاط الدولة ، وهو حق فى جملته ، وآية كل هذا أن قوة السيف لاتدوم إذا لم يؤيدها العقل ، وأن فتح الأرض لا يطول إن لم تفتح قلوب أهلها بالإحسان . ولما لم يرع للعناصر فى هذه الدولة العظيمة حقها بقيت على حذر ، ولم تمتزج بالفاتحين ولا أحبتهم ولا أحبوها ، فكان من كل ذلك القضاء على الدولة العثمانية .

الخاتمـــة

سيقول من تابعونا إلى هذه المرحلة فيما كتبنا ، إنك يا هذا ذكرتنا بما تيسر من حاضرنا وغابرنا ، وذاكرتنا فى حكمة الصعود والتدلى فى تاريخنا ، وأوردت ما تم من الحسنات على أيدى أجدادنا ، وشفعتها بما وقع عليهم وعلينا وعلى غيرنا من التبعات . فما السبيل بعد هذا إلى استعادة مجد ضاع أكثره ، فى زمن غل فيه الغريب أيدينا عن عمل ما يصلحنا ؟

السبيل أن نعوّد أبناءنا الصدق فى القول والعمل ، وندربهم على إعمال الروية والتفكير الصحيح ، وننشئهم على قوة الإرادة والاعتماد على الذات ، ونؤدبهم بأدب النفس وأدب الدرس ، ونعلمهم أن إتقان لغتهم الفصحى هو الأصل الأول فى نهضتهم ، وأن تجويد كل ما تصنعه اليد وبهيئه العقل هو السر الأعظم فى قيام مجتمعهم ، وأن كل عمل نافع بقدر ما ينتج من فائدة ، وكل صناعة شريفة إذا لم تكن مما يثلم الشرف والمروءة . نخرّج أطفالنا فى صناعات يقتصدون من ربحها ليوقر فى نفوسهم أن عليهم تبعة فى الحياة ، ولا يجمل بهم الاتكال حتى على آبائهم إلا فى سن معينة ، نعود البنين والبنات أن يفكروا فى مصلحة الجماعة تفكيرهم فى مصالحهم الخاصة ، وأن يؤمنوا أن المرء لا يعيش إلا بالتكافل مع أخيه الإنسان .

نلقن أولادنا المجمع عليه من الأصول الدينية والمدنية ، وندعوهم إلى أن يمتنعوا من تقليد الغربيين إلا فى الأمور المادية النافعة التى لاتضر بمشخصاتهم ومقدساتهم . نحملهم على ألا يبتعدوا عن الغريب كل البعد ، ولا يفنوا فى تقليده كل الفناء ، ونأخذ كل فرد بالجد فى كل شأن . ونعنى بتهذيب المرأة عنايتنا بتهذيب الرجل ، ونقتصر فى حجب نساء المدن الحجاب الشرعى ، على مثال نساء القرى والبوادى من دون تبرج ولا تبذل . ونلتمس من الحكومات أن تسن قانوناً لإكراه الشبان على الزواج وتخفيف المهور إلى حد يتلاءم مع

اقتصاديات كل بلد ، ونقتصر ما أمكن على تثمير ما تنتج أرضنا وتصنع أيدينا من حاصلات وصناعات . ونحذف كل زائد من الرفاهية والبذخ . ونعاون الحكومات على تربية ناشئتنا ، فننشىء من أموالنا بالاكتتاب كتاتيب فى كل حى ومنزلة وضيعة ، ومدارس عملية للصناعة والزراعة والتجارة ، ودروساً ليلية نقضى بها على الأمية . ونربى فى الناشئة الذوق والحس والشعور بالجمال ، ونحبب إليهم التمثيل والموسيقى والغناء والإنشاء لتطيب الحياة ويدخل السرور إلى البيوت ، ونتوخى أن تدور معانى الأغانى والأناشيد على تقوية العزائم وتنشيط الآمال والدعوة إلى الواجبات البشرية والاجتماعية ، ونبذل الجهد فى كل صقع أن لا يتولى الأعمال الدينية والمدنية إلا من ثبتت كفايتهم ، وسلمت من الضعف والنقص أخلاقهم ، فيخرج الجهلة من بيوت العبادة ودور الحكم والقضاء والإدارة . ويطلب إلى كل حكومة أن تصرف ربع دخلها وأوقافها على التعليم والصحة ، وتوزع ما تملكه من الأرضين على الفلاحين والعاملين ، ويعنى أهل كل حى وقرية ومزرعة أن ينشئوا لهم كتاباً وجامعاً وحماماً وملعباً وخزانة كتب صغيرة تلائم حاجتهم ومحيطهم .

ينقب أهل كل حرفة النقباء ، وينزلون على رأى المحنكين من الشيوخ فى نقاباتهم . وتتألف جمعيات لمكافحة المخدرات والمسكرات والتدخين والفحش والإسراف . وجمعيات للرياضات البدنية والسياحية العلمية . وجمعيات ينشر فيها الخاصة بين العامة رسائل دورية واضحة مشكولة تكتب بلغة معربة مفهومة ، فى موضوعات أدبية واقتصادية واجتماعية ، فيها لهو ولعب وفيها تعليم وتهذيب وجد . ويطوف المتعلمون فى أيام مخصوصة يحاضرون قومهم ويسامرونهم فى مسائل تطبعهم بطابع الوطنية وحب العرب والعربية ، وتعرفهم إلى المشهورين من رجال الإسلام وغيرهم فى الدهر الغابر والحاضر . وتذكرهم بما لهم وعليهم من الحقوق والواجبات .

وتحول ما أمكن الزكوات والصدقات إلى ملاجئ يأوى إليها اليتامى والعجزة ومن قعدت بهم الأيام عن الكسب ، حتى تبطل الكدية ويقل الشقاء والبؤس ، ويضطر كل صحيح الجسم إلى ممارسة عمل يعيش منه بكده . ويكون من أولى القواعد أن لا يبدأ بعمل قبل التفكير فيه طويلا ، وأن لا يستهان بمال قليل يجمع لهذه الأغراض من أول الأمر ، ثم تترك سياسة كل بلد للصالحين من أهله ، لا يشاركهم فيها جمهور الناس إلا عند الحاجة القصوى وبقدر معلوم إلى حد معين . والزمان كفيل مع اتخاذ الأسباب بحل كل معضل ، والأمة الصحيحة العقل والجسم ، المجهزة بالأجهزة اللازمة فى كفاح الحياة ، مضمون لها البقاء ، وميسور لها أن تعيش حرة ، إذا صمدت وصبرت وعملت واغتنت ، والله ولى التوفيق .

تعــاليق

التعليقة الأولى (ج ١ - ١١)

ذكر أحد الباحثين فى جريدة الكوتيدين Le quotidien الباريزية تحت عنوان « تاريخ الأمم المغلوبة على أمرها لم يكتب » أن المجلس الأعلى لبقايا هنود أمريكا فى الولايات المتحدة أرسل إلى شيخ مدينة شيكاغو احتجاجاً جاء فيه : أن الكتب المدرسية المستعملة الآن فى الولايات المتحدة ، صورت تاريخ قبائل الهنود فى صورة مخالفة للحقيقة التاريخية . قال الكاتب وليتنا نفكر قليلا فيما كانت عليه أمريكا قبل أن يفتتحها كولمبس ، ونقرأ ما قصه الفاتحون الأولون وأرباب الرحلات الأقدمون من الأقاصيص الغريبة ، ونلقى رائد الطرف على المدن القديمة فى العالم الجديد وما بلغته من الازدهار ، وما غصت به المعابد العظيمة التى تضاهى بعظمتها معابد مصر ، وتماثيلها العظيمة المحلاة بالذهب ، وما كان هناك من متاحف وخزائن كتب ومراصد فلكية ، وإذا كتب لك أن تتوغل فى مدينة المكسيك ومدينة الماياس فى يوكاتان والأنكاس فى الأند — إذا رأيت كل هذا استنتجت والدهشة آخذة منك بأن فتح أمريكا كان من أعظم جنايات أوربا . قال وليست هذه الجريمة ويا للأسف وحيدة فى بابها ، فقد كان تاريخ المدنية والعالم خلال أدوار طويلة مغموساً بالدماء المكروهة ، والجنايات آخذاً بعضها برقاب بعض . قال وإن تاريخ العالم ، على النحو الذى تعلمناه فى الكتاتيب والمدارس والجامعات ، لا يذكر الغالبين بخير إلا إذا أريد إيراد فضائحهم ، والنظر إلى سقوطهم نظر عداء ومكر ، ومنذ عهد قريب فقط أخذوا يذكرون فى كتب التاريخ القديم ما قام به الإيجيون سكان شواطىء بحر هيجاى من الأعمال الجليلة ، وما كان من أمر المملكتين القديمتين العظيمتين أكاد وسومر ، ومنذ زمن غير بعيد رجع العلماء عن القول بالخرافة القديمة فى أصولنا الآرية أو الهند الأوربية .

وقد تلطف كميل جوليان المؤرخ كل التلطف حتّى وفق إلى إدخال أصول جديدة فى التاريخ الرسمى من مقتضاها أن المدنيات الأولى فى فرنسا ، كانت حضارات إيبيرية إسبانية وليغورية إيطالية ، يتجلى طابعها فى سحناتنا وربما تجلّى فى عقليتنا ، وإن نفينا زمناً هذا الطابع من طوابع أجدادنا ولم نعترف به . قال : ومن قرأ تاريخ إفريقية الشمالية القديمة يعرف أنه قامت حضارة زاهرة فى جبل الأطلس قبل ألوف من السنين للميلاد ، وكان فى تلك الأصقاع مدنية بربرية قويمة ذات علم وفن ، تعب المصريون والفينيقيون فى القضاء عليها ، وأنه كان لإيرلاندا حضارة بديعة فيها البطولة والتقوى ، ولم يتعرض المؤرخون من البريطانيين لذكرها ووصفها ، ومثل ذلك قل فى الشعوب الإيطالية الأولى ، قبل أن تؤسس رومية وتنمو ، فإن أمرها مجهول ، حتى لنجهل اللغة التى كان يتكلم بها الايتروسيكون الذين شرعوا لرومية الشرائع ، وأقاموا لها الملوك ، وخلقوا لها أرباباً وآلهة . ا هـ .

التعليقة الثانية (ج ١ ص ٢٢)

قال ابن الجوزى فى كتاب الموضوعات : معظم البلاء فى وضع الحديث إنما يجرى من القصاص لأنهم يريدون أحاديث ترقق وتنفق ، والصحاح تقل فى هذا . واختلف أهل البصرة فى القصص فأتوا أنس بن مالك فسألوه أكان النبي يقص ؟ قال : لا . وأخرج الزبير بن بكار فى أخبار المدينة عن نافع وغيره من أهل العلم قالوا لم يقص فى زمان النبي ولا زمان أبى بكر ولا زمان عمر ، وإنما القصص محدث . أحدثه معاوية حين كانت الفتنة . قالوا : ما أمات العلم إلا القصاص ، يجالس الرجل القاصّ سنة ، فلا يتعلق منه بشىء ، ويجلس إلى العالم فلا يقوم حتى يتعلق منه بشىء ، وفى كتاب « تحذير الخواص من أكاذيب القصّاص » للسيوطى فصل فى إنكار العلماء على القصاص ما رووه من الأباطيل ، وسفه القصاص عليهم ، وقيام العامة مع القصاص بالجهل ، واحتمال العلماء ذلك فى الله .

التعليقة الثالثة (ج ١ – ص ٣٩)

نص القرافى وابن حزم على أن من حق حماية أهل ذمتنا إذا تعرض الحربيون لبلادنا ، وقصدوهم فى جوارنا ، أن نموت فى الدفاع عنهم ، وكل تفريط فى ذلك يكون إهمالا لحقوق الذمة . ويقول القرافى إن من واجب المسلم للذميين الرفق بضعفائهم ، وسد خلة فقرائهم ، وإطعام جائعهم ، وإلباس عاريهم ، ومخاطبتهم بلين القول ، واحتمال أذى الجار منهم ، مع القدرة على الدفع ، رفقاً بهم لا خوفاً ولا تعظيما ، وإخلاص النصح لهم فى جميع أمورهم ، ودفع من تعرض لإيذائهم ، وصون أموالهم وعيالهم وأعراضهم وجميع حقوقهم ومصالحهم ، وأن يفعل معهم كل ما يحسن بكريم الأخلاق أن يفعله اهـ . ولما تغلب المسلمون على التتر فى الشام خاطب ابن تيمية قطلوشاه فى إطلاق الأسرى ، فسمح له بالمسلمين ، وأبى أن يسمح له بأهل الذمة ، فقال له شيخ الإسلام : لا بد من افتكاك جميع من معك من اليهود والنصارى الذين هم أهل ذمتنا ، ولا ندع أسيراً لا من أهل الملة ، ولا من أهل الذمة ، فأطلقهم له .

التعليقة الرابعة (ج ١ – ص ٥٥)

يقول جوليفة كستاو فى كتابه قانون التاريخ Jolivet Castelot : La loi d'e l'histoire : كان التقدم العربى بعد وفاة الرسول عظيما ، جرى على أسرع ما يكون ، وكان الزمان مستعداً لانتشار الإسلام ، فنشأت المدنية الإسلامية نشأة باهرة ، قامت فى كل مكان مع الفتوحات بذكاء غريب ، ظهر أثره فى الفنون والآداب والشعر والعلوم . وقبض العرب بأيديهم ، خلال عدة قرون ، على مشعل النور العقلى ، وتمثلوا جميع المعارف البشرية التى لها مساس بالفلسفة والفلك والكيمياء والطب والعلوم الروحية ، فأصبحوا سادة الفكر ، مبدعين ومخترعين ، لا بالمعنى المعروف ، بل بما أحرزوا من أساليب العلم التى استخدموها بقريحة وقادة للغاية . وكانت المدنية العربية قصيرة العمر ، إلا أنها باهرة الأثرة ، وليس لناس إلا إبداء الأسف على اضمحلالها .

ولقد كانت المملكة العربية من السعة والانتشار بحيث يتعذر بقاؤها ، وسرعان ما تمزقت بتأثير المناقشات السياسية والدينية ، فقد نشأت ثلاث خلافات أواخر العهد العباسى (بغداد ومصر وقرطبة) ، قامت فى ثلاثة مراكز قوية عظيمة . وكانت سيرة الخلفاء كسيرة المستبدين من المشارقة ، يحبون البذخ ولهم أدب ومكانة ، بيد أنهم كانوا قساة لا يبالون ما يصيب رعاياهم من بؤس ، يَغْلون أبداً فى تقاضيهم الضرائب الفاحشة ، ولئن كان سادة البلاد أصحاب أثرة ، فإن العمل الذى تم حولهم كان أسمى منهم ، ومنه نشأت مدنية مدهشة ، وإن أوربا لمدينة للحضارة العربية بما كتب لها من ارتقاء ، من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر ، وعنها أخذت الفكرة الفلسفية العلمية التى سرت إليها سرياناً بطيئاً ناقصاً فى القرون الوسطى ، وإن أوربا لتتجلى لنا منحطة جاهلة أمام المدنية العربية ، وأمام العلم العربى والآداب والفنون العربية ، وأوربا تدين بالهواء النافع الذى تمتعت به فى تلك العصور للأفكار العربية ، وقد انقضت أربعة قرون ولا حضارة فيها غير الحضارة العربية ، وعلماؤها هم حملة لوائها الخفاق اهـ .

التعليقة الخامسة (ج ١ ـ ص ٩٥)

جاء فى تاريخ غزوات العرب لرينو أن عدد المسلمين الذين تنصروا فى فرنسا كان كبيراً ، وهذه نتيجة طبيعية للحالة التى كانت يومئذ . ولكن الفرنسيس الذين اتخذوا الإسلام ديناً كانوا أكبر عدداً ، فإن الغزوات الإسلامية الأولى لفرنسا ، وسبى المسلمين الذرارى من أهلها ، وما كان التجار يتجرون من الريق ، كل هذا قد أدخل فى الإسلام عدداً لا يحصى من الإفرنج . ومن المعلوم أن المسلمين يتلقون النصارى الداخلين فى دينهم بمزيد التساهل ، ويُعنون بهم ويوفرون حظوظهم وأرزاقهم ، وبهذا كثر عدد النصارى الذين صبأوا عن دينهم ودخلوا فى الإسلام .

التعليقة السادسة (ج ١ ص ٩٦)

يقول يوهان يورت فى كتابه أزمة الحقيقة Gohan Hjort : L crise de la vérité أثناء كلامه على ما قامت به النصرانية من تخريب أوربا ، لما أرادت نشرها فيها وقضاءها على أناس من سكانها كانوا أقل من المهاجمين قوة ، إنه فرغت أرجاء كثيرة من سكانها على حين كانوا ينقلون ملايين من الزنوج من إفريقية إلى أمريكا ، ليكون حكمهم حكم الحيوانات الأهلية، فقضت عليهم الأمراض والغول التى جاءوهم بها من أوربا ، وطوردوا وأبيدوا وأكرهوا على أعمال قاسية ، وقرضوا لهم الحيوانات التى كانوا يغتذون بها . وبعد أن ذكر ما أبقته حرب الثلاثين سنة من الفجائع فى أصقاع واسعة من بلاد ألمانيا ، وذكر ظلم القضاء ولا سيما ديوان التحقيق الدينى ، ودعاوى السحر ، وكل ما يمكن الخرافات اختراعه . قال : كانت السجون بؤرة الفظائع ، ومغارات الشقاء والظلم ، وكان اليتامى إذا فقدوا معينهم يموتون أو يعيشون عيشاً شقياً ، ولطالما رأت الشمس عصابات من جياع الأطفال هلك آباؤهم فى الحروب ، وهم هائمون على وجوههم فى الحقول ، يغتذون بالأعشاب والجذوع .

التعليقة السابعة (ج ١ ص ٢١١)

لم يتمكن أهل أسبانيا من أن يحولوا دون تغلغل النفوذ الإسلامى فى صميم حياتهم ، حتى أن ممالك أسبانيا النصرانية استعملت النقود الإسلامية أربعة قرون . واستحضر كثير من ملوك قشتالة وأرجون جما غفيراً من علماء المسلمين واليهود ، وقدموهم فى مجالسهم ، ورفعوا من أقدارهم ، كما استخدم كثير من ملوكهم مهندسين وبنائين من المسلمين ، وفتحوا أبواب مجالسهم لكثير من الموسيقاريين والشعراء من المسلمين ، للتلذذ بطيب أنغامهم وحلو حديثهم ، ومات روح التسامح هذا بالقضاء على الإسلام فى إسبانيا ، وحل محله روح خبيث ملؤه التعصب الأعمى الذى أشعل ناره القساوسة الكاثوليك لتصبح إسبانيا أسيرة رقهم وعبوديتهم .

وكان المسلمون فى الأندلس يفضلون أبداً أن تكون أمهات أولادهم من الأسر النصرانية العريقة فى المجد والحسب ، فأخذ الدم العربى بطبيعة الحال يقل فى عروقهم مع مرور الزمن ، ولذلك كان من الخطأ أن نقول إن كل مسلمى إسبانيا عرب ، أو أن كل نصاراها رومانيون أو قوط ، كانت اللغة العربية فى إسبانيا اللغة الرسمية ، ولغة الرومان لغة دارجة يتكلم بها الجميع ، العرب والمستعربون ، وهى عامة فى جميع طبقات قرطبة حتى فى المحاكم ، وفى القصور الملكية . الفصحى لغة العلماء والأدباء ، والعربية العامية لغة الحكومة والإدارة ، وهناك لغة رومانية اشتقت من اللاتينية وهى التى تولدت منها اللغة الإسبانية .

ومما زاد فى انتشار الحضارة الإسلامية فى الأقطار الإسبانية الشمالية النصرانية ، ومنها انتشرت فى أرجاء أوربا ، هجرة المستعمرين ، فراراً من الاضطهاد الذى لحقهم ، على عهد دولتى البربر المرابطين والموحدين ، خصوصاً فى الدور الذى انقضى بين سنة ١٠٩٠ وسنة ١١٤٤ م . وهذه أول مرة فى تاريخ الأندلس نشأ فيها تعصب دينى ، وقد جاء به ملوك البربر من الجنوب وقساوسة الكلونياك من الشمال .

وما كاد القرن العاشر الميلادى يتبلج حتى كانت المدنية الإسلامية قد انتشرت فى إسبانيا كلها ، فى البلاد الأسلامية والنصرانية سواء ، ولما سقطت مدينة طليطلة فى حكم الممالك النصرانية ، انتشرت حضارة الإسلام فى عامة أصقاع أوربا . وخلفت طليطلة مدينة قرطبة فى التفرد بالحضارة والعلوم ، واحتفظت بمكانتها إلى ما بعد سقوطها فى أيدى الإفرنج فى سنة ١٠٨٥ .

كان بلاط الملك الفونسو السادس متشبعاً بالمدنية الإسلامية ، على نحو ما كان بلاط فرديناند الثانى فى بلرم فى القرن الثالث عشر ، حتى لقد لقب الفونسو نفسه بإمبراطور الديانتين . وكان الطلبة يؤمون مدارس طليطلة من كل ممالك أوربا ، حتى من انجلترا واسكتلندا . ومن أعظم ما خلفه مسلمو

إسبانيا للمدنية الغربية ما كتبه فلاسفة المسلمين . وعلى ما كانت عليه دولتا المرابطين والموحدين من التعصب ، لم تتعرضا للفلاسفة بل شجعتاهم ، ولكن على أن لا ينشروا تعاليمهم بين الناس ، ولم يظهر أعاظم المفكرين فى المسلمين فى عصر خلفاء قرطبة الزاهر ، بل ظهروا فى عصر الفوضى والاضمحلال السياسى . وكان هؤلاء الفلاسفة همزة الوصل فى نقل فلسفة أرسطو إلى العرب وكان الإنجليزى أو الاسكتلندى يضطر إذا أراد أن يدرس الفلسفة اليونانية ، أن يرحل إلى طليطلة ليدرسها باللغة العربية على شيوخ المسلمين .

كان الفونسو التاسع ملك قشتالة وليون (١٢٥٢ — ١٣٨٤ م) أعظم علماء النصرانية فى إسبانيا ، استدعى كثيراً من اليهود ليترجموا له الكتب العربية ، وكتب بنفسه شيئاً كثيراً من النثر الأسبانى تجلى فيه الروح العربى . (عن مقالات من تراث الإسلام أو أثر الإسلام فى المدنية الحديثة عربها عن الانجليزية مأمون عبد السلام ونشرها فى جريدة البلاغ المصرية فى ١٤ من ربيع الثانى ١٣٥٣ وما بعده) .

ويقول رينو فى تاريخ غزوات العرب فى فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط ، إن المسلمين فى مدن الأندلس ، كانوا يعاملون النصارى بالحسنى . كما أن النصارى كانوا يراعون شعور المسلمين ، فيختنون أولادهم ولا يأكلون لحم الخنزير . وقال إن النهضة الحقيقية فى أوربا لم تبدأ إلا منذ القرن الثانى عشر ، أى منذ زحف أهل الغرب لقتال أهل الشرق ، ووقفت النصرانية والإسلام فى الصراع وجهاً لوجه ، فوقع الاحتكاك بين المسلمين والنصارى ، وأفاق الفرنسيس والانجليز والألمان من رقدتهم ، ونفضوا عنهم غبار الخمول ، ووجدوا ضرورة الاشتراك فى المدنية الإسلامية . وكان علم اللغة اليونانية قد درس وصار العلم اليونانى غير معروف إلا عند العرب ، فأخذ النصارى من فرنسا وجوارها يؤمون إسبانيا لأجل ترجمة التآليف العربية المنقولة عن اليونان .

قال رينو وبالجملة فقد كان العرب لذلك العهد هم الأمثلة العليا والأقيسة البديعة فى الشجاعة والشهامة وعزة النفس ومكارم الأخلاق والعفو عند المقدرة وقرى الضيف . تشهد بذلك وقائع ونوادر كثيرة منها ما رواه بعض مؤرخى الإسبانيول من أنه فى سنة ٨٩٠ أراد ملك أشتورية أذفونس الكبير أن ينتدب مؤدباً لابنه وولى عهده فاستدعى اثنين من مسلمى قرطبة حرصاً على تهذيبه ، إذ لم يجد فى النصارى إذ ذاك كفوًا لهذه المهمة .

التعليقة الثامنة (ج ١ - ص ٢٢٤)

ذكر رينه مارسيال فى كتابه العنصر الفرنسى . René Martial : La race française أن النورمانيين الذين امتزجوا بالعنصر الفرنسى قد باضوا وفرخوا فى انجلترا وساعدوا على عمران تلك البلاد ، وكانوا أبداً مخاصمين للفرنسيس وأعداء لهم ومنافسين . أما العرب فكانوا على العكس من ذلك فإنهم لم يتركوا فى غاليا وفى فرنسا غير حضارتهم وعدداً كبيراً من الخلاسيين بدون أن ينشأ منهم اختلاف جنسى أو عنصرى . واليوم وقد أصبح شمالى إفريقية جزءاً من فرنسا أخذ الناس يدركون أحسن من ذى قبل أن الطابع الذى أبقاه العرب الفاتحون كان عظيما ، وأنهم شاركوا مشاركة عظيمة فى نشوء التهذيب العقلى والفنون فى أوربا . لما ضرب العرب فى سنة ٧١١ الويزغوت فى وقعة شريش أصبحوا سادة إسبانيا ، ودخلوا بلاد غاليا من إقليم نربونة وكان اسمها إذ ذاك سبتمانيا . وفى سنة ٧٢١ حال « أوددوج اكيتين » دون تقدم العرب فى وقعة طلوزة ، وكان هاجمه العرب من كل جهة ،وبعد أن هاجموا الاكيتين تقدموا فى سمت الشمال حتى بلغوا مدينة تور فأنقذ شارل مارتيل هذه المدينة ، وقضى على العرب قضاء مبرماً فى وقعة بواتيه (أكتوبر ٧٣٢ م) وترك العرب من آثار حضارتهم ما لم تتركه الشعوب الجرمانية لتفوقهم فى الحضارة إذ ذاك ، ولما كان العرب مؤرخين وشعراء كان من إبقائهم لنا قصة ألف ليلة

وليلة أجمل مصدر استقى منه أدباء الغرب ومتفننوه ، ونفعت هذه القصص العلماء من عدة وجوه . والقرآن نفسه كتاب عظيم من الطراز الأول ، حوى الدين والأدب والشرع وما زال تأثيره فى حياة العرب ولا يزال ، بحيث لا يستطاع فهم روح المسلمين وفكرهم إذا لم يدرس ويقرأ فى ترجمة صحيحة ، لأن كثيراً من الترجمات كان رديئاً وأكثر منها التفاسير . وأرى أن قلائل فينا عرفوا العرب معرفة حقيقية ، ولا أستطيع أن أدخل فى هذا العدد القليل غير المارشال ليوتى والأستاذين غوتيه وريكاس .

ثم ذكر ما تفرد به العرب فى خدمة الحضارة ومما قال أن اختراعهم ورق دعا إلى استكثارهم من خزائن الكتب ، وهى وحدها دليل على تقدمهم فى سبيل الحضارة ، وأنه لا وجه للتشبيه بـ غارات العرب وغارات برابرة الجرمان . وذكر ما كان من العلائق التجارية بين بلاد المسلمين ومرسيلية منذ الحروب الصليبية وقال إنه كان فيها جامع للمسلمين يؤدون فيه فرائضهم منذ الزمن الأطول ، دلت على ذلك المعاهدات التى عقدت بين فرنسا ودول الإسلام وإن مرسيلية مدينة بكثير من حضارتها ونجاحها لاتجارها مع العرب منذ القرن العاشر . قال لو كانت العرب غلبت شارل مارتيل لكانوا تمثلوا تمثلا حسناً فى الأرض الفرنسية أكثر من السلتيين فى الأرض الليغورية ، فإن مقامهم الطويل فى إسبانيا شاهد بذلك ، وكذلك يدل ما أبقوا من الآثار إلى أى درجة كانت حضارتهم متفوقة على حضارتنا إذ ذاك .

التعليقة التاسعة (١ ج – ص ٢٢٨)

كتب داوسون فى كتابه أصول أوربا والمدنية الأوروبية Christopher Dawson : Lesorigines de l'Europe et de la civilisaticn Européenne كانت الحضارة العباسية ، ولسانها العربية ودينها الإسلام ، مكملة بمظهرها العقلى للحضارات القديمة التى مثلتها مملكة العباسيين الواسعة ، ويصح ذلك

على الخصوص بما نشأ من الفلسفة العربية والعلم العربى اللذين ارتقيا فى ذاك العصر ، وأثرا تأثيراً عظيما فى أهل القرون الوسطى عامة . ولقد كانت الحركة العلمية فى العالم فى أكثر من أربعة قرون بأيدى الشعوب الإسلامية ، وعن العرب أخذت أوربا الغربية أصولها العلمية ، ويرجع العمل العلمى والفلسفى فى العالم الإسلامى إلى العرب وإلى الإسلام نفسه ، هذا وإن لم يكن فيه إبداع جديد ، ولم يتوفر على غير إكمال العلم اليونانى ، وقد انضم إلى الثقافة الإسلامية أشياء بفضل رجال كانوا من أصول أرامية وفارسية . وإذا استثنينا الكندى فيلسوف العرب فقط نجد حظ العرب قليلا من هذه الحركة . وقد أثمرت هذه الحضارة فى تخوم البلاد الإسلامية ، أثمرت فى آسيا الوسطى أمثال الفارابى وابن سينا والبيرونى ، وفى إسبانيا والغرب الأقصى ابن رشد وابن طفيل .

وقال إن النصارى السريان فى بابل والصابئة فى حران كانوا واسطة لنقل الثقافة اليونانية إلى الثقافة الإسلامية ، وأن علماء البصرة أخذوا منطق أرسطو عنهم ، وأن هذا الاقتباس عن اليونان كان قليلا لا شأن له ، وأن العرب لم يأخذوا شيئاً فى الشعر ولا اقتبسوا التمثيل ، ومع هذا ترك البيان اليونانى أثراً ظاهراً فى الآداب العربية ، ولا سيما فى كتابات الجاحظ ، أكبر منشئ وأعظم أستاذ فى القرن التاسع . وعظم النفع بما أبقته الثقافة اليونانية فى العلوم والفلسفة ، وتلقى المسلمون باليمين ، ما كانت مدارس آثينا والاسكندرية قد تركته منذ القرن السادس . وكانت آراؤهم فى الفلسفة كآراء فلاسفة اليونان ، أى التوفيق بين الفلسفة الأرسطاطاليسية والأفلاطونية الجديدة ، ومزج كل منهما بالأخرى . أخذوا أصول هذا التحليل فحققوه بقوة فكر ونزاهة علمية ، وكان عملهم فيها من أتم وأحكم ما وفقت إليه الفلسفة فى عصورها الماضية . ونجح علماء العرب بتنظيم الفلسفة فما كانت عندهم مجموعة معلومات مختصرة مركومة ، بل جعلوا لها قواعد تامة لا تتجزأ من مجموعها الاسطقسات أو العناصر .

واحتفظت الحضارة الإسلامية بتفوقها خلال القرون الوسطى فى الشرق وفى أوربا الغربية . وبينا كانت النصرانية سائرة إلى الاضمحلال بها انهال عليها من غارات العرب والفيكنغ Vikings والمجر ، كانت الحواضر الإسلامية على شواطىء البحر المتوسط الغربى تدخل فى أعظم طور من أطوار نهضتها ، قال : إنا اعتدنا اعتبار مدنيتنا كأنها تألقت من جوهر الحضاره الغربية ، حتى صعب علينا أن نعتقد بأنه أتى زمن وأهم قطر متحضر فى أوربا الغربية لم يكن سوى ولاية ذات مدنية غريبة عنها ، وأن البحر المتوسط مهد حضارتنا كان مهدداً بأن يصبح بحراً عربياً ، وكادت النصرانية فى الغرب والإسلام فى الشرق يكونان شيئاً واحداً فى زمن كانت فيه آسيا الصغرى نصرانية ، وكانت إسبانيا والبرتغال وصقلية تؤوى حضارة إسلامية زاهرة . هكذا كانت الحال فى القرن العاشر . وقد فعلت هذه الحضارة فعلها العظيم فى ترقى العالم فى القرون الوسطى ، فانتشرت الثقافة الغربية فى ظل حضارة الإسلام ، واستطاعت النصرانية فى قرونها الوسطى بفضل هذه الحضارة أن تأخذ طرفاً من التراث العلمى والفلسفه اليونانية ، وما كان ذلك قبل القرن الثالث عشر ، ولم يتم إلا عقبى الحروب الصليبية . وبعد فاجعة المغول الكبرى تمكنت الحضارة النصرانية الغربية من بلوغ مكانة مساوية بعض المساواة للمدنية الإسلامية ، وبقيت مع هذا متأثرة بالمؤثرات الشرقية .

التعليقة العاشرة (م ١ – ص ٢٣٠)

قال ابن بسام فى الذخيرة إن إشبيلية صارت مجمعاً لصوب العقول ، لا سيا من أول المئة الخامسة من الهجرة « حين فرح كل حزب بما لديه ، كل رأس على ما فى يديه ، بعد الدولة الحامدية » « حتى اجتمع فى الجانب الغربى ما باهى الأقاليم العراقية ، وأنسى بلغاء الدولة الديلمية » وطريقتهم فى الشعر الطريقة المثلى التى هى على طريقة البحترى فى السلاسة والمتانة والعذوبة والرصانة .

التعليقة الحادية عشرة (م ١ - ص ٣٢٢)

بحث بعض علماء الأمريكيين والإنجليز فى لغات الهنود فى أمريكا فوقعوا على كلمات عربية ترجع إلى سنة ١٢٩٠ م أى إلى قرنين قبل وصول كولمبس إلى أمريكا . وقد يكون أصحاب تلك الكلمات اتصلوا بها قبل ذلك بقرنين آخرين ، وهناك مستعمرات عربية وجدت بين سنة ١١٥٠ و ١٢٠٠ وقد وجدت آثار عربية فى شاطىء الخليج المكسيكى خاصة . وكان العرب يتجرون مع أمريكا قبل كولمبس بزمان طويل . وثبت أن سفن العرب أقلعت من جزيرة كناريا ، ومن هناك إلى أزوارد فى وسط الأطلنطى ، ونزلت إيرلاندا وجزائر انجلترا الغربية . وفى هذه الناحية من تلك الجزائر بئر تسمى بئر عباس يستدل بها أن العرب استعمروا تلك الناحية . وكان فى لشبونة مصور بلاد أمريكا مما صنعته أيدى العرب . ولنا أن نقول إن التجارة بين العرب وهنود أمريكا كانت قبل موافاة كولمبس لها بخمسة قرون . ولما أبحر كولمبس من أوربا كان متزوداً بمصورات وخرائط للعرب وبها اهتدى إلى تلك الأرض . واستصحب رجلين من العرب كانا عبرا إلى أمريكا قبل ذلك وعرفا الطريق . وعثر أحد علماء الأثرياء على ألواح مكتوبة بحروف عربية ولغة عربية ، فاتجهت أنظار علماء الآثار إلى استطلاع كنه هذه الحقائق التاريخية التى لا تلبث أن تنطق بأفصح لسان بفضل العرب على الإنسانية فى جميع الميادين (لمحمد بن عمار الورنتانى فى كتابه كشف الحجب) .

التعليقة الثانية عشرة (ج ١ - ص ٢٥١)

نقل ليفى بروفنسال فى كتابه إسبانا الإسلامية فى القرن العاشر E. Lévi Provençal : L'Fspagne musulmane au Xème sièele عن مصادر عربية ، أن الكاتب فى الدولة الأموية كانت رتبته تعادل رتبة الوزارة ، وأنه كان يطلق على الوزير لقب الكاتب تخفيفاً . وأن كاتب الذمم كثيراً ما كان على

رواية ابن سعيد نصرانياً أو يهودياً ، سواء فى ذلك الأندلس وشمالى إفريقية ، وكانت الأعمال توسد فى الأندلس إلى العرب والبربر والأسبانيين المولدين والوظائف مما يتقلده النصارى واليهود . ووصل المولدون مع الزمن وهم من أصول غير عربية إلى أن تولوا الأعمال العامة إلا قليلا . وقال إن أولاد الخلفاء من الأمويين وذوى قرباهم قلما كانوا يتولون أعمالا للدولة وقلما يظهرون إلا فى أيام البيعة لملك جديد ، وأن المناصب العالية قد يطمع فيها من العمال من يؤدى للخليفة مالا مما جناه أو جناه أهله ، وأن النصارى واليهود كانوا فى العهد الأموى هناك يتصرفون للدولة فى الأعمال الإدارية والحربية ، ومن اليهود من كانوا ينوبون عن الخليفة بالسفارات إلى دول أوربا الغربية ، وقال إن الجيش الأندلسى كان بعد عهد الأمويين ينظم على مثال الجيش العباسى من حيث ترتيبه وطبقاته . وزعم أن جميع طبقات المجتمع الإسلامى كانت تتعاطى الخمر كالنصارى واليهود . وأن شاربى الخمر ما كانوا يعاقبون بشدة كما يقضى به الشرع وأن الخمر ما كان يشرب فى كل ناحية علناً .

التعليقة الثالثة عشر (ج ١ – ص ٢٦٤)

الظاهر أن المسلمين غزوا رومية مرتين : الأولى فى سنة ٢٣١ هـ – ٨٤٦ م ، وفيها ضربوا الحصار على مدينة القياصرة ، فارتاع البابا سرجيوس واهتز الشعب الرومانى فرقا ورعباً ، وبادر الامبراطور لويس الثانى ملك الفرنج واللومبارد بإرسال حملة لمقاتلة الغزاة ، وجهزت ثغور نابل وأمالفى وجايتا حملة بحرية لمطاردتهم ، فرفع المسلمون الحصار عن المدينة بعد أن اقتتلوا مع جند الأمبراطور وسفن الثغور الإيطالية قتالا رائعاً وعادوا مثقلين بالغنائم والأسرى . وفى سنة ٢٥٦ هـ ٨٧٠ م نشط أمراء البحر المسلمون فى ثغور إفريقية والأندلس إلى تجهيز حملة كبيرة فوصلوا إلى رومية وهددوها حتى اضطر البابا يوحنا الثامن خلف البابا ليون ، أن يفاوضهم فى الجلاء على أن يدفع

لهم جزية سنوية قدرها خمسة وعشرون ألف مثقال من الذهب (عن مواقف حاسمة فى تاريخ الإسلام لمحمد عبد الله عنان).

التعليقة الرابعة عشرة (ج ١ – ص ٢٧٨)

لما دخل الإفرنج القسطنطينية فى سنة ٦٠٠ هـ . نهبوا كل ما فى البيع من ذهب ونقرة ، حتى ما على الصلبان وما على صورة المسيح والحواريين وما على الأناجيل ، ثم أخرجهم الروم عن البلاد فعادوا إليها وقتلوا كل من اعتصم بالكنيسة وغيرها (قاله ابن الساعى فى الجامع المختصر) .

التعليقة الخامسة عشرة (ج ١ – ص ٢٩٥)

قال جوليفه كستلو : عصفت الحروب الصليبية فى قرن حملت ريحاً من الجنون تبلور فى أفكار الناس ، فانتقل من القوة إلى الفعل . وما هى إلا سلسلة من الحملات قامت بها شعوب أوربا النصرانية للاستيلاء على القبر المقدس فى إيليا . وذكر أن البابا أوربانوس الثانى ، وكان من أصل فرنسى ، هو الذى جيش الحملة الأولى ، والبابا هو الذى زين للشعوب الأوربية ما حملها على الاشتراك فى هذه الحرب الزبون ، وهو الذى وضع لهم ما وضع من المغريات فقبلوها راضين . وكانت الحملة الأولى (١٠٩٥م) مؤلفة من مائة ألف فرنسى وألمانى ، فنيت فى الطريق ، ولم تصل إلى غير القسطنطينية ، ثم مزق الأتراك شملها فى آسيا الصغرى . والتحقت بها حملة مؤلفة من مليون إنسان فيهم النساء والأولاد ، والمحاربون منهم ثلاثمائة ألف خلص منهم ثمانون ألفاً إلى القدس ففتحوها . أما سائر الحملات فقد أخفقت ، ومع هذا كانت كنوز الشرق تغوى الحملات الأخيرة ، أكثر مما تستهويهم أوهام الدين . ولكم أن تشبهوا حملات النصارى على الشرق بحملات البرابرة المتوحشين وإن كانت دعوى إنقاذ القبر المقدس المشكوك فى أنه قبر المسيح ، قد اتخذها الباباوات ثم الملوك ، حجة ليحمسوا الشعوب ويجندوا الناس . وغدا التجنيد

إجبارياً بعد الحملة الثانية . وكانت هذه الحملات الكبرى شؤماً على أوربا ، استنزفت من البلاد رجالها الأشداء الشجعان غير مرة ، وافتقرت بسببها فرنسا وانجلترا وألمانيا فقراً دون كل فقر ، لما قضت عليه هذه الحروب من مئات الألوف من الأيدى النافعة ، دع ما صرف عليها من النفقات الباهظة . وكان من طمع البابوات ما استغلوا به سذاجة الجاهير فكلفهم باهظ التكاليف . وتجلت فى ذلك شهواتهم المفرطة ، كى يحرزوا الثروة السهلة المأخوذة من غير حلها . وتولت المحنة تكذيب أوهامهم فكان من ذلك أشد المصائب . وبينا كانوا يرجون أن يسقطوا على سعادة وغنى ومجد لم يشهدوا إلا آلاماً وبؤساً . وقد أرخوا العنان لغرائزهم المتوحشة مدفوعين إليها بعاملى الفاقة والأمل . وستظل الحروب الصينية إحدى فضائح النصرانية السياسية المؤمنة ، ونحن لا نرى فيها ما يعزوه إليها المؤرخون من الفوائد إلا كذباً وبهتاناً عظيما ، ولن يوافقهم على ما يدعون إلا من كان تحت سلطان الوطنية والدين . إن تبادل الأفكار بين الشرق والغرب قد نتج من الاحتكاك بين عرب إسبانيا والأوربيين أكثر مما كان من أثر الصدمة البربرية بين جيوش النصرانية والإسلام . وعلى كل حال فإن أوربا مدينة كثيراً للحضارة العربية والتركية أكثر مما تدين الحضارة العربية للحضارات المنحطة فى الغرب بين القرن الحادى عشر — والثالث عشر . ه ا .

التعليقة السادسة عشر (ج ١ ص ٣١٩)

تاريخ البرتقال لتيودريك لكران Théodoric Legrand : Histoir du Portugal أن المغاربة المسلمين الذين نزلوا بلاد البرتقال كانوا أشـبه بالمدجنين من غير المسلمين الذين نزلوا إسبانيا ، ويطلق عليهم اسم « موروفوروس » Mouros Forros ، كانوا يؤدون ضرائب خاصة ، وتجرى عليهم أحكام خاصة . ويؤلفون شعباً اشتهر بصناعاته ، عاون كثيراً على رقى الزراعة فى البرتقال ، قال إن الملك هنرى (١٤٦٠ م) الذى لقبه التاريخ بالملاح ، قد توقف بموته سير الاكتشاف بعض التوقف . وكان هو الموحى بجميع المكتشفات التى كان منها النجاح الممجد لوطنه مدة قرن من

الزمن ، لما خص به من علم ورزقه من عمل ، فجعل للبرتقال المقام الأول بين أمم العالم . وقد تعاقد فاسكو دى جاما الملاح البرتقالى مع ابن ماجد الملاح البصرى فى سنة ١٤٩٨ فى ملندة فى البحر الهندى ، على العمل فى الأسطول البرتقالى . وكانت البرتقال فى القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، كما كانت البندقية ، أعظم دولة فى العالم ، وأنه أعان على إخراج العرب من لشبونة جيش من الصليبيين من أهل اللورين وفلمنديا ، وكان متوجها إلى القدس فحارب فى صفوف البرتقاليين فى شنترين وشنترة ولشبونة .

التعليقة السابعة عشرة (ج ١ ص ٣٢٢)

لما وضعت إسبانيا حمايتها على الشواطئ الإفريقية فى القرن العاشر من الهجرة ، وتدخلت فى فض بعض القلاقل الداخلية فى تونس ، خرب عمرانها وتبدد سكانها بالهجرة والقتل ، فانقرض نحو ثلث سكانها ، وأصبح شطر كبير من معالمها أطلالا دوارس ، وأتى الإسبانيون على العمران الذى كان لتونس زمن الدولة الحفصية ، ولم تعد إلى البلاد حياتها إلا بنزول جاليات من الأندلس ممن فروا من الإسبان ، لما استولوا على بلادهم ، فعمروا المدن والقرى ، وأحيوا الزراعة والصناعات . وفى كتاب شهيرات النساة لحسن حسنى عبد الوهاب أنه لم يمض غير زمن يسير حتى زهت حاضرة تونس بالفنون الجميلة ، مثل الهندسة والنقش والموسيقى والصناعات المختلفة ، وهكذا كان الأندلسيون فى كل بلد نزلوه فى مراكش وشمالى إفريقية بأسرها .

التعليقة الثامنة عشرة (ج ١ ص - ٣٢٩)

قال جوليفه كستلو : تشبه الطريقة التى جرى عليها الإنجليز فى استعمارهم الطريقة التى سارت عليها حكومات أوربا . المختلفة . وطريقتهم الاعتماد على قوة الجند التى لا تقاوم ، وامتهان حقوق الوطنيين . ولما كان الاستعمار البريطانى

قائماً على الثبات والدؤوب أكثر من استعمار الممالك الأخرى ، جاءت منه فوائد محسوسة مثمرة . وغدت المملكة الاستعمارية الإنجليزية منبع غنى فائض للبلاد الانجليزية ، والهند وأوستراليا أجمل أزهار ذاك التاج ، بيد أن قوة المستعمرات ليست اليوم غير صورة ظاهرة ، وتوشك على ما يظهر أن تقطع صلتها بانجلترا ، فتتمزق قوة إنجلترا النائية عن أوربا ، وتلك هى الرجعة العادلة فى الأشياء ، هذا إذا كان فى التاريخ عدل . ذلك لأن الجرائم التى احتقبتها انجلترا فى الهند والترنسفال وفى إيرلاندا سيكون منها رد فعل طبيعى ، ينال فيه الفاعلون جزاء ما قدمته أيديهم .

وقال أيضاً : إن عهد السياحات الكبرى بدأ فى القرن الخامس عشر ، قامت بها البرتقال أولا على يد فاسكو دى جاما ، ثم إسبانيا على يد خريستوف كولمبس والبوكرك وأمريك فسبوس ، بإيحاء ماركو بولو ، وبفضل المعلومات التى تلقوها بواسطة العرب فى الجغرافيا والفلك . وقد عرف العرب كروية الأرض على النحو الذى قال به الأقدمون ، خلافاً لما كان يعتقده الأوروبيون . وما عتم الأسبان أن أسسوا مملكة استعمارية حقيقية فى أمريكا ، بفتحهم المكسيك وبيرو فتحاً سريعاً سداه ولحمته التوحش . وكانت حضارة الاستيك والإينكاس ، سكان هاتين المملكتين ، سامية فى ذاتها بل أرقى من حضارة من أخضعوهم لسلطانهم ، ممن لم تكن لهم غاية سوى الاستيلاء على المدن والكفور فى تلك الأرجاء الواسعة . وما الفتح الإسبانى فى الواقع إلا سلسلة طويلة من الفظائع والفجائع ، وحوادث مكررة من الجنايات والسرقات . ولقد قضى الإسبان على الوطنيين قضاء مبرماً ، وجلبوا من إفريقية عدداً عظيما من السود ، فكان ذلك الأصل فى استرقاق الزنوج الشنيع ، وعلى أثر الإسبانيين سارت جميع شعوب أوربا ، وما انتهى دور الرق إلا فى أواخر القرن التاسع عشر . وكان بالطبع من هذه الحملات الواسعة تبدل اقتصادى وعلمى عظيم ، فانهالت المعادن الثمينة من بيرو على إسبانيا والبرتقال ، واغتنى بها الملوك خاصة ، حتى استطاعوا أن يزيدوا فى جيوشهم ، ويوسعوا سلطتهم السياسية

كما اغتنت الطبقة الوسطى من السوقة والتجار ، وارتفعت أسعار الحاجيات لتكاثر الذهب والفضة .

التعليقة التاسعة عشرة (ج ٢ - ص ١٩)

يقول الفارابى فى إحصاء العلوم : إن صناعة الكلام يقتدر بها الإنسان على نصرة الآراء والأفعال المحدودة التى صرح بها واضع الملة ، وتزييف كل ما خالفها بالأقاويل ، وهذا ينقسم جزءين أيضاً : جزء فى الآراء وجزء فى الأفعال ، وهى غير الفقه ، لأن الفقه يأخذ الآراء والأفعال التى صرح بها واضع الملة مسلَّمة ، ويجعله أصولا فيستنبط منها الأشياء اللازمة عنها . والمتكلم ينصر الأشياء التى يستعملها الفقيه أصولا من غير أن يستنبط عنها أشياء أخر . فإذا اتفق أن يكون للإنسان منا قدرة على الأمرين جميعاً فهو فقيه متكلم ، فيكون نصرته لها بما هو متكلم ، واستنباطه عنها بما هو فيه فقيه . وعلم الكلام يسمى علم أصول الدين ، وعلم التوحيد والصفات ، وكان أبو حنيفة يسميه « الفقه الأكبر » .

التعليقة المكملة للعشرين (ج ٢ - ص ٦٠)

سمع أبو الرملى وكان مسناً يقول : حضرت مجلس أبى القاسم المرتضى وأنا إذ ذاك صبى ، فدخل عليه بعض أكابر الدولة فتزحزح له ، وأجلسه معه على سريره ، وأقبل عليه مسائلا ، فساره الديلمى بشىء لم نعلم ما هو فقال له متضجراً : نعم ، وأخذ معه فى كلام كأنه مدافعة ، فنهض الديلمى، فقال المرتضى بعد نهوضه أهؤلاء يريدون منا أن نزيل الجبال بالريش ، وأقبل على من فى مجلسه فقال : أتدرون ما قال هذا الديلمى فقالوا : لا يا سيدى ، فقال ، قال : بين لى هل صح إسلام أبى بكر وعمر ، قلت : رضى الله عنهما . وسمع أبو القاسم بن برهان يقول : دخلت على الشريف المرتضى أبى القاسم العلوى فى مرضه الذى توفى فيه ، فإذا هو قد حول وجهه إلى الجدار

فسمعته يقول : أبو بكر وعمر وليا فعدلا واسترحما فرحما (طبقات الأدباء لياقوت فى ترجمة على بن الحسين المرتضى ج ٥) .

التعليقة الحادية والعشرون (ج ٢ – ص ٨٠)

جلس قاص ببغداد فروى تفسير قوله تعالى : « عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً » وزعم أنه يجلس معه على عرشه ، فبلغ ذلك الإمام محمد بن جرير الطبرى ، فاحتد من ذلك وبالغ فى إنكاره . وكتب على باب داره « سبحان من ليس له أنيس ، ولا له على عرشه جليس » فثارت عليه عوام بغداد ورجموا بيته بالحجارة حتى استد بابه بالحجارة وعلت عليه (رواه السيوطى فى تحذير الخواص من أكاذيب القصاص » .

التعليقة الثانية والعشرون (ج ٢ – ص ١٣٥)

كتب عمر بن الخطاب إلى أبى موسى الأشعرى : لا تستقضين إلا ذا حسب أو مال ، فإن ذا الحسب يخاف العواقب ، وذا المال لا يرغب فى مال غيره .

التعليقة الثالثة والعشرون (ج ٢ – ص ١٤٤)

كتب أمير المؤمنين على بن أبى طالب إلى قثم بن العباس عامله على مكة : أما بعد فأقم للناس الحج ، وذكرهم بأيام الله ، واجلس لهم العصرين ، فأفت المستفتى ، وعلم الجاهل ، وذاكر العالم . ولا يكن لك إلى الناس سفير إلا لسانك . ولا صاحب إلا وجهك ، ولا تحجبن ذا حاجة عن لقائك بها ، فإنها إن ذيدت عن أبوابك فى أول ورودها ، لم تحمد فيما بعد على قضائها ، وانظر إلى ما اجتمع عندك من مال الله ، فاصرفه إلى من قبلك من ذى العيال والمجاعة ، مصيباً به مواضع المفاقر والخلات ، وما فضل عن ذلك فاحمله الينا ، لنقسمه فيمن قبلنا ، ومر أهل مكة ألا يأخذوا من ساكن أجراً . فإن الله تعالى يقول : « سواء العاكف فيه والباد » فالعاكف المقيم به ، والباد الذى يحج إليه من غير أهله . وفقنا الله وإياك لمحابه والسلام .

التعليقة الرابعة والعشرون (ج ٢ – ص ١٤٤)

لم يكن فى زمن النبي وأبي بكر وعمر وعثمان سجن ، وكان يحبس فى المسجد أو فى الدهليز حيث أمكن . فلما كان زمن علىّ أحدث السجن ، وكان أول من أحدثه فى الإسلام ، وسماه نافعاً ولم يكن حصناً ، فانفلت الناس منه ، فبنى آخر وسماه مخيسا « بالخاء المعجمة والياء المشددة فتحاً وكسراً » (رواه الخفاجى فى شفاء الغليل) .

التعليقة الخامسة والعشرون – (ج ٢ ص ١٤٥)

كان على يأخذ الجزية من كل ذى صنع : من صاحب الإبر إبراً ، ومن صاحب المسان مسان ، ومن صاحب الحبال حبالا ، ثم يدعو العرفاء فيعطيهم الذهب والفضة فيقتسمونه ثم يقول : خذوا هذا فاقتسموه ، فيقول : أخذتم خياره ، وتركتم على شراره ، لتحملنه . قال أبو عبيد القاسم بن سلام فى كتاب الأموال بعد أن نقل هذا : وإنما يوجه هذا من علىّ أنه كان يأخذ منهم هذه الأمتعة بقيمتها من الدراهم التى عليهم من جزية رؤوسهم ، ولا يحملهم على بيعها ، ثم يأخذ ذلك من اليمن إرادة الرفق بهم ، والتخفيف عنهم ، وهذا مثل حديث معاذ حين قال باليمن : ائتونى بخميس أو لبيس آخذه منكم مكان الصدقة ، فإنه أهون عليكم وأنفع للمهاجرين بالمدينة . وكذلك فعل عمر رحمه الله حين كان يأخذ الإبل فى الجزية . والخميس الثوب الذى طوله خمس أذرع ويقال له المخموس أيضاً واللبيس ما يلبس من الثياب .

التعليقة السادسة والعشرون – (ج ٢ ص ١٤٥)

سئل الحسن البصرى عن على بن أبى طالب رضى الله عنه قال : كان والله سهماً صائباً من مرامى الله ، وكان ربانى هذه الأمة فى ذروة فضلها وشرفها كان ذا قرابة قريبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وأبا الحسن والحسين رضى الله عنهما ، وزوج فاطمة الزهراء ، ولم يكن بالسروقة لمال الله ،

ولا بالنؤمة فى أمر الله ، ولا بالملولة فى حق الله ، أعطى القرآن عزائمه ، وعلم ما له وفيه وما عليه ، رضى الله تعالى عنه وكرم وجهه .

التعليقة السابعة والعشرون (ج ٢ ص ١٧٧)

دراهم النكاح أو النكاح يعنى به بغايا كان يؤخذ منهن الخراج .

التعليقة الثامنة والعشرون (ج ٢ ص – ١٧٩)

كتب عمر بن عبد العزيز أن اقضوا على الغارمين . فكتب اليه : أنا نجد الرجل له المسكن والخادم والفرس والأثاث فكتب عمر : إنه لا بد للمرء المسلم من مسكن يسكنه ، وخادم يكفيه مهنته ، وفرس يجاهد عليه عدوه ، ومن أن يكون له من الأثاث فى بيته ، نعم فاقضوا عنه فإنه غارم .

قال أبو عبيد القاسم بن سلام : إن عمر بن عبــد العزيز فرض على رهبان الديارات على كل راهب دينارين ، ولا أرى عمر فعل هذا إلا لعلمه بطاقتهم له ، وأن أهل دينهم يتحملون ذلك ، كما أنهم يكفونهم جميع مؤوناتهم .

عزل عمر بن عبد العزيز قاضياً فقال له : لم عزلتنى ؟ قال : بلغنى أن كلامك أكثر من كلام خصمك .

التعليقة التاسعة والعشرون (ج ٢ ص – ٢٣١)

لما قتل المأمون ابن عائشة وجد فى منزله قماطر فيها مكاتبات بعض الجند له فجلس وأحضرها وجمع الناس وقال : أنا أعلم أن فيكم المستزيد والعاتب ، وأن نظرت فى هذه الكتب فسدت عليكم وفسدتم على وقد وهبت مسيئكم لمحسنكم ، وأمر فأحرقت القماطر وأسفرت وجوه القوم واستصيب رأيه .

التعليقة الثلاثون (ج ٢ ص – ٢٦٣)

فى تاريخ الخلفاء للسيوطى أن أول حدوث اللقب بالإضافة إلى الدين كان فى سنة ٣٧٦هـ . وقد ولى الوزارة أبو شجاع محمد بن الحسين ولقب ظهير الدين .

التعليقة الحادية والثلاثون (ج ٢ ص - ٢٨٥)

فى أيام الآمر بأحكام الله الفاطمى بالديار المصرية ، امتدت أيدى النصارى وبسطوا أيديهم بالخيانة ، وتفننوا فى أذى المسلمين وإيصال المضرة اليهم ، واستعمل منهم كاتب يعرف بالراهب ، فصادر عامة من بالديار المصرية ، من كاتب وحاكم وجندى وعامل وتاجر ، وامتدت يده إلى الناس على اختلاف طبقاتهم ، ولما خوفه بعض مشايخ الكتاب من سوء عواقب أفعاله قال أمام من كان فى مجلسه من المسلمين والقبط : نحن ملاك هذه الديار حرثاً وخراجاً ، ملكها المسلمون منا وتغلبوا عليها وغصبوها ، واستملكوها من أيدينا ، فنحن مهما فعلنا بالمسلمين فهو قبالة ما فعلوا بنا ، ولا يكون له نسبة إلى من قتل من رؤسائنا وملوكنا فى أيام الفتوح ، فجميع ما نأخذه من أموال المسلمين ، وأموال ملوكهم وخلفائهم ، حلٌ لنا وهو بعض ما نستحقه . فإذا حملنا لهم مالا كانت المنة لنا عليهم وأنشد :

بنت كرم يتموها أمها * وأهانوها فديست بالقدم
ثم عادوا حكّموها بينهم * ويلهم من فعل مظلوم حكم

« ملخصا عن صبح الأعشى »

التعليقة الثانية والثلاثون (ج ٢ - ص ١٩٨)

يقول فان فلوتن فى السيادة العربية : إن امتزاج العناصر المتباينة فى الإسلام قد ساعد على ظهور نظم جديدة (كما كان فى العراق مثلا) فقد حل محل النظام الذى يقضى بإعفاء العرب من دفع الجزية باعتبارهم حماة الإسلام ، نظام جديد لا يفرق بين العرب والفرس فى خدمة الحكومة ، ويفرض للجميع على سواء مرتبات معينة ، على الرغم من بقاء ذاك النظام القديم وعدم إلغائه صراحة . ومنذ ذلك الحين أصبح الخراسانيون من الإيرانيين أو النصف الإيرانيين أشد الناس ولاء للعرش الجديد . وكذلك رفع الموالى المضطهدون الذين كانوا السبب فى سقوط الدولة الأموية ، رؤوسهم وأسندت إليهم المناصب المهمة فى قصر الخليفة وفى الجيش والمالية وإمارة الولايات .

التعليقة الثالثة والثلاثون (ج ٢ - ص ٣٥٣)

بعد أن نقل ابن كثير فى البداية والنهاية أحاديث السقيفة قال : ومن تأمل ما ذكرناه ظهر له إجماع الصحابة المهاجرين منهم والأنصار على تقديم أبى بكر ، وظهر برهان قوله عليه السلام : « يأبى الله والمؤمنون إلا أبا بكر » . وظهر له أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم ينص على الخلافة عيناً لأحد من الناس ، لا لأبى بكر كما زعمه طائفة من أهل السنة ، ولا لعلى كما يقوله طائفة من الرافضة ؛ ولكن أشار إشارة قوية يفهمها كل ذى لب وعقل إلى الصديق . إلى أن قال : وفى الصحيحين أيضاً من حديث الأعمش عن إبراهيم التيمى عن أبيه قال : خطبنا على بن أبى طالب رضى الله عنه فقال : من زعم أن عندنا شيئاً نقرؤه ليس فى كتاب الله وفى هذه الصحيفة — لصحيفة معلقة فى سيفه فيها أسنان الإبل وأشياء من الجراحات — فقد كذب . وفيها قال قال رسول الله : « المدينة حرم ما بين عير إلى ثور من أحدث فيها حدثاً ، أو آوى محدثاً ، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين . لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلا ، وذمة المسلمين واحدة يسعى بها أدناهم ، فمن أخفر مسلماً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين ، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفاً ولا عدلا » . وهذا الحديث الثابت فى الصحيحين وغيرهما عن على رضى الله عنه يرد على فرقة الرافضة فى زعمهم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أوصى إليه بالخلافة . ولو كان الأمر كما زعموا لما رد ذلك أحد من الصحابة ، فإنهم كانوا أطوع لله ولرسوله فى حياته وبعد وفاته من أن يفتاتوا عليه ، فيقدموا غير من قدمه ، ويؤخروا من قدمه بنصه ، حاشا وكلا ولما . ومن ظن بالصحابة رضوان الله عليهم ذلك ؛ فقد نسبهم بأجمعهم إلى الفجور والتواطؤ على معاندة رسول الله ومضادتهم فى حكمه ونصه . ومن وصل من الناس إلى هذا المقام فقد خلع ربقة الإسلام ، وكفر بإجماع الأئمة الأعلام ، وكانت إراقة دمه أحل من إراقة المدام . ثم لو كان مع على ابن أبى طالب رضى الله عنه نص فلم لا كان يحتج به على الصحابة ، على إثبات

إمارته عليهم وإمامته لهم ، فإن لم يقدر على تنفيذ ما معه من النص فهو عاجز ، والعاجز لا يصح للإمارة ، وإن كان يقدر ولم يفعله فهو خائن ، والخائن مسلوب معزول عن الإمارة ، وإن لم يعلم بوجود النص فهو جاهل ، ثم قد عرفه وعلمه من بعده . هذا محال وافتراء وجهل وضلال الخ .

التعليقة الرابعة والثلاثون (ج ٢ - ص ٤٥٨)

كتب إلينا فريتز كرينكو من علماء المشرقيات الألمان أنه يعتقد أن زوال الدولة العربية ، أعنى خلافة بنى أمية وانتقال مركز الإسلام من دمشق إلى العراق ، وظهور الفرس على العرب ، كان السبب الأول فى الحيلولة دون انتشار الإسلام فى الأمم النازلة فى الشمال الغربى أى فى أوربا ، وأن الدولة العباسية قامت على أنقاض الدولة الأموية ، وأن دخول الفرس فى المناصب العالية ، أدخل الغش والخيانة فى الأعمال المالية ، وانتهى الحال بالخلفاء والوزراء إلا النادر الشاذ أن لا يفكروا فى شىء من أعمال الشام ومصر ، دع ما وراء ذلك من البلاد كإفريقية والمغرب والأندلس ، إلا يوم يريدون نقل أموال الخراج من العراق لشراء الجوارى والجواهر وإيجاد الجوائز للمغنين والشعراء ومن ماثلهم . ولو نظرنا فى أمهات الخلفاء لرأينا خلفاء بنى أمية كلهم ، ما خلا مروان بن محمد آخر ملوك بنى أمية ؛ كانوا أبناء حرائر ، وبالعكس كان خلفاء بنى العباس أو أكثرهم أولاد جوار ، جلبن من بلاد غير إسلامية . ثم هناك آفة ثانية وهى جلب الغلمان الأتراك إلى بغداد ليكون منهم عمد الدولة ، فأصبحوا أرباب الخلفاء أنفسهم فى أقل من قرن . وآفة ثالثة وهى المناقشات والحروب التى انتشرت بين أهل السنة والشيعة ودامت إلى زماننا هذا . وقد شاهدت منها ما غمنى فى بلاد الهند ورأينا هاهنا فى إنجلترا بعض الشيعة فى العهد الأخير يمتنعون من الصلاة خلف إمام سنى المذاهب ، وهذا مما يهين أهل الإسلام فى عيون من لا يعتقدون به . وفوق كل هذه الآفات التى كان فيها أكبر سبب فى خمول الأمم الإسلامية أن كان السلاطين والأمراء فى حروبهم

يستنجدون بالأمم النصرانية من مجاوريهم . وكان خلفاء العبيديين فى مصر أول من جنى على الإسلام يوم استيلاء الصليبيين على الشام وفلسطين ، ثم أصبح هذا داء عقاماً فى الممالك الإسلامية . قال ولا الحسد السارى والشره المبين بين أمراء الهند لم تستحوذ انجلترا على البلاد الهندية .

التعليقة الخامسة والثلاثون (ج ٢ ص – ٥١٠)

من كتاب نظرة عامة فى الأصول الغربية من سكان تونس لحسن حسنى عبد الوهاب H. H. AbJul Wahab : Coup d' oeil génèral sur les ap-ports ethniques étrangers cn Tunisie.

يدعونا واجب الحق إلى القول بأن القرصنة لم تنتشر فى بحار الممالك البربرية – شمالى إفريقية وشرقها – إلا بإغراء الأندلسيين الجالين عن الأندلس فقد كانوا بعد أن حلوا فى شمالى إفريقية يدعون إلى القرصنة ويرونها الذريعة الوحيدة للانتقام من الممالك النصرانية التى لم تبد عطفاً عليهم .

ملحق

ظهرت الطبعة السابقة فى عام ١٩٣٦ . وكان ما ذكره المؤلف – رحمة الله عليه – تقريراً للواقع وقتئذ . أما فى هذه الأيام فقد تغيرت الأوضاع فى العالم كله تغيراً جوهرياً ، نتيجة للحرب الكبرى الثانية (١٩٣٩–١٩٤٥) وكان لا بد من كتابة هذا الملحق ليكون واقع اليوم ، بالنسبة للبلاد العربية ، ماثلا للقارئ إلى جانب واقع عام ١٩٣٦ .

فقد تحررت سوريا ولبنان من النفوذ الفرنسى واستقل البلدان الشقيقان واستقلت ليبيا وتوحدت ، كما استقل السودان . وانتهت الحماية الفرنسية التى

كانت مفروضة على تونس والمغرب (مراكش) . وتناضل الجزائر نضالا مسلحاً فى سبيل التحرر من السيطرة الفرنسية . وقامت بالفعل حكومة الجزائر ، واتخذت مركزاً موقتاً لها فى مصر ، واعترف كثير من الدول بقيامها . واشتد نضال الجنوب العربى ضد إنجلترا ، محاولا التحرر من سيطرتها .

ونخص مصر — قلب العالم العربى — بكلمة موجزة ، لأن الأوضاع فيها تنعكس على العالم العربى كله شرقيه والغربى .

مما ذكره المؤلف عن مصر فى صفحة ٥٢٠ « وما برح جيش الاحتلال الآن بالقطر المصرى ، وسلطان إنجلترا نافذاً فيها » .

كان ذلك فى عام ١٩٣٦ . أما الآن فقد تغير وضع مصر تغيراً كلياً ، نتيجة مباشرة لثورة البلاد التى انفجرت فى يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ بزعامة جيشها ولم يعد لانجلترا سلطان على مصر ولا نفوذ سياسى أو اقتصادى . فمنذ قامت الثورة ضيقت مصر الخناق على القوات المحتلة الرابضة فى قاعدة السويس وأرهقتها . وبعد التخلص من النظام الملكى الفاسد ، والقضاء على الإقطاع وعلى الرجعية أعوان الاحتلال ، أبرمت مصر مع إنجلترا اتفاقية ١٩ أكتوبر سنة ١٩٥٤ . بإنهاء الاحتلال بشروط . وقد تخلصت مصر من تلك الشروط وذلك بإعلانها فى أول يناير سنة ١٩٥٧ أن اتفاقية ١٨ أكتوبر سنة ١٩٥٤ صارت ملغاة اعتباراً من ٣١ أكتوبر سنة ١٩٥٦ ، وهو اليوم الذى بدأت فيه الطائرات غاراتها على الأراضى المصرية أى فى اليوم الثالث من أيام العدوان الثلاثى الغادر على هذه البلاد . وقصة ذلك العدوان ، ومقاومته مقاومة باسلة ، وخذلان المعتدين ونتيجة ذلك كله معروفة للجميع . ومن هذه النتائج تصفية النفوذ الأجنبى جملة فى هذه البلاد سياسياً كان ذلك النفوذ أو اقتصادياً ، وبروز شخصية مصر المستقلة فى المحيط الدولى .

لم تكن ثورة ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ ثورة سياسية فقط ، ولكنها ثورة شاملة على الأوضاع التى كانت سائدة فى البلاد قبل الثورة . هى ثورة سياسية واقتصادية واجتماعية . وقد حققت البلاد نصراً عظيما فى جميع هذه الميادين : ففى الميدان السياسى تحررت تحرراً تاماً . وفى الميـــدانين الاقتصادى والاجتماعى تقدمت تقـــدماً ملحوظاً باتباع أسلوب التخطيط المدروس ، إيماناً منها بأن الاستقلال السياسى وحده لا يكفى للتحرر التام .

ولما كانت الأوضاع فى مصر تنعكس على البلاد العربية الأخرى وكان من أغراض الثورة المصرية تقوية تضامن البلاد العربية ، فقد أخذ هـــذا التضامن يبرز بعد الثورة فى صور شتى . وأصبحت الشعوب االعربية تؤمن بما تؤمن به مصر ، وهو أن القومية العربية هى أقوم سبيل إلى تحرر العرب وكفالة استقلالهم ، فسلكته . وبالرغم مما يلقاه هذا الاتجاه الطبيعى من ضغط وتعويق ، فإن الشعوب العربية ماضية فى طريقها . وقد التقت إرادة الشعب السورى بإرادة الشعب المصرى ، فكانت « الجمهورية العربية المتحدة » بإعلان اتحاد الإقليمين فى شهر فبراير سنة ١٩٥٨ . وكان إعلان قيام « الدول العربية المتحدة باتحاد اليمن مع الجمهورية العربية المتحدة فى شهر مارس سنة ١٩٥٨ .

والمأمول أن يتم التضامن المرجو على أى صورة من الصور الفعالة ، وبمحض الاختيار والاستجابة لداعى المصلحة ، وذلك بفضل نضوج الوعى العربى ، ومتى انضوت الشعوب العربية تحت راية القومية العربية المنتصرة ، فسيكون العرب المتضامنون قوة فعالة تساهم مساهمة مثمرة فى إرساء قواعد السلام العالمى وتدعيمها .

مراجع الكتاب

الكتب العربية

القرآن الكريم .
تفسير القاضي البيضاوى ، طبع ليبسك .
تفسير الجلالين ، طبع القاهرة .
صحيح مسلم ، طبع القاهرة .
مسند أحمد ، طبع القاهرة .
صحيح البخارى ، طبع القاهرة .
تيسير الوصول لابن الديبع الشيبانى ، طبع القاهرة .
إعجاز القرآن للباقلانى ، طبع القاهرة .
المدونة الكبرى للإمام مالك ، طبع القاهرة .
الذريعة إلى مكارم الشريعة للراغب الأصفهانى ، طبع القاهرة .
إحياء علوم الدين للغزالى ، طبع القاهرة .
المستصفى له ، طبع القاهرة .
التفرقة بين الإسلام والزندقة له ، طبع القاهرة .
الرسالة اللدنية له ، (مخطوط) .
جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر ، طبع القاهرة .
تلبيس إبليس لابن الجوزى ، طبع القاهرة .
منهاج السنة لابن تيمية طبع القاهرة .
معارج الوصول له ، طبع القاهرة .
الحسبة فى الإسلام له ، طبع القاهرة
الجواب الصحيح له ، طبع القاهرة .
رفع الملام له ، طبع القاهرة .
الجوامع فى السياسة الإلهية له ، طبع القاهرة .
السياسة الشرعية له ، طبع القاهرة .
الواسطة وفصل المقال له ، طبع القاهرة .
الرسالة التدمرية له ، طبع القاهرة .
إعلام الموقعين لابن قيم الجوزية ، طبع القاهرة .
الفوائد له ، طبع القاهرة .

بلوغ المرام لابن حجر ، طبع القاهرة .
لسان الميزان له ، طبع حيدر آباد الدكن .
إيثار الحق على الخلق للمرتضى اليمانى ، طبع القاهرة .
تاريخ التشريع الإسلامى لمحمد الخضرى ، طبع القاهرة .
خلاصة الأثر لطاهر الجزائرى ، طبع القاهرة .
رسالة التوحيد لمحمد عبده ، طبع القاهرة .
الإسلام والنصرانية له ، طبع القاهرة .
مفتاح السنة لعبد العزيز الخولى ، طبع القاهرة .
سيرة ابن هشام ، طبع القاهرة .
الروض الأنف للسهيلى ، طبع القاهرة .
محمد المثل الكامل لمحمد أحمد جاد المولى ، طبع القاهرة .
طبقات المدلسين لابن حجر العسقلانى ، طبع القاهرة .
خمس رسائل نادرة لابن تيمية وابن المقفع والذهبى وعمر الخيام ، طبع القاهرة .
تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة ، طبع القاهرة .
السياسة الشرعية لعبد الوهاب خلاف ، طبع القاهرة .
تدريب الراوى للسيوطى ، طبع القاهرة .
علوم الحديث المعروفة بمقدمة ابن الصلاح ، طبع حلب .
أقضية الرسول للقرطبى ، طبع القاهرة .
الإسلام دين عام خالد لمحمد فريد وجدى ، طبع القاهرة .
الاعتبار فى الناسخ والمنسوخ من الآثار للحازمى ، طبع القاهرة .
ذكرى العاقل لعبد القادر الحسنى ، طبع بيروت .
المواقف له ، طبع القاهرة .
القضاة فى الإسلام لعارف النكدى ، طبع دمشق .
القضاة والنواب لشكرى العسلى ، طبع دمشق .
الإسلام وأصول الحكم لعلى عبد الرازق ، طبع القاهرة .
أدب الدنيا والدين للماوردى ، طبع القاهرة .
الأحكام السلطانية له ، طبع القاهرة .
الأحكام السلطانية لأبى يعلى ؛ (مخطوط) .
تلقيح فهوم أهل الأثر لابن الجوزى ، طبع دهلى .
صيد الخاطر له ، طبع القاهرة .
الخراج ليحيى بن آدم ، طبع ليدن .
نظام القضاء والإدارة لأحمد قمحة ، طبع القاهرة .

تاريخ الفقه الإسلامى للحجوى ، طبع فاس .
الخراج لقدامة بن جعفر ، طبع ليدن .
كتاب الديات للضحاك الشيبانى ، طبع القاهرة .
الحكم الجديرة بالإذاعة لابن رجب ، طبع القاهرة .
الفتوى فى الإسلام لجمال الدين القاسمى ، طبع دمشق .
تاريخ الرسل والملوك لابن جرير الطبرى ، طبع ليدن .
صلة تاريخ الطبرى لعريب بن سعد القرطبى ، طبع ليدن .
تاريخ اليعقوبى ، طبع ليدن .
مروج الذهب للمسعودى ، طبع باريز .
البدء والتاريخ لمطهر بن طاهر المقدسى ، طبع باريز .
تجارب الأمم لابن مسكويه ، طبع ليدن والقاهرة .
تاريخ ابن خلدون ، طبع القاهرة .
تاريخ الكامل لابن الأثير ، طبع القاهرة .
الفخرى لابن طباطبا المعروف بابن الطقطقى ، طبع غريفزولد .
المختصر فى تاريخ البشر لأبى الفداء ، طبع القاهرة .
ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسى ، طبع بيروت .
البداية والنهاية لابن كثير ، طبع القاهرة .
عجائب المقدور فى أخبار تيمور لابن عربشاه ، طبع القاهرة .
الحوادث الجامعة والتجارب النافعة فى المائة السابعة لابن الفوطى ، طبع بغداد .
إنباء الغمر فى أبناء العمر بن حجر ، (مخطوط) .
الكواكب السائرة بأعيان المئة العاشرة لنجم الغزى ، (مخطوط) .
فتوح البلدان البلاذرى طبع ليدن .
فتوح مصر لابن عبد الحكم ، طبع ليدن .
الأخبار الطوال لأبى حنيفة الدينورى ، طبع ليدن .
الإمامة والسياسة المنسوب لابن قتيبة ، طبع القاهرة .
النجوم الزاهرة فى أخبار ملوك مصر والقاهرة لابن تغرى بردى ، طبع ليدن والقاهرة .
حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة للسيوطى ، طبع القاهرة .
تاريخ بغداد لعثمان بن سند البصرى ، طبع القاهرة .
تاريخ بغداد للخطيب البغدادى ، طبع القاهرة .
تاريخ دمشق لابن عساكر ، مخطوط ومطبوع بدمشق .
تاريخ بيروت لصالح بن يحيى ، طبع بيروت .
تاريخ مصر لابن إياس ، طبع القاهرة .

المؤنس فى أخبار إفريقية وتونس لابن أبى دينار ، طبع تونس .
تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية للزركشى ، طبع تونس .
الخلاصة النقية فى أمراء إفريقية للباجى ، طبع تونس .
الذخيرة السنية فى تاريخ الدولة المرينية لمؤلف مجهول ، طبع الجزائر .
تاريخ مكة للفاكهى ، طبع ليبيسك .
أخبار مكة للأزرق ، طبع ليبيسك .
المنتقى فى أخبار أم القرى ، طبع ليبيسك .
الأعلام بأعلام البيت الحرام للنهروالى ، طبع ليبيسك .
تاريخ المدينة للسمهودى ، طبع القاهرة .
شذرات الذهب لابن العماد ، مخطوط ومطبوع فى القاهرة .
دول الإسلام للذهبى ، طبع حيدر أباد الدكن .
مختصر أخبار الخلفاء لابن الساعى ، طبع القاهرة .
الخراج لأبى يوسف ، طبع القاهرة .
طبقات ابن سعد الكبير ، طبع ليدن .
أسد الغابة لابن الأثير ، طبع القاهرة .
الإصابة فى تمييز أسماء الصحابة لابن حجر ، طبع كلكته .
طبقات الحفاظ للذهبى ، طبع غوتنغن .
ذيل تذكرة الحفاظ للحسينى وابن فهد والسيوطى ، طبع دمشق .
الوافى بالوفيات للصلاح الصفدى ، (مخطوط) .
نكت الهميان فى نكت العميان له ، طبع القاهرة .
تحفة المجاهدين فى أحوال البرتكاليين لزين الدين المعبرى ، طبع لشبونة .
تاريخ الأمم الإسلامية لمحمد الخضرى ، طبع القاهرة .
طبقات أئمة القراء لابن الجزرى ، (مخطوط) .
طبقات علماء إفريقية وعلماء تونس للتميمى والخشنى ، طبع الجزائر .
تراجم الأعيان من أبناء الزمان للبورينى ، (مخطوط) .
التكملة لكتاب الصلة للقضاعى المعروف بابن الأبار ، طبع الجزائر .
وثائق عربية صادرة عن ملوك الغرب الأقصى والشرق ، طبع لشبونة .
الدرر الكامنة فى أعيان المئة الثامنة لابن حجر العسقلانى ، (مخطوط) .
الضوء اللامع فى أعيان القرن التاسع للسخاوى ، (مخطوط) .
أخبار مصر لابن ميسر ، طبع ليدن .
الشروط والعقود السياسية بين ملوك إيطاليا والمسلمين ، طبع إيطاليا .

مرآة الزمان ليوسف سبط ابن الجوزى ، طبع شيكاغو .
زبدة كشف الممالك للظاهرى ، طبع باريز .
وفيات الأعيان لابن خلكان ، طبع القاهرة .
فوات الوفيات لصلاح الكتبى ، طبع القاهرة .
كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين لأبى شامة ، طبع القاهرة .
الذيل على الروضتين لأبى شامة ، (مخطوط) .
الفتح القدسى للعماد الكاتب ، طبع ليدن .
سيرة صلاح الدين لابن شداد ، طبع القاهرة .
تاريخ سعيد بن البطريق ، طبع بيروت
تاريخ يحيى بن سعيد الأنطاكى ، طبع باريز .
البيان المغرب لابن عذارى ، طبع ليدن وباريز .
طبقات المفسرين للسيوطى ، طبع ليدن .
طبقات الحنابلة لابن الفراء ، طبع دمشق .
طبقات الشافعية للسبكى ، طبع القاهرة .
طبقات الشعراء للجمحى ، طبع ليدن .
طبقات الأمم لابن صاعد الأندلسى ، طبع بيروت .
كتاب الولاة والقضاة الكندى ، طبع بيروت .
القضاة الذين ولوا قضاة مصر للكندى وذيله لابن برد ، طبع رومية .
تاريخ الوزراء لأبى هلال الصابى ، طبع بيروت .
كتاب الكتاب والوزراء للجهشيارى ، طبع ليبسيك .
الإشارة إلى من نال الوزارة لابن الصيرفى ، طبع القاهرة .
مناقب عمر بن عبد العزيز لابن عبد الحكم ، طبع ليبسيك .
سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزى ، طبع القاهرة .
سيرة عمر بن الخطاب لابن الجوزى ، طبع القاهرة .
طبقات الأطباء لابن أبى أصيبعة ، طبع القاهرة
أخبار الحكماء للقفطى ، طبع ليبسيك .
تاريخ حكماء الإسلام للبيهقى ، (مخطوط) .
تاريخ شارلكان لروبرتسون ، طبع القاهرة .
قلائد العقيان للفتح بن خاقان ، طبع القاهرة .
مطمح الأنفس له ، طبع القاهرة .
الإحاطة بأخبار غرناطة للسان الدين بن الخطيب ، طبع القاهرة .

أعمال الأعلام له ، طبع بلرم .
اللمحة البدرية فى الدولة النصرية له ، طبع القاهرة .
طبقات المهندسين فى الإسلام لأحمد تيمور ، (مخطوط) .
بلوغ الأرب للألوسى ، طبع القاهرة .
حماة الإسلام لمصطفى نجيب ، طبع القاهرة .
فتح مصر الحديث لأحمد حافظ عوض ، طبع القاهرة .
تاريخ مصر فى عهد الخديو اسماعيل من سنة ١٨٦٣-١٨٧٩ لإلياس الأيوبى ، طبع القاهرة .
أشهر مشاهير الإسلام لرفيق العظم ، طبع القاهرة .
الجزء الحادى عشر من تاريخ مصنف مجهول (البلاذرى) ، طبع غريفزولد .
تاريخ الأستاذ الإمام لمحمد رشيد رضا ، طبع القاهرة .
تاريخ كلدو وآثور لادى شير ، طبع بيروت .
تاريخ تونس لحسن حسنى عبد الوهاب ، طبع تونس .
ديوان التحقيق الدينى لمحمد عبد الله عنان ، طبع القاهرة .
التاريخ السرى لاحتلال انجلترا مصر لبلنت وتمهيد لعبد القادر حمزة ، طبع القاهرة
تاريخ الحركة القومية لعبد الرحمن الرافعى ، طبع القاهرة .
تاريخ اليهود فى بلاد العرب لإسرائيل ولفنسون ، طبع القاهرة .
الأنساب للسمعانى ، طبع ليدن
طبقات النحويين واللغويين للزبيدى ، طبع رومية .
طبقات النحاة للسيوطى ، طبع القاهرة .
تهذيب الأسماء للنووى ، طبع غوتنغن .
زبدة النصرة للعماد الكاتب ، طبع ليدن .
كتاب بغداد لأحمد بن أبى طاهر طيفور ، طبع سويسرا .
كتاب الباشات والقضاة لمحمد بن جمعة المقار ، (مخطوط) .
الشقائق النعمانية فى علماء الدولة العثمانية لطاشكبرى ، طبع القاهرة .
الطالع السعيد لأسماء الفضلاء والرواة بأعلى الصعيد للادفوى ، طبع القاهرة .
عجائب الآثار فى التراجم والأخبار ، طبع القاهرة .
الأنس الجليل بتاريخ القدس والخليل ، طبع القاهرة .
معجم الأدباء لياقوت ، طبع القاهرة .
مناقب بغداد لابن الجوزى ، طبع بغداد .
الذخيرة لابن بسام ، (مخطوط) .
الدارس للنعيمى ، (مخطوط) .

كتاب الجمان للشطيبى ، (مخطوط)
تاريخ مملكة حلب لابن الشحنة ، طبع بيروت .
أخبار عبيد بن شرية ، طبع حيدر آباد الدكن .
النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم للمقريزى ، طبع ليدن .
القول المستظرف فى سفر مولانا الملك الأشرف ، طبع تورينو .
خلاصة من تاريخ الأندلس إلى سقوط غرناطة على ذيل رواية آخر بنى سراج لأرسلان ، طبع القاهرة .
تاريخ سلاطين مصر والشام وحلب وبيت المقدس وأمرائها لابراهيم مغلطاى ، طبع ليدن .
البدر الطالع بمحاسن من القرن السابع للشوكانى ، طبع القاهرة .
تاريخ الدولة الرسولية للخزرجى ، طبع القاهرة .
الخلفاء الراشدون لعبد الوهاب النجار ، طبع القاهرة .
تاريخ التمدن الإسلامى لجرجى زيدان ، طبع القاهرة .
الحضارة الإسلامية لأحمد زكى ، طبع القاهرة .
تاريخ القرن التاسع عشر لمحمد قاسم وحسين حسنى ، طبع القاهرة .
كتاب الجزائر لأحمد توفيق المدنى ، طبع الجزائر
أخبار ملوك الأندلس للنويرى ، طبع غرناطة .
الاستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى للسلاوى ، طبع القاهرة .
المعجب فى تلخيص أخبار المغرب لعبد الواحد المراكشى ، طبع ليدن .
خطط الشام لمحمد كرد على ، طبع دمشق .
تاريخ نجد لشكرى الألوسى ، طبع القاهرة .
تاريخ العلويين للطويل ، طبع اللاذقية .
ذكر تملك الجمهورية الفرنساوية للأقطار المصرية والبلاد الشامية ، لنقولا الترك ، طبع باريز
لطائف أخبار الدول فيمن تصرف فى مصر من أرباب الدول للاسحاقى ، طبع القاهرة .
تحفة الناظرين فيمن ولى مصر من الولاة والسلاطين لعبد الله الشرقاوى ، طبع القاهرة .
تاريخ سنى ملوك الأرض والأنبياء لحمزة الأصفهانى ، طبع ليبسيك .
مفاتيح العلوم للخوارزمى ، طبع ليدن .
تاج العروس للزبيدى ، طبع القاهرة .
أساس البلاغة للزمخشرى ، طبع القاهرة .
غريب الحديث لابن الأثير ، طبع القاهرة .
الفهرست لابن النديم ، طبع ليبسيك .
كشف الظنون لكاتب جلبى المعروف بحاجى خليفة ، طبع القاهرة .
معجم المطبوعات العربية والمعربة لسركيس ، طبع القاهرة .

قاموس الكتاب المقدس لبوست ، طبع بيروت .
فتح الرحمن الملمى ، طبع بيروت .
دستور العلماء للأحمد نكرى ، طبع حيدر آباد الدكن .
معجم ما استعجم للبكرى ، طبع غوتنغن .
معجم البلدان لياقوت ، طبع ليبسيك .
المشترك وضعاً والمفترق صقعاً لياقوت ، طبع غوتنغن .
التحفة فى مشكل الأسماء والنسب لابن خطيب الدهشة ، طبع ليبسيك .
التقريب لأصول التعريب لطاهر الجزائرى ، طبع القاهرة .
التهذيب فى أصول التعريب لأحمد عيسى ، طبع القاهرة .
الألفاظ الفارسية المعربة لادى شير ، طبع بيروت .
المسائل والأجوبة لابن قتيبة ، طبع القاهرة .
الأوائل لأبى هلال العسكرى ، طبع القاهرة .
الشعر والشعراء لابن قتيبة ، طبع الآستانه .
المشتبه فى أسماء الرجال للذهبى ، طبع ليبسيك .
أحسن التقاسيم للمقدسى البشارى ، طبع ليدن .
المسالك والممالك لابن حوقل ، طبع ليدن .
صفة جزيرة العرب للهمذانى ، طبع ليدن .
نزهة المشتاق للأدريسى ، طبع رومية .
مسالك الممالك للاصطخرى ، طبع ليدن .
المسالك والممالك لابن خرداذبة ، طبع ليدن .
الأعلاق النفسية لابن رستة ، طبع ليدن .
المكتبة الصقلية لآمارى ، طبع ليبسيك .
أقوم المسالك لخير الدين التونسى ، طبع تونس .
السفر إلى المؤتمر لأحمد زكى ، طبع القاهرة .
رحلة الأندلس للبتنونى ، طبع القاهرة .
الرحلة الحجازية له ، طبع القاهرة .
رحلة ابن جبير ، طبع ليدن .
رحلة ابن بطوطة ، طبع باريز .
الإفادة والاعتبار لعبد اللطيف البغدادى ، طبع القاهرة .
الخطط للمقريزى ، طبع القاهرة .
غرائب الغرب لمحمد كرد على ، طبع القاهرة .

حضارة الإسلام في دار السلام لجميل مدور ، طبع القاهرة .
الإكليل للهمداني ، طبع بغداد .
مسالك الأبصار لابن فضل الله العمري ، طبع القاهرة .
كتاب البلدان لابن الفقيه الهمذاني ، طبع ليدن .
كتاب البلدان لليعقوبي ، طبع ليدن .
وثائق تاريخية وجغرافية وتجارية عن إفريقية الشرقية لجيان نقله إلى العربية ملخصاً يوسف كمال طبع القاهرة .
الارتسامات اللطاف لشكيب أرسلان ، طبع القاهرة .
صفوة الاعتبار لمحمد بيرم ، طبع القاهرة .
حضارة العرب في الأندلس لبرقوق ، طبع القاهرة .
الواسطة في أحوال مالطة لأحمد فارس الشدياق ، طبع الآستانة .
رحلة الحبشة لصادق المؤيد تعريب رفيق وحق العظم ، طبع القاهرة .
رحلة محمد علي إلى جنوبي أمريكا ، طبع القاهرة .
رحلة محمد علي إلى جاوة ، طبع القاهرة .
تأثيرات سياحة لموسى كريم ، طبع سان بولو .
البرازيل والشرق له ، طبع سان باولو .
معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار للسان الدين بن الخطيب ، طبع فاس .
مجموعة فيها ثلاث وعشرون رسالة بعضها في التاريخ الأخير ، (مخطوط) .
رحلة الأمير يشبك ، (مخطوط)
رحلة ناصر خسرو (سفرنامة) ، طبع باريز .
الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ، طبع القاهرة .
روضة العقلاء لابن حبان البستي ، طبع القاهرة .
الكامل للمبرد ، طبع ليبسيك .
نهاية الأرب للنويري ، طبع القاهرة .
الاعتبار لابن منقذ ، طبع ليدن .
الاشراف في منازل الأشراف لابن أبي الدنيا ، (مخطوط) .
رسالة الغفران للمعري ، طبع القاهرة .
رسائل الصابي ، طبع بيروت .
رسائل بديع الزمان الهمذاني ، طبع بيروت .
رسائل أبي بكر الخوارزمي ، طبع القاهرة .
رسائل القاضي الفاضل (مخطوط) .
رسائل البلغاء لمحمد كرد علي ، طبع القاهرة .

العقد الفريد لابن عبد ربه ، طبع القاهرة .
نفح الطيب للمقريزى ، طبع القاهرة .
بلاغات النساء لأحمد بن أبى طاهر ، طبع القاهرة .
زهر الآداب للحصرى ، طبع القاهرة .
المكافأة لأحمد بن يوسف الكاتب ، طبع القاهرة .
لطائف المعارف للثعالبى طبع ليدن .
يتيمة الدهر له ، طبع دمشق .
المعارف لابن قتيبة ، طبع غوتنجن .
عيون الأخبار له ، طبع ستراسبورغ والقاهرة .
شرح نهج البلاغة لابن أبى الحديد ، طبع القاهرة .
كتاب الصناعتين لأبى هلال العسكرى ، طبع الآستانة .
نشوار المحاضرة للتنوخى ، طبع القاهرة ودمشق .
الفرج بعد الشدة له ، طبع القاهرة .
معيد النعم ومبيد النقم للسبكى ، طبع القاهرة .
كتاب الحيوان للجاحظ ، طبع القاهرة .
البيان والتبيين للجاحظ ، طبع القاهرة .
التاج المنسوب للجاحظ ، طبع القاهرة .
البخلاء للجاحظ ، طبع ليدن .
المحاسن والأضداد للجاحظ ، طبع ليدن .
التربيع والتدوير للجاحظ ، طبع ليدن .
مناقب الترك وفخر السودان على البيضان للجاحظ ، طبع القاهرة .
تفضيل النطق على الصمت للجاحظ ، طبع القاهرة .
مدح التجار وذم عمل السلطان للجاحظ ، طبع القاهرة .
العشق والنساء للجاحظ ، طبع القاهرة .
الوكلاء للجاحظ ، طبع القاهرة .
مذاهب الشيعة وطبقات المغنين للجاحظ ، طبع القاهرة .
استنجاز الوعد للجاحظ ، طبع القاهرة .
ثلاث رسائل فى الكتاب والقيان والرد على النصارى للجاحظ ، طبع القاهرة .
الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير للجاحظ ، طبع حلب .
التبصرة بالتجارة للجاحظ ، طبع دمشق .

رسائل الجاحظ منتقاة من كتب لم تنشر جمعها حسن السندوبى ، طبع القاهرة .
الياذة هوميروس تعريب سليمان البستانى ، طبع القاهرة .
القديم والحديث لمحمد كرد على ، طبع القاهرة .
غرر الخصائص الوطواط ، طبع القاهرة .
الكنايات للثعالبى ، طبع القاهرة .
المضاف والمنسوب له ، طبع القاهرة .
مجمع الأمثال للميدانى ، طبع القاهرة .
المحاسن والمساوئ للبيهقى ، طبع جيسين .
الصديق والصداقة لأبى حيان التوحيدى ، طبع الآستانة .
كتاب الأوراق للصولى ، مخطوط ومطبوع فى القاهرة .
الشاهنامة للفردوسى ترجمة البندارى بتعليق عبد الوهاب عزام ، طبع القاهرة .
النكت العصرية فى أخبار الوزراء المصرية لعمارة اليمنى ، طبع باريز .
كتاب تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة للبيرونى ، طبع لندن .
مقالات الإسلاميين واختلاف المصلين لأبى حسن الأشعرى ، طبع الآستانة .
الفصل فى الملل والأهواء والنحل لابن حزم ، طبع القاهرة .
الملل والنحل للشهرستانى ، طبع القاهرة .
الفرق بين الفرق لعبد القاهر بن طاهر البغدادى ، طبع القاهرة .
الانتصار لابن الخياط ، طبع القاهرة .
ذكر المعتزلة للمرتضى ، طبع حيدر آباد الدكن .
حدوث المذاهب الأربعة لأحمد تيمور ، طبع القاهرة .
الأصنام لابن الكلبى ، طبع القاهرة .
المقابسات لأبى حيان التوحيدى ، طبع الهند والقاهرة .
اعتقادات الأمامية لبهاء الدين العاملى ، طبع بغداد .
علم الأخلاق لأرسطوطاليس تعريب أحمد لطفى السيد ، طبع القاهرة .
الأخلاق لصموئيل سميلز تعريب محمد الصادق حسين ، طبع القاهرة .
السعادة والإسعاد لأبى حسن بن أبى ذر ، (مخطوط) .
كتاب تهذيب الأخلاق ليحيى بن عدى ، طبع دمشق .
تهذيب الأخلاق لابن مسكويه ، طبع القاهرة .
مداواة النفوس لابن حزم ، طبع القاهرة .
سراج الملوك للطرطوشى ، طبع القاهرة .
آراء المدينة الفاضلة للفارابى طبع القاهرة .

ثمان رسائل للفارابى ، طبع القاهرة .
محاضرات أدبيات الجغرافيا والتاريخ واللغة عند العرب لجويدى ، طبع القاهرة .
تاريخ علم الفلك لنالينو ، طبع رومية .
محاضرات الفلسفة لسانتلانة ، طبع القاهرة .
فجر الإسلام لأحمد أمين ، طبع القاهرة .
ضحى الإسلام لأحمد أمين ، طبع القاهرة .
مبادئ الفلسفة لابورت تعريب أحمد أمين ، طبع القاهرة .
تحرير المرأة لقاسم أمين ، طبع القاهرة .
المرأة الجديدة له ، طبع القاهرة
حاضر العالم الإسلامى لوثروب استودارد تعريب عجاج نويهض بتعليق شكيب أرسلان ، طبع القاهرة .
روح الشرائع لبنتام تعريب أحمد فتحى زغلول ، طبع القاهرة .
المرأة العربية فى جاهليتها وإسلامها لعبد الله عفيفى ، طبع القاهرة .
حقوق المرأة فى الإسلام لأحمد آجايف تعريب سليم قبعين ، طبع القاهرة .
أصول الفلسفة لأمين واصف ، طبع القاهرة .
أم القرى لعبد الرحمن الكواكبى ، طبع القاهرة .
طبائع الاستبداد لعبد الرحمن الكواكبى ، طبع القاهرة .
الآثار الباقية للبيرونى ، طبع ليبسك .
رسائل إخوان الصفاء وخلان الوفاء ، طبع القاهرة .
أدب الوزير للماوردى ، طبع القاهرة .
قوانين الدواوين لابن مماتى ، طبع القاهرة .
التعريف بالمصطلح الشريف لابن فضل الله العمرى ، طبع القاهرة .
عصر المأمون لأحمد فريد الرفاعى ، طبع القاهرة .
منتخبات الجوائب لأحمد فارس ، طبع الآستانه .
تقارير كرومر عن مصر ، طبع القاهرة .
تحرير مصر تعريب محمد لطفى جمعة ، طبع القاهرة .
التصوير عند العرب لأحمد تيمور ، (مخطوط) .
تاريخ الأدب العربى لأحمد حسن الزيات ، طبع القاهرة .
الإسلام خواطر وسوانح لهنرى دى كاستر تعريب أحمد فتحى زغلول ، طبع القاهرة .
إنقاذ الغرب للإسلام لميدلى تعريب أحمد حامى البارودى ، طبع القاهرة .
الرق فى الإسلام لأحمد شفيق تعريب أحمد زكى ، طبع القاهرة .
المقارنات والمقابلات لمحمد حافظ صبرى ، طبع القاهرة .

التيسير والاعتبار للأسدى ، (مخطوط) .
الطب العربي وتأثيره فى مدنية أوربا لزكى على ، طبع القاهرة .
ساعات بين الكتب لعباس محمود العقاد ، طبع القاهرة .
فى الأدب الجاهلى لطه حسين ، طبع القاهرة .
حديث الأربعاء لطه حسين ، طبع القاهرة .
تحليل نقد الأدب الجاهلى لمحمد أحمد الغمراوى ، طبع القاهرة .
الأبطال وعبادة الأبطال لكارليل تعريب محمد السباعى ، طبع القاهرة .
لماذا تأخر المسلمون لشكيب أرسلان ، طبع القاهرة .
التربية الوطنية لعبد العزيز البشرى ، طبع القاهرة .
على بساط الريح لفوزى المعلوف ، طبع القاهرة .
مالية مصر من عهد الفراعنة إلى الآن لعمر طوسون ، طبع الإسكندرية .
الجيش المصرى فى عهد الفراعنة إلى الآن لعمر طوسون ، طبع القاهرة .
البحرية المصرية فى عهد الفراعنة إلى الآن لعمر طوسون ، طبع القاهرة .
الصنائع والمدارس الحربية والبعثات العلمية على عهد محمد على لعمر طوسون ، طبع الإسكندرية
كتاب الحيدة لعبد العزيز الكنانى ، طبع القاهرة .
آراء غربية فى مسائل شرقية لدينه وسليمان إبراهيم ، طبع بيروت .
كنوز الأجداد لمحمد كرد على ، (مخطوط)
أمراء الإنشا له ، (مخطوط) .
العقد الفريد للملك السعيد لابن طلحة الوزير ، طبع القاهرة .
آداب المعلمين ما دون محمد بن سحنون التنوخى عن أبيه ، طبع تونس .
كتاب الأذكياء لابن الجوزى ، طبع القاهرة .
الفلاكة والمفلوكون للدلجى ، طبع القاهرة .
كتاب المعمرين للسجستانى ، طبع القاهرة .
الإشارة إلى محاسن التجارة لجعفر بن على ، طبع القاهرة .
سر تقدم الانجليز السكسونيين لأدمون ديمولين تعريب أحمد فتحى زغلول ، طبع القاهرة .
أدب الكتاب للصولى ، طبع القاهرة .
النصرانية وآدابها بين عرب الجاهلية للويس شيخو ، طبع بيروت .
الآفات الاجتماعية وعلاجها لتولستوى تعريب محمد رضا ، طبع القاهرة .
مجموعة الحفيد الهروى ، طبع القاهرة .
المواهب اللدنية للقسطلانى ، طبع القاهرة .
بيان زغل العلم والطلب للذهبى ، طبع القاهرة .

كتاب السلوك لمعرفة الملوك للمقريزى ، طبع القاهرة .
أخبار الدول المنقطعة للازدى ، مخطوط وطبع أوربا .
تاريخ محبوب بن قسطنطين المنبجى ، طبع باريز .
التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار لابن غلبون ، طبع القاهرة .
تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان لابن حميد السالمى ، طبع القاهرة .
فتح العرب مصر لبتلر تعريب محمد فريد أبو حديد ، طبع القاهرة .
تاريخ العصور الوسطى لحسن إبراهيم وأحمد صادق الطنطاوى ، طبع القاهرة .
مذكرات قلينى فهمى ، طبع القاهرة .
مذكراتى فى نصف قرن لأحمد شفيق ، طبع القاهرة .
الأعلام لخير الدين الزركلى ، طبع القاهرة .
ديوان أحمد شوقى ، طبع القاهرة .
ديوان حافظ إبراهيم ، طبع القاهرة .
ديوان خليل مطران ، طبع القاهرة .
ديوان معروف الرصافى ، طبع القاهرة .
كشف الحجاب عن مذنية العرب لمحمد بن عمار الورتتانى ، طبع تونس .
الاكتفاء فى مغازى صفى والثلاثة الخلفاء للكلاعى ، طبع الجزائر .
بين أبى العلاء المعرى وداعى الدعاة الفاطمى ، طبع القاهرة .
السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات لفان فلوتن تعريب حسن إبراهيم حسن ومحمد زكى إبراهيم ، طبع القاهرة .
الاعتصام للشاطبى ، طبع القاهرة .
أخبار سيبويه المصرى للحسن بن زولاق ، طبع القاهرة
شهيرات التونسيات لحسن حسنى عبد الوهاب ، طبع تونس .
الجامع المختصر فى عنوان التواريخ وعيون السير لابن الساعى ، مخطوط وطبع بغداد .
الفاطميون فى مصر لحسن إبراهيم حسن ، طبع القاهرة .
التعرف لمذهب أهل التصوف للكلاباذى ، طبع القاهرة .
جمع الجواهر فى الملح والنوادر للحصرى ، طبع القاهرة .
الأموال لأبى عبيد القاسم بن سلام ، طبع القاهرة .
آلات الطب والجراحة والكحالة عند العرب لأحمد عيسى ، طبع القاهرة .
طوق الحمامة لابن حزم ، طبع ليدن .
الحضارة القديمة لأحمد كمال ، طبع القاهرة .
حديث عيسى بن هشام لمحمد المويلحى ، طبع القاهرة .
تاريخ العتبى ، طبع القاهرة .
خزانة الأدب البغدادى ، طبع القاهرة .

الموشح للمرزباني طبع القاهرة .
تحذير الخواص من أكاذيب القصاص للسيوطى ، طبع القاهرة .
فى المرآة لعبد العزيز البشرى ، طبع القاهرة .
اتعاظ الحنفا للمقريزى ، طبع القدس .
آثار العباد للقزوينى ، طبع القاهرة .
مجلة المقتطف ، طبع بيروت والقاهرة .
مجلة الضياء ، طبع القاهرة .
مجلة المشرق ، طبع بيروت .
مجلة المنار ، طبع القاهرة .
مجلة المقتبس ، طبع القاهرة ودمشق .
مجلة المجمع العلمى العربى طبع دمشق .
مجلة الكلية ، طبع بيروت .
لة النبراس . طبع بيروت .
مجلة الهندسة ، طبع القاهرة .
السياسة الأسبوعية ، طبع القاهرة
مجلة الرسالة ، طبع القاهرة .
مجلة المعرفة ، طبع القاهرة .

الكتب التركية :

تاريخ تدنيات عثمانية ، جلال نورى طبع الآستانة .
مقدرات تاريخية ، جلال نورى ، طبع الآستانة .
تاريخ أبو الفاروق ، مراد الداغستانى ، طبع الآستانة .
تاريخ جودت ، طبع الآستانة .
عثمانلى تاريخى ، أحمد راسم ، طبع الآستانة .
تورك تاريخى ، رضا نور ، طبع الآستانة .
قاموس الأعلام ، شمس الدين سامى ، طبع الآستانة .
أوروبا مكتوبلرى ، جناب شهاب الدين ، طبع الآستانة .
تاريخ نعيما ، طبع الآستانة .
جهان نما . كاتب جلبى ، طبع الآستانة .
تحفة الكبار فى أسفار البحار له ، طبع الآستانة .
تاريخ سياسى كامل باشا ، طبع الآستانة .
عبد الحميد ودور سلطنتى . عثمان نورى .

الكتب الافرنجية:

GUSTAVE LE BON : La civilisation des Arabes.
— Bases scientifiques d'une philosophie de l'histoire.
— La vie des vérités.
— La Révolution Française et la psychologie des révolutions.
— Psychologie politique.
— Premières conséquences de la guerre.
— Psychologie des temps nouveaux.
— Les opinions et les croyances.
— Psychologie des foules.
— La psychologie de l'évolution des peuples.
— L'évolution actuelle du Monde - Illusions et réalités.
— Lois psychologiques de l'évolution des peuples.
ALFRED FOULLLÉE : Esquisse d'une psychologie des peuples europens
— Tempérament et caractère.
LAVISSE ET RAMBAUD : Histoire Générale
SÉDILLOT : Histoire Générale des Arabes.
CLÉMENT HUART : Histoire des Arabes.
MAXIME PETIT : Histoire Générale des peuples.
PETIT DE JULLEVILLE : Histoire de la Langue et de la littérature Française.
RENÉ DUSSAUD : Les Arabes en Syrie avant l'Islam.
IGN. GUIDI : L'Arabie Antéislamique.
CHARLES DIEHL : Byzance.
— Palerme et Cyracuse.
RENAN : Mission de Phénicie.
— Histoire des Langues Sémitiques.
MONTET : L'Islam.
— L'Etat Présent et l'Avenir de l'Islam.
DOZY Histoire des Musulmans d'Espagne.
CHARLES SEIGNOBOS : Histoire de la civilisation.
— Histoire Politique de l'Europe contemporaine.
R. H. TOWNER : La Philosophie de la civilisation.
EMILE DERMENGHAM : La vie de Mahomet.

EDWARD WESTERMARCK : L'origine et le développement des idées morales.
CHARLES RICHET : Le Savant (Dans les caractères de ce temps).
MEIDLET ET MARCEL COHEN : Les Langues du Monde.
AHMED CHAFIK : L'Egypte Moderne et les influences étrangères.
G. HANOTAUX : La Fleur des histoires Françaises.
CHAGAS FRAFCO : Les gloires et lea beautés du Portugal.
PUBLCATION DE LA ROVUE HISTORIQUE : Histoire et historiens depuis cinquante ans.
MAURICE PERNOT : En Asie Musulmane.
ROBERT CHAUVELOT : Où va l'Islam ?
REINACH : Histoire des religions.
C CLEMEN : Les religions du Monde.
HERBERT. H. GOWEN : Histoire de l'Asie.
CHARLES BENOIST : Les maladies de la démocratie.
MARC SEMENOFF : Histoire de Russie.
ALFRED BERTHOLET : Histoire de la civilisation d, Israël.
GAUTIER : Mœurs et coutumes des Musulmans.
ANDRÉ SERVIER : L'Islam et Psychologic du Musulman.
LAURA VECCLA VAGLIERI : Apologie de l'Islamisme.
CARRA DE VAUX : Les penseurs de l'Islam.
JULES SIMON : Liberté de conscience.
— Liberté politique.
— Liberté civile.
MASSIGNON : L'Annuaire du monde musulman.
ALBERT MÉTIN : L'Inde d'aujourd'hui.
MARIVAUD : L'Espagne au XXe siècle.
LOUIS RAMBERT : Notes et impressions de Turquie.
BLUNTSCHLI : La politique.
HENRI SECRÉTAN . La population et les mœurs.
HENRI DAMAYE : Sociologie et éducation de demain.
CARLI : L'équilibre des nations.
JEAN MELIA : Le Coran pour la France.
H. H. ABDUL-WAHAB : La domination musulmane en Sicile.
— Coup d'œil général sur les apports éthniquesé trangers en Tunise.

B. G. GAULIS : La Question Arabe.
— Le Nationalisme égyptien.
EUGÈNE JUNG : Le rèveil de l'Islam et des Arabes.
PAUL LOUIS : Le tableau politique du monde.
A. LE CHATELIER : L'Islam dans l'Afrique Occidentalve.
— La positiou économique de l'Islam.
— La plitique musulmane.
ENCYCLOPÉDIE DE L'ISLAM.
LAROUSSE ILLUSTRÈ AVEC TOUS LES SUPPLÉMENTS.
REVUE DU MONDE MUSULMAN.
REVUE DES ÉTUDES ISLAMIQUES
B. FARIS : Lh'honneur chez les Arabes avant l'Islam.
ERNEST VON BRUYSSEL : La vie sociale et ses évolutions.
W. HEYD : Histoire du commerce du Levant au moyen âge.
MICHAUD ; Histoire des Croisades.
MOMMSEN : Histoire romaine.
LAMOUOHE : Histoire de la Turquie.
JOLLIVET CASTELOT : La loi de l'histoire.
DE HAMMER : Histoire de l'Empire Ottoman depuis son origine jusquá nos jours.
PINON : L'Europe et l'Empire Ottoman.
DE LA JONQUIERE : Histoire de l'Empire Ottoman.
A. ROUMANI : Essai historique et technique sur ladette publique ottomane.
COURNOT : Considérations sur la marche des idées et des événements dans les temps modernes.
CHRISTOPHER DAWSON : Les origines de l'Europe et de la civilisation européenne.
LEVI-PROVENÇAL : L'Espagne musulmane au Xème siècle.
RENÉ MARTIAL : La race française.
JOHAN HJORT : La crise de la vérité.
THÉODORIC LEGRAND : Histoire du Portugal.
LOUIS HALPHEN : Les Barbares.
HERRIOT : Créer.

